

جولة أثرية

أحمد وصفي زكريا

دار الفكر

بسم الله الرحمن الرحيم



أحمد وصفي زكريا



وصف طبغرافي تاريخي أثري عمراني للبقاع والبلدان الممتدة
من شمالي الأسكندرونة إلى أبواب دمشق

دار الفكر

الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م
ط ١ : ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م
تم تنقيحها وتصحيحها وإعداد فهارسها المعينة
في قسم التحرير بدار الفكر



طبع بأجهزة (C. T. T. السويسرية) للصف التصويري ،
وبالأوفست في دار الفكر هاتف (٢١١١١٦٦/٢١١٠٤١) ، برقياً (فكر)
ص.ب (٩٦٢) دمشق-سورية Tx FKRMGS 411745 Sy

مقدمة الكتاب

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض ﴾ [غافر : ٨٢]

لما كنت مفتش أملاك دولة الشام[1] في سني ١٣٤٤ ـ ١٣٥٢ هـ ، وأكلف من حين إلى آخر بالتجوال في تلك الأملاك الشاسعة ، كنت أنتهز الفرص بسائق الولع ، فأستقصي أوصافها من نواحي الطبيعة والزراعة والعمران ، وأنساب الحاضرة والبادية من السكان ، وأستنفض المباني التاريخية والخرب الداثرة ، وأجمع ماأراه وأسمعه وأقيده . وكنت كلما وجدت وقتاً وسبيلاً ، أتعدى تلك الأملاك إلى غيرها من البقاع والبلدان فأجوبها باحثاً ومنقباً بقدر المستطاع . وإذا عدت إلى دمشق ، أرجع فيما رأيته إلى ما يكون قد كتبه عنها المؤرخون والجغرافيون العرب ، والرحالون والأثريون الإفرنج ، فأقارن ماعلمته بما قرأته ، وأستخلص منها زبداً أتحين الفرص لنشرها .

وكان مما يشجيني أنني لم أجد كتاباً عربياً يصف أحوال بلادنا وصفاً يعرف به المتجول الكوائن الطبيعية ، من جبال وأنهار ونجود وأغوار ، وعمران المدن والقرى في العهود الغابرة والحاضرة ، وحالة المصانع القديمة ، والأماكن الأثرية وسبب بنائها وكيفيته ، ومسافة الطرق والمسالك واتجاهاتها ، إلى غير ذلك من الأبحاث التي تدعى بعرف الإفرنج (الطبغرافية التاريخية) . فجغرافيو العرب القدماء وضعوا مؤلفات جديرة بكل

---

(١) عنيت بالشام البلاد التي تدعى سورية . وقد احتفظت في كتابي هذا بالاسم الأول وهجرت الثاني ، لأنه هو الذي عرفه العرب ، واصطلحوا عليه في أحاديثهم وكتبهم ، فقالوا دمشق الشام وطرابلس الشام وثغور الشام . إلخ ..

إجلال وإطراء ، ذكرت بعضها في قائمة مصادر كتابي ، وقد اقتبست منها نبذاً غير يسيرة ، لكن مؤلفاتهم عامة لاخاصة ، ليس فيها من الأبحاث التي كنت أنشدها القدر الذي يفي بحاجتنا في هذا العصر ، بعد أن تغيرت البلاد ومن عليها . وكتبنا الجغرافية الحديثة الخاصة بالبلاد الشامية جعلها أصحابها وجيزة ، إن وفت بحاجة المدارس ، لاتنقع غلة الباحثين والسائحين بحال . أما الإفرنج فقد أحاطوا علماً بكل أصقاعنا ، فلم يغادروا مدينة من مدننا وخربة من خربنا وبادية من بوادينا إلا وجاسوا خلالها ، واستقرؤوا صامتها وناطقها ، وأجادوا وصفها من النواحي التي ذكرتها آنفاً ، وألفوا فيها مجلات تفوق الحصر بعددها ، نقرؤها بكثير من الإعجاب والإكبار ، وإن اختلفت وجهات أصحابها وغاياتهم عنا ، أخص بالذكر منها ، تلك الكتب الصغيرة الحجم ، الدقيقة الحروف ، المختصة بدلالة السائحين ، ككتب (إيزامبر وشوفة وبيديكر وبرنابة ومونمارشة) وغيرهم ، الذين لم يقتف أثرهم أحد منا بعد ، حتى أصبح هؤلاء الإفرنج يعرفون بلادنا معرفة تامة ، ليس لأكثر خاصتنا ـ دع العامة ـ نصيب من بعضها لفقدان أمثال تلك الكتب لدينا ووفورها لديهم .

فقد كنت وأنا أتوغل في هذه الأبحاث ، أرى بكثير من الأسف ، أن جل مثقفينا ومفكرينا لايعرفون من شؤون مساقط رؤوسهم ، وجغرافيتها وتاريخها القديمين والحديثين ، ولا من بقاعها ومصانعها الأثرية ، ومفاخرها التليدة ، ومدافن رجالاتها البارزة وتراجمهم قدراً كافياً ، ناهيك مايختص من ذلك ببقية البلاد الشامية القريبة منهم ـ خل عنك النائية ـ وتراهم في هذه المواضيع ، في غفلة جد مخجلة ، تجاه الغرباء والأجانب إذا حاولوا أن يسألوهم يجمون أو يجمجمون . ورأيت أن الولع بالسياحة ، والتجوال عندنا في منتهى القلة ، على حين أننا أمرنا بالسير في الأرض ، والاعتبار بآثار من كانوا قبلنا وعواقبهم ، وشعراؤنا قديماً لم يقصروا في مدح السفر وتعداد فوائده ، وأسلافنا على قلة الوسائل وصعوبتها في عهدهم ، لم يتوانوا عن السياحة والتطواف ، بداعي الحج أو طلب العلم أو التجارة أو غيرها . ومن تجول وانتقل منا في يومنا إلى غير بلدته ، لايفكر إلا بارتياد أماكن اللهو والفرج ، أما الخطط القديمة والمباني التاريخية ، والمعاهد التي فيها فائدة الاطلاع على عمران تلك البلدة ومعارفها وصناعتها وزراعتها فقل من يحفل

بها ، وأقل من ذلك أن يعمد أحد هؤلاء الحافلين للبحث والكتابة عنها ، كما كان يعمل الآن الغربيون الولوعون بتدوين ونشر ما يرونه ويسمعونه ، لاسيما إذا كان فيه أبحاث قيمة وأخبار طريفة .

ورأيت أن كثيراً من مدننا وكورنا ـ جمع كورة[1] ـ القديمة ، ما برح مفكروها مقصرين في تدوين تاريخ بلدتهم أو كورتهم ، ووصف عمرانها الغابر والحاضر ، على النحو الذي عمله بعض أسلافنا وبعض معاصرينا . فقد ذكر كاتب جلبي ، صاحب (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) ، أسماء تورايخ بعض المدن الشامية وغير الشامية ، لا أثر لمعظمها الآن . منها عدة تواريخ لكل من دمشق وحلب والقدس ، وواحد لحماة لم يصرح باسم مؤلفه ، ومنها اثنان لحمص أحدهما لابن عيسى ، والثاني للقاضي عبد الصمد بن سعيد ، وقد نوه ياقوت في معجمه بهذا مراراً ، وواحد للرقة لأبي علي محمد بن سعيد القشيري ، وواحد لصفد للقاضي شمس الدين العثماني . وقد اطلعت فيما اطلعت عليه من آثار معاصرينا على ثلاثة تواريخ للشام كله ، واثنين لحلب ، وواحد لدمشق ، ومثله لحماة ولبعلبك ولصيدا ولحيفا وللناصرة ولزحلة ولصيدنايا ولمقاطعة كسروان . بينما لا تزال أكثر مدننا القديمة مقصرة في هذا الموضوع الهام ، أخص بالذكر منها حمص وأنطاكية واللاذقية وطرابلس والمعرة ونابلس وعكا ويافا وغزة ، فضلاً عن الكور التي ـ وإن لم تحتو على بلدة ممتازة ـ تؤلف بمجموع قراها بيئة ذات تاريخ واحد ، كحوران والبقاع ، والبلقاء والجزيرة الفراتية ، وغيرها .

ورأيت أيضاً أن الأسر الكبيرة المدعية بعراقة النسب وأثالة الحسب ، جل أبنائها في غفلة عن ماضيهم ، لا يعرفون أسماء أجدادهم الأقرباء ، دع أسلافهم البعداء ، ولا يحيطون بتاريخ أسرتهم ومنشئها ، وكيفية مجيئها إلى موطنهم الحالي واستقرارها ، وأوسعهم اطلاعاً لا يروي لك عن أسرته وأسماء أفرادها الحاضرين والغابرين وأحداثهم إلا نتفاً ، لا تستند في الغالب على برهان معقول ، ولا تخلو من شائبة التناقض أو المبالغة . ومن الغريب أن

---

(١) قال ياقوت الحموي في مقدمة كتابه معجم البلدان : الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها .

كثيراً منهم يتوق إلى ربط سلسلته بحلقة أحد ال بيت الرسول ، أو أحد الصحابة ، أو الأولياء الأبرار ، أو أحد الملوك والأمراء الأخيار ، وقل من يستطيع أن يؤيد مدعاه بوثائق مكتوبة أو شجرات محفوظة ، مما يجعل الشك في بعض دعاوي الأنساب عندنا يسود على اليقين .

هذا وبينما كنت أتدبر كيفية الشروع في كتابة رسالة تسد بعض هذه النواقص الظاهرة لدينا ، عثرت على رحلة السائح التركي الشهير المعروف بـ (أولياجلبي) ، فرأيت أن أجعل القسم المختص منها بالشام أساساً لما أكتبه ، فبادرت لتعريبه بتصرف ، وعلقت عليه شروحاً كانت في البدء مختصرة ، ثم استطالت بحكم الاستحسان الذي رأيته من بعض ذوي الفضل والتقدير ، حتى فاقت على الأصل وأربت . وقد نشرت قسماً غير يسير منها عام ١٣٥١ هـ ، في المجلد الثاني عشر من مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق تحت عنوان (رحلة أوليا جلبي) . ولما رأيت توالي ذلك الاستحسان ، لاسيا وهي الأولى من نوعها في لغتنا العربية ، وقع في نفسي أن أحورها وأطولها ، وأطبعها على حدة باسم (جولة أثرية في بعض البلاد الشامية) .

وقد وضعت الآن رحلة (أوليا جلبي) في بدء كتابي هذا وحدها ، ووضعت الشروح التي نوهت عنها بعدها ، فجعلتها جولة قائمة بنفسها ، تجتاز الطريق التي سلكها الجلبي من طرسوس وآذنة ، إلى مسيس وبياس والأسكندرونة ، وجبل اللكام وبيلان ، وسهل العمق وأنطاكية ، وجبل القصير وجسر الشغر ، وسهل الغاب وقلعة المضيق ، وقلعة شيزر وحماة والرستن ، وحمص وحسية ، والنبك والقطيفة ، إلى باب دمشق . فوصفت ما يراه السائح في هذه الطريق ، من الكوائن الطبيعية كالجبال والأودية ، والحزون والسهول ، والأنهار والبحيرات ، وما عملته أيدي البشر ، كالمدن والقرى ، والمسالك والقلاع ، والحصون والخانات ، والمساجد والديارات ، والبيع العامرة والداثرة ، ومواقع المعارك الهامة ، وكلما وجدت مجالاً ونفعاً ، توسعت في البحث إلى البقاع المحيطة بهذه الطريق أيضاً ، ودرجت خلاصة تاريخ تلك المدن والبقاع ، وأحداثها الخاصة ، وسردت الفرق بين عمرانها السابق واللاحق ، وذلك على نهج الأثريين والمستشرقين الإفرنج ، في التوصيف والتبيين ، مع الإشادة بمآثرنا العربية ، والتنويه بذكرياتنا القومية .

ومعظم هذه الأوصاف ، مما رأيته بعيني ، وتحققته بنفسي ، أو بالواسطة الوثيقة ـ على عسرة نواله ـ أو مما عثرت عليه فيما ظفرت به ، من الكتب الجغرافية والتاريخية ، والرحلات القديمة والحديثة ، العربية والتركية والإفرنجية ـ على تفرقه في تضاعيف السطور ـ فجاء في الكتاب وافياً على ما أظن ، ببعض حاجة من يقدر هذه الأبحاث قدرها ، ويعرف مبلغ التعب والنشب اللذين تتطلبهما ، لأنني مهما أسهبت ، أعتقد أن المجال حتى في هذه الجولة القصيرة مابرح واسعاً ، وأن فوق ماتجولت وكتبت أماني حالت دون استكمالها عقبات ومثبطات .

وهذه الأبحاث كما يعلمها العارفون ، تقوم في الغرب بمساعي رجالات وبعثات ، تمدها الجميعات أو الجامعات بالمال ، وترعاها الدول بالعناية والحماية . وإذا جاء أحد هؤلاء إلى بلادنا ، وعمد للبحث والتدوين ، أعانه على ذلك ذوو الحول والطول ، من أبناء قومه المنبثين عندنا في الصحراء والحاضرة ، والمشرفين على كل عمل ودائرة ، وتهافتوا إلى إطلاع ذلك الباحث ، على مالديهم من التقارير والأضابير ، أو أجابته عن أسئلته ، أو هدايته إلى الأشخاص والأماكن والمباني ، المتعلقة بهذه المواضيع المحتاجة لكثير من الموآزرين . بينما أحدنا لايحلم بمثل هذا المدد والعناية ، والتنشيط والهداية ، وليس له سوى التعويل على نفسه ونفيسه الضئيلين فقط ، وحسبي أن أكون قد استرعيت الأنظار ، نحو هذه الأبحاث الطريفة ، ليقوم غيري من أبناء هذه البلاد ، فينسج على هذا المنوال ، ويأتي فيها بأحسن وأصح الأقوال ، والله ولي التوفيق .

دمشق في ربيع الثاني ١٣٥٣ هـ
تموز ١٩٣٤ م

أحمد وصفي زكريا

رحلة أوليا جلبي

محمد ظلي أفندي المعروف بأوليا جلبي ، أي الولي الفاضل : سائح تركي شهير من رجال القرن الحادي عشر الهجري (ولد في سنة ١٠٢٠ هـ وتوفي في سنة ١٠٩٠ هـ) وهو آباظي قفقاسي الأصل ، ولكنه ولد وترعرع في استانبول ، كان في صباه ذا صوت جميل ، ساقه للولع بفنون الأدب والموسيقى . ففي ذات يوم في رمضان سنة ١٠٤٥ هـ ، بينما كان يتلو القرآن في جامع آيا صوفيا ، أعجب السلطان مراد الرابع بحسن تلاوته ، فرفعه إلى قصره وجعله من ندمائه ، إلا أن تلك النعمة والأبهة ، اللتين صادفهما أوليا جلبي في القصر ، كانتا محاطتين بضروب التقييد والحصر ، فلم تروقا لعينيه ، ولم تتفقا مع خفته وظرفه ، وحبه للحرية والانطلاق ، وشغفه بالسفر وجوب الآفاق . فغادر القصر بعد مكوث سنتين ، وراح يجول في الأمصار التي كانت تتألف منها السلطنة العثمانية المترامية الأطراف في ذلك العهد ، تارة لوحده وتارة بصفة إمام ونديم في بطانة كبار الوزراء والقواد ، لاسيا مع قريبه ملك أحمد باشا ، أحد صدور ذلك العهد البارزين ، ورافق أهم الجيوش التي ساقتها الدولة العثمانية إذ ذاك في الشرق والغرب ، وحضر الحروب ، وبهذا تسنى له أن يرى أكثر بلاد الأناضول ، والروملي والقفقاس ، ووصل إلى جزيرة كريت ، وجال أيضاً في بعض أنحاء إيران بمهمة رسمية ، وذهب مرة صحبة رجال السفارة العثمانية المرسلين إلى فينا عاصمة النمسا ، فتوجه منها إلى ألمانيا وهولاندة ، وبولونيا وروسية ، ورجع إلى استانبول عن طريق جزيرة القرم . وقد وضع في وصف رحلاته العديدة ، عشرة مجلدات كانت محفوظة برمتها في مكتبة برثو باشا في التكية السليمية في أسكدار ، طبع منها أحمد جودة صاحب جريدة أقدام في سنة ١٣١٤ هـ . وبعدها أربعة مجلدات ، ووقف بعد عن طبع البقية .

ورحلة (أوليا جلبي) تعد عند الترك من الآثار القيمة ، التي يفخرون بها ، لما تضمنته من بيان عمران البقاع ، والبلدان التي شاهدها ، ووصف مناظرها ومبانيها ،

وأحوال سكانها ، وصفاً جميلاً في أسلوبه وحسن بيانه ، تتخلله طائفة من النبذ الجغرافية والتاريخية ، والاجتماعية والفكاهية ، لولا أن فيها شيئاً غير يسير من شوائب المبالغة والأحاديث الخرافية ، التي كان يعنى الجلبي بها ، شأن رجال تلك الأيام .

ولم تفت الجلبي من الأقطار العربية الشام ومصر والحجاز . جاء مرة إلى دمشق سنة ١٠٥٨ هـ ، صحبة الوزير مرتضى باشا الكرجي المعروف بالسلحدار ، المعين نائباً على بلاد الشام ، وذهب معه لما جرد جنده لجباية الأموال الأميرية ، من الدروز وغيرهم في جنوب جبل لبنان وأنحاء صفد ، وأرسله الباشا في غيرها بمهمة إلى غزة ، فمر بأكثر مدن الشام الشمالية والجنوبية ، وعرفها ووصفها في المجلد الثالث الخاص برحلته هذه ، وهذا هو المجلد المطبوع الذي ظفرت به وعولت عليه . أما المجلد التاسع ، الخاص برحلة أخرى له إلى بلاد الشام والحجاز ، والذي أظن أن فيه تفصيل أوفى ، فقد ظل مخطوطاً في مكتبته . وقد قصرت يدي عن بلوغ هذا المجلد ، ولم يعد ثمة أمل برؤيته مطبوعاً ، بعد أن أبدل الترك الأحرف العربية باللاتينية ، وقضوا على فكرة طبع المخطوطات القيمة المدفونة في خزائن مساجدهم .

وقد استرعت رحلة هذا السائح التركي أنظار علماء المشرقيات في أوروبا ، فترجموا منها ما يختص ببلادهم ، إلى اللغات الألمانية والإنكليزية والمجرية . لذلك أحببت أن أحذو حذوهم ، فأنقل إلى لغتنا وصف البلاد الشامية ، التي زارها صحبة مرتضى باشا ، حسبما درجه في المجلد الثالث ، وفي ظني أن في ذلك ما يفيد معرفته ، من الأوضاع الجغرافية والحالات الاجتماعية التي كانت قبل ثلاثة قرون . وقد تصرفت في عبارة الجلبي ، وحذفت منها ما ليس في ذكره نفع ، وعلقت عليها نبذاً في ترجمة الأشخاص ، وذكر أسماء المدن والقرى التي كانت في طريقه أو حوله ، مما فاته بيانه ، ووصفت منها بعض ما تسنى لي زيارته ورؤيته ، أو العثور على ذكره في الكتب الجغرافية والتاريخية ، والرحلات القديمة والحديثة ، وعنيت بسرد الفرق ؛ بين حالتها حينما مر بها الجلبي وحالتها الحاضرة .

وقبل الشروع بسرد الرحلة ، لابد من التنويه بأن المحبي صاحب كتاب (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر) ـ وقد ترجم كثيراً من فضلاء الترك وأعيانهم في ذلك

العهد ـ لم يذكر اسم (أوليا جلبي) على الرغم من أن هذا جاء الشام ، وساح فيها ومكث في دمشق مدة ، ولم يترجم أيضاً مرتضى باشا ، الذي حضر الجلبي في حاشيته ، وظل والياً في دمشق نحو نصف سنة ، وبعد التحري وجدت ذكر هذا الباشا في كتاب (الباشات والقضاة) تأليف محمد بن جمعة المقار ، الذي منه نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسي في مكتبة مجمع اللغة العربية في دمشق ، قال : وفي سنة ١٠٥٨ هـ تولى دمشق مرتظا باشا (كذا) ، فلما جلس أمر بالمسير وعسكر دمشق بالركوب على أرض صفد ، فلما وصل نصب أوطاقه وأعيان دمشق ، فاستقام هناك مدة ، فخرج بعض أغواته وبعض أعيان دمشق يلعبون بالجريد ، فصاب بعض أغواته جريدة فقلعت عينه ، فحقد الباشا المذكور على أعيان دمشق وبغضهم ، فهجموا على أوطاقه وقطعوه ومزقوه ، ورجع عسكر دمشق إلى الشام ، فبعد عشرة أيام رجع ودخل إلى السراية ، فما استقر مدة إلا وجاء بعزله فعزل ، وسار إلى استانبول فصار وزير أعظم ، وما قدره الله بشيء انتهى بالحرف . وأخيراً : عثرت عرضاً في كتاب المحبي على ذكر مرتضى باشا في صدد ترجمة عبد السلام المرعشي ، أحد أعيان الجند بالشام ، وصاحب الحول والطول في ذلك العهد . قال المحبي : وكان عبد السلام لما وجهت نيابة الشام لمرتضى باشا الكرجي ثانية ، في سنة سبع وستين وألف ، وتصرف بها متسلمه اضطرب لذلك اضطراباً شديداً ، لما كان قد وقع له من المعاداة في توليته الأولى ، فأخذ يدبر أشياء لمدافعته ، ثم أداه اجتهاده إلى أن جمع جمعاً عظيماً في الجامع الأموي ، وأحضر أكثر أهل البلدة ، وذكر لهم ظلمه ، وأشار عليهم بأن لا يرضوه حاكماً عليهم ، وكان نائب الشام السابق المعروف بالسلاحدار[1] لم يخرج بعد من دمشق ، وكان مقيماً بالميدان الأخضر ، فذهب القوم إليه ، وأبرموا عليه أن يبقى نائباً وكتبوا في هذا الشأن عروضاً ومحاضر ، وأرسلوها إلى الأبواب السلطانية ، وخرج متسلم مرتضى باشا هارباً ، ولما وصل إليه وهو في الطريق ، أرسل إلى الباب السلطاني يعلمهم بما وقع . فقرر في نيابة الشام بخط شريف ، فلم يمكنوه وأظهروا الممانعة ، وجمعوا جمعاً عظيماً من أوباش الشام ، وعزموا على محاربته ، وطلعوا إلى قرية دوما وهم في جيش عرمرم ، وكان مرتضى باشا وصل إلى القطيفة ، فلما سمع بخبرهم ولى راجعاً ولم يدخل دمشق أ هـ .

---

(١) كان اسمه محمد باشا ، وهو الذي رمم مأذنة جامع المعلق ، على ضفة بردى بين الحواصل ، سنة ١٠٥٨ هـ .

فيظهر من هـذا ، ومما عثرت عليه في (التقـويم السنـوي لـولايـة سـوريـة) لسنـة ١٣٠٤ هـ ، أن مرتضى باشا عين لنيابة الشـام مرتين ، الأولى في سنـة ١٠٥٨ هـ حينمـا جـاء معه (أوليا جلبي) ودخل بموكب عظيم ، واستقبلته جنود دمشق وأعيانهـا ، استقبـالاً فخماً كما سيأتي بيانه . على أن هـذا البـاشـا كان جبـاراً عـاتيـاً ، خـاصم أعيـان دمشق ، كما ذكره صاحب كتاب الباشات والقضاة ، فعزل بعد أربعة أشهر ، لكنه عاد للمرة الثـانيـة في سنـة ١٠٦٧ هـ ، فلم ترض به جنود دمشق وأعيانها ، واضطروه للرجوع ، فنقمت الدولـة بسبب ذلك على عبد السلام المذكور ورفقائه ، الذين قادوا هـذه الفتنـة ، وكان من جملتهم الأمير منصور الشهابي وابن عمه الأمير علي ، فقتلتهم جميعاً تبـاعـاً ، وصـادرت أموالهم وأملاكهم ، وفاقاً لعوائد تلك الأيام ، وأعـادت مرتضى بـاشـا ، فبقي هـذه المرة خمسـة أشهر ، ثم عزل ثانية .

أما الرحلة فهي كما يأتي :

كان (أوليا جلبي) يتدبر قضاء فريضة الحج ، فانتهز فرصة سفر مرتضى باشـا المعين نائباً على الشام ، وصار نديمه ورئيس المؤذنين والأئمة في بطـانتـه . وكانت قـافلـة البـاشـا مـؤلفـة من مئـات الحـواشي والأتبـاع والجنـد ، وألـوف الركائب والبغـال المثقلـة بـالعتـاد والأمتعة ، شأن قوافل الباشوات العظام في ذلك العهد ، وغادر مـدينـة أسكـدار في غـايـة شهر شعبان سنة ١٠٥٨ هـ ، التي جلس فيها السلطان محمد خان الرابع على كرسي آل عثمان ، وهو بعد صبي ابن سبع سنوات ، وراح الجلبي يتنقل مع تلك القـافلـة في بلاد الأنـاضول ، كأزنيق وأسكي شهر ، وآق شهر وقونية ، وأركلي وأولوقيشلـة ، ووقف برهـة في نجود جبـال طوروس ، ووصف طيب مناخها وجودة مراتعهـا ، ودخل من مضيق (كولـك بوغـازي) ووصف قلعته الشاهقـة ، ثم أقبل على سهول آذنـة ، ووصف قطعـان الجواميس الضخمـة ، التي شاهدها في بطائحها ، وأن منها ماهو خاص بالدولـة ، تعده لجر المـدافع الثقيلـة ، ثم وصـل إلى آذنـة ، وبعـد أن ذكر أنـه وصفهـا في المجلـد الخـاص بسفرتـه إلى الحجـاز ، ذكر اجتيازه جسرها ذا الست عشرة قنطرة ، المبني على نهر سيحـان ، ثم ذكر وصولـه إلى قلعـة مسيس . ثم قال : غادرنا مسيس واجتزنا مضيقاً اسمه (الجـاق بل) ، كنـا نرى فيـه قلعـة شاهمران على يسارنا فوق صخرة عاليـة ، ثم اجتزنـا منزلاً اسمـه (قورت قولاغي) ومكثنـا

فيه مدة ، ثم وصلنا إلى مكان مخوف وخطر ، اسمه (دمير قبو) رأينا فيه آثار جدار عظيم ، كان فيه باب من حديد ، وهناك قلعة خربة ، فوق أكمة جرداء ، وما زال أكراد ناحية الجومة يأتون إلى هنا ويقطعون السابلة . وبعد أن اجتزنا هذا المحل الموحش وصلنا إلى بياس .

وقد وصف (أوليا جلبي) قلعة بياس ، ودورها وبساتينها ، ودار مكسها وميناءها ، وخانها وجامعها ، الذي بناه (محمد باشا الصوقوللي) الصدر الأعظم الشهير ، وأثنى على أهلها ، لأنهم كانوا يردون عادية قرصان البحر ، ويحرسون المسالك والمضائق ، الممتدة شمالي بياس وجنوبها ، من شر لصوص الجبال ، ويسهلون سبيل الحجاج والتجار المارين ببلدتهم ، من بر الترك إلى بر الشام وبالعكس ، ونوه بشدة حرها في الصيف ورداءة هوائها ، واضطرار أهلها إلى الاصطياف في النجود والهضاب المحيطة بهم ، وذكر أن ألوفاً من الأكراد والتركمان أصحاب قطعان الغنم والماعز يتسلقون هذه النجود في فصل الصيف ، ويطلقون مواشيهم ، ترعى أعشابها الغضة ، وتشرب مياهها النميرة .

ثم قال : وبعد أن مكثنا في بياس يومين ، غادرناها واجتزنا في جنوبها جسراً متقن الصنع ، ذا أربع منافذ من آثار محمد باشا الصوقوللي ، ووجدنا في قربه على شاطئ البحر ، تكية باسم الشيخ عبد القادر الكيلاني ، عامرة الأركان آهلة بالدراويش ، ثم استأنفنا المسير نحو القبلة ، فمررنا بتكية ثانية أصغر من الأولى ، فيها بضعة دراويش ، ينتسبون إلى الطريقة البكتاشية ، ثم اجتزنا جسراً نصب على نهر ، تجتمع مياهه من الأودية المنحدرة من أعالي الجبال التي ذكرناها ، وتصب في البحر . وعلى مقربة من هذا الجسر ، مررنا بقلعة تدعى قلعة المركز ، تبعد عن البحر رمية سهم بنيت في سفح جبل عال ، وهي مربعة الشكل ذات بناء جميل ، قيل إنها من عهد القياصرة . ولما مر السلطان سليم من هذا المكان سنة ٩٢١ هـ ، وهو ذاهب للاستيلاء على مصر افتتحها بالأمان ، وهي الآن تابعة لنيابة بياس ، وفيها قائد وعدة جنود ، وحولها كروم وبساتين ، وفي داخلها جامع وبضعة بيوت لسكنى الجنود .

وبعد أن اجتزنا هذه القلعة ، مررنا في ساحل البحر بمضيق يدعى (صقال طوتان

= قـابض الـذقون) ، لاتنقطع والعيـاذ بـالله منـه اللصوص وقطـاع الطريق ، وجلهم من أشرار الأكراد ، الذين يهبطون من ناحية الجومة من أعمال حلب . لذلك يجدر بالمجتـازين من هنا ، أن يكثروا من الحيطة والحذر . وبعـد أن مررنـا بمكان يـدعى (آجي جـاي = النهر المر) ، وصلنا بعد ساعتين ونصف إلى قلعة أسكندرونة .

وصف الأسكندرونة ـ سميت هذه البليدة باسم بانيها إسكنـدر الكبير ، وبعـد أن خربتها عوادي الزمن عمرت في أول عهـد الإسلام ، ثم خربت مرة أخرى ، وصـارت ملجـأ لقطاع الطرق وقرصان الإفرنج ، فاسترعى هذا الحـال نظر نصوح بـاشـا الـذي كان صـدراً أعظم في زمن السلطان أحمد خان ، فشرع ببنـاء قلعـة حصينـة في الأسكنـدرونـة ، ولكن السلطان نقم عليه بعد حين ، لتهامل بدى منه فقتله ، وبقيت القلعـة دون إكمال ، وحبـذا لو أكملت هـذه القلعـة ، وجـدد عمران الأسكنـدرونـة ، لأنهـا فرضـة بحريـة ، ذات مكانـة وقريبـة من حلب نحـو مرحلتين ، وقـد علمت أنـه يـزورهـا في كل عـام من سفن المسلمين والإفرنج أكثر من مئتي غليـون . هـذا وحرمـان هـذه الفرضـة من قلعـة ، جعـل الإفرنـج يتقاعسون عن دفع المكوس إلى الملتزم ، الذي التزمهـا بمئتي حمل[1] ، وللأسكنـدرونـة قـاضٍ يجبي من قراها خمسة أكياس[2] . ولها ميناء لطيف ، لولا أن غربيه مكشوف يـأتي بـالرمل فيحول دون اقتراب السفن من الشـاطئ ، ويضطرهـا للرسو على بعـد رميـة مـدفع . وإلى الغرب من ميناء الأسكندرونة ، وعلى بعـد ٢٦٠ ميلاً بحريـاً[3] ، يوجـد رأس أنـدراوس في جزيرة قبرص ، وقد قيل لي أنـه إذا اعتـدل الهواء وصفـا أديم السماء ، ترى من هنـا جبـال قبرص المجللة بالثلوج ، أما أنـا فلم يتسن لي رؤيـة ذلـك . ويكثر وجود الإفرنج والروم في الأسكندرونة ، لهذا لا تجد فيها جامعاً أو خاناً أو سوقاً سوى الحانات ، فـإنهـا كثيرة ، وقـد اعتاد الصادي والغادي إلى الأسكندرونـة أن يمكث ليـالي الشتـاء في هـذه الحـانـات ، حتى صارت تشبه الخانات . ويجلب الماء إلى الأسكندرونة على ظهور الحمير من نبع في خـارجهـا يـدعى نبع القوافل ، وقـد اعتـاد الـداخلون إلى هـذه البلـدة والخـارجون منهـا أن يضربوا

(١) إذا كان الحمل مئة ألف قرش ، فالمئتا حمل تعادل عشرين مليوناً من القروش ، ولعل الجلبي مبالغ بهذا المبلغ .

(٢) الكيس خمسمئة قرش .

(٣) صحيحه مئة وخمسة أميال .

خيامهم قرب هـذا النبع . وفي الأسكنـدرونـة وكلاء أو قنـاصل لسبع دول ، أمـا القنـاصل الأصليون فمركزهم في خان الإفرنج في حلب . ولما كانت الأسكندرونة فرضة بحرية وبـاب تجارة لحلب وضواحيها ، تجد بجانب جمركها مخازن عظيمة ، يقوم فيها تجـار الإفرنج بـالبيع والشراء دون انقطاع . حتى أنه لما مر مولانا مرتضى باشا من هنا بموكبه الحـافل ، كان من سفن الإفرنج ستة وعشرون غليوناً راسياً في الميناء ، فأطلق كلها المـدافع ترحيبـاً بجنـابـه ، ودام الإطـلاق مـدة غير يسيرة ، حتى كادت الغـلايين لاترى من كثرة النـار والـدخـان . وتحيط بالأسكندرونة مستنقعات . ثم قمنا من هنا مع الركب ، فمررنـا بنبع القوافل وسرنـا نحو القبلـة ، نحـاذي السـاحل تـارة ، ونصعـد في الجبـال أخرى ، وكان المطر ينهمر علينـا بشدة ، إلى أن وصلنا إلى بليدة تدعى بيلان .

وبيلان مركز قضاء يتبع أيالـة حلب ، فيهـا نحو ثلاثـة آلاف من السكان ، ودورهـا مبنية من الطين على طرفي جبلين متقـابلين بينهما واد ، وهـذه الـدور يركب بعضهـا فوق بعض ، وتتخللها أزقة ضيقة ، وهواء بيلان جيد ، وماؤها عذب ، وصحـة أهلهـا حسنـة ، وفيها مسجد جميل له قبة مكسوة بـالرصـاص ، وأمـامـه خـان عـامر ، وفيهـا أيضـاً حمـام وحوانيت عديدة ، وينتج فيها فواكه وأعناب لذيذة ، فهي صالحة في الجملة للاصطيـاف ، ثم إن في الجبال التي تعلوها نجود ، اشتهرت بنقاء هوائها وطيب مراعيها . ثم غادرنـا بيلان وسرنا نحو الجنوب ، نصعد عقبات ونهبط أودية ، إلى أن جتزنا مضيقـاً فيـه جنود مكلفون بحفظ الدروب ، وشاهدنا في يميننا على بعد رمية مدفع (قلعة بغراس) ، وهي قلعة قديمـة تعاورتها أيدي كثير من الملوك ، إلى أن افتتحها السلطـان سليم بـالأمـان ، حينمـا مر بهـذا الطريق ، وهو ذاهب لقتـال الملـك قـانصو الغوري في مرج دابق . والقلعـة صغيرة القـد ، مخمسة الشكل ، مبنية على هضبة ، اتخذت قضـاءً تـابعـاً لأيـالـة حلب ، وأقيم فيهـا كتخـدا وقائد جند الإنكشارية ومحافظ القلعة وجنود ، وفيها جامع وخـان وحمـام وسوق صغيرة ، على أنها لانحرافها عن الطريق ليست عامرة ، وانحصرت الآن شهرتهـا بزهورهـا الفيـاحـة ، لاسيما بـالسنبل والمسـك الرومي ، وأهلهـا يقلعون من جبـالهـا وحـدائقهـا أبصـال الزهـور الجميلة ، فيحملونها ويبيعونها في بقية البلدان ، وقد يصلون بها إلى استانبول .

ثم رحلنا من هنا ، وسرنا نحو القبلة ، فـاجتزنـا قرة مغرط إلى أن وصلنـا بعـد اثنتي عشرة ساعة إلى أنطاكية .

وبعد أن ذكر (أوليا جلبي) نبذة من تاريخ أنطاكية ، قبل الإسلام وبعده ، ونوه بفتحها على يد السلطان سليم العثماني عقيب معركة مرج دابق ، قال ما خلاصته : وعين السلطان إذ ذاك محمد باشا البيقلي والياً على أنطاكية ، ورامي علي أفندي قاضياً ، وهي لاتزال بيد العثمانيين ،فيها نائب ومحتسب ونقيب الأشراف وقاضي وكتخدا جند وسردار انكشارية ودزدار قلعة ، وفيها جنود وعتاد وعشرون مدفعاً بين كبير وصغير ، وسور أنطاكية مبني على خمسة جبال ، ونصف قلعتها في منحدرات تلك الجبال ، ونصفها الثاني في سفوحها وقرب نهر العاصي ، ومحيط هذا السور اثنا عشر ميلاً ، وفي الحق أنني لم أر حتى الآن أسواراً وأبراجاً عالية مثلما رأيت في أنطاكية ، وربما بلغ علو السور الراكب على الجبال في الجهة الشرقية نحو ثمانين ذراعاً ، أما السور القريب من نهر العاصي فواطئ ولا يعلو أكثر من عشرين ذراعاً ، كما أنه غير ضخم ، وإذا دخلت من بابي حلب ودمشق وصعدت ، ترى أمامك أبراجاً وقللاً يعلو بعضها فوق بعض ، أما الأحجار التي بنيت منها هذه القلل فهي جد ضخمة ، وقد ركبت وألصقت بمهارة كلية ، وعلو باب حلب المتجه إلى الشمال نحو عشرين ذراعاً ، وكان ينبجس من الصخور التي في داخله مياه فوارة ، وفي غربي هذا الباب جسر عظيم يعبر منه فوق العاصي ، ولوفرة علو الجبال المحيطة بأنطاكية ، وأرتفاع الأسوار الراكبة عليها ، لاتنتشر الشمس على هذه البلدة إلا بعد ساعتين من طلوعها .

وفي أنطاكية ثمانية قصور عظيمة ، أهمها قصر كتغاج باشا ، فيه كثير من الأبهاء والغرف العديدة المزخرفة وبابه من الحديد . وأكثر دور أنطاكية الفخمة واقعة على العاصي ، وفيها من الأولياء حبيب النجار الذي يزعمون أنه كان من حواريي السيد المسيح ، وبعد قتله حفظ رأسه في تكية يزورها ويتبرك بها المسلمون والنصارى على السواء . وفي أنطاكية مدارس للعلوم الشرعية وكتاتيب للصبيان ، وفيها تكية لحبيب النجار يهبط إليها بدرج ملئت بالدراويش ، وأخرى في أعلى الجبل في مكان عال مشرف يوصل إليه في خلال ساعة ، وفيها حمامات تأتي مياهها من العاصي بالنواعير ، وفيها خانات وأسواق وحوانيت عديدة . ومياه هذه البلدة غزيرة ، تنحدر من الجبال العالية المحيطة بها ، لذلك ترى سبلها وينابيعها كثيرة ، كما أن الفاكهة تجود وتغزر أصنافها في البساتين التي تروى من النواعير الراكبة على نهر العاصي .

هذا وبعد أن انتهينا من زيارة أنطاكية ، عزمنا على السفر في صبيحة اليوم الأول من شوال سنة ١٠٥٨ هـ ، وبعد أن أدينا صلاة العيد في جامع السوق ضرب نفير الرحيل في قافلتنا ، فغادرنا أنطاكية متجهين نحو القبلة ، وبعد أن اجتزنا كثيراً من القرى العامرة ، نزلنا بعد ثماني ساعات في قرية الزنبقية على شاطئ العاصي ، وهذه القرية واقعة في واد خصب ، له كروم وحدائق ذات بهجة ، وفيها نحو ثلاثمئة بيت ، وقد اشتهرت بجودة تينها وجمال زنبقها . وهنا أقام علي باشا الجانبولاد لمرتضى باشا وليمة عظيمة لم يسمع بمثلها ، فقد أكل كل الجند الذي بمعية علي باشا وعدده كان ينيف على ستة آلاف ، وأكل خلق عظيم لا يسعه الحصر ممن حضر من الجوار ، ومع ذلك فقد بقيت الصحون والقدور ملآنة بالأطعمة النفيسة . وأهدى علي باشا إلى مرتضى باشا ثلاث أفراس من عتاق الخيل ، فقابله مرتضى باشا بفرو من السمور المرصع [١] . ثم استأنفنا المسير إلى الجنوب إلى أن وصلنا إلى جسر الشغر ، وهو مكان موحش على شاطئ العاصي ، وتحيط به مروج خضراء ، وفيه خان صغير ، على أن الأمن هنا مفقود ، نرجو الله أن يوفق أهل الخير لعمران هذا المكان ، وتوطيد الأمن فيه ، ليسهل مرور الحجاج منه .

ثم سرنا إلى الجنوب ، فكنا نجتاز تارة أماكن صخرية وتارة مستنقعات وآجاماً إلى أن وصلنا بعد ست ساعات إلى قلعة المضيق . وهي قلعة صغيرة من أعمال أيالة حلب ، بنيت قرب بحيرة تسمى باسمها ، فوق هضبة مشرفة على السهول والآجام المحيطة بها . ثم غادرناها فوصلنا بعد سبع ساعات إلى قلعة شيزر .

ثم وصلنا إلى حماة . وبعد أن ذكر الجلبي نبذة من تاريخها ، شرع يصف حالتها في زمن مروره ، قال :

---

(١) من هو هذا الباشا الكبير الذي استطاع أن يقوم بتلك الوليمة العظيمة ؟ لم يذكر الجلبي وظيفته ، ولا من أين أتى ، وما سبب مجيئه لمقابلة مرتضى باشا ، إذ لابد أن يكون غير علي باشا الجانبولاد المشهور الذي حكم حلب في سنة ١٠١٤ هـ ، ثم خرج عن طاعة الدولة العثمانية ، وحارب جيوشها مدة مديدة إلى أن قتل في سنة ١٠٢٠ هـ أي قبل مرور قافلة الجلبي بثاني وثلاثين سنة ، على مارواه المحبي في خلاصة الأثر . ولما حسبته أنه والي حلب جاء يحتفي بزميله مرتضى باشا ،وجدت (التقويم السنوي لولاية حلب) يذكر في قائمة أسماء ولاتها ، أحمد باشا الدباغ في سنة ١٠٥٧ هـ ، ومصطفى باشا الموستاري في سنة ١٠٦٠ هـ ، والجلبي لم يذكر أحداً منهما . فهل كان مخطئاً في بيان الاسم ؟

وبعد أن استلم السلطان سليم حماة بالأمان ، جعلت سنجقاً تابعاً لأيالة طرابلس الشام ، ويبلغ عدد جندها حين السفر ، مما هو في بطانة أمير لوائها ومن الجبجية الذين يقدمهم أرباب التيمار والزعامة نحو ألفين[1] وفيها مشايخ للمذاهب الإسلامية الأربعة ، ونقيب أشراف ووجهاء وأعيان وكتخدا يري وسردار انكشارية[2] وجري باشي (رئيس جند) ويوزباشي (رئيس مئة) ودزدار قلعة ومحتسب ، ويجبي قاضيها من نواحيها في كل سنة ستة أكياس ، ويجبي أمير لوائها ثلاثين كيساً . وفي حماة قلعة بنيت فوق تل صناعي على شاطئ العاصي ، لكن أكثر أبراجها وأسوارها منهدمة . وفي حماة كثير من القصور الفخمة ، ذات الحدائق الغناء والأحواض والمياه الدافقة ، وأشهرها قصر محمد باشا الأرناؤوط ، وهو مبني على شاطئ العاصي ، وفيه ثلاثمئة غرفة ، وقاعات عديدة وحمامات وحدائق ، ولم أر مثل هذا القصر إلا في دمشق ، وقد أولموا فيه لمولانا مرتضى باشا وليمة يعجز اللسان عن وصفها[3] ، واشتهر أيضاً في حماة قصر الشيخ إبراهيم أفندي بن الشيخ

---

(١) كانت الدولة تتخلى عن حقها في العشر والرسوم الأخرى إلى أصحاب الخاص والزعامة والتيمار ، أو توقفه على جهة من الجهات الخيرية وفاقاً لطريقة الإقطاع ، التي كانت جارية في القرون الوسطى ، وتقسيم الأراضي إلى خاص وزعامة وتيمار كان باعتبار حاصلاتها المقيدة ، مثال ذلك أن الأرض التي غلاتها أكثر من مئة ألف أقجة (الأقجة ضرب من العملة تعادل ثلث البارة) يطلق عليها خاصاً ، وتحال على الوزراء والأمراء وغيرهم من بطانة السلطان ومقربيه ، والتي غلاتها من عشرين ألف أقجة إلى مئة ألف أقجة يطلق عليها زعامة ، وتحال على دفتر دار الخزينة في الأيالة ، ورئيس الألاي في اللواء ، وقواد القلاع ومن كان في منزلتهم ، والتي غلاتها من ثلاثة آلاف أقجة إلى عشرين ألف أقجة يطلق عليها تيار ،وتحال على المستحقين من الجنود ، وكان كل من صاحب الخاص والزعامة مكلفاً بأن يجهز وقت الحرب عن كل خمسة آلاف أقجة جندياً بعدته الكاملة ، وصاحب التيمار مكلف بأن يجهز عن كل ثلاثة آلاف أقجة جندياً واحداً . واستمرت هذه القاعدة التي كانت سائرة في البدء سيراً حسناً إلى سنة ألف من الهجرة ، ثم شابها سوء الاستعمال ، إلى أن ألغيت سنة ١٢٥٥ هـ .

(٢) كانت رتب قواد جند الانكشارية تبدأ بآغة الإنكشارية ، ثم برئيس السكبان ، ثم بكتخدا القول ، وهو معاون الآغا الكبير أو رئيس أركان حربه ، ثم بكتخدا يري ، وهو وكيل كتخدا القول ، وصلة الوصل بين الآغا الكبير وجميع جند الإنكشارية ، يبلغ أوامر الآغا ، بمعرفة الكتاب إلى الدزدارين ، أي محافظي القلاع ، والسردارين أي قواد الجند .

(٣) ذكر (جرجي يني) مؤلف تاريخ سورية اسم باني هذا القصر مراراً في فصل طرابلس ، فما قاله : إن محمد باشا الأرناؤطي ولي أيالة طرابلس في سنة ١٠٥٠ هـ ، وأنه بنى على نهر رشعين قصراً ، وكلف الرعايا أموالاً ، ثم عزل وأعيد ثلاث مرات ، وذلك من شدة جوره وعسفه ، وكان في كل مرة يعاد بعد مدة وجيزة ، وفي المرة =

عبد القادر الكيلاني[1] ، أما جوامعها فكثيرة ، منها جامع أبو عبيدة بن الجراح فاتح حماة وهو في السوق الأعلى ، قيل إنه كان في الأصل كنيسة قديمة ، وأنه بني بمال الخراج الذي أداه أهل حمص ، وقد زبرت على رخامة فيه النفقات التي صرفت في إنشائه ، وألصقت على أحد جدرانه . وهناك جامع قاسم باشا المعروف بكوزلجة ، وهو أول من حكم حماة من العثمانيين بعد فتح السلطان سليم[2] ، وأشهر تكاياها (تكية عبد القادر الكيلاني) ، وهي عامرة ومزخرفة ، وذات إيراد جزيل وتعج بالدراويش[3] ، وأسواق حماة وإن لم تكن عامرة بقدر أسواق حلب ، لكنها حافلة بجميع أنواع البضائع القيمة ، ويكثر فيها الصياغون والحلاقون . وحر حماة شديد لوقوعها في وسط الإقليم الرابع ، وتهب من بريتها ريح سموم ، لذلك يكثر السمر في أهلها ويقل الجمال في نسائها (كذا) . ويلبس الرجال جبباً وقنابيز ملونة تكون في موسريهم من الحرير ، وفي متوسطيهم من القطن أو الصوف ،

= الرابعة أرسل إلى حماة واستقر بها أ هـ . قيل إن هذا الباشا أعقب في حماة ، وأنه لا يزال من أعقابه بعض نساء ، وأنه على الرغم من عسفه كان ولوعاً ببناء القصور والمساجد والحمامات ، فقد بنى في حماة القصر الذي ذكره الجلبي ، وبالغ في عدد غرفه ، ويظن أنه هو دار الحكومة التي احترقت في حادثة حماة في سنة ١٣٤٤ هـ ، ويظهر من وصف الجلبي أن البناء الملاصق للدار المذكورة الذي كانت فيه مدرسة التجهيز ودور بعض السراة المجاورة ، كانت كلها من مشتملات هذا القصر الفخم . ومحمد باشا بنى أيضاً في حماة جامعاً قرب جسر السرايا ، يسمى جامع المدفن ، لأنه دفن فيه وعلى قبره تاريخ وفاته في سنة ١٠٨٦ هـ ، وكان وقف له عقاراً كثيراً ، ومة الذين اتصلوا بخدمته وخدمة ابنه علي باشا ، شاعر حموي اسمه حسن الدفتري المعروف بابن قنبق .

(١) الشيخ إبراهيم الكيلاني جد بني الكيلاني في حماة ، وهو على ماقيل ابن شرف الدين بن أحمد بن علي الهاشمي ، ولد في سنة ١٠٤١ هـ ، وتوفي في بغداد في سنة ١٠٦٨ هـ ، كان ذا ثروة ومكانة عظيمتين ، احتجنهما بتصوفه ومشيخته ، بنى قصره الذي ذكره الجلبي من أنقاض قلعة حماة ، وبنى في جانبه جامعاً ، ولا يزال هذا القصر عامراً بأعقاب المترجم ، وهم يؤلفون أسرة كبيرة لبعض أفرادها حظ وافر من سعة الملك ووفور الثروة والوجاهة في حماة وضواحيها . والقصر على شاطئ العاصي الأيمن ، في محلة تدعى جسر بيت الشيخ ، يقصده السياح لرؤية مافيه من محاسن البناء العربي ، كالعقود والقاعات .

(٢) هذا الجامع لم يعرفه أحد ممن سألتهم في حماة ولا سمع بهذا الاسم . فمن أين أتى الجلبي بذلك ؟

(٣) نفى الصابوني مؤلف تاريخ حماة وجود التكايا الآن في حماة . أما التكية الكيلانية فقد أسماها زاوية ، وقال إنها من بناء بني الكيلاني القاطنين في حماة منذ القرن السابع . والذي علمته أن الإيراد الذي ذكره الجلبي اندثر ، والدراويش لم يعد لهم أثر .

وتلبس النساء في أرجلهن أحذية طويلة الساق ، ويلتحفن بملآت بيضاء . ويصنع فيها شراشف ومناشف ومناديل حريرية . ولكثرة الشبان الذين يتجندون تكثر الفروسية بين أهلها ، ويصنع فيها سروج ولجم جميلة متقنة ، أما قمحها فيماثل القمح الحوراني في الجودة ، وكذا الأمر في شعيرها وقطانيها . وتكثر في حماة الخيول الأصيلة . أما حماماتها فكثيرة وعلى غاية من الحسن وإتقان الخدمة ، أخص بالذكر حمام[1] محمد باشا الأرناؤوط ، الذي لم أر في ديار الروم ما يماثله في الإبداع ، إلا أن يكون حمام محمد كراي ، في (بغجة سراي) عاصمة بلاد القريم .

وفي حماة نواعير عظيمة منصوبة على نهر العاصي ، يسمع القادمون إلى هذه البلدة أنينها من مسافات بعيدة ، وهي دواليب مؤلفة من أخشاب وأعمدة ومسامير حديدية على غاية من الطول والضخامة . وتنصب المياه من هذه النواعير في قناطر ، تذهب بها إلى قصور البلدة ودورها وحماماتها ومساجدها وخاناتها . ولكل ناعورة أوقاف ذات إيراد وخدم ونجارون مهيؤون لخدمتها . وإذا اقترب الزائر الغريب منها تكاد آذانه تصم من شدة الضجة . والأغرب من كل ذلك رؤية غلمان حماة المتشردين يتعلقون بأطراف الناعورة ويدورون بدورانها ، حتى إذا علت بهم ألقوا بأنفسهم إلى العاصي فيغوصون فيه ويسبحون . وفي حماة مئات من الحدائق والبساتين التي تروى من هذه النواعير ، ولا يخلو كل بستان من ناعورتين أو ثلاث ، على أن أعظم ناعورة بينها هي ناعورة المحمدية ، التي سارت بذكرها الركبان ، وفي حماة قبران لعالمين من الترك ، أحدهما المولى (حامد جلبي الشهير بطاشكوبري زاده) والثاني المولى (إبراهيم جلبي الآذري) وكلاهما مدفون بجوار التكية الكيلانية ، وتاريخ وفاة الجلبي الآذري سنة ٩٩٣ هـ[2] .

---

(١) هو حمام الباشا الذي كان في جانب جامع الدفن . والحمام والجامع من بناء محمد باشا الأرناؤوط الذي مر ذكره . وقد اندرس هذا الحمام منذ قرن في جملة المعالم الكثيرة التي اندرست في حماة ، وبيعت وهي عامرة للحجارين ، كدار الفرح في محلة باب الجسر كانت وقفاً للأفراح ، فمن أراد أن يتزوج مثلاً ، يأخذ مفتاحها من متوليها ثلاثة أيام ، ذكره الصابوني .

(٢) قيل إنه كان في جوار الزاوية الكيلانية مقبرة للكيلانيين درست ، وبني محلها دور ، ولعل هذين القبرين اللذين ذكرهما الجلبي كانا فيها . أما حامد جلبي فلم أعثر على ترجمته ، ولعله كان قاضياً في حماة ، ورث القضاء والعلم عن أبيه ، أو جده عصام الدين أبي الخير أحمد بن مصطفى الشهير بطاشكوبري زاده مؤلف =

وبعد أن انتهينا من حماة ، أرسل الباشا الأطواغ إلى الأمام[1] ، ثم لحقتها القافلة في اليوم نفسه ، وما زلنا نسير في سهول فسيحة ، حتى نزلنا على جسر الرستن ، وهو جسر عظيم مبني على نهر العاصي ، وفي قربه هضبة مرتفعة شيدت فوقها قرية كبيرة تسمى الرستن ، قيل إن في جامعها ضريح المولى الشهير أبا يزيد البسطامي ، يزوره أكثر أهل هذه البلاد من العرب والتركمان ويتبركون به . والضريح تحت قبة عالية ، وفي جوار جامعها تكية ، يأوي إليها نحو مئة من الدراويش والفقراء وأبناء السبيل ، يطعمون ويكرمون . وفي الرستن جاء من دمشق إلى لقاء مولانا الباشا كتخدا شواش دمشق ، وأمين شواشها ، وآغة جندها الإنكشاري ، وغيرهم من موظفي الديوان ، فمثلوا بين يديه ، وقدموا له هدايا متنوعة ، وانضموا إلى قافلته .

ثم سرنا بعد الرستن في برار قفراء مدة ست ساعات إلى أن وصلنا مدينة حمص .

وحمص مركز لواء يتبع أيالة طرابلس الشام ، وفيها أمير آلاي ورئيس جند ورئيس مئة ، ولها أرباب زعامة وتيمار ، يبلغ عدد جندهم مع جند الباشا في أيام الحرب نحو

= كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، وكتاب موضوعات العلوم وغيرهما ، وكان عصام الدين من أعظم علماء الترك العثمانيين ، وأفضل من ألف منهم ونظم باللغة العربية ، توفي في سنة ٩٦٨ هـ . وآذري جلبي كان على ماقاله شمس الدين سامي مؤلف قاموس الأعلام ، من الفضلاء المبرزين في عهد السلطان سليم الأول ، كان عالماً شاعراً لطيف المعشر ، سلك مسلك القضاء وما زال يتنقل في قضاء مدن شتى في الأناضول ، حتى كانت خاتمة مطافه حماة ، توفي فيها سنة ٩٩٣ هـ ، ودفن في خارجها ، وله ديوان شعر تركي سماه (نقش خيال) .

(١) إن ملوك الشرق قديماً ، ولا سيما ملوك الترك والهند والصين ومثلهم السلاطين المماليك في مصر والشام ، على ماذكره القلقشندي في صبح الأعشى ، كانوا يضعون على راية عظيمة ، خصلة من شعر أذناب الخيل ملونة ومدلاة ويسيرونها أمام جيشهم يسمونها (جاليش) . ثم بدل العثمانيون اسمها إلى (طوغ) على ماذكره أحمد راسم في التاريخ العثماني المصور ، وغيروا شكلها فجعلوه رمحاً أو عصا طويلة ، يربطون في رأسها أذناب الخيل الملونة بالأحمر ، ويرسلونها متهدلة ، ويجعلون في أعلاها ضفائر مفتولة من الشعر الأبيض والأسود ، ثم يزينون هذه الضفائر بكرة مذهبة ، برز من وسطها هلال . وفي زمن السلاطين العثمانيين صارت هذه الأطواغ تمنح إلى ذوي المناصب العالية . وأمير اللواء كان له طوغ واحد ، وأمير الأمراء اثنان ، والوزراء ثلاثة ، والصدور العظام خمسة ، وإذا خرج السلطان إلى الحرب كان يسير أمامه سبعة أطواغ أ هـ . قلت : وكان معنى إرسال الأطواغ إلى الأمام ، وهو إعلام أهل القرى المجاورة قدوم الباشا ، ليعدوا المكان الصالح لنزول قافلته ، ويهيئوا القوت والعلف الكافيين لجنده وخيله ، والويل لمن كان يتأخر عن هذه السخرة .

ألفين ، وفيها شيخ إسلام ونقيب أشراف ومحتسب ونائب بلدة . ولوقوعها في وسط البرية ، فقد خرب الأعراب أكثر أعمالها . وقد دفن الحكماء والكهان في العصور الغابرة ، تحت أرض هذه المدينة القديمة ، طلاسم ضد الحيوانات السامة كالحيات والعقارب وأمثالها ، لهذا لم يبق أثر منها ، وإن وجدت بالصدفة ولسعت الإنسان لا يكون لها أثر .

وإذا نقلت تربة حمص لأي مكان ، وألصق قطعة منها على موضع لسع الحيات والعقارب وأمثالها يزول أثرها بإذن الله ، وسمعت من أهل حمص أن في أحد جوانبها مسجد ، على بابه رخامة من المرمر ، نقش عليها صورة عجيبة الشكل نصفها الأعلى كالإنسان ونصفها الأسفل كالعقرب ، فإذا ألصقوا على الصورة عجينة يحصلون على مثال منها ، وبعد جفاف العجينة إذا ألقوا قطعة منها في النار وبخروا بدخانها الرجل الملسوع من العقرب يزول عنه الألم . وقد تكرم الآغا محافظ القلعة علي بخمسين درهم منها فحفظتها عندي ، وبينما كنت ذات يوم أجول في أرمية من بلاد العجم لسع العقرب مملوكاً لي ، فأسرعت لتبخيره بدخان تلك العجينة فزال ألمه فوراً ، وسال من محل اللسع ماء أصفر .

وقلعة حمص مبنية على تل اصطناعي ، تبعد نحو خمسة آلاف خطوة عن العاصي ، ليس لها خندق ، بل لها باب من الحديد متجه إلى الغرب ، وفي داخلها بيوت يأوي إليها المحافظون من الجنود ، وفيها عدد كاف من المدافع . ولما دخل مولانا مرتضى باشا إلى حمص ، ضربت هذه المدافع إجلالاً له . وقلاع حمص وحماة وحلب مبنية على تلال اصطناعية . ويأتي الماء إلى حمص بساقية شقت من العاصي . وفي قلعة حمص جامع السلطان ، وهو جامع صغير لكنه معتبر ومقصود ، لاحتوائه على مصحف سيدنا عثمان المكتوب بالخط الكوفي ، يخرجون به أيام الاستسقاء في السنين التي تشح أمطارها . وفيها مدارس وكتاتيب وتكايا وخانات وحمام واحد ، ويأتي الماء إلى هذا الحمام من ناعورة ركبت على النهر العاصي ، وينسج في حمص من الحرير مناشف ومناديل وفوط وأكياس ، وفيها قبور كثير من الصحابة .

ثم غادرنا حمص ، ووصلنا بعد مسير ست ساعات إلى خان يدعى (إيكي قبولي) (ذو البابين) وهو خان عظيم وسط البادية ، يستوعب عشرة آلاف رأس من الخيل ، وقد دعي ذي

البابين لأن الغادين والصادين يدخلونه من باب ويخرجون من آخر . وفيها حصن وسط يحتوي على عدد من الجنود ، يحرسون الطريق من أشقياء الأعراب ، ثم سرنا ووجهتنا القبلة ، فوصلنا بعد سبع ساعات إلى النبك ، وهي قرية آهلة من أعمال دمشق ، ذات مياه غزيرة وكروم وبساتين وأشجار وفيها جامع ، ولو بني في جواره خان لزاد عمرانها .

ثم بعد مسير ست ساعات وصلنا إلى قلعة تدعى (خان القطيفة) ، وهو من أوقاف فاتح اليمن سنان باشا ، وقد وقف له نحو سبعين قرية ، والخان عظيم جداً لو دخلته قافلة مؤلفة من عشرة آلاف رجل بخيلها وجمالها لوسعها وزاد ، ففيه كثير من الغرف والاصطبلات الخاصة بالخيل ، وأخرى بالجمال ، ومقاصير للحريم ، ومستودعات للمؤونة ، وفرن وحمام وحوانيت للباعة ، ودائرة خاصة بالمتولي ، ودوائر خاصة بالباشاوات . وكل ذلك مشيد بالحجر ، وفي وسطه حوض ماء جسيم ، ويقدم فيه كل ليلة للمسافرين عشاء من حساء القمح المطبوخ باللحم ، هذا غير الخبز والشمع وغير علف الدواب . وقد أولم متولي الخان واسمه مصطفى جلبي بن قاسم آغا ، وليمة عظيمة لمولانا مرتضى باشا ، والحاصل أن خيرات هذا الخان وافرة ومشهورة .

ثم سرنا إلى القبلة فوصلنا بعد مسير ست ساعات إلى قرية (حرستا) ، وهي قرية عامرة فيها ثلاثمئة بيت ، وكثير من الحدائق والكروم وجامع ، وهنا خرج كل أعيان دمشق وكبرائها لملاقاة الباشا ، يحملون إليه أنواع الهدايا من مأكول ومشروب وملبوس وغيرها كل بحسبه ، وقد قبل الباشا كل ذلك منهم ، وكان من جملتها مئة وخمسون فرساً من عتاق الخيل ، تكرم حفظه الله ووزعها على أركان حاشيته ، فأصابني منها الفرس المسرجة ، وهي هدية ابن الناشف[1] ، وفي صباح اليوم الثاني جاءته جنود دمشق ، المؤلفة

---

(١) يظهر أن تقديم الهدايا للولاة عادة قديمة ، فقد قال الأستاذ الكرد علي في خطط الشام ٢٨٣/٢ : « ومما يظهر ذهنية الدولة في تلك الأيام أن الوالي يجب أن تهدى إليه الخيول والطنافس والأعلاق ، وربما الدنانير والدراهم من غير نكير . وما ندري كيف تكون الرشوة ، إن لم تكن هذه هي الرشوة بعينها » ا هـ . على أن هذه العادة لم تكن خاصة بالعثمانيين ، بل سبقهم إليها العباسيون وغيرهم أيضاً . قال جرجي زيدان في تاريخ التمدن الإسلامي ٧١/٥ : « وكانت الهدايا شائعة على الخصوص في العصر العباسي ، فإذا تولى الأمير على بلد ، فأول ما يدخلها ، يبعث أهلها إليه بالهدايا ، من الأموال والجواري والدواب والثياب ، وهو يبعث إلى الوزير الذي ولاه أو الخليفة ، بالأموال بسبيل الهدية أيضاً ، وإذا طال مقامه ، أصبحت تلك الهدايا فرضاً واجباً يبعث بها كل سنة ، فإذا أمسكها عدوا إمساكه تمرداً ، عن ابن الأثير جـ ٧ و ٦ » .

من الانكشارية والقبوقول والسباهية واليرلية ، تموج كالبحر الزاخر ، وكلها غارق في الحديد والزرد ، فوقفت للسلام على جانبي الطريق صفوفاً متراصة ، بعضها وراء بعض ، وكانت راياتهم المتموجة ، ورماحهم المشرعة ، وسيوفهم المشهرة ، ودروعهم وخوذهم وتروسهم وبنادقهم ذات الفتائل تأخذ بالأبصار ، وأمامهم أغواتهم وضباطهم وشواشهم ، بأزيائهم وعدتهم الفاخرة ، واصطف مثلهم أمير الحاج سنان باشا[1] بجنده وحشمه ، وكذلك عيسى وموسى آغا التركمانيين[2] وابن قاسم آغا[3] وابن عبد السلام[4]

---

(١) ذكره المحبي قال : سنان باشا الدورليلي بن محمود ، نزيل دمشق ، ومتولي الجامع الأموي بها ، أمير الأمراء ، وصدر أعيان الشام في وقته ، أصله من دورلي من ضواحي قرمان ، ورد إلى دمشق في سنة ١٠٢٣ هـ في خدمة أحد الوزراء المعين نائباً للشام ، وبعدما عزل مخدومه أقام هو بدمشق ، وصار من جندها ، وما زال يرقى حتى صار أمير الحاج ، فحج بالناس سنتين سنة ١٠٥٩ هـ وسنة ١٠٦٠ هـ ، ثم عزل ورق حاله ، إلى أن مات منكوباً سنة ١٠٧٦ هـ .

(٢) ذكر المحبي أحدهما موسى ، قال : الأمير موسى بن محمد ، الشهير بابن تركان حسن الدمشقي الشجاع الباسل المشهور ، أمير الحاج ، وصاحب الوقعة المشهورة مع الأمير محمد بن رشيد أمير حوران ، تنقلت به مناصب الجند بالشام حتى صار باش جاويش ، ثم صار كتخدا العسكر ، وأمر بالسفر إلى محاصرة قندية في سنة ١٠٦٧ هـ ، واشتهر بالفروسية ، ثم وجهت إليه الإمارة ببلاد عجلون ، وكان له حسن ملائمة ومعاشرة مع البدو ، حتى صار لا ينطق إلا بلسانهم ، ولا يتزيا إلا بزيهم ، ثم لما خرج لتأديب ابن رشيد الذي نهب ركب الحاج ، قتل في المعركة وانهزم عسكره وذلك في سنة ١٠٨١ هـ .

(٣) قلت لعله هذا الذي ذكره المحبي ، قال : مصطفى بن قاسم بن عبد المنان ، متولي أوقاف السنانية بالشام ، الدمشقي كان واحد الوقت ، في المحاورة وسرعة البداهة والنكتة والنادرة ، واتفق أنه في قدمة مرتضى باشا الوزير ومن معه من العسكر ، أنه ورد إلى دمشق من أهالي حلب رجل يقال له عسكر ، وكان يحسن الموسيقى ، ويتردد إلى الأعيان للاستجداء ، فكان يخاطبه إذا دخل عليه ، أتانا مرتضى الجبار بعسكر جرار ، توفي سنة ١٠٧٥ هـ .

(٤) ذكره المحبي ، ونقلنا عنه في مقدمة هذه الرحلة حديث الفتنة التي أوقدها ، ضد مرتضى باشا لما جاء ثانية إلى دمشق في سنة ١٠٦٧ هـ . قال عنه إنه كان مرعشي المولد ، ونزيل دمشق ، وأحد أعيان الجند بالشام ، كان أميراً للحاج ، ثم صار كتخدا الجند ، ثم يباباشي (؟) ، وكبرت دولته ، وانحصرت فيه أمور الشام جميعاً . وبعد الفتنة ورد الأمر السلطاني بقتله ورفقائه ، فقتلوا وضبطت أموالهم وأملاكهم في سنة ١٠٦٩ هـ .

ومحمد أفندي الناشف[1] وابن كيوان[2] ودفتردار الشام وكتخدا الشام وأمين الشواش ، واصطفت أيضاً سادات دمشق ، ووجهاءها وشرفاءها وعلماءها ، ووراء كل منهم خدمه وحشمه ، وجميعهم راكبون عتاق الخيول العربية ، المعروفة أحسابها وأنسابها ، وعليها أجود السروج واللجم ، والركب الدمشقية وأثمنها ، ومتزينون بأفخر الحلل والأسلحة .

ثم شرعت جنود الباشا وخدمه وحشمه تمر بقضها وقضيضها ، وكان عددها يربي على الألفين ، منها جنود التفنكجية والدالاتية والمتطوعة ، والقواصون والبوابون وأرباب المشاعل والسراجون ، إلخ ... وأمين المطبخ ووكيل الخرج وتوابعهما ، كل صنف منها بجببه وسراويله ، وأقبيته وقلانسه أو عمائمه ، أو طراطيره الخاصة ذات الأزياء والألوان والأبعاد المختلفة ، وهم مدججون بالرماح والسيوف ، أو بالقسي والسهام ، أو بالفؤوس والمقارع أو العصي الطويلة ، ومنهم من كان يسوق الخيل والبغال التي تحمل العتاد

---

(١) ذكره المحبي قال : ابن الناشف محمد بن محمود ، الشهير بابن الناشف الدمشقي ، أحد الأعيان الذين رقوا بجدهم ، وأثروا ثروة طائلة ، وصار كاتباً للجند الشامي ، وسافر الأسفار الكثيرة ، ولما قدم الوزير أحمد باشا نائب الشام المعروف بالكوجك ، وعين لمقاتلة الأمير فخر الدين بن معن ، قربه إليه واستصحبه معه ، وأنحل قرى ومزارع وتيمارات كثيرة فأخذها وتصرف بها ، وجمع من الكتب النفيسة ، والخيول والأمتعة والأملاك ، مالا يمكن وصفه ، وملك كثيراً من المماليك والجواري ، وأهدى إلى كبراء الدولة الهدايا العظيمة ، واشتهر عندهم ، وتوفي في سنة ١٠٧٥ هـ . قلت : وهذا الوصف يناسب ماذكره الجلبي عن هديته التي كانت فرساً مسرجة . وقد صار محمد أفندي الناشف بعد حين باشا . ولا يزال له في دمشق أعقاب يسمون بني الناشف ، يعدون بالعشرات يقطنون في حي الحطاب ، قرب ضريح جدهم في زقاق يدعى زقاق الناشف ، ويقطن أكبرهم سناً في دار الباشا الأصلية ، بعد أن صغرت وتغيرت معالمها ، وكل منهم يرتزق بنزر قليل مما يصيبه من أوقاف الباشا التي تجزأت وتبعثرت كثيراً .

(٢) لم يذكر المحبي سوى واحداً منهم ، قال : ابن كيوان ، إبراهيم بن عثمان المعروف بابن كيوان ، أحد أعيان دمشق المشهورين ، كان له شأن عال عند أركان الدولة ، وله خيرات وصدقات دارة ، واشتهر بابن كيوان ، لأن والده كان ربيب كيوان الطاغية المشهور ، وصار أولاً من الجند ، ثم تفرغ عما بيده لأخيه خليل ، وانعزل عن الناس ، وتوفي في ١٢ جمادي الأول سنة ١٠٧٥ هـ ، وقال المرادي في سلك الدرر في ترجمة أحمد الكيواني المتوفى في سنة ١١٧٣ هـ : وبنو كيوان بدمشق ، طائفة خرج منها أمراء وأعيان وأجناد ، ونسبتهم إلى كيوان بن عبد الله أحد كبراء أجناد الشام ، وكان ظالماً طاغياً . قلت : ولا تزال أعقاب هذه الطائفة في دمشق متوسطو الحال في الجملة .

والـذخـائر ، والأمتعـة وأدوات المطبخ ، وفي رقـابهـا سلاسل وجلاجـل ضخمـة لهـا قرقعـة ودوي ، وكان يقـود كل صنف منهـا رؤوسـاؤه وأمنـاؤه وضبــاطــه ، ويسير كل صف من الخيالة أو المشاة ، في تراص واتساق تامين . وكان من بين هذا الجند الـذي اصطف سريـة مؤلفة من رجال ذوي شعور مضفرة أرخوهـا على رقـابهم تحت قلانسهم ، وتمنطقوا بمنـاطق وخنـاجر فضيـة ، وأمسكوا بعصى طـويلـة أو دبـابيس مسننـة محـددة ، وأصـل هـؤلاء من مماليك الشركس والأباظة والكرج .

ثم اعتلى البـاشـا حصـانـاً مطهماً يرفل بـأبهى الحلل ، وكان هو لابسـاً فرو من المخمل الفاخر ، والسمور العال المزين بالأزرار المرصعة ، وسار تتقدمـه أطواغـه وأعلامـه الخـاصـة به ، ووراءها تسعة من الجرد الجنائب ، ملبسـة أفخر السروج والغواشي المزركشـة ، يجرهـا سواس خـاصون ، بقيـادة الآغـا أمير الاصطبل ، وهي تتهـادى كالعرائس ، وكان يـواكب الباشا غير ماعددناه من الجند أربعمئة فارس ، من رجال دائرته ، كأمناء سره وموظفيـه ، وأعوانه الداخليين والخارجيين ، والشطار والمطرجيـة وغيرهم[1] ، وظل سـائراً والمهترخـانـة

---

(١) لاغرابة في ضخامة هذا العدد والأسماء ، فقد جاء في التاريخ العثماني لمؤلفه أحمد راسم ، نقلاً عن كتـاب نتـائج الوقوعات : أن دائرة الوزير المتوسط الحال في تلك العصور كانت تتألف :

(أولاً) من الكتخدا وهو كأمين السر العام في أيامنا ، ومن كاتب الكتخدا وكتاب الخزينة ، وكتخـدا الحريم ، وأغوات الداخل ، وعددهم أربعة وعشرون ، يرأسهم ضابط يدعى سلحدار آغا ، يلازم الباشا دائماً . وهناك آغة السـلام وكتخدا الحجاب ، وهما موظفان بأمور التشريفـات ، ثم أمنـاء الخزينـة والختم والـدواة ، وآغـة القفتـان وآغة الثياب ، والآغا الجوخدار ، وقائد المهترخانة ، وهؤلاء يكونون من مماليك الباشا الخـاصين وموضع ثقتـه . ثم وكيـل الخرج ، وآغـة المفتـاح ، ورؤسـاء الأطـواغ ، وأمنــاء التبـغ والقهـوة والأدويـة والمـوائـد ، ورئيس الاصطبل ، إلى آخر ماهنالك من أرباب الوظائف ، على أن لكل منهم ثلاثة من الحواشي ، مما يجعل عدد هـذا الجمع ٨٠ ـ ١٠٠ شخص أو يزيدون .

(ثانياً) القواصون المرافقون ، وأرباب النوبة (المهترخانـة) وسعـاة البريـد ، والسواس ، والعكامون ، وأربـاب المشاعل والطهاة إلخ .. ، مما لاتتم الدائرة بدونهم ، وهؤلاء لايقلون عن ١٥٠ شخصاً . وكان في دائرة كل وزير ٤٠ ـ ٥٠ ساعي بريـد ، يسمونهم تـاتـار ، ينتخبون من ذوي الكفـاءة في سوق الخيل وإيصـال الرسـائل ، لأن البريد لم يكن قد أسس على نسق أيامنا الحاضرة . أما المهترخانة فقد كانت تتـألف من تسع فئـات ، وكل فئـة من تسعة رجال ، لكل من الصنوج والمزامير والنقارات والأبواق والطبول ، يقود كل فئـة منهـا رئيس ، وفوق هؤلاء تسعة شواش ، يقود الجميع واحد ، يدعى رئيس الشواش الخاص ، له وظائف أخرى في استتباب النظـام في دائرة الوزير ، فكان مجموع رجال المهترخانة ستون شخصاً ، وكان الشواش يحملون بأيديهم شوكانـات ، وهي =

الخاصة بسعادته ، تعزف أمامه حتى دخل بهذه الفخفخة والأبهة العظيمتين إلى دمشق ، وكان ذلك في اليوم العاشر من شهر شوال سنة ١٥٠٨ هـ وحل في قصر منجك باشا ، واستقمت معه مدة[١] .

= عصي طويلة ، رؤوسها ذات شعب وسنان فضية ، علق حولها سلاسل وجلاجل رنانة . وكان الطبالون يعلقون طبولهم بأكتافهم ، إلا الطبل العظيم الذي اسمه (كوس) ، فإنه كان يحمله أربعة رجال ، وكانت المهترخانة تعزف في دائرة الوزراء مرتين في كل يوم ، بعد صلاة العصر والعشاء . وكان للمهترخانات أنغام وترانيم شجية تطرب أو تهيج السامعين .

(ثالثاً) كان لكل من أغوات الداخل أربعة أو خمسة من الخدم والسواس والأتباع ، وهؤلاء يبلغ عددهم ٨٠ - ١٠٠ .

(رابعاً) كان في دائرة كل وزير رئيس تفنكجية ، وهم مشاة ، ورئيس الدالاتية ، وهم فرسان ، وهؤلاء يماثلون الشرطة والدرك في أيامنا ، وعددهم في معية كل من الرئيسين ١٠٠ - ١٥٠ ، وكان لولاة الأيالات العظمى كحلب والشام وأرض الروم عدة رؤساء على التفنكجية والدالاتية ، يقودهم ضابط كبير يدعى سرجشمة .

(١) ذكر المحبي منجك باشا وقصره ، قال : الأمير محمد بن منجك ، نبغ في الدوحة المنجكية ، كان أميراً جليل القدر ، إلا أنه مغال في الكبر والتيه ، بذيء اللسان كثير الوقيعة في الناس ، كان أولاً من آحاد الجند الشامي ، ثم زعيماً ، ثم متولياً على عمارة السلطان سليمان بالميدان الأخضر ، ثم على أوقاف عائلتهم . وقد عمر العمارات الفائقة ، منها القصر المعروف به في الوادي الأخضر أحد منتزهات دمشق ، وانتهت عمارته في سنة ١٠١١ هـ ، وفيه يقول الشيخ عبد الرحمن العمادي المفتي ، مؤرخاً بناءه ، ومخاطباً بانيه ، بقوله :

بنيت قصراً أم الجنان جرت ... من تحتها النهر فوقه الغرف
جاورت في سمكه السماك مع ... الجوزا ولم ينتسه له طرف

وكان الأمير منجك ابن المترجم وهب القصر المذكور لأحمد باشا المعروف بالكوجك ، لما كان كافل دمشق ، فأدرجه الكوجك في وقفه ، وهو الآن من جملة وقفه ، غير أنه لعبت به أيدي الحادثات ، فذهبت برونقه ، وكانت وفاة المترجم سنة ١٠٣٢ هـ ، ا هـ . قلت : ويظن بعض المعمرين في دمشق ، أن هذا القصر كان مبنياً في مكان الثكنة الحميدية ، ولا يزال البستان الذي شيدت فيه تلك الثكنة ، يدعى بستان القصر .

[انتهاء رحلة أوليا جلبي الأولى]

جولتنا الأثرية

كيليكية

إن السائح القادم من الأناضول إلى الشام يصل بادئ ذي بدء إلى بلاد كيليكية ، فينفذ إليها من مضيق في جبل (بلغار طاغ) أحد أعضاء جبال طوروس ، يدعى مضيق (كولك) أو باب كيليكية Pyles cilicienne ، وهو مضيق حرج ، كان له في كل العصور مكانة عظيمة من وجهتي سوق الجيش والتجارة . مرت منه في العصور الغابرة جحافل الفاتحين ، أمثال الفراعنة والاسكندر والأكاسرة والقياصرة ، ثم الأمويين والعباسيين والحمدانيين من المسلمين ، والصليبيين من الإفرنج ، وكان آخر المارين إبراهيم باشا المصري ، الذي بنى فيه أماكن للاستحكام ما برحت ماثلة . وثمة قلعة تشرف على هذا المضيق وتحرسه ، تعلو عن سطح البحر ١٦٠٠ متر ، هي الآن خراب ، وعلى طرفيه صخور شاهقة جرداء ، نبتت بينها ونمت أشجار عظيمة باسقة ، من الصنوبر والشوح . وممن مر بهذا المضيق الشاعر العربي ، الملك الضليل امرؤ القيس بن حجر الكندي ، دعاه بالدرب ، وإياه عنى في قوله :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه	وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما	نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

وكيليكية مجاورة لبلاد الشام ، بل إن بعض الجغرافيين يعدها جزءاً من الشام التي يوصلون حدها الغربي إلى جبال طوروس ، وقد سبق للعرب أن أقاموا في كيليكية ، ورابطوا في مدنها مدة مديدة ، وسموها (ثغور الشام) . قال ياقوت الحموي في كتابه المشترك « الثغر هو اسم لكل موضع يكون في وجه العدو ، فثغور الشام كانت آذنة وطرسوس وما معها ، فاستولى عليها الأرمن ، وصار يقال لها بلاد الأرمن ا هـ » .

وسبق للعرب أيضاً في عهد المماليك أن غزوها ، وداسوها مراراً لما كانت بيد الأرمن ، لذا رأيت أن أبحث بإيجاز عن حالتها الغابرة الحاضرة ، لشدة تعلقها بحالتي بلاد الشام .

فكيليكية في عهدنا من أملاك الجمهورية التركية ، تشمل ولاية آذنة وتحدها من الغرب جبال طوروس ، ومن الشمال آنتي طوروس (طوروس المناوح) ، ومن الشرق آمانوس (كارو طاغ = جبل اللكام) ، ومن الجنوب البحر المتوسط . وفيها سهل شاسع يسميه الترك لانخفاضه (جقوراووه) أي السهل المنخفض ، وأسماه العرب فيما مضى مرج الديباج أو مرج المصيصة ، وهو يعد من أخصب سهول بلاد الترك وأعظمها إنتاجاً ، تستعمل فيه الآلات والأساليب الزراعية الحديثة بكثرة ، وتجود فيه من الزروع الأعذاء القطن والحبوب والسمسم أي جودة ، لوفرة حره وغزارة نداه وخصب تربته ، لولا أنه وبيل الهواء ، لامتداد المستنقعات فيه من فيضان الأنهر التي تجتازه . وفي جبال طوروس قمم شامخة تعلو نحو ٣٥٥٠ متراً ، وهضاب ونجاد عالية ذات مناظر ومراتع جميلة ، وفيها حراج الصنوبر والشوح المنقطعة النظير ، ببسوقها والتفافها وطيب أريجها . ولشدة الحر والوبالة في مدن كيليكية ، يلجأ سكانها للاصطياف في هذه الجبال . وفي سهل (جقوراووه) أنهار عديدة أجلها شأناً من الشرق إلى الغرب نهر (دلي شاي) وهو صغير يخرج من جبل اللكام ، ويصب في شمالي بياس ، ونهر (جيحان) وهو أكبر أنهار كيليكية يخرج في الشمال من قرب بلدة (ابلستين = البستان) ويمر بمرعش ، ثم بما بين جبال طوروس وآمانوس ، ويجتاز جقوراووه ثم يصب في البحر بإزاء المصيصة . وفي معجم البلدان لياقوت : ان عليه عند المصيصة قنطرة من حجارة رومية عجيبة قديمة عريضة . قال أبو الطيب المتنبي :

سريت إلى جيحان من أرض آمد ثلاثاً لقد أدناك ركضاً وأبعدا

ونهر (سيحان) من أعالي نجود كبادوكية (ولاية سيواس الحالية) ويسير محاذياً السفح الشرقي لجبال آنتي طوروس ، ماراً بمدينة آذنة ، إلى أن يصب في جنوبي طرسوس . قال ياقوت في معجمه : وإياه عنى المتنبي في مدح سيف الدولة :

أخو غزوات ما تغب سيوفه رقابهم إلا وسيحان جامد

يريد أنه لا يترك الغزو إلا في شدة البرد إن جمد سيحان . ونهر (طرسوس) يخرج من سفح جبل (بلغار طاغ) وبعد أن يمر بطرسوس يصب قرب مصب سيحان .

تاريخ كيليكية : سكن كيليكية في العصور الأولى شعب من الآراميين ، ثم خلفهم الفينيقيون ، ثم الآشوريون ، ثم الكلدانيون ، ثم الفرس . وبعد أن هزم اسكندر المقدوني داريوس ملك الفرس ، في معركة أيسوس ، كثر سواد اليونانيين في كيليكية ، وزادت مستعمراتهم ، وصارت هذه الكورة من ممالك الاسكندر وأخلافه السلوقيين ، لكن أهل كيليكية اهتبلوا الغرر في فساد إدارة هؤلاء الأخلاف ، فثاروا واستقلوا ، ثم اندفعوا نحو الملاحة والقرصنة ، اللتين اشتهروا بها في التاريخ . وقد استفزت أعمالهم غضب الرومانيين ، فجاؤوا في عهد بومبيوس ، وحاربوهم وأخضعوهم ، وجعلوا كيليكية إحدى ولاياتهم . وكان شيشرون الخطيب المشهور من جملة ولاتها . وبعد انقسام المملكة الرومانية ، دخلت كيليكية في حوزة قياصرة القسطنطينية ، وصارت تسعد وتشقى حسب الأحوال التي كانت تتقلب بهم ، إلى أن انقرضت شعوبها القديمة بالكلية ، وخلفهم شعوب مختلفة ، أتوا من بلاد الشرق ، اختلط بعضهم في بعض ، ولم يعد لهم أرومة معروفة ، وجاء العرب المسلمون في القرن الأول الهجري ، فاكتسحوا بلاد كيليكية ، وقطنوها ورمموا مدنها وحصونها ، واتخذوها ثغوراً ، وكانت جيوشهم في غزوات الصائفة تجتاز مضيق كولك وتوغل في بلاد الروم (الأناضول) بينما أساطيلهم كانت تمخر في سواحلها وتسود . وفي القرن الرابع اغتنم البيزنطيون فرصة تنازع الخلفاء العباسيين في بغداد والفاطميين في مصر ، فجاء قيصرهم الأروع نقفور الفقاش واسمه عند الإفرنج Nicephore phocas واسترد كيليكية بأسرها ، كما انتصر على المسلمين في غاراته على بلاد الشام الشمالية ، مما سوف نذكره في حديث كل منها . وفي أوائل القرن الخامس بدأت جموع مهاجري الأرمن تتوارد إلى كيليكية من شرقي الأناضول وشماليه ، وتحتلها وتؤسس إمارات مستقلة فيها .

والأرمن من الأمم العريقة في القدم ، يزعم مؤرخوهم أن أصلهم من الكلدانيين ، هاجر جدهم الأكبر (هايكوس) من بلاد بابل إلى حول جبل آرارت سنة ٢١٠٧ ق . م وأسس فيه دولة دامت عدة قرون ، وزعم آخرون أن الأرمن من الشعوب الهندية

الأوروبية ، لأن لغتهم ومخارج حروفهم آرية غير سامية ، وأنهم جاؤوا من سهول روسية الجنوبية قبل ثلاثة عشر قرناً من الميلاد ، واجتازوا البوسفور إلى آسية الصغرى فسكنوا البقاع المحيطة بجبل آرارات ، ودعوها (أرمينية الكبرى) ، واختلطوا بالشعوب السامية القديمة ، حتى صاروا مزيجاً من الجنس السامي والجنس الآري (الهندي الأوروبي) . وقد كان للأرمن في العصور الأولى فيا قيل شوكة وحضارة غير يسيرتين ، وللغتهم آداب كاملة ، وأنشؤوا دولاً عديدة ، بعضها كان يتلو بعضاً ، وتسعد وتشقى تبعاً لهمة ملوكها . على أن هذه الهمة كانت ضئيلة ، والشقاء كان غالباً . وتاريخ الأرمن في العصور الأولى والمتوسطة طافح بأخبار الحروب والفتن ، التي كانت تحدث تارة بينهم وبين الأمم المجاورة كالآشوريين والفرس والمقدونيين والرومانيين والبيزنطيين ، وتارة بين هذه الأمم يكون فيها الأرمن عرضة لتناحر المتحاربين . ولغلبة الخور وسوء التدبير في قادتهم ، ودوام التنازع في عامتهم كانت الأمم المهاجمة في الغالب تنال منهم وتقتطع من بلادهم . وقد استولى الأرمن مرة على بلاد الشام في عهد ملكهم الأكبر ديكران سنة ٨٣ ق م ، وأزالوا دولة السلوقيين عنها ، ولكن حكمهم لم يدم أكثر من أربع عشرة سنة ، فأخرجهم الرومانيون منها بعد أن كانوا غلبوهم في عقر دارهم وقد اضطرت تلك الحروب الأرمن أن يجلو فريق منهم إلى أقطار مختلفة ويتشتتون . ولما جاء المسلمون اكتسحوا بلاد أرمينية الكبرى وكان البيزنطيون ينازعونهم لأجلها وينال الأرمن المضض من الفريقين . دام هذا الحال وازداد لما ظهر الترك السلجوقيون ، وامتدوا نحو الغرب ، وزاحموا الأرمن في بلادهم ، فاضطر هؤلاء أن يجلوا مرة ثانية ، فوفدت بعض جموعهم إلى بلاد كيليكية التي كانت شبه الخالية من السكان ، فاحتلوها وأطلقوا عليها اسم (أرمينية الصغرى) ، وأسسوا فيها إمارات صغيرة إقطاعية ، في حماية قياصرة الروم ، برزت منها بعد حين إمارة آل روبين ، واستظهرت على الجميع وكانت عاصمتها (سيس) . اشتهر منها ليون الأول ، وابنه طوروس الثاني المعروف عند العرب بابن ليون أو ابن لأون ، وهذا ماحمل مؤرخي العرب على تسمية كيليكية ببلاد ابن ليون . وليون الثاني الذي خلع حماية قياصرة الروم البيزنطيين ، واعتز بالصليبيين فلقبوه بالملك ، وازدهرت كيليكية في عهده ، فرقت تجارتها وزادت صادراتها ، وعمت الفنون بين الأرمن لاسيا فن البناء ، وزهت الآداب ، قال عنه ابن الأثير وابن الوردي وأبو الفداء ما ملخصه : أنه كان في آخر القرن السادس وأوائل السابع للهجرة

صاحب الدروب المجاورة لحلب ، وكان نور الدين محمود استخدمه ، وأقطع لـه في الشـام ، وكان يعسكر معه وكان جريئاً على صاحب القسطنطينية ، وكانت بينهما من أجل المصيصة وطرسوس وغيرهـا حروب ، وكانت بلاده حصينـة كلهـا حصون منيعـة ، والـدخـول إليهـا صعب ، لأنهـا مضـائـق وجبـال وعرة . وقـد ذكر هـؤلاء حـديث غـدره بـالتركمان الـذين استجلبهم ، وسمح لهم بـالرعي في مروج بلاده ، ثم فتـك بهم ، فبعث صلاح الـدين الأيوبي يثـأر منـه ، وبعـد أن دام الملـك في أسرة روبين زهـاء قرنين ونصف ، انتقل بعـد إلى أسرة هيتوم ، ودام زهـاء قرن ، ثم إلى أسرة لوسنيـان الإفرنجيـة ، ودام نصف قرن . وكان هؤلاء الملوك خلال هـذه القرون لا ينفكـون عن منـاوأة المسلمين ، إمـا وحـدهم ، أو مـع جيـوش الصليبيين والتتـار ، في غـاراتهم على بـلاد المسلمين وتـدميرهـا ، خـدمـوا الصليبيين والتتـار خـدمـات جلى في حصـار أنطـاكيـة وحلب ودمشـق وغيرهـا ، يميرونهم ويرشـدونهم إلى المسالك ، والعورات التي كانوا مطلعين عليها بحكم المجاورة والاتصال ، ويقدمون لهم أرباب الصناعات الحربية التي كانوا بارعين بها ، كبناة القلاع وعـارفي قواعـد حصـارهـا والـدفـاع عنهـا ، والنقـابين والنفـاطين ورمـاة المنجنيق ، وغيرهم من مستعملي آلات الهـدم والحرق . لذلك بعد أن انتهى المسلمون من أمر الصليبيين شرعوا منذ عهد الملك الظـاهر ركن الـدين بيبرس ومن خلفه من السلاطين المماليك يقـابلونهم بـالمثل ، ويغزونهم ويـدوخون بلادهم ، وقد عـدت التواريخ من هـذه الغزوات بين سني ٦٦٤ و٧٧٦ سبع عشرة غزوة ، خربت بهـا بلاد كيليكية ، وساء حال سكانها الأرمن ، إلى أن أسر ليون السـادس آخر ملوكهم في سنـة ٧٧٦ هـ ، في عهد الملـك الأشرف شعبـان ، ونقل إلى مصر وسجن ، ثم سمح لـه بـالسفر إلى أوربا فمات فيها ، وانقرضت به دولة الأرمن إلى اليوم .

وبعـد أن خلت كيليكيـة من دولـة الأرمن ، استلمهـا أحمـد بن رمضـان أمير قبـائل التركمان التي كانت متوطنـة في سهل العمق منـذ حـدود سنـة ٦٢٢ هـ ، ولـمـا استفحـل أمره وحاول الاستقلال فيها ، جهزت عليه دولة المماليك المصريـة سنـة ٧٨٥ هـ حملـة وحـاربتـه وأخضعته ، وبقيت الإمارة على بلاد كيليكية فيـه وفي أعقـابـه وأنسبـائـه آل رمضـان مئـة وتسعون سنة ، إلى أن جاء السلطـان سليم العثمـاني سنـة ٩٢٢ هـ قـاصـداً فتح الشـام ومصر فسلموه البلاد ، لكن سلاطين آل عثمان من بعده ، ظلوا يعينون من هذه الأسرة الرمضانيـة ولاة على كيليكيـة إلى سنـة ٢٨٠ هـ ، التي جهزت الـدولـة جيشـاً أخضع هؤلاء وغيرهم من

زعماء التركمان والكرد والمستبدين في سهول آذنة وجبالها ، وقضت على زعامتهم وفوضى حكمهم . وفي سنة ١٢٨٤ هـ تألفت ولاية آذنه بعد أن كان ثلثاها من الشرق تابعاً ولاية حلب ، وثلثها الغربي ولاية قونية .

أما الأرمن فقد بقوا بعد أن استولى العثمانيون على بلادهم ، في أرمينية الكبرى والصغرى آمنين هادئين في الجملة ، خلال القرون الأخيرة ، إلى أن جاءهم في أوائل هذا القرن الدعاة من الروس والإنكليز ، يحرضونهم على القيام لاستعادة ملكهم ويعدونهم بالمعونة ، فجاهروا في سنة ١٣١٣ هـ بعصية الدولة في شرقي الأناضول وجنوبه ، فعاقبتهم يومئذ شر عقاب ، ثم وثبوا عليها في كيليكية عقيب إعلان الدستور فلم يفوزوا بطائل ، ثم وثبوا خلال الحرب العامة في شرقي الأناضول وثبة كبرى وحاربوها مع الروس ، ضاربين أقفية الجيش العثماني في تراجعه ، فأجلت الدولة جميعهم من مواطنهم ، وأبعدتهم إلى عدوتي الفرات وأنحاء الموصل ، وشرقي القطر الشامي ، فهلك عدد عظيم منهم يقدرونه بمليون . وقد كان عدد الأرمن في البلاد العثمانية قبل الحرب العامة يقدر بمليونين ونصف ، مبعثرين فيها بين جموع الترك والكرد ، ولما احتل الفرنسيون بلاد كيليكية عقيب انتهاء الحرب العامة سنة ١٣٣٧ هـ ، خدم الأرمن الإفرنسيين ، وألفوا كتائب خاصة دعوها كتائب الانتقام ، انضمت إلى الجيش الإفرنسي في حروبه تجاه الترك المدافعين عن كيليكية ، وأحدثوا في حلب فتنة كبيرة ذكرها المؤرخان كامل الغزي في تاريخ حلب (٧١٤/٣) ، ومحمد الكرد علي في خطط الشام (١٦٧/٣) ، وأحدثوا مثلها في ذلك الحين في الأسكندرونة . ولما اضطر الإفرنسيون لإخلاء كيليكية وإعادتها إلى الترك ، لم يشاؤوا البقاء ، فجلوا منها سنة ١٣٤٠ هـ عن بكرة أبيهم ، وانتقلوا إلى أنحاء الأسكندرونة وحلب وبيروت وغيرها من مدن الشام وقطنوا فيها .

وبعد أن قاسوا من هذا الجلاء المضض ، تمكنوا بجدهم ومضاء عزمهم ، ومعاونة الأمم والدول الغربية لهم ، من النهوض والوصول إلى حالة حسنة في الجملة ، والأرمن يمتازون عن بقية الشعوب الشرقية بالنباهة ، وحب الكسب والتجارة ، والرغبة في العلم ، وإتقان الصناعات خاصة ما كان منها جميلاً ودقيقاً ، يهاجرون في سبيل الارتزاق ، وهم أرباب جد وصبر واقتصاد في المعيشة ، يزاحمون أهل البلاد التي يهبطونها في مختلف الحرف ، مهما

علا شأنها أو تفه ، ويعيشون أينما حلوا بالاجتماع والتعاضد ، وهم وإن لم يخل الخصام بين أفرادهم وأسرهم ، والتناحر بين أحزابهم السياسية يتضامنون عند الطوارئ تجاه الأغيار ، وكثيراً ما يتجاوزون حد الدفاع . وقد كان الأرمن في العصور القديمة والمتوسطة يتطوعون في جيوش الرومان والفرس والبيزنطيين ، وحتى العرب لقاء أجور ، وكانت منهم أرباب الصناعات الحربية التي ذكرناها ، وما برح الجيش الإفرنسي في بلاد الشام يستخدم من متطوعتهم عدداً وفيراً ، أبلى بعضهم في إطفاء الثورة الشامية الكبرى سنة ١٣٤٤ هـ أكبر بلاء . وعدد سكان كيليكية ثلاثمئة ألف ، جلهم من الترك والتركمان ، وقليلهم من الكرد والشركس ، والعرب النصيرية الذين أصلهم من جبال أنطاكية واللاذقية . وكان سواد الأرمن فيها إلى عقيب الحرب العامة نحو الخمس ، وقد قدمنا أنهم غادروها برمتهم في سنة ١٣٤٠ هـ .

وصف بلاد كيليكية : وقد اشتهرت بلاد كيليكية برقي زراعتها ووفرة غلاتها وصادراتها ، وقوة الحركة التجارية في ثغرها الوحيد (مرسين) ، وفي قاعدتها آذنة . ومن أشهر بلدانها آذنة وطرسوس ومرسين وسيس ومسيس وآياس وبياس وغيرها . و (آذنة) قاعدة ولاية آذنة وتعد من أمهات مدن الأناضول ، تحيط بها البساتين ، وتمتد أحياؤها على ضفتي نهر سيحان ، عدد سكانها في يومنا ٧٢٠٠٠ جميعهم من المسلمين الترك والعرب والكرد ، ولها على هذا النهر جسر حجري روماني عظيم ، فيه ست عشرة قنطرة ، وفيها مساجد ومدارس عديدة ، ومعامل لحلج القطن ، وهي بندر كبير لتجارة القطن وغيره من المحاصيل والأمتعة ، لكن هواءها رديء لوقوعها في السهل المنخفض الذي وصفناه . قال ياقوت في معجم البلدان : آذنة بلد من الثغور ، قرب المصيصة مشهور ، بنيت سنة ١٤٢ هـ [ولعل المراد أصلحت ، لأنها كانت قبل ذلك] ، ثم بنى الرشيد القصر الذي عند آذنة قريب من جسرها على سيحان ، في حياة أبيه المهدي سنة ١٦٥ هـ فلما كانت سنة ١٩٣ هـ بنى أبو سليم فرج الخادم آذنة ، وأحكم بناءها وحصنها ، وندب إليها رجالاً من أهل خراسان ، وذلك بأمر محمد الأمين بن الرشيد . قال أحمد بن الطيب : رحلنا من المصيصة إلى آذنة في مرج وقرى متدانية جداً ، وعمارات كثيرة ، وبين المنزلين أربعة فراسخ ، ولآذنة نهر يقال له سيحان ، وعليه قنطرة من حجارة عجيبة ، بين المدينة وبين حصن مما يلي

المصيصة ، وهو شبيه بالربض ، والقنطرة معقودة عليه على طاق واحد ، قال : ولأذنة ثمانية أبواب وسور وخندق ، وينسب إليها جماعة من أهل العلم . قلت : ولم يبق الآن من أبوابها وأسوارها المذكورة أثر . و (طرسوس) بلدة بين آذنة ومرسين مرتبطة بها بسكة حديدية ، عدد سكانها ٢٢٠٠٠ من المسلمين الترك والعرب النصيرية . وهي مبنية على نشز ، تحيط بها البساتين ، ولها بندر تجاري واسع ومعامل لحلج القطن ومساجد ومدارس عديدة ، بناها الفينيقيون ، وزاحمت في عهدهم الاسكندرية بعمرانها وتجارتها وكانت إذ ذاك قريبة من البحر تصل السفن إليها ماخرة نهرها المدعو باسمها ، واشتهرت في عهد الرومان بمدارسها الكبرى ، ينسب إليها بولص أحد حواريي المسيح وغيره من العظماء ، ومات فيها الخليفة العباسي المأمون ، ولم يبق من آثارها القديمة سوى أطلال حصن بيزنطي ومسرح ، وأثر قديم هائل يدعونه الحجر الباهت ، هو سور وسيع في داخله صخرتان بشكل المكعب على قاعدتها قطع من الرخام الأبيض . قال ياقوت : طرسوس مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم.. قال أحمد بن الطيب السرخسي : رحلنا من المصيصة إلى آذنة ، ومن آذنة إلى طرسوس ، وبينهما ستة فراسخ ، وعلى طرسوس سوران وخندق واسع ، ولها ستة أبواب ، ويشقها نهر البردان [ولعل المراد نهر طرسوس الحالي] ، وبها قبر المأمون عبد الله بن الرشيد جاءها غازياً ، فأدركته منيته فمات ، فقال الشاعر :

هل رأيت النجوم أغنت عن المأ ... مون في عز ملكه المأسوس
غادروه بعرصتي طرسوس ... مثل ما غادروا أباه بطوس

وما زالت موطناً للصالحين والزهاد يقصدونها ، لأنها من ثغور المسلمين ، ثم لم تزل مع المسلمين في أحسن حال ، وخرج منها جماعة من أهل الفضل ، إلى أن كان سنة ٣٥٤ هـ ، فإن نقفور ملك الروم ، استولى على الثغور ، وفتح المصيصة كما نذكره في موضعه ، ثم رحل عنها ، ونزل على طرسوس ، وكان بها من قبل سيف الدولة رجل يقال له ابن الزيات ورشيق النسيمي مولاه ، فسلما إليه المدينة على الأمان والصلح ، على أن من خرج منها من المسلمين وهو يحمل من ماله مهما قدر عليه ، لا يعترض من عين وورق أو خرثي ، وما لم يطق حمله فهو لهم مع الدور والضياع ، واشترط تخريب الجامع والمساجد ، وأن من أراد المقام في البلد على الذمة وأداء الجزية فعل ، وإن تنصر فله الحباء والكرامة

وتقر عليه نعمته ، قال فتنصر خلق فأقرت نعمهم عليهم ، وأقام نفر يسير على الجزية ، وخرج أكثر الناس يقصدون بلاد الإسلام وتفرقوا فيها ، وملك نقفور البلد ، فأحرق المصاحف وخرب المساجد وأخذ من خزائن السلام مالم يسمع بمثله، مما كان جمع من أيام بني أمية إلى هذه الغاية .

هذا وسيف الدولة حي يرزق بميافارقين ، والملوك كل واحد مشغول بمحاربة جاره من المسلمين ، وعطلوا هذا الفرض ونعوذ بالله من الخيبة والخذلان أ هـ . و (مرسين) مدينة على البحر المتوسط ، تبعد عن آذنة ٦٧ كيلو متراً إلى الجنوب الغربي ، بنيت في منبسط من الأرض ، وفيها شوارع فسيحة وأحياء ودور جميلة على طراز مدن الساحل الشامي ، وحولها حدائق البرتقال والليمون والمشمش وغيرها من الفواكه . وبعد أن كانت في مطلع هذا القرن قرية صغيرة لرداءة هوائها ، مدت السكة الحديدية منها إلى طرسوس فآذنة ، وعني بعمرانها فاردهت واتسعت ، وصارت من أجل مواني الأناضول ، لاسيا بعد تأسيس الجمهورية التركية ، وانصراف مجرى تجارة الأناضول عن مواني الشام ومدنه الشمالية .

ويقطن مرسين في يومنا زهاء ٢٥ ـ ٣٠ ألف نفس جلهم من المسلمين الترك والعرب ، وبعض العرب نصيرية ، وقليلهم من نصارى العرب والإفرنج الذين بيدهم مقاليد التجارة . وستزداد مكانة مرسين إذا تم مشروع إنشاء مرفأ في مينائها ، وتصبح من أعظم مواني البحر المتوسط . و (سيس) بليدة تبعد عن آذنة إلى الشمال الشرقي نحو ٦٥ كيلومتراً ، بنيت فوق نجد منحدر أجرد صخري ، وفي سفح أكمة عالية بيضاء جرداء ، تعد من أول أعضاد جبال طوروس في هذه الناحية ، وهذه الأكمة محاطة بمنطقة طويلة من الاستحكامات الخربة ، التي شادها ملوك الأرمن حينما كانت سيس قاعدة ملكهم ومركز اعتصامهم . وقبل الحرب العامة لم يكن في سيس سوى ٣ ـ ٤ آلاف نفس من أرمن وترك . وهي عارية عن كل نضارة ، وندر أن تجد فيها شجرة ، وحرها شديد من وهج الشمس وانعكاسه على الصخور المحيطة بها ، كما أن ماءها آسن ، وهواء ضاحيتها رديء لوفرة مستنقعاتها . لهذا إذا أقبل الصيف ، يهجرها ، أهلها بالكلية ، ويصعدون إلى نجود جبال طوروس . ودور سيس في منحدر الجبل راكب بعضها فوق بعض . ولا يزال ثمة بعض

أطلال قصور ملوك الأرمن وحصنهم الراكب على ذروة الجبل مع كنيستهم الخاصة مازال ماثلاً . قال أبو الفداء : « سيس بلدة كبيرة ، ذات قلعة بأسوار ثلثة على جبل مستطيل ، ولها نهر صغير وبساتين [ولعله أراد كروم] ، وهي بلدة ملك الأرمن وقاعدة ملكه في زماننا هذا » أ هـ . و (مسيس) أو المصيصة بليدة قديمة تبعد عن آذنة إلى الشرق نحو ثلاثين كيلو متراً ، بنيت وسط سهل أفيح على الشاطئ الغربي من نهر جيحان ، وفيها على هذا النهر جسر روماني عظيم ، واسمها القديم Moposueste ، وفي ضاحيتها أطلال وخرب قديمة من عهد ملوك الأرمن وقبلهم .

قال ياقوت : « المصيصة مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام ، بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس ، وكانت من مشهور ثغور الإسلام ، قد رابط بها الصالحون قديماً ، وبها بساتين كثيرة يسقيها جيحان ، وكانت ذات سور وخمسة أبواب . وكان يعمل فيها الفراء تحمل إلى الآفاق ، وربما بلغ الفرو منها ثلاثون ديناراً » أ هـ . ونقل أبو الفداء عن ابن حوقل العبارة الآتية : « والمصيصة مدينتان إحداهما تسمى المصيصة ، والأخرى كفربيا على جانبي جيحان ، وبينهما قنطرة حجارة ، وهي خصبة جداً على شرف من الأرض ، ينظر منها الجالس في مسجد الجامع إلى قرب البحر نحو أربعة فراسخ » : وقال أبو الفداء عن (آياس) : « بليدة كبيرة على ساحل البحر ، وبها ميناء حسنة ، وهي فرضة لتلك البلاد ، وقد أحدث الإفرنج بالقرب منها في البحر برجاً كالقلعة ، يحتمون به ، ومن آياس إلى بغراس مرحلتان ، ومن آياس إلى تل حمدون مرحلة .

ولما استنقذ المسلمون البلاد الساحلية ، مثل طرابلس وعكا وغيرها من أيدي الإفرنج قل وصولهم إلى الشام من جهة الموانىٔ التي بأيدي المسلمين ، ومالوا إلى آياس لكونها للنصارى ، فصارت ميناءً مشهوراً ومجمعاً عظيماً لتجار البر والبحر » . وقال أيضاً ماملخصه : « وفي سنة ٧٣٦ هـ في رمضان قصد بلاد الأرمن ملك الأمراء بحلب علاء الدين الطنبغا في عساكر كثيرة ، ونزل في ثاني شوال على ميناء آياس وحاصرها ثلاثة أيام ، ثم قدم رسول الأرمن من دمشق ، ومعه كتاب نائب الشام بالكف عنهم ، على أن يسلموا البلاد والقلاع الواقعة شرقي نهر جيحان ، فتسلموا منهم ذلك ، وكانت آياس من جملة تلك المدن ، فخرب المسلمون برجها الذي في البحر ، واستنابوا في تلك البلاد نواباً

وعادوا » ا هـ . قلت : وآياس في يومنا بليدة صغيرة محرومة من كل مكانـة ، إلا إذا أعيـد استعمال فرضة (يمور طه لق) وفتحت للتجارة بدل مرسين ، وهو مما لا يرجى . ولا تزال أطلال الحصن الأرمني الذي كان على الساحل ، والثاني الذي كان في جزيرة قريبـة منـه ، وكذلك أطلال مدينة نيكوبوليس القريبة منها ، كقنوات الماء والجسر والحمام وغيرها من المباني الضخمة ماثلة ، وفي جوار قلعتها مكان فيه ثلاثمئة غرفة منقورة في الصخر ، سعة كل منها ثمانية أذرع في ثلاثة ، ولعلها كانت مدافن للموتى .

هذا وفي بلاد كيليكيـة غير ما عـددناه قلاع عـديـدة ، ذكرهـا أبو الفـداء في تقويم البلدان منها : برس برت شمالي سيس ، وتل حمدون بالقرب من بلـدة جيحـان ، وفي شرقي تل حمدون حصن حموص وسرفندكار ، وفي شمالي جيحان عين زربـة (آنـاوارزا) وغيرهـا ، مما كانت تتعـاوره أيـدي العرب والروم والأرمن في حروبهم وغـاراتهم مـدة قرون ، إلى أن ثبتت في يد الترك العثمـانيين . وقـد تغيرت أسماء أكثر هـذه القلاع الآن ، وصـارت تعرف بغيرها كقولهم طوبراق قلعـة ، وبيلان قلعـة ، وتوملو قلعـة ، وبودروم قلعـة ، وشـاهمران قلعة ، وغيرها مما يضيق نطاق بحثنا عن الإحاطة به .

وفي يومنـا يـأتي السـائح إلى كيليكيـة من استـانبول وهو راكب قطـارات (شركـة سكك حديد الأناضول) ، فإذا غادر محطة بوزانطي ، ووصل إلى محطـة ينيجـة ، إمـا أن ينتقل منهـا إلى فرع مرسين ، أو يستـأنف السير شرقـاً مجتـازاً سهل جقوراووه فيصـل إلى (آذنـة) . وبعـد مغـادرة آذنـة ، يجتـاز القطـار محطـات المجيرلـك وكـوركجيلر ومسيس وجيحان وفي قربها قلعة شاهمران ، ثم يمر بمضيق يسيل في قعره نهر جيحان ، وتشرف عليه قلعة تدعى (بيلان قلعة) ، يزعمون أن فيها حية هـائلـة يقـدم لهـا قروييو هـذه الأنحـاء القرابين ، ثم يمر بمحطة الويسية ، فيرى السائح على يمينه قلعة عين الزربة المبنية على أكمـة عالية منتصبة وسـط السهل ، وفي محطـة (طوبراق قلعـة) يرى أيضـاً قلعـة تـدعى بهـذا الإسم . ومن ثم يغادر قاصد الأسكندرونة القطار الـذاهب إلى حلب[1] وينتقل إلى القطـار الذاهب إلى الأسكندرونـة ، فيمر بمحطـات أرزين ، الجـاثمـة وسـط السهل الأفيح ، الـذي

---

(١) يمر هذا القطار بمحطات دامانية ومعمورة وباغجة وفوزي باشا والإصلاحية وميدان اكبز (وفيها الحد والمكس الشاميين) وراجو وقورت قولاق وقطمة وتل أرفاد والمسلمية وحلب .

حدثت فيه معركة إيسوس بين الإسكندر وداريوس ، ثم بمحطة درت يول ، وفيها بساتين جميلة وبياس ، وفي هذه يدخل الحدود الشامية الحالية .

☆ ☆ ☆

أما المقتفي أثر سائحنا (أوليا جلبي) والمتطي الرواحل أو المركبات ، إذا غادر آذنة يصل بعد خمس ساعات ونصف إلى (مسيس) التي تقدم وصفها ، فإذا خرج منها يعبر نهر جيحان فوق جسره الروماني ، ويتسلق أعضاد جبل مسيس ، ويجتاز فيها سهلاً واسعاً يصل منه إلى مضيق (دمير قبو) الذي ذكره (أوليا جلبي) (ص ١٥) وكان اسمه قديماً Pyles ammanieds باب الأمانيين ، أي سكان جبل آمانوس ، وهو مضيق بين عدة آكام من أعضاد جبل مسيس . ثم يشرع السائح يحاذي في سيره شاطئ خليج الأسكندرونة ، فيجتاز مجرى نهر (دلي شاي) الذي حدثت فيه على بعض الأقوال معركة إيسوس بين إسكندر وداريوس . ومن ثم يغادر على يساره بليدة (درت يول) ومن بعدها يصل إلى (بياس) التي وصفها (أوليا جلبي) ص ١٥ ، قال ياقوت في معجمه : بياس مدينة صغيرة شرقي أنطاكية وغربي المصيصة [وصحيحه أنها شمالي أنطاكية وجنوبي المصيصة] بينها قريبة من البحر بينها وبين الأسكندرية [وصحيحه الأسكندرونة] فرسخان ، قريبة من جبل اللكام . قال البحتري :

ولقد ركبت البحر في أهواله ... وركبت هول الليل في بياس

وقطعت أطوال البلاد وعرضها ... ما بين سندان وبين سجاس (؟)

وإلى بياس ينسب الخشب المعروف في دمشق باسم الخشب البياسي ، وفيها وفي بليدة (درت بول) القريبة منها ينتج صنف من البرتقال الجيد يدعى البياسي ، ثمرته متوسطة الحجم ، مستديرة لها قشرة رقيقة ، ولب سكري كثير العصارة وهي الآن آخر بليدة تركية متاخمة لبلاد الشام الحالية . والحد الحالي الذي تم الاتفاق عليه بين الترك والفرنسيس سنة ١٣٤٩ هـ ١٩٣٠ م يبدأ من مصب نهر بياس الصغير الذي يبعد عن محطتها إلى الشمال نحو خمسمئة متر . وبياس تحيط بها أشجار الزيتون والليمون والبرتقال ، وفيها حصن قديم صغير في البحر ، وقلعة في البر ، وأطلال كنيسة وجامع وحمامات وجسر قديم على نهرها . وهي تبعد عن الأسكندرونة بطريق المركبات ٢٣ كيلو متراً ، ومرتبطة بها بالسكة الحديدية أيضاً .

جبل اللكام

وجبل اللكام يدعوه الإفرنج آمانوس Amanus ، وعامة الترك (كاور طاغي = جبل الكفرة) ، ودعته حكومتهم جبل البركات ، وذكرته بعض التواريخ العربية باسم الجبل الأسود لسواد حراجه الملتفة ، وسلسلة اللكام تعد عند أكثر الجغرافيين التخم الطبيعي بين سورية والأناضول ، ويمر الآن في وسطها من الغرب إلى الشرق الحد الذي اعتبر رسمياً بين جمهورية تركيا وبلاد سورية الواقعة تحت الانتداب الإفرنسي ، وهي تنفصل عن جبال مرعش وسيس من سلسلة طوروس بوادي نهر جيحان ، وتتجه بخط مستقيم إلى الجنوب حتى مضيق بيلان الذي يفصلها عن الجبل الأحمر (قيزيل طاغ) ، الممتد شمالي أنطاكية وغربيها ، وطولها فيما قيل مئة وسبعون كيلو متراً وعرضها ثلاثون كيلو متراً .

وفي هذه السلسلة أودية ووهاد سحيقة ، ومهاوٍ ذات منحدرات صعبة ، ونجود ومرابع عالية صالحة للاصطياف ورعي الماشية ، لجودة هوائها وغزارة مياهها ، وروعة مشاهدها وطيب أعشابها ، ووفرة حراجها وأثمارها مما يفوق ما في لبنان أو غيره من جبال سورية ، وفيها أطواد سامية ، وقمم شاهقة ، أعلاها آق قيا (الصخرة البيضاء) ٢٥٠٠ متراً ، ومغبر أو موغر ٢٢٦٧ متراً ، وألما داغ (جبل التفاح) ١٨٣٥ متراً ، ويجلل الثلج الخالد القمتين الأوليتين في معظم أيام السنة ، وتشرفان على سهول حلب وآذنة على السواء . وفي سلسلة اللكام مضائق وثنايا ذات شعاب ومسالك كأداء دعاها العرب بالدربندات ، كانت تعبر منها في العصور الغابرة جيوش الغزاة والفاتحين من الشمال إلى الجنوب وبالعكس : أجلها في الجنوب مضيق بيلان ، وفي الوسط مضيق دكر من دره (وادي الطاحون) النافذ إلى قلعة المركز ، والآتي من وادي النهر الأسود ، وفي الشمال مضيق باغجه أو آصلان بوغاز ، وقد كان ممر غزاة الصائفة في عهد الأمويين ، وصار الآن ممر السكة الحديدية الذاهبة إلى حلب . وكان القدماء أقاموا في هذه النقاط الحاكمة على

هذه المضائق الوعرة قلاعاً كثيرة ، كان يشحنونها بالمقاتلة لمنع الأعداء من المرور ، لاتزال أطلال بعضها ماثلة في أماكن عديدة ، كما في فنك وساقط وبكداشلي وكوندوزلي وجيلانلي ومال أوجاسي واشميشك وغيرها . ولكن أجل هذه القلاع قدراً وشهرة في الشمال ، وفي منتصف مضيق دكر من دره الذي تقدم ذكره (قلعة حجر شغلان) صعبة المرتقى ، تشبه عش النسر بمنعتها ورفعتها ، تعلو عن سطح البحر ١٢٥٠ متراً ، ومثلها في الشمال وعلى مقربة من الأسكندرونة (قلعة المركز) ، وفي الشرق على حاشية سهل العمق (قلعة دربساك) ، ومثلها في الجنوب (قلعة بغراس) .

خلاصة تاريخ جبل اللكام : ذكر المؤرخون أن بلاد سورية كانت يوم عرف تاريخها مغشاة بالأشجار ، ولا سيما في جبالها الشاهقة كاللكام واللبنانين الغربي والشرقي . فهذه الأشجار حركت مطامع الأمم الغابرة ، فكان منهم السومريون ملوك بلاد مابين النهرين ، الذين عرفوا جبل اللكام قبل ثلاثين قرناً من الميلاد ، وقطعوا ونقلوا منه أخشاباً للبناء ، وأدخله سرجون ملك الاكاديين في حوزته ، ونقل منه إلى بلاده غراساً مختلفة كالورد والتين والتفاح ، واستولى عليه أيضاً الحثيون ، حينما بسطوا سلطانهم على معظم بلاد سورية . ولما انقرضت دولتهم نشأ على أنقاضها في جبل اللكام والبقاع المجاورة له دويلات شتى لشعوب أرامية ، منها دويلة العنقي في سهل العمق ، ودويلة الكانو أو العانو في جبل اللكام ، الذي دعي من ذلك الحين أمانوس وأهله الامانيون .

ولما زحف الآشوريون من بلادهم نحو الشرق اضطروا للتوقف أمام مضائق جبل اللكام . وقطع ملكهم آشور ناسيربال سنة ٨٧٧ ق.م من حراجه ، وحراج جبل لبنان ، كثيراً من أخشاب الصنوبر والشوح ونقلها إلى عاصمته نينوى . ولبث ملك آخر منهم اسمه (سالامانزار) سنتين يحاول اقتحام المضائق المذكورة ، التي كان سكانها الامانيون يدافعون عنها . وفي المعركة الهائلة التي حدثت بين الإسكندر المقدوني وداريوس الفارسي في سفح جبل اللكام الغربي ، كان كل منهما يسعى للمرور من مضايق هذا الجبل قبل خصمه ، ليأخذه على حين غرة . وبعد موت الإسكندر اقتتل في هذا الجبل اثنان من خلفائه وهما ديمتريوس الذي تملك بلاد اليونان ، وسلوقوس نيكاتور الذي تملك بلاد اسية وكانت الدائرة على ديمتريوس . وفي عهد الرومانيين قاسى شيشرون أحد ولاتهم على كيليكية المصاعب في إخضاع الامانيين الثائرين ، وكان انتصاره عليهم سبباً لتسنمه عرش

الأمبراطورية . وظل هؤلاء الآمانيون الجبليون القساة في عهد الدولتين الرومانية والبيزنطية شبه المستقلين ، وكانت عاصمتهم تدعى جرجومة ـ دثرت الآن ـ ، ولذا عرفهم العرب في أول عهد الإسلام باسم الجراجمة .

وكان قيصر الروم هرقل ، لما يئس من سورية عقيب أن استخلصها المسلمون منه وسار عنها إلى القسطنطينية أخذ أهل الحصون التي بين الأسكندرونة وطرسوس ، لئلا يسير المسلمون في عمارة ما بين أنطاكية وبلاد الروم ، وشعث الحصون فكان المسلمون لا يجدون بها أحداً . ويظهر أن هؤلاء رجعوا بعد حين إلى أماكنهم ، وصالحوا المسلمين . قال ياقوت في معجم البلدان عن هؤلاء : « إنهم عرفوا في كتب العرب بالجراجمة ، نسبة لمدينة جرجومة ، عند معدن الزاج فيما بين بياس وبوقة ، قرب أنطاكية ، وقد صالح الجراجمة المسلمين على أن يكونوا أعواناً لهم ، وعيوناً ومسالح في جبل اللكام ، وكانوا يستقيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى ، فيكاتبون الروم فيمالئونهم على المسلمين ، وخرج قوم منهم في حرب مصعب بن الزبير إلى الشام مع قائد الروم ، فتفرقوا في نواحي الشام لا سيما لبنان ، وعرفوا بالمردة ، فاضطر عبد الملك بن مروان إلى أن صالحهم » ا هـ .

ولما استولى قيصر الروم نيقفور على كيليكية سنة ٣٥٤ هـ استولى على جبل اللكام أيضاً ، وأسكن فيه فريقاً من الأرمن ، وسلمهم قلاعه ومسالحه ، ليحرسوها له تجاه المسلمين ، ولما استتب الأمر لملوك الأرمن في كيليكية على ماقدمنا ، أدخلوا جبل اللكام في حوزتهم ، ولما جاء الصليبيون أعانهم الأرمن في اجتياز مضائق هذا الجبل ، وسلموا بعد حين قلاعه إلى الفرسان الهيكليين[1] ، ثم نشب الخلاف بينهم لأجلها ، وتقاتلوا مراراً

---

(١) كان في عهد الصليبيين في بلاد الشام جمعيتان دينيتان أو رهبنتان عسكريتان ، وكان اسم رجال الأولى الرهبان الهيكليين أو فرسان الهيكل Chevaliers du temple أو Les Templiers ، سموا بذلك نسبة لمكانهم الذي أسسوا فيه رهبنتهم سنة ١١٢٨ م وكان قرب موقع هيكل سليمان في القدس ، وذكرهم مؤرخو العرب باسم (الداوية) ، ومعناه على ماقيل في السريانية الفقراء ، وهو مالقبوا أنفسهم به ، وكان شعارهم رداء أبيض عليه صليب أحمر . واسم رجال الثانية فرسان ماريوحنا Chevaliers de Saint jean أو Les Hospitaliers الاسبتالية أو الاسبتارية ومعناه المضيفون ، أسسوا رهبنتهم في القدس أيضاً سنة ١٠٢٣ م لضيافة الغرباء من بني جلدتهم ، وجعلوا شعارهم رداء أسود على الكتف اليسرى منه صليب أبيض ، وقد كان رجال هاتين الجمعيتين أو فرسانها ، من أشد الصليبيين وطأة على المسلمين ، كانوا مكلفين بحفظ القلاع ، والإغارة منها على بلاد المسلمين .

استعان في أحدها الأرمن بالتتار ضد الفرسان المذكورين . وكان كل منهم خلال ذلك يتخذها نقاطاً للاستناد عند زحفه شمالاً أو جنوباً . وظل هذا الأخذ والرد مستمراً ، إلى أن جهز الملك الظاهر ركن الدين بيبرس في سنة ٦٦٤ هـ جيشاً لغزو سيس ، قاعدة بلاد الأرمن إذ ذاك ، وولي قيادة هذا الجيش الملك المنصور ، ناصر الدين محمد بن الملك المظفر محمود التقوي الأيوبي صاحب حماة ، فجاء واستولى على هذه القلاع ، وأباد الفرسان الهيكليين المرابطين فيها ودمرها ، ثم أتم غارته على سيس ، ورجع ظافراً غانماً ، وظلت هذه القلاع بيد المسلمين ، جعلوها نيابة من أعمال حلب مركزها في قلعة حجر شغلان ، على ماجاء في صبح الأعشى للقلقشندي . وسكان هذه الجبال الشاهقة في يومنا تركمان سنيون لا يزالون على الفطرة ، معروفون بصدق المعاملة ، يقطنون في الشتاء في قراهم المخبأة في بطون الفجاج ، قرب السفحين الغربي والشرقي ، وفي الصيف يصعد أكثرهم كما قال (أوليا جلبي) إلى المرابع والنجود المرتفعة ، لرعي الماشية وقطع الحطب وحرق الفحم ، ويحذو حذوهم جم غفير من أكراد حرة اللجة ، في شمالي العمق ، وهؤلاء رحل أهل وبر وأكارون . وجبال اللكام كانت وما تزال غنية بالحراج (١٥٠٠٠ هكتار) ، رغم انكباب الأمم الغابرة على قطعها لبناء الأساطيل والمعابد والقصور ، وآخر من انكب على ذلك إبراهيم باشا المصري ، لما شرع بإنشاء دار صناعة لبناء السفن في ميناء الأسكندرونة . وهي قد اشتهرت بوفرة ما في منحدراتها الشرقية والغربية من الصنوبر الحلبي والأرز والشوح والسنديان والبلوط والزان والقيقب ، والأشجار المثمرة البرية كالتفاح والأجاص والزعرور ، ويكثر الدلب والصفصاف المستحي ، والجوز والدردار في الأودية الرطبة ، كما أن الزمزريق والقطلب ، ولا سيا اللبنة منتشرة وكثيفة في أكثر الأماكن . وفي قرب بياس داخل حدود لواء الأسكندرونة منجم كبير ، يحوي معادن مختلفة كالحديد والكروم والأميانت والمانغانز والنحاس ، لكنها بنسبة قليلة لاتفي بنفقات الاستخراج . وقد عرف القدماء هذه المعادن ، واستثمروا منها معدن الزاج الذي ذكر المؤرخون وجوده بين بياس وبوقة .



قلعة صاري سكي ، قلعة المركز

طريق بياس ـ الأسكندرونة

إذا خرج السائح من بياس موازياً شاطئ خليج الأسكندرونة ، يصادف على بعد كيلو متر منها نهر بياس الذي ذكر (أوليا جلبي) جسره ، وفي ضفته اليسرى يبدأ التخم الذي اعتبر الآن رسمياً بين بلاد الشام وبلاد الترك . وهذا التخم يسير شرقاً بموازاة ذلك النهر ، متسلقاً قمة مغبر ، هابطاً ضفة نهر الأسود اليسرى . ويصادف السائح في طريقه سهلاً كثير الحصى والبلان ، مبسطاً بين سفوح جبل اللكام والبحر . أما التكايا التي ذكرها الجلبي فقد دثرت وبعد مسير عشرة كيلو مترات يصادف السائح أطلال جدار يمتد من الغرب إلى الشرق ، يدعوه الفرنج (جدار السلوقيين) ، لا يزال قسم منه قرب البحر سالماً في الجملة ، وقسم آخر في سفح الجبل ، وكان هذا الجدار على ما يظهر لسد الطريق في وجه الجيوش الزاحفة من الشمال إلى الجنوب أو بالعكس . وبعد الجدار يصادف قرية اسمها صاري سكي ، لها نهر بهذا الاسم وعليه جسر ، ويمكن للسائح أن يذهب من هذه القرية لزيارة قلعة حجر شغلان التي تقدم ذكرها ، وهي لاتبعد على الماشي أكثر من ساعة ونصف . وبعد كيلو متر يصادف قلعة صغيرة تدعى (قلعة المركز) ذكرها الجلبي (ص ١٥) ، وهي لاتزال ماثلة بجدرانها وببعض أبراجها الضخمة ، وهي إحدى قلاع جبل اللكام المنيعة التي نوهنا بها وبمصيرها ، ويظهر أن هذه القلعة كانت مخصصة بحراسة باب كيليكية القريب منها ، وباب المضيق الآخذ إلى قلعة حجر شغلان المجاورة لها ، وقل من يعرفها الآن بهذا الاسم بل باسم صاري سكي القرية القريبة منها ، وكان الصليبيون يسمونها حصن كاستيم ، أو حصن كودفروا .

وبعد مغادرة قلعة المركز ، يضيق السهل الممتد في الساحل تدريجياً إلى أن يقترب ذيل جبل اللكام من البحر ، فيؤلف معبراً ضيقاً كان يسميه الرومانيون باب كيليكية Pylae ciliciae ، والصليبيون Portella ، وكان يعتبر هذا المضيق في العصور الغابرة الحد الفاصل بين الشام وكيليكية ، وكان فيه لملوك الأرمن دار للمكس . وقبل الحرب العامة

مد الألمان في وسطه سكة الحديد الآخذة من الأسكندرونة إلى (طوبراق قلعة) فحلب . ويعلو الصخور عن يمين المضيق ويساره أعمدة رخامية أثرية ، يعرفها الملاحون باسم أعمدة يونس ، ويزعمون أن الحوت الذي ابتلع النبي يونس عاد فلفظه على شاطئ هذا المضيق ، على حين أنها ليست إلا بقايا باب كبير من آثار اليونانيين أو الرومانيين ، كان معداً لسد المضيق وفتحه في وجه المارين والعابرين ، أو للإشارة إليه . وفي رواية : أن جسد الإسكندر بعد موته وضع فوق هذا الباب ، ومرت من تحته قواده وجحافله ، وقلعة المركز على قيد غلوة من هذين العمودين ، ولا يزال سكان هذه البلاد وهم أتراك ، يدعون المضيق والقلعة معاً باسم صقال طوتان . ثم يمر السائح من قرب قرية يقطنها مهاجرو جزيرة كريت ، ثم بعد خمسة كيلو متر يمر من قرب مزارينسب للقديس (جاورجيوس) يزوره اليوم الأرثوذكس في يوم معين من السنة ، ولا يزال سائراً على شاطئ البحر حتى يصل إلى الأسكندرونة .

الأسكندرونة : والأسكندرونة بلدة قديمة ، ذكرها المؤرخان اليونانيان هرودتس وكسنفون باسم ميريانـدروس . إلا أن هذه كانت خارج البلدة الحالية ، وإلى الجنوب الشرقي منها ، وكانت مستعمرة لفريق من الفينيقيين . أما الأسكندرونة الحالية فقد بناها فيما قيل (آنتيغون) أحد خلفاء الإسكندر في سني (٣١٦ ـ ٣٥٢ م) لتجيد النصر الباهر الذي أحرزه الإسكندر على دارا ملك الفرس في معركة إيسوس التي تقدم ذكرها . وكان موقع الأسكندرونة قديماً في جوار (ميريانـدروس) وقرب الحصن الكائن عند رأس عينها ، وكان البحر يصل إلى أمامها كما سيأتي ذكره في حديث هذا الحصن ، وفي القرن الثالث للميلاد جاء الفرس وخربوا الأسكندرونة ، وظلت خراباً إلى ظهور الإسلام . وفي زمن المسلمين لم يكن لها ذكر في الفتوحات ، إلى أن كانت خلافة هارون الرشيد فبنت زوجته زبيدة فيها حصناً ، ثم في خلافة الواثق رممها ووسعها أحمد بن أبي داود الأيادي ، على ما ذكره أبو الفداء نقلاً عن أحمد الكاتب الذي دعاها باب أسكندرون ، في حين أن هذا الباب هو في بيلان لا الأسكندرونة نفسها ، على ما صححه أبو الفداء فيما ننقله عنه في حينه ، وظلت الأسكندرونة ممراً لغزاة الصائفة من المسلمين ، وقاصدي الإغارة على بلاد الشام من البيزنطيين ، ومحطاً للتجارة ، إلى أن جاء الصليبيون واستولوا عليها ، ففقد الأمان من حولها ، وتحول مجرى التجارة إلى السويدية ، فرضة أنطاكية ، وإلى اللاذقية

وطرابلس ، وعادت الأسكندرونة إلى خرابها ، يلجأ إليها لصوص البر والبحر حتى القرن العاشر الهجري ، ففيه التمس تجار الإفرنج المقيمون في حلب من الدولة العثمانية أن تجعلها فرضة حلب ، فأجيبوا فصارت تأتي سفنهم إلى الأسكندرونة ، وتجلب بضائعهم منها إلى حلب ، على النحو الذي وصفه (أوليا جلبي) . وكان السبب في التماسهم هذا أمرين : الأول : ظلم حكام طرابلس أبناء سيفا ، الذين كانوا يعتدون على أولئك التجار وبضائعهم ، والثاني : قرب الأسكندرونة من حلب وما وراءها ، من البلاد الممتدة حتى العراق والعجم والهند ، وحسن مينائها الذي لا يضارعه أي ميناء في الساحل الشامي لوقوعه في خليج كبير مصون من الأنواء ، بيد أن فوضى الأحكام في القرن الحادي عشر كانت تغري عصابات اللصوص ، من الكرد والتركمان وسكان الجومة والعمق ، فتأتي كما نوه به (أوليا جلبي) أيضاً ، وتهاجم الأسكندرونة كلما اهتبلت الغرر ، وتحاصر قناصلها وتجارها في دورهم ، وتفرض الأتاوات عليهم ، وعلى القوافل الداخلة والخارجة . وفي القرن الثالث عشر سنة ١٢٣٨ هـ حدث فيها زلزال دمر معظمها فرممت قليلاً ، ثم عمر بها خان لم تزل آثاره باقية ، واستقر بها تجار من الإنكليز ، اتخذوها محطة للهند قبيل فتح قناة السويس .

وفي سنة ١٢٤٨ هـ نقل إليها إبراهيم باشا المصري عتاد جيوشه ، وقطع من حراج جبل اللكام المجاورة الأخشاب العظيمة ، لينشئ فيها مصنعاً للسفن ، فالتف حولها السكان ، وصارت قرية يقطنها النصيرية وقليل من الترك وتجار الإفرنج . وقد زارها بعض سياح الإفرنج (كبوجولا) في سنة ١٨٣١ م ، والأميرة (بلجيو جوزو) في سنة ١٨٥١ م ، و (دي لورته) في سنة ١٨٧٢ م ، وكتبوا عنها ونوهوا بمكانتها الجغرافية والتجارية ، ولكنهم شكوا من حرها ورداءة هوائها ، وقذارة أزقتها وحقارة بيوتها ، التي كانت مبنية بين المستنقعات ، وقالوا إن أكثرها أخصاص وأعشاش يقطنها أناس هزلى اصفرت وجوههم ، وغارت أعينهم ، وتضخمت طحالهم ، وأن تجار الإفرنج والمرفهين من أهلها ، لا يمكثون في الصيف إلا سحابة النهار ، وفي الليل يصعدون إلى بيلان ذات الهواء الجيد . وعلى الرغم من هذه الحالة فقد كان موقع الأسكندرونة الجغرافي ، وحسن فرضتها ، وكثرة توافد سفن البحر وقوافل البر يزيدها نمواً في العمران والسكان ، لا سيا بعد أن

جعلتها الحكومة العثمانية في سنة ١٢٨٢ م قاعدة ناحية تتبع قضاء بيلان ، ثم في سنة ١٢٩٥ هـ جعلتها قضاء يتبع ولاية حلب ، وشرعت بتجفيف المستنقعات ، وأتمت في سنة ١٣٠٣ هـ تعبيد طريق المركبات منها إلى حلب ، فصارت الأسكندرونة من ذلك الحين ، فرضة عظيمة لاستيراد واستصدار البضائع ، بين البحر وحلب والعراق والأناضول الشرقي ، ودام هذا النمو والعمران ، إلى أن قضت عواقب الحرب العامة بانفصال تلك البلاد الداخلية ، واقتصار الأمر على حلب وضواحيها ، كما قضت بتقريب التخوم بين الأناضول والشام ، إلى قاب قوسين من الاسكندرونة ، فقل واردها وصادرها وأفل نجمها من ذلك الحين . وبعد احتلال الإفرنسيين في سنة ١٣٣٧ هـ جعلت قاعدة لواء ألحق أخيراً بدمشق .

وبلدة الأسكندرونة في منبسط من الأرض ، ممتد على ساحل البحر ووراءه المستنقعات والتلعات ، التي تصل إلى سفح جبل اللكام . عدد سكانها نحو ثلاثة عشر ألفاً ، أكثرهم من الأرمن اللاجئين ، على أثر إخراجهم من بلاد الترك بعد سنة ١٣٤٠ هـ ، ويليهم النصيرية ، ثم النصارى على اختلاف نحلهم ، وغالبهم روم أرثوذكس ، ثم الترك والعرب السنيون ، وأحياؤها ومبانيها متجهة إلى الشمال نحو الخليج ، في امتداد شارعها الأعظم المتصل بطريق حلب المعبدة ، تقاطعه شوارع ثانوية ، تتجه من الغرب إلى الشرق ، ولها على شاطئ البحر الرملي شارع عريض ، هو منتزه البلد الأوحد ، وما خلا الضاحية الغربية ، المؤلفة من أكواخ خشبية حقيرة ، يقطنها فلاحون من النصيرية ، فإن أكثر مباني هذه البلدة حجرية جميلة ، من طراز بناء الساحل الشامي ، مسقوفة بالآجر الأحمر ، وشوارعها عريضة مستقيمة معبدة ، وتكثر فيها دور الحكومة والفنادق والمقاهي ، وحوانيت التجار والمصارف ، ودور قناصل الدول ووكالات البواخر ، وكنائس الطوائف النصرانية والأجنبية ومدارسها ، وللمسلمين جامعان ، وقليل من المدارس البدائية ، وثمة معمل للنور الكهربائي ، وفي شرقي البلدة مرفأ صغير في قرب دار المكس ، ومستودعات ومعامل عظيمة ، لشركتي البترول وعرق السوس .

وقبل الحرب العامة ، كان الألمان وصلوا الأسكندرونة بحلب ، بسكة الحديد الممتدة من استانبول إلى بغداد ، وذلك بالفرع الذي قدمنا ذكره ، وامتداده إلى طوبراق قلعه ، بيد أن هذا الفرع الذي يمر الآن ببلاد الترك بعد اجتياز مسافة معوجة طويلة ، والمرفأ

الصغير الذي بنته شركة إفرنسية شرقي البلدة لم ينفعا الأسكندرونة بنسبة ما كانت تتوخاه .

وحر الأسكندرونة في الصيف ورطوبتها ، أشد وطأة من بيروت ، لعلو جبال اللكام المحيطة بخليجها ، ولقربها ووقوفها كالجدار ، ولوفرة المستنقعات التي تتصاعد منها الأبخرة ، فالرياح الغربية الآتية من عرض البحر ، إذا ما اصطدمت بالجبال المذكورة ، تقف وتؤلف طبقة كثيفة ثقيلة ، تحجب أحياناً الشمس ، وإذا ركد الهواء تخال أنك في حمام . وفي الخريف والشتاء يحدث أحياناً في أعالي هذه الجبال ، ريح شرقية عاتية ، تهب بشدة ، فتخيف السفن وتضر الأشجار والمباني . على أن اختلاف الحرارة اليومي ليس بكثير . فالدرجة العظمى لاتزيد عن الـ ٣٥ وندر أن تهبط إلى الصفر . أما المطر فشديد التهطال ، تصل كميته في السنين المتوسطة إلى الثمانمئة ميليمتر . وماء الأسكندرونة يؤتى إليها بأنابيب حديدية ، من ينبوع في ضاحيتها الشرقية يدعى رأس العين ، وقد ذكره سائحنا (أوليا جلبي) .

ويعد رأس العين أجمل منتزه في هذه البلدة ، وليس في داخل الأسكندرونة مكان أو بناء أثري . ولكن في خارجها مكانان يستحقان الزيارة : الأول ، موقع بلدة (ميرياندروس) القديمة ، وهو في شرقي التل المشرف على نبع رأس العين ، وفي أرض مرتفعة متسعة ، عثروا فيها على قواعد أعمدة وآبار متصلة بقنوات ونواويس وقبور وفسيفساء وأسس جدران وكهوف ، استخرجوا منها فيا قيل كثيراً من العاديات ، بعضها أواني وأدوات نحاسية ، وبعضها حلي ذهبية ، والمكان الثاني ، أطلال حصن الأسكندرونة ، وهي في يمين طريق حلب في بستان كاتوني أحد وجهاء هذه البلدة . وهذه الأطلال مؤلفة من سور واسع ، مثمن الأضلاع ، ومن أبراج متعددة ، وكان هذا الحصن مبنياً على شاطئ البحر ، قبل ابتعاده عنها بعداً يبلغ الكيلومتر في عهدنا .

وما برح أهل الأسكندرونة يذكرون حلقات الحديد التي كانت في جدران الحصن لربط السفن ، وقد زعم أثري ألماني أن هذا الحصن من بناء البنادقة ، وفي ظني أنه الحصن الذي بنته زبيدة زوجة هارون الرشيد ، وجدد في خلافة ابنه الواثق على ما نقلته عن أبي

الفداء . وهواء الأسكندرونة وبيل لوفرة المستنقعات بها . وسبب وجود المستنقعات أن البحر كان يصل إلى الحصن ، الذي قدمنا ذكره . ثم لما جزر عنه شيئاً فشيئاً من وفرة الرمال التي كان يلفظها على ساحله ، والطمي الذي كانت تأتي به السيول المتساقطة من الجبال المحيطة بالأسكندرونة ، سدت المجاري النافذة إلى البحر ، واستغدرت المياه وراءه في الأرض التي بقيت في منسوبه أو أدنى ، وإذا هطلت الأمطار في الشتاء ، ومعدلها السنوي كما قلنا عظيم في هذه البقعة ، فاضت على تلك الغدران وصارت مستنقعاً عظيماً تتصاعد منه الأبخرة الفاسدة ويتولد على طحلبه أسراب البعوض علة الوبالة . وكانت هذه المستنقعات تحيط بالأسكندرونة ، وتتخلل أحياءها وأزقتها ، وتجعل هواءها وبيلاً والإقامة فيها خطرة . دام هذا الحال إلى أوائل القرن الهجري الحاضر ، لما مدت الحكومة العثمانية سكة حديدية صغيرة ، كانت تنقل بها التراب من الأكمة المشرفة على رأس العين ، وتطم بها تلك المستنقعات ، وظلت العناية بالطم قائمة إلى الآن ، وفتحت من عهد قريب في شرقي البلدة قناة مشيدة بالإسمنت ، تجرف السيول التي ذكرناها إلى البحر ، حتى زال كثير من المستنقعات ، وحسن المناخ عما قبل وما برح .

ولواء الأسكندرونة يتألف من ثلاثة أقضية ، الأسكندرونة وقرق خان وأنطاكية ، لكل منها نواح عديدة ، سيأتي ذكرها . وفيه شعوب مختلفة المذاهب والمشارب ، منها الترك والتركمان الذين يؤلفون ٣٥ ـ ٤٠ في المئة من مجموع سكان هذا اللواء ، البالغ زهاء ١٥٤ ألفاً ، وفيه العرب النصيرية والنصارى ، وفيه الأرمن والشركس ، والكرد والسريان ، والكلدان واليهود . وهذا اللواء يتبع دولة الشام التي عاصمتها دمشق ، لكن له إدارة خاصة ، فماليته ومعارفه وزراعته وأشغاله العامة مستقلة ، واللغات الرسمية فيه العربية والتركية والإفرنسية ، ناهيك عن الأرمنية والرومية والكردية والشركسية ، التي تسمعها كثيراً في أسواق مدنه ومنعطفات قراه .

ويقطن النصيرية في الأسكندرونة والساحل الممتد منها إلى بليدة عرسوس ، وفي نفس أنطاكية ، والجبال والأودية الممتدة منها غرباً نحو ميناء السويدية ، ويقطن الأرمن في جبل موسى ، وأعضاده الممتدة حتى ساحل البحر ، وفي ناحية كسب ، وفي بليدة قرق خان ، وبعض المستعمرات التي أنشئت لأجلهم في قضائه ، ويقطن الشركس في قرى حران

والريحانيـة ، وعم (يني شهر) وبـدركـة من سهل العمق ، ويقطن الترك والتركان في جبل اللكام ، وأعضـاده الممتـدة شمالي الأسكنـدرونـة وشرقهـا ، وفي بعض سهـل العمـق وجبـل القصير ، وفي الجبل الأحمر وأعضاده الممتدة إلى جنوبي عرسوس وكسريك ، ويقطن الكرد في حرة اللجة شمالي السهل المذكور .

السفر من الأسكندرونة إلى حلب : يمكن أن يذهب السائح من الأسكنـدرونـة إلى حلب في عدة طرق :

أولها في السكة الحديدية التي تقدم ذكرها في بحث كيليكية ، وهذه الطريق معوجـة طويلة (٢٧٥ كيلومتراً) وشاقة ، لأن معظمهـا يجتـاز البلاد التركيـة من المحطـات التي مر ذكرهـا في بحث كيليكيـة في الصفحـة ٤٤ ، وثمـة انتقـال من قطـار إلى قطـار ، في محطـة طوبراق قلعة . فالأحسن منها ركوب السيارات .

٢ً ـ طريق السيارات الحديثـة (طولهـا ١٤٧ كيلومتراً) وهـذه معبـدة أحسن تعبيـد ومعتنى بها ، تمر بمضيق بيلان وسهل العمق ، وجبل باريشـا وسهل الحلقـة ، وسهول حلب الغربية .

٣ً ـ طريق المركبات القديمة (طولها ١٧٢ كيلومتراً) وهذه أيضاً معبـدة ، وهي تسير في الطريق الأولى إلى مـابعـد سهل العمق ، ثم تظـل سـائرة نحـو الشرق الشمالي فتمر بجسر عفرين ، وشمالي جبل سمعان وسهول حلب الشمالية . هذا ويتفرع من الطريق الثانية عند طوب بوغاز طريق تذهب نحو (أنطاكية) ، طولها ٣٠ كيلومتراً ، ويتفرع منهـا أيضـاً في شرقي العمـق الطريـق التي يسير فيهـا القـادمـون من حلب إلى أنطـاكيـة ، (طـولهـا ٤١ كيلومتراً) . وسنصف الطريق الحديثـة والقـديمـة ، ومـا ينشـط منها ، ثم نعود لخطـة جولتنا الذاهبة نحو أنطاكية وما بعدها .



الأسكندرونة ـ المدينة والمرفأ وجبل اللكام

وصف طريق الأسكندرونة ـ طوب بوغاز

(٢٧ كيلومتراً)

هذه الطريق معبدة ومعتنى بها ، وهي من أنزه الطرق وأجملها . يغادر السائح مستوى البحر في الأسكندرونة ، حيث الحرارة والرطوبة شديدتا الوطأة ، فيمر من أمام رأس العين ، وعلى قيد غلوة منه إلى اليسار ، المكان الذي يظن أنه كانت فيه مدينة (ميريانـدروس) ، ثم يشرع بتسلق أعضاد جبل اللكام ، وكلما اعتلى يجد الهواء العليل والمشهد النضر ، وفي الكيلومتر ١٠ يرى على يمينه الطريق الصاعدة إلى قرية صوغوق أولوق ، علوها ١٠٠٠ متر وسكانها أرمن ، وفي غربيها قرية الناركيزلك علوها ٥٠٠ متر وسكانها ترك ، ويقصد أهل الأسكندرونة وحلب هاتين القريتين للاصطياف ، حيث يجدون المناخ الطيب ، والمنظر الجميل ، والحراج الغضراء ، والفواكه الطيبة ، والفنادق الجميلة ، ناهيك عن زرقة البحر ومرآه الرائع . وفي الكيلومتر ١١ مفترق الطريق الصاعدة إلى قرية عاتق الأرمنية ، علوها ١٠٠٠ متر ، وهي وإن لم تضارع جارتها بالحراج والفنادق ، لكنها تفوقها بالينابيع الباردة وجمال المناظر في الصرود الشاهقة بقربها ، كثنية كوزبل[1] (١٦٠٠ متر) ، وقمة شاكشاك (١٨٣٥ متراً) ، وفيهما مشاهد تأخذ بمجامع القلوب . فالواقف إذا تطلع إلى الشرق يرى آكام جبل اللكام تنحدر أمامه نحو سهل العمق ومستنقعاته ، وبحيرة أنطاكية الزرقاء ، وما في شرقهما من الجبال والهضاب ، كجبل الأعلى وجبل باريشا وجبل سمعان وجبل الكرد ، وغيرها الممتدة في الأفق البعيد حتى سهول حلب الغربية ، وإذا تطلع نحو الشمال يرى قمماً في جبل اللكام تناطح السحاب كألما طاغ (١٨٣٥ متراً) وداز طاغ (١٧٠٧ امتار) وآق قيا (٢٥٠٠ متر) ومغبر (٢٢٦٧ متراً) ، ويرى بينها نجاداً ومرابع متسعة ، انتشرت فيها ألوف من قطعان الغنم والماعز ، ترعى الأعشاب والأنجم الغضة ، ويرى في الغرب سلسلة جبال طوروس التي تنفصل عن

---

(١) قال ياقوت : الثنية كل عقبة في الجبل مسلوكة .

آمانوس ، بسهول كيليكية الفسيحة ، ويرى خليج الأسكندرونة ، وما في شاطئه من الموانئ كسيس وبياس ومبانيها وحدائقها ، ويرى البحر الخضم ، وقد سترت الغيوم البيضاء زرقته ، فزادت في روعة المشهد .

وهذا ما حمل ياقوت في معجم البلدان أن يذكر جبل اللكام قائلاً : هو الجبل المشرف على أنطاكية وبلاد ابن ليون ، والمصيصة وطرسوس وتلك الثغور . ا هـ .

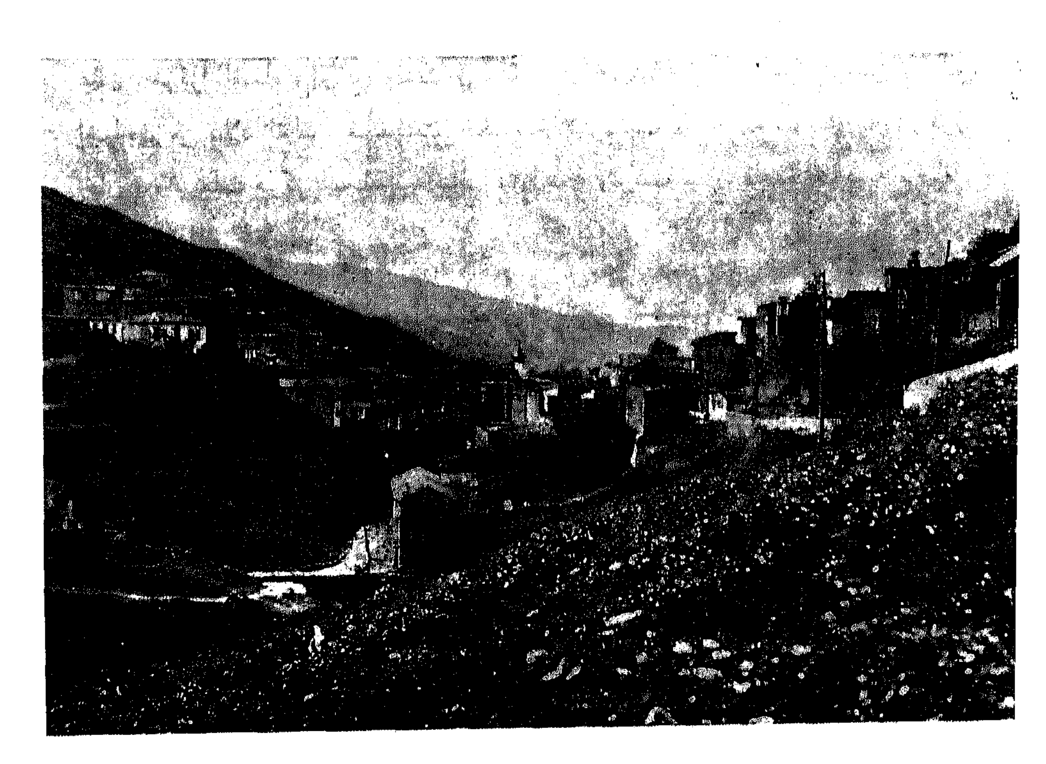
بيلان : هذا وفي (الكيلومتر ١٣) يصل السائح إلى بيلان . وهي بليدة جميلة المنظر ، طيبة الهواء ، غزيرة المياه ، علوها ٥٠٠ متر ، يشطرها الوادي السحيق الفاصل ما بين جبل اللكام وجبل الأحمر إلى شطرين ، بنيت دورها في سفحي الوادي بعضها فوق بعض ، سكانها ثلاثة آلاف ، ثلثاها من الترك والثلث من الأرمن ، ولغة الجميع التركية . لم يذكر جغرافيو العرب بيلان ! اذ لم تكن عامرة في زمنهم ، وربما هي التي كانت تدعى باب أسكندرون . قال أبو الفداء : « باب أسكندرون في زماننا ، هو (دربند) بلاد سيس من جهة حلب ، وهو على دون مرحلة من بغراس ، وليس هناك مدينة بالأصالة ولا قرية ، وبين بغراس وباب أسكندرونة اثنا عشر ميلاً » ا هـ . قلت : والعمران كان منحصراً بقلعة بغراس ، أما الدربند ، أو الباب الذي كان يدعوه الإفرنج باب سورية Pylea Syriae ، ومنه مرت في العصور الغابرة أكثر جيوش الفاتحين الواردين على الشام ، أو الخارجين منه ، فقد كان يبتدئ في الغرب من قرب الأسكندرونة ، من قرية اسمها أشقر بكلي ، ويجتاز الموضع المعروف باسم عاتق بويني (رقبة عاتق) . وكان هذا الطريق المهجور مرصوفاً بالحجارة الضخمة ، التي لاتزال ماثلة للعيان ، شأن الأرصفة الرومانية المنتشرة في كثير من مسالك الشام والأناضول ، وكان فيه في موقع يدعى يوقاري كديك (المضيق الأعلى) باب في سد عظيم خراب ، عرضه عشرة أذرع ، يظن أنه هو الذي ذكره جغرافيو العرب باسم باب أسكندرون ، وذكره الإفرنج باسم باب سورية . ويظهر أن هذا الطريق تشعث بعد حين ، وصار وعراً يقاسي فيه المسافر مشقات زائدة ، لاسيما عند وصوله إلى قرية جقالي . وكانت بيلان في تلك العصور خالية من السكان ، مكسوة أرضها بالغابات ، يلجأ إليها قطاع الطريق ، ويتعرضون لأبناء السبيل وينهبونهم . فبلغ خبرهم السلطان سليمان القانوني العثماني ، وذكر له مكانة موقع بيلان من ناحيتي سوق

الجيش والتجارة ، فأمر أن يحول الممر إليها ، وأن يعمر فيها بليدة يسكنها سرية من حراس الجبال ، ويبنى جامع وخان وحمام ورباط ، فسكنها التركمان من ذلك الحين ، وما زال هؤلاء يزدادون ، وبيلان تتقدم في العمران ، وصارت ممر القوافل والجيوش ، وصار أهل الأسكندرونة يلجؤون إليها في الصيف ، للتمتع بهوائها ومائها ، اللذين نوه سائحنا (أوليا جلبي) بجودتها ، وبحسن أثمارها وأعنابها اللذيذة . وما برحت بيلان في عهد بني عثمان ، مركزاً للقضاء ، إلى أن وفدت في سنة ١٣٤٠ هـ وما بعدها ، جموع الأرمن على أثر إخراجهم من بلاد الترك ، فأسكنت الحكومة الإفرنسية طائفة منهم في منزل (قرق خان) ، ثم نقلت مركز القضاء إليه سنة ١٣٤٢ هـ ، وتركت بيلان قاعدة لناحية ، فأفل نجمها من ذلك الحين .

وإذا نظرت إلى البلاد رأيتها   تشقى كما تشقى العباد وتسعد

وأما الجبل الذي في جنوبي بيلان ، فيعرف هنا بقزل طاغ ، أي الجبل الأحمر ، ويعده البعض تتمة سلسلة آمانوس ، ويحسبه آخرون مستقلاً عنه بمضيق بيلان . وهذا الجبل وأعضاده الغربية ، الممتدة إلى ميناء عرسوز ورأس الخنزير ، قد اشتهر مثل جبل اللكام ، بما في منحدراته وقممه من حراج الشجر الغضيض ، والمرابع الغضراء ، والمشاهد الجميلة ، والينابيع السارية ، مع شيء من الضباب ، الذي يخفف وطأة الحر في الصيف . وأكثر حراجه مؤلفة من الصنوبر الحلبي والصنوبر الأسود ، والبطم والبلوط والقطلب ، والشوح والجوز وغيرها ، ويستخرج القطران من أشجار الصنوبر بكثرة ، وفي هضابه المرتفعة آثار معادن مختلفة لم تستثمر بعد .

ويقطن النصيرية في السهول الساحلية المصاقبة لسفوحه الغربية ، بين الأسكندرونة وعرسوز ، وأشهر قراهم قره آغاج وهم فلاحون ، ويقيم التركمان في النجود والهضاب ، لاسيما حول غابات كسريك وقره كوز وجنكان وبش أولوق ، ومهنتهم قطع الحطب وصنع القطران ، وهم على الفطرة وصدق المعاملة ، ويقطن الأرمن في جبل موسى غربي أنطاكية إلى الشمال ، وهو من أعضاد الجبل الأحمر ، ويربون دود الحرير ، ويصنعون الأمشاط من خشب البقس وغيره .



بيلان

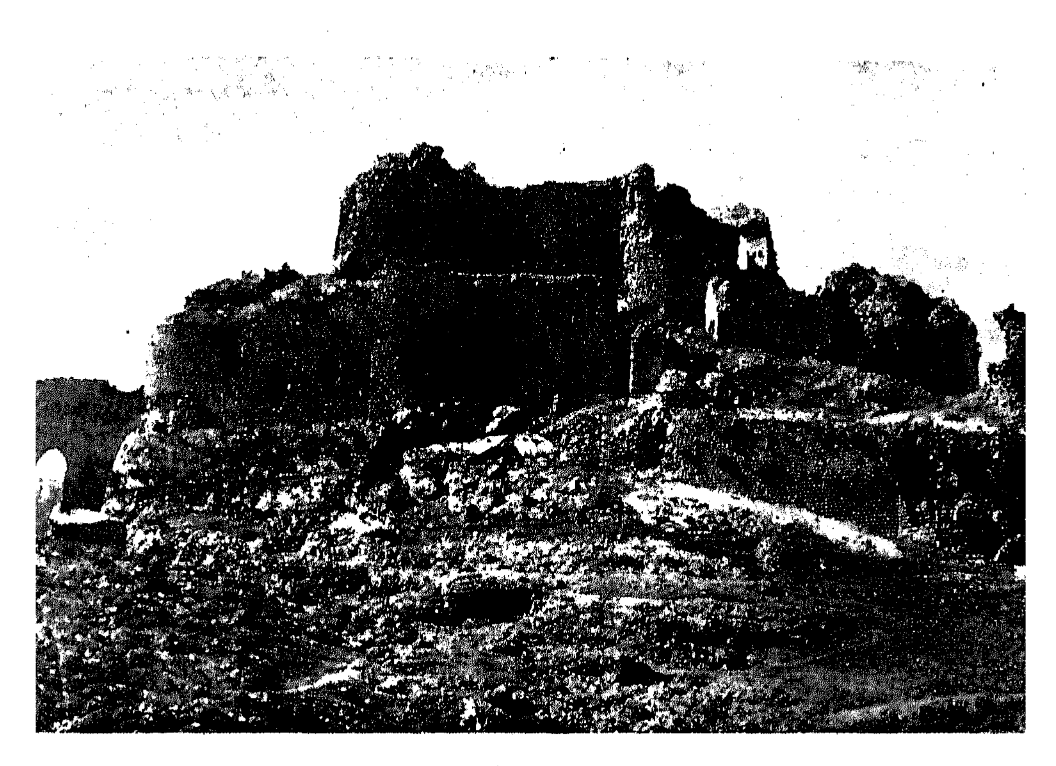
وبعد مغادرة بيلان ، يظل السائح صاعداً في مضيق بيلان ، أو دربند بغراس إلى منتهاه في (الكيلومتر ٣٦) حيث العلو ٧٠٠ متر ، فيشرف من هذه الروابي النضرة على منظر غاية في الروعة والبهاء ، فهو يرى في الشرق سهل العمق ومستنقعاته وبحيرته ، والجبال والآكام المحيطة به ، فيحلق في سماء التفكير ، ويتذكر كيف مرت من هنا جحافل الآشوريين والفرس ، والمقدونيين والرومانيين ، والبيزنطيين والمسلمين الأولين بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي ، ومن بعدهم غزاة الصائفة من الأمويين والعباسيين ، والحملة الصليبية الأولى ، وجيوش المماليك والتركمان والتتر ، وإبراهيم باشا المصري الذي كسر فيه سنة ١٢٤٨ هـ الجيش العثماني بقيادة السردار حسين باشا ، عقب معركة هائلة ، جرت في هذه الروابي والهضاب ، ويتذكر كيف وقف فيه القيصر البيزنطي هرقليوس المفجوع بانتصار العرب على جيوشه ، وبخسرانه سورية كلها ، وقال مودعاً : سلام عليك يا سورية ، سلام مودع ، لا يرجو أن يرجع إليك أبداً ، وقال أيضاً : ويحك أرضاً ، ماأنفعك لعدوك ، لكثرة مافيك من العشب والخصب ، ثم مضى إلى القسطنطينية . وبعد المضيق يبدأ الطريق بالانحدار ، ففي (الكيلومتر ٢٦) موقع جقاللي ، وفيه مخفر للدرك ، يؤمنون السابلة في هذه المسالك المخوفة ، وهنا يلمح السائح على يمينه (قلعة بغراس) رابضة فوق رابية ، تشرف على هذا الطريق . وفي (الكيلومتر ٢٧) ضويعة تدعى طوب بوغاز ، واقعة في سفح الجبل وأول سهل العمق ، وفيها مفرق الطريق الذاهبة جنوباً نحو أنطاكية .

قال أبو الفداء : بغراس من جند قنسرين ، ذات قلعة مرتفعة ، ولها أعين وواد وبساتين . قال ابن حوقل : وبغراس على طريق الثغور ، وكان بها دار ضيافة لزبيدة ، وهي في الجبل المطل على عمق حارم . وفي معجم البلدان لياقوت : بغراس مدينة في لحف جبل اللكام ، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ ، ذكرها البحتري في شعر مدح به أحمد بن طولون ، الذي حاصر سيما الطويل التركي صاحب أنطاكية في سنة ٢٦٤ هـ ، وجرت بينهما حروب كثيرة ، ببلاد جند قنسرين والعواصم .

قال البحتري :

سيوف لها في كل دار غداً ردى ... وخيل لها في كل دار غداً نهب

علت فوق بغراس فضاقت بما جنت ... صدور رجال حين ضاق بها درب



قلعة بغراس

كانت تدعى هده القلعة في زمن الروم حصن لوقا ، وهي في يومنا خراب في الجملة ، على أن أطلالها لاتزال ماثلة ، وهي كبيرة كانت تسع زهاء ألفي جندي ، وكان لها سوران وكنيسة وبهو كبير ، وأربع طبقات من القاعات المعقودة سقوفها ، وكثير من المستودعات والاصطبلات والغرف والآبار ، وكان لها قناطر علوها ثمانية عشر متراً تأتي بالماء من الجبال إلى القلعة ، والبناء الحالي إسلامي ، يتخلله بعض آثار للروم وللصليبيين . قال (الكولونيل جاكو) مؤلف كتاب أنطاكية ماخلاصته : « إن لقلعة بغراس مآسي مفجعة في تاريخ المسلمين ، منها أن الروم لما جاؤوا بقيادة القيصر (نيكوفور فوكاس) في سنة ٣٥٨ هـ ، وغزوا بلاد الشام حتى حمص وعرقا وطرابلس وجميع الساحل ، وأعملوا فيها النهب والحرق والخراب ، عادوا ومعهم من سبايا المسلمين مئة ألف صبي وصبية ، ولما ساقوا هؤلاء المساكين أمامهم ، ليأخذوهم إلى القسطنطينية اشتدت أنواء الشتاء ، وسدت المسالك في جبال آمانوس وطوروس فاضطروا للوقوف بهم في قلعة بغراس . ولما لم تكن الأقوات ووسائل الإيواء والتدفئة كافية فني معظمهم بالجوع والبرد والأمراض ، وقبروا في سهول العمق ، ثم سيق من بقي منهم إلى القسطنطينية » ا هـ .
قلت : وبعد ثلاث سنوات تمكن الروم من فتح أنطاكية ، بخيانة أهل بغراس ، الذين بعد أن التجؤوا إلى أنطاكية ، نقبوا الأسوار ومكنوهم من الدخول . وحينما جاء الصليبيون في الحملة الأولى ، أخذوا بغراس فيما أخذوه من بلاد الشام الشمالية ، وجعلوها مع قلعة دربساك وحارم وأرتاح في جملة الحصون المكلفة بالدفاع عن أنطاكية ، إلى أن جاء السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤ هـ ، فحاصر بغراس ودربساك وقاتلها بشدة حتى افتتحها بالأمان ، وأخرب بغراس ، لكن الداوية ، أي الفرسان الهيكليين رجعوا إليها بعد حين ، وعمروها إلى أن جاءهم سنة ٦٣٥ هـ عسكر حلب مع المعظم توران شاه عم الملك العزيز حفيد صلاح الدين بن أيوب ، فحاصروا بغراس ، وأشرفوا على أخذها ، ثم رجعوا عنها بسبب الهدنة مع صاحب أنطاكية ، وبعد بضعة أعوام جاء ملك الأرمن ابن لأون فدخل بغراس ودربساك وظلا بيده تارة ، وبيد الفرسان الهيكليين أخرى إلى أن استولى الملك الظاهر بيبرس عليها نهائياً سنة ٦٦٧ هـ ، عقيب فتحه أنطاكية عنوة . وقد مر ابن بطوطة سنة ٧٢٥ هـ ببغراس ، فقال : « حصن بغراس حصن منيع لا يرام ، عليه البساتين والمزارع ، ومنه يدخل إلى بلاد سيس ، وهي بلاد الأرمن ، وأمير هذا الحصن صارم الدين

ابن الشيباني ، وقد لقيت هذا الأمير ، ومعه قاضي بغراس ، بموضع يقال له العمق ، متوسط بين أنطاكية وتيزين ، وبغراس ينزله التركمان بمواشيهم لخصبه وسعته » ا هـ . وقال شيخ الربوة شمس الدين محمد الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٧ هـ ، في كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر : « ومن الثغور الساحلية الجبلية ، دركوش ودربساك ، وبغراس وحجر شغلان ، والأسكندرونة وقصير أنطاكية ، ويغرا ولها بحيرة حلوة من النهر الأسود بينها وبين بغراس » ا هـ . هذا ولم يبق من القرية في أسفل القلعة من العمران الذي ذكره (أوليا جلبي) سوى ثلاثون أو أربعون داراً منتشرة على طول الوادي ، والعيون والبساتين التي ذكرها أبو الفداء وابن بطوطة يسكنها فلاحون من النصيرية والتركمان .

طريق حلب بعد طوب بوغاز

بعد مغادرة طوب بوغاز ، يلمح السائر على يمينه عن بعد قرية (صوغوق صو) الأرمنية المظللة بأشجار الدلب ، وفيها أطلال ومدافن قديمة . ثم يعلو مرتفعات تفصل بين نهري كوزبل وقرق خان المنصبين على العمق . ثم يدخل وادي قرق خان ، الطويل الظليل الغزير المياه والأرحاء ، والبساتين والكروم ، ثم يصل في (الكيلو ٣٩) إلى قرق خان (الخان المكسور أو الأربعين خان) .

وقرق خان قرية على سيف العمق الغربي الشمالي ، أدركتها سنة ١٣١٨ هـ في طريقي من كلس إلى الأسكندرونة ، حين لم يكن فيها سوى خان كبير ، تنزله قوافل المسافرين ، وعدد يسير من الدور والأكواخ الحقيرة ، التي شادها عامئذ مهاجرو جزيرة كريت المسلمين . وقد هلك بعد هؤلاء المساكين ، من وبال المرتع في جوار آجام العمق ، ولم يبق منهم إلا القليل . ومررت سنة ١٣٤٣ هـ بقرق خان ، فوجدتها قد صارت بليدة ، حافلة بالدور و[illegible] المبنية من اللبن والقصب ، والفنادق والمقاهي المبنية من الحجر وغيرها ، اصطف[illegible] المنشآت حول الطريق العام الذاهب إلى حلب ، لاتسمع فيها سوى اللغتين التركية والأرمنية ، [illegible] أن تطرق أذانك كلمة عربية ، لأن نحو نصف قطانها البالغين ٥٠٠٠ هم من الأرمن الذين جلوا من كيليكية ومرش ، والبقية أخلاط من تركمان وأكراد . وفي قرق خان دار حديثة لحكومة القضاء وجامع وثلاث كنائس ، وأربع مدارس وسبل عديدة ذات مياه عذبة ، لكن هواءها مابرح رديئاً ، وحمى البرداء سائدة ، وحر الصيف ورطوبته شديدا الوطأة . وفي قضاء قرق خان ، أربع نواح هي : قرق خان (وادي نهر الأسود الأسفل) وحاجيار (وادي نهر الأسود الأعلى) وبيلان (الجبل الأحمر) وريحانية (سهل العمق) . ويقطن التركمان والكرد في النواحي الثلاث الأولى ويكثر سواد العرب في ناحية الريحانية ، وهؤلاء العرب مزارعون لدى سراة التركمان المنتسبين لآل مرسل الملقبين بالأغوات ، وثمة بضع مئات من مهاجري الشركس ، جاؤوا منذ نصف قرن ،

ومثلهم مهاجرو الأرمن الذين اختطت لهم السلطة الإفرنسية في شرق العمق مستعمرات ، في سنة ١٣٤٧ هـ سيأتي ذكرها .

وصف سهل العمق : حدود سهل العمق تبدأ في الغرب من قرى : طوب بوغاز فقرقخان ، فالحمام فالريحانية ، فيني شهر فوزوازة ، فجسر الحديد فعلاء الدين ، فالآخان فبغلامة ، فبغراس فشمبيك . تبلغ مساحته ١٦٠٠٠٠ هكتار منها ٣٠٠٠٠ هكتار مما لا يمكن استغلاله يدخل فيه ٢٢٠٠٠ هكتار للمستنقعات ، و ٩ ـ ١٠ آلاف هكتار لبحيرة أنطاكية .

ويصب في هذا السهل ثلاثة أنهر ، تأتيه من جبال عينتاب والكرد وجبل اللكام ، وهي عفرين ويغرا والنهر الأسود ، وثمة أنهار صغيرة ، تنبجس عيونها في الشرق من الجبل الأعلى ، كنهر أرتاح ونهر عم ونهر حارم وغيرها . قال القلقشندي في صبح الأعشى : « بحيرة أنطاكية ، وهي بحيرة بين أنطاكية وبغراس وحارم ، في أرض تعرف بالعمق ، من معاملة حلب شمالي أنطاكية ، على مسيرة يومين من حلب في جهة الغرب عنها . وفيها مصب نهر عفرين والنهر الأسود ، ونهر يغرا ودورها نحو مسيرة يوم ، وآجام القصب محيطة بها ، وفيها من الطير والسمك نحو ما تقدم ذكره في بحيرة أفامية » ا هـ . قلت : هذه البحيرة مثلثة الشكل ، طولها من الشرق إلى الغرب نحو أربعة عشر كيلو متراً ، ومن الشمال إلى الجنوب عشرة كيلو متر ونصف ، وسبب وجود هذه البحيرة عسرة خروج مياهها من مخرجها الذاهب إلى العاصي ، حيث الميل لا يزيد في الكيلو متر عن عشرة سانتيمتر .

وهذا المخرج ضيق يمتد من الشمال إلى الجنوب ، ويجري ماؤه متثاقلاً ببطء زائد ، وهو يلتوي كالأفعى ، إلى أن يلاقي العاصي ، وماؤه أصفر اللون لزج ، مملوء بالحنكليس ، الذي يصطاد بكثرة ويملح ويصدر إلى البلاد . وجل صخور العمق طباشيرية ، وأراضيه طينية كلسية إلا في قليل من المواضع تكون صلصالية ، والصخور حرية (بازلتية) ، وكمية أمطاره لا تزيد في السنة على الخمسمئة ميلمتر ، وهواؤه وبيل ، ووطأة الحر فيه أشد منها في الساحل ، وتفوح من مستنقعاته رائحة تعافها الأنفس ، تنشأ من تفسخ نباتات الآجام ، وتنتشر فيه سحب قاتمة من أسراب البعوض ، هي علة الوبالة (حمى البرداء)

التي تفتك في أهله . وسبب وجود هذه المستنقعات ، كون ماء البحيرة لا يندفع بسهولة في المجرى الخارج منها إلى العاصي ، وثمة سكور أقامها البعض ، لاصطياد السمك ، لا سيا الحنكليس والسلور ، يدعونها داليان ، هي أيضاً من العثرات الواقفة في وجه الماء . وهذه السكور التي أغرقت قرى ، وعطلت أرضين كثيرة ، أقامها في عهد السلطان عبد الحميد العثماني أحد أقارب وزرائه ، واستدر منها ريعاً عظيماً ، ثم جاء في سني الحرب العامة قائد تركي ، فنسفها بالديناميت وخربها ، ثم بعد الإحتلال الافرنسي ، أعادها بعض ذوي الجشع ، وأعاد بذلك الأضرار التي كانت تحدث من جرائها ، وما برح النضال مستمراً بين من يروم بقاءها أو زوالها . ويقال : أن مستنقعات العمق كانت قديماً أقل سعة مما هي عليه الآن ، ويعزى ازديادها إلى الفتك بحراج جبل اللكام ، مما أدى إلى انهيار التربة من سفحه وسيرها مدفوعة بالسيول الجارفة نحو السهل ، فرسبت في طريق أنهره الثلاثة وتبسطت ، ولم يبق ثمة انحدار كاف لجريان الماء بسهولة ، فحدثت المستنقعات ، وما زالت تكثر بمرور الأعصر ، والاستمرار على تجريد الجبال من أشجارها ، حتى بلغت سعتها الحاضرة . ولو تسنى تجفيفها لطاب المناخ ، وأمكن استغلال هذه المساحة الشاسعة بمختلف المزروع ، كالقطن وقصب السكر والأرز وغيرها . ويرى العارفون أن التجفيف يكون بإزالة السكور التي تقدم ذكرها ، وبكري قاع البحيرة ، ومجرى العاصي حتى أنطاكية ، وتعميقها ليسهل جريان الماء ، وبفتح أخاديد واسعة ، تحصر فيها مياه الأنهر الثلاثة وغيرها من الينابيع الواردة إلى العمق لتسيل فيها كما ينبغي .

تاريخ العمق : لا يزال وسط العمق تلال بارزة ، كانت فيما مضى قرى عامرة ، كما أن في وسط بحيرة أنطاكية برجاً يسميه الصيادون المأذنة ، مما يدل على ما كان عليه هذا السهل الأفيح من العمران ، أيام كان مملكة العنقي Ungui الآشورية ، أو Amykion Pédon اليونانية . وللعمق ومستنقعاته ذكريات عديدة في تاريخ أمم الشرق والغرب ، التي استولت أو جاءت تستولي على أنطاكية ، عاصمة شمالي الشام ، وعروس مدنها في العصور القديمة . فالآشوريون والحيثيون ، والفرس واليونان ، والرومان والمسلمون ، والصليبيون والمصريون بقيادة إبراهيم باشا ، مروا من هذا السهل ، ذي المكانة الحربية الكبرى ، أو تطاحنوا فيه بمعارك دامية . عرفه من ملوك المسلمين ابن طولون في حروبه

مع سيما الطويل صاحب أنطاكية سنة ٣٦٤ هـ ، كما ذكرناه في بحث بغراس ، ووصف المتنبي مجاري العمق ووحوله في إحدى قصائده ، يمدح بها سيف الدولة ، لما عزم على السفر من أنطاكية إلى حلب ، في أيام شديدة الأمطار في سنة ٣٥٥ هـ ، وكان أوقع في العمق ، بأهل أنطاكية الذين عصوا عليه ، قال :

وما أخشى نبوّك عن طريق ... وسيف الدولة الماضي الصقيل
وكل شواة غطريف تمنى ... لسيرك أن مفرقها السبيل
ومثل (العمق) مملوء دماء ... مشت بك في مجاريه الخيول
إذا اعتاد الفتى خوض المنايا ... فأهون ما يمر به الوحول

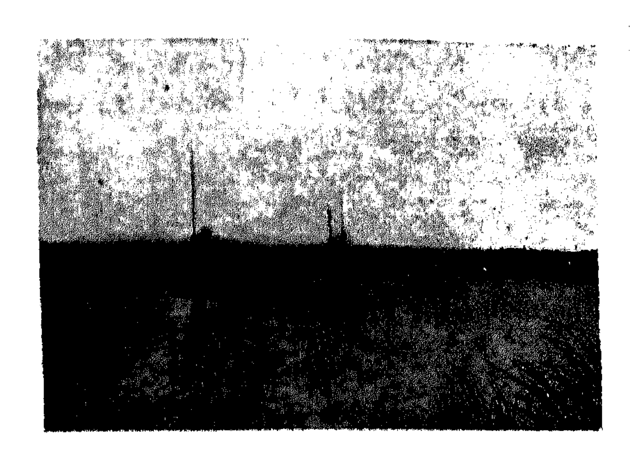
وعرفه (منجوتكين) قائد جيش الفاطميين ، الذي أوقع بجيش نائب قيصر الروم في أنطاكية ، وذلك في سنة ٣٨٤ هـ ، وتعرف بوقعة المخاضة . وحصلت فيه سنة ٤٧٨ هـ بين آخر أمير عربي في شمالي الشام ، شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي وسليمان بن قتلمش السلجوقي صاحب قرنية وآقسراي ، الذي استخلص أنطاكية من يد الروم سنة ٤٧٧ هـ وملكها . وكان مسلم باغياً فدارت الدائرة عليه في المصاف الذي جرى في العمق ، وقتل وانتهت به آخر أمارة للعرب ، وتولاها الترك من حينها . وحصلت في العمق بين نور الدين محمود زنكي وصيلبي أنطاكية حروب كثيرة ، أخصها المصافين اللذين حدثا في سنة ٥٤٣ هـ في أرض يغرا ، فانكسر نور الدين في الأول ثم انكسر الإفرنج في الثاني ، هذا عدا عما جرى له حول قلاع حارم وارتاح وعم ، وعما جرى لصلاح الدين الأيوبي وللظاهر بيبرس حول أنطاكية ودربساك وبغراس وكلها من قلاع العمق المخصصة لحفظ أنطاكية .

وفي وسط سهل العمق وبين آجام القصب والأسل والحلفاء الباسقة فيه ، انتشرت مئات من الضياع الصغيرة ، ذات أسماء غريبة تركمانية في الغالب ، تشهد بما للتركمان النازلين فيه منذ القرن السابع الهجري ، من الأثر كباشا هيوك (جبل الباشا) وجقال تبه (ابن آوى) ، وبعضها عربية كـ (سلام عليكم والذي) .وقرى العمق لا يمكن الوصول إلى معظمها في زمن الفيضان ، إلا بقوارب رفيعة خاصة ، وبيوتها أخصاص من القصب ، المطلي بخثي البقر الجاف ، مكتظ بعضها ببعض ، بين الأوحال والأدغال ، وأهلها وجلهم من المزارعين العرب ، وبعضهم من التركمان صفر الوجوه ، هزلى من وبال المرتع ، لكنهم

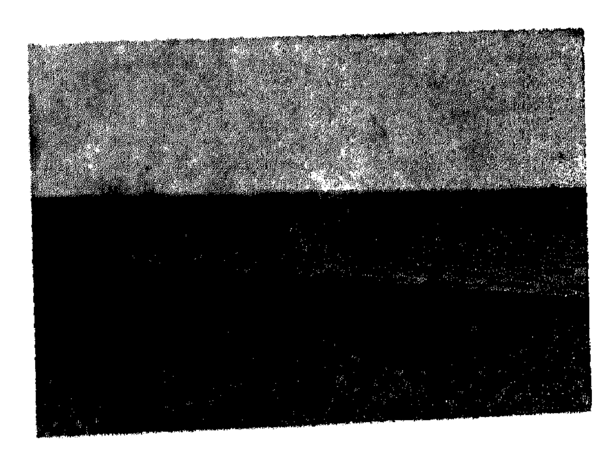
مرزوقـون في الجملـة ، فهم يقلعـون عرق السـوس الـذي ينبت بكثرة ، ويستـدرون ألبـان الجواميس ، ويصطـادون طيور المـاء وأسماكـه ، ويبقى لهم قـدر غير يسير من الغلال بعـد اقتطـاع مـا يصيب ملاكي القرى ، الـذين تقـدم ذكرهم ، وبين هـؤلاء طبيب أرمني حلبي طائل الثروة ، يستعمل الأساليب والآلات الزراعية الحديثة في أراضيه . والزروع الشتوية والصيفية في العمق تربو وتبسق كثيراً ، لزكاء تربته الرسوبية السوداء ـ وقد نوه بذلـك ابن بطوطـة ـ ، والعمق على علاتـه مـا برح منـذ القـديم ملجـأ المعوزين ، من سكان السهـول والجبال الممتدة في شرقي حلب وجنوبها ، يفدون إليه أفواجاً أفواجـاً في السنين التي يصيبهم المحل فيهـا ، كما جرى في سني ١٣٥١ و ١٣٥٢ و١٣٥٣ هـ ، فيؤجرون من العمـل في مـزارعـه الخصبة ، ويقتاتون ويمتارون بفضلات حصائده وأعشابه ثم يرجعون .

وفي ضيـاع العمق غير الفلاحين العرب المـذكـورين ، قليـل من صعـاليـك الأعراب النصف رحل ، ينتقلون بمضاربهم ، ويحترفون رعي الماشية ، بالاشتراك مع أصحـابهـا ، وهم ينتسبون لقبـائل وبطـون شتى ، منـازلهـا الأصليـة في أعمـال حلب الشرقيـة والجنـوبيـة ، كالعقيدات والقبيعات ، والبقارة والأبو شعبان ، والجنيدات والحسينـات ، والجـادمـة والأبو خميس ، وبني سعيـد وأبـو جـابر ، وأبـو سلطــان وغيرهم ، ممن كثرت أسماؤهم وتشتتت أنسابهم .

وفي شمالي قرق خان على بعد خمسة كيلو متر منها ، في الطريق الذاهبـة إلى نـاحيـة حاجيلر في وادي نهر الأسود الأعلى قرية تـدعى آلاي بكلي ، تشرف عليهـا من على أطلال قلعة دربساك ، التي تقـدم ذكرهـا في حـديث قلعـة بغراس . ودربسـاك مبنيـة فوق أكمـة صخرية ، قاتمة اللون منفصلة عن الجبل المجاور لها ، لا تتصل به إلا بجسر مـا برح واقفـاً . وقـد كانت هـذه القلعـة تحرس طريـق حلب ومضيـق بيـلان ، وتحرس أيضـاً الثنيـة ، أي الطريق الجبلية الـذاهبـة إلى خليج الأسكنـدرونـة مبـاشرة ، من وسـط مضـائق آشميشـك وآيلان يايلاسي وحجر شغلان . ومن هـذه الثنيـة سر ـ فيما قيل ـ الملـك الظـاهر بيبرس ، حينما غزا بلاد سيس . قال أبو الفـداء في تقويم البلـدان : « دربسـاك من جنـد قنسرين ، ذات قلعة مرتفعة ، ولها أعين وبساتين ، وهي خصبة ولهـا مسجـد جـامع ومنبر ، ولهـا من شرقيها مروج متسعة ، حسنـة كثيرة العشب ، يمر فيهـا النهر الأسود ، وهي عن بغراس في الشمال ، بميلة إلى الشرق ، وبينهما نحو عشرة أميال ، وفي شرقي دربساك يغرا ، وهي قريـة



قوارب الصيادين في العمق



قطعان الجواميس في العمق

أهلها نصارى ، صيادون يصيدون السمك ، وهي على بعض مرحلة من دربساك ، والطريق من الشام إلى دربساك وبغراس على يغرا المذكورة » ا هـ . قلت : ويظن أن يغرا هي الآن قرية قالا ، التي اختص أهلها بصيد السلور ، في بحيرة يغرا ، والتي تدعى الآن كول باشي ، وهي إلى الشمال من جسر مراد باشا ، الذي سيأتي ذكره في بحث طريق حلب . وقد ذكر ياقوت بحيرة يغرا في مادة عين السلور ، قال : « وهو السمك الجري بلغة أهل الشام » . قال البلاذري ، « وكانت عين السلور وبحيرتها لمسلمة بن عبد الملك ، ويقال لبحيرتها بحيرة يغرا ، وهي قرب أنطاكية ، وإنما سميت عين السلور لكثرة هذا النوع الذي بها من السمك » ا هـ .

وفي قرية آلاي بكلي المذكورة مسجد قديم ، فيه ضريح أو مقام لولي ، اسمه أبا يزيد البسطامي ، يزوره الأهلون في هذه الرباع[1] ، وكان هذا المسجد أشرف على الدثور ، فرممه سنة ١٣٠٨ هـ صاحب خير من سراة تركمان العمق . وفي شمالي قرية آلاي بكلي ، قرية أخرى تدعى كوندوزلي ذاتُ مياه سارية وطواحين ، في قربها أكمة صخرية من أعضاد جبل اللكام ، تشرف على وادي نهر الأسود ، وعلى حرة اللجة[2] ، حفر الأقدمون فيها كهوفاً عظيمة ، بعضها يعلو بعضاً ، تحتوي على قبو ونواويس ، وعلى أبواب هذه الكهوف كتابات يونانية ، وأفاريز بارزة راكبة على أعمدة ذات تيجان ، وكلها منحوت في صخر الأكمة غير منفصل عنه . وفوق هذه الكهوف ، تماثيل منحوتة في الصخر أيضاً ، يتعذر الوصول إليها لعلوها ، تمثل خمسة أشخاص واقفين ، وفي الجبل المناوح للكهوف المذكورة ، خرائب كوندوزلي المشهورة ، وهي أطلال بلدة خربة ، فيها شوارع مرصوفة ، وأسس دور متهدمة ، وأعمدة متكسرة ، ونواويس وأجران ماء ، وتماثيل وغيرها من الآثار .

وبعد مغادرة قرق خان الواقعة في (الكيلو متر ١٠) عن طوب بوغاز ، يرى السائر

---

(١) لهذا الولي الفارسي ضريحان آخران أحدهما في الرستن قرب حمص ، والثاني في قرحتا قرب دمشق ، وسيأتي ذكرهما .

(٢) الحرة في اللغة أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت ، والجمع الحرات ، كحرة اللجة في شمالي العمق ، وحرة اللجا في شرقي حوران .

في (الكيلو متر ٤٢) ضيعة طرون على يسار الطريق ، ثم يجتاز في (الكيلو متر ٤٥) جسرين على نهر الأسود ، ثم ينحرف نحو الشمال الشرقي فيجتاز في (الكيلو متر ٥٢) جسر مراد باشا ، وهو جسر قديم ، مستطيل مستقيم الظهر ، ذو سبع عشرة قنطرة ، شيد فوق نهر يغرا ، الذي يأتي من الشمال من بحيرة يغرا ، ويصب في الجنوب في بحيرة أنطاكية . ثم يستأنف اجتياز سهل العمق ، إلى أن يدخل في بقعة محصورة بين أكمتين ، فيرى السائر قرى قسطل الباشا ومتليك كوى وعين البيضاء . وفي (الكيلو متر ٦٤) ينحرف نحو اليمين ، فيترك على يساره طريق المركبات القديمة بين الأسكندرونة وحلب المارة من الحمام وقطما ، وفي (الكيلو متر ٧٤) عند قرية المشرفية ، يجتاز جسر عفرين وطوله ٤٥ متراً ، ثم يتجه نحو الجنوب على خط مستقيم ، إلى أن يوافي في (الكيلو متر ٧٩) أرتاح التي كان فيها حصن ، عده ياقوت في معجمه ، من أمنع الحصون في العواصم ، وله ذكر في تاريخ الحروب الصليبية ، وقد دثر هذا الحصن ، ولم يبق من رسمه إلا اسمه ، وصار في غربيه قرية تدعى ريحانية ، يسكنها الشركس ، مؤلفة من عدة أحياء كأرتاح وأفنير أو ألف نير . وفي جنوبي الريحانية في (الكيلو متر ٣٨) قرية أخرى ، يقطنها الشركس أيضاً اسمها يني شهر (البلدة الحديثة) ، وفي هاتين القريتين ينابيع سارية ، ورباع مروية خصبة ، يزرعون فيها أنواع البقول التي تحصل باكراً ، وترسل إلى حلب . وأصل اسم يني شهر : عم ، ولا تزال بركتها تعرف باسم بركة عم ، واسمها الروماني : Imma . قال ياقوت : « عم بكسر أوله وتشديد ثانيه ، قرية غناء ذات عيون جارية ، وأشجار متدانية بين حلب وأنطاكية ، وكل من بها نصارى ، وقد نسب إليها قديماً قوم من أهل العلم والحديث . قال ابن بطلان في رسالته التي كتبها في سنة ٥٤٠ هـ ، إلى ابن الصابي : وخرجنا من حلب إلى أنطاكية فبتنا في بلدة الروم ، تعرف بعم ، فيها عيون جارية ، يصاد فيها السمك ، ويدور عليها رحى ، وفيها مشارير للخنازير ومباح النساء والزنا والخمور أمر عظيم ، وفيها أربع كنائس وجامع يؤذن فيها سراً » ا هـ .

قلت : وكانت عم في العهدين اليوناني والروماني ، الخاصين بأنطاكية تعد دفنة الثانية ، لكثرة ما كان فيها من الفنادق والقصور ، وأماكن اللهو والفجور . وظلت مكانتها في هذا المضمار دائمة إلى العهد البيزنطي الثاني ، الخاص بأنطاكية ، حسبما ذكره ابن بطلان . وكان لعم أيضاً مكانة هامة من ناحية سوق الجيش ، لأنها حاكمة على رصيف باب

الهوا ، ومضيق عين دلفة في طريق حلب وأنطاكية ، وعلى الطريق الآتية من شمالي وادي عفرين والأناضول ، نحو أنطاكية أيضاً . لهذا فقد حدثت فيها فيا مضى معارك هائلة ، منها المعركة التي جرت بين زنوبيا ملكة تدمر ، والقيصر أورليانوس الروماني في سنة ٢٧٢ م ، وكانت الدائرة على جيش زنوبيا ، ومنها المعركة التي جرت بين منجوتكين قائد جيش الفاطميين ، وبين نائب قيصر الروم في أنطاكية في سنة ٣٨٤ هـ ، دارت الدائرة على النائب ، وتعرف بوقعة المخاضة ، ومنها المعارك العديدة التي كانت تجري بين الصليبيين والمسلمين ، أحرقها مرة نجم الدين إيلغازي ، وانتصر حولها مرة بودوين الثالث ، وتتابعت انتصارات نور الدين محمود لما استولى على حارم . وفي زلزلة سنة ٥٥٢ هـ خرب حصن عم بالمرة ، وأفل نجمها من ذلك الحين ، ومازالت خراباً تعرف باسم البركة ، إلى أن وفد مهاجرو الشركس في غرة هذا القرن إليها وإلى حران والريحانية المجاورتين لها ، فلم يعد بوجود هذا الشعب الورع إمكاناً لرجوع الحالات التي وصفها ابن بطلان قط .

وبعد يني شهر (عم) بقليل ، مفترق الطريق الذاهب إلى أنطاكية والفرع الناشط منه نحو حارم ، وما وراءها (وسنعود لوصفها) . أما طريق حلب فتمتد بعد يني شهر نحو الشرق ، وسط وادٍ عريض ، فيلمح السائر على يمينه في لحف الجبل قريتي حران العرب وحران الشركس . وبعد قليل يصادف التخم الفاصل بين لواء الأسكندرونة وولاية حلب . ثم في (الكيلو متر ٩٢) في سفح جبل باشا عين دلفة ، وفيها مخفر لجنود الدرك ، وعين جارية تسيل في المنحدر الكائن على يمين الطريق ، وفي هذا المنحدر كثير من الأطلال الدارسة من العهد البيزنطي ، أحدها طلل كنيسة عظيمة ، لا يزال بعض أنقاض الحنايا ، وكثير من الأعمدة المكسرة الخاصة بها ظاهراً ، وعلى يسار الطريق وادٍ جاف ، فوقه بنائان من أحجار ضخمة ، راكب بعضها فوق بعض . ثم يتغلغل الطريق في مضيق دلفة ، الممتد بين آكام جبل باريشا ذي الصخور السنجابية ، ففي (الكيلو متر ٩٣) على اليمين ، وفوق الطريق بقليل ، مغارة كبيرة فيها نبع ، يزعمون أن زيارتها تنفع الأمهات العاجزات عن الإرضاع ، وفي (الكيلو متر ٩٤) على يسار المضيق ، منفرج بسيط فيه أطلال قصر البنات . ويظهر أن أصل هذا القصر دير كبير ، من القرن الخامس الميلادي لإيواء حجاج بيت المقدس ، ولوقوعه في هذا المضيق المخوف كان محصناً . وهذا القصر

مؤلف من مبانٍ ، اجتمعت حول باحة كبيرة ، يشرف عليها برج ذو ست طبقات ، علوه أكثر من ثلاثين متراً . وفي كل طبقة غرفة كبيرة وغرفتان صغيرتان ، والنوافذ صغيرة ، ولا يزال في بعض الغرف آثار ملاط الكلس ، وعليه نقوش هندسية ملونة . وحول الباحة ثلاثة مباني ، كانت على ما يظهر دوراً للضيوف ، ووراءها في لحف الجبل بناء طويل ، وربما كان صومعة الرهبان . وفي يمين الباحة كنيسة طولها ٢٦ متراً في ٢٠ متراً منهدمة بالمرة ، يرى فيها أحجار وتيجان أعمدة ، على أحدها كتابة يونانية قرأ الأثريون فيها ، أن مهندس هذه الكنيسة اسمه كيريس ، ولعله مهندس كنائس قريتي بابسقا ودار قيطا ، في جبل باريشا التي سيأتي ذكرها .

وبعد قصر البنات بمئتي متر على يسار الطريق ، في أضيق مكان من المضيق ، نقر في الصخر من عمل الرومانيين ، ثم على حافة الطريق كتابتان زبرتا على الصخر ، الأولى تهنئة بظفر القيصر ماركوس أورليوس ، والثانية بيان عن تخوم قريتين في هذه البقاع ، وفي (الكيلو متر ٩٧) برج المدخر ، وعلى يمين الطريق شعب في الجبل ، يوصل القاصد إلى خرائب جبل باريشا ، وهنا تظهر للسائر أنقاض وخطوط الرصيف الروماني ، الذاهب من أنطاكية إلى قنسرين فحلب ، وفي (الكيلو متر ٩٩) باب الهوا المبني على تخطيط الرصيف الروماني ، وتحت قوس نصر كبير استند على ركيزتين كبيرتين . ولم يعرف تاريخ هذا البناء وسببه بعد ، وقبل الباب على اليمين أطلال كنيسة ، وعلى اليسار أطلال دار ضيافة ، مع حوض ماء منقور في الصخر ، ينزل إليه بدرج . وإلى اليمين من باب الهوا ، على مرتفع مخفر حديث لجنود الدرك ، وبعد باب الهوا يدخل الطريق سهل الحلقة ، الذي يحتوي على عدة قرى أعذاء اشتهرت بخصبها وجودة قطنها ، وهي سرمدا و تل عقبرين ، ودانا ودير حشان ، وترمانين وتل عدة ، وأطمة وعقربات ، وكفل دين وتيزين العتيقة ، وفي تيزين بيعة تاريخها سنة ٥٨٥ م لا تزال الطبقة الأولى والجدار القبلي من واجهتها سالمة ، تشبه في تخطيطها بيعة دار قيطا ، وكانت تيزين تدعى تيزين العمق أيضاً ، لقربها منه ، وتمييزاً لها عن تيزين ثانية غربي حماة ، وإلى الأولى كانت تنسب الكورة . وفي (الكيلو متر ١٠٢) على اليمين يلمح السائر سرمدا ، كان لها ذكر في فتوحات أحد فراعنة مصر تحو تمس الثالث ، وفي أيام الصليبيين كانت من مخافرهم الأمامية . وفيها بناء كان مدفناً ، فيه عامودان كورنثيان ، مرتبطان فوق قاعدة مرتفعة ، جعلت أمام

باب ضريحين تحت الأرض ، وتاريخ هذا البناء سنة ١٣٢ م . وفي (الكيلو متر ١٠٤) على يمين الطريق قرية تل عقبرين ، وكان للصليبيين فيها حصن ، ولا يزال يظهر في أعلى القرية بناء ذو طبقات مع نوافذ ذات أفاريز جميلة ، وفي جنوبها كنيسة جدارها الجنوبي منقور في الصخر .

ومن تل عقبرين طريق لاحب[1] تصل إلى دانا وترمانين ، ففي دانا مدافن كثيرة منقورة في الصخر ، في أعلاها بناء عجيب الشكل ، محمول على أربعة أعمدة ، كان يعلوه أهرام دثر معظمه الآن ، وقد قرأ الأثري دي فوكه في سنة ١٨٦٠ م على أحد أقواسه تاريخ ٣ آذار سنة ٣٢٤ م . وفي ترمانين دور أثرية ومدافن تحت الأرض لها أدراج ، وعلى بعد نصف ساعة في شمالي ترمانين دير مانين القديم ، وهو بناء عظيم ، ربما كان دار ضيافة للمسافرين ، له طابقان وأمامه باحة مبلطة وحوضان للماء ، وفي جانبه كنيسة ذات أعمدة مندثرة بالكلية . قال ياقوت عن هذا الدير : « وهو بين حلب وأنطاكية مطل على بقعة تعرف بسرمد ، وهو دير حسن كبير ، إلا أنه خراب وآثاره باقية » ا هـ .

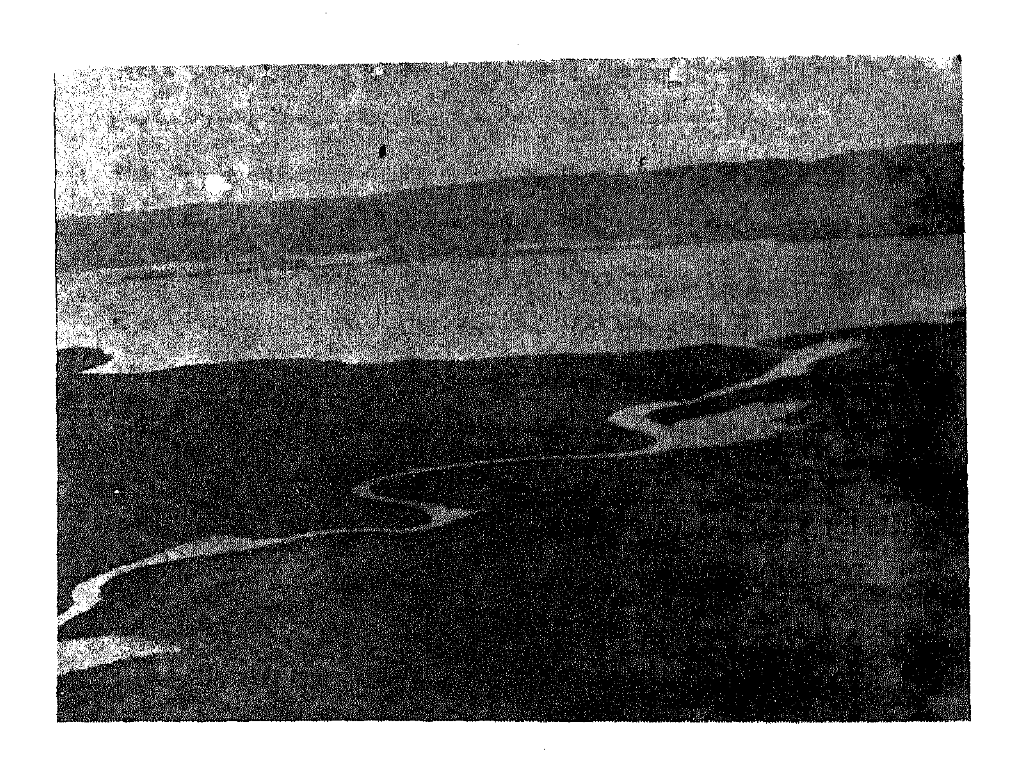
وفي (الكيلو متر ١٠٦) يلمح السائح على يسار الطريق الرصيف الروماني القديم ، وهو باق هنا على جدته ، رغم كر الدهور ، طوله ١٢٠٠ متر ، مبلط بأحجار ضخمة يبلغ طول بعضها متران في ١,٢٠ متر ، وكانت هذه الأحجار قديماً منقورة ، لمنع انزلاج أرجل الدواب ، لكن هذا النقر زال بمرور الزمن ، وأحدثت المياه في بعض أماكنه حفراً عميقة . وعرض الرصيف ستة أمتار ، وعلوه عن الأرض نصف متر ، ولا يعلم العهد الذي بني فيه هذا الرصيف العجيب ، الدال على همة الأقدمين القعساء ، لكنه من آثار الرومانيين دون ريب ، لأنهم مدوا مثله كثيراً من الأرصفة في مختلف البقاع ، التي سيأتي ذكرها في جولتنا ، وهو من القرن الثاني الميلادي ، الذي حدثت فيه أعظم غارات الرومانيين في شرقي بلاد الشام ، وبعد الرصيف بمسافة ينتهي سهل الحلقة ، ويدخل الطريق في واد ، بين آكام صخرية ، التي على اليمين من أعضاد جبل باريشا ، والتي على اليسار من أعضاد

(١) عنيت باللاحب واللحب الطريق غير المعبدة الصالحة لمرور السيارات وهو ما يدعونه بالإفرنسية Piste ، وبالطريق المعبدة ما يدعونه Chaussé ، وذلك ريثما تقر المجامع اللغوية العربية على كلمات تقابل هذه المصطلحات العصرية فندرج عليها .

جبل سمعان . وبعد انتهاء هـذا الوادي في (الكيلو متر ١١٠) على يمين الطريق قريـة كفر كرمين ، المحاطة بأشجار الزيتون ، وفيها أطلال وآثـار ، وهي أول قريـة في حـدود قضـاء جبل سمعان . ثم تجتاز الطريق سهلاً أفيح ، في (الكيلو متر ١١٢) منـه قريـة الأثـارب ، بنيت حول تل اصطناعي علوه خمسون متراً ، فوق قمته أطلال حصن قديم ، وجميع دورهـا قباب مخروطية الشكل ، وقد كانت الأثارب في العصور الغابرة ذات مكانة هامة من ناحيـة سوق الجيش ، لوقوعها في نقطة حاكمـة على طريق أنطـاكيـة وحلب . وقـد ورد اسمهـا في قائمة البلدان التي سطرت في عهد الأسرة الثامنة عشرة المصريـة بـاسم Lirabou ، وذكرهـا الرومان باسم Litarba ، ولا يزال فيها كثير من الأنقاض والآثار القديمة .

وفي عهد الصليبيين استولى عليها (تانكرد) وجعلها خلفاؤه من حصونهم الأماميـة ، المخصصـة لحراسـة أنطـاكيـة من غـارات المسلمين . وكان أول من استردهـا منهم نجم الـدين إيلغازي في سنة ٥١٧ هـ ، ثم استرجعها بودوين . وفي تاريخ ابن الأثير أن الإفرنج بعـد أن استلموا هـذا الحصن ، اشتـد ضرره على المسلمين ، حتى أن من كان بـه من الفرنج ، صـاروا يقـاسمون حلب على جميع أعمـالهـا الغربيـة ، حتى على رحـا لأهل حلب ، فلما رأى ذلـك عماد الـدين زنكي قصـده ، فلمـا علم الفرنج بـذلـك خرجوا والتقـوا بـه ، فـانكسروا كسرة شنيعة ، وتسلم المسلمون الحصن ، وأخربه عماد الـدين وجعلـه دكاً . وفي (الكيلومتر ١٢٠) أورم الصغرى ، ضيعة فيها مخفر للدرك ، وتخم عليه كتابة ، تـدل على افتراق الطريق من هنا نحو اللاذقية عن طريق إدلب ، ونحو حماة عن طريق سراقب والمعرة ، ونحو أنطـاكيـة والأسكندرونـة عن طريق دلفـة ويني شهر . وفي (الكيلومتر ١٢٥) أورم الكبرى ، وهـذه القرية على نشز ، مشرف على ماحوله من سهول حلب الغربية ، الشاسعة الأعـداء ، الحمراء التربة ، الممتـدة جنوبـاً نحو مطخ قنسرين ، وكل الأراضي المجـاورة لأورم الكبرى ، تحتوي على آثار قديمة ، منقورة في الصخر ، وفي شرقيها بناء قديم عال ، مستطيل الشكل ، مشيـد بـأحجـار ضخمـة منحـوتـة ، يظهر أنـه مـدفن على شكل برج ، وقيـل أن فيـه مـزار النبي شمعون . وفي (الكيلومتر ١٣٨) خان العسل ، قرية وسط واد ، وفيهـا على يسـار الطريق قرب العين ، أطلال خان عربي قـديم ، وعلى بـابـه كتـابـة . وفي هـذه القريـة مخفر لجنود الدرك ، وفي (الكيلومتر ١٤١) على يسار الطريق ، ضيعة اسمهـا بنيـامين ، ذات قبـاب ، وفي (الكيلومتر ١٤٤) على يسار الطريق مفرق الطريق اللاحب ، الآخـذ إلى قلعـة جبل

سمعان الأثرية . ثم يصل الطريق إلى نشز من الأرض ، يشرف منه السائر على حلب ، التي تتجلى أمامه بقلعتها الشاهقة ، وأحيائها المكتظة ، ودورها وقصورها الحجرية الجميلة ، وإذا هبط من ذلك النشز ، يجتاز السكة الحديدية الذاهبة إلى حماة ، ويترك على يمينه الطريق اللاحب القديم ، الذاهب إلى حماة ، ماراً بخان طومان ، ثم يدخل حلب في (الكيلومتر ١٤٧) ، من حي الجميلية في جنوبها الغربي[1] .



بحيرة أنطاكية ومخرجها الذاهب إلى العاصي

(١) لم أشأ البحث عن حلب ، التي تحتاج هي وضواحيها لمقال خاص ، ربما حاولت تدوينه بعد .

طريق المركبات القديمة
بين الأسكندرونة وحلب

تترك هذه الطريق القديمة الطريق الحديثة وسط سهل العمق في (الكيلومتر ١٠٨) (ابتداءً من الأسكندرونة) ، وتستأنف السير نحو الشرق الشمالي ، فتمر بقرية عرب كوى ، ثم تصل إلى الحمام التي تعد آخر قرى العمق ، بيوتها أخصاص ، وفيها جامع وحوانيت ومدير ناحية ومخفر لجنود الدرك ، وعين كبريتية حارة درجتها ٤٢ ، أنشئ عليها حمام ذو عقود وخلوات ، يقصده الناس من حلب وأعمالها ويضربون الخيام ، وقد أنشأت بلدية القرية من عهد قريب فندقاً جميلاً ، صار ينزله المستحمون الموسرون . وهنا ينتهي سهل العمق ، وفي (الكيلومتر ٩١) قرية حاجي اسكندر ، ثم في (الكيلومتر ٨١) قرية جانداريس ، التي ذكر استرابون بأنها كانت ملاذاً لقطاع الطريق ، وفي (الكيلومتر ٩١) شيخ عبد الرحمن ، وعلى مقربة منه ضيعة تل حمو ، وهنا يمكن لمن بيده نظارة مكبرة أن يرى دير سمعان الذي يدعى قلعة سمعان ، ماثلاً بجدرانه وقناطره وحناياه وصوامع الرهبان ودور الضيفان المجاورة له ، ويلمح في أعلى قمة جبل سمعان مقام الشيخ بركات ، وبعد أن يجتاز الطريق قرى تللف وكفر بطرة وبابليت ، يصل في (الكيلومتر ١٠٥) إلى جسر نهر عفرين الحديدي ، وعلى يساره نشز صخري كان فوقه خان كبير تنزله القوافل ، ثم دثر وبني مكانه وحوله منذ بضع سنوات بليدة حديثة سميت عفرين ، وجعلت قاعدة لقضاء كرد طاغ كما جرى بقرق خان ، وعدد سكان هذه البليدة ثمانمئة ، ثلثاها من المسلمين والثلث من الأرمن الجالين من كليس وغيرها . وفي عفرين طريق لاحب نحو الجنوب ، يمر بقرية طورندة ويصل إلى حصن الباسوطة ، أحد حصون الصليبيين الذي كان يحرس مسلك عفرين ، لاتزال أطلاله ماثلة .

وقضاء كرد طاغ قضاء واسع ، من أعمال ولاية حلب ، قام مقام ناحية الجومة التي كانت فيما مضى من أنحاء قضاء كليس ، وهذا القضاء ملآن بالجبال والهضاب المكسوة

بالغابات المختلفة الأشجار ، وبكروم الزيتون والعنب ، وفيه مياه جارية ، ورباع مسقوية ، وتربة خصبة ، وغلاته كثيرة متنوعة ، أجلها الزيت المشتهر بجودته ، لكن أهله وهم من أقحاح الأكراد ، وبعضهم يزيدية من عبدة الشيطان فيا قيل ، لا يزالون على جهلهم وجفائهم المطبقين ، يسودهم نفر من سراتهم الملقبين بالآغوات ، على طراز الحكم الإقطاعي الذي كان في العصور المتوسطة ، ويستبدون بهم وبثمرات أتعابهم ، والخمر والميسر منتشران بين سكان هذا القضاء ، وقتل النفس وأخذ الثأر لأتفه سبب من أسهل الأعمال لديهم ، يرتكبونه ويلجؤون إما إلى جبالهم الوعرة ، أو إلى الحدود التركية القريبة . وقد ردد (أوليا جلبي) في رحلته الشكوى من أسلافهم مرارا (ص ١٥ ، ١٦) . وبعد عفرين تقترب الطريق من السكة الحديدية عند قرية عرش قيبار ، ثم تصعد في منعطفات شقت في الأعضاد الشمالية من جبل سمعان ، إلى أن تصل في (الكيلومتر ١٢١) إلى قرية قطما ، وهي على نشز في يسار الطريق ، وفي قربها محطة السكة الحديدية الآتية من آذنة إلى حلب ، ومخفر محصن فيه جنود إفرنسيون . ويمكن أن تعد هذه الطريق القديمة إلى هنا حداً فاصلاً بين البقاع المتكلمة باللغة العربية ، وهي على يمينها ، والمتكلمة باللغتين التركية والكردية وهي على يسارها . وبعد قطما بمسافة مفترق الطريق الذاهبة إلى أعزاز (١٦ كيلومتراً) ، ثم إلى كليس التي تعد أول بلدة في الحدود التركية . وفي طريق أعزاز يجتاز السائر السكة الحديدية ، ثم يمر بقرية سيجراز إلى أن يصل أعزاز . وأعزاز قرية كبيرة تعلو عن البحر ٦٠٠ متر ، سكانها ٥٠٠٠ ، ثلثاها من العرب وثلثها من الأرمن ، وهي قاعدة قضاء واسع ، كثير القرى المتدانية ، الممتدة في سهول شاسعة أعذاء حمراء ، زكية التربة ، وافرة الغلات ، تخصب حتى في السنين التي تمحل فيها بقاع حلب ودمشق ، كسنة ١٣٥٢ هـ التي زرت أعزاز فيها وأعجبتني زروعها ، وأعزاز في سفح تل صناعي عال ، يكاد يزول كان فيه حصن لم يبق منه أثر ، لأنه كان مبنياً باللبن والمدر ، دمرته الزلزلة سنة ٣٦٣ هـ . ملك الصليبيون أعزاز ودعوها Hazart ، وأتبعوها أولاً بالرها ثم بأنطاكية ، ورمموا حصنها ، وجعلوها من المخافر الأمامية في وجه المسلمين في حلب ، إلى أن استردها منهم نور الدين محمود زنكي سنة ٥٤٦ هـ ، وبعد أن رممها الملك الظاهر غازي الأيوبي صاحب حلب ، وعمر قلعتها ومسجدها الجامع ، خربها التتار في سنة ٦٥٨ هـ شأنهم في كل قلاع الشام ، فنزح أهلها عنها إلى كليس وغيرها من البلاد ، فاضمحلت حتى صارت قرية

حقيرة . قال ياقوت : « والعزاز الأرض الصلبة ، وهي بلدة فيها قلعة ، ولها رستاق شمالي حلب ، بينهما يوم واحد ، وهي طيبة الماء عذبة الهواء لا يوجد بها عقوب » ا هـ . وصحيحه أن هواء أعزاز يفسد في بعض السنين التي تزرع فيها ضاحيتها ، وليست كل مياهها عذبة ، وفي أعزاز جامع قديم كبير ، له صحن واسع فسيح ، في شماليه رواق وفيه مأذنة ضخمة ، وفي وسطه حوض يهبط إليه بدرجات ، يأتي ماؤه من قناة ، وحرم الجامع واسع ، له قباب محمولة على ركائز ضخمة ، وقد قرأت على باب الجامع ، أنه أمر بعمله الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي بن أيوب في سنة ٦٦٤ هـ .

وبقيت أعزاز على خرابها شبه قرية ، وكانت تتبع قضاء كلس ، إلى أن جعلت سنة ١٣٤٠ هـ عقيب تأليف الدولة العربية في حلب قاعدة قضائها الحالي ، وأتيح لها قائمو مقام فتحوا فيها شوارع ، وأسواق ذات حوانيت كثيرة ، وشادوا دوراً للحكومة ، والمدرسة وحديقة عامة ، وأتوا إليها بالماء القراح ، فاتسعت مرافقها وكثر عدد قطانها من الأرمن وغيرهم ، حتى أصبحت بليدة حسنة في الجلة . وفي قضاء أعزاز عدة أماكن تستحق الزيارة والبحث ، منها قرية دابق التي حدثت في مرجها المعركة الهائلة الحاسمة بين قانصو الغوري والسلطان سليم سنة ٩٢٢ هـ .

هذا ثم تنحرف طريق حلب بعد قطها نحو الجنوب ، فتمر في سهول شاسعة أعذاء ، فيها قرى مالكية ومرعناز ومنق ، وتصل في (الكيلومتر ١٣٢) إلى كفر أنطون ، وهذه القرى من أعمال قضاء أعزاز . ثم تستأنف الطريق السير فتمر بقرية تل حجر ، وفي (الكيلومتر ١٣٩) طريق لاحب نحو قرية تل أرفاد ، التي لها ذكر في تاريخ الآشوريين ، وفيها محطة السكة الحديدية الآتية من آذنة ، وقد اشتهرت ببطيخها الأحمر ، ثم تمر الطريق بقرى : دير جمال ومعرسة الخان ، ونبل وبيانون ، وحيان وعندان وحريتان ، وكلها من أعمال قضاء جبل سمعان ، وفي جوار عندان مزار النبي أرميا ، يقصده المرضى للاستشفاء . وفي (الكيلومتر ١٦٣) على يسار الطريق بناء هرمي ، شاده الإنكليز ، عليه كتابة مآلها أنه في تاريخ ٢٦ تشرين الأول سنة ١٩١٨ م حدثت في هذا الموقع ، آخر معارك الشرق الأدنى ، خلال الحرب العالمية الكبرى بين فرسان الإنكليز

والجيش التركي ، وعلى الوجه الشرقي من الهرم أسماء القتلى وبينهم مسلمون هنود ، وبعـد أن تجتاز الطريق قرى كفر حمزة وبليرمون ، تصل إلى حديقـة السبيل في ضـاحيـة حلب ، ثم إلى حي الجميلية في حلب في (الكيلومتر ١٧٢) .

طريق يني شهر ــ حارم

بعد يني شهر (عم) ينحرف الطريق نحو الجنوب ، محاذياً أعضاد جبل الأعلى ، التي تضمحل عند سيف العمق ، وعند قرية الشيخ علي ينفصل الطريق ، فالغربي يذهب نحو أنطاكية ، والقبلي (وطوله أربعة كيلو مترات) نحو حارم .

وحارم بليدة في سفح جبل الأعلى ، تبعد عن أنطاكية ٤١ كيلو متراً ، وتعلو عن البحر ١٣٨ متراً ، سكانها نحو الألفين من المسلمين العرب ، وفيها مبان حديثة لدار الحكومة ودائرة الدرك والمدرسة والمستشفى ، ومعمل حديث الطراز والأدوات لعصر بزر الزيتون ، وعين صافية جارية ، تحدث جدولاً يصب في العمق ، ودور وحوانيت ، وجامع وبساتين عديدة ذات أثمار وبقول جيدة ، تنتج باكراً وترسل إلى حلب . لكن هواءها رديء لوقوعها في شرقي العمق وعلى سيفه ، وفيها تل عال فوقه قلعة ، لاتزال أطلالها الدارسة ماثلة . قال ياقوت : حارم حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية وهي الآن من أعمال حلب ، وفيها أشجار كثيرة ومياه ، وهي لذلك وبئة . ويذكر المؤرخون أن حارم كانت قبل الفتح الإسلامي حظيرة للمواشي ، ودامت على ذلك في صدر الإسلام ، إلى أن ملكت الروم أنطاكية سنة ٣٥٨ هـ فبنوها حصناً لحمي مواشيهم من غارات العرب ، ثم صاروا يزيدون فيه ويوسعونه ، واستمرت حارم في أيديهم إلى سنة ٤٧٧ هـ ، وفيها استولى عليها سليمان بن قتلمش ، لما استولى على أنطاكية وأعمالها كما بيناه في تاريخها ، وبقيت حارم في أيدي المسلمين إلى سنة ٤٩١ هـ ، وفيها ملك الفرنج أنطاكية وحارم وغيرهما ، وزادوا في تحصين حارم ، وجعلوها من القلاع المخصصة لحراسة أنطاكية ، وملجأ لهم إذا شنوا الغارات على المسلمين في ضواحي حلب . ولم تزل في أيديهم إلى سنة ٥٥٩ هـ ، وفيها أخذها نور الدين محمود زنكي منهم بعد معركة هائلة ، وأقطعها لأخيه في الرضاعة مجد الدين أبي بكر ابن الداية ، ووضع فيها منارتين تشتعلان كل الليل ، لهداية أسرى المسلمين المنهزمين من أيدي الإفرنج .

ولما آلت حارم للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ، أقطعها لمدبر دولته سعد الدين كمشتكين ، ثم قتل سعد الدين فقصدها فرنج أنطاكية طمعاً بقلة حاميتها وحاصروها أربعة أشهر ، ثم صالحهم الملك الصالح على مال ورحلوا عنها ، وكان من بها قد امتنعوا على الملك الصالح بعد قتل كمشتكين ، فأرسل إليهم الملك الصالح جيشاً شدد عليها الحصار بعد رحيل الفرنج ، فسلموها إليه فاستناب بها مملوكاً كان لأبيه اسمه سرخك . فلما كانت سنة ٥٧٩ هـ قصدها صلاح الدين بعد فتح حلب وبها المملوك المذكور ، فراسله صلاح الدين أن يسلمها إليه ، ويعطيه عوضها ماشاء ، فجار في الطلب وقصد مراسلة الفرنج ، فخاف أصحابه أن تصير القلعة بيد الفرنج ، فقبضوا عليه وأرسلوا إلى صلاح الدين يطلبون الأمان فأجابهم ، وتسلم القلعة ورتب بها بعض خواصه . ثم صارت بعد صلاح الدين لولده الملك الظاهر غازي ، فاهتم بشأنها وحصن قلعتها واسمه مكتوب على بابها ، وكانت هذه القلعة قديماً مثلثة الشكل ، فغيرها الملك الظاهر ، وجعلها من جهة القبلة مدورة ، وبنى أبراجها مربعة . وفي سنة ٦٥٧ هـ استولى هولاكو على شمالي الشام وأخذ حارم ، وقتل جميع من فيها حتى البهائم خنقاً ، وأخربها عن آخرها ، فظلت عدة قرون ليس فيها سوى أطلال خافية ورسوم بالية ، إلى سنة ١٢٤٣ هـ بدأ عمرانها والتف حولها السكان ، وفي أواخر القرن الهجري الماضي نقل مركز القضاء من الريحانية إليها ، فتضاعف عمرانها ، ثم نازعتها بليدة كفر تخاريم هذا المركز ، لردائة هواء حارم وجودته في كفر تخاريم ، وظل هذا الأخذ والرد مدة إلى أن عاد واستقر في حارم منذ بضع سنوات .

أما قلعة حارم فمبنية فوق تل منفرد ، منتصب وسط السهل كحارس جبار ، يكلأ حارم بعين عنايته ، وهذا التل منفصل عن آخر عضد في جبل الأعلى المجاور له وهو طبيعي ، لكن منحدراته مرصوفة بالبلاط ، ماخلا المنحدر الشمالي العمودي ، وكان حول التل خندق ، قسم منه محفور في الأرض ، وقسم منقور في الصخر ، ولا يزال بعض البلاط والخندق ظاهراً . وفي ذروة التل المذكور بنيت القلعة ، على شكل نصف دائرة ، ماخلا شماليها فإنه على خط مستقيم . وسور القلعة خراب ، وزاد خرابه لما تحصن في هذه القلعة الجند الإفرنسي ضد عصابات الأهلين التي كانت تهاجمه من حين إلى آخر في سني ١٣٤٠ و ١٣٤١ هـ . وفي السور أطلال أبراج بارزة ، مربعة الشكل ممتدة على طول نصف الدائرة

التي تقدم ذكرها . أما القسم الشمالي المستقيم ، فكان مصوناً بالمنحدر العمودي . ويصل القاصد إلى هذه القلعة من شعب في منحدرها الغربي ، أصلحوه قليلاً منذ بضع سنوات ، فيدخل من باب واطئ ذي عتبة مستقيمة ، بين برجين عريضين . ولم يبق في باحة القلعة من الأطلال ما يستحق الذكر سوى البرج الكبير المستطيل الشكل ، فقد أقيم في الزاوية الشمالية الشرقية في أضعف نقطة الدفاع عن السور . وفي هذا البرج ترى أجل الأنقاض والأطلال والجدران ، وفي أسفل الجدران حشي كثير من أعمدة الروابط . ومن غريب ما يوجد في هذه القلعة أنه ينزل في جوف تلها ، من سرداب عمودي له ١٥٠ درجة ، يصل إلى مستوى أرض البلدة ، إلى حيث تنبع عين جارية تفيض على الخندق ثم تتفرع إلى الأرباض ، كان المحاصرون يشربون منها .

وقد شهد العالم الأثري (فان برشم) ، في كتابه (رحلة في الشام) ، بأن قلعة حارم عربية البناء ، من طراز الهندسة العسكرية السائدة في عهد الملوك الأيوبيين ، يدل على ذلك انتظام شكل باحتها ، ورصف منحدراتها بالبلاط ، على النحو الذي يشاهد في قلاع حمص وحماة وشيزر وحلب وقلعة المضيق ، وأن تخطيط سور قلعة حارم ، ورسمه على نصف دائرة جعلاها تشبه قلعة بصرى حوران التي بنيت في عهد الأيوبيين ، حول مسرح روماني قديم ، وشكلها العام جعلها تشبه أيضاً شكل قلعة المضيق ، ووضع المدخل وطرازه يشبه ما في مدخل قلعة حلب . واستنتج العالم المذكور بأن ليس في قلعة حارم أقل أثر لهندسة الصليبيين العسكرية ، لأنهم لم يمكثوا فيها أكثر من نصف قرن . هذا ويمتد نظر الواقف في هذه القلعة إلى الأطراف ، فيرى في الشمال بليدة حارم ومبانيها البيضاء ، والطريق المعبدة الذاهبة منها إلى حلب ، وفي الشرق منحدرات جبل الأعلى العمودية الصعبة المرتقى ، وفي الجنوب الآكام المشرفة على وادي العاصي القادم من سهل الغاب ووادي دركوش ، وفي الغرب سهل العمق الأفيح وضياعه المنتشرة فيه ، وقد ازدان أفقه البعيد ببحيرة أنطاكية الزرقاء ، وبعدها قمم جبل اللكام التي تناطح السحاب ، ومثلها جبل موسى والجبل الأقرع ، أما أنطاكية فقد اختفت وراء أعضاد جبل القصير .

وحارم قاعدة قضاء واسع كثير الخيرات ، غزير المياه ، امتد معظمه في جبل الأعلى وجبل باريشا وقليله في سهل العمق ، وفيه قرى كبيرة تعد من الأمهات تشبه المدن بعمرانها ، وفيه أربع نواح سلقين وكفر تخاريم وباريشا وترمانين .

طريق حارم - إدلب

(٥٥ كيلو متراً)

ومن حارم طريق لاحب تجتازه السيارة ، يذهب نحو الجنوب الشرقي ، ويشرع بتسلق أعضاد جبل الأعلى المشرفة على سهل العمق ، فبعد حارم بعشرة كيلومترات بليدة جميلة تدعى سلقين ، من أبهج وأنزه ما رأيته في أعمال حلب . عدد سكانها ٣٠٠٠ مسلمون عرب ، علوها عن البحر ٢٥٠ متراً تشرف على سهل العمق ، بنيت على ضفتي واد جميل ظليل ، فيه أشجار باسقة مثمرة وغير مثمرة ، منها بضع سروات عظيمة عريقة في القدم ، وثمة بساتين تنتج أثماراً وبقولاً جيدة ، وعيون وأرحاء ، وجامع كبير حسن ، وحمام وسوق حافل ، ودور أنيقة رحبة ، أصحابها ذوو وجاهة وحفاوة يلقبون بالآغوات ، معظم ثروتهم من الزيتون الذي يكثر وجوده في هذه الهضاب .

وبعد سلقين تأخذك السيارة نحو الشرق الجنوبي في طريق لاحب فتحوه من عهد قريب ، فوق هضاب جبل الدويلي أحد أعضاد جبل الأعلى الملآن بأشجار الزيتون الغضراء ، فتصل بعد عشرة كيلومتر إلى بليدة تدعى كفر تخاريم ، واقعة وسط واد عريض من أودية الجبل الأعلى ، عدد سكانها ٣٠٠٠ مسلمون عرب ، وهذه أيضاً جميلة ذات بساتين وعيون ، وحمام وجامع وسوق حافل ، ودور رحبة أنيقة ، ومعاصر زيتون كثيرة ، وأسر ذات وجاهة ، وفيها في الأكمة المشرفة عليها دار حكومة ، ومستودع لجند الرديف لما كانت مركز القضاء ، هجرا فأشرفا على الخراب . وقد اشتهرت هذه البليدة في تاريخ الثورات التي قام بها الأهلون عقيب الاحتلال الإفرنسي ، وظلت مدة عرضة لتناحر العصابات والجند . ثم تأخذك السيارة نحو الجنوب في واد طويل ينتهي عند سهل الروج ، الذي سيأتي ذكره ، فتصل بعد خمسة كيلومتر إلى بليدة تدعى أرمناز عدد سكانها ٣٠٠٠ مسلمون عرب ، ذات أسواق ودور حافلة وجامع وحمام ، ولأرمناز ذكر في التاريخ ، اشتهرت منذ القديم بمعامل الزجاج ، فكان يصنع فيها أنواع الظروف والأواني الزجاجية ، على ألوان

وأشكال مختلفة بـديعـة ، ولم تزل أرمنـاز مركز هـذه الصنـاعـة في شمالي الشـام ، حتى ظهر الزجاج الإفرنجي ، وقضى على صناعة أرمناز وأفقر أصحابها . والطريق بعد أرمناز تمتـد في الوادي المذكور المحصور بين أعضاد الجبل الأعلى والجبل الوسطاني ، ثم تنحرفُ في أول سهل الروج ومستنقعاته ، عند تل شامرون الأثري ، ثم تتسلق أول هضـاب جبل الزاويـة ، إلى أن تصل إلى إدلب .

وفي قضاء حارم جبلان عظيمان ، أولهما يدعى جبل الأعلى ، والثاني جبل باريشـا والجبل الأعلى مزدان بأشجار الزيتون ، بينما جبل باريشـا يكاد يكون أجرداً للين الصخور والتربة في الأول ، وقسوتها في الثاني . ويكثر سواد الدروز في الجبل الأعلى الذي كان اسمـه فيما مضى جبل السماق ، وقراهم هي بنـابل وقلب لوزة ، وبشنـدلايـا وجـد عين ، وعبريتـا وكوكو ، وحلة وكفر مالس ، وتل تيتـا ، ويقطن بعضهم مع السنيين في قريـة كفر كيلـة وبشندلنتي ودير سلونة . وهؤلاء الدروز لا يتجـاوز عـددهم الألفين فيما قيل ، وهم أهل كـد ومعرفة بالزراعة وتربية الماشية ، وعندهم كرم وآداب يمتـازون بهـا ، إلا أنهم ضعفـاء النفوذ في هـذه الـديـار في الجملة . هـذا ولا يصل القـاصـد إلى قرى الجبـل الأعلى إلا إذا امتطى الرواحل ، أو سار على قدميه لعدم تمـديـد طرق السيـارات فيهـا بعـد . وهـذا الجبل وقراه مملوء بأطلال المصانع الداثرة البيزنطيـة ، من القرنين الخـامس والسـادس الميلاديين ، تروع الزائر بضخامة أحجارها وحسن هندستها وزخرفها ، بعضها صوامع وبيع وأديرة ، وبعضها قصور ودور ، مابرح كثير منها على جدته وروائه في الجملة ، جدير بـالزيـارة والإمعـان ، وإن الإنسـان ليستغرب بقـاءهـا حتى الآن سـالمـة ، رغم مرور خمسـة عشر قرنـاً ، حـدثت خلالها في هذه الـديـار ضروب الكوائن ، وتقلبت شتى الشعوب . وربمـا كان لوعورة هـذه الجبال ، وكؤودة مسالكها فضل في ذلك .

هذا وأشهر مافي الجبل الأعلى من تلك الآثـار ، بيعـة قلب لوزة التي تعـد أبـدع بيع الشـام طراً . وتليهـا بيعـة كفر كيـلا ، وفي بشنـدلايـا مـدفن (طيبيـاريـوس كلـوديـوس صوصاندروس) ، في جوف مغارة تحت الأرض ، نقرت في الصخر ، وفي كوكنايا كثير من الدور والمدافن القديمة العجيبة بهندستها وجسامتها ، وفي بـاقوزا دور عـديـدة ، مـابرحت ماثلة وبيعة جميلة ، وفي الدويلي أطلال حصن خراب ، وفي جبل باريشـا اشتهرت قريتـا

دير سيتا وباقوزا بأطلال القصور والدور ، ودار قيتا بكنائسها ، هذا عدا عن قصر البنات ، الذي ذكرناه مع غيره من مصانع هذا الجبل في بحث طريق حلب . وثمة من الأديرة التي ذكرها ياقوت دير بلاط قال : « من أعمال حلب مشرف على عم ، فيه رهبان لهم مزارع ، وهو دير قديم مشهور » ا هـ . ولم يتسن لي تحقيق موضع هذا الدير ، وفي قول ياقوت دليل على أن هذه الأديرة التي عددناها ، كان بعضها إن لم يكن جلها ، عامراً وآهلاً برهبانه ، إلى القرن السابع الهجري الذي عاش فيه ياقوت .

طريق يني شهر ــ أنطاكية

(٤١ كيلومتراً)

يجتاز السائر في هذه الطريق جنوبي سهل العمق ، ويمر بضياعه وضويعاته العديدة ، التي تقدم وصفها وحالة أهلها ، وبالمستعمرات الأرمنية الحديثة التي أسست سنة ١٣٤٧ هـ ، وفي (الكيلومتر ٢٢) يجتاز جسر الحديد المبني على العاصي ، وفي جواره مخفر لجنود الدرك ، وبضعة مبان وأكواخ . وكان هذا الجسر في العصور المتوسطة ذا مكانة جليلة من ناحية سوق الجيش ، تفوق أمثالها في شمالي الشام ، سيا في أمر الدفاع عن أنطاكية .

وكان له برجان عظيمان أبوابها من الحديد . ولما أقبلت الحملة الصليبية الأولى حاول مسلمو أنطاكية أن يوقفوا سيرها في هذا الجسر ، لكن الصليبيين استبسلوا واقتحموه ، ويظهر أنه خرب في تلك المعركة ، أو في غيرها من المعارك التي توالت ، فرممه أحد ملوكهم (بودوين) ، وكان هذا الجسر من الحجر وذا تسع قناطر ، ويظهر أن الزلازل خربته ثانية في القرن الماضي ، فرمم في سنة ١٢٣٨ هـ على حالته الحاضرة ، وطوله اليوم سبعون متراً ، وله أربع قناطر ، وظهره مستقيم ومبلط ، وفي طرفه الشرقي بني برج مربع ، له سقف ذو انحنائين وتحته ساباط معقود ، يغلق عند اللزوم تجتازه السيارات والقوافل . ثم يمر السائر في سهل العمق في (الكيلومتر ١٧) بضويعات أخرى ، تابعة لناحية قصير التحتاني ، كالعبيدية ومدنبو ، ثم بقرية مهاجر ، وهنا يلمح عن بعد بحيرة أنطاكية ، وفي (الكيلومتر ١٠) يمر بقناطر ماء أثرية ، ويحاذي كوعاً للعاصي ، وفي (الكيلومتر ٩) يقترب العاصي من الطريق عند قرية إيليجة ، وفي (الكيلومتر ٥) على اليسار مفرق الطريق اللاحب ، التي افتتحت حديثاً بين أنطاكية وجسر الشغر ، وسيأتي وصفها ، ثم قرية كوزل برج على ضفة العاصي ، ثم في (الكيلومتر ٣) الطريق الذاهبة إلى الستاديو وحمامات فالنسيوس ، وفي (الكيلومتر ٢) مكان باب القديس بولص ، وبركة الماء التي مابرحت تتدفق ، ثم يدخل السائر أنطاكية .

طريق طوب بوغاز ــ أنطاكية

(٣٠ كيلومتراً)

في أسفل قلعة بغراس وشرقيها ضيعة صغيرة تدعى قره مغرط ، في جوارها خان قديم كبير ، دثر في العهد الأخير ونقضت أحجاره ، بعد أن كان عامراً وصالحاً لإيواء القوافل والمسافرين . والطريق من طوب بوغاز إلى أنطاكية تسير محاذية لسفوح الجبل الأحمر التي يتركها السائح على يمينه ، ويرى على يساره سهل العمق الفسيح ، وبحيرة أنطاكية الزرقاء ، والمستنقعات الواسعة الممتدة حولها . وهو بعد مغادرة الطريق الصاعدة غرباً إلى قره مغرط وقلعة بغراس التي ترى عن بعد ، يمر في (الكيلومتر ٦) حذاء ضويعة تدعى بغلامة ، تعد فرضة على شاطئ مستنقعات العمق المتصلة بالبحيرة ، وفيها القوارب الرفيعة التي تروح وتغدو في هذه المياه ، والمسالك المنشقة بين قصب الآجام ، يركبها الصيادون الذين يفدون في الربيع لقنص الأوز والبط ودجاج الماء والشقب وغيرها من الطيور المائية ، وأسرابها تفوق الحصر ، وثمة الثعالب والخنازير البرية وكلاب الماء أيضاً . ثم تجتاز الطريق وادياً عريضاً حافلاً بالبساتين ، فيه في (الكيلومتر ١١) قريتا بدركة العرب وبدركة الشركس ، ثم قريتا ياقاري وسردلي . وهنا يرى السائح في الأفق الجنوبي جبل القصير ، وفي الأفق الغربي جبل الأقرع الشامخ ، كالهرم فوق البحر ، إلى علو ١٧٥٩ متراً ، وفي (الكيلومتر ٢١) يجتاز أراضي قرية عواقية ، ويودع المستنقعات ، ويدخل الأرضين المحروثة والمزروعة من سهل العمق ، فيرى على يساره مخرج البحيرة الضيق ، وسكوره التي تقدم وصفها . وهنا يشاهد عن بعد في الأفق الجنوبي جبل (حبيب النجار = اوسيلبيوس) المشرف على أنطاكية ، وفي الأفق الغربي جبل موسى ، معقل أرمن هذه الديار ، ثم يسير في (الكيلومتر ٢٨) محاذياً الضفة اليمنى لنهر العاصي ، الذي انعطف عند جسر الحديد نحو الغرب ، واتجه قاصداً أنطاكية . وفي (الكيلومتر ٣٠) يصل إلى أنطاكية ، نافذاً إليها من جسرها القديم الروماني .

تاريخ أنطاكية : لما مات الإسكندر المقدوني سنة ٣٢٣ ق . م اقتسم خلفاؤه ممالكه الواسعة ، فكان آنتيغونوس في مقدونيا وآسية الصغرى ، وبطلميوس في مصر وفلسطين ، وسلوقس نيكاتور في بابل وفارس . وبنى آنتيغونوس سنة ٣١٧ ق . م بين العاصي ومخرج بحيرة أنطاكية فيما قيل بليدة دعاها آنتيغونيا ، وأسكن فيها قوماً من الأكراد ، وهم بقية جيوش الآشوريين ، الذين ظلوا في هذه البقاع يحترفون الصيد والرعي . ثم لما انتصر سلوقوس نيكاتور على آنتيغونوس وقتله سنة ٣٠١ ق . م ، وبسط سلطانه على معظم البلاد الآسيوية ، شاد سنة ٣٠٠ ق . م مدينة أنطاكية تكريماً لاسم أبيه أنطيوخس ، كما شاد لائوديسيا (اللاذقية) لاسم أمه ، وأفاميا (قلعة المضيق) لاسم امرأته ، وبدا له أن يغير موقع آنتيغونيا ، فأمر ببناء أنطاكية في سفح جبل سيلبيوس ، ونقل إليها أنقاض آنتيغونيا بعد أن دكها ، وأسكن فيها مزيجاً من الكرد واليونانيين المقدونيين واليهود . وقد اهتم سلوقس بإنماء أنطاكية وعمرانها ، ومنح من يأتي إليها من الغرباء حقوق اليونانيين وامتيازاتهم ، فاكتظت بالسكان من مختلف الشعوب والعناصر ، وازدهت وصارت عروس الشرق ، وعاصمة الممالك التي كانت تتألف منها الدولة السلوقية العظيمة ، الممتدة من سواحل البحر المتوسط إلى حدود الهند .

وتاريخ العهد اليوناني السلوقي طافح بالحروب والفتن والكوارث ، التي حالت دون بقاء هذه الدولة أكثر من ٢٣٦ سنة . فمن العوامل التي أدت لزوالها بهذه السرعة ، اقتتال الآنتيغونيين والسلوقيين والبطالسة ، وتنازعهم على امتلاك بلاد آسية ومقدونيا وكالسيريا (أنحاء البقاع ودمشق) ، وتنافس أعضاء الأسرة المالكة على العرش وتناحرهم ، وبعد أنطاكية عن مقدونيا ، وأثر هذا البعد في إضعاف قوة العنصر اليوناني الذي كان دعامة السلوقيين ، وتنوع القوميات والعصبيات في أنطاكية وتنازعها ، ووجود اليهود بينها يوقظون الفتنة كلما رقدت ، ودسائس البطالسة أصحاب مصر ، الذين كانوا يرومون ضم ملك السلوقيين إليهم ، فيرشون القواد والأمراء ، ويحرضون نساء البلاط اللواتي كان بعضهن من أصل مصري على الشغب وتسميم الملوك ، ليتسنى لهم التداخل والاصطياد في الماء العكر .

ولم تسعد أنطاكية كما ينبغي ، إلا في زمن أنطيوخس الكبير (٢٢٣ ـ ١٨٧ ق . م) ،

فقد تحالف هذا الملك مع أقيال الهند ، وبسط سلطانه على ولاياته الشرقية النائية التي كانت شقت عصا الطاعة ، ثم استعد لاستخلاص مصر من يد البطالسة ، ففتح في طريقه وسط الشام وجنوبه ، لكن الرومانيين ظهروا في تلك الحقبة ، وكان استفز غضبهم ، فشغلوه واضطروه بعد معركة مغنيسيا ، أن يتخلى عن أملاكه في آسية الصغرى ، وأن يسلمهم بوارجه الحربية وأفياله التي كانت في أفامية (معاهدة أفامية سنة ١٨٨ ق . م) . وبعد أنطيوخس الكبير ، تعاقب على عرش أنطاكية عدة ملوك ضعفاء في فترات قصيرة ، فابتلع الفرثيون[1] جزء المملكة الواقع شرقي الفرات ، وعمت الفوضى الجزء الذي بقي للسلوقيين ، وظهر زعماء محليون في أجزاء مختلفة من الشام ، ومنهم أمراء آل شميسغرام في حمص . وحدث مرة أن وثب اليونانيون على الملك ديمتريوس الثاني (سنة ١٤٥ ق . م) فاستنجد بيهود فلسطين ، فجاءه منهم جيش أحرق أنطاكية ونهبها ، وقتل من أهلها فيا قيل مئة ألف نفس ، ثم أجهزت الزلزلة التي حدثت في السنة التالية عليها . وبعد أن عادت الأمور إلى استقرارها مدة ، رجعت الفوضى ، وكثر القتال بين القواد والملوك رجالاً ونساء ، وتوالى الحريق والنهب في أنطاكية ودفنة وهياكلها ، ولما ضاق ذرع الأنطاكيين بل كل الشاميين ، كتبوا إلى ديكران ملك الأرمن ودعوه لإنقاذهم فجاء هذا سنة ٨٣ ق . م ، واستحوذ على شرقي كيليكية وشمالي الشام وفينيقية حتى عكا ، مدة أربع عشرة سنة فحسب . لأن الرومانيين غلبوه في عقر داره ، واضطروه لمغادرة الشام ، فاسترد السلوقيون ملكهم ، لكن الرومانيين ظلوا يتداخلون في شؤون السلوقيين ويدسون ، حتى تسنى لأحد قوادهم بوميوس في سنة ٦٤ ق . م أن يقضي على دولتهم بالمرة .

ورغم الكوارث والمساوئ التي حدثت في عهد السلوقيين ، فقد كان لهم همة محمودة في تشييد المدن وعمرانها ، على تخطيط منتظم وهندسة رائعة . أورد المؤرخون وصف أنطاكية ومبانيها في عهدهم الذي لم يبق منه أثر ، فقالوا : إنها كانت محاطة بسور عظيم ، في داخله أربعة أحياء منفصل بعضها عن بعض ، وشوارع عديدة مرصوفة ، أكبرها الشارع المستقيم الذي

---

(١) الفرثيون أو البارثيون : شعب كان يقطن في شمالي بلاد إيران الحالية ، عرفوا بشدة مراسهم وصبرهم في الكر والفر . أسسوا لهم دولة في منتصف القرن الثالث ق . م ، وخلفوا الفرس في تقليدهم ومناوءتهم لليونان ، على أنهم لم يخلوا من الفتن والقلاقل ، إلى أن وثبت عليهم الأسرة الساسانية وقرضت دولتهم .

يخرق المدينة من الشرق إلى الغرب ، كان جميلاً ومزيناً بأروقة ذات أعمدة ، وكان لنهر العاصي إذ ذاك فرعان ، بينها جزيرة كبيرة ، كان فيها أحد الأحياء الأربعة ، وفيه القصر الملوكي ، وشادوا في المدينة عدة هياكل ، غاية في الفخامة للكواكب التي كانوا يعبدونها كالمشتري والمريخ ، ومثلها تماثيل الآلهة والملاعب (السيرك) ، والمسارح (التياترو) ، والمدارج (الأنفيتياترو) ، والحمامات ودور الكتب والمتاحف ، ودار الشيوخ (السنا) والدور والقصور الفخمة ، وبعضها كان يرصف بالفسيفساء ، وملؤوها هي ودفنة بأماكن القصف واللهو . وما زال هذا العمران زاهياً حتى قضى عليه اليهود والزلزلة سنة ١٤٥ ق . م كما قدمنا . ثم أعيد بعضه في أواخر العهد السلوقي ، وزيد فيه في العهد الروماني .

العهد الروماني (من ٦٤ ق . م إلى ٣٩٦ ب . م) : لما فتح (بومبيوس) الروماني أنطاكية ، جعلها عاصمة بلاد الشام الرومانية ، وميزها بأن تدير أمورها بنفسها ، وكان ولاة أنطاكية الرومانيون من أبرز رجالاتهم في الجاه والمقدرة ، ومنهم من كان يرتقي منها إلى عرش رومية . جاء إلى أنطاكية من هؤلاء (بومبيوس) و (يوليوس قيصر) و (أنطونيوس وزوجته كليوباترة) سنة ٣٨ ق . م ، ثم رأت أنطاكية (هيرودتس الكبير) و (أوكتاو الظافر) و (طيباريوس) ، وكل منهم كان يقلد أنطاكية كلما أتاها بالأسوار المنيعة والتماثيل ، والأروقة والهياكل ، والحمامات والمسارح والمدارج وغيرها . ودخلت النصرانية إلى أنطاكية سنة ٢٣ مْ . وصارت تنازع الوثنية وتنتشر ، وكثرت الزلازل والمجاعات والحرائق ، خلال القرن الأول الميلادي ، وفي غرة القرن الثاني شرع الأمبراطور (تراجان) باضطهاد النصارى ، وفي سنة ١١٥ م حدثت فيها زلزلة هائلة ، دامت أربعين يوماً خربت بها أنطاكية وغيرها من مدن الشام ، وهلك ٢٥٠٠٠٠ نفس ، وسقطت من جبل كاسيوس (الجبل الأقرع) قطعة كبيرة في البحر ، وغاض أحد فرعي نهر العاصي الذي كان محيطاً بجزيرة أنطاكية ، حتى أن القيصر (تراجان) لم ينج يومئذ من الهلاك إلا بأعجوبة . على أن أنطاكية أعيدت إلى رونقها الأول ، وبنيت لها قناطر الماء العظيمة الآتية من دفنة ، وفي عهد (أنطونين) نالت أنطاكية حقاً بضرب السكة ، ومدت في أعمالها الأرصفة[1] التي لا تزال ماثلة إلى يومنا . ومهدت الطرق ونشطت

---

(١) كالرصيف الباقي بعضه في سهل الحلقة على طريق حلب وقد وصفناه ، وكالرصيف الآتي من أفامية بل من حمص والذاهب إلى الأناضول والقسطنطينية ، وغيرها من الأرصفة التي بحثنا عنها في أماكنها .

تجارتها ، حتى صارت مركز تجارة بلاد الشام المتوسطة ومهد الثقافة اليونانية . على أن تأثير الشرق الروحي ظل نافذاً ، وظلت الديانة الوثنية غالبة على النصرانية .

وفي سنة ١٩٣ م حاول أهل أنطاكية وجندها أن يقيموا واليهم مكان الأمبراطور (سبتيموس سفيروس) فلم يفوزوا ، ونالوا جزاء عملهم ، ورفعت الامتيازات التي كانت لبلدتهم ، وأعطيت إلى لائوديسيا (اللاذقية) ، لكن بعد موته آزرت زوجته (جوليا) دومنا أنطاكية ، لأنها كانت شامية من حمص ، وحملت ابنها (كراكلا) المولود في حمص ، على أن يرد إلى أنطاكية ما حرمها أبوه من الامتيازات ، واستفادت أنطاكية كثيراً من انتصار (اليوكابال) على (مكرينوس) الذي اغتال أبا (كراكلا) ، إذ كان في ذلك انتصار القضية الشرقية على القضية الغربية الرومانية . وفي القرن الثالث سنة ٢٣١ م أدب (إسكندر سفيروس) جنود أنطاكية الذين اختل نظامهم ، واتخذوا غابات دفنة بؤرة لرذائلهم . وفي تلك السنة فاجأها سابور ملك الفرس بجيوشه ، وفتحها عنوة ، وأحرقها ونهبها .

وعقب هذه الكارثة ، استطاع النصارى أن يشيدوا لهم كنائس ، لأن الوثنيين كانوا يمنعونهم من ذلك ، بتهمة أنهم مسببو الزلازل ، وفي سني ٢٤٨ ـ ٢٥٤ م شقت أنطاكية عصا الطاعة ، وشرعت تجبي الضرائب ، وتضرب السكة ، وكثر الفساد بين جندها . واهتبل الفرس هذه الفوضى ، فجاؤوا سنة ٢٥٨ م ذات يوم على حين غرة ، وكان سكان أنطاكية مجتمعين في إحدى دور التمثيل ، فما راعهم إلا وأحد الممثلين المولي وجهه نحو الجبل يصيح مرتاعاً : أحلم ما أراه ، أم هؤلاء هم الفرس ؟ وما أن تم كلمته ؛ إلا وكانت سهام الفرس تتساقط على المتفرجين كالمطر ، ونال الفرس وقتئذ من أنطاكية بالنهب والتدمير ، إلى أن جاء القيصر (فالريانوس) سنة ٢٥٩ م ، وسعى في ترميمها فنشطت من عثرتها . وفي سنة ٢٦٦ م دخلت أنطاكية في حوزة زنوبيا ملكة تدمر العربية ، ونقشت صورة هذه الملكة في سكتها . ودام حكم التدمريين إلى أن قضى القيصر أورليانوس على زنوبيا ، واقتادها بالسلاسل ، وعرضها في أحد ميادين الألعاب في أنطاكية على أنظار سكانها الشامتين بها .

وانقضى القرن الرابع وضروب الفتن مستعرة في أنطاكية ، والأوبئة والمجاعات والزلازل تنتابها ، إلى أن جاءها (ديوكلتيانوس) في أواخر ذلك القرن ، وأعاد السلام

والاطمئنـان إليهـا ، لأنـه كان يقضي أكثر أيـامـه فيهـا ، وشـاد في جزيرتهـا قصراً ملوكيـاً عظيماً ، وقلد أنطاكية حسب عادة الملوك السابقين بحمامين كبيرين ، لكنـه في سنـة ٣٠٣ م اضطهـد النصـارى ، وفظع فيهم شـأن أسـلافـه من قيـاصرة الرومـان ، ومن بعـده تـوالت الأوبئة والمجاعات ، وغارات الفرس ووثبـات الجنـد ، ومظـالم الولاة . ثم عـادت أنطـاكيـة وسعدت في عهد القيصر (قسطنطين) الكبير ، فإنه لـما جـاءهـا سنـة ٣٢٧ م أبـاح لأهلهـا دخول النصرانية ، فكانت هذه الإباحة فاتحة عصر ديني جديد ، تقوضت فيه دعائم الوثنيـة من البلاد الشامية ، واعتزت النصرانية ، وصار لبطاركة أنطاكية مكانة عظيمة ، وكثر عـدد الكنائس ومنها الكنيسة الذهبيـة التي يضرب بفخـامتهـا وزينتهـا المثل ، ظلت زاهيـة إلى زلزلـة سنـة ٥٢٦ م . ولمـا مـات قسطنطين ، واقتسم بنـوه المملكـة الرومـانيـة بينهم ، كان أحدهم (قونسطـانس) ملك المشرق ، جاء إلى أنطـاكيـة سنـة ٣٣٨ م ، واستقر فيهـا وأصلح جندها ، ورد به غارات الفرس ، الذين كانوا لا يتوانون عن مناصبة الرومان العداء ، وعني بعمرانها ، فصارت ترفل بعظمتها ومحاسنها ، وضارعتها بذلك فرضتها سلوقيـة ، لأنـه وسع مينـاءهـا فصـارت أكبر مينـاء في السـاحـل الشـامي . وفي سنـة ٣٦٢ م كان فيهـا القيصر (يـوليـانـوس) فلحقت بهـا المجـاعـة التي عمت الشرق ، واحترق هيكل (أبـولـون) فـاهتم (يوليانوس) في تخفيف الويل ، وترك للأهلين المتأخر من الضرائب . وحاول هـذا القيصر إرجاع الوثنية إلى بلاد الشام ، وأحيا أعيـادهـا وحفلاتهـا ، لكن النصرانيـة كانت قـد عمت وتـأصلت في النفـوس ، حتى أن خلفـه (جـوفيـانـوس) اعتنقهـا واتخـذهـا ديـانـة رسميـة للأمبراطوريـة ، مع إقراره حريـة الاعتقـاد للوثنيين ، وكان من عـادة أهـل أنطـاكيـة أن يثوروا كلما أريد بهم شر ، منها أن القيصر (ثيودوسيوس) كان أفرغ خزائنه لكثرة الأعياد التي أقـامهـا لنفسـه ، فعمـد سنـة ٣٨٧ م إلى سـد النقص بفرض ضرائب جـديـدة ، فثـار الأنطـاكيون وكسروا تمثـال القيصر وغيره ، وقـاتلوا الجنـد ففتـك بهم ، ولم يزل حتى عفى القيصر عنهم بشفاعة الأسقف ، بعد أن حرمهم امتيازاتهم وحقوقهم . وظهر في غضون ذلـك في أنطاكية القديس (يوحنا فم الذهب) الشهير بصلاحه وطلاقـة لسـانـه ، ومواعظـه التي كان يلقيها على أهل أنطاكية ، إلى أن نفي ومات في طريقـه إلى المنفى . وجملـة القول أن العهـد الرومـاني الـذي دام ٤٦٠ سنـة (من ٦٤ ق . م إلى ٣٩٦ ب . م) كان كثير الشقـاء قليـل الهنـاء ، تـوالت فيـه الحروب الخـارجيـة والـداخليـة ، ومعـاصي الجنـد ووثبـاتـه

والمنافسات والمناحرات الدينية ، بين أنصار النصرانية والوثنية ، ناهيك عن المجاعات والأوبئة ، والحرائق والزلازل الهائلة . وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت أنطاكية في ذلك العهد ذات ميزات واعتبارات جمة ، ورأت بقدر الخطوب التي نالتها ، سعوداً وحظوظاً وفيرة ، جعلتها قبلة أنظار العالم القديم ومملكة الشرق . منها أنها كانت قاعدة حربية للدفاع والتجاوز ، المكلف بها الفيلق الروماني المرابط فيها ، تجاه الدول والشعوب الآسيوية ، كالأرمن في الشمال ، والفرس في الشرق ، والعرب في البادية ، واليهود في الجنوب ، لذا كانت أنطاكية ملأى بالثكنات والمسالح ، ودور الصناعات الحربية ، ثم كانت مركزاً تجارياً هاماً ، ومستودعاً وممراً عظيمين ، لمختلف السلع والمحاصيل الواردة من كل أقطار المعمور في الشرق والغرب ، وكانت معقل الوثنية ، ثم مهد النصرانية بعد (أورشليم) تناحرت فيها الديانتان ، وتنازعت من نحل النصرانية الكثلكة والمرطقة والآريوسية وغيرها ، والتجأ إليها بعض الحواريين كبطرس وبولص وبرنابة ، وكانت مقر عظماء البطاركة ، وكبار القديسين والوعاظ ، ومصدر الدعاة والمبشرين بتعاليم المسيح ، وكانت أيضاً مدينة الصناعات والفنون ، ومحجة طلاب الثقافة في تلك العصور ، تتهافت إلى نوادي الآداب والفنون اليونانية فيها ، الفلاسفة والخطباء والعلماء ، ويقصدها خاصة رواد علوم البلاغة والبيان ، كما كان يقصد وقتئذ طلاب علم الحقوق بيروت . وكانت مساحة أنطاكية في العهد الروماني أكثر من عهدنا بعشر مرات ، وعدد سكانها اقترب من نصف مليون ، بينهم عدد وافر من الغرباء المتقاطرين إليها ، من كل أنحاء آسية وأوروبة وأفريقية .

وكانت أنطاكية مخططة ومشيدة بإحكام عجيب ، كان فيها فيما قيل ثلاثة شوارع عظيمة مستقيمة ، تتقاطع مع شوارع وطرقات ثانوية لايحصيها العد ، ولا تختلف عن الأولى إلا بالقد ، وكان على جانبي العظيمة منها ، أروقة ذات أعمدة ضخمة مزدوجة ، وكل الشوارع كانت مبلطة ، وعلى جانبها أرصفة تعلو عن البلاط ، وكانت المياه الآتية من دفنة لقناطر (تراجان) ، تنحدر من أعلى جبل (سيلبيوس) وتتوزع بقنوات متقنة ، على كل الأحياء والدور والمعاهد ، وتتدفق أو تفور في أحواضها ورياضها ، وكان في ملتقى الشوارع ميادين واسعة ، تتخذ للاجتماعات العامة ، أما القصور والدور ، والهياكل والكنائس ، والمسارح والمدارج ، والحمامات والمدارس ، والمتاحف والتماثيل ، فحدث عن

عظمتها وجمالها ، وكثرتها ماشئت . وقيل إن أجمل هذه المباني وأفخمها كان في حي الجزيرة وفي دفنة المتازين بسكنى طبقة العظماء والأثرياء . وكانت الأيام المشهودة في أنطاكية أيام الاحتفاء بقدوم قياصرة الرومان ، الذين كانوا يدخلونها بمركباتهم الحربية ، وأفيالهم الضخمة ، وجنودهم المتنوعة الألوان والقامات والأزياء والأسلحة ، وكانت أفخم الأعياد وأبهج الحفلات تجرى في ضاحية دفنة . وكثيراً ماشكى قديسو النصارى ماكان عليه أهل أنطاكية في تلك العصور ، من القصف والتهتك ، وارتياد المسارح والملاعب ، يسمعون شجى الألحان ، ويشهدون تمثيل الروايات والألعاب الأولبية ، وعراك المصارعين ، وسباق المركبات والخيول ، واقتتال الوحوش مع الأبطال أو الأسرى .

العهد البيزنطي (من ٣٩٦ م إلى ٦٣٨ م) ٢٤٢ سنة : بعد أن قسم (قسطنطين) دولة الرومان في سنة ٣٩٦ م إلى دولتين شرقية وغربية ، واتخذ القسطنطينية عاصمة للشرقية ، مضت سنون طويلة في أنطاكية دون حادث ، إلى سنة ٣٤٩ م خرجت فيها القيصرة (أوْفذوكسيا) زوجة (ثيودوسيوس الثاني) لزيارة القدس والتبرك بقبر المسيح ، وكانت امرأة متعلمة أديبة ، فلما وصلت إلى أنطاكية تذكرت ماضيها ، فجلست على تخت من الذهب مرصع بالجواهر ، وألقت على الشعب خطاباً في مديح أنطاكية ، وأشارت في ختامه إلى أن أصل المدينة يوناني ، لأن الذي اختطها أحد قواد الإسكندر ، وأنها هي يونانية الأصل ولذلك هي أحبتها كل المحبة ، ثم أنشدت شعراً من الإلياذة موافقاً للمقام ، فتحمس السامعون ، ودعوا لها بالتوفيق والإجلال ، ونصبوا لها تمثالين أحدهما من البرونز وآخر من الذهب ، وأقاموا الأول في دار التحف ، والثاني في دار مجلس الشيوخ ، فقابلت القيصرة ذلك بالشكر ، وغمرت أنطاكية بعطاياها وإنعامها ، صرف منها قسم في تحسين حمامات (فالنسيوس) وآخر في مشترى مؤن للفقراء . وفي سنة ٤٥٨ م حدثت زلزلة عظيمة قلبت مبانيها الحديثة ، التي كان التجار انتقلوا إليها وتجمعوا ، فأعان القيصر (لئون) الأهلين على ترميم المدينة ، وأعفاهم من بعض الضرائب ، وإلى هذا القيصر ينسب بناء دير القديس سمعان العمودي ، الماثل حتى الآن في جبل سمعان ، كما ينسب إلى هذا العهد البيزنطي ، بناء الأديرة والبيع ، والقصور والدور ، والحمامات والقبور ، التي لاتزال ماثلة في الجبل الأعلى ، وجبل باريشا وجبل الزاوية ، كما بيناه في حديث كل منها . وفي

سنة ٤٩٤ م تزلزلت أرض أنطاكية ، فخربت هي ومنبج واللاذقية ، وثار سكانها على الوالي ، فزادوا الخراب خراباً . وفي سنة ٤٩٤ م هاجم أعراب البادية ضواحي أنطاكية ونهبوها ، وأعقب ذلك غارات الجراد ، وفوضى أحكام ومنازعات دينية ، وفي سنة ٥٢٦ م حدثت زلزلة هائلة نشأ من جرائها حريق عظيم أيضاً ، كادت تخرب أنطاكية بأسرها ، وهجم أهل الضواحي والجبال ، للسلب والنهب ، وللإجهاز على من بقي سالماً من أغنيائها ، وقيل إن هذه الكارثة أودت بحياة ٢٥٠٠٠٠ نفس ، وقضت على كنيسة قسطنطين العظمى . ثم بعد سنتين حدثت زلزلة أخرى ، هدمت ماأبقته الزلزلة الأولى ، وقضت على حياة الألوف أيضاً ، فأشار يومئذ أحد النساك بتسمية أنطاكية (ثيوبوليس) أي مدينة الله ، أملاً بدفع المصائب عنها فقبلت مشورته . وشرع (يوستنيانوس) وكان أعظم قياصرة البيزنطيين ، وأبسطهم يداً في العمران والبنيان ، في ترميم المدينة وصرف في هذا السبيل أموالاً طائلة . وما كاد يتم أعماله حتى هاجم (كيخسرو) ملك الفرس أنطاكية في سنة ٥٤٠ م فأضرم فيها النار ، فاحترقت برمتها ، ماعدا الحي المدعو (ستراتيوم) والكنيسة العظمى ، بعد أن سلب جنوده حلي هذه الكنيسة وبلاطها ، كما سلبوا تماثيل المدينة وأعلاقها النفيسة ، وساق كيخسرو ألوفاً من الأسرى إلى شرقي الفرات ، وحملهم على إشادة مدينة حديثة مثل أنطاكية ، دعيت بعد حين بالمداين . وعقب هذه الكارثة الفادحة نشط (يوستنيانوس) مرة أخرى لترميم أنطاكية على تخطيط حديث يناسب أوضاع أرضها ، وطرق الدفاع عنها ، فجدد أسوارها المنيعة الباقية أطلالها حتى الآن ، وشوارعها وسككها ، وبلطها تبليطاً حسناً ، وحفر خندقاً عميقاً بين العاصي والأسوار وحول بعض العاصي إليه ، لكن الإهمال قضى على هذا الخندق ، وأصبح مكانه مستنقعاً . وبنى على الأسوار ٣٦٠ برجاً ، وسبعة أبواب ، وزين المدينة بحمامات جميلة وقصور ، وكنائس ومستشفيات عديدة ، وجدد قنوات الماء ، وأقام لمياه الشتاء التي كان من عادتها أن تأتي المدينة بأضرار سدوداً متينة ، قادرة على وقاية المدينة أذى المياه . ومرت فترة بين سني ٥٤٠ ـ ٥٧٣ م رأت أنطاكية فيها راحة وطمأنينة لم يشبها إلا تمزق النصارى شيعاً ، وزاد انكباب الأنطاكيين خلالها على القصف والكسب ، وتغيرت حالتهم عما قبل ، فأصبحوا لايحفلون إلا بملذاتهم وأرباحهم ، وانقلبت الأبحاث العلمية والفلسفية ، إلى مجادلات دينية عقيمة ، ألهبت روح التعصب والاضطهاد . وكانت بلاد الشام في تلك الحقبة

مـالت حضـارتهـا وعظمتهـا إلى الزوال . لأن الفرس كانوا لا يتـوانـون عن مهـاجمتهـا كلما اهتبلوا الغرر ، فيغيرون ويعيثون ، ويرجعون مثقلين بالغنائم والأسرى . نهبوا سنة ٥٧٣ م دفنة ، وأحرقوا ضاحية عين جاموس ، وعادت الزلازل تقوض دعائم أنطاكية ، فقـد قضت زلزلة سنة ٥٨٩ م على الكنيسة العظمى ، وقتلت ٦٠٠٠٠ نفس . وفي القرن السابع في سنـة ٦١٠ م أحرق اليهود أحـد الأسـاقفـة ، فوثب الجنـد عليهم وأعمل فيهم الـذبـح . وفي السنـة التالية جاء الفرس ، وهاجموا أنطاكية كجاري عادتهم ، وبعد رجوعهم انصرف من بقي من سكانها إلى التشـاحن والتنـاحر على خلافـات مـذهبيـة ، وسـادت الفوضى ، وفقـد الأمن ، وبـارت الأرضون ، وتعطلت الصنـاعـات ، وعم البؤس والشقـاء ، واختلت شؤون الـدولـة البيزنطية ، وكثر فساد عمالها وجورهم ، ومـا زالت هـذه الأسواء تترى في الثلث الأول من القرن السـابع ، والضجر والقلـق آخـذين بخنـاق الشـاميين عـامـة ، إلى أن أقبلت طـلائـع الجيوش الإسلامية .

العهـد الإسلامي : فتح المسلمـون أنطـاكيـة سنـة ٦٣٨ م ، على يـد أبي عبيـدة بن الجراح ، بعـد حصـار قليـل انتهى بـالصلـح ، وظلت أنطـاكيـة في يـد المسلمين وثغراً من ثغورهم ، جعلوها من أعمال جند قنسرين ، ثم اتخذوها حينـاً قـاعـدة للعواصم ، كما اتخـذوا منبج حيناً أيضـاً . والعواصم فيما قيل ، هي البلاد التي تعصم مـادونهـا من بلاد الإسلام من العدو ، وهي غير الثغور التي كانت في كيليكية ، وأسكن معاوية وعبد الملك بن مروان في أنطـاكيـة قومـاً من الفرس والزط . ورأت أنطـاكيـة السلام والرخـاء في زمن الأمويين في الجملة ، لولا الـزلـزلـة التي حـدثت سنـة ٩٣ هـ وكانت عـامـة . وفي زمن العبـاسيين كانت أنطاكية من أعمال (جند حلب وقنسرين والعواصم) تتعاورهـا أيـدي ولاتهم ، وكان منهم (سيما الطويل) أحد قوادهم ومواليهم البارزين ، جاءه سنة ٢٦٤ هـ أحمد بن طولون الـذي أعلن استقلاله في مصر والشام ، فجفل منه سيما إلى أنطاكية ، فحاصره ابن طولون وفتحهـا عنوة ، وقتل سيما واستولى على حلب وأنطـاكيـة وبـلاد كيليكيـة ، وظلت أنطـاكيـة بيـد الطولـونيين إلى أن زالت دولتهم ، فرجعت إلى العبـاسيين ترى من تقلب الأحـوال مـاتراه حلب وغيرها من المدن الشامية ، إلى أن دخلت في حوزة الأخشيديين سنة ٣٢٩ هـ ، ثم في حوزة سيف الدولة ابن حمدان أمير حلب . وفي سنة ٣٥٣ هـ عصت أنطاكيـة لجور لحقهـا ، وجـاء منهـا ثـوار حـاصروا حلب في غيـاب سيف الـدولـة ، فـدافعهم نـائبـه ، ثم جـاء

سيف الدولة بنفسه وقاتلهم في سهل العمق ، وقتل مقدميهم وصادر أعيانهم ، ثم رجع في أيام شديدة الأمطار ، كما قدمناه في حديث السهل المذكور .

العهد البيزنطي الثاني : واهتبل الروم البيزنطيون هذه الفوضى الناشبة بين المسلمين وأمرائهم ، فجاء القيصر (نقفور الفقاش) سنة ٣٥٥ هـ ، واستخلص كيليكية من المسلمين كما قدمنا ، ثم حاصر أنطاكية ، لكنها دافعت دفاعاً مجيداً وصدته ، فعاث في أعمالها ورجع ، وعاد في سنة ٣٥٨ هـ ، ووصل في غاراته إلى حماة وحمص وطرابلس ورجع يقود مئة ألف صبي وصبية من سبايا المسلمين ، وأقام على حصار أنطاكية أحد قواده (ميخائيل البرجي) فتمكن هذا سنة ٣٥٩ هـ من الاستيلاء عليها ، بعد حصار طويل ، وبفضل خيانة أهل بغراس ، الذين كانوا تظاهروا بالالتجاء إلى أنطاكية ، ومكنوه من الدخول كما قدمناه في بحث بغراس ، ففتك بأهلها المسلمين ، وسبى منهم عشرة آلاف صبي وصبية ، وأرسلهم إلى القسطنطينية للبيع . وفي سنة ٣٨١ هـ لما حاصر (منجوتكين) أحد قواد الفاطميين أبا الفضائل بن حمدان في حلب ، استنجد هذا (ببسيل) ملك الروم فلباه الملك ، وحرر لنائبه في أنطاكية أن يسير لنجدته ، فالتقاه (منجوتكين) عند جسر الحديد على نهر العاصي ، وكسره شر كسرة ، ثم حاصره في أنطاكية ، لكنه لم يفز بطائل ، وفي سنة ٣٨٤ هـ جرت بينهما معركة ثانية في سهل العمق ، دارت الدائرة فيها على الروم ، وتعرف بوقعة المخاضة ، ونهب (منجوتكين) رساتيق أنطاكية وأحرقها . واستمرت أنطاكية بيد الروم ١٢٢ سنة .

العهد السلجوقي : وفي سنة ٤٧٧ هـ استنقذ أنطاكية من الروم (سليمان بن قتلمش) السلجوقي ، أحد ملوك آل سلجوق ، بمخامرة الحاكم بها من جهة الروم ، كما هي العادة في هذه المدينة الحصينة ، التي كانت لا تؤخذ في الغالب إلا بالمخامرة .

وكتب سليمان إلى السلطان (ملكشاه بن آلب أرسلان) بخبر فتحها فسر به ، فقال الأبيوردي يخاطب ملكشاه :

لمعت كناصية الحصان الأشقر	نار بمعتلج الكثيب الأحمر
وفتحت أنطاكية الروم التي	نشزت معاقلها على الإسكندر
وطئت مناكبها جيادك فانثنت	تلقي أجنتها بنات الأصفر

وسار شرف الدولة (مسلم بن قريش) العقيلي من حلب ، ليدفع سليمان عنها لأنه لم يدفع له الجزية التي كان يتقاضاها من روم أنطاكية ، فقابله سليمان في سهل العمق وكسره وقتله سنة ٤٧٨ هـ ، وتهافت المسلمون على سكنى أنطاكية ، لكنهم لم يستقروا فيها أربع عشرة سنة ، حتى دهمتهم الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٩١ هـ ، بعد أن استولت على مرعش ووادي عفرين وجسر الحديد في سهل العمق .

العهد الصليبي : داهم الصليبيون أنطاكية سنة ٤٩١ هـ ، وحصروها وكان فيها (ياغيسيان بن محمد بن آلب أرسلان) السلجوقي ، فدافع دفاعاً مجيداً مدة تسعة أشهر ، حتى واطأ الصليبيين فيروز الأرمني ، أحد محافظي الأبراج مما يلي الجبل فأطلعهم على البرج ليلاً بالحبال ، فهجموا وفتكوا بأهلها فتكاً ذريعاً ، قيل إنهم قتلوا مئة ألف نفس وجفل (ياغيسيان) ثم مات من قهره في الطريق . ولما شاع أخذ أنطاكية دون قلعتها التي ثابرت على الدفاع سار (كربوغا) صاحب الموصل مع بعض أمراء المسلمين من دمشق وحمص وحلب ، وحاصروا الصليبيين في أنطاكية حتى عدم القوت منهم وأكلوا الميتة ، ثم إن (كربوغا) أساء السيرة فيمن معه وخبثت نياتهم ، وكان ضاق ذرع الصليبيين ، فاستبسلوا وهاجموا على ضعفهم ، فكسروا المسلمين شر كسرة على قوتهم ، وتشدد الصليبيون بما غنموه من القوت والسلاح ، فساروا به يفتحون ويعيثون ، إلى أن وصلوا إلى بيت المقدس ، وكان منهم ما ذكره المؤرخون .

ظل الصليبيون في أنطاكية زهاء ١٧٠ سنة ، جعلوها قاعدة إمارة باسمها ، وهي إحدى الإمارات الأربع الصليبية التي أقاموها في حملتهم الأولى . وأول من ملكها منهم (بوهيموند) التارانتي وكانت مدة ملكه عشر سنوات ، ثم ضمها (بودوين) الثاني إلى مملكة (أورشليم) مدة ثماني سنين ؛ غير أنه أرجعها إلى (بوهيموند) الثاني سنة ٥٢٠ هـ ، وبعد وفاة المذكور انتقلت إلى بيوت مختلفة ، فصلتها كتب التاريخ . وكانت أجل الأحداث التي وقعت في عهد الصليبيين في أنطاكية توالي المجاعات والزلازل عليها ، وانشغال هؤلاء بمهاجمة المسلمين أو مدافعتهم دون انقطاع ، يناوشهم في الحالتين أمراء المسلمين في حلب وحماة ، نخص بالذكر (نجم الدين إيلغازي) و (عماد الدين زنكي) وابنه (نور الدين محمود) ثم (صلاح الدين الأيوبي) ثم (الظاهر بيبرس) ، وانشغالهم أيضاً بمدافعة القياصرة

البيزنطيين ، الذين كانوا يرومون بسط سلطانهم على أنطاكية ، ويأتون إليها من حين لآخر ، وبمدافعة أمراء الأرمن الكيليكيين الذين كانوا يحاولون السيادة على مضائق جبل اللكام وحصونه . وكان يعتمد الصليبيون في صيانة أنطاكية تجاه المسلمين على ثلاثة خطوط ، كان الأول أمام جسر الحديد على العاصي وشرقي سهل العمق ، وكان فيه حصون حارم وعم وأرتاح ويغرا . وكان الثاني حول جسر الشغر وفيه من الحصون القصير وكفر دبين وبلميس والشغر وبكاس وقسطون وبرزوية . أما الثالث فخافر أمامية مكلفة بسد المنافذ والمسالك النائية الآتية من حلب أو حماة ، كالتي كانت في أعزاز وحصن الباسوطة في وادي عفرين ، وحصن الأثارب ، وقصر البنات في جبل باريشا ، وكفر كيلا في جبل الأعلى والبارة في جبل الزاوية ، ومثلها معرة النعمان ، وكفر طاب وأفامية . وهذا غير حصون جبل اللكام المكلفة بسد المنافذ الشمالية تجاه البيزنطيين والأرمن كدربساك وبغراس وحجر شغلان التي تقدم ذكرها . وقد قضى المسلمون مئة وخمسون سنة يجاهدون في إسقاط هذه الخطوط الواحد تلو الآخر ، حتى قضوا عليها وتمكنوا من الوصول إلى أنطاكية سنة ٦٦٦ هـ ، في عهد الملك الظاهر بيبرس ، فإنه بعث بادئ بدء جيشاً بقيادة الملك المنصور صاحب حماة ، ودوخ بلاد كيليكية كما قدمناه في (ص ٣٧ و ٤٩) ، فقصم بذلك ظهر الأرمن ، وأزال أسباب نجدتهم لأنطاكية . ولما تم له ذلك ، سار في سنة ٦٦٦ هـ بنفسه إلى أنطاكية ونازلها ، وبعد أن فشلت مساعيه في حمل من كان فيها على الاستسلام ، فتحها عنوة بعد حصار أربعة أيام وقتل من أهلها فيا قيل ١٧٠٠٠ وأسر ١٠٠٠٠٠ ، وغنم منها أموالاً وأعلاقاً عظيمة ، وكانت أنطاكية للبرنس (بوهيموند بن يوهيموند) وله معها طرابلس لما فتحت أنطاكية ، فأرسل إليه الملك الظاهر كتاباً مطولاً يصف فيه كيفية أخذه أنطاكية ، وما فعل جنده فيها من فتك وتدمير ، وحرق وأسر ، وسبي ونهب وسلب ، إلخ ..

وهوت أنطاكية بعد هذا الفتح ، وانحط شأنها كثيراً ، وصارت في عهد المماليك ولاية صغيرة ، تتبع نيابة حلب ، يحكمها موظف صغير ، يكون تارة جندياً وتارة أمير عشرة ، وربما أضيفت إليه القصير (صبح الأعشى للقلقشندي ٤ / ٢٣٠) ، وبعد خلوها وأعمالها من الصليبيين ، جاءها المسلمون وجلهم من التركمان ، الذين كانوا قد كثروا في شمال الشام على

عهد الدولتين النورية والصلاحية ، قطن حضرهم في أنطاكية وقراها ، وظل رحالهم في سهل العمق ، يرتزقون من تربية أرعال الخيل السائمة .

على أن التواريخ العربية سكتت من يومئذ عن التحدث بأخبار أنطاكية ، لخمول شأنها وانحطاط عمرانها ، وبوار الأرضين التي حولها ، لعدم عناية التركمان الذين حلوا في سهل العمق بالزراعة ، وزوال أسباب مرور القوافل والتجار منها ، بسبب انسداد فرضة السويدية التي خربها الملك الظاهر ، حتى غدت أنطاكية بلدة صغيرة ، منعزلة وراء أسوارها الباقية ، خوف غارات تركمان العمق ، الذين استفحلت شرورهم ، لما عمت الفوضى في أواخر دولة المماليك ، ومثلهم أعراب البادية وأكراد الجومة (قضاء كرد طاغ في يومنا) ودامت هذه الحالة أيضاً بعد الفتح العثماني ، والتواريخ لا تحفل بأنطاكية ، فاحتجن أناس من هذه العزلة والفترة ، اللتين طالتا أحقاباً ثروة زراعية أورثوها لأعقابهم ، فنشأت في أنطاكية أسر تختال الآن بعدد ضياعها ، وبسطة جاهها ، وعراقة نسبها ، وجلها من أصل تركماني ، كآل شمس الدين وآل ملك وآل جيوه لك وآل خلف وآل المسكي ، وإحداها من أصل عربي كآل بركات ، وأخرى من أصل فارسي كآل يحيى ، وثالثة من أصل كردي كآل القصيري . وفي سنة ١٢٣٨ هـ حدثت فيها زلزلة دمرت معظمها ، وفي سنة ١٢٤٨ هـ افتتحها إبراهيم باشا المصري ، وبنى فيها الثكنة العسكرية من أحجار الأسوار والأبراج القديمة ، ثم عادت إلى حكم العثمانيين ، وفي سنة ١٢٩٠ هـ حدثت فيها زلزلة قوية ، دكت ثلثي مبانيها ، كما هلك كثير من سكانها ، وانهدم قسم من الأسوار ، وانشق الجسر الروماني القديم .

غابر أنطاكية : وإليك ما وصفه الجغرافيون والرحالون العرب أنطاكية : قال ابن حوقل في القرن الرابع في كتابه (المسالك والممالك) : « أنطاكية أنزه بلد الشام بعد دمشق ، عليها سور من صخر ، يحيط بها وبجبل مشرف عليها ، يمر بظاهرها العاصي والنهر الأسود مجموعين ، وتجري مياهها في دورها ومساكنها ، ومسجدها الجامع ، وماؤها يستحجر في مجاريه حتى لا يؤثر فيه الحديد ، وشربه يحدث رياح القولنج ، والسلاح بها يسرع إليه الصدأ ، ويذهب ريح الطيب بالمكث فيها ، ولها ضياع وقرى ونواح خصيبة جداً ، وهي إحدى كراسي بطاركة النصارى ، ولها عندهم قدر عظيم » .

وقال ابن بطلان في رسالة إلى أحد أصدقائه في بغداد ، يصف أنطاكية في القرن الخامس سنة ٤٤٠ هـ ، حينما كانت بيد الروم البيزنطيين : « وخرجنا من حلب طالبين أنطاكية ، وبينهما يوم وليلة ، فوجدنا المسافة التي بين حلب وأنطاكية عامرة ، لا خراب فيها أصلاً ، ولكنها أرض تزرع الحنطة والشعير ، تحت شجر الزيتون ، قراها متصلة ، ورياضها مزهرة ، ومياهها متفجرة ، يقطعها المسافر في بال رخي ، وأمن وسكون ، وأنطاكية بلد عظيم ذو سور وفسيل ، ولسوره ثلاثمئة وستون برجاً ، يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس ، ينفذون من القسطنطينية من حضرة الملك ، يضمنون حراسة البلد سنة ، ويستبدل بهم في السنة الثانية ، وشكل البلد كنصف دائرة ، قطرها يتصل بجبل ، والسور يصعد مع الجبل إلى قلته ، فتتم دائرة ، وفي رأس الجبل داخل السور قلعة ، تبين لبعدها من البلد صغيرة ، وهذا الجبل يستر عنها الشمس ، فلا تطلع عليها إلا في الساعة الثانية ، وللسور المحيط بها دون الجبل خمسة أبواب وفي وسطها بيعة القسيان ، وكانت دار قسيان الملك ، الذي أحيا ولده بطرسُ رئيس الحواريين ، وهو هيكل طوله مئة خطوة وعرضه ثمانون ، وعليه كنيسة على أساطين ، وكان يدور الهيكل أروقة يجلس عليها القضاة للحكومة ، ومتعلمو النحو واللغة ، وعلى أحد أبواب هذه الكنيسة فنجان للساعات ، يعمل ليلاً ونهاراً دائماً اثنتي عشرة ساعة ، وهو من عجائب الدنيا ، وفي أعلاه خمس طبقات ، في الخامسة حمامات وبساتين ومناظر حسنة تخر منها المياه ، وعلة ذلك أن الماء ينزل عليها من الجبل المطل على المدينة . وهناك من الكنائس ما لا يحد ، كلها معمولة بالذهب والفضة ، والزجاج الملون والبلاط المجزع ، وفي البلد بيمارستان ، يراعي البطريك المرضى فيه بنفسه ، ومثل ذلك يفعل الملك والرؤساء التماس التواضع . وفي المدينة من الحمامات ما لا يوجد مثله في مدينة أخرى لذاذة وطيبة ، لأن وقودها الآس ، ومياهها تسعى سيحاً بلا كلفة » ا هـ .

وقال ياقوت في (معجم البلدان) يصفها في أوائل القرن السابع ، بعد أن ذكر أنها كانت قصبة العواصم من الثغور الشامية ، وأنها الآن (أي في عهده) في أيدي الإفرنج : وهي من أعيان البلاد وأمهاتها ، موصوفة بالنزاهة والحسن ، وطيب الهواء وعذوبة الماء ، وكثرة الفواكه وسعة الخير . (وبعد أن نقل عن ابن بطلان ما نقلناه آنفاً قال) : « وبين أنطاكية والبحر نحو فرسخين ، ولها مرسى في بليد يقال له السويدية ، ترسي فيه مراكب

الإفرنج ، يرفعون منه أمتعتهم على الدواب إلى أنطاكية ، وبأنطاكيـة قبر حبيب النجـار ، يقصد من المواضع البعيدة ، وقبره يزار ، ويقال أنه نزلت فيه ﴿ وجـاء من أقصى المـدينـة رجل يسعى قـال يـا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ [يس : ٢٠] » . وقـال شيخ الربوة في القرن الثامن : « أنطاكية قصبة السواحل ، وكانت إحـدى كراسي الروم ، وتسميهـا الروم تعظيماً لها مدينة الله ، كما تسمى الأرض المقدسة ، وأنطاكية من المدن القـديمـة ، ويحيـط بهـا سور كبير ، يحيط على أربع جبال وشعاري ، ولها بساتين ، وحبيب النجار منها ، ولـه قصـة في سورة يس في القرآن الحكيم ، إلخ .. » . ومر ابن بطوطة بأنطاكية في ذلك القرن في سنـة ٧٢٥ هـ ، فقال عنها : « مدينة عظيمة أصلية ، وكان عليها سور محكم ، لانظير لـه في أسوار بلاد الشام ، فلما فتحها الملـك الظـاهر هـدم سورهـا ، وأنطـاكيـة كثيرة العمارة ، ودورهـا حسنة البناء ، كثيرة الأشجار والمياه ، وبخارجهـا نهر العـاصي ، وبهـا قبر حبيب النجـار ، وعليـه زاويـة فيهـا الطعـام للوارد وللصـادر » ا هـ . فيظهر من كـلام ابن بطـوطـة ، أن أنطاكية نشطت بعد الدمار الـذي لحقهـا في فتح الملـك الظـاهر ، وصـارت (كثيرة العمارة حسنة الـدور) كما قـال . ولم يظهر بعـد شيخ الربوة من الشرقيين ، من جـاء ووصف لنـا أنطاكية في القرون المتـأخرة ، سوى سـائحنـا (أوليـا جلبي) الـذي ـ راجع صحيفـة ١٨ ـ وصف أسوارها وأبراجها العظيمة ، وقد كانت ماثلة في عهده ، ووصف قصورها وجوامعها ، وتكاياها وأسواقها ، ومياهها وفواكهها ، فدلنـا بـذلـك على مـا كانت عليـه هـذه البلـدة في أواسط القرن الحادي عشر الهجري .

وفي عهدنا تكلم عن أنطاكية كامل الغزي المتوفى سنة ١٣٥١ هـ في كتابه (نهر الذهب في تـاريخ حلب) فقـال : « قضـاء أنطـاكيـة واسع معمور ، كثير الخيرات وافر البركات ، غزير المياه عظيم المنتزهات ، فيـه السهل والوعر ، والغـالب على أهلـه الثروة ، لأن لهم من حقوله عدة مواسم من الحبوب ، والحرير والزيتون ، والبرتقال والرمـان ، والتين والعنب ، والتفاح وبقية الفواكه اللذيذة ، وكلهـا تنتقل إلى البلاد شرقاً وغرباً ، واللغـة العـامـة في قضاء أنطاكية التركية ثم العربية ، ثم الكرديـة ثم الأرمنيـة ، ويوجـد في كل أمـة منهم من يعرف لغة مواطنيه ، وهواء أنطاكية جيد ، لولا مافيه من الرطوبة ، وذلك لأن مهبه من الجهة الغربية ، فيمر على البحر أولاً ، ثم على السويديـة ، ومـا فيهـا من العيون والميـاه ، ثم على نهر العاصي فيكتسب رطوبة ظاهرة الأثر ، وقلما يبيت الطعام المطبوخ في أنطاكيـة ،

وهي كثيرة الأمطار والبروق والصواعق ، وربما حصل ذلك في الصيف أيضاً ، وكثيراً ماتتلبد سماءها بالغيوم ، في إبّان الصيف ، ليلاً أو نهاراً ، فيحبس الريح ويشتد الحر ، وينتشر البعوض ويبقى الإنسان في اضطراب عظيم ، وشرب سكان أنطاكية من العاصي ، أو من العيون المنحدرة إليها من جبل حبيب النجار ، وكان لمدينة أنطاكية خمسة أبواب مشهورة : هي باب بولس وباب الكلب وباب دوكة وباب العاصي وباب الحديد ، وسورها العظيم باق حتى الآن لكنه في غاية التوهن ، ويبلغ محيطه اثني عشر ميلاً ، وذلك مسيرة ثلاث ساعات تقريباً ، وهو محيط بها من جهة الشرق والجنوب ، والعاصي من شمالها وغربيها » . وقال أيضاً : « أول مايترائى للمطل على مدينة أنطاكية من جهة حلب جبل حبيب النجار ، فيرى منازل وعمائر منبثة بين الحدائق والبساتين ، ثم لا يلبث القادم حتى يسمع من جهتها نعر النواعير الدائرة بقوة مياه العاصي ، الشبيهة بنواعير حماة ، وقد يستقبل النسيم القادم إليها في فصل الخريف ، بأرج الآس النابت في جبالها وهضابها ، القريبة والبعيدة ، وبعد أن يجتاز إليها ذلك الجسر القديم ، يرى بلداً عظيماً حسن المباني ، بعضها من الأخشاب وبعضها وهو الأكثر من الحجارة المنهدمة ، قد تعلق في كثير منها سواق خشبية ، يجري فيها ماء النواعير إلى أماكن لكل منها قسطل معلوم » . وقال أيضاً : « أهل أنطاكية متدينون ، والجمال غالب في نسائهم ، وقد اشتدت في وجهائهم وأعيانهم محبة الجاه والتقرب إلى الحكومة ، ليتمكنوا من إخضاع مزارعيهم ، وصون حقوقهم وغلاتهم منه ومن غيره ، من أرباب الصولة في البر . ومما انفردت به أنطاكية من الفواكه المشمش العجمي المعروف بشكر باره ، والدراقن والسفرجل ، والأكي دنيا وقصب السكر ، والبرتقال والليمون ، وأنواع البطيخ الأصفر ، والعنب والرمان ، وحب الآس والعناب ، وانفردت أيضاً بلبن الجاموس ، وما يعمل منه كالزبدة والجبن ، فهما مما لا نظير له في غيرها ، وانفردت بتبغها وفليفلتها الحمراء ، وصابونها الجيد » ا هـ .

هذا ومما يذكر أن هذه المدينة موطن (أميانوس مرشلينوس) و (أرخياس وليبانيوس) و (القديس يوحنا فم الذهب) ، وينسب إليها جماعة من أهل العلم وغيرهم من المسلمين في القرن الثالث والرابع ، عد منهم ياقوت في معجمه أسماء (عمر أبو حفص العتكي) صاحب كتاب المقبول و (عثمان بن خرداذ) محدث مشهور ، له رحلة و (إبراهيم أبو يحيى) الأزدي الفقيه المقرئ ، ونبغ في القرن العاشر الهجري في أنطاكية الطبيب

الأشهر (داود بن عمر البصير) الأنطاكي (٩٥٠ ـ ١٠٠٨ هـ) ، كان متوقد الذكاء ، بارعاً في الرياضيات والطبيعات ، والطب واللغة اليونانية . دعي إلى مكة ليطبب فكانت منيته فيها ، له عدة مؤلفات أشهرها (التذكرة) المعروفة باسمه .

وفي القرن الخامس الميلادي لقب أسقف أنطاكية بطريركاً وكان في الرتبة بعد أساقفة رومية والقسطنطينية والإسكندرية ، ولم يزل في الكنيسة اليونانية يحسب بعد بطريركي القسطنطينية والإسكندرية . ويطلق لقب بطريرك أنطاكية على ثلاثة من بطاركة الكنيسة الكاثوليكية ، وهم بطريرك الموارنة ، وبطريرك الروم الكاثوليك ، وبطريرك السريان الكاثوليك ، وما من أحد من هؤلاء مقيم في أنطاكية .

وزار أنطاكية كثير من السياح والمستشرقين الإفرنج ، كـ (فولناي) في سنة ١٧٧٣ م ، و (بوجولا) سنة ١٨٣١ م و (بارتلت ويوزر) الإنكليزيين سنة ١٨٣٥ م ، والأميرة (بلجيوجوزو) سنة ١٨٣٥ م و (فان برشم) سنة ١٨٩٥ م و (موريس باريس) سنة ١٩١٤ م وكلهم لاسيا الأولون الذين زاروها قبل قرن أو بعض قرن ، وصف حقارة مبانيها المركومة ، وضيق أزقتها المعوجة ، وأقذارها وأوحالها ، ووطوء دورها ، واشتباك أفنيتها وصغر نوافذها ، وجفوة أهلها وتعصبهم . إلى آخر ماهنالك من الازدراء بحاضرها ، قياساً على ماعرفوه من غابرها ، وقالوا إن مشاهد أطلالها الفخمة ، وذكريات ماضيها ، وما مر بها من طوارئ الحدثان ، ومسرات وأحزان ، تثير الشدة والشجو . وخاض أحدهم (موريس باريس) في حديث صليبيي أنطاكية ، وأشاد بعزمهم وصولتهم ، ورفههم ولهو نسائهم في حدائق العاصي .

حاضر أنطاكية : وأنطاكية في يومنا ، تعد من أجمل مدن الشام هواءً وماءً وعمراناً ، وعدد سكانها ٣٥٠٠٠ ، منهم ٢٣٠٠٠ سنيون و ٨٠٠٠ نصيرية و ٤٠٠٠ نصارى ينتسبون لنحل شتى ، وقد تم استجلاب مياه دفنة العذبة إليها ، ضمن أنابيب حديدية ، كما قد تم تنويرها بالكهرباء ، وفيها ٢٤ مسجداً للمسلمين ، أكبرها الجامع الكبير وجامع حبيب النجار ، وأربع كنائس للنصارى ، وكنيس لليهود ، وفيها ستة حمامات ، وتكية لأهل الطريقة المولوية ، ومدرسة تجهيزية كبيرة جميلة البناء ، ويقام فيها سوق عام كل يوم خميس ، وهي مركز قضاء تتبعها نواحي قره مغرط والحربية ، والقصير الفوقاني والقصير

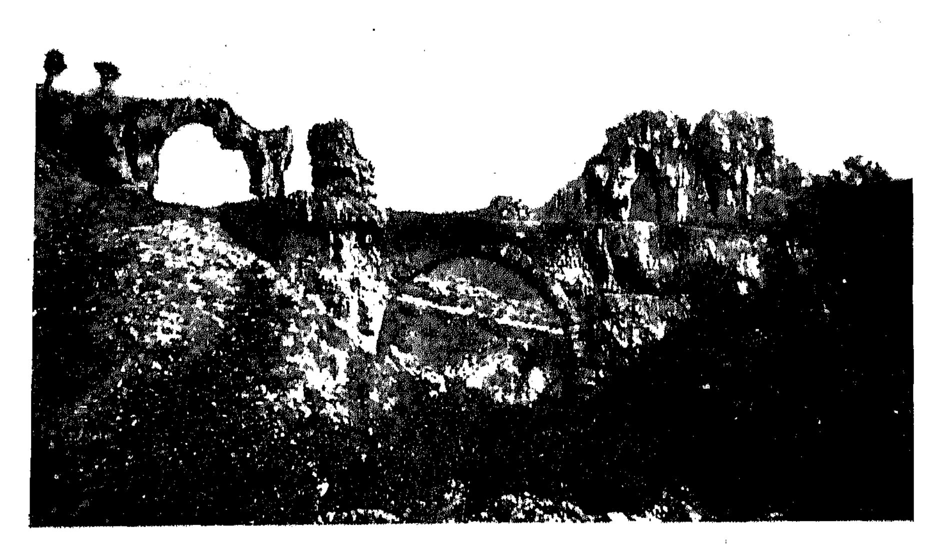
الوسطاني والقصير التحتاني ، والأردو وكسب والسويدية ، وأكثر ماتصدر أنطاكية الصابون ثم فيالج الحرير والسمك ، والصوف والحبوب ، وزيت الزيتون والقطن ، والقطران وزيت الغار ، والجلود والفواكه الطيبة وغيرها ، وفيها صناعات غزل الحرير ، وعمل الصابون والدباغة ، ونسج الأقمشة والبسط ، ونجارة الأثاث المعمولة من خشب الجوز ، وتجارة النقود والآثار القديمة التي ينبشها الأهلون فيها وضواحيها .

وأنطاكية وإن لم تعل عن سطح البحر أكثر من ثمانين متر ، لكن لها في واديها الأفيح الممتد من الغرب إلى الشرق ، بين جبل موسى وجبل حبيب النجار ، وفي قرب البحر مجال متسع ، لجريان الرياح الغربية البليلة ، مما يجعل هواءها في فصل الصيف منعشاً ، يستهوي رواد الاصطياف والنزهة . وفي الربيع حدث ولا حرج عن نضرة سهولها ، وخضرة حزونها ، وغناء رياضها ، وحمرة ووفرة مياه عاصيها ، ولذة وكثرة أثمارها ، وفوحان أزهارها . وإذا أراد السائح أن يتملى بمنظر أنطاكية من أقرب وأعلى مكان ، عليه أن يذهب ويقف فوق تل جبرائيل الذي على يمين العاصي وقرب مدرسة التجهيز ، وقد كان هذا التل مقراً لأكبر قواد الحملة الصليبية الأولى ، ثم بنى عليه (كودوفروادوبوييون) حصناً ، ثم اتخذه المسلمون مقبرة . ومن أراد زيارة داخل البلدة ، يصل إلى جسرها الروماني القديم ذي القناطر الأربع ، وقد كان فيا مضى ضعفي طوله الحالي . فإذا وقف فيه يمتع ناظريه بنهر العاصي ، فيراه أضخم وأعرض وأرغى وأزبد مما كان في حماة ، ويشنف آذانه بأنغام النواعير ، ويشاهد على ضفته اليمنى مقاهي امتدت تحت أشجار الدلب العظيمة ، واكتظت بالأهلين واللاعبين والساجين ، وثمة مدرسة التجهيز ومقر البعثة الإفرنسية ، ومعمل التنوير الكهربائي ، وحدائق عديدة ، والطريق الذاهبة إلى طوب بوغاز والأخرى الذاهبة إلى السويدية . وفي الضفة اليسرى حيث المدينة كلها ، يسير السائح في شارع عريض ، يمتد من الشرق إلى الغرب ، باعوجاج نحو الجنوب ، يدعونه شارع السرايا ، امتدت في جانبيه أفخم مباني أنطاكية وأجملها ، المبنية على الطراز الحديث كالمقاهي والمرائب ، والمطاعم والفنادق ، والنوادي والمصارف ، ودار البلدية ودار الحكومة ، التي في باحتها عاديات غير يسيرة ، جديرة بالرؤية ، وتتفرع من هذا الشارع شوارع ثانوية ، تذهب جنوباً نحو داخل البلدة ، حيث الجوامع والكنائس والمدارس لمختلف الملل والنحل ، وبين الأحياء والدور أزقة ضيقة مرصوفة بالحجارة ، أنظف مما ذكرها

سياح القرن الماضي ، أما الدور فمبنية بأنقاض هذه المدينة التاريخية ، التي سطا عليها الأهلون ونقضوها وشوهوها وما برحوا . وجل دور أنطاكية تشبه في الجملة دور حلب إلا أن سقوفها مغطاة بآجر بلدي ، يسود بمرور الزمن ، ويكتئب منظره . وفي شرقي الجسر الذي ذكرناه ، تمتد الطريق المعبدة إلى حلب ـ تقدم وصفها ـ وعليها قرب الجسر دار للبرق والبريد ، وبعض المباني والمعامل ، ثم تبتدأ الضاحية الملأى بالحدائق الغناء . واللغة السائدة في أنطاكية التركية عند المسلمين السنية ، ثم العربية عند النصارى والنصيرية . والترك والنصارى في رغد من العيش والتجمل العصريين في مظاهرهم ومساكنهم . ومن الترك كثير من المثقفين في مدارس استانبول وأوروبا . وتعد أنطاكية معقل الترك في لواء الأسكندرونة ، وهم هنا ذوو ثلاث نزعات متباينة ، فالخاصة صاحبة الثروة والوجاهة وممثلة الإقطاعية تناصر الوضع الحاضر الملائم لاستدرار مغانمها ، وبعض العامة وعلى رأسها رجال الدين ، تفضل الانضواء تحت راية الانتداب الإفرنسي على أتباع النزعة الكمالية العلمانية ، وبين هذه وتلك الشبيبة المثقفة في مدارس استانبول المتمسكة بالنزعة المذكورة كل التمسك ، والعاملة على إلحاق أنطاكية بل لواء الأسكندرونة كله بجمهورية أنقرة . أما العرب فعلى كثرتهم ضعفاء في كل شيء ، في القومية وفي الثقافة . فالنصارى مشتتو الأهواء بحكم اختلاف نحلهم ، وتضارب مبادئهم التي لقنوها في مدارس الأغيار ، لا يدرون أي وجهة يولونها ، والنصيرية وإن أعلت الدولة المنتدبة قدرهم وأسمتهم (علويين) ، وعهدت إلى بعض نبهائهم بالوظائف الكبيرة ، واتخذتهم أنصاراً لها ، لكنهم وقد بقوا أحقاباً بعيدين عن التحضر والتعلم ، مابرحوا معدومي الثقافة ، محرومي الرفه والرغد العصريين ، ليس لهم زعماء يحسنون إرشادهم ، وتوجيه أميالهم نحو الحظيرة القومية ، لذلك ظلوا حيارى حول هذه الحظيرة لا يستقرون على حال . فهذه الأمور في أنطاكية خاصة ، ولواء الأسكندرونة عامة معقدة مضطربة ، تتقاذفها الأهواء والدعايات ، والنزاع سائد بين الفكرتين العربية والتركية ، كما أن النفور ضارب أطنابه بين السنية والنصيرية . ولكل من اللغات الرسمية في هذه الديار نصراء ، فالترك ومن وراءهم جمهورية أنقرة ونوابها وصحافتها يدافعون عن اللغة التركية ويصخبون ، وعمال الدولة المنتدبة ذوو السلطان الواسع في هذه الديار عن الإفرنسية ، والموظفون الشاميون القلائل الضعاف في الحول والطول عن العربية ، ولا يعلم إلى أي مدى يبلغ هذا التعقد والتنازع ، وكيف ومتى ينتهي .



منظر أنطاكية العام



أنطاكية قناطر تراجان في طريق دفنة

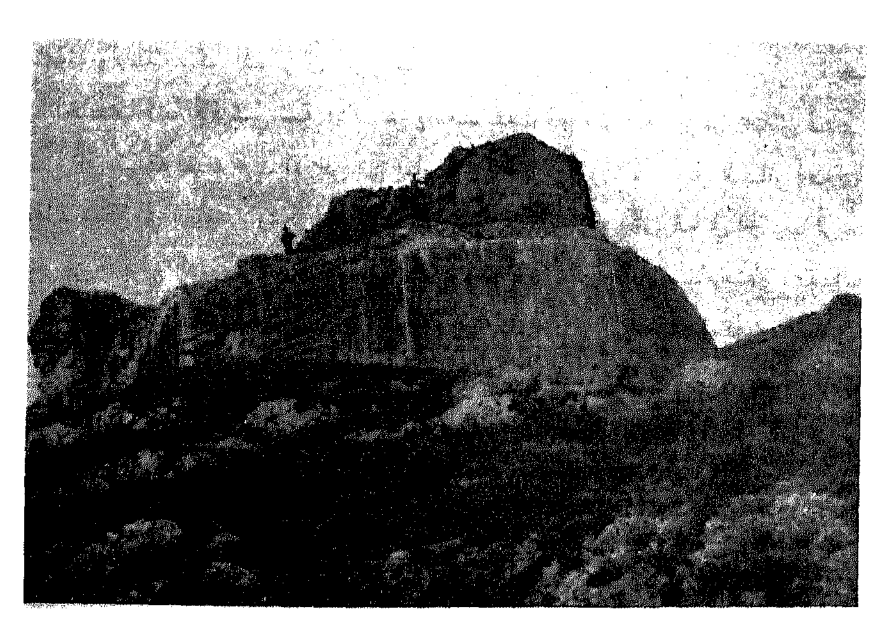
والنصيرية في قضاء أنطاكية يؤلفون السواد الأعظم في نواحي السويدية والحربية وقره مغرط ، أي في كل وادي العاصي بين أنطاكية والبحر ، تمتاز ضياعهم بوجود القباب البيضاء التي تعلو الأماكن المرتفعة ، وتحت كل منها مزار يحجون إليه في أوقات خاصة . وهؤلاء على مايظن نزحوا في أحقاب متوالية من مواطنهم الأصلية في جبال اللاذقية ، فاختلط هنا بعضهم ببعض ، ولم يعد لهم عصبيات خاصة ، كما هي الحال في مواطنهم المذكورة . ومهنة هؤلاء الفلاحة والبستنة ، وتربية الماشية ودود الحرير ، قل من امتلك أرضاً واسعة ، بل جلهم أجراء وشركاء لدى (الأغوات والبكوات) الترك الأنطاكيين ، الذين مابرحوا يمثلون العهد الإقطاعي القديم ، ويحتفظون بمظاهره وتقاليده .

التطواف حول الأسوار وزيارة الآثار : كانت أسوار أنطاكية سالمة في معظمها إلى حين مجيء إبراهيم باشا المصري ، فإنه قضى عليها قضاءً مبرماً ، واتخذ أحجارها في إشادة ثكنات عظيمة لجنوده ، وسطا من بعده الأهلون عليها وما برحوا . وكانت هذه الأسوار حينما بناها (تئودوس) كبيرة ، ثم بعد خرابها بالزلازل والحروب رممها (يوستنيانوس) وصغر دائرتها ، وأبقى في خارجها الجزيرة التي كانت تحوي القصر الملكي . وإذاً فجميع أحجار وأطلال الأسوار من العهد البيزنطي ، ولهذه الأسوار واجهتان من الحجر المنحوت ، وقد كان عرضها فيما قيل إلى حدٍ يمكن أن تسير فيه مركبة ذات أربعة خيول ، ولعل هذا الإمكان كان مختصاً ببعض الأقسام لا كلها . ومن مسافة إلى أخرى بنيت على الأسوار أبراج عظيمة شاهقة ، ذات ثلاث طبقات ، لاتزال أطلال البعض منها ماثلة . ولدثور معظمها ، صار يستحيل تقدير عدد هذه الأبراج ، التي قال ابن بطلان فيما نقلناه عنه ، أنها كانت ٣٦٠ برجاً ، ولعل هذا العدد مبالغ فيه ، وكان في داخل كل منها درج داخلي وحوض ماء .

وقاصد الطواف حول الأسوار يتوجه بادئ بدء إلى طرف المدينة الجنوبي الغربي في طريق دفنة ، فينحرف عن هذه الطريق قبل الثكنة بقليل ، وقد كان عند هذا المنحرف فيما مضى باب الخضر (القديس جورج) وكان من أعظم المنافذ إلى أنطاكية ، ويصعد نحو الجنوب الشرقي في شعب يرى فيه أطلال الأسوار الذاهبة صعداً نحو منحدرات جبل (سيليبيوس) . وبعد قليل يرى خارج الأسوار جسراً خرباً ، وبعده أربع قناطر من قناة

تراجان الآتية من دفنة ، وهي تجتاز هنـاك وادياً يـدعى زويبـة ، ثم يرى في مكان فوق القنـاطر ، أطلال برج عظيم مخمس الأضلاع يـدعى برج الأختين ، وهـو الـذي أطلـع منـه فيروزُ الأرمني الخائن الصليبيين ، ويرى أيضاً هناك كثيراً من الكهوف التي كانت فيا مضى ملجأ الحبساء والنساك . ومن كان قديراً على الدرج والتصعيـد يلازم في سيره الأسوار بعـد البرج المذكور حتى إذا وصل إلى قمة الجبل ، يراهـا قـد اعوجت نحو الشمال الشرقي في اتجـاه القلعة . وكذلك يمكن للسائر أن يجوز خط الأسوار ، ويتجـه نحو الجنوب الشرقي ، فيجـد لحباً اختطه الجند الإفرنسي سنة ١٣٤٠ هـ يصعـد بتعـاريج متواليـة ، ويمر بحوض قـديم ، كانت تأتي مياهه بقناة تحت الأرض من ينابيع في الجبال المجاورة ، ويصل السـائر أخيراً في صعائد شاقة إلى القلعة ، وشكل هذه القلعـة مثلث متطـاول ، وكان لهـا في الجنوب أربعـة عشر من الأبراج الصغيرة المدورة . على أنهـا لم تكن في الجملـة ذات بنـاء متين ، صـالـح للدفاع ، بل كل مناعتها منحصرة في أنها في ذروة لا ترام . بناها القيصر (نقفور الفقـاش) البيزنطي ، وبعد أن قضت عليها الزلازل رممها (بـاسيليوس الثـاني) ، وكان يـدخل إليهـا من سرداب سري من الزاوية الجنوبيـة . والواقف في أعلى هـذه القلعـة ، يطل على منـاظر تستهوي الألباب بتنوع ألوانها وروعة مشاهدها . فهو يرى أمامه مـدينـة أنطـاكيـة ، ونهر العاصي وواديه ، والجبل الأحمر وجبل موسى وأعضادهما ، ويرى على يمينه سلسلة آمـانوس وسهل العمق وبحيرة أنطـاكيـة الزرقـاء ، يتوهج سطحهـا بـأشعـة الشمس ، كصفيحـة من اللجين ، فيحلق في سماء التفكير ، ومسارح الخـاطر ، ويستعرض مـا مر على هـذه المـدينـة الدهرية وضواحيها ، من طوارئ الحدثان وعوادي الزمان .

وبعد القلعة يصـادف السـائر في الجبل تلعـات مـائلـة ، ومهـاو سحيقـة ، تمتـد حتى الوادي الذي فيه باب الحديد . ويصل إلى هذا الوادي من شعب ذي مهابط عـديـدة ، وفي أسفل الوادي يجـد الأسوار ممتـدة بشكل الـدرج ، وهي هنـا تكاد تكـون سـالـمة . ثم تجتـاز الأسوار وادياً ضيقاً ومعوجاً ، يجري فيه الماء كان يدعى قديماً (أونوبنيكلس) . وكان هذا الوادي فيا مضى يكثر ماؤه فجأة ويطغى ، فيحدث في أنطاكية أضراراً جمة عنـد خروجـه من مضيقه . ولإزالة هذا الضرر صنع لـه القيصر (يوستنيـانوس) سـداً من الحـديـد يفتح ويغلق حسب اللزوم . ويمكن للذي لا يخشى دوخ الرأس أن يجتـاز الوادي المـذكور ، فوق الأسوار فيطل من أعلاها على مشهد رائع ، وبعد وادي الحـديـد تمتـد الأسوار نحو الشرق ،



برج الأختين في أنطاكية

فتصل إلى قرب الجبل المدعو جبل (ساتوريس) ، ثم تنحرف نحو الشمال ، وتهبط حسب انحدار الأرضين ، حتى تصل إلى باب (القديس بولص) . وبعد هذا الباب بقليل تنعرج نحو الغرب ، وتسير بموازاة قناة مستقيمة من بناء (يوستنيانوس) مشتقة من العاصي ، وكان في هذه الجهة من الأسوار باب الكلب وباب دوكة ، لم يبق من آثارهما إلا أنقاض مبعثرة بين البساتين ، وهكذا إلى أن تصل الأسوار إلى باب الجسر ، حيث مدخل البلدة الحالية .

وفي شرقي باب الحديد ، يشاهد السائح أطلال المسرح الكبير ، الذي فيه فاجأ سابور ملك الفرس سكان أنطاكية وهم لاهون ، وبعد هذا المسرح يصادف مغارة في حضيض جبل ستوريس ، تدعى مغارة القديس بطرس ، تجري من بعض جدرانها مياه ، يقصدها النصارى للاستشفاء ، وقد تسلط الآباء الكبوشيون على هذه المغارة ، فلا يسمحون بزيارتها في كل الأوقات ، وفي رواية أن النصارى الأولين كانوا يلجؤون إليها في زمن القديس بطرس . وإذا سار السائح نحو الشرق ، يرى في حضيض الجبل المذكور أطلالاً غريبة لقناة تحت الأرض ، كانت تجري فيها مياه دفنة ، وكان لهذه القناة فتحات في كل مسافة وأخرى ، يؤخذ منها الماء لإسقاء الأرضين على ما يظن . وعلى بعد ثلاثمئة متر من مغارة القديس بطرس ، يصل السائر إلى أمام حجر كبير منقوش نقشاً غريباً يشبه الطلاسم ، وفيه صورة رأس امرأة ، ويعزى هذا الطلسم إلى دفع الأوبئة ، أو درء الزلازل عن أنطاكية أم الكوارث والنوائب .

وعلى بعد ثلاثة كيلو متر من المدينة ، وفي اتجاه طريق حلب لحب ينحرف إلى اليسار ، يأخذ السائح بعد خمسة كيلو متر إلى الملعب الروماني القديم (الستاديو) ، وطوله مئتا متر ، وهو محاط في يومنا بالمستنقعات . وما برحت المداميك السفلى للمراتب الخاصة بقعود المتفرجين بارزة ، ومثلها أنقاض السدود وغيرها . وبعد هذه الأطلال بمسافة ، وفي الجهة الجنوبية الشرقية ، يزور السائح أنقاض الحمامات التي بناها القيصر (فالنسيوس) في وقت واحد مع الستاديو . وهذه الحمامات بناء مستطيل الشكل ، مقسم إلى حجرات عديدة ، يحيط بها من الخارج شبه السرداب . وإذا رجع السائح إلى طريق حلب ، يجد قبل أنطاكية بنحو كيلو متر مكان الباب القديم المسمى باب (القديس

بولص) الذي خرب بزلزلة سنة ١٢٩٠ هـ ، وفي جواره بركة ماء مابرحت تتدفق منذ أحقاب . وكان في قرب هذا الباب دير قديم للقديس المذكور ، لم يبق منه إلا أطلال ضئيلة مبعثرة تحت أشجار التين .

متنزهات أنطاكية : دفنة (الحربية) ، تبعد عن أنطاكية تسعة كيلو متر للجنوب الغربي ، في الطريق المعبدة الذاهبة إلى كسب واللاذقية ، والحربية قرية أهلها نصيرية ، بعثرت دورها بين البساتين الغناء . ومكان النزهة يدعى (بيت الماء) في منحدر يهبط إليه في بضع دقائق ، فيجد فيه القاصد طواحين تدور ، وشلالات تدفق ، ومياه تنحدر مارة بين الصخور الدهرية والأطلال الأثرية ، ولها خرير ورغو رائعين يبهجان السمع والبصر ، وثمة آكام شاهقة ، وأودية سحيقة متتابعة ، تمتد نحو الغرب بسقت فيها أشجار الدلب والحور والغار ، ونمت الأعشاب والأنجم الغَضراء ، وهنا وهناك مقاه ومقاعد ختبئت بين الينابيع ، وتحت ظلال الأشجار الوارفة ، التف حولها رواد النزهة ، وراغبو التملي بجمال الطبيعة من أهل أنطاكية وحلب وغيرهما . وهذه المشاهد والمياه حملت فيما مضى اليونانيين والرومانيين في أنطاكية على تجميل دفنة بالهياكل والمسارح ، والفنادق والحمامات ، حتى غدت أبدع وأنسب مكان في العالم القديم كله ، للنزهة والقصف والفسق . فما من معبود وثني إلا وأقيمت له فيها الهياكل ، وما من قيصر روماني إلا وشاد لنفسه فيها دسكرة أو قصراً ، وأقام فيها أفخم الأعياد وأبهج الحفلات ، حتى أن (كليو باترة) ملكة مصر عشيقة (أنطونيو) و (جوليا ابنة أوغسطوس) جاءتا وقضتا فيها أياماً . أما الآن فلم يبق من عظمتها السالفة التي أخنت عليها طوارئ الحدثان سوى روائعها الطبيعية ، (ماء وظل وأزهار وأشجار) ، وسوى بضعة كسور أعمدة ، وبقايا أسس جدران مبعثرة بين الحدائق . وقد شيدوا منذ عهد قريب في دفنة فندقاً كبيراً ، مستوفياً كل شروط الراحة والرفه .

وحول أنطاكية من أماكن النزهة الحاوية على فوائد أثرية أيضاً ، جبل موسى معقل أرمن هذه الديار ، وفيه من قراهم ، بتياس وخضر بك ، وحاجي حبيبلي ويوغون أولوق ، وسور وطمة وكابوسية ، ووقف ، وهذه القرى ذات مناظر رائعة ، وحراج وكروم فاتنة ، وجداول منسابة ، يربي أهلها دود الحرير ويصنعون الأمشاط من خشب

البقس وغيره ، وهؤلاء الأرمن عريقون في قدمهم الذي يرجع لعهد ملكهم (ديكران) ، متمسكون بلغتهم وخصالهم القومية ، حدثوني لما زرت بتياس في ربيع سنة ١٣٥٠ هـ أنهم في سني الحرب العالمية ، لما أجبرتهم الحكومة العثمانية على الجلاء كما أجلت بقية أبناء جلدتهم من كل بلادها ، أبوا الخروج واعتصموا بقمم جبلهم المنيع وحراجه الملتفة ، وحاربوا الحملة التي هاجمتهم ، واستبسلوا إلى أن توصلوا للاتفاق مع سفن الأسطول الإفرنسي ، التي كانت تمخر بين الأسكندرونة واللاذقية ، فركبوها رجالاً ونساء ، وانتقلوا إلى بور سعيد في القطر المصري ، وهناك ألفوا الكتائب الأرمنية التي زحفت مع جيوش الحلفاء سنة ١٣٣٧ هـ ، ودخلت مدن الشام وكان منها ماذكرته في بحث الأرمن .

ومن أجمل قرى جبل موسى بتياس ، تقوم في إحدى الهضاب المرتفعة من جبل موسى ، تشرف من عل على أنطاكية وضواحيها وسهولها ، وتكثر فيها أشجار الفاكهة وكروم التوت ، تعلو عن سطح البحر ٥٠٠ متر ، وعدد أهلها ألف ، يقصدها رواد الاصطياف من حلب ، لنقاء هوائها ، وعذوبة مياهها ، وروعة مناظرها ، وثمة في أعلى القرية كنيسة لم يتم بناؤها ، شيدت على أنقاض كنيسة قديمة ، وفي قربها كنيسة أخرى أثرية باسم القديس (يوحنا فم الذهب) ، الذي ظل فيما قيل مدة مديدة حبيساً في كهوف جبل موسى ، قبل نزوله إلى أنطاكية ، وهناك بيت متوهن وضريح لقنصل إنكليزي يدعى (الميستر باركر) وجد في أنطاكية قبل قرن ، وخدم هؤلاء الأرمن خدمات جلى بالتعليم والإرشاد ، وأدخل إلى هذه الربوع كثيراً من أشجار الفاكهة التي كانت مجهولة . وقرية خضر بك أيضاً من قرى الأرمن الجميلة ، سكانها ثمانمئة قائمة في لحف جبل ، وبيوتها راكب بعضها فوق بعض ، بين أشجار التوت والبرتقال وغيرها ، المنتشرة في جرف ، تتوالى من أسفل الجبل إلى أعلاه ، وفي مدخل القرية نبع ماء غزير ، حوله شجرة دلب عظيمة محيطها لا يقل عن اثنين وعشرين متراً . وفي غربي أنطاكية على ساحل البحر بالقرب من مصب العاصي (السويدية) وهي قرية عظيمة ، تبعد عن أنطاكية ٢٨ كيلومتراً أهلها نصيرية ونصارى ، بيوتها جميلة منفردة ، مبعثرة بين الحدائق والكروم ، وعلى مقربة منها خرائب سلوقية ، يزورها السياح لإمتاع النظر في أطلالها العجيبة ، وقنواتها الفخمة الممتدة تحت الأرض ، وقد كانت سلوقية فيما مضى فرضة أنطاكية ، ومن أعظم مرافئ الساحل الشامي ، وظلت في زهوها إلى أن ردم الملك الظاهر بيبرس ميناءها ، بعد

استخلاص أنطاكية من أيدي الصليبيين ، حذراً من أن يعودوا فأفل نجمها من ذلك الحين . وناحية السويدية من أنزه أنحاء الساحل الشامي ، بحسن مناظرها ، وغزارة مياهها ، ووفور غلاتها ، من أنواع البرتقال والفواكه ، والزيتون والتين ، والرمان والحرير ، والحبوب المختلفة . ومن أجمل متنزهاتها (جوليك) ، يقصده السياح ويضربون فيه الخيام ، ويتمتعون بجودة هوائه ومائه ، وجمال مناظره .

ومن الأماكن الجديرة بالزيارة حول أنطاكية (حصن القصير) ، وهو في شرقي دفنة ، وفي الهضاب الوعرة المطلة على (صوفيلر) إحدى قرى كورة القصير التي سيأتي ذكرها ، يبعد عن أنطاكية ١٦ كيلومتراً ، وله شعاب كأداء توصل إليه . وقد كان هذا الحصن في عهد الصليبيين من المعاقل المخصصة لحراسة أنطاكية من الجنوب ، وهو مبني فوق رابية منفردة ، تحيط به وهاد سحيقة وخندق ، ولا يزال بعض أبراجه وأسواره قائماً ، مر به ابن بطوطة واستحسنه ، وذكر اسم أميره وقاضيه .



شلالات دفنة (الحربية)

طريق أنطاكية ـ جسر الشغر

(٦٩ كيلو متراً)

هذه الطريق الحديثة تفترق عن طريق حلب في (الكيلومتر ٥) بعد قرية إيليجة ، ثم تتسلق عقبات جبل القصير ، وتعلو هضابه ، فتمر بقرى عديدة كالمعشوقية ونارليجة وقورية وفنك ، والفاتكية في (الكيلومتر ٢٢) ، وصورية وجنيد وفي (الكيلومتر ٢٥) ، وقليزان ومزرعة التركمان ، وفلنجار وكفر عابد ، وسفرية وقاربياز ، وبدرهون وهذه في آخر حدود قضاء أنطاكية ، ثم تدخل الطريق حدود قضاء جسر الشغر فتمر بقرية القنية في (الكيلومتر ٥٥) وفيها لحب يذهب شمالاً نحو دركوش ، ولحب آخر يذهب شرقاً نحو حمة الشيخ عيسى ، وبعد القنية تنحدر الطريق رويداً رويداً ، وتمر بجسر نهر الأبيض ، وله ١٢ قنطرة ، ثم تصل في (الكيلومتر ٦٩) إلى جسر الشغر ، وهذه الطريق كانت ممر بعض القوافل ، فقد سلكها الرحالة ابن بطوطة في سنة ٧٢٥ هـ ، حينما مر بحصن القصير ، ثم بحصن الشغر وبكاس ، وبعض القوافل ـ كقافلة (أوليا جلبي) ـ كانت تمر شرقي هذه الطريق ، من ضفة العاصي اليسرى ، فتبدأ من عند جسر الحديد ، وتمر بقرى تليل الشرقي وبخشين وشاخورة ، التي تشرف عليها من الغرب قرية الزيارة المحاطة بالزيتون ، ومن الشرق على يمين العاصي العلاني من قرى ناحية سلقين ، ثم تهبط وادي العاصي فتمر بتل حاجي باشا وبازمرين وبالزمبقي التي ذكرها (أوليا جلبي) باسم الزنبقية ومدحها (صفحة ١٩) ثم بدركوش ، ثم تتسلق بعد مسافة عقبات الجبل مارة بضياع زرزور وخربة العمود ، وتلاك والدويسات ، إلى أن تصل إلى القنية ومنها إلى جسر الشغر .

جبل القصير : والقصير كورة جبلية خضراء ، يحدها من الشمال والشرق وادي العاصي ، ومن الغرب البحر ، ومن الجنوب جبل الأكراد التابع حكومة اللاذقية ، وينابيع نهر الكبير الشمالي ، وهي تشمل الآن ناحية الحربية ، والنواحي الثلاث : القصير الفوقاني والوسطاني والتحتاني ، وناحية الأردو وكسب . وهذه النواحي الست تتبع قضاء

أنطاكية ، وثمة ناحية دركوش تتبع جسر الشغر ، وفيها سلسلتان من الجبال ممتدتان من الشمال إلى الجنوب ، تتصل بها فروع وأعضاد كثيرة ، تجعل هذه الكورة ذات حزون ونجود متموجة ، يتراوح علوها من ٧٠٠ إلى ١٠٠٠ متر في الأكثر ، وفيها نهران يصبان في العاصي ، الأول نهر الأبيض يخرج من هضاب الأردو مياهه عذبة ، والثاني نهر البواردة ، يخرج من قرب قلعة القصير ، ويصب في الشمال ، جنوبي جسر الحديد ، وهي في الغرب في جهات الأردو وكسب ، مزدانة بمختلف الحراج الجميلة ، أخص أشجارها الصنوبر الحلبي واللبنة والبلوط ، أما في الشرق فهي خالية من ذلك ، ولكن أوديتها ومنحدراتها ملآنة بالأنجم والأعشاب البرية الدائمة الاخضرار ، ومغروسة بمختلف الأشجار المثمرة ، لاسيما الزيتون يأتي بعده التوت واللوز ، والتين والمشمش ، وفي منخفضاتها الرطبة ، الحور والدلب والصفصاف والدفلي ، وهذه الكورة كثيرة الغلال وافرة الخيرات ، تتوالى على سكانها المواسم ، وأجل موسم فيها الزيتون ، ويصدر زيته الجيد إلى أنطاكية لصنع الصابون ، ثم يأتي بعده الحرير والبطيخ ، والتين والعنب ، والجبن والسمن ، والحنطة القصيرية مشهورة في هذه الربوع ، ومفضلة على غيرها ، وطيور الصيد ودوابه كثيرة ، ويبلغ سكان هذه الكورة في النواحي التي عددناها زهاء ٤٥٠٠٠ ، معظمهم من التركمان السنيين ، ويأتي بعدهم العرب السنيون ، ثم النصيرية ، وثمة قرى للأرمن ، وأخرى للروم الأرثوذكس سيأتي ذكرها ، وواحدة للإسماعيلية تدعى جندالية . وتاريخ هذه الكورة مرتبط بتاريخ أنطاكية ، وقد كانت تمر منها الجيوش الزاحفة نحو هذه العاصمة ، من اللاذقية أو من جسر الشغر ، وفيها من الحصون المنيعة التي كانت تخفر أنطاكية من جنوبها ، القصير ودركوش والشغر وبكاس وكفر دبين . وفيها الآن من أمهات القرى : قرية الشيخ ، وهو الشيخ إسماعيل القصيري الكردي الأصل ، كان معدوداً من الأولياء ، وضريحه لا يزال مقصوداً بالزيارة ، ولأحفاده في هذه الديار حرمة زائدة ، وقد اتخذت هذه القرية قاعدة لناحية قصير الفوقاني ، وفي غربيها نجود هي أعلى ما في هذا الجبل ، لها منظر جميل وهواء نقي ، تشرف على وادي العاصي والجبل الأحمر ، وسهل العمق والجبال المحيطة به ، وقرية بابطرون قاعدة ناحية القصير الوسطاني ، وقارصو قاعدة ناحية القصير التحتاني ، وفي الغرب قرية الأردو وهي قصبة الناحية ، وأهلها تركمان ، ثم كسب وأهلها أرمن ، وفيها دير كبير للرهبان الفرنسيسيين ، ومنها يمكن الصعود إلى جبل الأقرع

الشامخ ، وقاربياز وأهلها تركان وعلوهـا ٨٠٠ متر ، وتعـد أكبر وأغنى قرى القصير اشتهرت بعنبها الفاخر ولوزها ، وجنيدو وأهلها روم أرثوذكس ، يقـام فيهـا في فصل الصيف سوق عام كل يوم خميس ، اشتهرت بكثرة العاديات التي وجدت فيهـا ، ومنهـا جرة مملوءة نقوداً ذهبية بيزنطيـة ، وفي غربيهـا شعب يـأخـذ إلى قلعـة القصير ، التي ذكرنـاهـا في بحث أنطاكية ، وصورية وهي كبيرة وأهلهـا روم ، وفيهـا مدرسـة وكنيسـة ، ومعـاصر زيتون وكروم زيتـون واسعـة ، وفي قربهـا بني جسر حـديث على طريـق السيـارات ، في جـواره كهوف ومدافن أثرية ، والفاتكية وأهلها مسلمون ، اشتهرت بكثرة أشجارها وأثمارها .

وفي الشرق من الأمهات دركوش نـاحيـة تـابعـة لقضـاء جسر الشغر ، وعـدد سكانهـا ٢٥٠٠ عرب مسلمون ، تعد من أجمل بلدان العاصي وأنزهها ، واقعة في واد يمر فيه العاصي ، شـاهق الـعـدوتين إلى علو ٣٠٠ ـ ٤٠٠ متر ، الشرقيـة من جبل الأعلى ، والغربيـة من جبل القصير ، ولحرها وسعة بساتينها التي تروى بخمس نواعير ، كالتي في حماة وأنطـاكيـة ، تنتج فواكه جيدة ، كالمشمش المعروف بشكر بـارة ، والتفـاح والرمـان ، وأنواع البقول ، وجلهـا يرسـل إلى إدلب وحلب ، ودورهـا كـدور المـدن حجريـة بيضـاء ، وفيهـا أسـواق وأزقـة مبلطة ، وحوانيت وجوامع وحمام ، وأسر ذات وجاهة ، ولكن حرها شديد ، لاختفائها في أضيق مكان من وادي العاصي ، بين تينك العدوتين الشـاهقتين . ودركوش بلـدة قـديمـة ، عدها شيخ الربوة من الثغور السـاحليـة الجبليـة ، وقـال عنهـا يـاقوت : « دركوش حصن قرب أنطاكية من أعمال العواصم » ا هـ . وقال القلقشندي : « وأكثر زرع أرضهـا العنب ، أخبرني بعض أهل تلك البلاد أن حبة العنب فيها ربمـا بلغت في الوزن عشرة دراهم ، وبهـا قلعة عاصية ، استولى هولاكو على قلاع الشام ماعداها فإنـه لم يصلهـا » ا هـ . وقـد زالـت آثـار هـذا الحصن المنيع ، كما زال كثير من أطلال دركـوش القـديمـة ، ولم أتمكن من معرفـة سبب هذا الزوال ومسببيه ، وزمن حدوثه ، إذ لم أجد في دركوش لمـا زرتهـا في ربيع سنـة ١٣٥٢ هـ من يستطيع إجابتي عن ذلك ، ولم أر فيهـا سوى عتبـة فوق بـاب حمـامهـا ، زبر عليها أن مجدد الحمام (جان بولاد بك) (؟) سنة ٩٦٦ هـ ، وتحتها حجرة زبر في وسطهـا بالكوفية آية ﴿ كلما دخل عليهـا زكريـا المحراب .. ﴾ [آل عمران : ٣٧] ، ممـا يـدل على نقلها من محراب جامع خرب ، وذكر لي أن في الجبل الأعلى القريب من دركوش ، أماكن

ذات آثار قديمة كتورين وخراب سلطـان والفـاسوق ، وأن على مقربـة من قريـة الـدويلي حصن خراب يعرف باسمها . ويذكر في قرب دركوش على العاصي قرية الزنبقية ، التي مر بهـا (أوليـا جلبي) ، وفيهـا أطلال خـان خراب من العهـد التي كانت تمر بهـا القوافـل بين أنطاكية وجسر الشغر .

وثمة في مرتفعات جبل القصير القريبة من جسر الشغر ، قرية جميلة تدعى القنيـة ، هواؤهـا نقي ، ومنـاظرهـا المشرفـة على سهل الغـاب والجبل الـوسطـاني رائعـة ، ودورهـا حجرية ولكن ماءهـا قليل ، وفي غربيهـا قريـة أخرى أعلى منهـا تـدعى اليعقوبيـة ، من غريب ماشاهدتـه في هـاتين القريتين أن أهلها كانوا في الأصل أرمن ، ثم بتوالي الأحقـاب وتأثير البيئة العربية استعربوا تمامـاً ، ثم صـاروا لاتين بتـأثير الرهبـان الفرنسيسيين الـذين شـادوا في القنيـة ديراً عظيمـاً سنـة ١٢٩٠ هـ ، وفيـه مـدرسـة للصبيـان وأخرى للبنـــات ، ومتحف أثري صغير ، وهنـا لابـد من السؤال ، هل يستعرب الأرمن الـذين قـدموا عقيب الاحتلال الإفرنسي من بلاد الترك إلى بلاد الشام ، كما جرى بأرمن القنية واليعقوبيـة ، وكما جرى بكثير من الشعوب الغريبة المسلمة والنصرانية ، التي وفدت تبـاعـاً في العصور الغـابرة إلى الشام ، ولم تعتم أن ذابت في البيئة العربية ؟ ذلك ماسوف يظهره المستقبل . وفي شرقي القنية ضيعة مسلمة تـدعى كفر دبين على رابيـة ، كان لهـا حصن ذكره يـاقوت . وفي شرقي القنية أيضاً طريق لاحب طولـه سبعـة كيلومتر ، يهبط في آخره في شعب ذي منعرجـات مخوفة إلى حمة الشيخ عيسى ، وهي في واد سحيق يمر بـه العـاصي ، وهـذه الحمـة ذات ميـاه معدنية حديدية حـارة درجتهـا ٣٥ ، تنفع للاستشفـاء من داء المفـاصل وغيره ، يقصـدهـا الناس من كل الجهات ، ولو شيـدت فيهـا أبنيـة للاستحمام والمبيت ، أحسن ممـا هو موجود لزاد الإقبال عليها .

جسر الشغر : وجسر الشغر بليـدة جميلـة فيهـا من السكان أربعـة آلاف ، عرب أكثرهم مسلمون ، وفيهـا دار للحكومـة جـديـدة ومسـاجـد ومـدارس ودور لـلأهلين مبنيـة بالحجر الأبيض حسنة في الجملة ، ويمر من وسطها طريق السيارات الذاهبة من اللاذقية إلى حلب ، ولكن هواءها رديء لقرب مستنقعات الروج والغاب منها .

ومن الغريب أن جغرافيي العرب لم يـذكروا عن هـذه البلـدة شيئـاً ، إذ لم تكن

موجودة في زمنهم ، وكان الاسم لقلعتي الشغر وبكاس اللتين في قربها قرية مابرحت تدعى الشغر القديم ، بينما مؤرخو الإفرنج يزعمون أنه كان في مكان جسر الشغر بلدة اسمها Niaccuba أو Séleucie ad Bellum يظهر أنها دثرت قبل الفتح الإسلامي ، وقد اكتفى أبو الفداء بذكر السوق العام الذي كان يقام قرب جسرها ودعاه جسر كشفهان ، ويظهر مما ذكره السائح (أوليا جلبي) (ص ١٩) أنه لم يكن قرب الجسر حين مروره في سنة ١٠٥٨ هـ بلدة معمورة ، بل خان صغير ، وقد تمنى الجلبي وقتئذ العمران والأمان لهذا المكان الموحش فاستجيبت منيته ، لأن (محمد باشا الكوبرلي) الشهير الذي كان باشا أيالة طرابلس الشام ، قبل أن يصبح صدراً أعظم ، مر من هنا بعد بضع سنين من مرور الجلبي ، فرمم الجسر الكبير المعقود فوق العاصي ، وقيل إنه هو أيضاً بنى الجامع الكبير ، وخاناً وحماماً ، فعمرت بلدة الجسر على يد هذا الوزير الخطير . ولجسر هذه البلدة مكانة عظمى من ناحيتي سوق الجيش والتجارة ، فقد كان يمر منه الرصيفان الرومانيان ، الأول الذاهب من اللاذقية إلى حلب ، والثاني الذاهب من أفامية إلى أنطاكية ، وسنأتي على ذكره ، وليس هذا الجسر مستقيماً بل في وسطه كوع جعل لمقاومة دفع العاصي ، كما أن ظهره أفقي ليس فيه الاحديداب الذي يرى في معظم جسور البلاد الشامية ، وطول هذا الجسر أربعمئة متر ، معقود على أربع عشرة قنطرة ، تدل حجارتها على أنه رمم مراراً ، وفي منتصفه وعلى أحد جانبيه حجرة زبرت عليها كتابة عربية فيها اسم جقمق ، ولعله الملك الظاهر جقمق الشركسي (٨٤٢ ـ ٨٥٧ هـ) ، هذا وفي أواخر القرن الماضي ، جعلت بلدة جسر الشغر مركزاً لقضاء ، يشمل قسماً من سهل الغاب وجبال النصيرية ، ومعظم سكان هذا القضاء من العرب السنيين والنصيرية وقليل من التركمان في مرتفعات جبل القصير ، والكرد المستعربين في حدود جبل الأكراد من أعمال حكومة اللاذقية ، ومن اللاتين في قريتي القنية واليعقوبية ، ومن الروم الأرثوذكس في قرية أنكزيك ، ومن الأعراب الفلاحين في قرى الروج والغاب . وتكثر أشجار الزيتون في بقعة التركمان ، والأشجار المثمرة والكرمة في قرى بداما والجسر ودركوش والقنية ، وزراعة الأرز والقطن في سهول قسطون وما جاورها ، وفيه من المحاصيل بزر الخردل ، وجذور المحمودة المعروفة في الطب باسم (سقمونيا) ، واشتهرت فيه قرية اشتبرق بحدائقها وينابيعها ومتنزهاتها ، وأنكزيك وأهلها روم أرثوذكس بجودة هوائها وصلاحها للاصطياف ، وزعينة بحراجها ومياهها ومصائدها ،

وقسطون بخصب تربتها ، وبلميس ومشمشان وكفردبين بذكرياتها التاريخية . وكان لبلدة الجسر على بعد ساعة في شماليها ، قلعة حصينة مقابلها أخرى يقال لها بكاس على رأس جبلين بينهما واد كالخندق ، كل واحدة تناوح الأخرى ، وفوق الوادي جسر كان يعبر من فوقه من إحداهما إلى الأخرى . مر ابن بطوطة في سنة ٧٢٥ هـ بحصن الشغر وبكاس وقال : « إنه منيع في رأس جبل شاهق ، وذكر اسم أميره وقاضيه ، ونوه بفضل الأول وأن الثاني من أصحاب ابن تيمية » . وقال أبو الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ : « الشغر وبكاس من جند قنسرين ، قلعتان حصينتان ، بينهما رمية سهم ، على جبل مستطيل ، وتحتهما نهر يجري ، ولهما بساتين وفواكه كثيرة ، ولهما مسجد جامع ، ومنبر ورستاق ، وهما بين أنطاكية وأفامية على قريب منتصف الطريق بينهما ، وفي شرقيهما على شوط فرس جسر كشفهان ، وهو جسر على النهر ، وهو مشهور وله سوق يجتمع الناس فيه في كل أسبوع ، والشغر وبكاس في جهة الشرق والشمال عن صهيون ، وفي الجنوب عن أنطاكية وبينهما الجبال » ا هـ .

فيستدل من هذا الوصف ، أن كشفهان ربما كانت هي بلدة جسر الشغر الحالية ، وكانت الشغر وبكاس وما حولها من المخافر ، في سهل الروج وجبل الزاوية ، من معاقل الصليبيين المخصصة لحراسة أنطاكية ، ومركز اتصال قواتهم ، بقوات قمص طرابلس وملك القدس ، ومن هنا كانوا يغيرون على المسلمين في شيزر وحماة عن طريق أفامية ، وفي حلب عن طريق برج هاب وسرمين . وظل هذا الحال إلى أن شرع المسلمون يلمون شعثهم ، وبدؤوا يهاجمون معاقل أنطاكية وخطوطها الأمامية ، فكان أول ضربتهم لما انتصر (نجم الدين إيلغازي بن أرتق) صاحب ماردين ، ومتولي حلب في سنة ٥١٤ هـ على الإفرنج في ذات البقل (؟) من بلد سرمين (أبو الفداء ٢ / ٢٤٣) ، وثاني ضربة لما انتصر نور الدين محمود سنة ٥٤٤ هـ على (ريموند دوبواتيه) صاحب أنطاكية ، في قرية آنب في سهل الروج ، وعزز نصرته هذه في السنة التالية ، بالاستيلاء على أفامية ، والثالثة لما جاء السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤ هـ ، فافتتح طرطوس وجبلة ، وصهيون والشغر ، وبكاس وسرمانية ، وبرزية ودربساك ، وبغراس ، فأصبحت أنطاكية بعد فقدان هذه المعاقل ، كما قال في الروضتين (معدومة الأطراف قد قطعت أيديها وأرجلها من خلاف) . ولم يبق الآن من آثار الشغر وبكاس إلا أسس الجدران وأحجارها المتهدمة ، وعلى بعضها

كتابات عربية ، وعلى مقربة من القلعتين قرية تدعى الشغر القديم ، تحيط بها المزارع والحدائق ، وفيها مسجد يحوي بعض أحجار ذات كتابات كوفية .

وفي قضاء الجسر من أفاريق الأعراب ، المشتغلين بالفلاحة أو الرعي بضعة أفناد ، تنتسب لقبائل شتى : كأبي جرادة والهنادي ، ونعيم ومداهيش ، وجيس ومجادمة ، وقبيعات وجلهم في أنحاء الغاب أو الروج .



نهر العاصي في دركوش

طريق جسر الشغر ــ حلب

(١١٢ كيلو متراً)

تبدأ هذه الطريق المعبدة المزفتة من اللاذقية وطولها ١٩٨ كيلو متراً ، وهي إذا خرجت من اللاذقية تجتاز سهلها الفسيح ، وتصادف في (الكيلومتر ٢٤) نهر الكبير الشمالي ، وعليه جسر عظيم حديث ، ثم تشرع بتسلق هضاب جبال النصيرية الغضراء ، فتارة تحاذي نهر الكبير المذكور ، أو غيره من الأنهر ، وتارة تدخل في ثنايا ، أو تعلو أكمات متسلسلة ، وكلها مزدان بحراج الصنوبر والسنديان والقطلب ، وغيرها من الأشجار والأنجم الخضراء ، التي تبتهج العين بمرآها ، مما قل نظيره في بقية طرق الشام ، إلى أن تصل في (الكيلومتر ٥٧) إلى مكان اسمه شق العجوز ، على يمينه خربة قلعة عيذو ، التي كان لها ذكر في تاريخ الصليبيين ، ذكرها ياقوت بإيجاز قال : « قلعة بنواحي حلب » ا هـ . وفي (الكيلومتر ٦٣) التخم الفاصل بين حكومة اللاذقية ، وقضاء جسر الشغر من توابع حكومة الشام ، ثم تمر الطريق بأرضين قرى بداما وزعنية وأنكزيك التي مر ذكرها ، وفي أنكزيك أكمة عالية ذات منظر رائع ، يشرف على جبل النصيرية والجبل الأقرع وحتى جبل اللكام ، ثم ينكشف للسائر فجأة جبل الزاوية ، والجبل الوسطاني ، ثم سهل الغاب ، ثم يهبط في منعطفات مخوفة إلى أن يصل إلى جسر الشغر في (الكيلومتر ٨٦) .

وبعد مغادرة جسر الشغر تصعد الطريق نحو تلعات الجبل الوسطاني ، فتسير في سفحه القبلي ، وتمر في (الكيلومتر ٩٢) من ضيعة فريكة ، بيوتها أخصاص من القصب ، تشرف على سهل الغاب ووادي العاصي ، وفيها مفرق اللحب الذاهب جنوباً نحو قلعة المضيق ، ثم تمر في (الكيلومتر ٩٥) بضيعة سللي ، وإذا تسلق السائح تلعات الجبل الوسطاني ، التي في شمالي سللي ، يصادف بعد كيلومترين المكان الذي يظن أنه كان فيه الحصن المشهور في عهد الصليبيين ، باسم الحصن الأحمر ، أو حصن الروج Chastel rouge المكلف بحراسة طريق أنطاكية في سهل الروج ، ومثله في شماله حصن أرزكان ، ولم يبق

من هـذين الحصنين وغيرهـا أقل أثر ، بعـد أن قضى عليهما نور الـدين محمـود ، وثمـة بينهما ضيعة تـدعى بشلمون ، ذكرت أيضاً في تـاريخ الصليبيين . وبعـد أن تنتهي الطريق من الجبل الوسطاني ، الحـائل بين وادي العـاصي وسهل الروج ، تـدخل في سهل الروج المشتهر بخصبه ، وكثرة مناقعه ، ورداءة هوائه .

سهل الروج : مساحة سهل الروج ٢٠٠٠٠ هكتـار ، تؤلف بقعـة مستطيلـة ، تمتـد من جنوبي الوادي الآتي من أرمنـاز إلى جنوبي قسطون ، وتنحصر بين الجبل الوسطـاني في الغرب ، وأعضاد جبل الزاوية في الشرق . وفي هذا السهل ينـابيع عـديـدة غزيرة الميـاه ، تنبجس من حضيض تلك الأعضاد ، أغزرها ينابيع عري الشماليـة والجنوبيـة ، وتسيل نحو الجبل الوسطاني ، فتجتمع في بطائح تدعى البرك ، لهـا فوهـات في حضيض الجبل المـذكور تسمى بـالوعـات ، ثلاث منهـا كبيرة وواحـدة صغيرة ، ثم تتسرب من نفق في جوف الجبل المذكور ، له نافذة في غربيه ، تتصل منها بمياه نهر العـاصي في عين زعموا أنهـا عين البيضـاء بين جسر الشغر ودركوش . وقـد كانت ميـاه عري في العصور الغـابرة ، تروي سهل الروج الفسيح بجداول منتظمة ، مابرحت آثارها ماثلة . وكانت البواليع والنفق إذ ذاك مفتوحـة تغور المياه الزائدة فيها بسهولـة ، ثم صـارت تنسـد على كر العصور ، والميـاه تتجمع ويعلو مستواها ، حتى ألفت بحيرة ، أو أجمة عظيمة دعوهـا غـاب عري . ثم ازداد الانسـداد ، حتى صارت المياه في الشتاء ، تتعدى شواطئ الغاب ، وتغمر ضياع الروج المجـاورة الواحـدة تلو الأخرى ، وما لم تصل إلى مبـانيهـا تغمر مزارعهـا ، ثم تنسحب رويـداً رويـداً في الربيع ، وتخف بعد أن تجعل تلك المزارع مرازغ تنبعث منها أسباب وخامـة المرتع ووبـالـة الهواء . وقد بلغني أن فوهـات البواليع بعـد أن كانت ظـاهرة للعيـان ، انسـدت منـذ بضع سنوات انسداداً تامـاً ، وعزوا ذلـك إلى عطل خفي طرأ على النفق المـذكور آنفـاً ، وقـد ارتفع من ذلك الحين القريب ، مستوى الماء في غـاب عري من نصف متر إلى مترين في أيـام الشح ، وإلى ثلاثة أمتار ونصف في أيام الفيض ، واتسعت مسـاحـة المرازغ ، وازداد فسـاد الهواء ، وغرقت أرضون ست قرى من جديد . وقد اهتم بهذا الغاب بعض أوليـاء الأمور ؛ فـارتـأى من ينظر إلى الناحية الصحية ، وجوب تجفيفه بأن توسع الفوهات التي تغور فيهـا الميـاه ، ويعـاد السيلان إلى سـابق عهـده ، وارتـأى من ينظر إلى رقي الزراعـة وجـوب الاحتفـاظ

بالمياه ، في خزانات تنشأ في الروج ، لرى الأرضين المجاورة للغاب ، وكلا الرأيين مابرحا قيد التصور ، ومثلهما الرأي الذي أرادوه في جر ماء عين عري لشرب إدلب الظمآنة . وقد كان في سهل الروج في العصور المتوسطة ، أي قبل أن تغمره المياه ضياع كثيرة ، بعضها كان من المخافر المخصصة لحراسة طريق أنطاكية . قال ياقوت : « الروج كورة من كور حلب المشهورة في غربيها ، ولها ذكر في الأخبار » اهـ . ولم يبق في أطراف الروج من هذه الضياع ، سوى تل أعور وآنب ، وجدراية وشاغوريت ، وعين لاروز وحميات ، وموزرة ، والبقية هجرها أهلها لوخامة مرتعها ، ووبالة هوائها ، وقطنوا قرى جبل الزاوية كبقسمتة وعين شيب ، وبرج هاب وحيلا، وكفرميد والكنيسة ، وغيرها مما هو أعلى منها ، وتصل وبالة هواء الروج وأضرارها في الشمال ، إلى قرى كبتة وكوارو ، وملس وبيرة أرمناز مما يتبع قضاء حارم . وتربة سهل الروج طينية دبالية ، سوداء خصبة ، وحره زائد عما يجاوره ، لذلك تجود فيه الزروع الشتوية والصيفية ، وأخصها القطن وتبسق في السنين المعتدلة الأمطار ، ويكثر فيه الكلأ في الربيع ، فتلجأ إليه الأعراب بأغنامها ، ويرتزق أهله مع الزراعة بصيد السلور والسمك ، والعلق والخنزير البري ، وكلب الماء والطيور المائية المختلفة . وفي غاب عري يكثر الأسل والحلفا ، والبردي والقصب ، وغيرها من النباتات المائية التي تضمنها الحكومة ، فيأخذها أهل إدلب ويصنعون منها الحصر والمكانس ، ويحشون برادع الحمير والبغال . وقد اشتهرت من ضياع الروج ، آنب بالنصرة العظيمة التي حازها نور الدين محمود على (ريموند دوبواتية) برنس أنطاكية سنة ٥٤٤ هـ ، فهنأه القيسراني الشاعر في قصيدة مطلعها :

هذي العزائم لاماتدعي القضب	وذي المكارم لاماقالت الكتب

ومنها :

ياساهد الطرف والأجفان هاجعة	وثابت القلب والأحشاء تضطرب
أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة	فؤاد رومية الكبرى لها يجب

ومنها :

قل للطغاة وإن صمت مسامعها	قولا لصم القنا في ذكره أرب
مايوم آنب والأيام دائلة	من يوم يغرا بعيد لا ولا كثب



نهر العاصي في جسر الشغور

يشير إلى النصرة العظيمة التي أحرزها الإفرنج على نور الدين في يغرا العمق في سنة ٥٤٢ هـ ، ثم ثأره منهم أولاً في يغرا نفسها ، وثانياً في آنب الروج . وقد أخطأ البستاني في دائرة المعارف ، في ظنه أن آنب هذه هي عناب الواقعة في الضفة الغربية من سيف الغاب ، إحدى ضياع ناحية عين الكروم ، حيث لا مجال لحدوث مثل هذه المعركة العظيمة ، على ما تحققته بنفسي في جولتي ، في تلك الأنحاء في ربيع سنة ١٣٥٣ هـ وذلك لاتصال مستنقعات الغاب بحضيض جبال النصيرية التي فيها عناب المذكورة . كما أن آنب هذه ليست آنب إحدى قرى قضاء أعزاز التي ذكر في خطط الشام للكرد علي (٢ / ٢٣) أن المعركة المذكورة حدثت فيها . وذكر أبو الفداء في تاريخه (٤ / ٤٣) علاروز ، وأنه جبل مطل على قسطون ، مرض فيه سنة٦٩٨ هـ في صيد النسر الملك المظفر ،. التقوي الأيوبي ، صاحب حماة ، وحم وتوفي بسبب ذلك .

وبعد مغادرة آخر ضيعة في الروج ، اسمها محمبل في (الكيلو متر ١٠٥) تشرع الطريق بتسلق هضاب جبل الزاوية ، وتتغلغل في منعطفاته العديدة ، التي شقت لها منذ عهد قريب في صخوره الصماء ، ثم تعود للهبوط إلى أن تصل إلى واد فسيح في وسطه قرية أورم الجوز ، في (الكيلو متر ١١٤) ، وفي غربيها كهوف أثرية ومدافن ، وكانت عظام موتاها لما شاهدتها بارزة مبعثرة .

وفي (الكيلو متر ١١٩) ريحا ، وهي بليدة جميلة نزهة في سفح جبل الأربعين ، تعلو عن البحر ٤٥٠ متراً ، عدد سكانها ٦٠٠٠ مسلمون ، وهي قاعدة ناحية تشمل كل جبل الزاوية وسهل الروج ، وفيها مساجد عديدة ، وسوق كبير وأزقة مبلطة ، وحوانيت ودور حجرية جميلة ، وشرب أهلها من صهاريج يحرز فيها ماء المطر ، وتنحدر إليها قناة صغيرة من جبل الأربعين . واسم هذا الجبل من مقام فيه يعرف بمقام الأربعين ، وهو صحيح الهواء طيب الماء ، ذو مناظر رائعة ، تشرف على سهول إدلب الشاسعة الحمراء ، المزدانة بغابات الزيتون الخضراء ، وينوفي هذا الجبل كثير من الأشجار المثمرة عذياً ، أخصها الكرز والويشنة ، والكمثرى والتفاح ، والتين والعنب ، واللوز والجوز ، وهو من أحسن أماكن الاصطياف في ديار حلب ، لو بنيت فيه دور وفنادق صالحة لذلك . قال ياقوت : « ريحا بدون ألف هي بليدة من نواحي حلب أنزه بلاد الله وأطيبها (!) ، ذات

بساتين وأشجار وأنهار ، وليس في نواحي حلب أنزه منها ، وربما فرق بين أريحا القدس وهذه ، وهذه بدون ألف التي في أول الأولى » ا هـ .

جبل الزاوية : وجبل الزاوية يتبع ناحية ريحا ، وهو جبل مستطيل الشكل ، طوله من ريحا إلى قلعة المضيق نحو خمسين كيلو متراً ، وعرضه من سهل الروج إلى طريق حلب ـ حماة نحو ثلاثين كيلو متراً ، ويسمى طرفه الشمالي جبل الأربعين ، وطرفه الجنوبي شحشبو ، ويتبع قسمه الشمالي قضاء إدلب وقسمه الجنوبي قضاء المعرة ، وكان يعرف قديماً بجبل (بني عليم) نسبة لقبيلة بهذا الاسم كانت فيه على ما يظهر ، ثم اشتهر منذ القرن السابع بجبل الزاوية بعد انقراض بني عليم . زعموا أن سبب هذه الشهرة ، وجود زاوية في قرية منه تدعى (مرعيان) أنشأها فيما قيل أحد أولاد السيد عبد القادر الكيلاني . وليس في هذا الجبل أسناد شاهقة ، أو وهاد سحيقة ، أو أنهار جارية ، أو حراج غبياء كما في غيره ، فهو أجرد إلا من أشجار الزيتون والتين والعنب في بعض أماكنه ، وواطئ لا تعلو قمة النبي أيوب فيه عن ٩٠٠ ـ ١٠٠٠ متر ، وينابيعه قليلة ، وسطحه منبسط في الجملة ، على أنه تكثر فيه التلعات الصخرية الكلسية ، الرمادية اللون ، ذات الصدوع الواخزة ، تتخللها بقاع تصغر تارة وتكبر أخرى ، تربتها حمراء خصبة إذا جادها الغيث ، وهذه التلعات والصدوع ، جعلت أكثر قراه كمعاقل حربية لا ترام ، ودعت أهلها أن يكونوا أجلاداً برزا ببسالتهم في المعارك التي جرت في سني ١٣٣٩ و ١٣٤٠ هـ في أعمال حلب الغربية ، بين عصابات الأهلين والجند الإفرنسي . ولا تزال قرى هذا الجبل بدون طرق لاحبة ، توصل السيارات إليها ، وبدون مدارس توصل الثقافة إلى أهلها .

وأشهر هذه القرى وأكبرها البارة ، ويظهر أنها كانت فيما مضى قصبة هذا الجبل ، قال عنها ياقوت : « البارة بليدة وكورة من نواحي حلب ، وفيها حصن ، وهي ذات بساتين ويسمونها زاوية البارة (كذا) » ا هـ ، ولعل اسم جبل الزاوية اشتهر من عهد ياقوت في القرن السابع . وعدد سكان البارة (١٠٠٠) ، ويليها في هذا الجبل في العدد والكبر ، كل من أورم الجوز ، ومرعيان واحسم ، وكنصفرة وكفرلاثا (٨٠٠ نفس) ، ثم الرامة وبساموس ، ونحلة ومنطف ، ومعترم (٦٠٠) ، ثم بليون وبلشون ، وجوزيف

وموزرة ، وكفر شلايا وسرجة (٤٠٠) ، ثم المغارة وأبلين (٣٠٠) ، وما بقي فضياع صغيرة ، لا يزيد سكانها عن (٥٠ ـ ٢٠٠) ، وقرى هذا الجبل الشمالية أغزر ماء وأذكى تربة من الجنوبية ، لذلك يعتمد سكان الشمالية ، كأهل كفر لاثا خاصة على زراعة البقول والأشجار ، لاسيا الزيتون ، أما الجنوبية فعلى أراضيهم القليلة المساحة المبعثرة بين الصخور ، وأهل القرى الغربية تعتمد على مالها من الأراضي في سهل الروج ، ويغلب على أهل هذا الجبل ، طول القامة وعرض الهامة ، واسمرار الوجه واستدارته ، مع بروز الوجنتين ، وهي أوصاف رأيتها في الأكثر في أهل البارة .

وهذا الجبل المنيع غني بخرائب وآثار ، من عهد النصرانية الأول ، جديرة بالزيارة والاعتبار ، ليس بينها مصانع عامة كالأديرة ودور الضيفان ، ماخلا بعض البيع . أما الدور والقصور الخاصة والحمامات فكثيرة ، وكلها قوراء ، وذات غرف وأبهاء عديدة ، ومبنية بأحجار ضخمة ومنحوتة ومزخرفة ، مما يدل على رفه أهلها وغناهم ، لا ينقصها لتسكن إلا وضع الأبواب والنوافذ الخشبية ، وجميعها يعود إلى القرنين الخامس والسادس الميلاديين .

قصور خلت من ساكنيها فما بها	سوى الأدم تمشي حول واقفة الدُّمى
تجيب بها هام الصدى ولطالما	أجاب القيان الطائر المترنما
كأن لم يكن فيها أنيس ولا التقى	بها الوفد جميعاً والخميس عرمرما

وقد استغربت هنا ، كما استغربت في جبلي باريشا والأعلى ، سلامة هذه المصانع والقصور من عوادي الزمان وعبث السكان ، أهل العصور المتوسطة ، وكيف أن أهل العصر الحاضر ، ومنهم أهل قرية البارة الحاضرين ، يكسرون ويعبثون بهذه الأطلال الثمينة ، ويخربونها ليعمروا بها بيوتهم ، وتذكرت آنئذ قول القاضي أبو يعلى المعري ، لما اجتاز فيما قيل ببلدة شياث ظاهر معرة النعمان ـ ولعل شياث كانت في جبل الزاوية ـ والناس ينقضون بنيانها ، ليعمروا به موضعاً آخر ، فقال :

مررت برسم في شياث فراعني	به زجل الأحجار تحت المعاول
تناولها عبل الذراع كأنما	رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل
أتتلفها شلت يمينك خلها	لمعتبر أو زائر أو مسائل

منـــازل قــوم حـــدثتنـــا حـــديثهم ولم أر أحلى من حـــــديث المنـــــازل

وتساءلت ، هل كان الأولون يجلون قدر هذه الآثار ، ويعرفون التذكارات المطبوعة بطابع الأسلاف والأجيال ، المشبعة بدلائل نبوغهم وفيض قرائحهم ، أكثر من الحـاضرين ؟ وقد تعذر علي حل هذه الأسئلة وما برح متعذراً .

وصلت في خريف سنة ١٣٤٩ هـ إلى البارة ، عن طريق إدلب وريحـا وأورم الجوز ، وفي قرب أورم الجوز التي تقدم وصفها ، سلكت السيارة لحباً جبلياً بين كروم الزيتون إلى مكان عجزت فيه عن التقدم ، في أسفل قرية مرعيان ، وهناك تركتها ، وتسلقت عقبـات هذه القرية المحصنة مشياً ، ومنهـا امتطيت راحلـة ، فمررت بقريتي الرامـة واحسم ، كنت أرى فيها كثيراً من النواويس والقبور والأعمدة والأحجار المنحوتة المبعثرة ، وبعد سـاعتين وثلث وصلت إلى خربة البارة ، وعلى بعد بضع مئـات من الأمتـار ، قريـة البـارة الكبيرة الآهلة بنحو ألف من السكان الجبلي الطباع والأجسام .

تحيـط بخرائب البـارة وتتخللهـا كروم وأشجـار وزروع أهـل البـارة الحـاضرين ، والتطواف بها غير يسير ، لوفرة أطلالها المتهـدمـة ، وأحجـارهـا المركومـة التي نشبت فيهـا الأنجم والأعشاب الشائكة ، بيد أن البارة في جملتها ، لاتزال على جدتها وروعة هندستها ، تشبه مدينة (پومپي) الإيطالية فيا قيل ، وبلاط أزقتها وجـدران وسقوف أكثر مبـانيهـا لاتزال محفوظـة ، وهي تمتـد في سـاحـة واسعـة ، وسـط واد مستطيل ، لاتقل دورتهـا عن أربعة كيلومتر . وكانت هذه المدينة الجميلة مقسومة إلى حيين ، أحدهما في الغرب ، والثـاني في الجنوب ، وفي الأول أطلال كنيستين ، إحـداهمـا كبيرة والثـانيـة صغيرة ، وفي كل منهـا مـدرسـة وصـومعـة رهبـان ومـا إلى ذلـك ، وبين الحيين وعلى نشز من الأرض ، قصر ذو طـابقين ، مـازالا محفوظين يسمى دير سوبـاط ، وصحيحـه أن يقـال قصر سوبـاط ، فيـه معمل للخمر لاتزال دنانه الحجرية في أمكنتها ، وفي حديقـة القصر مـدفن يشبـه الهيكل ، محمول على عدة أعمدة وفيه نواويس . وبين هذا القصر وقرية البارة ، بـاحـة كبيرة محـاطـة بصفوف من الأعمدة ، لعلها كانت حديقة عامة مسورة ، وفي الحي الغربي أيضاً كنيستان ، يشرف على الأولى منهما حصن عربي ذكره يـاقـوت في معجمـه وقيـل أن اسمـه حصن أبي سفيان ، فيه برج كبير ، حوله أبراج صغيرة ، مربعة بارزة من سور الحصن ، مما يـدل على

أن العرب قطنوا البارة ، وحصنوها وحفظوا آثارها ، وفي جنوبي هذا الحي مقبرة ، وفيها قبور عجيبة الشكل عليها كتابات يونانية وصلبان ، وثمة ثلاثة مبان مربعة الشكل ، يعلو كل منها هرم حجارته مصفوفة كالقرميد ، وفي داخلها نواويس ، وأكبر هذه المباني الثلاثة مزين في واجهته بعضائد بعضها فوق بعض ، وفوق كل منها تيجان ومداميك ، ومثلها عتبة الدار مزخرفة ومحفورة على شكل أوراق الأشجار ، وثمة مدافن منقورة في الصخر ذات حجر وقبور ، وأجل ما يستدعي العجب في خرائب البارة الرائعة ، دورها الخاصة القوراء التي لاتزال على روائها ، وبعضها لا يزال محتفظاً بسقوفه وغرفه ، ونوافذه وحدائقه ، وبقية منافعه ، وكلها من الحجر الصلد الضخم المنحوت ، يكفي أن يوضع الخشب في الأبواب والنوافذ لتسكن ، ويغلب أن يكون لهذه الدور دهليز خارجي فيه مقاعد ، ومنه يدخل إلى باحة الدار ، والباب الأصلي مستطيل الشكل في الغالب ، محاط بأعمدة مزخرفة ، وفوقه عتبة منقوشة نقشاً جميلاً . قرأ الأثري (دي فوكي) على إحدى هذه العتبات جملة (ليحرس المولى مدخلك ومخرجك الآن وفي العصور المقبلة) ، وثمة بهو واسع ، يسمونه الدار الكبيرة طوله نحو ٢٥ متراً × ٧ متر ، كله منحوت في صخرة واسعة ، له سقف محمول على عوارض بارزة من الحجر ، وقد طلي بدهان لطيف لم تغير السنون لونه ، ونقش في بعض جدرانه صليب . وفي جدار دار أظنهم ذكروا أن اسمها المزوقة ، عثرت على كتابة عربية قديمة ، ذات خط سقيم فيها بعد البسملة ، الملك لله وحده ، كتبه سلطان بن معد رجب من سنة سبعون وسبعمئة ، ولم أجد غيرها رغم بحثي الكثير . هذا ولا يعلم شيء عن تاريخ البارة ، وكيفية عمرانها الغابر ، وأسماء بناتها وسكانها الأولين ، وسبب هجرها ، وإشادة قرية البارة الحاضرة على مقربة منها ، لاسيا ولم يذكرها جغرافيو العرب ومؤرخوهم إلا قليلاً ، على أنه يظهر من كلام ياقوت الذي نقلناه ، أنها كانت في عهده ، وقبله آهلة جعلت قصبة الكورة في هذا الجبل ، وبنى العرب فيها الحصن الذي ذكرناه ، ومؤرخو الإفرنج لا يذكرون عنها سوى أن الصليبيين استولوا عليها في سنة ١٠٩٨ م ، واتخذوها مركز أسقفية ، وفي سنتي ١١٠٤ و ١١٢٣ م هاجمها المسلمون ونهبوها (كذا) .

وفي جنوبي البارة ، وعلى بعد ساعة عنها قرية الحاس ، من أعمال قضاء المعرة ، وافيتها في سنة ١٣٥٠ هـ من جهة المعرة ، مشياً من قرية كفر روما ، وهي في جنوبها ،

وفي الحاس مبانٍ قديمة ، كثيرة جميلة ، منها عدة قصور ، مابرحت سالمة ، وثمة برج وكان مرقباً ، وكنيستان خربتـان . ومقـابر الحـاس غريبـة الشكل ، نزلت إلى إحـداهـا في درج عريض ، وكان للباب مصراعان حجريان منقوشـان ، وفي الـداخل كهف منقور في الصخر الصلد ، تجمعت فيه مياه المطر وكانت صافية عـذبـة ، رويت ظمئي منهـا وقتئـذ . وثمة مـدفن ذو بنـاء جميل فوق الأرض ، ذو مصراعين من الحجر الحرّي الأسود المنقوش ، يشبـه أبـواب مصـانـع حـوران ، وفيـه رمـز المسيـح ، وعتبـة البـاب مـزخرفـة على شكل أوراق الخرشوف . وفي الشمال الغربي من البارة خربة سرجيللة ، فيها حمامات لاتزال سـالمـة فيهـا البهو الخارجي والمتوسط والداخلي ، وحول هذا خلوات الاستحمام ، والأقمِم المعقود ، وحتى المسرح المخصص لجلوس الموسيقيين محمول على أعمدة ، وأقنية الماء البـارد والبخـار السـاخن . وفي هذه القرية أيضـاً كنـائس ودور محفوظـة كما كانت ، قيل إن في حـدود سنـة ١٣٢٥ هـ حضر إلى هنا جمـاعـة من الألمـان وحفروا موضعـاً فيهـا ، فـانفرج لهم عن رقعـة كبيرة من الفسيفساء غاية في الروعة وحسن الصنعـة ، فـاقتلعوا منهـا قسماً كبيراً ، وحـاولوا أخـذه ، لكن الأهلين أو مـوظفي الحكـومـة الـذين كانـوا يراقبـونهم ، عـارضـوهم بـل قيـل كسروا ماأخذوه وصرفوهم .

وفي الشمال الغربي من سرجيللة دير سنبل ، فيه مبان خربـة ومـدافن سـالمـة ، فيهـا آثـار من النقوش والرسوم الملونـة ، وتواريـخ ترجـع فيما قيـل لسني ٣٩٩ و ٤٠٨ و ٥٢٠ م ، ومثلها في قرية رويحة ، وثمة خربـة تـدعى دللوزة فيهـا قبور ، وقصر لا يزال سـالمـاً وآخر أقل سلامة . وفي قريـة مجدليا دور كثيرة أنيقة لها مطـابخ تحت الأرض واصطبلات وأدراج من حجر ، وفيها ناووس كبير عليه كتابة يونانيـة ، وقبور منقورة في الصخر . في مـدخل القرية بهو كبير منقور في الجبل ، وأطلال بيعة ذات أضلاع كثيرة .

وفي قريـة المغـارة مغـاور قـديمـة ، كانت تتخـذ مسـاكن ، متصـل بعضهـا ببعض ، بسراديب منفرجة تضل الغريب . وفوق المغـاور قبور منقورة في الصخر ، وفي غربي المعرة على بعـد سـاعـة قريـة دانـا ـ وهي غير دانـا جبل سمعـان ـ وفيهـا أطلال كنيسـة وقبـور غريبة ، لأحدهـا هرم وبـاب كبير ، وفي شمالي المعرة أيضـاً خرائب جرادة ورويحـة ، وفي رويحة أطلال أبنية ضخمة ، من جملتها كنيسة عظيمة مبنية وسط سور ، لهـا أربعـة أقواس

عالية ، وثمة قبور غريبة لها قبب . وفي جبل الزاوية في طرفه الشمالي الشرقي كفر لاثا ، قرية جميلة نزهة ، فيها بساتين وعيون جارية ، تعلو عن البحر ٧٥٠ متراً ، ولها منظر جميل ، يشرف على سهول حلب الغربية الممتدة في الأفق البعيد ، يصلها الطريق اللاحب المفتوح حديثاً من ريحا ، وهي تعد من أماكن الاصطياف ، وفيها مبان ومدافن أثرية ، ومعاصر زيت كثيرة . هذا ماتسنى لي رؤيته وتدوينه عن هذا الجبل المنيع ، وخرائبه الأثرية البديعة . ولم يتح لي زيارة قسمه الجنوبي المسمى بشحشبو ، ولعل هناك آثاراً ومشاهد تستحق الزيارة والكتابة .

عود إلى طريق حلب : وبعد ريحا ، تنفرج الطريق نحو الشمال ، وتجتاز منخفضات وتلعات متموجة ، تكثر فيها كروم الزيتون ، فتمر في (الكيلومتر ١٢٧) بقرية المسطومة ، بيوتها قبب مخروطية ، ثم تصل في (الكيلومتر ١٣٤) إلى إدلب .

إدلب : وإدلب بلدة حسنة ، تعلو عن البحر ١٩٠ متراً ، عدد سكانها ١٥٠٠٠ ، معظمهم من المسلمين وقليلهم من النصارى ، وهي قاعدة قضاء كبير ، يشمل نواحي ريحا ومعرة مصرين وسراقب . وقد اشتهرت هذه النواحي بما فيها من القرى الجسيمة ، وباتساع سهولها الأعذاء ، ذات التربة الحمراء المغلالة ، وبانتشار ورقي زراعة القطن المعروف بالبلدي ، ناهيك عن بقية الزروع المنتجة ، ورقي زراعة شجر الزيتون ، وحسن تقليمه وتعهده ، وكثرة معاصره وجودة زيته ، وفي نفس إدلب محكمة بداية ، ودار حكومة كبيرة حديثة ، بنيت سنة ١٣٤٩ هـ ، وثكنة عسكرية ، ومدرستان للذكور والإناث ، وجوامع ومساجد عديدة ، وكنيسة وأسواق ، وحوانيت كثيرة ، ومصابن ومعاصر زيت ، ومطاحن ومحالج قطن نارية ، ومقاهي وحمامات ، وهي من أجمل مراكز أقضية حلب ، لولا قلة مائها ، وهو ماء المطر المخزون في الصهاريج ، وقد أدت قلته لانتشار القرع والرمد في أهلها ـ رغم استجلاب ماء عين مارتين إليها لأنه غير كاف ـ ولم يكن لإدلب شأن في العصور القديمة والمتوسطة إذ كانت قرية صغيرة ، والشأن والعمران كانا لجارتها سرمين ، قاعدة هذه الكورة فيما مضى ، وظلت إدلب كذلك ، إلى أن اشتراها (محمد باشا الكوبرلي) في القرن الحادي عشر من الدولة ، وجعلها وقفاً على الحرمين ، وبنى فيها مبان باقية حتى الآن ، كما عمل في جسر الشغر ، ومن ذلك الحين بدأت إدلب تعظم وتتسع ، ويغرس في

برها الزيتون والكرم والتين ، وانتقل إليها عدد كبير من قطان سرمين ، وصارت مركز مديرية تابعة قضاء ريحا ، ثم صارت مركز قضاء ، وجعلت ريحا مركز مديرية تابعة لها .

وفي شماليها على بعد عشرة كيلومتر معرة مصرين ، قرية كبيرة قديمة ، ذكرت كثيراً في التاريخ ، لاسيا في عهد الحروب الصليبية ، اشتهرت بزراعة القطن والزيتون أيضاً ، وشرب أهلها كما في إدلب من الصهاريج ، وكان لها سور قديم دثر ، وفيها خمسة مساجد ، ودار لمديرية الناحية وجنود الدرك ، عدد أهلها ٣٠٠٠ مسلمون بعضهم شيعة ، قال ابن حوقل في القرن الرابع : « معرة نسرين مدينة متوسطة ، وما حولها من القرى أعذاء ، ليس بجميع نواحيها ماء جار ولا عين ، وكذلك أكثر ما بجميع جند قنسرين أعذاء ، ومياههم من السماء » ا هـ .

وفي هذه الناحية قرية كبيرة تدعى الفوعة ، صارت بعد زوال التشيع عقيب انقراض دولة بني حمدان ، وما برحت موطن الشيعة في شمالي الشام ، ومبعث دعاته ، وفي قضاء أعزاز من قرى الشيعة أيضاً النغاولة ونبل . وبعض جبل باريشا الذي تقدم ذكره ، تابع هذه الناحية ، فيه قرى يقطنها الدروز ، أخصها معرة الأخوان .

ومن الأماكن القديمة ، التي لها ذكر في التاريخ ، في قضاء إدلب سرمين ، وهي قرية كبيرة ، عدد سكانها ٢٥٠٠ ، قال أبو الفداء : « سرمين من أعمال حلب ، بلدة ذات أشجار كثيرة ، زيتون وغيره ، وليس لها ماء ، إلا ما يجتمع من الأمطار في الصهاريج ، ولها ولاية وعمل متسع ، وهي ذات خصب ، وأسواق ومسجد جامع ، وليس لها سور ، وهي على منتصف الطريق بين حلب والمعرة » ا هـ . وذكر ابن بطوطة في رحلته : « أن في سرمين يصنع الصابون الآجري ؟ ويجلب إلى مصر ودمشق ، ويصنع الصابون المطيب ، وينسج بها ثياب قطن حسان ، وأهلها سبابون يبغضون العشرة ، ولا يذكرون كلمة العشرة ، ومسجدها تسع قباب ، ولم يجعلوها عشرة قياماً بمذهبهم » . وقال ابن الشحنة : « إنه كان لسرمين سور دثر ، ومساجد كثيرة معمورة بالحجر النحيت ، دثرت ولم يبق سوى المسجد الجامع ، وأكثر أهلها إسماعيلية ، ولهم بها دار دعوة ، ولم يزالوا حتى أزال يدهم الملك الظاهر سنة ٧٦٥ هـ » . قلت : سرمين من البلاد التي أخنى عليها الدهر ، فحرمها عزها الغابر ، فهي بعد أن كانت قصبة الكورة نازعتها إدلب بذلك ، وبعد أن رضيت

ببقائها قصبة ناحية ، وممر قوافل الحجاج والتجار بين حلب وحماة ، نازعتها سراقب بذلك أيضاً ، لما ظهرت المركبات قبلاً والسيارات أخيراً ، وأبعدت الطريق المعبدة إلى الشرق . وليس الآن في سرمين سوى ٢٥٠٠ من السكان كلهم سني لاأثر لغير نحلة فيها . وفي ضاحيتها كثير من الصهاريج والكهوف ، نقرت في الصخور ، أكبرها مقسم إلى أبهاء عديدة ، فيها أعمدة منقوشة ، وعدد مساجدها ستة ، ماعدا أربعة خراب ، وفيها حمامان عامران ، لكل منهما بئر عميقة تصل إحداهما إلى ١٠٥ أمتار ، والثانية إلى أقل ، وفيها سبع خانات مهجورة ، وجامعها ذو تسع قباب كما قال ابن بطوطة ، وهي على صفين ، والمأذنة مربعة الشكل ، مبنية منذ قرن ونصف ، لأن المأذنة القديمة خربت ، ولا يزال حجران أو ثلاثة منها ، فيها كتابات ومراسيم تظهر على جدارها الغربي . ويكثر في سرمين الزيتون ، ثم التين ثم العنب ، وتجود في أرضها الحبوب ، ولا سيما القطن والسمسم ، والبطيخ وغيرها .

وبعد مغادرة إدلب ، تستأنف طريق حلب السير نحو الشمال الشرقي في سهول إدلب الحمراء الشاسعة ، فتجتاز في (الكيلومتر ١٤٣) قرية بنش ، وهي كبيرة عدد سكانها ٢٥٠٠ ، وفيها جامع وعدة مساجد ، وحمام وحوانيت ، وفي جنوبها وعلى بعد ستة كيلومتر منها قرية سرمين ، وقد تقدم ذكرها ، وفي (الكيلومتر ١٤٧) طعوم ، وفي (الكيلومتر ١٥١) تفتناز ، وهنا مفرق الطريق الذاهب نحو سراقب والمعرة وحماة ، وفي (الكيلومتر ١٧١) أورم الصغرى ، حيث ملتقى الطريق الآتية من الأسكندرونة ، وقد تقدم وصفها وذكر تتمتها حتى حلب (في الصفحة ٧٦) ، ومن أورم الصغرى إلى حلب ٢٧ كيلو متراً .

طريق جسر الشغر ـ قلعة المضيق

(٤٥ كيلو متراً)

هذه طريق لاحبة صالحة لسير السيارات في الصيف فقط . يسير الخارج من جسر الشغر في طريق اللاذقية ـ حلب المعبدة ، وبعد خمسة كيلو متر عند ضيعة فريكة التي تقدم ذكرها ، يتملى بمشاهدة سهل الغاب العظيم الذي ينساب العاصي في وسطه ، ويلمح في الغرب في الجبل المقابل قرية إشتبرق المار وصفها ، وغاني والشيخ سنديان ، وهذه على حدود حكومة اللاذقية ، وثمة في وسط الغاب على العاصي قرى الكفير وقرقور والزيارة . وقرقور هي Quarquaron التي ذكرت في تواريخ الآشوريين بحدوث معركتين فيها ؛ الأولى سنة ٨٥٤ ق . م في عهد سلمنازار الثاني ؛ والثانية سنة ٨٢٠ ق . م في عهد سرجون الثاني ، انتصرت فيهما الجيوش الآشورية على جيوش ملوك الشام المتحالفين .

وبعد فريكة يودع السائر طريق حلب المعبدة عند مفرق بينها وبين ضيعة تدعى سللي ، وينحرف إلى الجنوب فيدخل سهل الروج من غربيه ، ويمر بأرض قرية الزيادية ، ثم بأرض قرية قسطون في (الكيلو متر ١٦) ، وهذه تعد من أخصب قرى الروج وأكثرها غلالاً ، وكان فيها حصن قال عنه ياقوت « قسطون حصن كان بالروج من أعمال حلب ، نزل فيه أبو علي الحسن العقيلي في سنة ٤٤٨ هـ ، فاستولى عليه وخربه » ا هـ . قلت : ثم رممه الصليبيون واتخذوه من حصونهم الأمامية ، إلى أن استولى عليه نجم الدين إيلغازي ودكه .

وبعد قسطون ينتهي سهل الروج ، ويدخل السائح سهل الغاب ، متتبعاً الرصيف اليوناني الروماني القديم ، وهو صنع الذين بنوا مدينة أفامية ، ومدوه منها إلى أنطاكية فاستانبول ، ولا تزال أحجار هذا الرصيف وأمياله ماثلة للعيان ، في مواضع كثيرة من سهل الغاب ، تغيب تارة وتظهر أخرى ، فتسير في أعضاد جبل الزاوية ولا تفارقه ، وترى عليه كثيراً من جلاميد الصخور المتدحرجة بفعل العوامل الطبيعية على كر

الدهور . وأعضاد جبل الزاوية وفرعه الجنوبي المسمى شحشبو[1] واقفة كالجدار شرقي سهل الغاب ، كما أن جبال النصيرية التي كان يدعوها الرومانيون برجيليوس ، ودعاها أبو الفداء جبل الخيط واقفة في غربيه .

سهل الغاب : أما المستنقعات والآجام التي أشار إليها (أوليا جلبي) (ص ١٩) ، فهي بطائح سهل غاب أفامية وأدغاله ، وهذه تنقلب في فصل الشتاء إلى بحيرة عظيمة ، كانت تدعى بحيرة أفاميا ، تحصل من نهر العاصي الذي لا يجد متسعاً عند قرية قرقور وما بعدها ليجري براحة في زمن طغيانه ، ثم من الأنهر والينابيع الكثيرة التي تنبجس من سفوح الجبال المحيطة بذلك السهل من الشرق والغرب . وبحيرة أفاميا مابرحت كما وصفها أبو الفداء « يحيط بها القصب والصفصاف من كل جانب ، وفي وسطها غابة من القصب والبردي ، وبها من أنواع الطيور مثل الثمات « مثلثة الثاء » والغريرات ، والبجع والأصواغ ، والأوز والطيور آكلة الأسماك ، أمثال البحلط والأبيضانيات ، وغير ذلك من طيور الماء . وفي الربيع ينبت فيها النيلوفر الأصفر حتى يغطي مجموعها » ا هـ . وقال القلقشندي في صبح الأعشى (٤ / ٨٤) : « بحيرة أفامية ، وهي عدة بطائح في الغرب بميلة إلى الشمال عن أفامية ، بين غابات من القصب ، يصب فيها النهر العاصي من جهة الجنوب ، وبها بحيرتان جنوبية وشمالية يصاد فيهما السمك ، فالجنوبية منهما بحيرة أفامية المذكورة ، وسعتها بالتقريب نحو نصف فرسخ ، وقعرها قريب قامة ، وأرضها موحلة لا يقدر الإنسان على الوقوف فيها ، وبوسطها جم قصب وبردي ، وحولها القصب والصفصاف ، وبها من أنواع الطير مالا يحصى كثرة ، وينبت فيها في زمن الربيع اللينوفر الأصفر ، حتى يستر الماء عن آخره بورقه وزهره . والبحيرة الشمالية من عمل حصن برزوية بقدر بحيرة أفامية بأربع مرات ، ووسطها مكشوف وينبت اللينوفر بجانبها الجنوبي والشمالي ، وبينها وبين بحيرة أفامية المذكورة زقاق ، تسير فيه المراكب من إحداهما إلى الأخرى ». قال في (تقويم البلدان) : ويعتبر طول هذه البطائح وعرضها بأفامية» ، وقال شيخ الربوة : « بحيرة أفامية بحيرة كبيرة يدخلها العاصي ويخرج منها ، ولها سكر

---

(١) نسبة لقرية ذكر ياقوت في معجمه أنها من قرى أفامية ، وليس لها الآن أثر ، بل هناك قرية اسمها بمربو ، أما اسم شحشبو فلا يزال يطلق على الجبل .

يصاد فيه نوع من السمك شبيه بالحيات يسمى إنكليس ، لحمه شبيه بالإلية المشوية ، وللناصري (لعله يعني الملك الناصر محمد بن قلاوون) فيه رغبة عظيمة ، يحمل في المراكب إليهم (كذا) داخل البحر ، ضمانه في السنة نحو ثلاثين ألف درهم » . وقال في موضع آخر : « بحيرة أفامية يشقها العاصي ، ولا يلتقي أحدهما بالآخر ، وفيها من السمك الإنكليس والسلور ما لا يوجد بغيرها » ا هـ .

ومن الغريب أن جغرافيي العرب ، كياقوت وشيخ الربوة وأبي الفداء والقلقشندي اكتفوا بوصف بحيرة أفامية ، ولم يذكروا اسم سهل الغاب ولا وصفوه ، حتى أنه لم يرد في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ إلا مرة ، (طبع جامعة برنستون صفحة ٢١٨) في حكاية (انهزم فيها السبع إلى الغاب) ولم أفهم أي غاب كان يعني ، لأنه ذكر هذا السهل في موضع آخر (ص ٥٨) باسم مرج أفامية ، وأنه استاق منه غنيمة كبيرة من الجواميس والبقر والغنم . أما كتبة الفرنج فقد قالوا : إن سهل الغاب كان في زمن السلوقيين مجففاً ، يزرع ويستثمر ، وأن (استرابون) أطنب بخصبه ووفرة غلاله ، وبما كان يربى فيه من قطعان الجواميس والخيل ، وأن القدماء أقاموا فيه سدوداً وحفروا خنادق ، لمنع طغيان العاصي ، ذكر السائح الإفرنسي (كيليوم راي) أنه شاهد منها في سنة ١٨٦٠ م سداً له فتحات . وفي جنوبي الغاب ووسط مياهه ضيعة تدعى الخندق ، في جوارها خندق قديم كان خاصاً بتصريف المياه نحو العاصي ، وكانت برزية تفترق عن أفامية ببحيرة تحصل من سد ، على النحو الذي ذكره أبو الفداء ، فيما ننقله عنه في وصف برزية .

هذا وقد درس مهندسو الإفرنج في زمننا مشروع تجفيف الغاب ، وتنظيم طرائق ريه ، وإعداده للحرث والزرع ، ولا يعلم متى يمكن البدء بالعمل . قال أحدهم في سنة ١٣٤٤ هـ ما خلاصته : « بعد أن يجتاز نهر العاصي حماة ، يجري في واد يختلف سعة وضيقاً بين مكان وآخر ، ثم يسيل في مضيق عميق الغور ينفرج فجأة في بدء سهل متسع يبدأ من قلعة شيزر ، وعلى بعد عشرة كيلو متر من هذه القلعة ، يصبح السهل مستنقعاً ويدعى (الغاب) ، وهو يبدأ من قرية تل سلحب ، وينتهي قرب قرية قرقور ، وطوله ستون كيلو متراً وعرضه عشرة كيلو متر ، ومساحته ٦٠٠٠٠ هكتار ، وأرضه تتألف من تربة عميقة ، ينساب العاصي فوقها ، محاطاً بالمستنقعات الكثيرة ، وهي في الضفة اليسرى أكثر

منها في اليمنى . لكن هذه التربة تصبح بعد قرية قرقور ، مؤلفة من صخور البازلت (الحرة) ، فيعود العاصي للجري في واد ضيق تحيط به الجلاميد العظيمة العالية . يبقى العاصي هادئاً ، سالكاً مجراه خلال أشهر الصيف ، فإذا جاء الشتاء يرتفع مستواه ، فيطفو على الأرضين المحيطة به ، وهي مساوية له في الارتفاع ، فيغمرها إلى مسافات بعيدة ، ناهيك بالأمطار التي تهطل هنا أي تهطال ، والسيول التي تتساقط من الجبال المجاورة ، والينابيع التي تنبجس من سفوحها .

وتجفيف سهل الغاب واستثماره حسب الأساليب الزراعية الحديثة مشروع عظيم ، ينفع بلاد الشام ويدر عليها أرباحاً جزيلة ، لأن أرضه مؤلفة من طمي البازلت المعروف بخصبه ووفرة مواده الغذائية . ولأجل ذلك ينبغي منع فيضان العاصي عليه ، ثم تجفيفه بإقامة مجار كثيرة للصرف ، ثم ريه خلال أشهر الصيف بشبكة من القنوات . ففيضان العاصي يمنع بتعميق مجراه ، وإقامة جدرانه ، وتخفيض السد الموجود أمام قرية قرقور ، ولا صعوبة في هذا العمل ، لولا أنه كثير النفقات ، ويقام سدان عظيمان من التراب على ضفتي العاصي ، يبعد الواحد عن الآخر ٤٠٠ ـ ٥٠٠ متر ، حتى إذا ماطغى العاصي كان للماء من سعة الأرض بين السدين ، مايحول دون انهدامهما ، ويحفر في جانبيهما الأيسر ، وفي قاعدتيهما خنادق ، أو مصارف للمياه المنصبة من السهل ، فتوصلها إلى العاصي في نقاط مناسبة منه . وقد حسبوا كمية مياه العاصي في أوائل الخريف بالأمتار المكعبة وفي الثانية ، فبلغت عند خروجه من شيزر ١٨ وفي مصبه عند قرقور ٢٧ ، وتغذي هذه الزيادة الينابيع الكثيرة التي تنبجس من سفوح الجبال ، وتنبع في جوانب السهل ، وأهمها نبع (باب الطاقة) في الضفة اليمنى ، فإن قوة مائه لاتقل عن المترين المكعبين في الثانية ، هذا وليست الأراضي القابلة للري منحصرة في سهل الغاب ، بل هناك سهول واسعة تمتد من قلعة شيزر على ضفتي نهر العاصي ، يسهل ريها ، فيقام لهذه الأراضي في زور (التريسة) سد قليل العلو ، يسقي قناتين ، الواحدة لري أرض الضفة اليمنى ، والثانية لري الضفة اليسرى ، وطول كل منهما ٧٥ كيلو متراً ، ثم يبنى في نقاط مختلفة ، وعلى طول هاتين القناتين مآخذ يجري الماء منها إلى قنوات ثانوية ، ومن هذه إلى قنوات التوزيع على الحقول ، فيصبح الغاب مخترقاً بشبكة من القني ، تسوق الماء إلى مختلف مواقعه وأراضيه ، وما فاض منها يصب في العاصي أمام قرقور . والمساحة الممكن ريها بعد إتمام هذا المشروع

الكبير ، تقرب من تسعين ألف هكتـار ، وهي تنتج أحسن الغلال من القطن وغيره لـزكاء التربـة كما أسلفنـا ، وغزارة ميـاه الري ، وجودة الإقليم ، إذ السهل لا يعلو عن سطح البحر أكثر من ٢٠٠ متر ، وجبال النصيرية تدرأ عنه الرياح الغربية » ا هـ .

صيد السلور : أمـا صيـد السلور فقـد ذكره من مؤرخي العرب ابن الشحنـة وابن العـديم ، في تـاريخيهما البـاحثين عن حلب ، وشيخ الربـوة والقلقشنـدي فيما نقلنـاه عنهما ، وذكره من مؤرخي الإفرنج (كودفروا دوبـومبين) في كتـابـه (الشـام في عهـد المماليـك) وكلهم متفق على مكانة صيـد السلور . ويظهر ممـا ذكره أبو الفـداء ، أن ضمان هـذا الصيـد عمل قديم ، فقد قال (٣ / ١٩٦) « إنه في سنة ٦٥١ هـ سمح الملـك الظـاهر يوسف الأيوبي صاحب دمشق لأحد أبناء أعمامه ، الملك النـاصر داود صـاحب الكرك ـ وكان نـاقماً عليـه ومضطهده ومعتقلـه في قلعـة حمص ـ بريع بحيرة أفـاميـة وغيرهـا ، مقـدراً ذلـك بمئـة ألف درهم ، فلم يحصل للنـاصر داود من ذلـك إلا دون ثلاثين ألف درهم » ا هـ . قلت : وصيـد السلور مورد عيش لأهل الغـاب ، يرتزق بـه عـدد وفير منهم ، وهو أيضـاً ريع للحكومـة لا يستهان به ، ناهيك عن أن السلور غذاء نافع ولذيذ .

وهذا السلور لا يوجد في مجاري العـاصي في حمص أو حمـاة ، بل هو خـاص ببحيرات الغاب والروج والعمق وينابيعهما . وفي الغاب عدة أمـاكن ذات ميـاه دافئـة ، يلجـأ إليهـا السلور حينما يقرس الشتـاء وتبرد ميـاه العـاصي فيصـاد ، وكلمـا قرس البرد جـاد الصيـد ، والعكس بالعكس . وأجل أماكن الصيد في الغاب هي بحيرتـا الشريعـة والتويني ، اللتـان تحدثان من فيضان العاصي ، ونبع باب الطـاقـة الـذي ينفجر من حضيض جبل شحشبو ، يليـه عين حواش في الضفـة الشرقيـة ، التي تنفجر أيضـاً من حضيض جبل شحشبو ، ونبع الجراس وناعور شطحة اللذان ينفجران في الضفة الغربية ،من حضيض جبال النصيرية .

وطريقة استثمار السلور في عهدنا ، تكون بأن يضمنه ضامن من الحكومة ، لمدة ثلاث سنوات بالمزاد العلني . ومدة الصيد أربعة أشهر ونصف ، تبـدأ في تشرين الثـاني وتنتهي في منتصف آذار . ولا يصاد السلور بعد ذلك لأنه يبـدأ بـالاستفراخ ، وطرائق الصيـد تختلف حسبما تكون في البحيرات العميقة الدائمة ، أو البحيرات الموقتة أو في الينـابيع . ففي الأولى يؤتى بنوتيين من جزيرة أرواد ، لفقـدان أهـل هـذه الحرفـة في الغـاب ، يركبـون زورقين

كبيرين ، للضامن في كل منها تسعة نوتية ، يمدون شبكة كبيرة طولها مئة متر تدعى جارووف ، وفي الثانية يستعملون زهاء مئتي زورق صغير ، طول الواحد ثلاثة أمتار في عرض متر ، وقعره مستو يدعى الجرف ، يسيرون به دفعاً بعصا طويلة ، يركب في كل منه صيادان من أهل الغاب ، يلتقط أحدهما السلور شكاً بحربة قصيرة ، ويدفع الثاني الجرف ، ثم يتبادلان العمل ، والصيد يجري في الفجر أو بعد الغروب بقليل ، لأن قطعان الجواميس التي ترعى في مياه الغاب ، تخيف أسماكه وتضطرها للاختفاء . وفي الثالثة وهي أبسطها تجري في الينابيع المتفجرة من أسفل الصخور كما في باب الطاقة ، يقف الصياد على بعد بضعة أمتار من الشاطئ ، حاملاً بيده نصاب من القصب ، طويل في رأسه مذراة ، ذات ثلاثة أسنان مستقيمة أو منحرفة ويصطاد بها ، يساعده على ذلك صفاء الماء وكثافة جموع السلور . وإذا اصطيد السلور بإحدى الطرائق المذكورة ، يقطع رأسه فوراً لأنه مستكره ، ويحمل ويسلم إلى الضامن . وهذا الصيد يشغل نحو سبعمئة عامل في موسمه ، وقد يصطاد أحدهم في المواسم الباردة ٢٠ ـ ٣٠ رطلاً في النهار ، ويختلف سعر السلور حسب سعر اللحم ، وهو يباع في أول الموسم الرطل بأحد عشر قرشاً ذهبياً ، ثم يهبط إلى ثمانية ، ثم إلى ستة وأقل . وتختلف المدن الشامية بكمية ماتستهلكه منه ، قيل إن حمص تستهلك في المئة ٤٥ ، وحماة ١٠ وحلب ٣٠ ودمشق ١٠ وزحلة ٣ وبيروت ٢ ، ويحمل السلور في الغالب إلى حماة ، ومنها يرسل إلى البلاد ، ضمن أخراج كبيرة معمولة من الأسل . وقد خسر الضامن الذي كان في سنة ١٩٢٦ م = ١٣٤٤ هـ بسبب الثورة الشامية (٤٥٠٠) ليرة ذهبية ، وربح سنة ١٣٤٥ هـ (٦٠٠٠) ليرة ذهبية ، وفي سنة ١٣٤٦ هـ (١٠٠٠) ليرة ذهبية ، فمتوسط أرباح السنين الثلاث كانت ٢٥٠٠ ليرة ، وتتابعت الخسائر بعد ذلك ، بسبب الأزمات المالية العامة وشح الأمطار . ومن الغريب أن النصيرية والإسماعيلية لا يأكلون السلور قط .

جبال النصيرية المشرفة على الغاب : وجبال النصيرية المشرفة على سهل الغاب من علو ١٦٥٠ متراً فما دون ، تنحدر نحوه بميل سريع ، فتؤلف بقاعاً جبلية ، تسمى بأسماء مختلفة ، نسبة لسكانها كجبل الأكراد (غربي جسر الشغر) ، وجبل دريوس وجبل العمامرة ، وجبل النواصرة وجبل بودي ، وجبل القراحلة وجبل القدموس ، وجبل الكلبية وغيرها . وتؤلف هذه الجبال في ذرواتها العليا بقعة وعرة يدعونها الشعرة ، فيها وهاد

سحيقة وعقبات كأداء ، تزينها غابات غير كثيفة من مختلف الأشجار والأنجم ، وتسرح فيها النمور والدبب ، والذئاب وبنات آوى وقطعان الخنازير البرية يقصدها غواة الصيد منذ القديم . وفي حضيض هذه الجبال على سيف الغاب ، مما يتبع قضاء صهيون من أعمال حكومة اللاذقية ضياع صغيرة كالسنديانة وسرمانيا ، وقلعة برزية وعين الحمام ، وفريكة ونبول ، وشحطة وأستركي .

وصف أبو الفداء برزية وقلعتها فقال : « حصن برزية من جند قنسرين ، قلعة صغيرة في ذيل الجبل المعروف بالخيط من شرقيه ، مطلة على بحيرات فاميا ، ويتصل بها مياه البحيرات والأقصاب إلى تحت برزية ، وليس بها كائن ساكن ، إلا المرتبون لحفظ القلعة ، ويعتصم بها أهل البلاد في أيام الجفل ، وهي عن فامية في جهة الشمال والغرب على نحو مرحلة في الماء ، فإن بحيرات فامية واقعة بينها ، وبرزية في جهة الجنوب عن الشغر ، وبكاس على مرحلة قوية » اهـ . قلت : هذه القلعة قديمة ، تعاورتها أيدي السلوقيين والرومانيين ، والحمدانيين من المسلمين ، ثم الصليبيين إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤ هـ واستخلصها ، هي وسرمانية من أيدي الصليبيين ، ولا تزال أكثر أبراجها ذات الشكل المربع سالمة ، وكذا أسوارها وشرفاتها وعقودها . وكذلك في حضيض هذه الجبال على سيف الغاب مما يتبع قضاء مصياف ، ضياع مرداش وعين الكروم ، وعناب وبلونة ، والجورة وقلع الشيخ ملوخ ، وفقرو ورشة ، وكل سكان هذه الضياع نصيرية ، تحيط بهم الحراج الغبياء ، وتتدفق من سفوح جبالهم ينابيع عذبة باردة ، أخصها في الشمال عين الحمام وعين جورين وعين سلمو ، وفي الجنوب مما رأيته وشربت من بعضه في صفر سنة ١٣٥٣ هـ ، نبع الطيب ونبع السوس ، والفوار وعين الجراص ، وثمة نهير يدعى البارد عند قرية رشة ، وآخر يدعى تل سلحب عند قرية تل سلحب ، يصب في العاصي ، وقلع الشيخ ملوخ المذكورة ، واقعة قرب عين الجراص ، وقد لاح لي أنها مكان حصن الجراص ، الذي استخلصه أبو الحسن علي بن منقذ من الروم ، قبل أن يستلم منهم شيزر في سنة ٤٧٤ هـ . هذا وفي الطرف الغربي المطل على البحر من هذه الجبال ، قلاع تاريخية ذكرت في وقائع الصليبيين ، منها عيذو وقد تقدم ذكرها ، وصهيون والمهيلبة (بلاطنس) ، وهذه ذكرها ياقوت هكذا : أفلاطنس وقال : « إنها حصن عال منيع في جبل وهرا غربي حلب » ، وذكر عيذو فقال : « قلعة بنواحي حلب » . قلت : وبعد أن

بقيت جبال النصيرية هذه في السنين الخالية في منعزل ، لاتنالها أيدي الجيوش إلا بالعناء ، لوعورة مسالكها وجلفة أهلها ، ذللت في العهد الأخير صعابها ، ومهدت بعض شعابها ، وجعل في بعض قراها المرتفعة الجيدة الهواء والماء والمنظر كصلنفة ، أماكن للاصطياف والقصف على الطراز الحديث .

والنصيرية عرفوا بهذا الاسم منذ القرن السادس والسابع ، وهم ذوو عقائد وعوائد خاصة ، يضيق نطاق بحثنا عن الخوض بها ، لم تحسن سياستهم في القرون الغابرة ، ولم تستعمل الحكمة والموعظة الحسنة في إرشادهم ، حتى ظلوا في ناحية من الحظيرة القومية ، وهم يقطنون في أنحاء كيليكية والأسكندرونة وأنطاكية ، كما قدمناه في أبحاثها ، وفي جبال اللاذقية وطرابلس ، وأوعار حماة وحمص وسهولها الشرقية ، لاسيا في القرى الخاصة بدولة الشام (قرى أملاك الدولة) شرقي سلمية وحمص ، ومنهم فئة قليلة في صالحية دمشق وجنوبي قضاء دوما ، وفي قرى : عين فيت وزعورة وغجر في غربي قضاء القنيطرة . وقد عطفت عليهم الدولة المنتدبة بعد دخولها ، وأسمتهم (العلويين) وجعلت لبعض نبهائهم مناصب ووظائف ، وجندت كثيراً من شبانهم في جيشها المرابط في بلاد الشام ، لكن مابرح سوادهم الأعظم في غاية من الجهل والبؤس ، والانقياد الأعمى لكبرائهم ذوي الزعامة الزمنية ، ومشايخهم ذوي الزعامة الروحية ، وهؤلاء يستثمرون فطرة أتباعهم ، فيرهقونهم بمختلف الخدمات والأتاوات . ومعظم النصيرية مزارعون لدى كبار أو صغار الملاكين من السنيين أو النصارى ، في ألوية اللاذقية وحماة ، وحمص وطرابلس ، وهم ينقسمون إلى قبائل شتى ، النسبة في أسمائها إما إلى أشخاص منهم معروفين عندهم ، أو إلى قرى وأماكن معروفة في أرضهم ، وهذه القبائل ترجع إلى أربعة أصول كبيرة ، وما عداها فروع منها ، وهي الخياطون والحدادون ، والكلبية والمتاورة ، فالخياطون يقطنون في الغالب في قضائي صافيتا وبانياس ، والحدادون في قضائي جبلة وطرسوس ، والمتاورة في قضائي صافيتا ومصياف ، وأجل الفروع شأناً : بنو علي والقراحلة ، والنواصرة والرشاونة ، والرسالنة والعمامرة ، والمهالبة والدراوسة ، والمحارزة إلخ .. ، ومهما يكن ، مابرح الأمل عظيماً في رجوع هذه الطائفة الباسلة إلى الحظيرة القومية ، كلما زاد عدد متعلميها ومثقفيها ، كما هو الحال في بقية الفرق الإسلامية .

ضياع الغاب : في سفح جبل الزاوية على سيف الغاب الشرقي ووسطه ، ضياع عديدة يراها السائح عن كثب ، وهو سائر فوق الرصيف اليوناني الروماني ، الممتد من أنطاكية إلى أفامية ، أو يمر بطرفها . وهي بعد قسطون قليدين في (الكيلومتر ٢٤) ، والعنقاوي في (الكيلومتر ٢٦) ، والعمقية في (الكيلومتر ٢٨) ، وحواش في (الكيلومتر ٢٩) ، ثم الحويجة والحويز . وأهل هذه الضياع أعراب يقيمون في أخصاص من القصب ، يزعمون أن جدودهم جاؤوا إلى هنا من بطائح الفرات في العراق . وفي شرقي هذه الضياع في ذرى جبل الزاوية ومرتفعاته ، ضياع منها : قوقفين وسفوهن ، وفليفل وجب سليمان ، والقدادين وكوكبة ، وشبللين وغيرها . ثم يمر السائح في الغاب بضياع سكانها من أولئك الأعراب أيضاً ، منها العريمى في (الكيلومتر ٣٨) ، والجماسية والشريعة في (الكيلومتر ٤١) والتويني في (الكيلومتر ٤٣) ، والأخيرتان من أجل مراكز صيد السلور كما قدمنا . ثم يصل في (الكيلومتر ٤٥) إلى قلعة المضيق أو حصن أفامية . وفي غربي الحويز ، في وسط بحيرات الغاب ضياع أخرى ، لا يراها السائح لبعدها ، تكون في أيام الفيضان كالجزائر ، لا يوصل إليها إلا بالجروف المستعملة لصيد السلور ، منها الجيد والرصيف ، والقريم والخندق والشجر ، وسكان هذه الضياع نصيرية . وإن أنسى لأأنسى سفرتي إلى الجيد والرصيف ، مع بعض موظفي قضاء المعرة في ربيع سنة ١٣٥٠ هـ ، وركوبنا عدداً من الجروف ، كانت تمخر بنا تلك البحيرات الشاسعة ، في أزقة مشقوقة وسط أدغال من القصب والأسل ، المرتفعين كأشجار الحراج ، والنيلوفر الممتد كالبساط ، بورقه الضخم المدور وزهره الجرسي الأصفر ، وكنا لاندري ، لتعرج تلك الأزقة وضيقها ، ووحشة منظرها كيف يسار بنا ، وهل يتاح لنا سلامة الرجوع إلى اليابسة ، وكنا نصادف أحياناً قطعان الجواميس السوداء السابحة ، يقودها راع راكب جرفاً ، أو معتلي ظهر جاموسة ، وهيئة وجهه المكتئب وشعره المسترسل ، أوحش من هيئة رعيته ، وأحياناً نصادف أسراباً وأفراداً من طيور الماء ، التي ذكرها القلقشندي ، وكل منها في طول وشكل ولون مختلف ، وقد حسبت نفسي إذ ذاك ، كرواد ينابيع النيل ، أو ماخري بحيرات خط الاستواء في أواسط أفريقية ، وكان أهل الضيعتين أو الجزيرتين المذكورتين المنقطعين أشهراً عديدة في السنة عن العمران وأهله ، ينظرون إلينا لما أقبلنا عليهم في دهشة واستغراب ، كما نظر سكان جزائر أميركا المتوسطة ، إلى كريستوف كولومب وجماعته .

وكل ضياع الغاب الواقعة في طرفه أو وسطه ، بيوتها أخصاص حقيرة ، تحيط بها الأدغال والمياه ، وأهلها صفر الوجوه سقام الأجسام من وبال المرتع ، يتنقلون كسكان أواسط أفريقية في الجروف التي ذكرناها ، يرتزقون من تربية الجاموس وصيد السلور وغيره من السمك ، وصيد الطيور المائية التي ينتفون ريشها ويلتقطون بيوضها ، ومن زرع الحبوب الشتوية في الأرض الشرقية المرتفعة عن مستوى الماء ، والذرة البيضاء في الأرض التي تنحسر عنها المياه في الصيف .

تاريخ أفامية : أفامية مدينة قديمة عظيمة ، كان يدعوها مؤرخو العرب تارة باسم فامية وتارة أفامية ، وقد ذكرت في شعر أبي العلاء بالألف ، حيث قال : ولولاك لم تسلم أفامية الردى . قال عنها ياقوت في المشترك : « أفامية مدينة عظيمة قديمة ، على نشز من الأرض ، لها بحيرة حلوة يشقها النهر المقلوب » . وقال في معجم البلدان : « أفامية مدينة من سواحل الشام ، وكورة من كور حمص » اهـ . كان اسم هذه المدينة قديماً (فارناك) ، ثم دعاها الإسكندر المكدوني (بللا) باسم البلدة التي كانت عاصمة أبيه فيليب ، وولد هو فيها ، وبعد موته دخلت في حوزة (سلوقس نيكاتور) مؤسس الدولة السلوقية ، فزاد في عمرانها وتحسينها ، ودعاها باسم امرأته الأميرة الفارسية أباميا ، وجعلها موقعاً عسكرياً مجهزاً بجميع العَدَد والعُدَد ، والمصانع والاصطبلات ، وشاد فيها مدرسة حربية للفرسان ، ولخصب سهل الغاب القريب منها ، ووفرة مراعيه ، ذخر فيها مئات من الفيلة المجلوبة من الهند ، وعشرات الألوف من الجياد والجواميس . وظلت أفامية في عهد السلوقيين زاهية ، بعظمتها وجمالها ، ووفرة سكانها ورفههم ، تحسب الأولى بين مدن الشام الشمالية ، بعد العاصمة أنطاكية ، وفي عهد الرومانيين كانت أفامية قاعدة ولاية سورية الطيبة Salutaris Syria ، أو سورية الثانية ، كما كانت أنطاكية قاعدة سورية الأولى ، ومنبج قاعدة سورية الثالثة ، أو سورية الفراتية . وكانت حدود سورية الثانية تنحدر إلى جوار حمص ، فيلحق بها آراتوسة (الرستن) ، ومريمين ورفانية ، وابيفانيا (حماة) . وظلت أفامية في سعدها الزاهر ، إلى أن جاءها (كيخسرو الثاني) ملك الفرس في سنة ٥٧٣ ميلادية ، فنهبها وأحرقها وسبى أهلها ، وجاءت الزلازل فقضت على ما بقي منها قائماً ، ولم يرتفع لها شأن بعد ذلك ، ولم يبق الدهر من تلك المدينة الجميلة سوى حصنها ، الذي كان مبنياً فوق تل قريب في غربيها ، دعي بعد حين باسم قلعة المضيق .

ولما فتح المسلمون هذه الديار ، شاهدوا أفامية خراباً ، كما هي الآن ، فاكتفوا بحصنها ولم يعمروها قط ، وهم إذا ذكروها عنوا حصنها ، والقرية المبنية داخله . قال البلاذري : « سار أبو عبيدة في سنة ١٧ هـ بعد افتتاح شيزر إلى أفامية ، فتلقاه أهلها بالصلح ، فصالحهم على الجزية والخراج » ا هـ . وسكنها بعد من المسلمين قوم من عذراء وبهراء ، على ما في كتاب البلدان لليعقوبي . وذكر ياقوت حادثة جرت في أيام العباسيين للمتولي عليها ، وكان رجلاً كردياً ، أغرى القرامطة في سنة ٢٩٠ هـ بأهل المعرة ، فقتلوهم قتلاً ذريعاً ، فلما انقلبت الآية وقتل رئيس القرامطة ، عوقب الكردي فهرب ، وألقى بنفسه في بحيرة أفامية ، فقال فيه أحد شعراء المعرة :

تـوهم الحرب شطرنجـاً يقلبهـا ... للقمر ينقل منه الرخ والشاها
جـازت هـزيمته أنهـار فـامية ... إلى البحيرة حتى غـط في ماها

وفي العهد العباسي ظلت تتعاور قلعة أفامية أيدي العباسيين ، ثم ثبتت مدة بيد الفاطميين . وفي عهدهم جرت فيها من الكوائن التي ذكرتها التواريخ ، المعركة التي حدثت في سنة ٣٨٢ هـ بين جيش الفاطميين الذي كان يقوده (منجوتكين) ، وبين جيش الحمدانيين الذي أرسله (سعد الدولة بن سيف الدولة) ، وكانت الدائرة على الحمدانيين . وفي سنة ٣٨٧ هـ وقعت النار فيها ، واحترق ما كان فيها من القوت ، فسار أبو الفضائل ابن سعد الدولة الحمداني صاحب حلب وقاتلها مدة ، ثم رجع عنها لما سار إليها دوقس أنطاكية (داميانوس دالاسانوس) وحاصرها أشد حصار ، فاستنجد الملايطي المقيم بأفامية ، بوالي دمشق (جيش بن الصمصامة) فجاء ومعه ألف فارس من بني كلاب ، ونزل بإزاء عسكر الروم ، وبينه وبينهم نهر العاصي ، ثم التقى الفريقان فانكسر المسلمون بادئ بدء ، وثبت البعض واستولى الروم على كراعهم ، وعطفت بنو كلاب على أكثر ذلك فنهبوه[1] ، ورأى من في حصن أفامية ما أصاب إخوانهم فأيسوا ، قالوا : وكان (الدوقس)

---

(١) بنو كلاب قبيلة من الأعراب ، جاءت من نجد إلى ديار حلب في سنة ٣٥٢ هـ ، وقطنت فيها واستقرت نحو أربع قرون . رددت التواريخ أحداثها ، ووثباتها العديدة ، واستباحتها حمى المعمور ، واشراكها بكل انتقاض ، ونوالها من الغريب والقريب على السواء . إلى اخر ما هو معروف من طبائع أهل البادية في كل زمان ومكان ، ورددت ما جرى بينها وبين سيف الدولة بن حمدان ، وأبنائه ملوك حلب ، نبغ منها صالح بن مرداس ، وأسس في حلب وشمالي الشام دولة بني مرداس ، التي دامت من سنة ٤٠٦ هـ إلى سنة ٤٧٢ هـ ، نقل =

بعد أن تراجع المسلمون ، وعلى رأسه راية ، وبين يديه ولده وبعض مرافقيه ، فقصده أحمد الضحاك الكردي ، على فرس جواد ، فظنه الدوقس مستأمناً ، فلما قاربه طعنه الكردي فقتله ، فانهزمت الروم وتراجع المسلمون ، فركبوا أقفيتهم قتلاً وأسراً ، وألجؤوهم إلى مضيق في الجبل ، (لعله يعني : المضيق الذي في شمالي القلعة) وأسروا ولد الدوقس . وفي سنة ٤٢٢ هـ أقبل الروم ، ومعهم الأمير البدوي حسان بن مفرج الطائي وهو مسلم ، وكان قد هرب إليهم ، حين انهزم على الأردن ، من عسكر الخليفة الفاطمي الظاهر ، فسار مع الروم إلى الشام ، وعلى رأسه علم فيه صليب ، ووصلوا إلى أفامية وكبسوها ، وغنموا مافيها وملكوا قلعتها ، وأسروا وسبوا ، وفي سنة ٤٧٥ هـ دخلت أفامية في حوزة السلطان ملكشاه بن آلب أرسلان السلجوقي ، بعد أن استولى على حلب ، واستلم اللاذقية وكفر طاب ، وشيزر وأفامية ، من الأمير نصر بن علي بن منقذ الكناني صاحب شيزر . وذكروا في أحداث سنة ٤٧٩ هـ ، أن متولي أفامية من جهة رضوان بن تتش السلجوقي ، كان يميل إلى مذهب خلفاء مصر ، فكاتبهم في الباطن في أن يرسلوا من يسلم إليهم فامية وقلعتها ، فطلب الأمير البدوي خلف بن ملاعب الكلابي ، الذي كان طرده تتش السلجوقي من إمارة حمص ، لسوء سيرته ، والتجأ إلى الفاطميين في مصر ، أن يكون هو الذي يرسلونه ليستلم فامية ، فأرسلوه في سنة ٤٨٢ هـ ، وتسلم فامية وقلعتها ، وبعد أن استقر خلع طاعة الفاطميين ولم يرع حقهم ، وأقام بفامية يقطع الطرق ويخيف السبل ، كما كان يعمل في حمص ، فاتفق قاضي فامية وجماعة من أهلها ، وكاتبوا الملك رضوان السلجوقي صاحب حلب ، في أن يرسل إليهم جماعة ، ليكبسوا فامية بالليل ، وأنهم يسلمونها إليهم ، فأرسل رضوان جماعة فأصعدهم القاضي والمتفقون معه بالحبال إلى القلعة ، فقتلوا ابن ملاعب وبعض أولاده ، وهرب البعض واستولوا على قلعة فامية ، ثم سار الفرنج بقيادة (تنكرد)

= القلقشندي عن مسالك الأبصار (٢٣١/٤) وصف هذه القبيلة ، فقال : وهم عرب أطراف حلب والروم ، ولهم غزوات عظيمة معلومة وغارات لاتعد ، ولا تزال تباع بنات الروم وأبناؤهم من سباياهم ، ويتكلمون بالتركية ويركبون الأكاديش (!) وهم من أشد العرب بأساً وأكثرهم ناساً . قال : ولإفراط نكايتهم في الروم ، صنفت السيرة المعروفة (بدلهمة والبطال) ، منسوبة إليهم بما فيها من ملح الحديث ولمح الأباطيل إلخ .. ، قلت : دام ذكر هذه القبيلة إلى أواخر القرن الثامن ، ثم انقطع ، مما يدل على تشتت شملهم ، وانطفاء خبرهم ، واندماج فلولهم في بقية القبائل ، شأن أعراب البادية التي تتغير أسماؤها ، في كل قرنين أو ثلاثة .

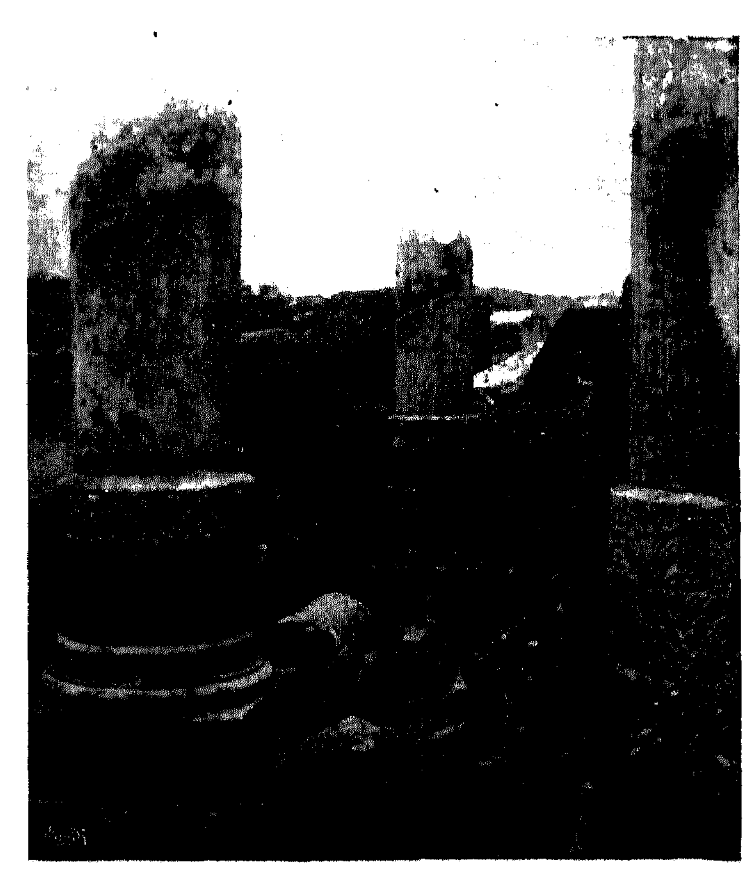
برنس أنطاكية إلى فامية ، وحاصروها وملكوا البلد والقلعة ، وقتلوا القاضي المتغلب عليها (أبو الفداء ٢ / ٢٣١) .

وظلت فامية في يد صليبيي أنطاكية ، وجعلوها من جملة معاقل عاصمتهم هذه ، على ماقدمنا مدة ، يناوشون منها مسلمي شيزر وحماة ، ويناوشهم هؤلاء . وقد ذكر أسامة بن منقذ في كتابه (الاعتبار) ، عدة كوائن جرت له ولأهله حول فامية تثير العجب . ومن أحداث سنة ٥١٧ هـ أن الأمير محمود بن قراجا صاحب حماة ، سار إلى فامية وهاجم ربضها ، فأصابه سهم من القلعة في يده ، فعاد إلى حماة وعملت عليه يده فمات . ودام الحال على هذا المنوال مدة نصف قرن ، إلى أن جاء نور الدين محمود زنكي ، في سنة ٥٠٤ هـ واستخلصها من الصليبيين . قال ابن الأثير في حوادث هذه السنة : « وفيها سار نور الدين محمود زنكي إلى حصن أفامية ، وهو للفرنج أيضاً ، بينه وبين حماة وشيزر مرحلة ، وهو حصن منيع ، على تل مرتفع عال ، من أحسن القلاع وأمنعها ، وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماة وشيزر وينهبونها ، فسار نور الدين إليه ، وحصره وملكه ، وحصنه بالرجال والذخائر ، وكان قد اجتمع الفرنج وساروا ليرحلوه عنه ، فملكه قبل وصولهم ، فلما بلغهم فتحه تفرقوا » ا هـ . وفي الزلزلة الهائلة التي حدثت في سنة ٥٥٢ هـ ، خربت قلعة أفامية ، فيما خرب من بقية الحصون والمدن في شمالي الشام ، فرممها نور الدين ، وإليه ينسب معظم مبانيها . وبعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٨٩ هـ ، استقرت هذه القلعة ومثلها منبج ، وقلعة النجم وبرزية ، وكفر طاب وبعرين ، بيد الأمير عز الدين إبراهيم بن المقدم ، ولما توفي هذا في سنة ٥٩٧ هـ ، استقرت في يد أخيه شمس الدين عبد الملك ، لكن لم يكد يستقر عبد الملك بمنبج ، حتى سار إليه الملك الظاهر غازي ، صاحب حلب في سنة ٥٩٧ هـ ، فاستخلص منه منبج وقلعة نجم قسراً ، واعتقله بعد أن استأمن ، ثم سار إلى كفر طاب فأخذها ، وحاصر أفامية وكان فيها قراقوش نائب عبد الملك ، فامتنع قراقوش ، فأمر الملك الظاهر بضرب عبد الملك ضرباً شديداً ، جعله يستغيث ، فأمر قراقوش فضربت النقارات على قلعة فامية ، لئلا يسمع أهل البلد صراخه ، ولم يسلم القلعة ، فرحل عنها الملك الظاهر ، وتوجه إلى حماة ثم إلى دمشق ، وحاصرهما بشدة لم يفز منها بطائل (أبو الفداء ٣ / ١١٥) ، على أن قراقوش عاد في السنة الثانية ، وسلم أفامية إلى الملك الظاهر ، لقاء إعطاء عبد الملك إقطاعات تعادلها .

ولما زالت دولة الأيوبيين عن الديار الحلبية ، انتقلت قلعة أفامية كغيرها إلى أيدي السلاطين المماليك . ولا يعلم إذا كان جيش هولاكو التتري وصل إليها في ذلك العهد ونال منها . وفي سنة ٦٦٦ هـ جاء الملك الظاهر بيبرس إلى قلعة أفامية ، وجمع جيوشه فيها ، ثم زحف منها إلى أنطاكية واستولى عليها ، وفي أيام الملك المنصور قلاوون ، كانت قلعة أفامية في حوزة الأمير الثائر سنقر الأشقر ، وبعد خروج الصليبيين وزوال الحاجة للدفاع ، لم يبق لهذه القلعة مكانة حربية ، بل ظلت كما هي الآن عبارة عن قرية يعتصم أهلها فيها من هجمات الأعراب والنصيرية ، وهؤلاء كثيراً ما كانوا يغيرون عليها وعلى غيرها من القرى ، أيام الفتن في عهد المماليك والعثمانيين .

وصف أفامية : هذا ومدينة أفامية لاتزال على مافعل بها الفرس خراباً يباباً ، تروع الزائر وتدهشه ، بفخامة أطلالها ، وجمال رسومها وعظمة مساحتها البالغة مئتي هكتار أو أكثر . ففيها : أنقاض سورها القديم ، وكان عليه أبواب لم يبق منها إلا الباب الشمالي ، الذي قنطرته وأطلال البرجين المحيطين به ماثلة . وثمة شارع عظيم مستقيم يمتد من الشمال إلى الجنوب طوله يزيد عن ١٦٠٠ متر ، كان على جانبه صفان متقابلان من الأعمدة الجسيمة ، لاتزال قواعدها أو بعض أقسامها المهشمة ظاهرة ، وهناك شوارع أخرى مستقيمة ، تتشابك في مواقع عديدة مع الشارع الأعظم . وحول هذه الشوارع تجد أينما سرت ، دوراً وقصوراً متهدمة ، وجدراناً متداعية ، وأحجاراً منحوتة مبعثرة ، وقواعد وتيجان أعمدة ، وأعمدة طويلة ضخمة متمددة أو منتصبة ، سطوح بعضها مستوية وسطوح الأخرى مخرمة ، بخطوط مقورة أو ناتئة ، مستقيمة أو حلزونية ، وكلها من الصخر الجيري الأشهب ، الذي قضمه الطحلب ، وفعل فيه كر الدهور .

وقد كانت أفامية في عهد أسامة بن منقذ على هذه الحالة ، إذ يقول في كتابه (الاعتبار صفحة ٤٧) « وسرنا إلى أفامية ، فلقينا فارسهم وراجلهم - يعني الإفرنج - في الخراب الذي لها ، وهو مكان لا ينصرف فيه الخيل ، من الحجارة والأعمدة ، وأصول الحيطان الخراب » ا هـ . وبعد أن ظلت أفامية طول القرون الخالية على هذه الحالة ، طمر التراب معالمها فدفنها ، ومحا النسيان ذكرها أو كاد ، قيض الحظ لها في عهدنا ، بعثة أثرية بلجيكية ، قامت منذ خريف سنة ١٣٤٨ هـ بحفر خرائبها ، فكشفت آثار عديدة ،



الأعمدة المزخرفة في خربة افامية (عن مجلة العاديات الحلبية)

أمكن مجموعها من تخطيط المدينة ، ورسم شارعها الأعظم وبعض مبانيها ، وكشفت طريقة توزيع المياه فيها ، مع بعض الآثار الخاصة بالعبادات . ومما أفاد البعثة في توجيه حفرياتها ، خارطة جوية أخذت من إحدى الطيارات ، فشملت جميع الأطلال ، ومكنت المهندسين من إلقاء نظرة إجمالية على المدينة بكاملها ، وظهرت المدينة على شكل إهليلجي ، يستطيل من الشمال إلى الجنوب ، ويتصل من الغرب بالتل القائمة عليه اليوم (قلعة المضيق) . وكشفت الحفريات الأعمدة المنتشرة على جانبي الشارع الأعظم ، ولم يكن يظهر قبل الحفر إلا رؤوسها ، أو حلقات منها ، وقطر العمود منها يبلغ ١٢٠ سنتيمتراً . وكشفت أيضاً قواعد هذه الأعمدة التي كانت مطمورة على عمق ٣ ـ ٧ أمتار ، فإذا هي مزخرفة بنقوش لطيفة ، على شكل أوراق اللبلاب والخرشوف . ويبلغ عدد الأعمدة الألف على صفين متقابلين ، وطول الشارع بين العمود والآخر ثلاثة أمتار ، إلا عندما تنفرج الأعمدة فتخلي المكان لشارع آخر ، فتتألف ساحة في المفرق ، وعندما تنفرج أمام واجهة الصرح الكبير ، القائم على أعمدة تشبه السابقة . وهذا الصرح من أهم مباني أفامية، لأنه غريب في هندسته اليونانية ، ولم يعرف هل كان معبداً أم قصراً أم دار حكومة . وكشفت أنقاض مسرح روماني ، وركن مزخرف يمثل مشاهد وأشخاصاً تتعلق بعبادة الكرم . وناووس من الحجر عليه نقوش رومانية وغيرها . ومن أجل الآثار التي اكتشفتها البعثة ، قناة الماء الكبيرة الآتية من الشمال من مكان مجهول ، وهي محمولة على قناطر ضخمة وأركان قوية ، ثم تدخل إلى المدينة في نفق مدت فيه أسطوانات ضخمة حجرية ، يبلغ قطرها الداخلي ٥٠ سانتيمتراً والخارجي ٩٠ سانتيمتراً ، والعجيب فيها أنها كلها من الحجر الصلد المحفور ، حتى منعرجاتها وزواياها . ويتفرع من تلك الأسطوانات قساطل فخارية صغيرة ، تتفرع في جميع أنحاء المدينة ، على أسلوب غاية في الإتقان . وهذه البعثة دائبة على العمل في خريف كل سنة ، وعساها تتوفق لإظهار دفائن هذه المدينة التاريخية الجميلة .

أما قلعة أفامية ، فلا تزال فوق تلها الكبير العالي ، تشرف في الغرب على جبال النصيرية ، وعلى سهل الغاب ووادي العاصي ، وفي الشمال على جبل الزاوية ، وفرعه الجنوبي المسمى شحشبو ، ويظهر في إحدى قمم هذا الجبل ، قبة بيضاء قيل إنها مقام الصحابي أبو هريرة ، وتشرف في الجنوب والشرق ، على سهول ناحيتي الطار وخان

شيخون . وكان يحيط بالتل خندق عظيم زال معظمه ، على أنه ليس في هذا الحصن قلعة كبيرة ، كما في حصن شيزر وحصن الأكراد ، بل سور عظيم على هيئة مضلع غير منتظم ، تتخلله أبراج كثيرة مربعة الشكل ، وفي أسفل السور رصيف من الحجارة ، كان التل مصفحاً به ، كما في قلعتي حلب وحمص وغيرهما . وقد خرب القسم الغربي من السور ، كما أن المباني التي كانت تعلوه دثرت بالكلية . وفي شمالي القلعة برج جميل البناء ، في وجهه القبلي كتابة تحوي اسم الملك الظاهر غازي صاحب حلب تاريخها ٦٠٤ هـ ، وفي قبليه باب كبير ذو قنطرة يدخل منه إلى القلعة ، يحرسه برجان متقاربان ، وعلى الباب كتابة تحوي اسم الملك الناصر يوسف صاحب حلب ، وهو حفيد الظاهر غازي تاريخها ٦٥٤ هـ . وهاتان الكتابتان ، وفقدان كل أثر للسلوقيين والصليبيين ، وشكل الأبراج المربعة وأقسامها الداخلية ، والأعمدة التي حشيت في عرض جدرانها ، وشكل برجي الباب اللذين يؤلفان ما يسمى في كتب العرب باشورة ، كل ذلك يدل على أن بناء هذا الحصن عربي صرف ، وكذلك طراز هندسته ، وهو من آثار نور الدين محمود بن زنكي ، والأيوبيين من أعقاب صلاح الدين حكام حلب . هذا والقرية التي في داخل الحصن كبيرة ، يبلغ عدد سكانها نحو ألفين ، حافلة بالدور المبنية من أنقاض السور والأبراج وخرائب أفامية ، وأهلها يصعدون وينزلون كل يوم إلى مزارعهم ومراعيهم التي في أسفلها وجوارها ، ويشربون من الينابيع التي في سفح التل ، وشأنهم في الهزال واصفرار الوجوه ، شأن بقية قرى الغاب إلا قليلاً . وفي خارج الحصن على مقربة من بابه القبلي ، جامع صغير حسن البناء ، مستطيل الشكل في وسطه قبة ، وعلى طرفيه عقدان ، وفي غربيه مأذنة جميلة بيضاء ، ويدل بناء هذا الجامع على أنه عثماني ، وقد أصبح الآن خراباً مهجوراً ، وفي أسفل الجامع خان عظيم خراب ، من آثار الوزير العثماني سنان باشا الشهير[1] ذو فناء واسع وأقبية معقودة كبيرة ،

---

(١) ترجمه المحبي في خلاصة الأثر فقال : « سنان باشا صاحب الآثار العظيمة في البلاد ، من جملتها الجامع المنسوب إليه في دمشق خارج باب الجابية ، والحمام والسوق المتفق على وضعهم ودقة صنعهم (كذا) ، وله مثل ذلك في كل من القطيفة وسعسع ، وعيون التجار وعكة ، مع خانات ينزلها المسافرون ، وله ببولاق جامع عظيم ، ومثله باليمن والقسطنطينية ، وغيرها من البلاد جوامع ومساجد ، ومدارس وخانات ، وحمامات تنيف على المئة ، وبالجملة فهو أكثر وزراء آل عثمان آثاراً ونفعاً ، وولي الحكومة بمصر في زمن السلطان سليم بن السلطان سليمان ، وتولى الوزارة العظمى عدة مرار ، إلى أن توفي في آخر مرة في سنة ١٠٠٤ هـ » . وقال في خطط =

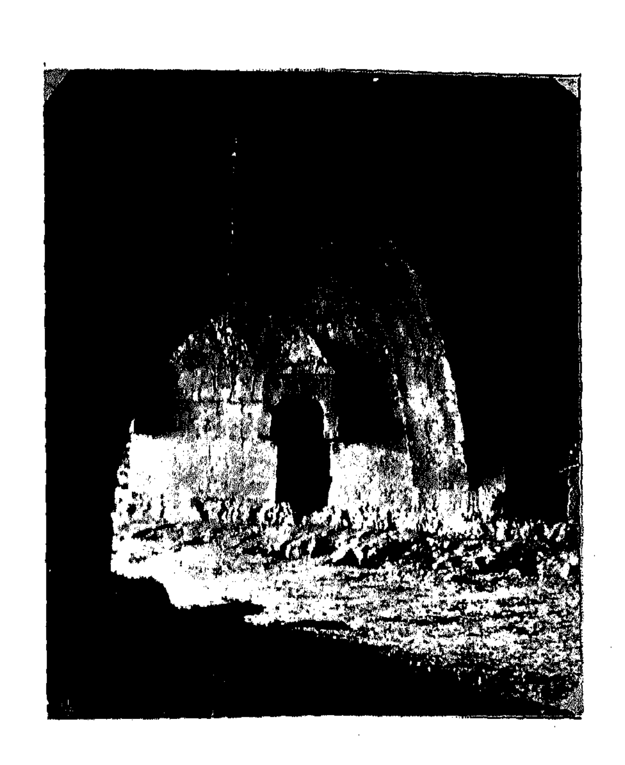
في جدرانها مداخن متقنة ، كانت تأوي إليه قوافل التجار والحجاج ، القادمة من أنطاكية إلى حماة وما وراءها . وقد صار الآن مأوى للغنم في الشتاء ، ولصناع الأواني الخزفية في الربيع . وقد اتخذت قرية قلعة المضيق قاعدة ناحية ، ألحقوها في السنين الأخيرة بقضاء المعرة ، بعد أن كانت تابعة قضاء جسر الشغر ، تتبعها القرى التي تقدم ذكرها في بحث سهل الغاب . ولا يعرف العهد الذي تبدل فيه اسم حصن أفامية ، وهو المصطلح عليه في عامة التواريخ القديمة ، فصار قلعة المضيق ، ولم أعثر في كتبنا القديمة على كلمة المضيق إلا عرضاً ، في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ، عند ذكره الموقعة التي جرت حول أفامية في سنة ٣٨٧ هـ ، لما حاصرها الروم وضايقوا أهلها ، وجاء جيش بن الصمصامة والي دمشق لاستخلاصها ، فكسر الروم وقتل ملكهم ، قال : « وكانت الوقعة في مرج أفيح ، يطيف به جبل يعرف بالمضيق ، لا يسلكه إلا رجل في إثر رجل ، ومن جانبه بحيرة أفامية ونهر المقلوب ، فلم يكن للروم مهرب في الهزيمة » ا هـ . فيظهر من ذلك ، أن سهل الغاب كان يدعى (مرج أفامية) ، وقلعة المضيق (حصن أفامية) ، والوادي الضيق المنحدر المحصور بين آخر عضد من جبل شحشبو ، وتل القلعة الذي ينفذ منه السائر إلى سهل الغاب (المضيق) ، ونهر العاصي (النهر المقلوب) .

= الشام (٢ / ٢٤٣) : « وسنان باشا فاتح اليمن ، كان من العتاة الطغاة ، أنشأ هذه المعاهد الخيرية التي تقدر نفقاتها بمليوني ليرة ، بالأموال التي كان يستصفيها ، بقتل الأنفس وتخريب البلاد » ا هـ . وعندي أنه ـ على علاّته ـ كان أنسب بقية الوزراء الذين خربوا ونهبوا ، وذهبوا دون أن يأتوا بعمل ما .

طريق قلعة المضيق - قلعة شيزر

(٢٧ كيلو متراً)

بعد قلعة المضيق ، يجتاز السائح وادي الجفار ، ويتجه جنوباً فيغادر ولاية حلب ، ويدخل ناحية الطار ، من أعمال لواء حماة التابع ولاية دمشق ، ويمر في سهول بعيدة الأطراف ، لا شجر فيها ولا حجر ، ذات تلعات متموجة ، وتلال بعثرت فيها ضياع أو ضويعات ، بيوتها أخصاص ، وحولها كثير من مضارب الأعراب ، كالجرنية وحيالين ، وجاملة وتل ملح ، ويرى على يمينه على سيف الغاب الصقيلبية ، ذات الدور البيضاء ، وهي كبيرة وأهلها روم أرثوذكس ، يبلغون الألفين ، ويشبهون النصيرية بلهجتهم وأزيائهم ، وجمال نسائهم ، وقد اشتهرت حنطتهم بالجودة ، تتخذ للبذر في أكثر الديار الحموية ، قاوم أهلها العصابات التي كانت تحارب الجند الإفرنسي في سنة ١٣٤٠ هـ فنهبوها ، وثمة من الضياع : صلبا والعونية وكفر يهود ، وعلى العاصي : عمورين والعشارنة ، والتريمسة أو تل الترمسي كما قال أسامة ، وفي العشارنة على العاصي ، يجتازه قاصدو جبال الكلبية وقراها ، وطاحونة وناعورتين ، تسقيان زوراً كبيراً في شماليها . وفي شرقي هذه الطريق ، كفر نبوذا ومغير ، وكرناز وبريديج ، والشيخ حديد وجبين والزلاقيات . وهكذا إلى أن يهبط السائح وادي العاصي ، ويصل إلى جسر شيزر وقلعتها . وكل هذه الضياع التي عددناها ، ذات تربة رملية طينية حمراء ، معروفة بخصبتها وإنباتها الزروع الصيفية والشتوية عذيا ، وبيوتها في الضياع تكون أكواخاً مستطيلة ، من القصب والقش يدعونها طامات ، وفي القرى دور حجرية . ذكر ياقوت في معجمه ، من هذه عمورين ، وسماها عمورية ، ودعاها بليدة ، وهي الآن ضيعة صغيرة ، قال : « عمورية بليدة على شاطئ بين فامية وشيزر ، فيها آثار خراب ، ولها دخل وافر ، ولها رحى تغل مالاً » ا هـ . وذكر أسامة بن منقذ في كتابه (الاعتبار) أسماء كفر نبوذا وتل ملح وتل التلول ، وقال : إن تل ملح كان مكمناً للإفرنج عند إغارتهم على شيزر . وقد تحريت فلم أجد أساساً ومصدراً لكلمة الطار ، التي سميت هذه البقعة بها ، وقيل إنها قديمة ، فهل



داخل خان قلعة المضيق (عن مجلة العاديات الحلبية)

هناك تحريف عن كلمة (طاب) التي سميت بها بليدة (كفر طاب) التي ذكرتها التواريخ مراراً ، وقد كانت في شرقي هذه الناحية ، بينها وبين خان شيخون ، وقد ضاع رسمها وتنوسي اسمها ، ذلك مايحتاج للتحقيق . وأغلب سكان ضياع الطار وفلاحيه أعراب ، يدعون الصماطية ، ويعدون من الأفناد الملتحقة بقبيلة الموالي .

تاريخ شيزر : أما شيزر فقد قال عنها ياقوت : « شيزر قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة ، بينها وبين حماة يوم ، في وسطها نهر الأردن (!) ، عليه قنطرة في وسط المدينة ، وتعد من جند حمص » . وقال أبو الفداء : « شيزر من جند حمص ، ذات قلعة حصينة ، والعاصي يمر من شماليها (وصوابه من شرقيها) ، وينحدر عندها على سكر ، ارتفاعه يزيد على عشرة أذرع ، يسمونه الخرطلة ، وهي ذات أشجار وبساتين ، وفواكه كثيرة ، أكثرها الرمان ، ولها سور من لبن وثلاثة أبواب » . وقال الأصطخري : « وشيزر وحماة فإنها مدينتان صغيرتان نزهتان ، كثيرتا الماء والشجر والزرع » . وقال شيخ الربوة : « وشيزر مدينة حصينة وبية (وبيلة أو وبيئة) ، تشرب أهلها وأرضها من النهر العاصي ، ولها قلعة طولها ظاهر ، تسمى عرف الديك ، محاطة من ثلاث جهات بالعاصي » . وجاء في (الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب) المنسوب لابن الشحنة الحلبي ، من رجال القرن التاسع طبع بيروت ص ٢٣١ « شيزر مدينة قديمة ، ذات قلعة وكورة حسنة ، ولها معاملات ، وقراها في إقطاعات جند حلب ، يجري بها نهر العاصي ، وهي قريب من حماة ، ولها نائب من قبل السلطان ، وقاضي يوليه قاضي حلب ، وهي معروفة بالوخم » . وجاء في ذيل تاريخ أبي الفداء لابن الوردي في حوادث سنة ٧٤٥ هـ : « وزاد نهر حماة ، وأغرق دوراً كثيرة ، ولطم العاصي خرطلة شيزر فأخذها ، وتلفت بساتين البلد لذلك ، ويحتاج إعادتها إلى كلفة كبيرة » ا هـ .

قلت : لم يبق في شيزر من الفواكه التي ذكرها أبو الفداء أثر يذكر ، ماعدا قليل من الرمان ، وحالة الأزوار والبساتين أيضاً وسطى ، وسكر الخرطلة الذي خرب سنة ٧٤٥ هـ تنوسي اسمه ، والبلدة ذات السور والأبواب الثلاثة التي كانت في أسفل القلعة قد عفت رسومها ، ولم يبق منها إلا بعض أسس الجدران ، وكسور الحجارة والأعمدة ، وصار مكانها

بضعة قباب حقيرة ، بين الجسر وباب القلعة يقطنها العمال في أزوار شيزر ، والبلدة العليا التي كانت في داخل القلعة خربت ، وصار مكانها قرية ، بنيت بركام الأنقاض ، يقطنها فلاحو الأرض العذية ، ولا يزيد عدد الجميع عن الأربعمئة جلهم من السنيين ، وقليلهم من النصيرية . والإسماعيلية .

وخلاصة تاريخ شيزر ، أن فراعنة مصر عرفوها ، وذكروها في رقم تل العمارنة المسمارية باسم (سنزار) ، وعرفها اليونان وسموها (لاريسا) ، قيل إن لسلوقس نيكاتور فضلاً في ترميها وتحصينها ، وذكرها امرؤ القيس في قوله :

تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا
بسير يضج العود منه يمنه أخو الجهد لا يلوي على من تعذرا

وذكرها عبيد الله بن قيس الرقيات في قوله :

قفوا وانظروا بي نحو قومي نظرة فلم يقف الحادي بنا وتغشمرا
فوا حزناً إذا فارقونا وجاوروا سوى قومهم أعلى حماة وشيزرا

ولما قدم أبو عبيدة بن الجراح سنة ١٧ هـ ، بعد أن فتح حمص وحماة خرج إليه أهل شيزر يقلسون ، وصالحوه على صلح حماة أي الجزية لرؤوسهم ، والخراج على أرضهم . وجعلت شيزر بعد من أعمال جند حمص . وكان سكانها في القرن الثالث الهجري قوم من كندة ، على ما في كتاب البلدان لليعقوبي . ولما كانت شيزر وجارتها أفامية على الطريق الذي تسلكه أكثر القوافل والجحافل القادمة من شمالي الشام أو جنوبيها ، ولتسلطها على وادي العاصي ، كانت لهما مكانة جليلة من وجهتي سوق الجيش والتجارة ، وكانت شيزر خاصة تعد مفتاح بلاد الشام ، لذلك ظلت عرضة لهجمات الروم البيزنطيين المتتابعة ، التي تقدم ذكر أسبابها ونتائجها ، في أبحاث كيليكية وأنطاكية ، ولما زحف قيصر الروم (نقفور الفقاش) على حلب وأنطاكية ، وغيرها من مدن الشام الشمالية ، وعاث وأفسد ، لم يجد سيف الدولة ملجأ يعتصم به أحسن من شيزر ، لكنه أصابه فيها مرض شديد ، مات على أثره ، ونقل جثمانه إلى عاصمته حلب في سنة ٣٥٦ هـ . وفي السنة التالية ٣٥٧ هـ وصل القيصر المذكور إلى شيزر ، واستولى عليها وأحرق جامعها . وفي سنة ٣٥٩ هـ اصطلح هذا

القيصر مع قرعويه ، متولي حلب من قبل سعد الدولة بن سيف الدولة ، على عشرة قناطير ذهب ، يحملها قرعويه إلى القيصر كل سنة ، على خراج بلاد عديدة منها شيزر وحلب ، وقنسرين وحمص ، وحماة وجوسية ، وسلمية والمعرة ، وكفر طاب وفامية ، وجبل السماق ومعرة مصرين ، والأثارب وغيرها . لكن سعد الدولة لم يشأ الاعتراف بهذه المعاهدة المذلة ، وسعى للتخلص منها ، فأخرب الروم إذ ذاك حمص ، ليضطروه إلى الإذعان وجاءه الخوف من زحف الفاطميين نحوه ، ونوالهم من ملكه ، فأذعن وأدى الجزية في سنة ٣٧٣ هـ . وحدث ماخشي منه سعد الدولة ، فجاء سنة ٣٨٢ هـ (منجوتكين) قائد جيش الفاطميين ، وحاصر شيزر واستخلصها من قائدها الحمداني ، مثلما استخلص فامية وغيرها كما قدمنا . ولما استنجد أبو الفضائل بن سعد الدولة بالقيصر (باسيليوس) لينقذه من (منجوتكين) ، زحف القيصر في سنة ٣٨٣ هـ وحاصر فيما حاصره شيزر ، واستخلصها من قائدها الفاطمي منصور بن قراديس ، وأقام القيصر في شيزر حامية قوية من جند الروم . لكن شيزر عادت وسقطت بيد والي دمشق ، الفاطمي (جيش بن الصمصامة) الذي قتل (دوقس) أنطاكية ، وكسر جيشه في معركة أفامية ، التي جرت سنة ٣٨٧ هـ كما قدمنا ، وسلم شيزر لقائد اسمه (حلمان بن قراديس) ولعله أخو منصور المذكور آنفاً . على أن القيصر (باسيليوس) خف بنفسه في سنة ٣٨٨ هـ ، وشرع بحصار شيزر ، وخرب القناطر التي كانت تأتي بالماء إلى القلعة ، ودافعت حاميتها دفاعاً مجيداً ، إلا أن فقدان الماء اضطرها أخيراً إلى الاستسلام ، على أن تؤمن على أرواحها وأموالها . ونزح أكثر السكان المسلمين ، فأقام القيصر مكانهم جالية من الأرمن ، واستلم بعد ذلك حصن أبو قبيس بالأمان ، واستقرت شيزر وأعمالها في أيدي الروم البيزنطيين ، نحو ٨٢ سنة حتى سنة ٤٧٤ هـ ، ففي سنة ٤١٥ أقطع (صالح بن مرداس) صاحب حلب البلاد المجاورة لشيزر ، إلى بني منقذ الكنانيين ، أما شيزر فقد ظلت بيد الروم .

وبنو منقذ المذكورون ، كانوا أمراء أعزاء ، يكرمهم ملوك الشام في ذلك العهد ، ويجلون قدرهم ، ويقصدهم شعراء عصرهم ويمدحونهم ، أول من عرف منهم واشتهر ، أبو المتوج (مقلد بن نصر بن منقذ) الكناني كان صاحب كفر طاب ، وكانت حدود بلاده تصل جنوباً إلى وادي العاصي ، وهو الذي بنى رأس الجسر ، المعروف بجسر بني منقذ غربي شيزر . ولما توفي سنة ٤٥٠ هـ في حلب ، وحمل إلى كفر طاب خلفه ابنه أبو الحسن

(علي بن مقلد) الملقب سـديـد الملـك . وكان ينزل في جوار شيزر بقرب الجسر المذكور ، وكانت القلعة بيد الروم ، فحدثته نفسه بأخـذهـا ، فشرع سنـة ٤٦٨ هـ بعمارة حصن الجسر الذي لم يدركه أبو الفـداء ، بل ذكر عنـه في تـاريخـه ، أن موضع الحصن في زمنـه كان تلاً خالياً من العمارة ، وأنه غربي شيزر على مسافة قريبة منها . وسبب عمارة هذا الحصن ، هو أن يمنـع شيزر من استقـدام الميرة ، ويضطر أهلهـا الروم إلى التسليم . وقـد جـاء في كتـاب أرسله إلى بغداد ، يصف كيفيـة استيلائـه على شيزر سنـة ٤٧٤ هـ : « نظرت إلى الحصن ، فرأيت أمراً يذهل الألباب ، يسع ثلاث آلاف رجل ، بالأهل والمال ويمسكـه خمس نسوة ، فعمـدت إلى تل بينـه وبين حصن آخر للروم ، يعرف بحصن الجراص ، ويسمى هـذا التـل تـل الجسر ، فعمرتـه حصنـاً ، وجمعت فيـه أهلي وعشيرتي ، ونفرت نفرة على حصن الجراص ، فأخذته بالسيف من الروم ، ومع ذلك فلمـا أخـذت من بـه من الروم ، أحسنت إليهم وأكرمتهم ، ومزجتهم بـأهلي وخلطت خنـازيرهم بغنمي ، ونواقيسهم بصـوت الأذان ، فرأى أهل شيزر فعلي ، فآنسوا بي ، ووصل إلي منهم قريب نصفهم ، فبـالغت في إكرامهم ، ووصـل إلي (مسلم بن قريش العقيلي) فقتـل من أهـل شيزر نحـو عشرين رجـلاً ، فلمـا انصرف مسلم عنهم سلموا الحصن إليّ » ا هـ .

ويظهر من كلامـه ، أن شرف الـدولـة (مسلم بن قريش العقيلي) صـاحب الموصـل وحلب الذي تقدم ذكره ، وخبر قتله في بحث العمق وأنطـاكيـة ، كان يطمع بفتح شيزر ، وأنه حاول ففشل . لهذا لما تملك (علي بن منقـذ) شيزر حسـده على ذلـك ، فـأرسل إليـه جيشاً من حلب ، بقيادة أخيه مؤيد الدولة علي بن قريش ، فأخذ هذا في طريقـه حصنـاً لابن منقذ ، يقال له أسفونا غربي كفرطاب ، وكان ابن منقذ قد تأهب للغمار ، وحمل من الجسر إلى شيزر ، ما يكفي لمن فيـه مـدة طويلـة من سـائر الأشيـاء . وحـاصره (علي بن قريش) مدة إلى أن جـاء شرف الـدولـة مسلم بنفسـه ، سنـة ٤٧٥ هـ ، ثم ترك عسكره في حصار شيزر ، ورحل إلى حمص . فتطارح ابن منقذ عليه ، وسير ابنـه وامرأتـه وأختـه إلى حمص ، مع مال جزيل ، فأنفذ إلى عسكره ورحلـه عن شيزر . وذكر مؤرخو الإفرنج ، أن شيزر كانت إلى حين استيـلاء ابن منقـذ عليهـا في حـوزة القيصر البيزنطي (ألكسي كومنن) ، وأن ابن منقذ استولى عليها ، بعـد معـاهـدة عقـدهـا مع مطران البـارة المقيم في شيزر ، وأنـه سمـح للحـاميـة البيزنطيـة بـالخروج منهـا حرة . وذكر مـؤرخـو العرب أن

(علي بن منقذ) هذا ، كان شاعراً مجيداً قوي الفطنة . ولما توفي خلفه ابنه عز الدولة أبو مرهف (نصر بن علي) ، وكان تقياً كريماً ، مغرماً بالفنون . وكانت مملكة شيزر في عهده ، تحوي أفامية وكفر طاب واللاذقية ، وفي سنة ٤٧٩ هـ لما قدم السلطان ملكشاه السلجوقي واستولى على حلب ، أرسل إليه الأمير نصر بن علي ، ودخل في طاعته ، فأجابه السلطان إلى المسألة وترك قصده ، وأقر عليه شيزر (أبو الفداء ٢ / ٢٠٧) وفي زمنه حوصرت شيزر مراراً ، فلم ينل أحد منها طائلاً . منها في سنة ٤٨١ هـ جمع قسيم الدولة آق سنقر صاحب حلب (أبو عماد الدين زنكي) عسكره ، وسار إلى قلعة شيزر ، وضيق على صاحبها نصر بن علي بن منقذ ، ونهب الربض ، ثم صالحه ابن منقذ المذكور ، فعاد آق سنقر إلى حلب . ومات نصر دون عقب سنة ٤٩١ هـ بعد زمن قليل من استيلاء الصليبيين على أنطاكية ، وكان عهد بالإمارة بعده إلى أخيه الأصغر مجد الدين أبو سلامة مرشد (٤٥٨ ـ ٥٣١ هـ) والد أسامة الذي سيأتي ذكره . لكن مرشداً كان ولوعاً بالصيد والخط ، فتنازل عن الإمارة إلى أخيه الأصغر عز الدين أبو العساكر سلطان (٤٦٤ ـ ٥٤٨ هـ) . أما الأمير مجد الدين مؤيد الدولة أبو المظفر (أسامة بن مرشد) الأديب الشاعر ، والبطل المغوار ، فقد ولد سنة ٤٨٦ هـ ، وهو مؤلف كتاب الاعتبار[1] الذي جمع فيه أخبار وكوائن شتى ، عن طرز الحياة والصيد ، وقتال الصليبيين حول بلدته شيزر ، التي هجرها سنة ٥٢٠ هـ ، ولم يعد إليها إلا بعد وفاة أبيه في سنة ٥٢٨ هـ .

وفي زمن أبي العساكر سلطان هوجمت شيزر مراراً ، من قبل صاحب دمشق وثم أعراب بني كلاب النازلين في براري حلب ، والإسماعيلية والبيزنطيين والصليبيين ، وفي كل مرة كانت تنجو من السقوط ، بفضل مناعتها الطبيعية ، وحصانة قلعتها ، وبسالة أصحابها بني منقذ ، جاءها في سنة ٥٢٧ هـ شمس الملوك (إسماعيل بن بوري بن طغتكين) صاحب دمشق بعد أن حاصر حماة في تلك السنة ، واستولى عليها ، فحاصر شيزر ، ونهب بلدها ، وحصر القلعة ، فصانعه أبو العساكر سلطان بمال حمله إليه ، فعاد عنها وسار إلى دمشق .

---

(١) له أيضاً كتاب (العصا وأزهار الأنهار) و (كتاب البديع في علوم الشعر) واختصر (سيرة عمر بن الخطاب) تأليف ابن الجوزي البغدادي ، وله (التاريخ البدري) و (أخبار البلدان) و (ذيل على خريدة القصر) للباخرزي ، وكانت لديه مكتبة عامرة تشتمل على غرر المخطوطات ونفائسها ، تبلغ أربعة آلاف مجلد ، اغتصبها الإفرنج في البحر ، حينما استقدمها مع عائلته وأولاده ، فأسف عليها كثيراً .

وجاءها في سنة ٥٣٢ هـ القيصر البيزنطي (حنا كومنن) في جيش من الروم ، ونصب على جبل (جريجيس) المشرف على القلعة ثمانية عشر منجنيقاً ، وأرسل صاحبها أبو العساكر سلطان إلى عماد الدين زنكي يستنجده ، فنزل زنكي على حماة ، فكان يركب كل يوم في عساكره ويسير إلى شيزر ، بحيث يراه ملك الروم ، ويرسل السرايا يتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب ، ثم يعود آخر النهار ، وكان الروم والفرنج قد نزلوا على شرقي شيزر ، فأرسل إليهم زنكي يقول لهم ، إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال ، فاخرجوا عنها إلى الصحراء ، حتى نلتقي فإن ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها ، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شركم ، ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم ، وإنما كان يفعل هذا ترهيباً لهم ، فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله ، فتمنع وخاتل ، وكان زنكي يراسل الفرنج والروم كل منهم على حدة ، ويلقي الشحناء بينهم ، إلى أن استشعر كل منهم من صاحبه ، فرحل ملك الروم عن شيزر ، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً ، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها ، فغنمها زنكي ، وكان المسلمون في بلاد الشام قد اشتد خوفهم ، وعلموا أن الروم إن ملكوا حصن شيزر ، لا يبقى لمسلم معهم مقام ، لاسيا مدينة حماة لقربها . ومن أحداث شيزر التي تذكر ، أنه نزل الإفرنج (صليبيو أنطاكية) في بعض السنين على شيزر ، وكان الماء بين شيزر وبينهم عظيم ، لا يمكن خوضه[1] وما كان من سبيل لهم إلى شيزر ، فلما تبينوا ذلك ، انتشروا في الأرض ، ودخلوا البساتين يرعون خيلهم ، فجاء منهم نفر إلى البستان الموجود على جانب الماء ، ومعهم خيلهم فتركوها ترعى القصيل في البستان وناموا ، فتجرد رجال من أصحاب بني منقذ ، ونزلوا من سرداب القلعة المتصل بالعاصي ، الذي يستقي منه سكانها ، وقد تهدم الآن معظمه ، وسبحوا إليهم ومعهم سيوفهم ، فقتلوا منهم وجرحوا بعضهم ، وانتشر الصياح في الفرنج وهم في خيمهم ، ففزعوا وجاؤوا مثل السيل ، كل من ظفروا به قتلوه ، وانتهى بعضهم إلى مسجد مما يليهم ، يعرف بمسجد أبي المجد بن سمية ودخلوه ، ثم خرجوا منه ، وانصرفوا عن شيزر بعد ذلك ، ومن أحداثها أيضاً أن الإسماعيلية وثبوا سنة ٥٣٥ هـ على حصن مصياف الذي كان لبني منقذ ، واحتالوا على مملوكهم فيه وقتلوه ، وملكوا الحصن ، وكان تمادى بهم الطمع ، وجاؤوا سنة ٥٠٢ هـ إلى

(١) هو ماء العاصي ، الذي كان يقذف من الخندق المحفور قبلي القلعة ، بعد سد سكر الخرطلة كما سيأتي بيانه .

شيزر ، في وقت كانت القلعة خالية فيه من أمراء بني منقذ ، الذين ذهبوا لحضور حفلات عيد الفصح في حماة[1] فملكوا القلعة ، وبادر أهل المدينة إلى الباشورة ، وأصعدهم النساء بالحبال من الطاقات ، وأدركهم الأمراء بنو منقذ على أثر وصول الخبر إليهم ، ووضعوا السيف في الإسماعيلية ، فلم يسلم منهم أحد . (أبو الفداء ٢ / ٢٣٥) .

وكانت حصلت نفرة بين سلطان وأخيه مرشد بسبب أولادهما ، ولما توفي مرشد بادأ سلطان أولاد أخيه علي وأسامة بالسوء ، وأخرجهم من شيزر ، فقصدوا نور الدين محمود زنكي ، وشكوا إليه مالقوا من عمهم ، فغاظه ذلك ، ولكنه لم يمكنه قصده ، وإعادتهم إلى وطنهم لاشتغاله بجهاد الإفرنج (ابن الأثير) . ولما مات سلطان سنة ٥٤٨ هـ خلفه ابنه تاج الدولة ناصر الدين محمد ، إلى أن هلك بالزلزلة الهائلة التي حدثت سنة ٥٥٢ هـ ، وأخربت كثيراً من مدن الشام الشمالية ، وكان أشدها كما قال ابن الأثير في حماة وشيزر ، وكان بنو منقذ مجتمعين في وليمة ختان ، فهلكوا ولم ينج أحد ممن كان منهم داخل القلعة ، إلا امرأة أخرجت من تحت الردم . وكانَ أسامة غائباً في دمشق ، فجاء بعد الزلزلة وعاين مافعلته الزلزلة بشيزر وأهله ، فبكاهم ورثاهم بغرر القصائد . وحاول إذ ذاك الصليبيون أن يملكوا قلعة شيزر المهدومة المهجورة ، لكن الإسماعيلية هبطوا من مصياف ، فطردوهم واستولوا على شيزر . ثم جاء نور الدين محمود زنكي ، وطرد الإسماعيلية من شيزر ، ورممها وجددها فيما جدده من بقية الحصون ، وأقطعها إلى أخيه في الرضاعة (مجد الدين أبو بكر بن الداية) ولما مات أبو بكر ، انتقلت لأخيه (سابق الدين عثمان) الذي ظل فيها ، وفي حصن أبي قبيس ، إلى بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي ، فصار من عمال ابنه الملك الظاهر غازي صاحب حلب . ولما مات سابق الدين انتقلت شيزر لابنه عز الدين مسعود ، ثم لحفيده شهاب الدين يوسف . وفي سنة ٦٣٠ هـ تجاهر هذا بالعصيان ، فجاء الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي ، وحاصره واسترد شيزر وأبا قبيس منه ، فهنأه يحيى بن خالد القيسراني بقوله :

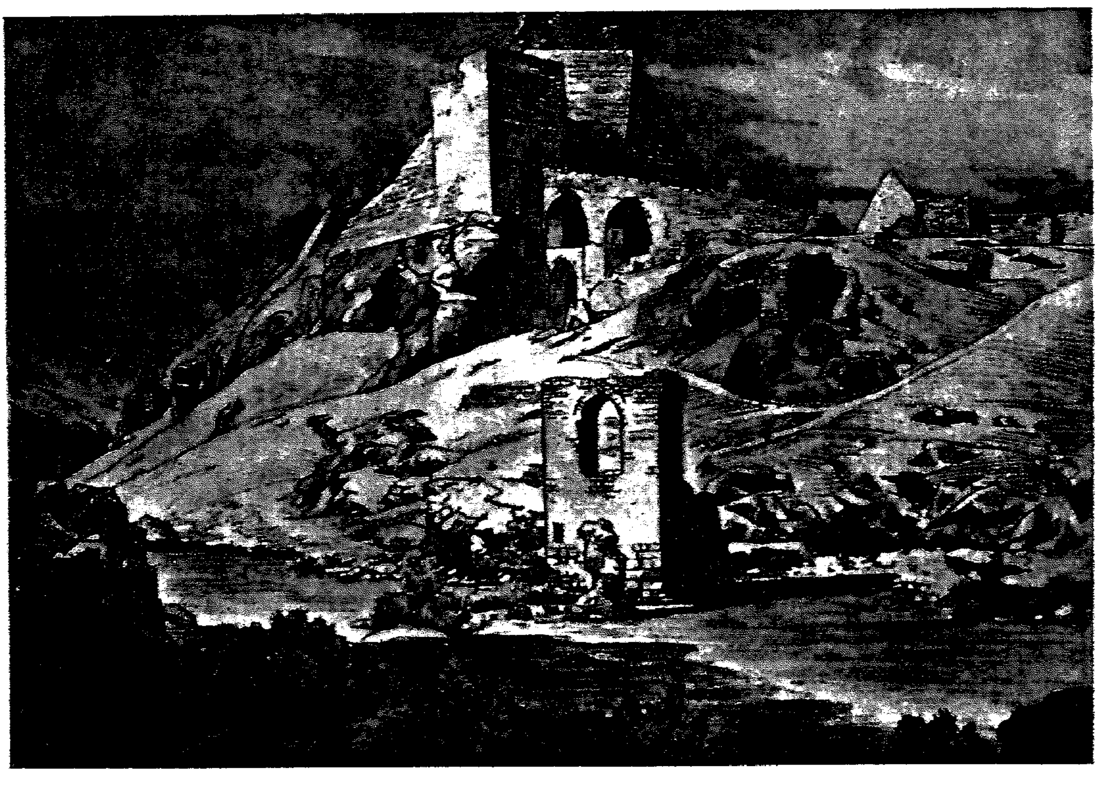
يا ملكاً عم أهل الأرض نائله	وخص إحسانه الداني مع القاصي
لما رأت شيزر آيات نصرك في	أرجائها ألقت العاصي إلى العاصي

---

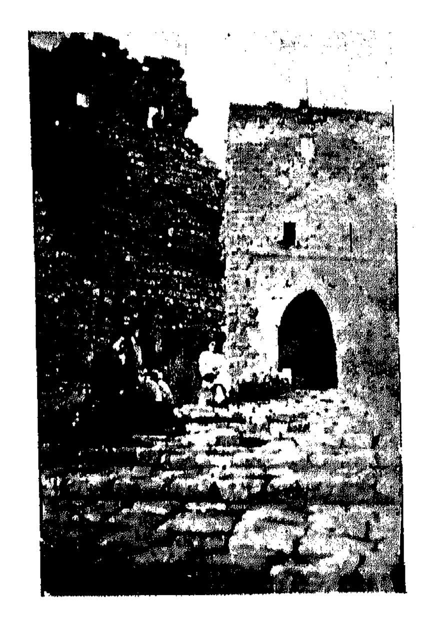
(١) سنأتي على وصف هذه الحفلات في بحث حماة .

ولما جاء التتار بقيادة هولاكو ، هدموا أكثر القلاع التي كانت للأيوبيين ، ولا بد أن يكونوا نالوا أيضاً من شيزر ، لأنها ذكرت في جملة القلاع التي زارها الملك الظاهر بيبرس مراراً ورممها . ولما جلس الملك المنصور قلاوون الصالحي في سنة ٦٧٩ هـ ، ظلت شيزر كجارتها فامية مدة في يد الأمير سنقر الأشقر ، الذي عصى ونازع قلاوون السلطنة ، ثم استرجعها قلاوون منه صلحاً ، في سنة ٦٨٠ هـ ، على أن تبقى في يد الأمير سنقر ، الشغر وبكاس فحسب . ورمم قلاوون بعض أركان شيزر ، وظلت في حوزة أخلافه المماليك ، وكانت في عهدهم نيابة من أعمال حلب ، ونائبها أمير عشرة . وذكرت إذ ذاك شيزر في التواريخ (خطط الشام جـ ٢) أن نائب حلب سافر سنة ٧٤٨ هـ لتسكين فتنة ببلد شيزر بين العرب والكرد ، قتل فيها من الكرد خمسمئة نفس ، ثم ذكرت في جملة البلاد التي نهبها (نعير بن جبار) أمير آل فضل (أجداد أمراء الموالي الحاليين) في سنة ٧٩٣ هـ ، وكان مع منطاش ، الثائر على الملك الظاهر برقوق ، خائضاً غمار فتنته ، ولعل خرابها بدأ منذ تلك الفتنة ، وظل الحال على هذا المنوال إلى أن دخل العثمانيون . ومهما يكن فإن شيزر بعد استيلاء العثمانيين على بلاد الشام كلها ، وزوال الحاجة للدفاع ، لم يبق لها كما قلنا في أفامية مكانة حربية ، بل ظلت كما هي الآن ، قرية يعتصم أهلها من الأعراب والنصيرية ، الذين كانوا يغيرون عليها أيام الفتن في عهد المماليك والعثمانيين .

وصف قلعة شيزر : بنيت قلعة شيزر على ظهر أكمة صخرية ، تمتد من الجنوب إلى الشمال ، منتصبة على يسار العاصي ، شبهها العرب لنتوئها بعرف الديك ، ويمر نهر العاصي من شرقي هذه الأكمة ، بعد أن يلتوي في منعرج ذي زاوية قائمة ، ويجري في وهدة عميقة . فالقلعة منفصلة عما يجاورها ، في شرقيها وشماليها وغربيها ، بفضل المنحدرات الصخرية العميقة المحيطة بها ، والتي تعلو نحو ٤٠ ـ ٥٠ متراً . أما في الجنوب فقد كانت أكمتها متصلة بالجبل المجاور ، إلى أن حفر القدماء فيه خندقاً عريضاً وعميقاً ، فصلوها به عنه ، وبنوا فوق الخندق برجاً كبيراً ، سيأتي وصفه ، وفي رواية أنهم كانوا عند مهاجمة الأعداء يرون مياه العاصي من هذا الخندق ، بعد سد مجراه بسكر ، لعله سكر الخرطلة ، الذي نوه به أبو الفداء ، فإذا مرت هذه المياه ، وطغت على السهل الغربي ، تصبح شيزر كجزيرة ، لا يعود بإمكان العدو الاقتراب منها .



واجهة قلعة شيزر



مدخل قلعة شيزر



البرج الكبير والخندق في جنوبي قلعة شيزر

وقلعـة شيزر خراب في الجملـة ، لم يبـق منهـا سـالمـاً إلا طرفـاهـا الشمالي والجنـوبي . يدخل القاصدون من بابها الكائن في الجهـة الشماليـة ، بعـد أن يجتـازوا جسراً حجريـاً بني فوق وادٍ ضيقٍ وعميق . وكان هذا الجسر في العصور الوسطى من الخشب ، وهو نقّـال يرفع عند اللزوم . أما الحالي فحجري ، يعلو طبقتين من القناطر ، ولشدة الانحـدار جعل ممشـاه ذا درج مرصوف ببلاط كبير ، وجعل على طرفيـه درابـزين ، يـوشـك أن يتـداعى . أمـا مدخل القلعة ، فقد جعل في جوف باشورة مربعة الشكل ، بارزة إلى الأمام ، بنيت بقطع ضخمة من الحجارة ، التي يدعوها البناؤون (أحجار التشبيك) و (الأحجار السورية) ، والثـانيـة منسوبـة للأسوار تكون نـاتئـة في وسطهـا ، وحشي بين هـذه الحجـارة قطـع من الأعمدة ، لتشد ارتباط المداميك بعضها ببعض .

وفي المدخل فجوة يعلوها قوس من النوع الذي يـدعوه البنـاؤون (قوس منكسر) ، وفي جوف الفجوة باب ذو عتبة مستقيمة ، وفوق القوس كتـابـة عربيـة طويلـة ، فيهـا اسم الملـك المنصور قلاوون الصـالحي في سنـة ٦٨٩ هـ ، على أحجـار الجـدار الظـاهرة ، وفـوق الكتـابـة بقليل زغلولان لرمي السهـام ، ونـافـذة مربعـة الشكل ، وفي الطـابق الأعلى من البـاشورة ، نـافـذة أخرى مربعـة ، لا يـزال يعلـوهـا زافرتـا مرمى ، كان مخصصـاً لحراسـة المـدخل ، وقـد هـدمت البـاشـورة حتى وصلت إلى مستـوى هـاتين الـزافرتين ، وعلى يمين الباشورة قلة هرمية الشكل ، أقسامها العليا مهـدومـة ، وأقسـامهـا السفلى راكبـة على سفح عريض مبلط ، أحد جوانبه يلتصق ويحيط بـالبـاشورة التي تقـدم ذكرهـا ، والضلع المجسم الشمالي الغربي لهذا السفح المستدق قطع وأعرض ، وذلك لدفع شر رماة السهام والنقـابين . وتحت الباشورة سـاباط معقود ، يدخل منه إلى سـاحـة القلعـة ، التي ملئت ببيوت القريـة المبنية من أحجـار السور المهـدوم ، ووراء البـاشورة وأطلالهـا سراديب معقودة متـداعيـة ، كانت توصل من القلعة إلى العاصي . وثمة طريق ضيق بين بيوت القرية يـأخـذك إلى قبلي القلعة فتجد فيها البرج الكبير الـذي يسميـه الأهلون هنـا قصر البردويل ، ولا يعلم من هو هذا البردويل ؟

وهذا البرج في أضعف نقطة من نقـاط الـدفـاع ، فوق الخنـدق الـذي تقـدم ذكره ، لذلك بني بعناية خاصة ، فأحجاره أحجار تشبيك وسوريـة ، وهي هنـا أضخم وأدق عملاً

من حجارة الباشورة ، وفي عرض جدرانه حشيت قطع كثيرة من أعمدة الروابط ، لتزيد انضمام الأحجار الخارجية بالداخلية ، وشكل البرج منشور ذو وجوه مستطيلة ، وله في جهته الشمالية بروز قليل فيه المدخل ، وقد جعل هذا المدخل في مخترق زاوية ، معرضة للقذائف المتشابكة ، التي تلقى من طوابق البرج العليا ، وهذا من قواعد الهندسة العربية في المباني العسكرية ، وعلى جدار البرج كتابة باسم الملك العزيز محمد صاحب حلب سنة ٦٣٣ هـ ، والصاعد من درج المدخل يصل إلى طابق تحته أقبية معقودة ، لعلها كانت صهاريج ماء أو مخازن مؤونة ، وثمة درج يؤدي إلى طابق ثان ، ثم إلى السطح ، وفي الطابق الأول غرفتان كبيرتان عقودهما مرتكزة على عضادات ، وجدرانها مثقوبة بكوى للنور ، وزغاليل غريبة الأشكال ، ويشتمل الطابق الثاني على الأوضاع ذاتها ، أما السطح فقد هدم منه جدار الدفاع الذي كان مضرساً بشراريف عديدة .

قال الاثري (فان برشم) في كتابه (رحلة في الشام) الذي اعتمدنا عليه في وصف شيزر : « إن باشورة باب القلعة من آثار نور الدين محمود دون غيره ، على الرغم من أن الملك المنصور قلاوون استكتب اسمه فوق الباب ، إذ لم يكن له فضل في غير ترميم بعض أركانها ، وأن القلة والسفح من آثار الملك الظاهر بيبرس ، والبرج الكبير القبلي ربما كان من آثار نور الدين محمود دون غيره ، لأن الكتابة التي فوق بابه زبرت بعد البناء ، ولعل الملك العزيز محمد رمم المداميك العليا فقط » . وقال أيضاً : « إن الصليبيين على الرغم من مهاجمتهم شيزر مراراً ، لم يستطيعوا اقتحامها ، وإذاً تكون هذه القلعة عربية بحتة ، من آثار مهندسي العرب دون سواهم ، في القرنين السادس والسابع ، وبرهاننا على ذلك تخطيط سورها ، ورفع الحيطان الجامعة بين أبراجها ، وهذه الأبراج المربعة القليلة البروز ، وشكل بناء الباشورة ، والبرج الكبير المحشوة جدرانها بأعمدة الروابط ، وأقسام البرج في الداخل ، وانتساق مراكز الدفاع فيه ، وفقدان أي قطعة مرخمة أو مهندمة على الطراز الغربي » ا هـ .

قلت : وهذه إحدى شهادات هذا العالم الأثري الأوروبي الذي اختص ، بدراسة المباني العربية القديمة ، تدل على ماكان عليه أسلافنا من البراعة في تشييد القلاع والحصون ، وإحكام وسائل الدفاع والحصار فيها ، مما ينبغي له علم غزير وخبرة واسعة في

فنون الحرب والهندسة والبنيان . ومن أكبر دواعي الأسف أن لانعرف أسماء المهندسين العسكريين الذين خططوا قلعة شيزر وأمثالها ، من القلاع العربية في القرن الخامس والسادس والسابع ، وصورة إنشائها بهذا التأليف البديع والإتقان الغريب ، وأن نجهل القواعد والمسميات التي كانوا يتبعونها ويتداولونها في تشييد الأسوار والأبراج والثقوب والمرامي ، وأقسامها البارزة والغائرة فيتعذر علينا تعريب ماكتبه عنها علماء الآثار من الإفرنج بالحرف . ولو سمح الدهر بإبقاء شيء من مؤلفاتهم ، التي لابد أن يكونوا عنوا بوضعها[1] ، أو لو اكترث مؤلفو كتب التراجم بهؤلاء المهندسين والبنائين وغيرهم من أرباب الصناعات الدقيقة ، مثل اكتراثهم بترجمة الشعراء والكتاب ، والزهاد والمتقشفين ، إذاً لعرفنا شيئاً من قواعدهم ومسمياتهم ، فتمكنا من وصف مابنوه وصفاً علمياً هندسياً ، تعرف به خطوطه ومقاييسه ، وأشكاله وأوضاعه ، وجنس المواد والحجارة التي يتألف منها ، وكيفية تركيزها وترتيبها ، والغايات المنشودة من اختلاف الأبراج والقلل ، والنوافذ والمرامي ، وكبرها وصغرها ، وتقويمها وتدويرها ، وما كان يوضع أو يعمل في أرجائها إلخ .. لا كما يذكره كتابنا الذين يهيمون في وادي الخيال ، فيقولون كما قال شهاب الدين محمود في وصف حصن : « حصن قد تقرط بالنجوم ، وتقرطق بالغيوم ، وسما فرعه إلى السماء ، ورسا أصله إلى النجوم ، تخال الشمس إذا علت أنها تنتقل في أبراجه ، ويظن من سما إلى البها أنها ذبالة في سراجه . إلخ » ماهنالك من الإغراق ، الذي ليس فيه شيء مما يدل على هندسة هذا الحصن ، وكيفية بنائه ، وكلهم نحا هذا المنحى .

هذا وقيل أن بين شيزر وقرية الزلاقيات التي تبعد عنها نحو أربعة كيلومتر إلى الشرق ، قناة قديمة متفرعة من العاصي ، تسير في نفق محفور في لحف الجبل ، إلى أن تصل قرب القلعة ، إلى فوهة يدعونها الشلقة تعلو بضعة أمتار فينحدر منها الماء كالشلال ، بهدير قوي ، وهي تسقي زور العريض ، غربي مقام أبي عبيدة .

وجاء في (كتاب الاعتبار) لأسامة اسم بندرقنين ، وأنها كانت قرية عند المدينة ، والآن لايعرف لها خبر ولا أثر . وجسر شيزر عظيم ، ذو قناطر عديدة ، رمم مراراً في الماضي ، وبني قسمه الجنوبي مجدداً في سنة ١٣٤١ هـ ، وفيه طاحونة على يمين بابها حجرة

---

(١) ومنها كتاب القلاع والحصون للأمير أسامة بن منقذ ، ليس له اثر .

ضائع نصفها ، زبر عليها مرسوم عربي ، فهمت منه بعد الجهد ، أنه لإزالة بعض الضرائب عن أهل الصقيلبية ، وتاريخها من القرن الثامن ، ومما لا ريب فيه ، أنه ليس هو جسر بني منقذ ، الذي كان حوله تل وحصن ، ذكرهما أسامة في مواضع عديدة ، وكان موضع حصن الجسر في زمن أبي الفداء تل خال من العمارة ، وهو غربي شيزر على مسافة قريبة منها (أبو الفداء ٣ / ٣٣) وذكرها قبله جده أبو الحسن (علي بن منقذ) الكناني ، وهو باني الحصن قبل نفرته على حصن الجراص ، واستيلائه على حصن شيزر كما أسلفنا .

قال (فان برشم) : « بحثنا كثيراً ، فلم نعثر على أثر لحصن الجسر ، الذي يفهم من كلام أسامة ، أنه كان في ضفة العاصي اليمنى ، أقيم لحماية جسر بني منقذ . ونظن أن هذا الحصن والجسر ، كانا في موقع يبعد عن شيزر للغرب نحو كيلومترين ، حيث ترى دعامتين بارزتين من العاصي ، تقاومان جريانه الشديد » ا هـ . قلت : ويؤيد عبارة (فان برشم) ماجاء في ص ٢١٨ من (كتاب الاعتبار) : « أن حصن الجسر كان كثير الصيد ، يذهب إليه والد أسامة وأبناؤه ، ومعهم البزاة والفهود والكلاب ، يصطادون الطيور والدواب التي قدمنا ذكرها ، وأنهم كانوا يعودون من الصيد ، وينزلون على بوشمير ، وهو نهر صغير بالقرب من الحصن . فلو كان حصن الجسر في قرب القلعة كما ظنه بعضهم ، لما اقتربت طيور الصيد ودوابه ، كما أنه ليس في قرب الجسر الحالي نهر أو جدول يدعى بوشمير ، بل جدول يدعى الفجرة يحصل من طغيان العاصي ، ويستحيل على أبي الحسن علي جد أسامة ، أن يبني مثل هذا الحصن في جوار القلعة لما كانت بيد الروم ، ثم يناوشهم منه » ، ويؤيد عبارة (فان برشم) أيضاً أبو الفداء في تاريخه (٣ / ٣٣) « من أن موضع حصن الجسر كان في زمنه تلاً خالياً من العمارة ، وهو غربي شيزر ، على مسافة قريبة منها » .

هذا والواقف فوق سطح البرج ، يطل على مناظر عديدة ، منها في الشرق الهضبة العالية ، التي يفصل العاصي بينها وبين أكمة عرف الديك ، وكانت قواد الجيوش المحاصرة لشيزر ، تجعل مخيمها في هذا الموقع المشرف على القلعة ، وتنصب فيه المنجنيقات وتضربها منه ، وفي شرقي هذه الهضبة قبة فيها مسجد ، وضريح ينسب إلى أبي عبيدة ، وصوابه أن أبا عبيدة لما جاء ليفتح شيزر ، خيم فيه ، فاتخذه الناس بعد مقاماً له ، وبنوا هذا الضريح

وذلك المسجد . قيل إن في جدار المسجد حجراً زبرت عليه كتابة ، تدل على أن منشئ هذا المكان ، هو السلطان مراد بن السلطان سليمان العثماني ، الذي حكم بين سنتي ٩٨٣ ـ ١٠٠٣ هـ. وإذا تطلع الواقف نحو العاصي ، يراه خارجاً من الوهدة العميقة المحصورة بين الجبلين ، ليلاقي السهل الفسيح الممتد في الغرب ، جارياً بهدير قوي ، لشدة الانحدار هنا . ويتجه النظر مع العاصي ومتعرجاته ، التي تكثر في هذه البقعة ، فيرى أزوار شيزر وقبتين بيضاوين ، تحتهما مقام النبي أيوب (؟) ، في قربهما حظيرة مزرعة لأحد سراة حماة ، وعلى بعد خمسة كيلو متر قرية التريمسة وأزوارها ، وفي شماليها تل الطويل ، ولعله تل التلول الذي ذكر محرفاً في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ، وبعدها قرية الصفصافة وجسر الفجرة ، ثم بطائح الغاب وآجامه ، وهي علة وخامة المرتع في هذه الربوع .

وفي السهول والتلعات الغربية والجنوبية ، الممتدة من قرب شيزر إلى سفح جبال النصيرية الغضراء ، الشامخة كالجدار ، بين هذه البقاع والبحر ، قرى وضياع عديدة تتبع قضاء مصياف ، من أعمال حكومة اللاذقية ، آهلة بالنصيرية . نخص بالذكر منها في السهل تل سلحب ، وهي كبيرة مستوبلة ، تحيط بها بطائح الغاب من الشرق والشمال ، ودير شميل وسلوقية ، وجب رملة وكنفو ، وقرية دير شميل كانت من حصون الفرسان الأسبتاريين ، فيها دار حكومة منذ كانت قاعدة الناحية ، وفي شماليها حصن خراب ، نظن أنه حصن الخريبة ، الذي ذكر أسامة أنه كان عليه للإفرنج ديدباناً ، يكشف مسلمي شيزر إذا أرادوا الإغارة على أفامية ، مع ملاحظة أن البعد بين هذا الحصن وشيزر ثلاثة عشر كيلو متراً . وفي غربي دير شميل على رأس أحد أذيال الجبل المرتفعة ، حصن آخر خراب أكبر من الأول ، يدعى أبا قبيس ، يطل على وادٍ يجري فيه نهر أبي قبيس ، أحد روافد الغاب . وقد مر ذكر هذا الحصن في تاريخ شيزر ، وهو أحد قلاع الدعوة الإسماعيلية المنتشرة في هذه الجبال منها ـ غير ماعددناه سابقاً ـ مصياف والكهف ، والعليقة والمنيقة ، وبكسرائيل وغيرها . وفي جنوبي دير شميل في طريق قلعة مصياف قرية اللقبة ، التي في قربها شلال كبير يدعى جلميدون ، يفتكر الحمويون بجره إلى حماة للشرب . وفي سهول قضاء مصياف وجباله قرى كثيرة مما عددناه وغيره ، يقطن أكثرها النصيرية ، وأقلها الروم والسنية ، وفي مصياف وحدها الإسماعيلية ، وقد اشتهرت هذه القرى بعنبها وتينها ، ودود حريرها ، وحراجها وينابيعها المتدفقة .

هذا وبعد أن انتهيت في ربيع سنة ١٣٥١ هـ من زيارة هذه القلعة ، والإحاطة بما وصفته آنفاً ، تأملت وأنا على سطح ذلك البرج ، في حاضر شيزر وغابرها ، ورحت في فضاء التفكير ، أجل قدر الذين انتقوا هذا الموقع الحربي الهائل ، وأتخيل المعارك الطاحنة التي كانت تدور تحت أقدامه بين الجيوش المحاصرة والمدافعة عنه ، وأكاد أسمع قراع الرماح ووقع السيوف ورنين القسي ، وأرى القتلى والجرحى ملؤوا السهل ، فجبلت هذه التربة الحمراء بدمائهم ، أو صبغ العاصي بها .

وأتذكر الوقائع التي كانت تجري في هذه الضواحي لبني منقذ الأشاوس ، لاسيما لنابغتهم البطل العالم الشاعر أسامة صاحب (كتاب الاعتبار) ، وكيف كانوا شجاً في حلوق الروم والصليبيين ، يستبسلون رجالاً ونساءً في دفع غاراتهم ، وغارات الأعراب والإسماعيلية وغيرهم ، وكيف كانوا يصطادون (الأحجال والأرانب في الجبل قبلي البلد ، وطير الماء والدراج ، واليحامير والغزلان على العاصي ، في الأزوار غربي البلد) ، وأخيراً كيف قضت عليهم الزلازل ، فأفنتهم وخربت هذا الحصن الهائل المرأى ، فجعلته كما قال أسامة (متهيلاً مثل النقا المتهيل) ، وأتصور نور الدين محمود في سنة ٥٥٢ هـ ، والملك العزيز محمد صاحب حلب ، ومعه ابن عمه الملك المظفر محمود صاحب حماة في سنة ٦٣٠ هـ ، والملك الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤ هـ ، والملك المنصور قلاوون في سنة ٦٧٩ هـ ، يأتون كل في يومه ووراءه وزراؤه وقواده وحرسه الخاص ببزتهم وأبهتهم ، يصعدون إلى هذه القلعة ، ليعاينوا مافعلته الزلازل والحروب في أسوارها وأبراجها ، ويتجولون بين أطلالها وركامها ، متأسفين ومحوقلين ، فيأمرون بإحضار المهندسين والبنائين ، ليرمموا ويجددوا مافعلته فيها طوارئ الحدثان ، فتنفذ أوامرهم وتحقق رغائبهم فوراً . وأتأمل بلدة شيزر السفلى ، ذات السور والأبواب الثلاثة ، والمتنزهات والبساتين والزروع ، والفواكه الكثيرة التي كانت فيها ، وأسأل كيف عفت عوادي الزمان رسومها ، فأصبحت ضويعة صغيرة وبيلة ، والبلدة العليا التي كان ينزلها أمراء وجنود أعزاء يعدون بالألوف . كيف أصبحت الآن كالأطلال الدارسة ، سكانها قلائل فلاحون ، بينهم بيت قديم يعرف بالشيزري ، باعوا قريتهم وموئل سؤددهم لبعض سراة حماة، فأصبحوا صعاليك مفاليك ، غاية في البؤس والجهل ، لاسيما في معرفة ماكانت عليه هذه القلعة ومن سادوا وشادوا فيها . فسبحان الذي يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء .

طريق شيزر ـ حماة

(٢٤ كيلو متراً)

بعد أن يصعد السائح من وادي شيزر ، يجتاز سهولاً شاسعة ، ذات تربة حمراء ، فيمر من غربي قرية كبيرة ، تدعى محردة قصبة ناحية الطار ، ذات دور حجرية بيضاء ، جميلة أهلها من طائفتي الروم والسريان ، يبلغون ثلاثة آلاف ، وهي قريبة من العاصي ، عرفت بجمال نسائها ، وإجادتهن السباحة في العاصي ، وبسعة كرومها الممتدة عن يمينها ويسارها ، وبأن أهلها على خلاف الصقيلبية ، يشبهون بأزيائهم ولهجتهم قرويي الديار الحموية ، وفي شرقيها قرية كبيرة أخرى ، تدعى حلفايا ، أشير في إحدى الخرائط الحديثة إلى قناة ماء مندثرة تأتي إليها ، من حول قرية معرزاف ، وتسير شمالاً مجتازة العاصي إلى قرية اللطامنة فمورك ، ولم أتحقق من صحة هذه الإشارة . والعاصي القادم من حماة ، بعد أن كان يتجه من الجنوب إلى الشمال ينعطف نحو الغرب بين قريتي حلفايا واللطامنة ، عند طاحونة الوعرة ، وبعد أن يجتاز من شمالي حلفايا ومحردة ، على مقربة منها ، يتجه نحو شيزر ، كل ذلك في وهاد سحيقة ومنعرجات عديدة . والباحث عن العاصي ومجراه في هذه الربوع ، لا يسعه إلا أن يتساءل عن موقع دير القديس مارون ، أبو الطائفة المارونية ، الذي قيل إنه كان على العاصي بين شيزر وحماة . قال عنه المسعودي في (كتاب التنبيه والأشراف) ص ١٦٣ : « شرقي حماة وشيزر ذو بنيان عظيم ، حوله أكثر من ثلاثمئة صومعة ، فيها رهبان ، وكان فيه من آلاف الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم ، فخرب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن ، وهو بقرب من نهر الأرنط نهر حمص وأنطاكية » اهـ . والموارنة كما ذكرناه في بحث جبل اللكام آراميو الأصل ، كانوا يقيمون في وادي العاصي على مقربة من هذا الدير ، ثم انتشروا بين أفامية والمعرة وشيزر وحماة ، إلى أن زاحمهم السريان اليعاقبة ، واضطهدوهم فاضطروا قبيل الفتح الإسلامي أن يهاجروا في أزمنة متوالية إلى شمالي لبنان ، واتخذوه موطناً لهم » . قال البلاذري في (فتوح البلدان) عنهم (ص ١٦٤) : « خرج بجبل لبنان قوم شكوا عامل خراج بعلبك ، فوجه صالح بن

علي بن عبد الله بن العباس من قاتل مقاتلهم ، وأقر من بقي منهم على دينه ، وردهم إلى قراهم ، وأجلى قوماً من أهل لبنان » . ويظهر أن الروم البيزنطيين في القرن الأول للهجرة ، لما خربوا هذا الدير وذبحوا رهبانه ، عفوا رسومه بالكلية ، فأصبح لا يعرف له أثر ولا خبر ، ومن الغريب أن ياقوت لم يذكر في معجمه هذا الدير العظيم ، الذي كان له في القرن السادس والسابع الميلاديين شهرة ومكانة جليلتين ، مع أنه أفاض في وصف أديرة كثيرة ، اشتهرت في بلاد الشام ، منها ماكان خرباً ومنها ماكان مأهولاً بالرهبان .

هذا وبعد محردة يغادر السائح على يمينه ضياع عديدة ، منها تل سكين قعادة ومعرزاف ، وقد ذكرهما أسامة بن منقذ في كتابه . وبعد الجدل يجتاز نهر الصاروت ، أحد روافد العاصي وعليه جسر قديم ، وهذا النهر يتألف من أودية وجداول ، تنحدر نحوه من أذيال جبل الكلبية بين بعرين ومصياف ، ثم يرى على يساره من الضياع الشير ، وعلى يمينه كفر آمين وتل سكين الصاروت ، وكفر الطون وتيزين ، وفي غربي هذه القرى ، يلمح التويم وأم الطيون ، وفي جنوبي تيزين الربيعة ومتنين . وفي تيزين أطلال عالية لقصر قديم ، قيل إنه كان مصيفاً للملك المظفر محمود .

وبعد أن يترك السائح على يساره ، قرى الشير وشيحا وأراضي معردفتين ، وعلى يمينه في سقي العاصي بساتين وغياض ملتفة ، تروى بالنواعير تدعى أزوار ، منها زور أبو زيد وزور الناصرية ، وزور الجديد وزور خطاب ، وأرزة ، يرى أمامه في وادي العاصي كازو ، وفي شرقيها قمحانة والظاهرية ، تمر منها سكة حديد حماة - حلب ، وهكذا إلى أن يدخل أرض العشر ، ويمر من جوار محطة السكة الحديدية ومقابر حماة ، وأحيائها القريبة منها ، ثم يهبط وادي حماة المنخفض .

طريق حلب ـ حماة

يمكن أن يذهب السائح في يومنا من حلب إلى حماة في طريقين : الأول في السكة الحديدية (طولها ١٤٣ كيلو متراً) ، والثاني في الطريق المعبدة (طولها ١٤٨ كيلو متراً) . فالسكة بعد خروجها من حلب تمر بمحطات عديدة ، منها في (الكيلومتر ٢٩) محطة الحميدي ، ثم تدخل مطبخ قنسرين ، وتشطره إلى شطرين ، فتمر فيه في (الكيلو متر ٥٠) بتل الجينة ، وفي (الكيلو متر ٥٨) بأبي الضهور ، وهي محطة ذات مكانة عسكرية ، تجاه حركات البدو وتنقلهم ، ولذا قلما تخلو من الجنود ، ثم تدخل كورة العلا ، وتجتاز أوعارها وسهولها الشاسعة ، فتمر فيها في (الكيلو متر ٨٥) بأم الرجيم ، وفي (الكيلو متر ١٠١) بالحمدانية ، وفي (الكيلو متر ١١٥) بكوكب ، وهنا تنتهي كورة العلا ، وتدخل السكة ضاحية حماة ، فتمر في (الكيلو متر ١٢٩) بالقمحانة ، ثم بعد أن تجتاز نهر العاصي فوق جسر كازو ، تمر بنشز يدعى الشرفة ، يطل على وادي حماة ؛ يرى فيه راكب القطارمنظراً رائعاً من مناظر حماة ، فيه عاصيها ونواعيره الدائرة ، وبساتينها وقلعتها ، وأحياءها الشرقية والبراري الممتدة بعدها ، ولا يزال حتى يصل إلى محطة حماة في (الكيلو متر ١٤٣) .

والذي يفضل السيارة على القطار ، يسلك في يومنا الطريق المعبدة ، الآتية من الأسكندرونة، وقد تقدم ذكرها في (ص ٧٦) ، فيمر في (الكيلو متر ٣) عن حلب ، بالطريق اللاحب الآخذ إلى قلعة جبل سمعان (دير القديس سمعان العمودي) وفي (الكيلو متر ٦) بضيعة بنيامين ، وهي على اليمين . وفي (الكيلو متر ٩) يهبط الوادي الذي فيه خان العسل وقريته ، وفي (الكيلو متر ٢٢) يجتاز أورم الكبرى ، وفي ٢٧ أورم الصغرى ، وهنا مفرق الطريق الذاهبة نحو الأسكندرونة ، وفي (الكيلو متر ٤٧) تفتناز ، وهنا أيضاً مفرق الطريق الذاهبة إلى إدلب وجسر الشغر واللاذقية ، وقد تقدم ذكرها في (ص ١٢٢) ، وبعد تفتناز تتجه الطريق نحو الجنوب ، ففي (الكيلو متر ٥٣) خربة

كبيرة تدعى تيزر ، كانت عامرة في القرن السابع أيام ياقوت ، قال عنها : « تيزر قرية كبيرة من أعمال سرمين ، وأهلها إسماعيلية ، وفي (الكيلو متر ٥٧) قرية آفز ، وفي (الكيلو متر ٦٢) على يسار الطريق سراقب ، وهي قرية كبيرة ، نازعت سرمين المكانة ، وجرت إليها طريق السيارات ، ثم مركز الناحية ، وبنت بلديتها في غربيها ، على حافة الطريق ، بناء حديثاً للناحية ، وبعد سراقب ضيعة جوباس ، وفيها تل وبرج ، وبعد قليل في (الكيلو متر ٧٢) على اليسار قرية معردبسة ، وفي (الكيلو متر ٧٥) قرية خان السبيل ، وفيها خان كبير من الخانات القديمة المحصنة ، التي مدحها ابن جبير الأندلسي ، في أعلاه كتابة فيها اسم الملك الأشرف شعبان في سنة ٧٧٠ هـ ، وعلى يسار قنطرة بابه شبه كأس من الحجر ، وهو من شعار السلاطين المماليك ، والقنطرة مؤلفة من أعمدة حلزونية صغيرة ، كثيرة العدد ملتصقة ببعضها ، على شكل قوس جميل . وفي هذا الخان بابان صغيران ، الأول على يسار الباب الأصلي ، والثاني في داخل البناء الواسع المرتفع وراء الخان ، وكلاهما بنيا على النسق البيزنطي الجميل ، مما يدل على أنها غريبان ، نقلا إلى هنا من مكان آخر . وفي (الكيلو متر ٧٧) أطلال باب أيلة أو بابيلا ، وفيها بقايا عضائد وعتبات ، وأسس جدران كثيرة ، ويظن أن عمران المعرة كان يصل إلى هذه الأطلال . ثم يتقدم السائر وهو يرى على يمينه هضاب جبل الزاوية ، وصخورها المتصدعة الرمادية الجرداء ، إلى أن يصل في (الكيلو متر ٨٢) إلى معرة النعمان .

وكانت القوافل في العصور الغابرة ، والمركبات التي أدركناها ، إذا خرجت من حلب قاصدة حماة ، تخرج من جهة أرض الفيض ، في جنوبي حلب إلى الغرب ، وتمر بقرية كبيرة من ضواحي حلب تدعى الأنصاري نسبة للصحابي عبد الله الأنصاري ، اشتهرت بسعة أرضها ، ومقدرة أهلها في الفلاحة ، ثم تجتاز تلعات وأودية صخرية جرداء ، إلى أن تصل إلى قرية طومان ، وفيها خانان قديمان كبيران ، الأول من القرن التاسع ، والثاني من القرن السابع الهجريين وكلاهما على وشك الدثور . وبعد خان طومان تمر الطريق بقرية الزربة ، وفيها مدير ناحية ومخفر لجند الدرك ، وفيها يلمح السائر في الجنوب جبل النبي عيص ، المطل على خربة مدينة قنسرين . ثم تنحرف الطريق نحو الجنوب ، مارة بضياع ذات أرضين حمراء أعذاء ، التي على اليسار تدعى (اليمة) من الأملاك الخاصة بالدولة ، والتابعة لشعبة قنسرين ، وسيأتي وصفها ، والتي على اليمين ، من عمل ناحية

سراقب ، التابعة قضاء أدلب . ولا تزال الطريق سائرة إلى أن تصل إلى سراقب ، التي تقدم ذكرها . وبعد أن ظلت هذه الطريق مجاز السيارات أيضاً إلى سنة ١٣٤٨ هـ ، رأت إدارة الأشغال العامة التي تعنى بالطرق ، أن تصل طريق حماة بطريق إدلب في تفتناز ، فعبدت مابين سراقب وتفتناز ، وهجرت طريق خان طومان .

وفي العصور الغابرة كانت الجيوش الزاحفة من حلب نحو حماة وحمص ودمشق تفضل الابتعاد عن طريق سراقب والمعرة ، مخافة الاصطدام مع حماة هذه البلاد العامرة ، ورغبة بالحصول على مياه ومراع لخيولها ، كانت تجدها متوفرة في طريق شرقية على سيف البادية ، وهي الخارجة من جنوبي حلب نحو شرقي مطخ قنسرين ، وشرقي كورة العلا ، حيث الآن من القرى : بلاس وكفر عبيد ، وبره ده والبيباعيات ، ثم الخرايج وتل حلاوة ، والحمراء وسلمية ، وسنذكر في بحث الحمراء وسلمية ، أسباب تفضيل الجيوش هذه الطريق الشرقية على الغربية .

قنسرين : قنسرين بلدة تاريخية ، واقعة في سفح جبل النبي عيص ، الذي تقدم ذكره ، وهوجبل صغير يستطيل من الشرق إلى الغرب ، في ذروته قبة بيضاء كان أصلها بيعة خربة ، اتخذت بعد مدفناً لرجل زعموا أنه النبي عيص . وثمة قرية بيوتها قباب مخروطية ، يقطنها أعراب فلاحون تدعى العيص ، بنيت فوق أطلال مدينة قنسرين . قيل : إن لفظة قنسرين سريانية أصلها قنشرين ، ومعناه قن النسور . وكانت هذه المدينة قاعدة كورة واسعة في شمالي الشام ، وكانت حلب من بعض أعمالها ، ذكرها ابن جبير في رحلته ، لما مر بها سنة ٥٧٩ هـ قال : « وقنسرين هذه هي البلدة الشهيرة في الزمان ، لكنها خربت وعادت لم تغن بالأمس ، فلم يبق شيء من آثارها الدارسة ورسومها الطامسة ، ولكن قراها عامرة منتظمة ، لأنها على محرث عظيم ، مد البصر عرضاً وطولاً وتشبهها من البلاد الأندلسية جيان ، ولذلك يذكر أن أهل قنسرين عند استفتاح الأندلس نزلوا جيان ، تأنساً بشبه الوطن وتعللاً به ، مثل مافعل في أكثر بلادها حسبما هو معروف » ا هـ . وقال أبو الفداء في (تقويم البلدان) : « قنسرين من قواعد الشام القديمة » وقال في (اللباب) « وقنسرين كان الجند تنزلها في ابتداء الإسلام ، ولم يكن لحلب معها ذكر . وكانت قنسرين من أجناد الشام ، ثم ضعفت بقوة حلب وخربت ،

وهي الآن قرية صغيرة ، وتحتها يصب نهر قويق في المطخ ، وربوة قنسرين مشرفة عليها ، ومنها إلى حلب مرحلة صغيرة » ا هـ .

قيل الذي بنى قنسرين (سلوقس نيكاتور) ودعاها Chalcis ad bellun ، أي شالسيس العاصي ، تمييزاً لها عن شالسيس لبنان (مجدل عنجر ، شرقي البقاع) ، ومكانة قنسرين كانت ناشئة من بقائها حتى القرن السابع ممر القوافل الذاهبة من حلب إلى دمشق ، أو إلى أنطاكية ، حتى أن الرصيف الروماني بين أنطاكية وحلب ، الذي تقدم وصفه في الصفحة ٧٣ كان يمر بها . وكانت قنسرين مشرفة على كورة واسعة تدعى Chalci dème ، أي شالسيديا ، فيها أخصب سهول شمالي الشام ، زارها في سنة ٣٧٣ م القديس (جروم) ، فوجدها مدينة ذات مكانة كبرى ، غنية بغلاتها الزراعية وصادراتها التجارية ، وكان حصنها يحرس المدينة وأرباضها ، من غارات أعراب البادية ، وفي سني ٥٥٠ ـ ٥٥٥ م بنى (يوستينانوس) سورها أو رممه . وفي سنة ١٧ هـ فتحت قنسرين على يد أبو عبيدة ، قال البلاذري في (فتوح البلدان) : « ثم أتى أبو عبيدة قنسرين ، وعلى مقدمته خالد بن الوليد فقاتله أهلها ، ثم لجؤوا إلى حصنهم ، وطلبوا الصلح ، فصالحهم أبو عبيدة على مثل صلح حمص ، وغلب المسلمون على أرضها وقراها ، وكان حاضر قنسرين لتنوخ مند أول ماتنخوا بالشام نزلوه ، وهم في خيم الشعر ، ثم بنوا به المنازل ، فدعاهم أبو عبيدة إلى الإسلام ، فأسلم بعضهم ، وأقام على النصرانية بنو سليح بن قضاعة » . وقال في مكان آخر : « واستتم أبو عبيدة أمر حمص فكانت حمص وقنسرين شيئاً واحداً » ثم قال « ولم تزل قنسرين وكورها مضمومة إلى حمص حتى كان يزيد بن معاوية ، فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج وذواتها (كذا) جنداً ، فلما استخلف هرون الرشيد ، أفرد قنسرين بكورها ، فصير ذلك جنداً واحداً ، وأفرد منبج ودلوك ، ورعبان وقورس[1] ، وأنطاكية وتيزين ، وسماها العواصم لأن المسلمين يعتصمون بها ، فتعصمهم وتمنعهم ، إذا انصرفوا من غزوهم ، وخرجوا من الثغر ، وجعل مدينة العواصم منبج » ا هـ . وقال ياقوت في معجمه « وسمي الجند جنداً لأنه جمع كورة ، والتجنيد التجميع ، وقيل سميت كل ناحية جنداً ، لأنهم كانوا يقبضون فيه أعطياتهم ، إلخ ...

---

(١) دلوك ورعبان وقورس حصون كانت قرب مدينتي عينتاب وكليس ، داخل الحدود التركية في يومنا .

فيستدل من هذا ، أن الأمويين والعباسيين لما رأوا ما لموقع قنسرين الجغرافي من المكانة ، اتخذوها مركزاً لجيوش المسلمين ، المرابطة في شمالي الشام ، ودعوا البلاد المرتبطة بها جند قنسرين ، أو بعبارة عصرنا الحالي (منطقة قنسرين العسكرية) . ولم تزل قنسرين عامرة آهلة ، وحلب تابعتها ، تتقلب عليها الولاة من الأمويين والعباسيين ، وثب أهلها في سنة ٩٥ هـ فعوقبوا ، وفي سنة ١٥٠ هـ في خلافة المنصور ضربت فيها سكة وفي سنة ٣٣٣ هـ تواقع في أرضها سيف الدولة بن حمدان والأخشيد محمد بن طغج ، قيل لم يظفر أحد العسكرين بالآخر ، وقيل إن الدائرة دارت على سيف الدولة ، ودخل الأخشيد حلب ، وعاث أصحابه في أنحائها . وفي سنة ٣٥١ هـ استولى الروم على حلب ، لعجز سيف الدولة يومئذ ، وقتلوا جميع من كان بربضها ، فخاف أهل قنسرين ، وتفرقوا في البلاد ، فطائفة عبرت الفرات ، وطائفة نقلها سيف الدولة بن حمدان إلى حلب ، كثر بهم من بقي من أهلها . قال ياقوت بعد أن ذكر ذلك : « وليس بها اليوم (أوائل القرن السابع) إلا خان ينزله القوافل وعشار السلطان وفريضة صغيرة » . وقال بعضهم : « كان خراب قنسرين في سنة ٣٥٥ هـ ، قبل موت سيف الدولة بأشهر ، كان قد خرج إليها ملك الروم ، وعجز سيف الدولة عن لقائه ، فأمال عنه فجاء إلى قنسرين وخربها ، وأحرق مساجدها ولم تعمر بعد ذلك ، وحاضر قنسرين بلدة باقية إلى الآن » ا هـ . وفي سنة ٥٦٤ هـ نقل نور الدين محمود أعمدة سورها إلى جامع حلب ، ولم تزل قنسرين خراباً يباباً ، إلى أت عمرت فوق رسومها الطامسة قرية ، لما أسست إدارة المزارع السلطانية ، المعروفة في يومنا باسم (أملاك الدولة) في أواخر عهد السلطان عبد المجيد فيما قيل ، وسميت العيص ، باسم النبي الذي يزعمون أن ضريحه في ذروة الجبل المجاور لها ، وتنوسي اسم قنسرين ، إلا من أحد أبواب حلب ، الذي كان يخرج منه قاصدوها .

وآثار قنسرين الدارسة ، تمتد على مسافة بعيدة في سفح جبل النبي عيص ، من جنوبه وشرقه ، إلى قرب جسر برنة على نهر قويق ، تدل أسس جدرانها العريضة وكسور أعمدتها الضخمة ، على أنها كانت مدينة عظيمة ، ذات عمران وازدهار غير يسيرين . وفي جنوبي هذه المدينة تل صناعي يعلو نحو خمسين متراً ، يشرف في جنوبه وشرقه على سهل المطخ الأفيح ، ويشرف في غربه على ضياع البقعة المرتفعة الحمراء الشاسعة التي يطؤها قاصد قنسرين من سراقب ، واسمها في عرف أعراب هذه الديار (الية) ، وفي جنوبه على

مناقع المطخ ومروجه ـ لما كانت فيه مناقع ومروج ـ ، وما بعد المطخ من تلعات كورة العلا وهضباتها ، وفي شرقيه يلمح السكة الحديدية القادمة من حماة نحو حلب ، وبعدها السهول الفيح الممتدة من المطخ إلى حضيض جبل الأحص ، الواقف على ضعته ، كالجدار في الأفق الشرقي ، وقد كان فوق تل قنسرين حصن دثر ، وسطح هذا التل متسع مستو ، يحيط به سور عريض ، كانت أسس جدرانه ماثلة ، لما زرته سنة ١٣٤٥ هـ ، رغم انكباب أهل قرية العيس على قلع أحجارها لبناء دورهم بها . ويلحظ الباحث أن هذا السور كان محصناً في زواياه بالأبراج والقلل المربعة ، وأنه كان في داخل السور مساكن وأزقة ، لاتزال خططها مشهودة . وفي الجهة الشرقية ينفصل عن سور الحصن جدار مستقيم ، ينحدر في لحف التل ، وكان هذا الجدار يحيط بالمدينة السفلى من جهة الجنوب ، وكانت هذه المدينة تصل إلى أول مرتفعات جبل النبي عيص ، وكذلك في الجهة الشمالية ينفصل جدار آخر يمتد نحو الشمال ، حتى يصل إلى سفح الجبل المذكور ، ولا يزال أساس هذا الجدار ماثلاً للعيان . وكان الجداران المذكوران يؤلفان قسماً من سور المدينة ، الذي قد دثرت بقية أقسامه ، وهو من بناء (يوستنيانوس) . وفي كل المنحدر القبلي لجبل النبي عيص حفر الأقدمون مقالع جسيمة ، فيها كثير من المدافن . وقد نقرت الصخور ، حتى صارت كالمصفاة التي لاتعد ثقوبها ولا تحصى ، وكل منها مدخل لمدفن في جوف الصخر . ويظهر أن استثمار المقالع كان قبل وجود هذه المدافن . وفي غربي القرية الحالية ضريح تحت قبة قديمة ، زعموا أن ضريح الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك ، المعروف أنه مات في دابق شمالي حلب ودفن فيها ، ولما سألتهم البرهان على زعمهم وجموا ، ثم قالوا : إن حجرة كانت على عتبة باب هذا الضريح رفعت ونقلت ، قلت إذن لعله أحد ولاة جند قنسرين في زمن بني أمية .

ومطخ قنسرين بطيحة في جنوبي قنسرين ، منخفضة عما حولها ، تجتازها السكة الحديدية الآتية من حماة إلى حلب ، تصب فيها فضلة مياه نهر قويق حينما كان له شأن وحياة ، فتصل هذه المياه إلى حيث لاتجد لها منصرفاً ، تستمر فيه بحكم ارتفاع الأرضين المحيطة بالمطخ ، فتستغدر خلال الشتاء ، وتنبطح إلى مسافات شاسعة ، تظهر للرائي كالبحر الخضم ، فيروي فلاحو ضياع المطخ منها زروعهم الشتوية ، وإذا أقبل الربيع تغور وتجف ، فيزرعون أماكنها قطناً وذرة وغيرها ، فتجود أي جودة ، لكن المياه المستغدرة

تنبت فيها الأعشاب المائية ، وتنمو أسراب البعوض المسببة لحمى البرداء ، فيقع أهل ضياع المطخ في براثنها ، لذلك تراهم صفر الوجوه ، هزلى من وبال المرتع ، وليست كل مياه المطخ من قويق وحده ، بل في جنوبه وادٍ يأتي من أنحاء المعرة يدعى الهرماس ، يحمل سيول جبل الزاوية ، وفي شماله الغربي وادٍ آخر ، يأتي من قرية برقوم وما حولها ، هذا عدا عن العيون الغزيرة الدائمة ، في قرى تل طوقان وتل السلطان ، ورأس العين وتل كلبة وغيرها ، وكلها مما يزيد طينة المطخ بلة . وتقدر مساحة المطخ بعشرين ألف هكتار ، وتربته طينية رملية حارة ، تخصب إذا غمرتها مياه قويق وغيرها . ورويتها ، وإلا فالجدب واقع لا محالة ، إذ لا تقنع هذه التربة بمياه المطر مها هطلت . لأنها تربة قعر بحيرة ، تتشقق وتبتلع كميات عظيمة من الماء . وقد تمادى هذا الجدب في يومنا منذ سنة ١٣٤٥ هـ ، وقل ورود مياه الأودية التي عددناها ، وانقطع قويق بالمرة ، بعد أن استبد به الترك في ينابيعه العليا في أنحاء عينتاب ، ولم يبق له سوى بعض العيون في شمالي حلب وقبليها وهي غير كافية ، وقويق في إبان مجده كان ضعيفاً ، يستهزئ به الشعراء قائلين :

إذا ما الضفادع نادينه	قويق قويق أبى أن يجيبا
وتمشي الجرادة فيه فلا	تكاد قوائمها أن تغيبا

فما بالك الآن ، وقد صار هو وسهل المطخ في خبر كان ، وساء حال فلاحي هذا السهل الخصب ، وصاروا يتمنون وبال المرتع ، الذي زال بزوال الماء ، وعندهم الهزال مع الرزق المقنع ، أفضل من الصحة مع الفقر المدقع .

وأجل ضياع المطخ التي كانت تتمتع بمياه قويق ، وتزكو زروعها بفضلها ، العيس وبانص ، وتليلات ووريدة ، وتل باجر والعزيزية ، ومكحلة ومريودة ، وتل ممو والحوير ، والزيارة وتل علوش ، ودريكيلة (وصاحب هذه حلبي ، يستعمل في زراعته الأساليب والآلات الإفرنجية الحديثة) ، وأم القراميل . وفي أطراف المطخ ضياع أخرى تستفيد من هذه المياه إذا فاضت عن الضياع الأولى ، كزمار وجزرايا ، وعثمانيةوتل عقارب ، وتل الوز وتل الفخار ، وبراغيدي والواسطة ، وطرفاوي وكفر حداد ، والعطشانتين الشرقية والغربية ، ودلامة والتويم . وفي جنوبي المطخ ، ضياع غنية بالينابيع والعيون السارية ، كالطويحيني وأبي الظهور ، وتل السلطان وتل الطوقان ورأس العين .

وتلول ضياع المطخ صناعية ، كانت فيما مضى عامرة بالقرى أو الحصون ، أجلها مساحة وقدراً تل السلطان ، الذي كان في القرون الغابرة منزل بعض الجيوش الزاحفة نحو حلب ، والخارجة منها لوفرة الينابيع والمروج الممتدة حوله ، ذكر ياقوت « أن فيه خاناً ومنزلاً للقوافل ، وأنه كان يعرف بالفنيدق ، وفيه كانت وقعات ، أولها في سنة ٤٥٢ هـ ، بين (ناصر الدولة بن حمدان) الذي أرسله الفاطميون لاستخلاص حلب من يد (محمود بن نصر بن مرداس) ، وكانت الدائرة على ناصر الدولة ، ولما جاء السلطان ملك شاه السلجوقي إلى شمالي الشام نزل فيه ، في سنة ٤٧٩ هـ برهة ، فدعي من ذلك الحين بتل السلطان . والوقعة الثانية في سنة ٤٨٧ هـ بين تاج الدولة (تتش السلجوقي) الذي جاء من دمشق لفتح حلب ، وبين (آق سنقر أبي عماد الدين زنكي) وحلفائه ، وكانت الدائرة على آق سنقر ، أسر فيها وقتل ، قيل إن ملتقاهم كان عند نهر سبعين ، قريباً من تل السلطان على ستة فراسخ من حلب (أبو الفداء ٢ / ٢١٤) ، ولا يعرف الآن هناك نهر باسم سبعين ، فهل هو النهر الذي ينبع قرب تل السلطان ، ويغور في المطخ ؟ والوقعة الثالثة في سنة ٥٧١ هـ بين السلطان (وصلاح الدين الأيوبي) و (سيف الدين غازي) بن مودود بن عماد الدين زنكي ، وكانت الدائرة على سيف الدين ، واشتهر تل الطوقان بهذا الاسم فيما زعموا ، لحدوث معركة قبل قرن أو قرنين بين قبيلة الموالي وفريق من الأعراب يدعون الطوقان ، سمي التل باسمهم ، ثم بعد المعركة انضم الطوقان إلى الموالي ، وصاروا من أفنادهم وما برحوا .

وفلاحو قرى المطخ أعراب ، يزعمون أن منشأهم من سقي الفرات وأزواره ، وهم ينتسبون إلى قبائل وأفناد شتى ، لاصلة بينها ، منها الشاهر وزويفات ، ومداهيش والأبو شيخ ، والأبو ليل والأبو شعبان ، إلخ ... وأجل هذه الأفناد شأناً ، تلك التي تنتمي إلى قبيلة الحديديين ، وتعد من (اللحقة) المضمومة إليها ، كالأبرز والأبو شهاب الدين والأبو عاص . وشيخ الحديديين الأكبر نواف الصالح ، يقطن في قريته طويحيني (جنوبي المطخ) ، وحوله أبناء عشيرته الأقربين آل إبراهيم . وكان أبوه صالح وجده جرخ الإبراهيم ، يقطنان في زمنهما في ضيعة تدعى البويدر في سيف البادية إلى الشرق الجنوبي من المطخ .

هذا ولا يسع الملاحظ حالة هذا المطخ الغابرة والحاضرة ، إلا أن يسأل كيف كانت قراه إبان عمران قنسرين وازدهارها ، وحالة مجاري الري المشتقة من قويق في تلك الأعصر ، ومقادير الغلال والمنافع التي أوجبت إنشاء هذه التلول الصناعية الضخمة فيه ، وكيف كان (الحرث العظيم مد البصر طولاً وعرضاً) الذي أدركه الرحالة ابن جبير (القرن السادس) ، وكيف أصبح المطخ الآن خلال السنوات الأخيرة ، غير المطخ الذي أدركناه قبل عشر سنوات ، جفاف بعد ري ، وجدب بعد خصب ، ونقاء هواء بعد وخامته ، ترى أيدوم هذا الحال سنين طوال ، أم هو عرضي وقتي ؟ ثم لا يسع الملاحظ إلا أن يعجب بتسمية ياقوت المطخ بأجم ، قال : « أجم بالتحريك ، موضع بالشام قرب الفراديس [؟] من نواحي حلب » . قال المتنبي

الراجع الخيل محفاة مقودة	من كل مثل وبار شكلها أرم
كتل بطريق المغرور ساكنها	بأن دارك قنسرين والأجم

والأجم في اللغة مكان الشجر الملتف ، أو النبت الناهض المنتشر ، فهل كان المطخ في عهد المتنبي (القرن الرابع) وياقوت (القرن السابع) غير مزروع ، مهملاً حتى نمت فيه الأشجار والأشواك والتفت ؟ وكيف نوفق بين قولها هذا وبين قول ابن جبير عن عمل قنسرين « الحرث العظيم مد البصر طولاً وعرضاً » ؟

وفي غربي المطخ بقعة مرتفعة ، ذات أرضين حمراء أعذاء ، تدعى في عرف أهلها ، وهم أعراب أيضاً (الية) بتشديد الميم ، وهي أنقى هواء من المطخ ، فيها ضياع عديدة ، كرسم قنسرين وأم عتبة ، وطلافح وسلامين ، وخواري وأباد ، وتل باجر ودهبية . وغيرها مما يمتد جنوباً إلى حدود كورة العلا . وفي شرقي المطخ أيضاً ، سهول شاسعة تمتد إلى سفح جبل الأحص ، تتخللها بضع أكات وتلعات ، انتشر فيها كثير من الضياع ، كانت تخصب تربتها الصفراء ، في سني الإقبال أي خصب ، أشهرها من الشمال إلى الجنوب ،كفر عبيد وبره ده ، وبلاس والبويضة ، ومشرفة الحلاج والجفرة ، وغراريقة وتل ماسح ، وهذه ذكرها ياقوت قال : « تل ماسح قرية من نواحي حلب » ا هـ . ولا يزال فيها أطلال وآثار تدل على قدمها ، ولها ذكر في تاريخ سيف الدولة بن حمدان ، مر بها سنة ٣٤٤ هـ حينما قصد بني كلاب وغيرهم ، من أعراب البادية الذين عصوا عليه وتكل بهم .

وجميع هذه الضياع التي عددناها ، في المطخ وفي غربيه وشرقيه ، من (أملاك الدولة) التي ذكرناها ، وكان لها إدارة خاصة تدعى شعبة ، كان مركز موظفيها الأخير في محطة أبي الظهور . وفي جنوبي ضياع أملاك الدولة هذه ، تمتد في الشرق إلى حدود البادية ضياع أخرى عديدة ، أخصها البياعية الكبيرة والبياعية الصغيرة ، وبويدر وحرملة ، والخرايج وغيرها ، وأهل هذه الضياع أيضاً أعراب ، ينتمي أكثرهم إلى الحديديين ، وثمة في بعض ضياع أملاك الدولة ، كأرجل ورجيلات ، أعراب يدعون اللهيب ، ينتمون إلى الموالي ، اشتهروا بالشراسة واللصوصية .

وقاصد الوصول من حلب إلى قنسرين ، يخرج من أحد أبواب حلب الأثرية المسمى باب قنسرين ، ويجتاز نهر قويق في الشمال الغربي من قرية الشيخ سعيد ، ثم يعلو أكمة فيها قرية المغارة ، ثم يجتاز سهلاً يلمح في يمينه عن بعد قريتي زيتان وقلعجية ، إلى أن يجتاز نهر قويق مرة أخرى فوق جسر برنة ، في غربيه قرية برنة ، وفي شرقيه قرية الحاضر ، وهي حاضر طيء ، أو حاضر قنسرين ، التي يقول فيها أحد الشعراء :

سقى الله إخـــوانـــاً ورائي تركتهم بحـــاضر قنسرين من سبـــل القطر

وذكر ياقوت موضع في هذه الأنحاء أسماه الفراديس ، وليس له الآن رسم ، ولا اسم ، قال : « الفراديس موضعاً قرب حلب بين برية خساف (؟) ، وحاضر طيء من أعمال قنسرين » وإياها عنى المتنبي بقوله ، وقد اجتاز بها فسمع زئير الأسود ، فقال :

أجـــارك يـــا أســـد الفراديس مكرم فتسكن نفسي أم مهـــان فمسلم
ورائي وقـــدامي عـــداة كثيرة أحـــاذر من لص ومنـــك ومنهم

المعرة : المعرة بليدة بنيت على نشز ، يتصل في الغرب بالتلعات الصاعدة نحو جبل الزاوية ، وتحيط بها من بقية جهاتها أودية وسهول ، كانت فيما مضى مغارس للتين والزيتون ، والفستق واللوز ، لم يبق من ذلك إلا أثر ضئيل ، والفستق فقد بالمرة . وهيئة المعرة تماثل حلب ، على نسبة مصغرة ، لتشابه دورها الحجرية الشهباء ، ويبلغ عدد سكانها نحو ٥٠٠٠ مسلمون ، وفيها دار حديثة لحكومة القضاء ، بنيت في جانبها الشرقي ، وجوامع ومساجد عديدة ، أجلها شأناً الجامع الكبير ، وأربع حمامات ومعاصر للزيت ، ومطاحن تدار بالدواب ، وسوق صغير له قناطر ، وأحياؤها وأزقتها مبلطة ، وفيها عدة

سبابيط ، ولا تخلو ناحية فيها من الأنقاض الأثرية ، المستعملة في تضاعيف المباني ، أخصها تيجان أعمدة من كل الأشكال المعروفة ، كما أنه مامن محل يحفر في المعرة إلا وتظهر فيه أسس جدران وكسور أحجار وخزف تدل على أن البلدة الحالية مبنية فوق أنقاض المعرة القديمة التي خربت مراراً كما سنبينه في تاريخها .

وفي المعرة أثران عربيان كأنهما من صنع معمار واحد ، الأول مأذنة الجامع الكبير ، والثاني المدرسة الشافعية . وثمة في شرقي البلد خان كبير ، على بابه كتابة فيها : قد بنى هذا الخان لوجه الله تعالى ، حامي دفاتر ديوان السلطان (مراد جلبي) فمن يمنع فقيراً ودوابه شتى ، فعليه لعنة الله والناس بطرق شتى ، سنة ٩٧١ هـ ، وثمة خان آخر يدعى خان (أسعد باشا العظم) أحدث من الأول ، فهو من عام ١١٩٦ هـ ، وفي المعرة جامع فيه مقام للنبي يوشع ، وجامع آخر فيه غار ، يشتمل على قبر عطا الله بن رباح ، حامل لواء النبي ﷺ ، أما الجامع الكبير ، فواقع في منخفض ، يهبط إليه بدرج عريض ، وهو يشبه في جملته الجامع النوري في حمص ، إلا أن مأذنته أجمل وأبدع ، تشبه مأذنة الجامع الأموي في حلب . وهي من سنة ٤٢٧ هـ ، مربعة الأضلاع ، ومؤلفة من سبعة أبراج ، نقشت عليها كتابات عديدة ، تعذر قراءتها كلها ، فالأولى بقلم ريحاني ، والثانية التي في البرج الثالث تحوي (محمد بن قانت بن قاهر بن علي) ، والثالثة في البرج السابع ، وعلو هذه الأبراج متساو فيما يظهر ، فهو في كل منها ٣,٨٥ متراً ، فيكون علو المأذنة كلها ٢٦,٩٥ متراً . وفي صحن الجامع حوض كبير للوضوء ، مغطى بسقف كالقبة ، له أعمدة بيزنطية جميلة ، وحوض آخر قديم ، اتخذ مزولة . أما المدرسة الشافعية ، فلها باب يشبه باب البيمارستان النوري في حلب ، وعليه كتابة تاريخها ٥٩٥ هـ ، واسم الملك المنصور ناصر الدين صاحب حماة . وفي داخل المدرسة غرفة سقفها قبة مزخرفة ، وعلى قنطرة الباب حجارة ضخمة طويلة ، متنوعة الألوان ألصقت ببعضها ، واستدارت حول القنطرة في شكل جميل . وأجل أثر في المعرة يستحق الزيارة ، هو ضريح الفيلسوف العربي ، الطائر الصيت أبي العلاء المعري التنوخي (٣٦٧ ـ ٤٤٩ هـ) ، يقع في بناء قديم خال عن كل بهاء ، من يزره يتصور صاحبه العظيم بشكله الذي أودعه الواصفون ترجمته . والضريح في غرفة منه صغيرة ، كتب على شاهدته بالكوفية (أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان) ، وفي جدار هذه الغرفة خط هذان البيتان :



ضريح أبي العلاء المعري (عن مجلة العاديات الحلبية)

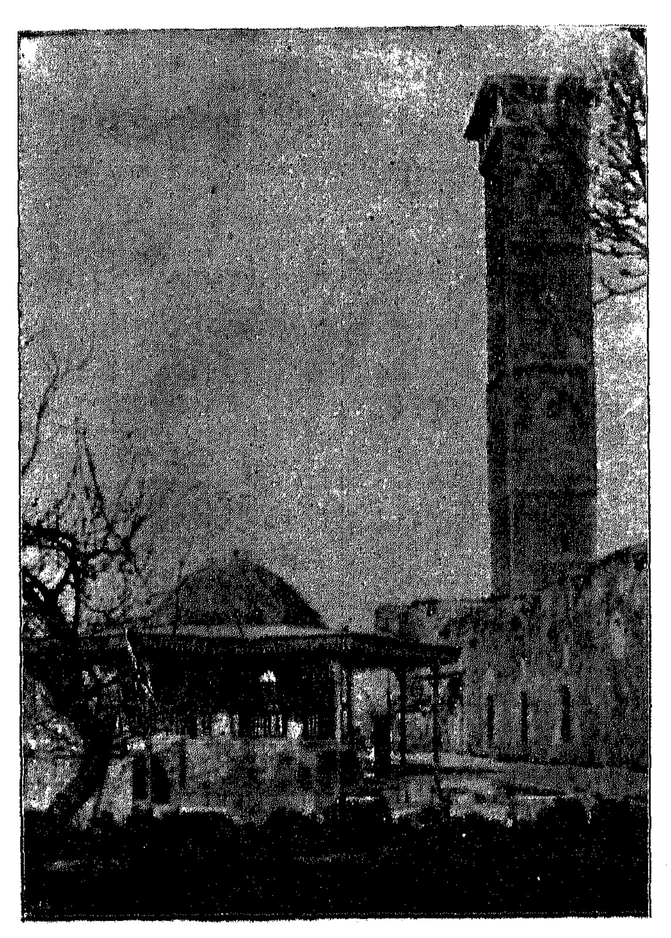
قد كان صاحب هذا القبر جوهرة ... نفيسة صاغها الرحمن من شرف
عزت فلم تعرف الأيام قيمتها ... فردها غيرة منه إلى الصدف

وفي غربي المعرة ، وعلى مقربة منها ، قامت قلعتها ، فوق أكمة مرتفعة ، منفصلة عما حولها ، قيل إنها كانت فيما مضى وسط البلدة ، وهي الآن خراب ، آخر من رممها وأحكم صنعها في سنة ٦٣١ هـ الملك المظفر بن الملك المنصور صاحب حماة ، ثم خربها الملك العزيز صاحب حلب نكاية به ، لهذا لم يبق فيها الآن سوى جدران متوهنة ، وأطلال دارسة ، انتشرت بينها دور لبعض الفلاحين هي أشبه بأجحار الضواري ، منها بمساكن بشر ، وثمة جامع قديم في وسطه حجر منقوش نقشاً جميلاً ، هذا وأطلال أسوار المعرة ، تدل على أنها كانت بلدة عظيمة ، وكان لها من جهة القلعة باب يدعى باب النبي شيث ، ومن جهة الشمال باب أيلة ، وهو الآن بعيد في طريق حلب ، وسيأتي ذكره ، ومن جهة الشرق باب منس ، لأنه يخرج منه إلى منس ، وهي قرية معروفة في كورة العلا ، كان ظهر فيها عاديات زجاجية وأسس ضخمة ، ومن جهة القبلة باب آخر يدعى باب نصرة ، عنده تل كبير ، زعموا أن فيه كنزاً . وقال آخرون ، إن المعرة كان فيها في عهد السلاطين المماليك سبعة أبواب : باب حلب والباب الكبير وباب شيث وباب البستان وبابان باسم حمص ، وماء المعرة من الآبار ، وهي عميقة جداً ، أو من ماء المطر المخزون في الصهاريج ، وهو أقل من حاجتها ، واستخراجه غير يسير ، ولم أدر ماالذي حدا بأبي العلاء لمدحه ، لما كان في العراق في قوله :

يا ماء دجلة ماأراك تلذ لي ... شوقاً كماء معرة النعمان

ولعل ذلك من نتائج حنينه لموطنه ، وفي رواية يعسر تصديقها ، أنهم جلبوا له بعد قوله هذا ماء من المعرة ، فلما ذاقه عرفه فقال : هذا ماؤها فأين هواؤها ؟

وفي شرقي المعرة على بعد نحو عشرة كيلو متر منها ، ضيعتان متجاورتان تدعى إحداهما الدير الشرقي ، والثانية الدير الغربي ، في الشرقي منهما ضريح يقال إنه ضريح الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ، زرته في ربيع سنة ١٣٥٠ هـ ، فوجدته تعلوه قبة مكشوفة الجوانب ، ولم أجد فيه كتابة ، تؤيد اسم صاحب الضريح ، إن كان عمر بن عبد العزيز حقاً أم غيره . والضريح مهمل غير معتنى به ، أحاطت به الأشواك



الجامع الكبير في المعرة (عن مجلة العاديات الحلبية)

والأعشاب ، واعترى الوهن أحجاره ، شأن جل أضرحة أسلافنا وعظمائنا ، الذين شادوا لنا هذا المجد التليد ، فبخسناهم حقهم ، ومن الغريب أن يموت الخليفة المذكور في خناصرة التي كان يقوم فيها ويدفن بدير سمعان ، على أن أبا الفداء يقول في تاريخه : (١ / ٢١٢) « وقيل توفي بدير سمعان ودفن به ، قال القاضي جمال الدين بن واصل ، والظاهر عندي ، أن دير سمعان هو المعروف الآن بدير النقيرة ، من عمل معرة النعمان ، وأن قبره هو هذا المشهور » ا هـ . فيظهر من ذلك ، أن ضيعتي الدير الشرقي والدير الغربي كان فيهما ديران ، أو دير باسم دير سمعان أو دير النقيرة ، وذكر ياقوت دير النقيرة ، وأنه في جبل قرب المعرة ، وأن فيه قبر للشيخ أبي زكريا يحي المغربي الصالح ، وأنه يزار في أيام ياقوت ، وقد زاره صلاح الدين الأيوبي حياً ، في عوده إلى حلب سنة ٥٨٤ هـ ، فكيف السبيل لحل هذا التناقض ، وتحقيق صحة دفن عمر بن عبد العزيز ، هل كان في المعرة أم في حمص التي له في شرقيها أيضاً ضريح باسمه ، وسمعان هذا من قديسي النصارى ، وله عدة أديرة بنيت على اسمه ، منها هذا الذي ذكرناه ، وآخر في أنحاء أنطاكية ، جنوبي السويدية على البحر ، ومنه يصعد إلى الجبل الأقرع ، وثالث في جبل سمعان الذي تقدم ذكره في الصفحة ٧٦

وإليك ماقاله الرحالون والجغرافيون عن المعرة : قال (ناصر خسرو الفارسي) في القرن الخامس سنة ٤٢٨ هـ « وبعد ستة فراسخ من سرمين ، تقول لك معرة النعمان . هاأنذه ، وهي مدينة آهلة بالسكان كثيراً ، ويحيط بها سور من حجر ، وشاهدت بالقرب من هذه المدينة ، سارية من الحجر زبرت عليها كتابة بحروف ليست بعربية ، فسألت أحدهم عن ذلك ، فأجابني أن هذا طلسم يحول دون العقارب ودخول المدينة والبقاء فيها . فإذا جيء بعقرب من الخارج ، وأطلق يفر ويبتعد ، وقدرت أن هذه السارية كان علوها عشرة آرش (لعله ذراع) . وأسواق المعرة طافحة بالأرزاق والخيرات ، وجامعها الأعظم مبني على أكمة ، قامت وسط المدينة ، ومن أي جهة اتجهت إلى هذا الجامع ، كان عليك أن ترتقي سلماً ذا ثلاث عشرة درجة ، ولا يزرع في هذه الجهات إلا الحنطة ، وتغل غلة حسنة ، ويكثر في قراها أشجار الزيتون والتين ، والفستق واللوز والكرمة ، ومياه المعرة تجمع من المطر ، أو تمتاح من الآبار » ، إلى آخر ماذكره عن أبي العلاء ، وكان حياً يرزق آنئذ . وقال ابن جبير في القرن السادس في رحلته سنة ٥٨٨ هـ بعد أن غادر قنسرين : « ثم

نزلنا بموضع يعرف بباقدين ، في خان كبير ، يعرف بخان التركان[1] وثيق الحصانة ، وخانات هذا الطريق كأنها القلاع ، امتناعاً وحصانة ، وأبوابها حديد ، وهي من الوثاقة في غاية . ثم رحلنا إلى أن رأينا عن يمين طريقنا المعرة ، وهي سواد كلها بشجر الزيتون والتين ، والفستق وأنواع الفواكه ، ويتصل التفاف بساتينها ، وانتظام قراها مسيرة يومين ، وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقاً » ا هـ . وقال ياقوت في القرن السابع « معرة النعمان مدينة كبيرة ، قديمة مشهورة ، من أعمال حمص ، بين حلب وحماة ، ماؤهم من الآبار ، وعندهم الزيتون الكثير والتين . ونعمان هو النعمان بن بشير الصحابي ، اجتاز بها فمات له ولد بها فدفنه ، وأقام عليه فسميت به . وهذا في رأيي سبب ضعيف ، ولا تسمى بمثله مدينة ، والذي أظنه أنها مسماة بالنعمان وهو الملقب بالساطع بن عدي . وفي جانب سورها ، في قبلي البلد قبر يوشع بن نون عليه السلام ، في برية فيا قيل ، والصحيح أن يوشع بأرض نابلس ، وبالمعرة أيضاً قبر عبد الله بن عمار بن ياسر الصحابي » ا هـ . وقال ابن بطوطة في القرن الثامن في رحلته سنة ٧٢٥ هـ : « والمعرة مدينة صغيرة ، أكثر شجرها الزيتون والفستق ، ومنها يحمل إلى مصر والشام ، وبخارجها على فرسخ منها ، قبر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، ولا زاوية عليه ولا خدم له ، وسبب ذلك أنه وقع في بلاد صنف من الرافضة أرجاس ، يبغضون العشرة من الصحابة ، ويبغضون كل من اسمه عمر ، وخصوصاً عمر بن عبد العزيز ، لما كان في فعله في تعظيم علي » . وفي نهاية الأرب في أخبار العرب للقلقشندي : « ذكر الحمداني أن المعرة من بلاد الشام ، هي صليبية تنوخ ، وأن تنوخ حي من اليمن من القحطانية ، وأنهم سموا بذلك ، لأنهم حلفوا على المقام بمكان الشام ، والتنخ المقام ، ومعنى صليبية تنوخ أن بها جمعهم المستكثر » . وقال شيخ الربوة في القرن الثامن أيضاً : « معرة النعمان وتعرف بذات القصرين ، ولها عمل من أحسن الأعمال ، وهو شعراء ممدودة ، وغالب شجرها التين والفستق ، واللوز والمشمش ، والزيتون والرمان ، والتفاح وكثير من الفواكه ، وسائرها يشرب من ماء السماء ، لا يعتنى في فلاحه بأكثر من الحرث تحته ، وجبل السماق من أعمر الأرض وأعملها فلاحاً ، من رآه ورأى الأندلس ، لم يفرق بين فلاحتها وفلاحة الأندلس » ا هـ .

---

(١) لم يتسن لي تحقيق موقع هذه القرية وخانها ، فهل هو خان السبيل الحالي ؟

واسم المعرة قبل الإسلام كان عرة arra ، ثم صارت معرة ، وفي العهد الإسلامي ضيف إليها كلمة النعمان ، لسبب اختلفت الروايات في تعليله ، كما اختلفت أيضاً بتسميتها بمعرة حمص ، وبذات القصور ، أو بذات القصرين ، بيد أن جميع المؤرخين والجغرافيين القدماء اتفقوا على أن المعرة كانت حتى القرن السادس (زمن مرور ابن جبير) والسابع والثامن (زمن شيخ الربوة وابن بطوطة) شعراء ممدودة ، أي ذات شجر كثير عدّوا أسماءه ، وأن قراها كانت عامرة متدانية ، وأرضها كثيرة الأرزاق ، وأن أهلها كانوا في القرن الثالث ، من بني تنوخ إحدى القبائل العربية المتنصرة الثلاث ، التي كانت في شمالي الشام قبل الفتح ، ثم أسلمت وهي : تنوخ وبهراء وتغلب ، ومنهم أبو العلاء المعري ، وأنها كانت ذات أسوار وحصون ، وأعمدة عليها كتابات لعلها يونانية من العهد البيزنطي ؛ وأن جامعها الكبير الذي يهبط إليه في يومنا ، كان يرتقى إليه في القرن الخامس ، بسلم ذي ثلاث عشرة درجة ، كما ذكره (ناصر خسرو) مما يدل - إذا صح الخبر ، ولم يكن ثمة خطأ في نسخ أو ترجمة رحلة السائح الفارسي المذكور - على أن المعرة خربت وعمرت مراراً ، وأن مبانيها الحالية في مستوى يعلو عن أسطحة المباني القديمة . وتاريخ المعرة قبل الإسلام مابرح غامضاً ، لم نعثر عليه فيما قلبناه من الأسفار ، وهي لابد أن تكون قد تأثرت مما جرى في تلك العصور ، في أنطاكية وأفامية ، وقنسرين والبارة ، وغيرها من المدن المجاورة لها ، التي بحثنا عن أحداثها ، أما في العهد الإسلامي فإليك ماالتقطناه من بطون التواريخ ، لما جاء أبو عبيدة سنة ١٧ هـ إلى المعرة ، خرج أهلها يقلسون ، أي يهللون ويرحبون ، وأذعنوا للجزية والخراج ، وتبعت المعرة بادئ بدء حمص ، كما كان حالها في عهد البيزنطيين ، ثم لما أحدث جند قنسرين ، صارت من أعماله ، ورأت في عهد الأمويين مارأته قنسرين ، من تقلب الولاة والأحوال ، ولما مات الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ هـ ، دفن في جوارها ، في مكان اختلفت الروايات فيه ، وكذلك كان حالها في أوائل عهد العباسيين ، ففي سنة ٢٠٨ هـ ولى الخليفة المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين على جند قنسرين ، وكلفه أن يطفأ فتنة نصر بن شبث العقيلي ، الذي كان غضباناً لقتل الأمين ومتوثباً ، فجاء عبد الله وكسر نصر بعد وقائع كثيرة ، وهدم عدة أسوار من مدن شمالي الشام ، ومنها أسوار المعرة ، ودك عدة حصون في عملها كحصن الكفر وحناك . وفي سنة ٢٤٥ هـ حدث زلزال عظيم في الشام ، وسقطت من ذلك كنيسة حناك الكبرى وغيرها .

ولما ضعف شأن العباسيين ، واستولى أحمد بن طولون عامل مصر وأبنائه على الشام (٢٦٤ ـ ٢٩٢ هـ) ، دخلت المعرة في حوزته . وفي عهدهم سنة ٢٦٩ هـ حفر أحد ولاتهم ، واسمه لؤلؤ خندقاً على المعرة ، وفي آخر عهدهم سنة ٢٩٠ هـ جاء القرامطة ، بقيادة (الحسين بن زكروية) صاحب الشامة ، ففعلوا في المعرة مثلما فعلوا في حماة ، مما ذكرناه في بحثها من قتل وتفظيع ، أغراهم في المعرة على ذلك المتولي على المعرة ، وكان كردياً ذكرنا مصيره في بحث أفامية أيضاً . وفي سنة ٢٩١ هـ جاءت جيوش الخليفة المكتفي ، واشتبكت مع القرامطة في قرية التانعة من عمل المعرة ، ومزقت شملهم . وبعد أن عاد العباسيون وقووا سيطرتهم في الشام مدة ، ظهر الأخشيديون في مصر والشام (٣٢٣ ـ ٣٥٧ هـ) ، ودخلت المعرة في حوزتهم . وفي عهدهم سنة ٣٢٥ هـ وردت أعراب بنو كلاب من نجد ، وانتشروا في شمالي الشام ، وأغاروا على المعرة ، وأسروا واليها وأكثر جنوده ، إلى أن خلصوه من أيديهم . وفي عهد (سيف الدولة بن حمدان) دخلت المعرة في حوزته ، وبعد موته جاء قيصر الروم (نقفور الفقاش) ، الذي تقدم ذكره مراراً ، واستولى سنة ٣٥٧ هـ على المعرة ، وأحرق جامعها الكبير ، وخرب قسماً من أسوارها ، ومبانيها وعاث . ولما تعاهد قرعويه مولى (سيف الدولة بن حمدان) مع القيصر المذكور في سنة ٣٥٩ هـ ، دخلت المعرة بحكم هذه المعاهدة في ملك قرعويه . وكان (سعد الدولة بن سيف الدولة) غير معترف بهذه المعاهدة التي ذكرناها ، في بحث شيزر أيضاً ، وظل برهة في معرة النعمان ، فأخرب الروم حمص ، حتى يضطروه إلى الإذعان ، لكنه بعث وعمرها . وفي سنة ٣٦٤ هـ ملك (بكجور) حلب بعد أن خلع قرعويه ، مولى سيف الدولة وأسره ، وحاصر المعرة . وكان فيها عامل قرعويه ، وأحرق أحد أبوابها المسمى باب حمص ، ونهب جيشه وحلفاؤه بنو كلاب المعرة . وفي سنة ٣٩٢ هـ عزل لؤلؤ السيفي أحد عمال بني حمدان من أروح ، (؟) مخافة أن يقصد فيها .

وبعد أن دالت دولة الحمدانيين ، وانتقلت المعرة إلى حوزة بني مرداس الكلابيين الذين ملكوا حلب ، أولهم أسد الدولة (صالح بن مرداس) ـ وكان بدوي الطباع غشوماً ـ وصل سنة ٤١٨ هـ إلى المعرة ، وأمر باعتقال أكابرها ، وسبب ذلك ، أن امرأة صاحت في الجامع يوم الجمعة ، وذكرت أن صاحب الماخور أراد أن يغصبها نفسها ، فنفر كل من في الجامع ، وهدموا الماخور ونهبوه ، وكان صاحب الماخور قريباً لوزير صالح

(ثادرس النصراني) ، فاشتكى له . فحضر صالح بعسكره إلى المعرة ، واعتقل أكابرها وصادرهم ، فخرج أبو العلاء إلى ظاهر المعرة ، ليشفع ، فما خاطب به صالحاً قوله : مولانا السيد الأجل أسد الدولة ، ومقدمها وناصحها ، كالنهار الماتع ، اشتد هجيره ، وطاب إبراده ، وكالسيف القاطع ، لان صفحه ، وخشن حداه ، خذ العفو وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين . فقال صالح : قد وهبتهم لك أيها الشيخ . فقال أبو العلاء بعد ذلك في اللزوميات ، هذه الأبيات :

تغيبت عن منزلي برهـــــــــة	ستير العيـــوب فقيـــد الحســـد
فلمـــا مضى العمر إلا الأقـــل	وحم لروحي فراق الجســـد
بعثت شفيعـــاً إلى صـــالـــح	وذاك من القـــوم رأي فســـد
فيسمـــع مني سجـــع الحمـــام	واسمـــع منـــه زئير الأســـد

وفي سنة ٤٥٢ هـ جاء معز الدولة (ثمال بن صالح بن مرداس) بجيشه إلى المعرة ، لقضاء قسم من فصل الشتاء ، وكانت وطأته على أهل المعرة شديدة . وفي سنة ٤٦٢ هـ جاء الترك السلجوقيون إلى أنحاء حلب ، ووصلوا إلى المعرة ، وعاثوا وأفسدوا كثيراً . وفي سنة ٤٧٢ هـ زحف تاج الدولة (تتش) السلجوقي ، بجيش من دمشق نحو شمالي الشام ، فأحرق أعمال جبل السماق ، وبني عليم ، وغرم أهل سرمين ومعرة مبالغ طائلة ، وأنهب القرى في شرقي المعرة ، وحاصر تل منس دون أن يفوز منها بطائل ، وأحرق معر تاريحا في كورة كفر طاب (؟) . وفي سنة ٤٨٨ هـ أقطع (رضوان بن تتش) مدينة المعرة وأعمالها إلى (سقمان بن أرتق) أخي نجم الدين إيلغازي الذي تقدم ذكر بلائه في الحروب الصليبية مراراً .

وفي سنة ٤٩١ هـ بعد أن استولى الصليبيون على أنطاكية ، جاؤوا إلى المعرة وحاصروها ، ودافع أهلها في أسوارها ، حتى داخلهم الجزع ، فتحصنوا بالدور وتركوا السور ، فملكه الإفرنج ، ودخلوا عليها ، فاستباحوها ثلاثة أيام ، وأقاموا بها أربعين يوماً ثم ساروا . (ابن خلدون ٥ / ١٨٤) . قال (ميشو) في تاريخ الحروب الصليبية : إن الفرنج قتلوا جميع من كان في المعرة من المسلمين ، الذين اعتصموا بالجوامع ، واختبؤوا في السراديب ، فأصبحت خاوية على عروشها ، وهدموا أسوارها وأبراجها ، وأحرقوا المساجد

وكسروا المنابر ، وهدموا الدور ، وفقد الصليبيون بسبب ذلك الزاد ، وساءت حالهم ، ثم وقع الخلاف بينهم ، وصاروا في رواية يأكلون جثث الموتى ، ثم ساروا منها . وقيل إن الإفرنج توفقوا في الاستيلاء على المعرة ، بمعونة الأرمن الذين جاؤوا معهم ، ومخامرة نصارى المعرة وتل منس ، وأنهم قتلوا من أهلها ما يزيد على مئة ألف ، وسبوا مثلهم ، وأنهم عاثوا في أرباضها ، وقطعوا أشجارها ، وخف أعراب بني كلاب وقتئذ ، لنجدة أهل المعرة ، فأجهزوا على ما بقي من الصليبيين ، فكان ضررهم أشد . وفي ذلك يقول بعض المعريين :

معرة الأذكياء قد حردت عنا وحق المليحة الحرد
في يوم الاثنين موعدهم فما نجا من خميسهم أحد

وفي سنة ٤٩٦ هـ استرد (رضوان بن تتش) السلجوقي بعض الحصون التي ضبطها الصليبيون ، ثم عقد معهم في سنة ٥١٤ هـ معاهدة ، أبقى لهم بموجبها المعرة وكفر طاب ، والبارة وقسم من جبل السماق . وفي سنة ٥٣٤ هـ أخذ عماد الدين زنكي المعرة وكفر طاب من الصليبيين ، فحضر أهل المعرة وطلبوا تسليم أملاكهم التي أخذها الصليبيون ، فطلب منهم كتب أملاكهم ، فذكروا أنها عدمت ، فكشف من ديوان الخراج في حلب ، وأفرج عن كل ملك كان عليه الخراج ، لمن بقي من أعقاب أصحابه ، ثم نقض عماد الدين أسوار المعرة كلها . ونالت الزلزلة الهائلة التي حدثت سنة ٥٥٢ هـ من المعرة ، كما نالت من بقية مدن الشام وهدمتها ، وقد تقدم ذكر ذلك في حديث كل منها . وفي سنة ٥٨٢ هـ ألحق السلطان (صلاح الدين الأيوبي) المعرة بإقطاع ابن أخيه (المظفر تقي الدين عمر) الذي جعله ملكاً في حماة وتوابعها .

وبعد وفاة السلطان صلاح الدين ، نشب الخلاف بين أخيه الملك العادل ، وأولاده وأولاد إخوته وأمرائه على ما تركه من الممالك ، ومنها المعرة التي صارت بعد علة الشحناء بين أبنائه الصلاحيين ملوك حلب ، وأبناء ابن أخيه التقويين ملوك حماة ، كما صارت أيضاً سلمية علة الشحناء بين هؤلاء التقويين وأبناء أعمامهم الأسديين ملوك حمص . وفي أكثر الأحيان كانت صفقة ملوك حماة خاسرة . فالمعرة بعد وفاة المظفر تقي الدين عمر سنة ٥٨٧ هـ انتقلت إلى ابنه (المنصور ناصر الدين محمد) ، فبنى فيها سنة ٥٤٥ هـ المدرسة

الشافعية التي تقدم ذكرها ، وفي سنة ٥٩٦ هـ استلم الأمير (عز الدين إبراهيم بن المقدم) خمساً وعشرين ضيعة من المعرة ، فوق ماكان له من الإقطاعات ، ولما توفي سنة ٥٩٧ هـ ، انتقلت هذه الإقطاعات إلى أخيه (شمس الدين عبد الملك) ، إلا أن صاحب حلب الملك (الظاهر غازي بن صلاح الدين) سار فوراً إلى المعرة ، واستخلصها من المنصور ، وأقطع بلادها ، واستولى على كفر طاب ، وكانت لعبد الملك بن المقدم المذكور ، ثم سار إلى أفامية وفعل فيها وبعبد الملك ماذكرناه في حديث أفامية ، ومنها توجه إلى حماة ، وحاصر فيها المنصور ، ثم غادرها إلى دمشق ، وحاصر فيها أيضاً ابن عمه (المعظم بن العادل) ، ولكنه لم يفز من المدينتين بطائل ، ثم رجع . وفي سنة ٥٩٨ هـ وصل الملك العادل إلى حماة ، وبلغ الظاهر غازي بحلب ، أن قصده محاصرته وتأديبه ، فلاطفه وصالحه على شروط ، منها إعادة ضياع المعرة إلى المنصور صاحب حماة . أما المعرة فظلت بيد الظاهر غازي ، بدليل وجود اسمه فيها ، في كتابة تاريخها ٦٠٤ هـ ، ولما توفي المنصور في سنة ٦١٧ هـ ، انتقلت حماة وتوابعها إلى ابنه (الناصر قليج أرسلان) الذي ولاه وزراء أبيه ، وخانوا أخاه المظفر ، ولما جاء المعظم صاحب دمشق في سنة ٦١٩ هـ لمحاصرة ابن أخته الناصر المذكور ، لإخلافه في دفع المال المشروط عليه ، استخلص منه وقتئذ سلمية والمعرة ، ثم في سنة ٦٢١ هـ أعاد المعرة إليه ، وأعاد سلمية إلى أخيه المظفر ، ثم في سنة ٦٢٦ هـ لما استرد المظفر حماة من أخيه سلمت المعرة إليه . وفي سنة ٦٣١ هـ أتم المظفر بناء قلعة المعرة ، وشحنها بالسلاح والرجال ، فكان ذلك سبباً لخروجها من يده ، لأنه في سنة ٦٣٥ هـ أرسل العزيز صاحب حلب جيشاً ، استخلص المعرة من صاحب حماة ، انتقاماً منه ، لمعاونته الملك الكامل صاحب مصر ضده ، وخرب قلعتها التي كان بناها المظفر . وظلت المعرة تابعة إلى حلب مدة ، إلى سنة ٦٥٨ هـ التي جاء فيها التتر ، وأجهزوا على مابقي من قلعة المعرة . ثم في تلك السنة ، انتصر المظفر قطز على التتار في (معركة عين جالوت) ، وكان المنصور بن المظفر صاحب حماة معه ، فأحسن قطز إليه ، وأمر بإعادة المعرة عليه . لكنه أمر أيضاً بنزع سلمية منه ، وإقطاعها إلى الأمير مهنا آل الفضل كما ذكرناه في بحث سلمية . فظلت المعرة بيد التقويين أصحاب حماة إلى سنة ٧١٤ هـ ، التي أمر فيها السلطان محمد بن قلاوون أن تنزع من يد الملك المؤيد أبي الفداء ، وتسلم إلى الأمراء المماليك ، الذين أبعدوا وقتئذ ، بسبب أبي الفداء من حماة إلى حلب ، وظلوا دون

إقطاعات كافية (أبو الفداء ٤ / ٧٤) . ولكن وفي سنـة٧١٦ هـ سـافر أبو الفـداء إلى مصر ، وحظي برعاية السلطان ، ومنها إعادة المعرة إليه ، لكنه مـاكاد يفرح بهـا ، ويتقبل تهـاني الشعراء ، إلا وصدر الأمر بإقطاعها إلى الأمير محمد بن عيسى بن مهنا ، ليحضر إلى الطاعة بعد عصيانه مع أخيه مهنا . ولما كان القلقشندي يؤلف كتابـه (صبح الأعشى) ذكر المعرة في جملة ولايات نيابة حماة ، وأن واليها جندي (صبح الأعشى ٤ / ٢٣٩) ، ولعله أخـذت بعد حين من يد الأمير المـذكور ، وأودعت إلى نواب حمـاة ، الـذين تولوهـا بعـد موت أبي الفداء ، وخلع ابنه الأفضل . وكانت المعرة في تلك الأيام منزلاً للبريد البري ، وبريد حمام الزاجل الجوي ، اللـذين كانـا متصـلان من مصر إلى حلب . وفي سنـة ٧٠٠ هـ عـاود التتر قصـد الشـام ، فجفل المسلمون منهم ، وخلت بلاد حلب ، فـأقـاموا في بـلاد سرمين والمعرة والعمق وغيرها، ينهبون ويقتلون نحو ثلاثة أشهر ، ثم عادوا إلى بلادهم .

ومن الغريب بعـد النوائب والحروب التي نـزلت بـالمعرة لاسيما مـاأصـابهـا من الروم والصليبيين والتتر عـدة مرار ـ أن تبقى فيهـا أشجـار الـزيتـون والفستـق ، واللـوز والتين وغيرها ، إلى حين مرور ابن جبير في سنة ٥٧٩ هـ ، وابن بطوطة في سنـة ٧٢٨ هـ ، وشيخ الربوة في سنة ٧٢٧ هـ ، وأن تبقى الجبـال والبراري المجـاورة لهـا (شعراء ممـدودة) و (من أعمر الأرض وأعملهـا فـلاحـاً) ... الى آخر مـاذكروه ، ممـا يكاد المرء يرتـاب بصحتـه ، أو يحتار في تعليله ، ويضطره للتسائل عن قـاطعي تلـك الأشجـار ومبيـديهـا ، بعـد أولئـك السياح ، وزمن القطع والإبادة .

وفي القرن الثـامن كانت اختلت إدارة السلاطين المماليـك في مصر والشـام ، وازدادت فتن الأمراء آل عيسى بن مهنا ، أجداد آل أبي ريشة ، أمراء الموالي الحاليين ، ووثب بعضهم على بعض قرب سلمية في سنة ٧٤٨ هـ « وجرى على بلـد المعرة وحمـاة وغيرهـا ، من النهب وقطع الطريق ، ورعي الكروم والزرع ، والقطن والمقـاتي ، مـالا يوصف » (تـاريـخ ابن الوردي) ، وكما خربت سلميـة وضواحيهـا ، بسبب تلـك الفتن ، خربت أيضـاً قرى العـلا القريبة من المعرة ، ولعل أشجار الزيتون والتين ، والفستق وغيرها التي ذكرهـا الجغرافيون القدماء ، انقرضت خلال ذلك جلها ، إن لم يكن كلها ، ولو لم يصرح بذلـك ابن الوردي . وجاء في السنة التـاليـة الطـاعون الهـائل ، الـذي اجتـاح بلاد الشرق الأدنى ، ومنهـا مصر

والشام ، لكنه لم يفعل في المعرة ، كما فعل في غيرها ، وقد علل ابن الوردي في تاريخه ذلك ، بأن الطاعون رأى المعرة حينئذ مثقلة بضروب الجور والمظالم ، فعف عنها (كذا) ، لكنه لم يعف عنه ، بل أودى به .

وفي عهد العثمانيين ، ظلت المعرة تابعة إيالة حلب وازداد انحطاطها ، وسكتت التورايخ بعد عن التنويه بحديثها ، وزارها بعض سياح الإفرنج في أوائل القرن الماضي ، والذي قبله ، وأجمعت أقوالهم على وصف المعرة ، بأنها بليدة شبه قرية صغيرة الشأن قليلة السكان ، يديرها حكام وأغوات من أهلها شبه مستقلين . وقضاء المعرة يعد في الدرجة الثانية ، بين أقضية ولاية حلب ، في السعة وكبر القرى وغناها ، وهو يحتوي على قسم كبير من جبل الزاوية ، وفرعه الجنوبي المسمى شحشبو ، وعلى قسم كبير من كورة العلا وما وراءها من الخرب العامرة والدائرة ، والبراري الفيح الممتدة حتى الأندرين ، وأسماء نواحيه الأربع ، المعرة وخان شيخون ، وقلعة المضيق وخوين الكبيرة .

وقد أنجبت المعرة فيما مضى ، غير أبي العلاء عدداً من الشعراء والفضلاء ، لبعضهم أبيات يجدر بنا ذكرها ، لاحتوائها على أسماء أماكن في المعرة وأكنافها ، فمنهم أبو الفتح الحسن بن أبي حصينة المعري ، المتوفى حدود الخمسمئة هجرية ، قال :

وزمان لهو بالمعرة مونق ... بشياثها وبجاني هرماسها
أيام قلت لذي المودة سقني ... من خندريس حناكها أو حاسها

فالحاس وشياث تقدم ذكرهما في بحث جبل الزاوية ، والهرماس واد غربي المعرة ، تصل مياهه إذا فاضت إلى مطخ قنسرين ، وحناك حصن في ضاحيتها ، تقدم ذكر تخريبه سنة ٢٠٩ هـ ، والخندريس الخمر المعتقة . ومنهم أبو المجد محمد حفيد أخ لأبي العلاء ، قال متغزلاً بما جرى له في باب حناك :

يا مغاني الصبا بباب حناك ... لابيابي الغضا ووادي الأراك

إلى آخرما ذكره ياقوت .

ومنهم أبو يعلى بن حصين ، مدح محمود بن نصر بن مرداس لما افتتح حصن أسفونا ، قال :

عـداتـك منـك في وجـل وخـوف يريـدون المعـاقـل أن تصـونـا
فظلـوا حـول أسفـونـا كقـوم أتى فيهم فظلـوا آسفينـا

ومنهم عمر بن الوردي المتوفى في طاعون سنة ٧٤٩ هـ ، صاحب (شرح ألفية ابن مالك) ، وتاريخ اسمه (تتمة المختصر في أخبار البشر) ، من شعره قصيدة يذكر فيها أماكن مشهورة بالمعرة ، نقتطف منها :

رعى الله عيشاً بالمعرة لي مضى حكاه ابتسام البرق إذ هو أو مضا
وعصر شباب في شياث قطعته وفي أرض حندوثين في ذلك الفضا
أعاذل لو شاهدت باب جنانها لما كنت يوماً ناهياً بل ممرضا
لقد طال بالهرماس عهدي ومائه إذا ماجرى كالسيف أحمر منتضى

إلى آخر القصيدة التي فيها أسماء أماكن عديدة كأرض حندوثين ، باب الجنان ، وادي فضالة ، عين معراتا ، البيدرين ، جريا ، القلعة ، عين زريق ، عليات العسل ، مشهد يوشع ، دير سمعان ، ملك فارس ، الهرماس . وغيرها مما يحتاج للتحقق من بقائها أو فنائها حتى الآن .

وفي ناحية المعرة عدة قرى ، تبدأ بكلمة معر ومعرة ، كمعر شمارين ومعر شمشة ، ومعر شورين ومعراته ، وفي ناحية خان شيخون : معر زيتا ومعرة ماثر ، ومعرة حرمة ومعرة صين ، وذكر ياقوت في معجمه في هذه الناحية معرات أخرى ، لم نتحقق مواضعها ، كمعرة بيطر ومعرة بحولين . والمعرات في قضاء إدلب أيضاً عديدة منها في ناحية سرمين : معرة الخاسكة ومعرة العلياء ومعر دبسة ، وفي ناحية معرة مصرين : معرة مصرين ومعزة الأخوان ، ومعربونه ومعر بليت ، ومعرزاف وفي قضاء جبل سمعان: معرة الأرتيق . ولا يعلم الآن قرية باسم أسفونا بل باسم سفوهن ، وهي في غربي قضاء المعرة .

والخارج من معرة النعمان، يظل مجتازاً السفوح الشرقية لجبل الزاوية ، ومبصراً هضاب هذا الجبل ، المكسوة بالصخور الرمادية ، وفيها في بعض الأماكن المتفرقة ، أشجار الزيتون ، تتخللها خرائب وأطلال قديمة . ثم تدخل الطريق في سهول شاسعة ، ذات تلعات متموجة ، إلى أن تصل في (الكيلو متر ١٠٦) إلى خان شيخون .

وخان شيخون تعد أعظم قرى هذه الربوع ،عدد أهلها ٣٠٠٠ ، فيها مدير ناحية ومخفر لجنود الدرك ، بيوتها قبب مخروطية مزدحمة ، وكان اسمها القديم Ashanie ، وفي شرقيها خان كبير من عهد المماليك ، وفي شماليها تل عظيم مرتفع ، نقبته بعثة الكونت (مسنيل دوبويسون) سنة ١٣٤٩ هـ ، فوجدت في أحشائه ، أطلال بلدة ترجع إلى قبل عشرة قرون من الميلاد ، وتحتها آثار مبان مصرية ، من عهد تحوتمس الثالث ، ترجع إلى قبل خمسة عشر قرناً من الميلاد ، وتحت الكل آثار أربع مدن من الدور الحديدي ، ترجع إلى القرن العشرين ق.م . وفي الشمال الغربي من خان شيخون ، على بعد بضعة كيلومترات مكان ، يظن أنه كانت فيه قرية كفر طاب التي تقدم معنا ذكرها في أبحاث أفامية وشيزر ، اشتهرت بقلة مائها إذ لم يكن لها ماء شرب ، إلا ما يجمعونه من الأمطار . قال ياقوت : وبلغني أنهم حفروا نحو ثلاثمئة دراع فلم ينبط لهم . وقد استرعت هذه الحالة عجب أبي العلاء ، وكان بلغه إذ ذاك أن أهل بالس - وهي التي تدعى الآن مسكنة شرقي حلب على الفرات - عجزوا من غارات الفرات وحفر أرضهم . فقال :

أرى كفر طاب أعجز الماءَ أهلَها وبالسَ أعياها الفراتُ من الحفر
كذلك مجرى الرزق واد بلا ندى وواد به فيض وآخر ذو جفر

وقال أبو الفداء في تقويم البلدان : « كفر طاب من جند حمص ، وهي بلدة صغيرة كالقرية ، قليلة الماء يعمل فيها القدور الخزف ، وتجلب إلى غيرها ، وهي قاعدة ذات ولاية ولها عمل، وهي على الطريق بين المعرة وشيزر » قال في العزيزي « ومدينة كفر طاب أهلها أخلاط من اليمن ، بينها وبين شيزر ١٢ ميلاً ، وكذلك بينها وبين المعرة » ا هـ . قلت : ومن الغريب أن تندثر أطلال ورسوم بلدة ككفر طاب ، فلا يعرف الآن أحد مكانها على الضبط ، ولما ينقض عليها بعد من عهد أبي الفداء ستة قرون ، وأن لا يذكر أحد من جغرافيي العرب ومؤرخيهم اسم خان شيخون قط ، رغم كبر هذا الخان وقريته ، وقدمها الظاهرين . وفي غربي خان شيخون لحب ، يأخذ السيارة إلى قلعة المضيق ، عن طريق قريتي الهبيط وكفر نبودة (طوله ٢٥ كيلو متراً) ، وفي شرقي خان شيخون على بعد عشرة كيلو متر قرية التانعة ، أو تمنع ، التي حدثت فيها المعركة الفاصلة بين جيش الخليفة العباسي المكتفي والقرامطة ، وقد ذكرناها في أبحاث حماة وسلمية .

وبعد خان شيخون بقليل تنتهي حدود قضاء المعرة من ولاية حلب ، وتبدأ حدود قضاء حماة من ولاية دمشق . وتظل الطريق سائرة في سهول العلا الشاسعة ، العارية عن كل شجرة أو نضرة ، ماخلا حقول مزروعة ، تظهر كالغيطان الخضراء في البوادي الفقراء . وتتخلل هذه السهول أحياناً تلعات ومنخفضات قليلة التموج ، انتشرت فيها من مكان إلى آخر تلال جلها صناعي أثري ، وفي (الكيلو متر ١١٤) مورك وهي قرية كبيرة قديمة ، كان اسمها Murmurik ، فيها تلان أحدهما عظيم ذو طبقتين ، وفي داخل القرية بعض أحجار أثرية ، وقد اشتهرت مورك بجودة بطيخها الأحمر وضخامته ، وفي غربي مورك لحب يأخذ السيارة نحو الغرب ، إلى قلعة المضيق ، وقرى ناحية الطار عن طريق قريتي كرناز وكفر زيتا (طوله ٢٩ كيلو متراً) ، وبعد مورك تظل الطريق مطردة المناظر ، إلى أن تجتاز في (الكيلو متر ١٢٥) بصوران ، وكان اسمها Shouroun ، وفيها قبة الشيخ أربعين ، زعموا أنها قامت مقام بيعة الأربعين شهيد ، وفي الشمال الغربي من صوران ، تل اسمه تل ماصين ، نقبته سنة ١٣٤٩ هـ بعثة الكونت (مسنيل دوبويسون) ووجدت فيه فيما قيل أطلال بلدة يرجع عهد بعضها إلى ماقبل عشرين قرناً ، وبعضها إلى ماقبل ثلاثين قرناً من الميلاد . ثم تمر الطريق من عربي قرية الطيبة ، وتدعى طيبة العلا ، وهي آخر قرية في كورة العلا ، فيها مسجد كبير ذو مأذنة عالية . وبعد أن يغادر السائح على يمينه قرية القمحانة ، يمر من غربي قرون حماة .

وقرون حماة جبلان متقاربان من الحجر الحري الأسود ، يبعدان عن حماة إلى الشمال نحو عشرة كيلو متر ، يدعى الكبير منهما زين العابدين (٦٣١ م) والصغير كفرراع (٦٤٥ م) ، وفي شرقي الأول ضيعة الهاشمية ، وفي شمالي الثاني ضيعة كفرراع ، وفوق الأول جامع مهجور ذو قبتين بيضاوين من آثار الملك الأشرف (قايتباي) في سنة ٨٨٣ هـ ، وفي الجامع مقام يسمى زين العابدين (؟) ، تقصده النصيرية من جبالهم الغربية بالزيارة في شهر نيسان من كل عام . وقد اشتهر جبل زين العابدين بالمصاف الذي وقع حوله في سنة ٥٧٠ هـ بين السلطان (صلاح الدين الأيوبي) وصاحب حلب (إسماعيل بن نور الدين محمود زنكي وأبناء أعمامه الذين جاؤوا من الموصل ، لنجدته وكانت الدائرة عليهم ، وبالمصاف الذي جرى في الربع الثالث من القرن الماضي بين قبيلتي الموالي والحديديين ، وكانت الدائرة على الموالي ، وقتل أميرهم محمد الخرفان . وبعد أن يجتاز

السائر السهل الممتد من سفح قرون حماة إلى حاضرها ، يصل إلى هذا الحاضر ، ويهبط منه وادي حماة المنخفض .

كورة العلا : تمتد في شرقي طريق حماة ـ حلب وقسم من غربيه كورة تدعى كورة العلا ، ذكرها ياقوت في معجمه « بأنها : كورة من عمل معرة النعمان من جهة البر ، تشتمل على قرى كثيرة ، ويطؤها القاصد من حلب إلى حماة » ا هـ . وفي الحق أنها كورة واسعة طولها من الشمال إلى الجنوب نحو تسعين كيلو متراً وعرضها نحو ثلاثين كيلو متراً ، ينتهي طرفها الشرقي عند الآكام المشرفة على (السلايل) ، وهي البطاح والمروج الممتدة من سلمية نحو الحمراء ، فتل حلاوة فالخرايج ، وينتهي طرفها الشمالي عند الآكام المشرفة على مطخ قنسرين وسهول البة ، حول قرى العوجة وزفر ، ومغارة وكرسيان . أما طرفها الغربي ، فمنهم من يوصله إلى طريق حماة ـ حلب ، أي إلى سفح جبل الزاوية ، ويمتد به إلى ناحية الطار التي تقدم ذكرها ، ومنهم من يقصره عن ذلك ببضعة كيلو مترات ، وينتهي طرفها الجنوبي عند الآكام المشرفة على طريق حماة ـ سلمية .

وهذه الكورة إنما سميت بالعلا لأنها تؤلف هضبة منبسطة ، تعلو على البقاع التي في شماليها وشرقيها . وتنتهي الأكناف الشرقية والجنوبية في هذه الهضبة بآكام متسلسلة جرداء ، لا يزيد علو أسماها على الستمئة متر ، منها في الشرق جبل الحوايس ، وفي الجنوب جبل الفانات وجبل كيتلون وجبل كاسون . وفي أماكن متفرقة من هذه الهضبة تلول بارزة ، أشهرها : تل شميس وتل خنزير ، وتل المقطع وتل العوجة ، وتل الذيب وتل القراطي وتل عمارة ، وفي الشمال رجم عال يدعي رجم صراع . على أن جل هذه الهضبة سهول شاسعة مترامية الأطراف ، تربتها في الجهة الغربية حمراء وفي الشرقية صفراء ، وهي خصبة في الجملة ، تنجب حنطة جيدة تفضل على غيرها بالقيمة ، وكذا الزروع الصيفية لاسيا البطيخ الأحمر الذي يجود خاصة في قراها الغربية . ومحاصيل هذه الكورة من حبوب وأصواف وسمون تساق إلى بندر حماة ، وبعضها إلى بندري حلب والمعرة ، وتجتاز السكة الحديدية الآتية من حلب هذه الكورة من الشمال إلى الجنوب ، في محطات العوجة وأم رجيم ، والحمدانية وكوكب ، وبهذا يصح قول ياقوت ، أن القاصد يطؤها من

حلب إلى حماة ، ويصح أيضاً إذا ثبت أن الحد الغربي لهذه الكورة هو طريق القوافل والسيارات المارة بمعرة النعمان التي تقدم ذكرها .

والعلا كما قال ياقوت يشتمل على ضياع وقرى كثيرة من أقضية المعرة وسلمية وحماة . ولذلك قسم في عهدنا إلى قسمين ، الأول علا الشمال أو علا المعرة ، نسبة لوجوده داخل قضاء المعرة ، والثاني علا الجنوب أو علا سلمية ، نسبة لوجوده داخل قضاء سلمية ، كما أن علا الشمال يقسم إلى قسمين غربي وشرقي ، فالشرقي يحوي القرى الآهلة بأعراب الموالي ، ويدعى علا الموالي ، والغربي يحوي القرى التابعة ناحيتي خان شيخون والطار ، ويدعى علا الطار أو طار العلا ، وبين هذين القسمين من القرى التي جلها كبير ، معصران وتل دبس ، وجرجناز وتل منس ، ومعر شورين ودير شرقي ، والتح والتانعة ، وخوين الكبيرة والحمدانية ، وتل مراق وخان شيخون ، وصوران ومورك ، واللطامنة ومعردس ، وكفر زيته والطيبة ، وكوكب ومعر شحور ، وكاسون .. إلخ . وكلها من العلا .

وليس في العلا أرضون مسقوية أو عيون سارية ، لأن أرضه بركانية وحجارته حرية ، ماخلا بعض أودية فيه تجف في الصيف ، كوادي شطيب ووادي سمقة ، وهذا يتجه شمالاً ماراً بقرية خوين الشعر ، إلى أن يصب في مطخ قنسرين . وثمة عيون صغيرة في ضياع الطامة والهلبة ، على أنه في بعض القرى الجنوبية : كالفركة وقراح ، وزغرين وسمنة ، والفان القبلي والشهيب ، ومعر شحور والرويضة ، قنوات قديمة فتح بعضها أخيراً ، وشرعوا ينتفعون بمياهها ، أخصها قناة معر شحور التي حاولوا منذ عهد قريب أن يجروها إلى حماة للشرب فأخفقوا .

وجل ضياع العلا الشرقية في زماننا صغير ، كان أكثرها لمضي نصف قرن ملكاً لقبيلة الموالي ، وبعضها لقبيلة الحديديين ، والباقي لغيرهما من القبائل ، كبني خالد والتركي والعقيدات . تملك هؤلاء الأعراب هذه القرى ، على أثر الاهتمام الذي أظهرته الحكومة العثمانية في العقد الرابع من القرن الهجري الماضي بتحضيرهم وإسكانهم في كورة العلا ، كما أسكنت غيرهم من القبائل في جبل الأحص وسهول مطخ قنسرين ، وقضائي الباب ومنبج ، وكان القائم بهذا العمل النافع إذ ذاك ، أحد عمالها البارزين واسمه أصلان باشا ، الذي له أيضاً يد طولى في تأسيس لواء دير الزور وتحضير قبائله ، لما كان متصرفاً فيه في

سنة ١٢٨٧ هـ ، وعلى أثر هذا الإسكان ، احترف بعض هؤلاء الأعراب الفلاحة والزراعة ، ومنهم من ترك الخيام وسكن الدور والقباب ، وظل غالبهم متبدياً يرتزق بتربية الغنم ورعيها ، يشاركون بها سكان المدن كحلب وحماة ضمن شروط خاصة ، يشرقون في الشتاء إلى البادية انتجاعاً للدفء والكلأ ، ويغربون في الصيف إلى قراهم في الحاضرة . على أن القرى التي ملكتها الحكومةُ هؤلاء الأعراب في العلا لم تثبت طويلاً في أيديهم ، لأنهم تخلوا عن أكثرها بعد حين ، بحكم التبذير وسوء التدبير المستحكمين في طباعهم ، وباعوها تباعاً إلى سراة حلب والمعرة وحماة ، ورجعوا إلى عيش البداوة إلا قليلاً .

وأشهر قبائل العلا هي (الموالي) ، أقدم القبائل العربية في شمالي الشام ، وأشدها شراسة وفروسية ، وأمراؤها المنتسبين لأسرة تدعى (بيت أبو ريشة) ، معروفون بعراقة النسب وأثالة الحسب ، وأنهم يردون النقا ويعطون الصحب ، كرؤوساء قبائل البادية الكبرى ، وإذا اجتمع هؤلاء الرؤوساء في المؤتمرات التي تعقد الحين بعد الحين في سلمية أو تدمر ، أو خلافها من البلاد التي على سيف البادية ، لفض الفتن التي لاتخلو من النشوب بين القبائل ، يحل أمراء الموالي صدور المجالس ، بينما رؤوساء بقية قبائل الحاضرة ، المعروفون بـ (عربان الديرة) عليهم الوقوف في أبوابها والإصغاء لما يقرر فيها ، وقد استرعى نظري هذا الحال ، ورحت أبحث عن حسب أمراء الموالي ونسبهم ، اللذين يجهلونها هم ويا للأسف ، ويزعمون أنهم عباسيون ، من أعقاب شقير بن الخليفة هارون الرشيد (كذا) ، وهو زعم فاسد لادليل له ولا أساس ، إلى أن توصلت بعد الجهد ، وبعد العثور على قبر أحد أجدادهم في مقبرة الشيخ فرج في سلمية ، من تحقيق أنهم متحدرون من جبار بن مهنا بن عيسى بن مهنا ، وأن جدهم عيسى بن مهنا آل الفضل من بني ربيعة من طي من كهلان من القحطانية ، وأن آل الفضل وخاصة فخذ عيسى بن مهنا كانوا في زمن السلاطين الأيوبيين ، سيا في دولة المماليك ، كما قال القلقشندي في صبح الأعشى (رؤوساء أكابر ، وسادات العرب ووجوهها ، ولهم عند السلاطين حرمة كثيرة ، يحلونهم فوق كيوان ، وينفقون لهم أجناس الإحسان » ، وتبين لي : أن آل عيسى أجداد أمراء الموالي كان لهم مداخلة في إدارة بلاد الشام الشمالية وسياستها ، في تلك القرون ، وأثر عظيم في زوال عمرانها ، وانحطاط شأنها ، نخص بالذكر المعرة وحماة وسلمية ، وذلك حينما اختلت الأمور في آخر دولة المماليك ، ولم تصطلح في عهد العثمانيين ، وأن سلمية كانت عاصمة

ملكهم ، ظلوا فيها سبعة قرون ، ثم نزحوا إلى العلا ، كما سنبينه في حديث سلمية . ولا يزال في جنوبي دمشق في قضاء القنيطرة ، أمراء أعزاء يدعون أمراء الفضل ، هم كما ثبت لي أقارب أمراء الموالي وأبناء أعمامهم ، نزحوا في القرن التاسع أو العاشر من أنحاء سلمية ، وتديروا غربي القنيطرة ، وظلوا محتفظين باسمهم القديم .

وفي زمننا يقطن أمير الموالي الأكبر الشايش بن عبد الكريم في قرية قطرة شرقي المعرة ، وهم ينقسمون إلى شماليين وقبليين ، ويعد من أفناد الشماليين المشارفة (في ضياع بريصة والسرج ، وسحال وفرجة ، ومشيرفة ولويبدة) ، وبني عز (في خوين الكبيرة وتلحرق ، وأبو عمر وأبو دالي) ، والدولة (في أم خلاخيل وخربة الدجاج) ، والجماجمة (في الشعرة وأعجاز، وكراتين وربيعة وقطرة) ، والشويرتان (في صقيعة وأُم رجيم) ، والشريف (في ينحة ودريبية) ، والطوقان (في أبو حية) ، والدواونة (في أم جلال) ، والكلكل (في سرجة وكفريا ، وأبو شرجي وتل دم) ، والغازي (في حران وقراطي ، وهلبة وكرسنتة) ، أما أفناد الحسو والشليوط ، والفنير والخليفة ، والكواويس والخراشين ، وأخوة وضحة فهم سيارون في ضياع العلا الشرقية ، وثمة أفناد تنضم إلى الموالي عند الحاجة ، يدعونهم (لحقة الموالي) ، كالصماطية (في ناحية الطار) ، وبني عز الرعية والبشاكم والكندوش (في جنوبي وشمالي قضاء سلمية) .

أما الحديديون ، فأصلهم من ديار الموصل ، وهم أكثر قبائل شمالي الشام عدداً وثروةً ، وأميزها بإتقان تربية الماشية وصنع السمن المعروف بالحديدي ، المنقطع النظير في الجودة والنفاسة . وهم منقسمون إلى شماليين وقبليين ، ويعد من أفنادهم الإبراهيم ، وفيهم المشيخة ،يقطن الشيخ الأكبر منهم في ضيعة تدعى الطويحيني ، جنوبي مطخ قنسرين ، والأبو صليبي (في بعض ضياع العلا : كالربدة والحزم ، وعرفة ودومة وقصر العلي) ، والأبو جميل (في الشطيب والمشهد ، وصريع وجهمان) ، والمعاطة (في حوا) ، والبقارة (في ربع الهوى وصراع) ، أما بقية الأفناد كالمراسة والحجاج ، وأبو زليط والأبو فاتنلة ، والأبو حربة ففي الضياع التي تمتد من السلايل ، إلى جنوبي جبل الأحص وجنوبي مطخ قنسرين . وثمة أفناد تنضم إلى هؤلاء يدعونهم (لحقة الحديديين) ، كالنعيمات والولد علي ، والكيار والمعاطة ، والجميلة والأبو قعيرات ، والأبو شهاب الدين والغناطسة ، والأبرز

والجملان ، والأبو عطيري والأبو حسن والسرحان ، وهؤلاء منتشرون في أقضية جبل سمعان وإدلب ، والباب وناحية الحمراء . وبنو خالد قبيلة قديمة في شمالي الشام ، كثيرة العدد والأفناد ، أغلبها في العراق وبعضها في حوران ، وفريق غير يسير منها في ديار المعرة وحماة وحمص ، من أفنادها في قضاء المعرة في ضياع جبل شحشبو ، التويني والشقرة ، والبلوة والمضخى ، والغايب والرفيعي ، والصواجبة والفياضي ، وفي جنوبي المعرة الرويعي والعرار .

والفتن الناشبة بين الموالي والحديديين قديمة، سببها أن أمير الموالي محمد الخرفان الذي كان في غرة القرن الثالث عشر اضطهد الحديديين ، رغم أنهم كانوا حلفاءه وأنصاره ، فقتلوه ، ولما ترعرع ابنه محمد الخرفان الثاني ، الذي سمي باسم أبيه حاول أن يثأر منهم ، فغزاهم مراراً ، وجرت المعركة الأولى بينهم في منتصف القرن المذكور في تل حلاوة شمالي الحمراء ، وكانت الدائرة على الموالي ، وجرت المعركة الثانية في أواخر القرن المذكور ، في سفح جبل زين العابدين شمالي حماة ، فقتل فيها محمد الخرفان وانكسر الموالي ، ثم تلى ذلك صلح طويل ، دام عشرات من السنين ، تصاهر فيه رؤوساء القبيلتين ، إلى أن كانت سنة ١٣٣٩ هـ ، نشبت الفتنة بسبب سرقات تافهة ، قام بها البعض من قبيلة اللهيب ، المنتمية إلى الموالي ، وجرت المعركة الأولى حول قرية عقيربات غربي جبل البلعاس ، ثم دامت المعارك نحو سبع سنوات ، راح فيها لأهل المدن والقرى في ديار حماة والمعرة وحلب مالا يحصى من الصامت والناطق ، وبعد أن رقدت الفتنة مدة ، عادت في سنة ١٣٤٩ هـ ، ونشبت لأسباب نسائية ، وما برحت تخبو نارها تارة وتشب أخرى ، وليس من يطفئها كما ينبغي .

والخرائب الأثرية في العلا كثيرة ، لم يتح لي زيارتها كما ينبغي ، لأجيد وصفها ، ذكر لي منها في الشمال في قضاء المعرة ، أماكن تدعى بالقصور ، وليس لها من ذلك إلا الاسم ، منها ؛ قصر الأبيض وقصر السرج ، وقصر البرج وقصر أبو شرقي ، وقصر سرجة وقصر أبو حنايا ، وقصر تل الذهب وقصر الشاوي ، وقصر نوى وقصر المخرم ، وقصر أبو سمرة وقصر أبو حية ، وقصر الفواعرة وقصر الشطيب ، وقصر العلي ، وثمة في ضياع القليعات وتل خزنة ، وتل تين وتل دم ، وأعجاز وعجيز ، وفرجي وسنجار ، وصقيعة

وأم مويـلات ، مبـان صغيرة أثريـة تشبـه المخـافر أو الحصـون . على أن أغنى ضيـاع العـلا الشمالية بالخرائب ، هي قرية كراتين التجار ، التي فيهـا حقل واسع من الأطلال الـداثرة ، تدل الكتابات اليونانية الكثيرة التي فيها ، على عمران العلا كلـه في القرنين الرابع والخـامس الميلاديين والشوارع في كراتين التجار هي على خلاف مافي خرائب جبل الزاوية ضيقة ، بينمـا الـدور واسعـة . وفي شمالي العـلا أيضاً غير مـاعـددنـاه ، خرائب خـدفـة وحراكي ، وكريسنتة ومعراته ، ومرعايا وعوجة ، وأم هلاهيل وأم مويلات ، وصراع وسنجار ، وتجة وتلون إلخ ...

ومن الخرائب في شرقي العلا اصطبل عنتر في شمالي جبل الحويس . وهـذا الاصطبـل الخرب ، مبني فوق أكمة ، وله باحة قليلة الاتساع ، وفي غربيه غرفة لم يبق منهـا إلا بعض الجدران المتداعية ، وقد كانت مبنية بأحجـار حريـة ضخمـة ، وعلى طرفي بـاب الاصطبل المتجـه إلى الجنوب عضـادتـان ضخمتـان تعلوهـا عتبـة ، قيل في الطبـوغرافيـة التـاريخيـة لدوسسو ، أن هذا الاصطبل كان حصنـاً ، وأن تـاريخـه سنـة ٥٥٧ م . وإلى الشرق الشمالي من جبل الحوايس قلعة الحوايس ، في قربها ضيعة تسمى باسمها ، وهـذه القلعـة مبنيـة على هضبة عالية ، يصل إليها القاصد مشياً لتعذر صعود الخيل إليهـا ، وهي قـد دثرت ونقلت جميع أحجارها ، ولم يبق منها سوى آثار سورهـا المردوم . وليس ثمـة مـا يلفت النظر سوى جب المـاء المحفور ، يهبـط إليـه بـدرج لـولبي عريض ، يسـع شخصين وثـلاثـة معـاً ، وقـد هدمت بعض أحجاره ، وعمق هـذا الجب نحو مئـة وخمسون متراً ، فـإذا وصل القـاصـد إلى قعره ، يجد أطرافه مبنية بأحجار متينة ، وفيه ماء نقي شروب .

وأجل الخرائب في جنوبي العلا (علا سلمية) ، في ضيعـة تـدعى طوبـا ، وهي ذات أطلال واسعة ، ثم في قصر التمك وقلعة الربا وقلعة طراد . وقلعة الربا قامت على قمة رابيـة عالية ، وسط أرض بطحاء ، وللقلعة سور كبير من حجارة ضخمـة ، والبـاحـة التي داخل هذا السور واسعة ، تبلغ نحو ستة هكتار ، وفي سفح الرابية مغارة صنـاعيـة كبيرة لا يعرف آخرها ، ويذكر أيضاً في جنوبي العلا من القرى التي فيهـا آثـار دنين والرحيـة ، (وسيـأتي وصف قلعة الرحية في طريق سلمية ـ الحمراء) والبردونة والمشيرفة ، والـدوسـة والعنز ، وأبو القـدور وسبـاع والطيبـة وتـل الـذهب ، وقيـل أن في قريـة علي كاسـون ، بـاب غريب

الشكل ، لـه قنطرة كبيرة من القرن السـادس الميلادي . هـذا ومـا برحت أطـلال القصـور والمباني المذكورة في العلا ماثلة ، لكن معظمها هدمت جدرانـه ، على كر الـدهور ، واتخـذ أهل القرى المجاورة أحجاره في إشـادة مسـاكنهم . وجل الضيـاع الجنوبيـة في هـذه الكورة ملـك لسراة حمـاة ، والشماليـة لسراة المعرة وحلب ، وفـلاحـوهـا في الشمال سنيـة أعراب أو حضر ، وفي بعض قرى الجنوب نصيرية .

الطريق من حلب ، إلى سفيرة

وخناصرة وجبلي الأحص والشبيث

يخرج السائح من شرقي حلب ، ويسير بادئ بدء في الطريق المعبدة الذاهبة نحو دير الزور ، وفي (الكيلو متر ٨) ينحرف عنها نحو اليمين ، ويسلك لحباً يمر بعد قليل بشمالي قرية النيرب ، التي بني فيها منذ سنتين أماكن لطيارات الجيش الإفرنسي ، وقرية النيرب مبنية فوق أطلال بليدة قديمة ، لاتزال بعض آثارها ظاهرة في جنوبي القرية ، وقد كانوا وجدوا فيها في سنة ١٣١٠ هـ سماوتين[1] ، عليهما كتابات آرامية ، نقلتا وقتئذ إلى متحف اللوفر في باريس . وفي سنة ١٣٤٧ هـ نقبت بعثة المدرسة الأثرية الإفرنسية في القدس ، فكشفت في النيرب مدافن من القرنين السادس والسابع قبل الميلاد ، وعثرت على ألواح فيها كتابات باللغة البابلية من عهد بختنصر ، نصوصها عبارة عن صكوك مقاولات ، وعاديات وضع بعضها في متحف حلب الأثري ، منها نـاووسـان وجرار من الخزف ذات شكل غريب ، وتماثيل صغيرة جداً ، تمثل محاربين وفرسان وكاهنات عاريات أو لابسات إلخ ... ثم في (الكيلو متر ١٧) يمر السائح بقرية تل حاصل ، وفي (الكيلو متر ٢٢) بتل عرن ، وأهل هاتين القريتين أكراد ، وكانوا وجدوا في تل عرن عاديات من الخزف ، وفي (الكيلو متر ٢٥) سفيرة .

وسفيرة قرية جسيمة ، سكانها ٤٠٠٠ مسلمون عرب ، باحات دورها واسعة جداً ، في طرف كل باحة صف من القباب المخروطية الواسعة ، منها ما هو للبقر أو الغلال ، وفيها سوق ذو حوانيت عديدة ، وقد بني فيها منذ سنتين دار للبلدية جميلة ، تقطنها البلدية ومدير الناحية ، لأن سفيرة قاعدة ناحية كبيرة ، تشمل جبلي الأحص والشبيث والسهول

---

(١) السماوة تعريب كلمة buste الإفرنسية ، والسامة Statue ، والنصب Stèle

الممتدة حولها ، وتتبع قضاء جبل سمعان الذي يمكث قائم مقامه في حلب ، وفي سفيرة تل كبير ، نقبه سنة ١٣٤٧ هـ أحد الأثريين ، فعثر فيه على بدن ضم من الحجر الحري الأسود ، في ظهره كتابة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، نقل إلى متحف حلب ؛ ثم وجد قبواً فيه هياكل بشرية ، وعلى مقربة منه باب كبير من أبواب الحصون بني بالحجر الحري المنحوت ، دل على أنه أحد أبواب سور مدينة سفيرة القديمة ، التي كان اسمها فيا يظن Sipri ، وأن هذا السور كان مبنياً من اللبن ، وعرضه أربعة أمتار ، وأنه كان فيه أبراج مدورة في كل أربعين متراً ، وأن سفيرة تعد أول ماأكتشف في شمالي الشام من المدن القديمة المحصنة ، على الطراز الآشوري الحثي . والأرضون حول سفيرة واسعة مستوية ، ذات تربة رملية كلسية صفراء ، حفرت فيها آبار كثيرة تستخرج مياهها ، بما يدعونه غراف ، تدوره دابة . وأهل سفيرة رغم عراقتهم في الفلاحة ، لا يزالون وسط بين أهل البادية والحاضرة ، في معارفهم وأطوارهم وأزيائهم ، ينقسمون إلى أفناد (حمائل) شتى ، لا يخلو التنافر من بينها ، ولم أر في خلال زياراتي العديدة ، مما يزيل هذا التنافر في هذه القرية الجسيمة المغلالة ، سوى مدرسة ابتدائية ، ذات ثلاثة صفوف لاتنقع غلة .

هذا ومن سفيرة لحب طوله ٩٥ كيلو متراً ، يأخذ القاصد نحو الشرق إلى مسكنة (باليس) في سقي الفرات ، فيمر به من جنوبي بحيرة الجبول ، بضياع بعضها يتلو بعضاً ، كأبي جرين وعقربوز ، وأبو دريخة وتل جلغوم ، وحقلة وجنيد ـ وفيها ضريح الشيخ جنيد ـ وأم عمود ، ولكل من هذه الضياع تلال صناعية ، تختلف بالكبر والصغر ، وأهلها جوالي ، نزحت من سفيرة تباعاً ، وقطنت . وبعد أم عمود ، تضيق الطريق بين سفح جبل الأحص وشاطئ بحيرة الجبول ، إلى أن تصل إلى بوز الخنزير ، وهو طرف جبل الأحص ومنتهاه ، ممتد كخيشوم الخنزير نحو الشرق ، ذو صخور حرية سوداء . وهنا تنحرف الطريق نحو الجنوب ، محاذية السفح الشرقي لجبل الأحص ، فتمر بضياع ، منها رسم النفل التي في غربيها واد ، فيه رسوم بليدة ، تحتوي على أنقاض ثلاث كنائس ، وآثار رصيف وقناة ، ثم تمر الطريق بضياع : شلالة الكبيرة وشلالة الصغيرة ومزرعة الراهب ، إلى أن تصل إلى خناصرة .

ومن أراد استئناف المسير شرقاً ، يمر بشاطئ بحيرة الجبول الجنوبي ، ويجتاز أوحالها

الجافة ، ويغادر على يمينه السهل الأفيح ، المحصور بين جبلي الأحص والشبيث ، وفيه في أنحائه الشرقية ضويعات تخص مجحم بن مهيد ، شيخ قبيلة الفدعان ، إحدى شعب عنزة ، الضاربة في شرقي ديار حلب . وفي جب علي ، وهو اسم إحدى هذه الضويعات ، أطلال كنيسة ذات أعمدة . وتسير الطريق نحو الشمال الشرقي ، فتمر في سفح جبل الشبيث الشمالي ، بقرية زبيد ، وهي في باب واد عريض ، وفيها أطلال ثلاث كنائس ، لا تزال الشمالية منها واقفة ، ويحيط بالتي في الشمالي الغربي سور ، وقد استخرج لصوص العاديات من أهل حلب وسفيرة كثيراً من العاديات ، من زبد وباعوها لتجارها وغواتها ، وبعد زبد يذهب السائح في برية قفراء معطشة ، لا يرى فيها إنساً ولا حساً ، سوى جمال البدو وبعض مضاربهم ، إلى أن يصل إذا قدرت له السلامة منهم ، في (الكيلو متر ١٢٠) عن حلب إلى مسكنة (بالس) .

ومن سفيرة إلى خناصرة لحب ثاني ، يمر بادئ بدء في سهل سفيرة ، بضريح الشيخ براق (؟) ، ثم يدخل أحد أودية أو منافذ جبل الأحص العريضة ، فيمر بضيعة اسمها المُدَيْنة بضم الميم وفتح الدال وسكون الياء ، ثم بزرينيان ثم بعقربة ، ثم ينحرف اللحب نحو الجنوب الشرقي ، ويشرع بتسلق منحدرات جبل الأحص ، فيصل في أعاليه إلى نجد شاسع ، طلق الفضاء نقي الهواء ، أول ضياعه برج أسامة ، وفيها برج قديم مربع ذو أحجار ضخمة ، لا يزال على بعض جدته ، وعلى يسار اللحب الصالحية وبرج أنطاش ، ورسم عميش والحوير ، وعلى يمينه سحور وكفر حوت ، وسويان وغيرها ، وبعد الحوير ينتهي النجد ، ويهبط اللحب واد ذي منعطفات عسيرة ، فيه من الضياع جب الأعمى والحبس ، والهربكية ، ثم خناصرة في (الكيلو متر ٤٠) تقريباً عن حلب .

وخناصرة قرية في منتهى العمران على سيف البادية ، وفي سفح جبل الأحص الشرقي ، كانت قبل الفتح الإسلامي وبعده بليدة عامرة ، تدل على ذلك كثرة ما فيها من أسس الجدران ، وكسور الأعمدة والعتبات الضخمة ، بعضها عليه كتابات يونانية ، وكان حولها سور كبير لا تزال أسسه ظاهرة ، وكانت فيا مضى منزل بعض الخلفاء الأمويين كعمر بن عبد العزيز والوليد بن عبد الملك ، وكانت تسمى خناصرة الأحص . قال عدي بن الرقاع لما وفد فيها على الوليد :

وإذا الربيـــع تتـــابعت أنـــواؤه فسقى خنـــاصرة الأحص وزادهـــا
نـزل الـوليـد بهـا فكان لأهلهـا غيثـاً أغـاث أنيسهـا وبـلادهـا

وظلت خناصرة وقرى جبل الأحص التابعة لها ، عامرة إلا قليلاً ، إلى القرن السابع ، إذ يقول ياقوت عنها : « خناصرة مدينة كان ينزلها عمر بن عبد العزيز ، وهي صغيرة ، وقد خربت الآن ، إلا اليسير منها » ويقول أبو الفداء في (تقويم البلدان) : « خناصرة وهي في طرف البرية شرقي حلب ، بميلة إلى الجنوب على مرحلتين منها ، قال ابن حوقل : كان يسكنها عمر بن عبد العزيز ، أحد خلفاء بني أمية » اهـ . ولا يعلم العهد الذي خربت به خناصرة وقراها بالكلية ، ولعله قبيل الفتح العثماني أو بعده ، وقد ظلت خراباً يباباً ، لاسكان فيها سوى أعراب البادية ، الذين يمرون بها مروراً إلى أن كانت سنة ١٣٢٠ هـ ، جاء فريق من مهاجري الشركس من قبيلة القبار طاي ، فأسكنتهم الحكومة العثمانية فيها ، فعمروها وردوا عيث البادية عنها بسواعدهم ، وبنوا بأحجارها القديمة دوراً حسنة نظيفة ، وحفروا آباراً وأحدثوا قليلاً من البساتين ، لكنهم وقد تمادت سنو المحل على ديارهم الفقيرة بالأمطار ، أصبحوا في أيامنا هذه يتمنون لو يهاجروا مرة أخرى إلى أرض تروي عطشهم ، وتزيل سغبهم ؛ ولولا أن أسعفتهم الصدف في السنة الماضية بالعثور على قناة رومانية قديمة ، شرعوا بكريها ، وإرواء بعض الزروع بمياهها ، لساءت حالتهم كثيراً .

وفي جنوبي خناصرة تمتد سباسب وقفار ، تصل إلى جبل البلعاس ، فيها على بعد ٥٦ كليو متراًعن خناصرة ، خرائب الحمام وأسرية والأندرين ، التي بحثنا عنها في حديث سلمية ، يمكن الوصول إليها من خناصرة ، بعد اجتياز تلك السباسب التي تتخللها سباخ ، وحولها مضارب الأعراب وجمالهم السارحة ، وأحياناً في سني الخوف أرعال من غزاة البادية .

وجبل الأحص الذي تقدم ذكره جبل بركاني ، ذو أحجار حرية سوداء ، عظيم المساحة ، واسع الامتداد في ظهره ، يؤلف نجداً مرتفعاً عما حوله ، لكنه لا يعلو عن سطح البحر أكثر من سبعمئة متر ، وهو يشرف في الشمال على سهول قريتي سفيرة وعسان ، وبحيرة الجبول وسهول نهر الذهب ، الممتدة إلى الباب وبزاعة ، وفي الشرق على السهل المحصور بينه وبين جاره جبل الشبيث ، وفي الغرب على السهل الممتد بينه وبين مطخ

قنسرين ، وفي الجنوب على القرى الممتدة نحو الخرايج والسباسب ، الذاهبة نحو الأندرين وجبل البلعاس . والنجد المتسع في جبل الأحص ، ذو تربة رملية طينية حمراء ، خالية من الأحجار في بعض المواقع ، وكثيرتها في بعض ، وهي عذى لاعيون سارية ولا مياه جارية ، وكميات الأمطار تتراوح بين ٣٠٠ ـ ٤٠٠ ميلمتر ، وتقل كلما ابتعدت نحو الشرق ، وأجل قرى الأحص : بنان وسميرية ، والحاجب والجعارة ، وكفر أكار والزراعة ، وبلوزة وسرج فارع ، وأم جرن وبرج عزاوي ، والمغيرات والطيبة ، والقنيطرات وطاط ، ومنعايا وسويان ، والحوير وبيشة ، ورسم عميش والمنطار ، وغيرها . ويتفرع من هذا النجد أودية ووهاد عريضة ، قليلة العمق أو كثيرته ، اختبأت في الجنوبية منها الحبس والهربكية ، وجب عليص ودار الباقات ، وجب الأعمى وغيرها . وتربة هذه القرى خصبة ، وحنطتها المعروفة في حلب بالأحصية مشهورة بجودتها ، ولو كان قطان هذا الجبل غير هؤلاء الأعراب الصعاليك ، لدر من الخيرات ما يثير العجب . لأن هؤلاء رغم سكنهم في القباب المخروطية الشكل ، منذ عهد أصلان باشا الذي تقدم ذكره في بحث كورة العلا ، أي منذ نحو ثلثي قرن ، مابرحوا في أزياء البداوة وجلفتها ، وجهلها وإعراضها عن النظافة ، في المسكن والملبس ، وعن إجادة الحرث وتعهد الزرع ، لم يتح لهم بعد من ينورهم ويرشدهم ، إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، وهم لنقاء هواء الأحص ، وجودة مائه ، طوال القامة عراض الهامة ، مفتولو السواعد ، على خلاف أهل مطخ قنسرين ، ذوي الوجوه المكتئبة والأجسام السقيمة ، والأيدي المرتجفة . وأعراب جبل الأحص منقسمون إلى قبائل وأفناد شتى ، لاصلة بينها ولا أرومة معروفة لمنشئها ومحل ورودها ، هل هو من سقي الفرات كما يزعمون ، أم من غيره ، وهل أحد من هؤلاء متحدر من آل بشار الذين ذكر القلقشندي (صبح الأعشى ٤ / ٢٣٤) أن منازلهم في عهده ـ القرن الثامن ـ كانت في الأحص . وأجل قبائل الأحص عدداً ومكانة (السكن) ، ولا يعرف معنى لهذا الاسم ، هل هو لأنهم أسكنوا بعد ترحالهم ، أم لسبب آخر . وكل قرى الأحص من (أملاك الدولة) كقرى مطخ قنسرين ، وكان لها إدارة خاصة تدعى شعبة ، مركزها في قرية بنان ، وكان لهذا المركز بناء كبير ذو طبقتين ، خاص بالموظفين ، ودور خاصة بأسرهم ، ظلوا فيها نحو أربعين سنة إلى أن بدا للحكومة منذ عهد قريب ، إلغاء هذه الشعب ونقلها إلى حلب ، فألغتها فقضي بذلك على مباني بنان ، أو كاد .

وجل ضياع الأحص بنيت فوق أطلال دارسة ، ورسوم طامسة ، لضياع سابقة تدل آثارها على عمران هذا الجبل وازدهاره ، اللذين داما في ظني ، إلى القرن السابع ، أو الثامن الهجريين . وتكاد لا تخلو ضيعة فيه ، من أحجار منحوتة ، وآبار وكهوف محفورة ، وقطع أعمدة وعتبات مسكرة مبعثرة ، أجلها في برج عزاوي التي فيها أطلال كنيسة بيزنطية ، لا يزال أحد أبوابها ماثلاً ، وفوقه عتبة عليها كتابة يونانية ، وفي ضيعة بناوي أطلال كنيسة ، وجدوا فيها فيما قيل منبر عليه كتابة باللغة السريانية القديمة ، وفي قرب عقربة أكمة فيها سور مدور غريب الشكل .

ومما يدل على عمران جبل الأحص فيما مضى ، ما ذكره ياقوت في معجمه ، قال : « الأحص كورة كبيرة مشهورة ، ذات قرى ومزارع بين القبلة وبين الشمال من مدينة حلب ، وأما شبيث فجبل في هذه الكورة ، أسود في رأسه فضاء ، فيه أربع قرى ، وقد خربت جميعها ، ومن هذا الجبل يقطع أهل حلب وجميع نواحيها حجارة رحيهم ، وهي سود خشنة تعرف بالشبيثية ، وهو الذي ذكره النابغة الجعدي في قوله :

فقال تجاوزت الأحص وماءه ... وبطن شبيث وهو ذو مترسم

وأنشد الأصمعي لرجل من طيء ، وكان له ابن اسمه زافر ، مات في دمشق فقال :

ولا آب ركب من دمشق وأهله ... ولاحمص إذ لم يأت في الركب زافر

ولا من شبيث والأحص ومنتهى المـ ... ـطايا بقنسرين أو بخناصر

وتشوق ابن أبي حصينة المعري إلى الأحص ، فقال :

لـج برق الأحص في لمعانه ... فتذكرت من وراء رعانه[1]

فسقى الغيث حيث ينقطع الأو ... عس من رنده ومنبت بانه[2]

أو ترى النور مثل ما نشر البر ... د حوالي هضابه وقنانه

تجلب الريح منه أذكى من المسـ ... ـك إذا مرت الصبا بمكانه » ا هـ

---

(١) الرعان : القمم البارزة في الجبال ، ومفردها رعن .

(٢) مكان أوعس : ماتنكب عن الغلظ والأرض لم توطأ (المحيط للفيروزآبادي) ، والرند شجر ذو رائحة ، والبان شجر جوز الطيب .

وجبل الأحص في يومنا أجرد ، لم أر فيه حرجة ، حتى ولا شجرة أو نجمة يستظل بها ، ولا رندة أو بانة تشم رائحتها ، وأهله الأعراب أعداء لكل خضرة ونضرة ، لاتمكنهم جفوة البداوة من غرس شيء من ذلك ، حتى ولا من إنشاء كروم العنب واللوز ، والتين وأمثالها ، مما تعيش عذياً وتدر ريعاً، يدرئون عنهم بعض مايعانونه من المسغبة ، وإذا سعى بعضهم ، وأنشأ في رقعة صغيرة مايسوغ التمزز به ، لايتورعون عن استئصاله ، وحرمان صاحبه في أول فرصة أو ثورة . وربما كان لتكون هذا الجبل البركاني ، وقسوة صخوره الحرية السوداء ، التي لاتمتص ولا تحفظ الرطوبة ، أثر في تجرده عن الحراج والينابيع ، وتجرد سكانه من الدماثة والكياسة .

طريق حلب ـ الباب

(٤١ كيلو متراً)

من يخرج من حلب قاصداً الباب ، يمر بادئ بدء في (الكيلو متر ٩) بكروم ضيعة تدعى النقارين ، ثم في (الكيلو متر ٢١) بضيعة صوران ، على الطريق المعبدة حديثاً ، وكنا لمضي سنتين ، نمر في هذه الطريق بضيعة مران إلى الشمال الغربي من صوران ، ثم بضياع سرجة في (الكيلو متر ٢٦) ، فالمديونة في (الكيلو متر ٧٩) ، فدير قاق في (الكيلو متر ٣٢) ، فالباب في (الكيلو متر ٤١) . وليس في هذه الطريق سوى سهول ، ذات تلعات ومنخفضات متموجة ، وهي جرداء مطردة المناظر ، وأرضها صفراء رقيقة في الغالب ، وبيوت ضياعها قباب مخروطية ، والسائر في هذه الطريق ، يلمح في الأفق الجنوبي جبل الأحص ، الذي تقدم وصفه ، يراه ممتداً من الشرق إلى الغرب ، كجدار رمادي اللون ، متواضع في علوه ، وفي شماليه سبخة الجبول ، تظهر كصفيحة من اللجين .

الباب وبزاعة وتادف : الباب بليدة حسنة نزهة ، تحيط بها كروم العنب وبساتين الأشجار والبقول ، فهي وجارتيها بزاعة وتادف ، كالغوطة الخضراء في برية قفراء ، عدد سكانها ٩٠٠٠ مسلمون عرب ، خلا عدد ضئيل من جالية الأرمن ، تعلو عن البحر ٣٧٠ متراً ، وفي غربيها أنشئت دار حكومة حديثة جميلة ، وفي داخلها مدرسة ابتدائية حديثة ، وعشرة جوامع ومساجد ، وحمامات وأسواق حافلة بالحوانيت والأفران والمقاهي والمصابغ والمعاصر . والباب تمتاز على غيرها من مراكز الأقضية في ولاية حلب ، بنقاء هوائها ، وجودة وغزارة مياهها ، وكثرة بساتينها وكرومها ، ووفرة بقولها ، ولذة أعنابها ورمانها ، ودورها حجرية على طراز دور حلب ، وأزقتها مبلطة ، فهي تصلح للاصطياف لو تيسرت فيها الوسائل .

قال أبو الفداء في تقويم البلدان : « الباب وبزاعة ، من جند قنسرين . الباب بليدة

صغيرة ، ذات سوق وحمام ومسجد جامع ،ولها بساتين كثيرة نزهة ، وبظاهرها مشهد به قبر عقيل بن أبي طالب ، وهي على مرحلة من حلب في الجهة الشمالية الشرقية » ا هـ .
قلت : إن هذا المشهد على ظهر أكمة مرتفعة غربي الباب ، فيها مسجد ذو مأذنة ، ودور يقطنها خدام المشهد مع أسرهم ، تظهر من كل الأنحاء البعيدة عن الباب .

وقال عن بزاعة : « وأما بزاعة فضويعة من أعمال الباب » ا هـ . على حين أن بزاعة في يومنا قرية كبيرة ، تبعد عن الباب إلى الشرق نحو أربعة كيلو متر ، بينها أرض بطحاء متسعة ، أسماها القدماء وادي بطنان ، وذكروا رياضها ومياهها . قال ياقوت : « وبطنان اسم واد بين منبج وحلب ، بينه وبين كل واحد من البلدين مرحلة خفيفة ، فيه أنهار جارية وقرى متصلة قصبتها في بزاعة » . وقد ذكر امرؤ القيس في شعره بعض قراه :

ألا رب يوم صالح قد شهدته ... بتادف ذات التل من بطن طرطرا

وفي شمالي الباب تل صناعي أثري ،. يعرف بتل بطمان ، تحريفاً عن بطنان ، حوله كروم عنب واسعة ، وفي جنوبها قرية تدعى أبو طلطل ، وهي طرطر الواردة في شعر امرئ القيس ، وكان على تل بطنان في القرون الغابرة دير ، يقال له دير حبيب ، نسبة إلى حبيب بن مسلمة الفهري . وفي وادي بطنان هذا ، يسيل نهر الذهب ، الذي يبتدئ من عيون في بزاعة ، ثم ترفده في الباب عيون أخرى تجري في قنوات قديمة ، كالتي ذكرنا وجودها بكثرة في سلمية ومنبج ، فيعظم ماؤه ، وترتوي منه بساتين الباب ، وما لم يرتو منه ، يروى بالآبار والغراريف ، ثم يمر بتادف وأبي طلطل ، ثم ترفده عيون أخرى إلى أن يصير قادراً على تدوير بضعة أرحاء ، ثم يصب في الشتاء في سبخة الجبول ، لاستغناء أهل القرى التي على ضفتيه عن السقي شتاء ، فلا يزال الماء في السبخة إلى زمن الصيف ، فيهب عليه الريح الغربي فيجف الماء شيئاً فشيئاً ، ويرسب الملح ، فتمتار منه البلاد ، قيل ، وسمي هذا النهر بنهر الذهب لأن أوله بالقبان ، وآخره بالكيل ـ والآن بالقبان أيضاً ـ أي أنه يزرع عليه في أوله الحبوب والبقول التي توزن بالقبان ، وأخره يصير ملحاً ، وهذا أيضاً يكال أو يوزن . وكان اسم هذا النهر قديماً فيما قيل Dardax .

قال ياقوت عن بزاعة : « بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان ، بين منبج وحلب ، وفيها عيون ومياه جارية وأسواق حسنة . قال فيها شاعر حلبي :

لـو أن بـزاعـة جنـة الخلـد مـاوفى رحيلي إليهـا بـالترحـل عنكم

وكان يعمـل في بـزاعـة الكربـاس ، وهـو ضرب نسيـج القطن ، ويحمـل إلى مصر ودمشق ، قيـل وكانت البـاب وبـزاعـة قريتين عظيمتين ، في كل واحـدة منهما منبر ، ولهـا بساتين نزهة جميلة ، ولكل منهما وال وقاض ، وكانت بزاعـة حصنـاً منيعـاً لـه خنـدق ، لم يبق منهما الآن أثر ، وكان الروم استولوا على هذا الحصن سنـة ٣١٣ هـ بـالسيف ، ثم رحلوا عنه ، وعادوا في سنة ٥٣٢ هـ وفتحوه بالأمان ، ثم غدروا بأهله ، ونادى منـاديهم من تنصر فهو آمن ، ومن أبى فهو مقتول أو مأسور ، فتنصر منهم أكثر من خمسمئة إنسـان ، وانقطعت الطريق على بزاعة ، وصارت على طريق بالس ، وضاق بالمسلمين الخناق ، إلى أن استنقذه الأتابك (عماد الدين زنكي) سنـة ٥٣٣ هـ ، وخرب الحصن ، وأبقى بزاعـة عـامرة ، وقيل بل الذي خرب حصن بزاعة في سنـة ٥١٤ هـ (جوسلين) الإفرنجي صـاحب الرهـا ، وأمـا البـاب فقد كانت كما هي الآن ، أكثر عمـارة من بزاعـة ، وكان فيهـا مغـاير تعصم أهلهـا من العـدو ، وكان بهـا طـائفـة كثيرة من الإسماعيليـة ، هوجمـوا فـاعتصمـوا في المغـاير ، إلى أن استخرجوهم بالدخان ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة .

وتـادف في جنوبي البـاب بينهما نحو ثلاثـة كيلو متر ، وهي قريـة كبيرة ذات أسواق وأحياء ودور حافلة ، وحولها بساتين نزهة ، فيها عنب ورمان لذيذان ، وهواؤها ومـاؤهـا كالباب ، لولا أن مجاري الأقذار المكشوفة ، المنتشرة في أزقتهـا تفسـد هواءهـا ، وفي تـادف كنيس فيها مغارة ، في داخلها مقام للعزير ، الذي أملى التوراة على بني إسرائيل بعد فقـده على ما يقول اليهود ، لذلك كثيراً ما يأتونها ويصطافون فيها ، ويحتفلون فيها بعيـد المظـال احتفالاً عاماً .

وفيها يقول أبو عبد الله القيسراني :

مـازلت أخـدع عن دمشـق صبـابتي حتى مررت بتـادف فكأنني بـالنيربين

وفي جنوبي قضاء البـاب ، على بعـد نحو ٣٦ كيلو متراً ، تقع سبخـة الجبول أو مملحـة الجبول ، تجتمع أكثر مياهها من نهر الذهب الذي تقدم ذكره ، وأقلها من الأوديـة المنحـدرة من جبـل الأحص ، فتنطبـح في أرض السبخـة ، وتصير رقراقـاً متسعـاً ، يستطيـل من

الشرق إلى الغرب ، بين قرية الجبول شمالاً ، وقرى ناحية سفيرة الواقعة في سفح جبل الأحص - التي تقدم ذكرها في بحثه - جنوباً ، محيطه نحو خمسين كيلو متراً ، فإذا جاء عليه شهر تموز جف الماء ورسب الملح ، وهو في غاية الجودة ونصاعة البياض ، وصدق الملوحة وسرعان الذوبان في الماء ، ومملحة الجبول تنتج للحكومة في العام نحو ثمانية إلى عشرة ملايين كيلو غراماً من الملح ، تحصره إدارة بيت المال ، ولها في قرية الجبول مبان وموظفون ، يسهرون على حفظ الملح وجمعه ، تجد الملح أمام تلك المباني ، قد جمع على هيئة أكوام عظيمة ، أعلى من بيادر الغلال ، تصعد إليها الجمال المثقلة ، فتفرغ أحمالها ، وتعود أدراجها إلى وسط البحيرة ، وهو بعد تبعئته بالأكياس ووزنه ، يرسل إلى حلب ليباع فيها ، أو يوزع على مختلف البلاد الشامية . وبحيرة الجبول هذه لا يوجد فيها شيء من الحيوانات المائية ، سوى أنه عشية كل ليلة من فصل الربيع ، يرحل إليها للمبيت ، أسراب عديدة من الأوز والبط ، تمضي سحابة نهارها في بحيرات العمق ، لتقتات من حيواناتها ، فتقبل إليها صباحاً ، وترحل عنها إلى بحيرة الجبول مساءً فترقد فيها ، لا ينغصها فيها شيء من الهوام ، التي توجد في البحيرات العذبة ، كالبعوض والقمل ، إذ لا توجد لها فيها أثر بسبب ملوحة مائها .

وفي قضاء الباب كثير من القرى ، التي يقطنها أعراب ، لا يزالون على الصعلكة ، وكثير من عادات البداوة ، بعضهم فلاحون مقيمون ، وبعضهم رعاة رحالون ، أجلهم عدداً وقدراً الحديديون ، من أفنادهم : الغناطسة والعصيبات ، والتويمات والبوكردي، والبوغيث ، والأبو ثابت ، والأبو عطيري ، ثم الوهب والكيار ، وبني زيد والجادمة ، والأبو بطوش والهنادي - وهؤلاء أعقاب أعراب الهنادي المصريين ، الذين جاؤوا في جيش إبراهيم باشا سنة ١٢٤٨ هـ - والأبو عاصي والأبو جميل ، والفردون والأبو سبيع ، وفي شمالي قضاء الباب ، ناحية تدعى صوسنباط ، فيها نحو خمس عشرة قرية يقطنها أكراد ، ينتسبون لقبائل أسماؤها ؛ قره كيج وكدكان ، وشيخان وبش التي ، وقرى عديدة أخرى يقطنها تركمان ، فاتني ضبط أسماء قبائلهم . وفي جنوبي هذا القضاء أيضاً ، ناحية دير حافر ، تمتد قراها إلى جنوبي الطريق الآخذة من حلب إلى باليس (مسكنة) حيث سيف البادية .

طريق الباب ـ منبج

(٤٥ كيلو متراً)

يخرج السائر من شرقي الباب ، ويجتاز الوادي المتسع النضر ، الممتد بينها وبين بزاعة ، وبعد أن يغادر بزاعة على يمينه ، ينطلق نحو الشمال الشرقي في برار جرداء ، أعداء مطردة المناظر ، بعثرت فيها كثير من الضياع والضويعات ، ذات القباب المخروطية ، منها الخفية والعجمي وجب البرازي ، على يساره في الجهة الغربية الشمالية ، وزرزور وأم شكيف ، وأم عدسة وتل تورين ، على يمينه في الجهة الشرقية الجنوبية . ثم يمر في (الكيلو متر ٢٣) بضيعة تدعى العريمة ، مبنية فوق رسوم دارسة ، ممتدة على مسافة غير يسيرة ، تدل على عمرانها ومكانتها الزائدتين فيما مضى ، لكن لم نعثر على أصل لهذه الخربة ولا خبر ، حتى أن الأثري (كيليوم راي) الذي زارها في حدود سنة ١٨٦٠ م ، لم يجد فيها وقتئذ سوى كتابة مدثورة على حجر ، استطاع أن يفهم منها ، أن هذا الحجر لإعلام مسافات الطريق ، وأن عليه اسم الأمبراطور تراجان . ولا تزال آثار هذا الطريق الروماني ظاهرة بين الباب ومنبج . وفي العريمة مخفر بني حديثاً لجنود الدرك . ثم يمر السائر بأرض العوسجلي الصغيرة ، ويترك على يساره الشورقلي ، ثم يجتاز أرض أم عدسة ، ويترك على يساره كواكب آبار عظيمة ، لقناة قديمة كبيرة ، ممتدة من الغرب إلى الشرق ، إلى أن يشرف على بحيرة منبج ، وبلدتها ومبانيها الغربية الحديثة .

منبج : منبج بليدة صغيرة ، كان لها شأن وذكر غير يسيرين ، قبل الإسلام وبعده ، تبعد عن حلب إلى الشمال الشرقي زهاء ٨٠ كيلو متراً ، وعن شاطئ الفرات الأيمن ١٥ كيلو متراً . وهي تقع في فضاء واسع ، مرتفع عما حوله قليلاً ، ينتهي بتلعات ومنبسطات متموجة ، تنحدر نحو الفرات في الشرق ، وتمتد نحو نهر الساجور في الشمال ، ونهر أبو قلقل في الجنوب ، وهما من روافد الفرات ، وتتجه نحو ضياع وضواحي بليدتي الباب وبزاعة في الغرب . ومنبج تعلو عن البحر ٤٤٧ متراً ، سكانها ٣٨٠٠ منها ١٨٠٠ شركس و ١٠٠ أرمن ، والبقية عرب أخلاط من حلب والباب وغيرها . وقد بني في غربيها

منذ سنتين دار حديثة جميلة للحكومة ، ومثلها للبلديـة ، وبني قبل عشر سنوات مـدرسـة للبنين ، وفيها سوق صغير يحتوي عى حوانيت ومقاهي بنسبة الحاجـة ، وفي غربيهـا بحيرة صغيرة ، مياهها من رشح القنوات القديمة الكثيرة ، يقام على شـاطئهـا كل يوم جمعـة سوق عام لبيع وشراء الدواب . وفي منبج مسجد جامع قديم من آثار نور الـدين محمود زنكي ، بني سنة ٥٥١ هـ كما زبر على حجرة في مأذنته ، رممه السلطان عبد الحميـد الثـاني سنـة ١٣٠٤ هـ بعد أن كان داثراً ، وفي جنوبيهـا مسجـد آخر فيـه قبر الشيخ عقيل المنبجي . وهواء منبج جيـد ، ومـاؤهـا شروب وغزير ، ولا يشوبهـا سـوى الريـاح الغربيـة التي تهب في الربيـع والصيف بشدة هائلة ، تثير الغبار وتعمي الأبصار ، ولو عمرت ضاحيتها ، وزادت مساحـة مغارسها ، لخف ضرر هذه العواصف في الجملة .

منبج بلدة حثية وآرامية ، واسمهـا الحـالي مشتق من كلمـة Mabbog مبوج ، الـذي اصطلح عليه منذ أقدم العصور سكان شمالي الشام ، ولما جـاء اليونـانيون السلوقيون سموهـا Hierapolis هيرابوليس ،ومعناه المدينة المقدسة ، لأنهـا كانت العـاصمـة الـدينيـة لكل بلاد الآراميين . وقد أسهب المؤرخ (لوسيان) في وصف مـا كان عليـه هيكل (هيرابوليس) من الفخامة والغنى ، وأنه كان أعظم معـابـد الآراميين في بلاد الشـام في تلـك الأحقـاب ، كان يعبد فيه رب العواصف (هاداد) ، وربـة الميـاه (آتراكاتيس) التي كانت تعـد أيضـاً ربـة بلاد الشام . وكان تمثال هذه الربة ، يمثلها راكبة على مركبة تجرها الأسود ، وفي يدهـا آلـة موسيقية وعلى رأسها تاج . وكان ألوف من الحجاج ، يتوافدون في أيـام الأعيـاد ، لزيـارة هـذه الأربـاب والاحتفـال بهـا . حتى كانوا يضحون لهـا الأطفـال ، يضعونهم في أكيـاس ، ويقـذفـون بهم إلى البحيرة من أعلى أروقـة الهيكل . وكان حـول الكاهن الأكبر كثير من الكهـان الصغـار ، الـذين يتقبلون النزور ، وكانوا لا يكتفون بـذلـك . بـل يتنقلـون بعـد الأعيـاد في البلاد ، كالمتسولين ويجبون الصـدقـات . وقـد أثرت ديـانـة (هيرابـوليس) في عقول اليونانيين ، وانتشرت وقتئذ عبادة الربة (آتراكاتيس) في أوروبا . وذلـك تـارة على يد اليونانيين المتطوعين في خدمة ملوك الشام ، الذين كانوا يرون تلـك العبـادة ويعجبون بها ، وتارة على يد التجار الشاميين ، الذين كانوا يتجولون ويصلون إلى بلاد الغرب .

وخلا المكانة الدينية ، فقد كان لمنبج مكانة حربيـة ، وصـارت من أهم مراكز الجيش الروماني ، الذي كان يفد إلى فرضة السويدية ويمر بأنطاكية ، ثم يـأتي إلى منبج ، ليتوزع

منها ، ويساق للغارة على مابين النهرين وبلاد الفرس . وكانت منبج مدينة محصنة ، شاد فيها (يوستنيانوس) أسواراً منيعة ، عجز عن اقتحامها (كيخسرو) ملك الفرس لما جاء لمهاجمة مدن شمالي الشام ، فاكتفى بمطالبة أهلها بثلاثة آلاف دينار . ولما مر القيصر (يوليانوس) في القرن الرابع الميلادي بمنبج ، وجد هيكلها خراباً ، ولا يعلم سبب وزمان خرابه .

ولما جاء المسلمون ، قَدَّمَ أبو عبيدة بعد فتح حلب وأنطاكية عياض بن غنم إلى منبج ، ثم لحقه ، وقد صالح أهلها على مثل صلح أنطاكية ، فأنفذ ذلك ، وجعلت منبج في عهد الأمويين من أعمال جند قنسرين ، وفي زمن هارون الرشيد جعلت مدينة العواصم ، كما قدمنا ذكره في بحث قنسرين . وتقلبت بمنبج الأحوال كما جرى في متبوعتيها قنسرين وحلب ، وتعاورتها أيدي كثير من ملوك المسلمين وأمرائهم . لكن مؤرخي العرب لم يذكروا من أخبارها إلا نتفاً التقطناها ، منها أنه في سنة ١٣٢ هـ جاءها عبد الله بن علي بن عباس فاتح الشام للعباسيين ، لاحقاً مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، فنزل بها ، وراسل منها أهل حلب بالبيعة للعباسيين . وفي سنة ١٧٣ هـ لما تولى ابن أخيه عبد الملك بن صالح بن علي جند قنسرين ، أقام في منبج ، وابتنى فيها قصراً لنفسه ، وبستاناً إلى جانبه كان يعرف به ، وابتنى أخوه عبد الله مثله في سلمية ، كما ذكرناه في حديثها ، وكما بنى أبوهما من قبل قصر بطياس ، شرقي باب النيرب في حلب . وفي سنة ٢١٥ هـ سار الخليفة المأمون لغزو الروم ، ووصل إلى منبج ، ثم إلى أنطاكية ، ثم إلى المصيصة وطرسوس ، ودخل منها إلى بلاد الروم ، وغزا وعاد . وفي سنة ٢٢٣ هـ بلغ المعتصم أن العباس بن المأمون ، يريد أن يثب عليه ويأخذ الخلافة منه ، فدعاه وسلمه إلى أحد قواده ، فلما وصل إلى منبج ، طلب العباس الطعام فأكل ومنع الماء ، حتى مات بمنبج . وفي سنة ٣٥١ هـ أسر الروم الشاعر الشهير الأمير أبا فراس الحارث بن سعيد بن حمدان من منبج ، وكانت إقطاعاً له متقلداً بها ، من قبل ابن عمه سيف الدولة ، وحملوه إلى القسطنطينية ، وظل في أسرهم أربع سنوات ،وهو يراسل سيف الدولة بغرر القصائد ، ويطلب فكاكه حتى افتكه . وفي سنة ٤٦٢ هـ استولى الروم على منبج ، وكانت في حوزة محمود بن نصر بن مرداس ، وقتلوا أهلها ونهبوها ، وخربوا أسوارها ، ثم رحلوا عنها لجوعهم ، وفي سنة ٤٧٩ هـ جاء السلطان ملكشاه السلجوقي إلى شمالي الشام ، وقصد منبج

فملكها ، وكانت في حوزة شرف الدين مسلم بن قريش العقيلي وسار منها إلى حلب . وفي سنة ٥٠٤ هـ سار الإفرنج بقيادة (تنكرد) صاحب أنطاكية ، وملكوا الأثارب وزردنا ، وقتلوا أهلها ، ثم ساروا إلى منبج وبالس ، فوجدوهما قد أخلاهما أهلها ، فعادوا عنها . وذكر مؤرخو الإفرنج ، أن معركة هائلة حدثت حول أسوار منبج في سنة ١١٤٢ م ، بين (جوسلين) الإفرنجي صاحب الرها و (بلك بن بهرام بن آرتق) صاحب حلب ، وأن الدائرة دارت على (بلك) ، ولم يذكر مؤرخو العرب هذه المعركة ، بل ذكروا أن جوسلين في سنة ٥١٤ هـ أغار على جموع العرب والتركمان ، وكانوا نازلين بصفين ، فغنم من أموالهم ومواشيهم شيئاً كثيراً ، ثم عاد إلى بزاعة فخربها ، وذكروا انه في سنة ٥١٥ هـ كان بين (بلك بن بهرام بن أرتق) وبين (جوسلين) حرب انتصر فيها بلك ، ـ ولعل ذلك كان حول أسوار منبج ، وكانت النتيجة على خلاف قول مؤرخي الإفرنج ـ وقتل من الفرنج وأسر جوسلين ، وأسر معه ابن خالته (كليام) ، وجماعة من فرسانه المشهورين ، إلى أن فكهم في سنة ٥١٧ هـ الإفرنج قسراً ، من المكان الذي كانوا محبوسين فيه . وفي سنة ٥١٨ هـ قتل بلك ، وسببه أنه قبض على الأمير (حسان البعلبكي) صاحب منبج ، وسار إلى منبج ، فملك المدينة وحصر القلعة ، فبينما هو يقاتل ، إذ أتاه سهم فقتله ، لا يدرى من رماه ، فاضطرب عسكره وتفرقوا . وخلص حسان صاحب منبج ، وعاد إليها وملكها . وفي سنة ٥٧١ هـ سار السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى منبج ، فحصرها وصاحبها قطب الدين (ينال بن حسان) المنبجي ففتحها عنوة ، وأسر ينال ، وأخذ جميع موجوده ثم أطلقه . وفي سنة ٥٨٦ هـ أقطع السلطان صلاح الدين منبج وقلعة نجم ، إلى ابن أخيه الملك المظفر (تقي الدين عمر) ، زيادة على ما بيده في حماة والمعرة وسلمية وغيرها . وبعد وفاته انتقلت إلى ابنه المنصور ، إلى أن تنازل عنها في سنة ٥٩٦ هـ بأمر الملك العادل ، إلى ابن المقدم الأمير (عز الدين إبراهيم) ، ولما توفي عز الدين إبراهيم في سنة ٥٩٧ هـ ، انتقلتا إلى أخيه (شمس الدين عبد الملك) . وما كاد يستقر هذا في منبج ، حتى سار إليها الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي صاحب حلب ، وحاصرها وملك منبج ، وعصى عبد الله بالقلعة ، فحاصره ، ثم أنزله بالأمان واعتقله ، وملك قلعة منبج ، ثم سار إلى قلعة نجم ، وبها نائب ابن المقدم فحصرها ، وملكها أيضاً . وأرسل الملك الظاهر إلى الملك المنصور صاحب حماة ، يبذل له منبج وقلعة نجم ، على أن يصير معه على عمه الملك

العادل ، فاعتذر صاحب حماة باليمين التي في عنقه للملك العادل ، فلما أيس الملك الظاهر منه ، سار إلى المعرة وكفر طاب وفامية وحماة ، وأجرى في هذه البلاد ماذكرناه في أبحاثها . وفي سنة ٥٩٨ هـ خرب الملك الظاهر قلعة منبج ، خوفاً من انتزاعها منه ، وأقطع منبج بعد ذلك عماد الدين (أحمد بن سيف الدين علي بن أحمد المشطوب) . وفي سنة ٦٣٨ هـ كثر عبث الخوارزمية وفسادهم ، في بلاد حلب ، بعد أن كسروا عسكر حلب مع المعظم (تورانشاه بن صلاح الدين) ثم ساروا إلى منبج ، وهجموها بالسيف ، وفعلوا من القتل والنهب والفحش ، مثلما ارتكبه التتر ، ثم رجعوا إلى بلادهم . وفي سنة ٧٤٤ هـ وقعت زلزلة عظيمة ، خربت بحلب وبلادها أماكن لاسيا منبج ، أقلت ساكنيها ، وأزالت محاسنها ، وجعلت ابن الوردي يقول فيها :

منبج أهلها حكوا دود قز	عندهم تجعل البيوت قبوراً
رب نعمهم فقد ألفوا من	شجر التوت جنة وحريرا

مما يدل على أن منبج كانت متقدمة في تربية دود الحرير وزراعة التوت . وذكر ابن الوردي في حوادث سنة ٧٤٩ هـ التي اشتد فيها الطاعون الهائل ؛ أنه ظهر بمنبج على قبر النبي متى ، وقبر حنظلة بن خويلد أخي خديجة - رضي الله عنها - ، وهذان القبران بمشهد النور خارج منبج ، وعلى قبر الشيخ عقيل المنبجي ، وعلى قبر الشيخ ينبوب ، وهما داخل منبج ، وعلى قبر الشيخ علي ، وعلى مشهد المسيحات شمالي منبج ، أنوار عظيمة حتى انبهر لذلك أهل منبج .

فيظهر مما ذكرناه ، أن المحاصرات والكوارث المتوالية ، لاسيا زلزلة سنة ٧٤٤ هـ ، وطاعون سنة ٧٤٩ هـ ، جعلت أكثر منبج خراباً ، كما أيد ذلك ابن جبير وأبو الفداء أيضاً ، فيما ننقله عنهما ، إلى أن جاء تيمورلنك سنة ٨٠٤ هـ ، فأجهز عليها بالكلية ، وجلا عنها من سلم من أهلها ، واستمرت خراباً يباباً ، يأوي إليها رحالة الأعراب والتركمان إلى سنة ١٢٩٥ هـ ، وفيها قدم على حلب فريق من قبيلة أبزاخ الشركسية ، مهاجرة من بلاد القفقاس ، فأقطعتهم الحكومة العثمانية خربة منبج ، فتديروها وبنوا لهم من أنقاضها بيوتاً سكنوها . وفي سنة ١٣٠٢ هـ أمر السلطان عبد الحميد بترميم جامع منبج ، وبناء مدرسة على نفقة خزينته الخاصة ، ثم تهافت على منبج أخلاط من العرب ، من أهل حلب والباب

وغيرها ، تجار وصناع ، حتى فاقوا الشركس في العدد ، وتقدمت منبج في العمران ، وبعد أن كانت محرومة من البساتين والأثمار والبقول ، أخذ أهلها منذ عشر سنوات ، يغرسون فيها البساتين ، ويحفرون الآبار ويزرعون الخضر ، حتى كادت تستغني عن غيرها في ذلك . ولو تسنى لهم كري بعض القنوات العظيمة القديمة ، التي كانت سبب عمران منبج ، وازدهارها فيما مضى ، وإسالة مياهها ، كما يعمله أهل سلمية بقنواتهم القديمة ، المشابهة بالطول والإتقان وكثرة العدد لما في منبج ، لاستفادوا وأثروا ، وأعادوا عمران منبج الغابر ، إلى ما كان عليه جله ، إن لم يكن كله .

واسمع الآن كيف يصف الرحالة الأندلسي ابن جبير عمران منبج ، لما مر بها في سنة ٥٧٩ هـ ، قال : « منبج بلدة فسيحة الأرجاء ، صحيحة الهواء ، يحف بها سور عتيق ، ممتد الغاية والانتهاء ، جوها صقيل ومجتلاها جميل ، ونسيمها أرج النشر عليل ، نهارها يندي ظله ، وليلها كما قيل فيه سحر كله ، تحف بغربيها وبشرقيها بساتين ملتفة الأشجار مختلفة الثمار ، والماء يطرد فيها ، ويتخلل جميع نواحيها ، وخصص الله داخلها بآبار معينة ، شهدية العذوبة سلسبيلة المذاق ، تكون في كل دار منها البئر والبئران ، وأرضها أرض كريمة ، تستنبط مياها كلها ، وأسواقها وسككها فسيحة متسعة ، ودكاكينها وحوانيتها ، كأنها الخانات والمخازن اتساعاً وكبراً وأعالي سوقها مسقوفة ، وعلى هذا الترتيب أسواق أكثر مدن هذه الجهات . لكن هذه البلدة تعاقبت عليها الأحقاب ، حتى أخذ منها الخراب ، كانت من مدن الروم العتيقة ، ولهم فيها من البناء آثار تدل على عظم اعتنائهم بها ، ولها قلعة حصينة في جوفيها تنقطع عنها وتنحاز منها » ا هـ .

أما ياقوت في سنة ٦٢١ هـ فيقول : « منبج بلد قديم ، وما أظنه إلا رومياً ، ذكر بعضهم أن أول من بناها كسرى ، لما غلب على الشام ـ هذا خطأ من ياقوت ـ ، والرشيد أول من أفرد العواصم ، وجعل مدينتها منبج ، وأسكنها (عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس) . وهي مدينة كبيرة واسعة ، ذات خيرات كثيرة ، وأرزاق واسعة ، في فضاء من الأرض ، كان عليها سور مبني بالحجارة محكم ، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ ، وشربهم من قني تسيح على وجه الأرض ، وفي دورهم آبار أكثر شربهم منها ، لأنها عذبة صحيحة ، وهي لصاحب حلب في وقتنا هذا » . ومنها

البحتري ، وله بها أملاك ، وقد خرج منها جماعة من الشعراء ، فأما المبرزون فلا أعرف غير البحتري ، وإياها عنى المتنبي بقوله

قيل بمنبج مثواه ونائله في الأفق يسأل عمن غيره سألا

وقرأت بخط ابن العطار : « منبج بلدة البحتري وأبي فراس ، وقبلهما ولد بها عبد الملك بن صالح الهاشمي ، وكان أجل قريش ، ولسان بني العباس ، ومن يضرب به المثل في البلاغة ، وكان لما دخل الرشيد إلى منبج ، قال له هذا البلد منزلك ، قال : ياأمير المؤمنين هو لك ولي بك ، قال : كيف بناؤك به ، فقال : دون بناء بلاد أهلي وفوق منازل غيرهم ، قال : كيف صفتها ، قال : طيبة الهواء قليلة الأدواء ، قال : كيف ليلها ، قال : سحر كله ، قال : صدقت إنها لطيبة ، قال : طابت ياأمير المؤمنين وأين يذهب بها عن الطيب ، وهي برة حمراء وسنبلة صفراء وشجرة خضراء ، في فياف فيح ، بين قيصوم وشيح ، فقال الرشيد : هذا الكلام والله أحسن من الدر النظيم » ا هـ .

وأما أبو الفداء فيقول في تقويم البلدان : منبج ، من جند قنسرين . قال في الأنساب « ومنبج إحدى بلاد الشام ، بناها بعض الأكاسرة الذي غلب على الشام ، وسماها منبه ، وبنى بها بيت نار » ـ وهذا خطأ أيضاً ـ . قال ابن حوقل « وهي في البرية الغالب على مزارعها الأعذاء وهي خصبة . أقول : وهي كثيرة القني السارحة ، والبساتين وغالب شجرها التوت لأجل القز ؛ ودور سورها متسع كبير ، وغالب السور والبلد خراب » ا هـ .

وبليدة منبج الحالية ، لاتبلغ خمس القديمة بالجسامة والعمران ، يدل على ذلك عظمة سورها ووسعته . وكان هذا السور على شكل مضلع غير منتظم ، مفتوح نحو الجهة الغربية الشمالية ، وكانت البحيرة على يسار مدخله . وقد صغرت هذه البحيرة الآن عما كانت عليه ، لما وصفها المؤرخ (لوسيان) لدثور القنوات التي كانت تغذيها ، وقلة ماء مابقي منها سالماً . وكان في هذه البحيرة سمك مقدس ، معلق في بدنه حلي ، وكان الهيكل العظيم الذي تقدم ذكره ، وسط هذه البحيرة ، وهو من المرمر الناصع ، كانت الحجاج تصله سباحة ، وتقدم نذورها له ، وفي الأعياد الكبيرة كان يؤتى بأصنام بقية الآلهة ، وتصف حول شاطئ البحيرة ، وتقام معالم الأفراح والقصف واللهو . ولم يبق الآن من

أطلال منبج القديمة وآثار مجدها الغابر ، ما يستحق الذكر سوى كسور أحجار وأعمدة وقواعد وتيجان أعمدة ، يعثر عليها الأهلون أثناء الحفر ، تقع عليها عين الزائر بكثرة ، عند دخوله هذه البليدة ، وتجواله في أحيائها . وثمة في خارج منبج إلى الغرب ، أطلال قصرين قديمين ، ينسبان للبناة ، أحدهما لأصحابه من الشركس ، والثاني لأصحابه من العرب ، فهل هما قصور (عبد الملك بن صالح العباسي) ؟ . وكان أحسن الأطلال حالاً لمضي عشر سنوات سور منبج ، إلى أن نبشته دائرة الآثار الإفرنسية في حلب ، بأيدي المسجونين ، وبعثرت مشخصاته ، لعلها تعثر بينها على عاديات ، حتى غادرته كالرسوم الدائرة ، وقيل إنها لم تعثر على ما يستحق الذكر . وما عثر عليه غيرها في منبج ، من قبل ومن بعد ، نقل الخفيف الحمل ، الغالي الثمن منه ، إلى خارج البلاد ، وأبقي الغث ، أمام دار الحكومة ، وهي أنصاب أشخاص موتى . أو أرسل إلى متحف حلب ، ومنها في هذا المتحف تمثال من الحجر الحري الأسود ، لكاهن منبج الأكبر ، يقدم نذراً للآلهة ، ورداؤه كرداء الكهان العظام ، مهدب بخملات جرسية الشكل . وكان الأثري الإفرنسي (كيليوم راي) زار منبج في حدود سنة ١٨٦٠ م ، ووجد قرب البحيرة تلة أنقاض تعود للهيكل ، عثر بينها على تمثال صغير للإلهة (أتراكاتيس) الذي ذكرنا أوصافه . ولا يعلم الآن مصير هذا التمثال .

واللغة السائدة في منبج العربية ، تنازعها التركية والشركسية والكردية ، لوفرة المتكلمين بهذه اللغات ، فيها وفي قضائها . وما خلا نفس منبج وبضعة قرى تدعى الحمر في الجنوب ، يكاد يكون كل قضاء منبج من (أملاك الدولة) ، التي كان لها فيه شعبتان ، واحدة لمنبج ، والثانية لمسكنة ، كان مركزهما في قرية أبي قلقل على بعد نحو ١٧ كيلومتراً إلى الجنوب من منبج ، وفي قرية أبي قلقل ينبوع كبير ، أنشئ في جواره منذ نصف قرن ، بستان عظيم ، فيه أشجار باسقة متنوعة ، وبقول وافرة ، وفي طرفه دور خاصة ، بأسر موظفي أملاك الدولة ، وبناء خاص بالشعبتين فيه مسجد ومدرسة ، ظل هذا الحال منذ عهد السلطان عبد الحميد ، إلى أن ألغت الحكومة منذ عهد قريب شعب هذه الأملاك ، ونقلتها إلى مراكز الأقضية ، وبدلت شكلها السابق ، وكان هو الأنسب ، فمالت الدور والبساتين إلى الخراب ، وأفل نجم القرى والمزارع ، بعد العناية والرعاية اللتين كانت لها ، وساء حالها ، بعد أن توالت سنو الجدب ، وتكررت الأزمات والنوائب المالية والزراعية .

وقضاء منبج واسع الأنحاء ، فيه ثلاث نواح : منبج ، أبو قلقل ، ومسكنة (باليس) ، وهو وافر المحاصيل الشتوية فحسب ، في أرضينه الأعذاء ، لتعذر استغلال الصيفية ، بحكم اصفرار أو بياض تربته ورقتها ، وقلة أمطاره بالنسبة لأقضية حلب الغربية ، إلا في سقي الفرات المسمى (الزور) ، فالزروع الصيفية تجود أي جودة ، رغم سذاجة وسائل الري وضعفها فيه ، ولو تسنى حفر وتفجير القنوات القديمة المنتشرة بكثرة حول منبج ، وفي بعض قراه الجنوبية ، كالخفسة وما جاورها ، لتوسعت الزراعة المسقوية ، وانفرج العسر الضارب أطنابه في هذه الرباع . وجل فلاحي هذا القضاء أعراب ، لا يزالون على الصعلكة ، وكثير من عادات البداوة ، رغم مرور أكثر من ثلثي قرن على تحضيرهم ، وهم ينتسبون لقبائل وأفناد شتى ، كالعون والأبي سلطان ، والأبي دبش والحمدون ، والغنايم وأولاد علي ، والأبي بطوش وبني سعيد ، وبني عصيد والغلاظ ، والأبي بنا والهنادي ـ وهؤلاء أعقاب أعراب الهنادي المصريين ، الذين جاؤوا في جيش إبراهيم باشا سنة ١٢٤٨ هـ ـ والتويجات والأبي حسن ، والأبي مانع والأبي صالح ، والأبي مسرة والغانم ، وغيرهم .

والشركس القاطنون في منبج ، لا يزالون محتفظين بكيانهم وطابعهم ، يجدر بنا ـ وقد تكرر ذكرهم ـ أن نبحث عنهم قليلاً ، فالشركس موجودون في بلاد الشام ، في شرقي حلب في منبج وخناصرة ، وفي غربيها في سهل العمق ، في قرى حران وعم (يني شهر) ، والريحانية وبدركة ، وفي ولاية دمشق في قضاء سلمية ، في قرى : تل سنان وتل عدا وذيل العجل ، وفي قضاء حمص في غربي العاصي ، في تليل ، وفي شرقيه : في عسيلة ودير فور ، وأبي أمامة وتل عمري ،. وعين ظاط ومريج الدر ، وفي قضاء القنيطرة : في المنصورة والقنيطرة ، والصمدانية وعين زيوان ، وعين صرمان وصرمان ، وomوسية وبئر عجم ، وبريقة وجويزة ، وفزارة وخشنية وفحام ، ولهم قرب جبلة اللاذقية قرية عرب الملك ، وفي شرقي دمشق : مرج السلطان ، وفي شمالي لجا حوران ، بلاي وبويضان ، وفي البلقاء (شرقي الأردن) الزرقاء والرصافة ، وعمان وعين صويلح ، ووادي السير والناعور ، وجرش ، وفي فلسطين غربي طبريا : كفر كما ، وفي قرب صفد : الريحانية . والشركس في أوطانهم في بلاد القفقاس ، مؤلفون من قبائل شتى ، تدعى : بزادوخ وأوبوخ ، ونوتوخاج وشابسيغ ، وآبازاخ وناقوغاي ، وقبارطاي وبسلني ، وآباظة

وحاتوقواي ، وجامكواي ، اختلط هنا بعضهم ببعض ، وانضم إليهم من قبائل الداغستان والشاشان ، والقراشاي والقوصحة ، ذوي اللغات والطباع المختلفة أيضاً ، جمع خالطهم بحكم الضرورة ، كما في القنيطرة ، أو سكن لوحده ، كما في دير فور شمالي حمص ، ورأس العين في الجزيرة الفراتية وغيرهما . وهؤلاء هاجروا من ديارهم في بلاد القفقاس ، بعد أن قضوا أكثر من سبعين سنة يذودون عنها ، ضد هجمات جحافل الروس ، ويستبسلون استبسالاً فاقوا به جميع الشعوب الإسلامية ، التي ذادت عن حماها في القرنين الماضي والحالي . ولما أعيتهم القوة والكثرة ، وخذلتهم الدولة العثمانية في جهادهم كله ، ولم تف أنكلترة أيضاً بالمعونة ، التي كانت إذ ذاك تمنيهم بها سراً ، نكاية بأخصامها الروس ، لم يشاؤوا البقاء تحت نير الاستعمار والاستعباد ، فجلوا عن أوطانهم أفواجاً أفواجاً ، وتباعاً منذ سنة ١٢٧٧ هـ ، وهاجروا إلى البلاد العثمانية ، فأقطعتهم الدولة قرى كثيرة مبعثرة ، في أنحاء مختلفة من شمالي الأناضول ، ووسطه وغربيه ، وشرقي بلاد الروملي . لكنها - وقد كان ذلك في عهد السلطان عبد العزيز الطافح بالفوضى - لم تحسن توزيعهم وإيواءهم ، في الأماكن المناسبة لهم ، فزادت في تمزيق شملهم ، وتشتيت صدعهم ، فوق ما نالهم من ذلك خلال هجرتهم ، وهلك معظمهم يومئذ بالبؤس والجوع والأمراض . ثم عادت عقيب الحرب الروسية التي جرت في سنة ١٢٩٣ هـ ، وأجبرت من كانت أسكنته في بلاد الروملي على هجرة ثانية ، نزولاً عند أحكام عهدة برلين ، التي قضت بإخراجهم من تلك البلاد ، ونقلت معظم هؤلاء إلى بلاد الشام ، وأحلتهم في القرى التي عددناها . وقراهم هذه كانت خراباً يباباً ، وجلها على سيف البادية الشرقية ، فعمروها ، بعد أن هلك كثير منهم ريثما تمكنوا من الاطمئنان إلى مناخ هذه القرى وبيئتها ، وريثما ردوا عيث البادية بسواعدهم عنها .

والشركس رغم مرور أكثر من نصف قرن على سكناهم في الشام ، ما برحوا محتفظين بلغاتهم ، وأكثر أزيائهم وطبائعهم وعاداتهم ، وهم يمتازون في كل مكان عن مجاوريهم ، بالرشاقة والأناقة ، والنفس الأبية والعصبية ، والفروسية ونظافة المسكن والملبس ، وقليل من العناية بالحراثة ، وتربية الماشية ، لكن ليس بينهم إلا عدد يسير من المتعلمين تعليماً أولياً أو متوسطاً ، وندر من أكمل العالي ، وأقل من ذلك من أتقن العربية كتابة وإلقاءً ، ونحوه أيضاً من انصرف إلى الصناعة والتجارة ، أو احتجن ثروة من الزراعة . وكانت

أفئـدتهم قبلاً مع العثمـانيين ، وهوى أكثرهم في الجنـديـة ، نشـأ بينهم ضبـاط وقواد ، برزوا بوفائهم وحسن بلائهم ، في خدمة الدولة العثمانية . ولا يزال هذا الهوى في زمـانـنـا ، يحـدو برجالهم نحو مسالك الشرطة والدرك، وسرايا المتطوعة المرتبطة بعمال الدولـة المنتـدبـة ، في شمالي ـ الشام وجنوبه ـ ، أو خفارة المزارع ، ووكالة الضياع ، وغيرها مما فيه ركب وضرب وطعن ، يصدقون الخدمة ، ويتفـانون في سبيلهـا ، ويكاد هـذا الهوى الضـار ، يقرضهم أو يضعفهم .

مغارة أم السرج : في جنوبي منبج ، وغربي أبي قلقل ، مغـارة عظيمـة صنـاعيـة ، كنت بحثت عنها في مقال درج في الجزأين ١١ و ١٢ من المجلـد السـادس (سنـة ١٣٤٥ هـ ـ ١٩٢٦ م) من مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق ، أنقله هنـا لمنـاسبتـه . قلت : لا أغـادر في سياحاتي ، في البحث عن الآثار القديمة والمشاهد الطبيعية . وذلك توصلاً لاكتنـاه غوامض التاريخ والجغرافيا ، اللذين لا يزال كثير من أوابدهما في بلادنا ، محتاجـاً للتحقيق . فبينمـا كنت أتجول في قضـاء منبج ـ شمالي شرقي حلب ـ خلال شهر تموز ١٩٢٦ م ، ذكر لي : أن هنالك مغاور تخلب الألباب بعظمتها ، ودقـة صنعهـا ، وغرابـة منظرهـا . ولمـا كنت قـد زرت في القسطنطينية مغارة (كوجك جكمجة) إحـدى محطـات سكـة حـديـد الروملي ، ورأيت ماحوته من الآثار الجيولوجية البديعة ، أملت أن أشاهد مايشبههـا في المغـاور التي ذكرت لي ، فأسرعت إلى زيـارتهـا . وهي تبعـد عن منبج نحو ١٧ كيلو متراً إلى الجنوب ، وعن حلب ٨٨ كيلو متراً إلى الشرق .

استصحبت من القريـة القريبـة للمغـاور ، واسمهـا (مقبلـة حسن آغـا) أدلاء ومصـابيح . فسرنـا نرتقي جبلاً مستطيل الشكل ، يمتـد من الغرب إلى الشرق . وبعـد أن سرنا نصف ساعة ، وصلنا إلى ذروته ، فأشرفنا على ماحولـه من السهول الشـاسعـة ، رأينـا في شرقنـا نهر (الفرات) ، ينسـاب عن بعـد ، حـامـلاً ميـاه بـلاد الترك والكرد ، إلى ثغر العراق والخليج الفارسي ، وفي شمالنا بلدة (منبج) تندب مجدها القديم ، وحولهـا هضبـات متسلسلة حتى نهر (الساجور) ، أحد فروع الفرات ، وما وراءه من تخوم تركيا الحديثـة ، وشاهدنـا في الغرب قريتي تـاتف وبزاعـة ، الشهيرتين في تـاريخ الإسرائيليين والصليبيين ، وقد علتها أكمة قام فوقها مسجد ، ذو مأذنة عـاليـة بـاسم أحـد الصلحـاء ، المسمى (الشيخ

عقيل) وهو عقيل بن أبي طالب فيا قيل ، ورمقنا في الجنوب ، براري وفيافي ، تضيع بعد حين ، في الأفق الغارب في بادية الشام .

في ذروة هذا الجبل ، المطل على تلك المناظر الجميلة ، والمحفوفة بذكريات عريقة ، في قدم التاريخ ، استقبلنا شقاً كثير الطول والعرض ، نقر في الصخر ،كما تنقر أخاديد السكك الحديدية في أيامنا ، وجعل على ما يظهر ، منفذاً لما بعده ، تقف فيه الحراس ، وتحول دون تخطي الغرباء منه ، وبعد أن عبرنا الشق دون عائق ، انتهينا إلى وسط ساحة فسيحة ، تحيط بها جدران عالية من الصخر الأبيض ، نقرت فيها كهوف منتظمة ، بعضها بجانب بعض ، وهي تشبه باصطفافها حوانيت الأسواق في المدن ، وربما كانت خاصة بشراء الحاجات وبيعها ، من سكان المغاور التي نحن بصددها . وبعد أن اجتزنا الساحة ، أشرفنا على أعظم المغارات ، وأجلها شأناً ، وهي المسماة (مغارة أم السرج) . سميت بذلك ، لأن شدة ظلامها ، تجعل استعمال السرج فيها لازماً . وفوهة هذه المغارة واسعة ، بقدر خمسة عشر متراً ، ملئت بجلاميد الصخور المتكسرة ، والمتدحرجة من سقف الفوهة وقمة الجبل . وقد تشعث بذلك باب المغارة ، وردم درجها بأسره ، فأصبح النازل محتاجاً للزحف على إليتيه تارة ، والاستمساك بهذا وذاك من الأحجار تارة أخرى .

انحدرنا من الفوهة ـ على النحو الذي ذكرته ـ مقدار خمسين متراً ، إلى أن وصلنا إلى مستوى المغارة حيث قل النور ، وأرخى الظلام سدوله . فأضاء الأدلاء المصابيح ، وساروا أمامنا ، وتبعناهم نتوكأ على العصي التي حملناها ، ونتلمس الجدران بأيدينا ، وأخذنا نجتاز مضايق ، ومعاطف ، ونجتاز مخارم وفجاجاً ، ونصادف أقباء عظيمة وأبهاء وسيعة . وكل ذلك محفور في الصخر ، وآثار الحفر ونقر الدبابير والمطارق والأزاميل بارزة ، تكاد تظهر أن الحجارين والنحاتين قد انتهوا من أعمالهم وخرجوا في تلك الساعة . وتجد في وسط الجدران كلها كوات صغيرة ، بعضها فوق بعض ، تمتد من الأرض إلى السقف ، وهي تشبه ما يعمل في جدران الآبار لوضع الأرجل أثناء الصعود والنزول إليها ، وتجد في محلات عديدة أيضاً كوات أكبر منها لوضع السرج أو المصابيح ، ولا تزال آثار الدخان ظاهرة فيها حتى الآن .

وقد وجدت سعة كل بهو ، لا تقل عن استيعاب مئتي شخص أو أكثر ، كانوا يجتمعون

فيها على ما يظهر ، لاستماع الخطب أو العظات الدينية ، أو للمداولة في أمور هامة . وذلك لأن بعض الأبهاء يحوي في صدره مقاعد ومصاطب منقورة في الجدار ، جعلت لجلوس علية القوم ، وفوق الجمع مقعد كالأريكة ، كان خاصاً بالقائد ، أو الكاهن الأكبر في الغالب .

وقد تذكرت وأنا أجوس خلال تلك الدهاليز والغيران ، حالة السائحين اللذين وصفهما الروائي الإفرنسي الشهير (جول فرن) ، في إحدى رواياته العلمية المسماة (رحلة تحت الأرض) . فقد دخل السائحان كهفاً في جبال الألب ، وظلا يسيران في أحشاء الأرض ، ويجتازان أجوافها وسراديبها المظلمة ، ويشاهدان عجائب تكون طبقات الأرض ، وأدوارها الجيولوجية الأربعة ، وما حوته من أحافير النباتات والحيوانات ، وأجناس الصخور والمعادن ، إلى أن قذفتهما التقادير ـ بخارقة لاتسعها إلا مخيلة الروائيين ـ من فوهة بركان جزيرة إسلاندة في أقصى الشمال الغربي من قارة أوروبا . وما كان قصد (جول فرن) من هذه الرواية ، إلا حمل مطالعيها على تفهم دقائق علم الجيولوجية ، بهذا الأسلوب اللطيف . شأنه في سائر رواياته ، التي يبحث في كل منها عن أحد العلوم الطبيعية .

ولما بلغ منا التعب والظمأ مبلغه ، وتمنينا جرعة من الماء ، صادفنا في أحد الأقباء بئرين ملآنين ماءً عذباً بارداً ، شربنا منها ، وغسلنا الأوجه والأيدي ، واسترحنا مدة . وقد حاولنا أن نسبر غورهما فلم نتوفق لوفرة عمقها . وهذان البئران من أعجب ما يذكر عن هذه المغارة ، ولولاهما لما استطاع حافروها وساكنوها العمل والمقام فيها .

هذا وقد بقينا نحو ساعتين ، في ذلك الظلام القاتم ، ندخل في بهو ونخرج من قبو ، ونصعد درجاً ونجتاز سرداباً ، ولا يستطع أحدنا أن يبتعد عن دليله أو رفيقه ، خشية الضياع والهلاك . ونحن في أشد الحيرة من عمل أولئك الذين بذلوا الهمم الشماء ، في نقر هذه الصخور الصماء ، وتمهيدها وتقسيمها على هذا النحو ، في أحشاء هذا الجبل الشامخ ، وتحت عمق لا يقل عن ٧٠ ـ ٨٠ متراً ، وطول وعرض هائلين ، لا مجال لتقديرهما . فكم فرقة من فرق العمال عملت في الحفر ، وكم ألوف من الدنانير أنفقوها في هذه السبيل ؟ ذلك ما كنت أفتكر به ، ولا أصل إلى حله .

ومن الغريب ، أنني رغم التحقيق والتفتيش في الجدران والسقوف ، لم أعثر على أثر لكتابة أو نقش أو رسم ، لأستدل منه على سبب حفر هذه المغارة الهائلة وتاريخها ، واسم ساكنها وحافريها الأقدمين ، ولا على شيء من العلائم الجيولوجية ، كأحافير النباتات والحيوانات ، وأعمدة الستلاكتيت ، والستلاكميت التي توجد في أشباه هذه الكهوف ـ إذا كانت طبيعية ـ ولم أجد معنى لدفن هؤلاء الناس أنفسهم في هذه الهوة السحيقة ، ومكوثهم في هذه الأقباء والغيران المدلهمة الرطبة . إلا أن يكون ذلك لغرض ديني أو سياسي ، فهم إما أنهم كانوا يستعملونها كمعبد خفي ، يقيمون فيه شعائر ديانتهم السرية ، بدليل وجود المصاطب والأرائك التي ذكرتها ، وإما أنهم كانوا يتخذونها حصناً ، يلجؤون إليه عند إحاطة الأعداء بمدينتهم ، التي يشاهد بعض طلولها خارج المغارة ، وعلى السفح الجنوبي للجبل . أو أنهم كانوا يسجنون فيها من غضبت عليه ملوكهم أو كهانهم ، أو وقع أثناء الحروب في قبضتهم ، فيعتقلون السجناء أو الأسرى في هذه الظلمة والرطوبة ، اللتين تهدمان أشد الأبدان قوة وصحة .

ولم تحرم هذه المغارة العجيبة من سكنى الأحياء والاستئناس بهم ، فقد كنا نصادف ألوفاً من الخفافيش المعتادة حياة الظلمة والرطوبة ، جاثمة على الجدران والصخور ، وشاهدنا زرقها الذي ظل يتراكم منذ مئات من السنين ، فأصبح أكواماً كالبيادر . وقد أفهمت القرويين الذين رافقوني ، منافع هذا الزرق ، وأنه من أنفع الأسمدة المؤدية لخصب الأرض ، وأن الأوروبيين يستجلبون مثيله من جزر أميركا الجنوبية ، ويدعونه (غوانو) ، ويبيعونه حتى في بيروت بأغلى الأثمان ، ونصحتهم بأن يخرجوا منه مايكفيهم ، ويسمدوا حقولهم وكرومهم به ، فوعدوني بالإيجاب .

هذا وما زلنا في صعود وهبوط ، ودخول وخروج ، حتى أعيينا ، وخشينا أن نصل إلى فوهة بركان قد لا يرحمنا ، كما رحم سائحي رواية (جول فرن) فلا يقذفنا سالمين . لاسيا وقد أخذت منا قشعريرة الرطوبة في تلك الكهوف الظلماء كل مأخذ ، فاكتفينا بما رأيناه ، وعدنا أدراجنا إلى فوهة المغارة ، وشرعنا بالصعود رويداً رويداً ، نستعين باليدين والرجلين ، إلى أن من الله علينا بالوصول إلى سطح الأرض ، ورؤية النور والشمس ، فانتصبنا ننفض عنا آثار حياة الآخرة ، ونهنئ بعضنا بعضاً بالسلامة .

وقد ظهر لي ، أن الذي أعان القوم على النحت والتنقيب ، هو لين الحجر الذي يتكون منه الجبل ، لأنه من الصخور الطباشيرية البيضاء ، المنتسبة للدور الثلاثي من أدوار الجيولوجيا . ولو كان من الصخور البركانية ، كالبازلت الأسود ، لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . على أن لين هذا الصخر ، جعله بحيث يتأثر على كر الأحقاب بفعل العوامل الطبيعية من حر وقر ، ولذا ترى السيول تصدعه ، وتجزئه رويداً رويداً . وهذا ماجعلني أرى في أكثر الأقباء جلاميد عظيمة ، ساقطة من أعلى السقوف والجدران ، وقد سدت بعض الأبهاء والدهاليز ، أو شعثت الدروب .

ثم إن الأدلاء قادوني إلى مغارة ثانية ، أصغر من الأولى بكثير ، وفيها ماء عذب ، يرشح من نبع بسقفها ، ويسيل بلا انقطاع ، القطرة تلو القطرة ، وقد وضع الأقدمون في موضع سقوطه على الأرض ، جرناً تجتمع فيه القطرات ، فيتكون منها كمية من الماء ، تكفي لشرب عشرات من الرجال . وقادوني إلى مغارة ثالثة ، فيها سرداب قليل العمق ، ينبع من جداره ماء عذب ، حفروا له حوضاً يستقون منه عند اللزوم . ولا يزال رعاة الغنم والإبل السائمة في هذه الجبال ، وبعض الأشرار الهاربين من يد القضاء ، يلجؤون أحياناً إلى هاتين المغارتين ، ويتمتعون بمياهها .

وقد سألت الأدلاء ، وصاحب القرية القريبة لهذه المغاور ، عما إذا كان دخلها قبلي أحد من مفكري البلاد ، أو من السياح الأوروبيين ، فأجابوني عن الأولين بالسلب ، وعن الثانين بأنه لم يزرها إلا سائحان ألمانيان قبيل الحرب العامة ، ذهبا على أمل الرجوع للبحث والتنقيب فيها ، فحالت الحرب دون عزمهما . وذكروا خرافة عن سائح مغربي ؛ قالوا أنه قرأ وهو في بلاده في أحد الأسفار القديمة ، خبر مغارة أم السرج ، وعلم بأنها تحوي كنزاً عظيماً ، فجاء إليها ، واستصحب أدلاء من القرية ، ولكنه لما وصل بعد البحث والتنقيب الطويلين إلى باب الكنز ، وحاول فتحه ، هوت صخرة عظيمة من سقف القاعة فسدته . ولما عجز عن زحزحتها أو تحطيمها ، رجع خائباً .

وبعد مغادرتي تلك الربوع ، راجعت كتب التاريخ والآثار ، التي تبحث عن الديار الحلبية ، فلم أجد ذكراً لهذه المغاور ، سوى بيان موجز لما كانت عليه بلدة منبج Hiérapolis ، من العمران والرقي ، في العصور القديمة والمتوسطة ، درجته في بحث منبج .

فبلدة مقدسة كمنبج ، هذه حالتها في تلك العصور من الرفه والعمران ، لا يبعد أن يقوم سكانها ، ويحفروا على مقربة منهم هذه المغاور التي وصفتها ، ويتخذونها إما معبداً أو حصناً أو معقلاً ، هذا إذا لم يكونوا جعلوها مدفناً لعظمائهم ، أو مذخراً لكنوزهم ودفائنهم ، التي لم يسعدني الحظ بالعثور عليها ويا للأسف . ولعله يقوم غيري من أرباب الولع أو يأتي أمثال اللورد (كارنارفون) ، فيبذل من المتاعب والنفقات ، ما عسى أن يوصله لما يشبه كنوز (توت عنخ آمون) ، وكل مفعول جائز .

قلعة النجم : في شمالي منبج ، على ضفة الفرات اليمنى ، التي تدعى (الشامية) ، قلعة عربية جليلة الشأن ، جديدة البنيان في الجملة ، تدعى قلعة النجم ، مر ذكرها كثيراً في أبحاثنا السابقة ، أتيح لي زيارتها في صيف سنة ١٣٤٥ هـ ، ذكرها ياقوت في معجمه فقال : « قلعة النجم ، بلفظ النجم من الكواكب ، وهي قلعة حصينة مطلة على الفرات ، على جبل ، تحتها ربض عامر ، وعندها جسر يعبر عليه ، وهي المعروفة بجسر منبج ، ويعبر على هذا الجسر القوافل من حران إلى الشام ، وبينها وبين منبج أربع فراسخ ، وهي الآن (سنة ٦٢١ هـ) في حكم صاحب حلب الملك العزيز بن الملك الظاهر بن الملك الناصر يوسف بن أيوب » ا هـ . وذكرها آخرون ، بأنها كانت قديماً تعرف بجسر منبج ، وكان الجسر على شاطئ الفرات ، وكانت بلدة صغيرة ، إلى أن كانت بعد الثلاثمئة ، عمرها نجم غلام الصفواني ، قلعة حصينة ، لها ظاهر باهر الطرف ، يقصر عنه الوصف ، ملكها بنو حمدان ، ثم بنو مرداس ، ثم كانت لبني نمير ، ثم تعاورتها الأيدي ، إلى أن أخربها التتر . وذكر مؤرخو الإفرنج ، أن مكان قلعة النجم ، كان يدعى في عهد الرومانيين Caeciliana ، وأن هذه القلعة قديمة ، تعاورتها كثير من أيدي الدول ، وخربت إلى أن رممها نور الدين محمود ، ثم رممها ترميماً حسناً الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي ، ثم خربت بعده ، وأن أكثرها كان في القرن الثامن الهجري خراباً ، وأن هذا الخراب زاد سنة ١٢٣٧ هـ ، لما تحصنت فيها قبيلة من الأعراب ، كانت عاصية ومتمنعة عن أداء الضرائب ، فجاء الجند العثماني ، وأطلق مدافعه عليها في القلعة .

ومر ابن جبير الأندلسي بقلعة النجم ، وهو آت من حران ، فقال عنها : « وكان وصولنا إلى الفرات ضحوة النهار ، وعبرنا في الزواريق المقلة ، المعدة للعبور إلى قلعة

جديدة على الشط ، تعرف بقلعة نجم ، وحولها ديار بادية ، وفيها سويقة يوجد فيهـا المهم من علف وخبز ، فـأقمنـا بهـا يوم الخميس العـاشر لربيع الأول المـذكـور (سنـة ٥٧٩ هـ) ، خلال ماتكمل القافلة العبور ، وإذا عبرت الفرات حصلت في حد الشام ، وسرت في طاعـة صلاح الدين إلى دمشق ، والفرات حد بين ديار الشـام وديـار ربيعـة وبكر » ا هـ . ومن الغريب أن لا يذكر ابن جبير عبوره الفرات على الجسر ، ولعله كان خراباً سنـة ٥٧٩ هـ ، ورمم في عهـد الملـك الظـاهر غـازي ، لأن هـذا الجسر كان موجـوداً من قبـل كما قـدمنـا ، وياقوت ذكر وجوده في سنة ٦٢١ هـ أي بعد ابن جبير بإحدى وأربعين سنة .

ومن مراجعـة مـاذكرنـاه في تواريـخ كل من أفـاميـة وشيزر وحمـاة ومنبـج ، تظهر الأحداث والتقلبـات التي كانت تصيب قلعـة النجم ، المرتبطـة أقـدارهـا مع تلـك البلاد ، لاسيما مع جارتها منبج ، ويتبين مـاكان لقلعـة النجم من الشـأن ، من وجهتي سوق الجيش والتجارة ، باعتبـارهـا مـدخل بلاد الشـام ، للجحـافل والقوافل القـادمـة من شمالي العراق وبلاد الجزيرة العليا . وكان صاحب إقطاعها يتقاضى رسوماً ومكوساً وافرة ، من المـارين والعابرين فوق جسرها أو معبرها ، ناهيـك عن أن بقـاءهـا في يـد ملوك حلب وأصحـاب منبج ، كان لازماً لسلامة هاتين البلدتين . لذلك تعاورهـا كثير من أيـدي الملوك والأمراء المسلمين ، إلى أن استقرت في يد ملك حلب الظاهر غازي ، فجددهـا على حـالهـا ، الـذي مابرح أكثره ماثلاً بجماله ، رغم فعل التتر ، وهز الزلازل وخرب المـدافع ، لكنـه توفي رحمـه الله سنة ٦١٢ هـ قبيل إتمامها ، وذهب قبل أن يسر بمرآها .

وقلعة النجم تبعد عن منبج زهاء ٢٩ كيلو متراً ، وهي لاتزال على جدتهـا ، وروعـة بنيانها العربي ، رابضة فوق أكمتها العالية ، ذات الصخور البيضاء الهشـة المكسر ، تشرف في الشرق على نهر الفرات العظيم ، الذي كان فيما مضى ، يغسل أقـدامهـا عن كثب ، لمـا كانت في شـامخ عزهـا وفتـوتهـا ، ثم ابتعـد عنهـا نحـو ٦٤٠ متراً إلى الشرق ، وهجرهـا لمـا شـابت وتـداعت ، وهـذا من خصـائص الفرات يغير مجراه من حين إلى آخر ، وتشرف في الجنـوب على عدوتي الفرات ، وفيهما ضياع عديدة ، أقربها إلى القلعة في الشامية ضيعة قلعة النجم ، وهي السويقة أو الربض اللذين نوه بها ياقوت وابن جبير ، ثم ضيعـة الزيـارة ، وفي هـذه أضرحة وقبور إسلامية قديمة ، من الغريب أنها هي وشواهدها لاتزال سالمة ، ومن بعـدهـا

جرن الكبيرة وجرن الصغيرة ، وتشرف في الشمال والغرب على آكام صخرية بيضاء ، بين القلعة وبينها واد سحيق عريض ، ووراءها تختفي ضياع ، منها في العدوة الشامية ، خشفة وبيرخلو ، وتشرف في الشرق على الهضاب المنحدرة من براري الجزيرة الفيح ، وفيها تجاه القلعة برج شبه المنارة ، وثمة وادٍ أو مدخل يدعى مدخل القيعق . وكانت القوافل والجحافل القادمة من الرها وحران في الجزيرة ، تمر إلى الشامية من فوق الجسر الذي كان تحت القلعة ، وقد دثر منذ عهد بعيد ، وزالت آثاره بتاتاً ، ولا يزال شيوخ ضيعة قلعة النجم ، يحدثون عن جدودهم ، خبر اقتلاعهم الرصاص من مداميك الجسر المذكور ، حينما كانت أسسه ماثلة . فتكون الحكمة من بناء قلعة النجم فوق المدخل والجسر المذكورين ، التحكم على تلك القوافل والجحافل ، التي لم يكن لها مجاز إلى حلب وما وراءها غير هنا .

وفي لحف الآكام المرتفعة في شمالي وغربي القلعة مغاور ، ربما كانت ملجأ للماشية والرعاة ، وما خلا الهوة السحيقة التي تفصل هذه الآكام والمغاور عن أكمة القلعة ، حفر حول القلعة خندق عمقه خمسة أمتار وعرضه خمسة وعشرون متراً ، وهو متهدم في بعض جوانبه ، ومملوء بأنقاض القلعة وحجارتها المتدحرجة في جوانبه الأخرى ، كما أن أهل الضياع المجاورة حفروا فيه أماكن كثيرة ، يستخرجون تربة يدعونها الحوارة ، لطلاء جدران بيوتهم .

والقلعة مستطيلة الشكل في الجملة وذات طبقتين ، طولها من الشرق إلى الغرب نحو ١٧٠ متراً ، ومن الشمال إلى الجنوب ١٣٠ متراً ، ولها ثلاثة جدران ضخمة عالية ، فالأول : الخارجي الراكب على طرف الأكمة ، المنحدر علوه ١٨ متراً ، وعلو الثاني المتوسط : ثمانية أمتار وعلو الثالث خمسة أمتار ، لأنها بشكل مدرج (امفيتياتر) والجدار الأول بني بشكل غريب ، وهو أن المدماك الأسفل يركب المدماك الثاني على ثلثيه ، والثلث الآخر يبقى ناتئاً وهكذا . بحيث يتألف من بناء الجدار كله شبه درج، لكنه عسير التسلق . ويترائى للمدقق في حالة الجدار المذكور أنه رمم ثلاث مرات ، وذلك من التباين والترقيع الظاهرين في أحجاره . وهذه القلعة لاتزال تظهر للزائر عامرة ، وعلى جدتها في الجملة ، ماخلا القصر والبرج الرابض في طرفها الغربي ، في أضعف نقاط الدفاع ، فإنه خرب

ودمر ، ولعل ذلك حصل في سنة ١٢٣٧ هـ بتأثير المدفع ، أو بتأثير الزلازل التي تكررت في القرون الأخيرة ، وأكثر أحجار غرف هذا البرج ساقطة ، وسط الخندق الذي تقدم ذكره ، وأيدي التحطيم تفعل فيها ، وتنقل كسورها إلى القرى المجاورة .

أما مدخل القلعة المتجه إلى الشرق ، فلا يزال سالماً وشامخاً بروعته ، والباب مرتفع نحو مترين ؛ ولدثور الدرج لا يمكن التسلق والوصول إليه إلا بصعوبة . وقد زبر على عتبته العليا بالخط النسخي سطران هما : (تجددت في دولة مولانا السلطان الملك الظاهر ، لمدة أولها بسنة خمس وستمئة ، وآخرها سنة اثني عشر وستمئة) . وبعد الباب بخمسة أمتار ، دهليز قام في طرفيه جداران متقابلان ، علوهما نحو عشرة أمتار ، في الشمالي الأيمن منهما باب ذو قوس شاهق ، جميل البناء ، ينفذ إلى غرفة خفراء الباب ، وفي خارج هذا القوس زبر على الجدار كتابة قرأت منها الكلمات الآتية : (بلعه المنصو ... صنعها إبراهيم بن نان المنبجي الملك الظاهري رحمه الله تعالى) ا هـ . ويقابل هذه الكتابة في الجدار المقابل أخرى ، لم أتمكن من قراءتها لفرط علوها . وغرفة خفراء الباب سالمة على جدتها ، وفوقها الجامع الذي سيأتي وصفه . وفي الجدار الجنوبي الأيسر مدخل القلعة الأصلي . ومن هذا المدخل تنفرج الدهاليز والممرات الضيقة بعرض مترين ، وكلها معقود بالأحجار المنحوتة ، وينفذ من هذه الدهاليز إلى قاعات وغرف مظلمة ، وأبهاء واسعة واصطبلات ومستودعات ، وكل هذه أيضاً معقود بالأحجار المنحوتة ، وفي وسط عقودها كوات ينفذ منها النور ، يقابلها في أرض الغرف والأبهاء مثلها تنير ما في غرف وأبهاء الطابق الأسفل . وفي الناحية الجنوبية الغربية باحة ، كانت تقوم فيها دار شمسية قوراء ، في وسطها إيوان جميل ، على أطرافه القاعات ، وكلها متهدم . أما الجامع فإن جدرانه الثلاثة سالمة ، في أعلى هذه الجدران القسم الأسفل من سطر غير مقروء كتب بالخط النسخي ، وعلى يمين محرابه دائرة فيها اسم الجلالة ، والجدار الرابع في الجامع وكذا سقفه متهدمان ، ماعدا غرفة الإمام ، التي هي في شمالي الجامع ، لاتزال سالمة وصالحة للسكن . وقد كتب على عتبة باب الجامع تاريخ أعملت فيه أيدي الجهلة ويا للأسف ، فكسرت حروفه ومنعت قراءته ، ووراء غرفة الإمام درج يرقى به إلى سطح الجامع ، ويظهر أن مأذنة كانت تقوم في ذلك الركن . وثمة في كثير من الجدران آبار عميقة ، تنفذ من الطابق الأعلى إلى الأسفل وما تحته ، بإحكام غريب لا يعلم قرارها

والراجع من زيارة هذه القلعة العربية الجميلة ، لا يسعه إلا أن يترحم على بناتها ، بهذا الإحكام والإتقان البديعين ، في هذا المكان الذي دلت مكانته ، وتنوسيت معها سمعته ، وإلا أن يستمطر شآبيب الغفران على الملوك الأيوبيين عامة ، الذين أينما توجهت في بلاد الشام ، تجد آثارهم من القلاع والأسوار والمساجد وغيرها ، لاسيما على ذلك الملك الهمام الظاهر غازي ، الذي كان فيما يظهر بطاشاً وقائداً محنكاً ، وذا ولع وعلم بارزين في إشادة المباني العسكرية ، على هندسة حربية خاصة بتلك الحقبة ، ومثله إلا قليلا كان ابنه العزيز محمد ، وحفيده الناصر يوسف ، وقد نوهنا بذلك في أبحاث قلاع حارم وأفامية ، وشميميس ومسجد إعزاز ، ناهيك عن قلعتي حلب وبصرى حوران ، اللتين لم نبحث عنهما بعد ، وإلا أن يستمطر تلك الشآبيب أيضاً على إبراهيم بن نان المنبجي المذكور اسمه في قلعة النجم ، وكان على ما يظهر من أخص مهندسي ومعماري الملك الظاهر ، حتى أضاف على اسمه كما قدمنا (الملك الظاهري) ويتمنى المرء لو أن مؤلفي كتب التراجم عندنا ، عنوا بذكر هذا النابغة العربي ، وأمثاله من أهل الفنون والصناعات ، كنصف عنايتهم بذكر الأدباء والشعراء ، والزهاد والمعتوهين ، والثرثارين والمتسولين . إذاً لعرفناهم ، وعرفنا شيئاً من فنونهم ومصطلحاتهم ، ويردد غير ذلك ، من التأملات التي نوهنا ببعضها في حديث قلعة شيزر .

تاريخ حماة

حماة من أمهات مدن الداخل في الشام ، تعلو عن سطح البحر ٣٠٨ أمتار ، وهي في وهدة سحيقة من وادي العاصي ، ولذا كانت حارة ورطبة ، تمر منها سكة حديد رياق - حلب (طولها ٣٣٢ كيلو متراً) ، وطريق السيارات المعبدة الممتدة بين دمشق وحلب (طولها ٣٥٩ كيلو متراً) ، وتبعد حماة عن حمص ٥٨ كيلو متراً ، وعن حلب في سكة الحديد ١٤٣ كيلو متراً .

وقد وردت حماة في التوراة مراراً ، باسم حمث الكبرى ، تمييزاً لها عن حمث الصغرى في كيليكية ، وذلك تنويهاً بذكرى حماثي من أبناء كنعان ، الذي ينسب بناؤها إليه . وكانت على ماقيل الحد الشمالي للأرض الموعود إعطاؤها لبني إسرائيل . وتاريخ حماة في كل العصور ، لاسيما في القديمة منها ، مرتبط بتاريخ حمص ، التي كانت متقدمة عليها بالعمران ومتبوعتها . فقد سكن حماة كما سكن حمص بادئ ذي بدء العمالقة ، أو الروتانيون ، أو اللوذيون أعقاب لوذ بن سام ، ثم سكنها الحثييون ، ويظن أنها سعدت في عهدهم ، بدليل العثور على بعض كتاباتهم فيها[1] ، وقد قاست حماة كما قاسته حمص

---

(١) ذكروا أنه لما زار السائح الإنكليزي (بروكهارت) حماة سنة ١٨١٢ م ، لحظ في أحد أسواقها حجراً منقوشاً عليه رسوم ورموز عديدة ، ظنها هيروغليفية ، لكنه وقد غمت عليه ، قال بأنها تختلف عن الرسوم والرموز الهيروغليفية المصرية . وقد بقيت كلمة (بروكهارت) عشرات من السنين ، دون أن تسترعي أنظار أحد من الأثريين ، الذين كانوا يصرحون في كتبهم ، بأن حماة خالية من العاديات الهامة . وفي سنة ١٨٧٠ م وافاها العالمان الأميركيان (أغسطوس جونسون) قنصل الولايات المتحدة في دمشق ، والمبشر البرتستانتي (زسوب) فبلغهما أن في حماة أحجاراً كثيرة منقوشة غير الحجر الذي رآه (بروكهارت) ومن نوعه . ولما حاولا أن يستنسخا نقوشها ، لم يشعرا إلا والغوغاء تتراكض نحوهما ، تبغي الفتك بهما ، فاضطرا للفرار ، ومغادرة حماة فوراً . إلا أن القنصل عاد واتفق مع رجل ينتحل التصوير ، على أن يستنسخ له تلك النقوش ، فجاء هذا وقام بالمهمة ، ولما وصلت النسخ إلى دمشق نشر القنصل بعضها ، فأثارت على نقصها ، اهتماماً عظيماً لدى علماء الآثار ، وعرفوا أنها من آثار الحثيين . فنشطوا من ذلك الحين ، لزيارة حماة ومشاهدة أحجارها وآثارها =

وغيرها ، من مدن الشام الشمالية ، العائدة للحثيين ، من توالي غارات فراعنة مصر ، وملوك آشور ، ودفاع الحثيين واستبسالهم ، في معارك طاحنة دامت قبل الميلاد عدة قرون ، إلى أن انقرضوا ، وخلفهم الآراميون ثم الإسرائيليون ، ثم اليونانيون السلوقيون ، وقد سماها أحد ملوكهم (أنطيوخس أبيفانوس الرابع) أبيفانيا ، وظلت معروفة بهذا الاسم في دولة السلوقيين ، ولما زالت رجع الناس إلى استعمال اسمها القديم ، ثم جاء الرومانيون .

لاجرم أن بلاد الشام الشمالية في عهد اليونان والرومان تقدمت في العمران ، وكان نصيب حماة أن زاد عدد القنوات في براريها الشرقية ، ونصبت النواعير على العاصي ، فازدهرت الزراعة ، وانتشرت القرى العامرة في شرقي سلمية ، وحول الأندرين ، وظل هذا العمران إلى أواخر عهد البيزنطيين ، الذي اختلت فيه إدارتهم ، وخربت أكثر المدن والقرى الشرقية المذكورة ، بسبب فوضى أحكامهم ، وتوالي حروبهم مع الفرس ، فساء حال حماة من جراء ذلك . ولما كان الفتح الإسلامي ، جاءها أبو عبيدة في سنة ١٧ هـ فصالح أهلها على الجزية لرؤوسهم ، والخراج على أرضهم ، وجعل كنيستهم العظمى جامعاً ، وهو الآن الجامع الكبير ، وسيأتي وصفه . وجعل الخلفاء الراشدون حماة من أعمال جند حمص ، للسبب الذي تقدم ذكره . ومن الأحداث التي حصلت فيها في أواخر القرن الأول ، في خلافة عبد الملك بن مروان ، إرسال قيصر الروم (يوستنيانوس) قائدين اسمها (موريق وموريقان) جاءا وخربا دير القديس مارون الذي كان على العاصي بين شيزر وحماة وقتلا رهبانه البالغين خمسمئة وشتتا شمل أتباع هذا القديس .

ولما انتقلت الخلافة من يد الأمويين إلى العباسيين ، في سنة ١٣٢ هـ من القرن الثاني ، أورث انتقال العاصمة من دمشق إلى بغداد فتوراً في الشام ، لأنها أصبحت بعيدة

= الحثية ، وكان السباقون إلى ذلك الإنكليز ، أمثال (دراك وبرتون وفريكت وسايس ودلويس) . وقد قص منهم (ساسي) في كتابه الخاص بتاريخ الحثيين وممالكهم وكتاباتهم ، المطبوع سنة ١٨٨١ م ، كيف توصلوا لاستخلاص تلك الأحجار ، من أيدي أهل حماة الأشداء على الأجانب (كذا) ونقلها ، وقد كان لتلك الأحجار فضل غير يسير في توجيه أنظار علماء المشرقيات والعاديات ، نحو البحث عن الأمة الحثية ، ودرس تاريخها المجيد ، الذي كان مجهولاً بالكلية . كما أن مكانة حماة في ذلك التاريخ ، حدت أخيراً بالعالم الأثري (أنكولد) الدانياركي ، أن يحفر قلعة حماة ، وينفذ إلى أعماقها ، أملاً بالوصول إلى أحجار تحوي الأبجدية الحثية ، لكنه رغم جهوده الجديرة بالإعجاب ، لم يظفر بضالته بعد .

عن نظر الخلفاء ، الذين قل اكتراثهم بها ، يحكمها العمال حسب أهوائهم ، فكان ذلك مدرجة لانحطاط شأنها . وفي القرن الثاني وفي النصف الأول من الثالث ، اشتركت حماة مع متبوعتها حمص ، في الفتن والحروب الأهلية ، التي كانت تحدث تارة من تأجج نار العصبيات بين القيسيين واليمانيين ، وتارة من الوثوب بالعمال ، ومجيء جيوش الخلفاء لتأديب المتوثبين . وفي النصف الثاني من القرن الثالث ظهرت بوادر الضعف في العباسيين ، وصار المتغلبة من أولئك العمال ، ينزعون إلى الاستبداد في الأمر ، وكان أولهم عامل مصر أحمد بن طولون ، فقد نزع ربقة الخلافة ، واستولى على الشام ، فأخذ حماة فيما أخذه ، وعقبه ابنه خمارويه وحفيده جيش . وفي سنة ٢٩٠ هـ جاء القرامطة بقيادة (الحسين بن زكرويه) الملقب بصاحب الشامة من دمشق إلى حمص ، فتغلب عليها ، وخطب له على منابرها ، وتسمى بالمهدي ، ثم سار منها إلى حماة ومعرة النعمان وغيرهما ، وقتل النساء والأطفال ، ثم سار إلى بعلبك ، فقتل عامة أهلها ، حتى لم يبق منهم فيما قيل إلا اليسير ، ثم سار إلى سلمية (الطبري ١١ / ٣٨١) . وفي سنة ٢٩١ هـ شخص الخليفة المكتفي من بغداد إلى الرقة ، وبث جيوشه فيما بين حلب وحمص ، لحرب صاحب الشامة ، فساروا إليه ، وجرت الواقعة الفاصلة في قرية تمنع ـ التمانعة قرب خان شيخون ، وشرقي طريق السيارات بين حماه وحلب ـ وكانت الدائرة على القرامطة . وفي أواخر القرن الثالث ، زالت دولة بني طولون على يد الخليفتين المعتضد والمكتفي ، اللذين لم يتوانيا عن القضاء على كل خارجي ، فظهرت بعدها دولة الأخشيد (محمد بن طغج) في مصر والشام ، ورأت البلاد ما رأته ، من اقتتاله سنة ٣٢٨ هـ مع عامل الخليفة ابن رائق ، وسنة ٣٣٣ هـ مع سيف الدولة بن حمدان ، وبعد زوال الإخشيديين في منتصف القرن الرابع ، دخلت حماه في حوزة سيف الدولة بن حمدان ، وأعقابه من بعده ، وتبعت حلب . وجاء الفاطميون إذ ذاك في سني ٣٥٨ ـ ٣٦٠ هـ ، ينازعون العباسيين الخلافة ، واستولوا على مصر والشام ، ورأت البلاد البلاء العميم من دوام الحروب بين جيوشهم ، والمتوثبين من العمال والأهلين في بلاد الشام ، الذين كان هواهم مع العباسيين . على أن الحمدانيين خطبوا للفاطميين ، أبناء مذهبهم الشيعي ، فظلت السلطة في شمالي الشام ومنها حمص وحماة بيدهم . وكان الروم ينتهزون فرصة تطاحن المسلمين بعضهم مع بعض ، فيغيرون من حين إلى آخر ، على شمالي الشام ، ويصلون إلى حماة وحمص وما حولها ، فيعيثون وينهبون ،

ويسبون ويعودون ، كما قدمنا في أبحاث كيليكية وأنطاكية ، وفامية وشيزر .

هذا والذكر إلى ذلك الحين إنما كان لحمص ، فكانت حماة تبعاً لغيرها من الممالك ، تارة تضاف إلى دمشق وتارة إلى حلب . ولما زالت دولة بني حمدان في أوائل القرن الخامس سنة ٤٠٦ هـ ، وزاد ضعف الفاطميين ، وتقسمت القبائل العربية بلاد الشام ، تبعت حماة (صالح بن مرداس) الكلابي صاحب حلب ، فبقيت في يده ويد أعقابه إلى أن زالوا ، ثم تبعت حمص سنة ٤٣٧ هـ ، في عهد واليها شجاع الدولة (جعفر بن كلند) ، ثم في عهد (خلف بن ملاعب) الكلابي ، ولما استولى السلجوقيون في تلك الحقبة على بلاد الشام ، أقطع السلطان (ملكشاه) حماةَ إلى عامله (آق سنقر) ، وهو أبو عماد الدين زنكي فتبعت حلب . وفي غرة القرن السادس سنة ٥٠٤ هـ ، دخلت في حوزة الأتابك (طغتكين) صاحب دمشق ، وفي سنة ٥٠٩ هـ ، أرسل السلطان ملكشاه عسكراً لمحاربة طغتكين ، فمروا بحماة وحاصروها ، وفتحوها ونهبوها ثلاثة أيام ، ثم سلموا حماة إلى الأمير (قيرخان بن قراجا) صاحب حمص ، فولى هذا على حماة ابنه محمود ، وكان ظالماً عسوفاً ، ذهب في سنة ٥١٧ هـ إلى أفامية وحاصرها ، ولكنه أصيب من قلعتها بسهم في يده ، فمات من ذلك ، فلما سمع طغتكين الخبر ، أرسل إلى حماة عسكراً ، وملكها فاستقرت في يده زمناً تخللته برهة ، تولاها (اقسنقر البرسقي) ، ومن بعده ولده (عز الدين مسعود) ، ثم رجعت إلى (طغتكين) ومن بعده إلى ابنه (بوري) فولى هذا عليها ابنه (بهاء الدين سونج) ، وفي سنة ٥٢٣ هـ جاء عماد الدين زنكي بن آق سنقر من الموصل ، لحرب الإفرنج في شمالي الشام ، واستنجد ببوري صاحب دمشق ، فبعث لنجدته ابنه (سونج) ، مع عسكره ، فغدر عماد الدين بسونج واعتقله ، وجاء إلى حماة واستولى عليها ، ثم سار منها إلى حمص ، وكان قد غدر بصاحبها (قيرخان بن قراجا) وأحضره صحبته إلى حمص ممسوكاً ، وأمره أن يأمر ابنه وعسكره بتسليم حمص ، فأمرهم قيرخان فلم يلتفتوا ودافعوا ، فلما أيس منها رحل عنها إلى الموصل ، وظلت حماة في يد عماد الدين زنكي ، إلى سنة ٥٢٧ هـ ، جاء شمس الملوك (إسماعيل بن بوري) صاحب دمشق وحاصر حماة ، وملكها وحصر القلعة ، ولم تكن إذ ذاك حصينة ، فإنها حصنت فيما بعد ، في عهد تقي الدين عمر ابن أخي السلطان صلاح الدين ، واستولى شمس الملوك على القلعة ، ولكن عماد الدين زنكي عاد واستردها بعد مدة ، وظلت في يده إلى سنة ٥٤١ هـ حين وفاته ،

فملكها بعده ابنه نور الدين محمود . وفي زلزلة سنة ٥٥٢ هـ الهائلة ، خربت حماة وقلعتها ، فرممها نور الدين ، وبنى أسوارها وأعاد قلعتها ، وبنى فيها الجامع والمستشفى المعروفين باسمه .

وفي سنة ٥٧٠ هـ استخلص صلاح الدين الأيوبي حماة ، من عمال الملك الصالح (إسماعيل بن نور الدين) ، وولى عليها خاله (شهاب الدين الحارمي) ، وبعد موته أقطعها في سنة ٥٧٤ هـ إلى ابن أخيه الملك المظفر (تقي الدين عمر بن شهنشاه بن أيوب) ، وأضاف إليه في سنة ٥٨٢ هـ منبج والمعرة وكفر طاب وميافارقين ، وفي سنة ٥٨٤ هـ اللاذقية ، ولما توفي تقي الدين عمر في سنة ٥٨٧ هـ وخلفه ابنه الملك المنصور (ناصر الدين محمد) ، غير أن صلاح الدين أخذ منه البلاد التي افتتحها أبوه ، وأبقى له منبج وأفامية وسلمية والمعرة ، وفي زمنه حاصر حماة في سنة ٥٩٧ هـ الملك الظاهر (غازي بن صلاح الدين) حصاراً شديداً ، انتقاماً من المنصور ، الذي لم يتحد معه في محاربة عمها الملك العادل ، لكنه لما لم يفز منها بطائل ، اضطر لمصالحة المنصور ، على مال يحمله إليه ، واضطر بعد لإعادة المعرة إليه ، بعد أن كان أخذها ، وذلك خوفاً من عمه الملك العادل الذي خف لتأديب الظاهر ، ثم استرضاه هذا ، فرضي وعاد . ويذكر للمنصور ظفراً باهراً على الإفرنج في بعرين ، عقيب معركة جرت في سنة ٥٩٩ هـ ، وفي آخر عمره عهد بالملك لولده المظفر محمد ، وحلف الناس على ذلك ، لكنه لما توفي سنة ٦١٧ هـ خالفه وزراؤه ، وولوا ابنه الثاني الناصر (قليج أرسلان) ، فذهب المظفر إلى مصر ، واستجار بالسلطان الملك الكامل ، أعظم ملوك الأيوبيين في مصر والشام في تلك الحقبة ، وأقام في خدمته . وفي سنة ٦١٩ هـ جاء الملك المعظم عيسى ، صاحب دمشق ، وحاصر ابن أخته الناصر صاحب حماة ، لإخلاف الناصر في دفع مال مشروط ، ولما لم ينل مأربه ، ارتحل إلى سلمية ، واستولى على حواصلها العائدة للناصر ، وأقام مدة فيها يتأهب لحصار حماة ، إلى أن جاءه أمر الملك الكامل بالارتحال عنها فارتحل ، وأمر الملك الكامل بإبقاء حماة بيد الناصر ، وتسليم سلمية إلى أخيه المظفر ، ثم في سنة ٦٢٦ هـ جاء الملك الكامل إلى سلمية ، وبعث منها إلى حماة بجيش ، سلم قيادته إلى (أسد الدين شيركوه) صاحب حمص ، وأمره بحصار حماة ، فاستسلم الناصر ، وسلم حماة ، فأمر الملك الكامل بإعادة المظفر إليها ، على أن تنزع سلمية منه ، وتسلم إلى الناصر ، فلم يبق لحماة توابع سوى المعرة ، وقصد الإفرنج

حماة في سنة ٥٢٧ هـ ، فخرج المظفر وواقعهم عند قرية أفيون وكسرهم ، وذهب المظفر إلى شيزر سنة ٦٣٠ هـ ، لمعاونة الملك العزيز صاحب حلب ، لاستخلاصها من يد صاحبها (يوسف بن الداية) فاستخلصوها منه كما قدمناه في بحث شيزر ، وذهب مع الملك الكامل إلى محاربة (كيقباذ السلجوقي) فانكسرت حملتها ورجعا خائبين ، وعمر المظفر قلعة المعرة ، وجهزها كما ذكرناه في حديثها . ولما توفي المظفر سنة ٦٤٢ هـ ولي حماة بعده ابنه المنصور محمد ، ولما جاء (هولاكو) ملك التتر ، واستولى على حلب ، وأفحشت جنوده فيها جفل المنصور وغادر حماة ، فأجمع سكان حماة على الاستئمان ، فأمنهم هولاكو ، وكان التجأ إليه الأشرف (موسى بن إبراهيم بن شيركوه) صاحب حمص ، فأمره بعد رجوعه من بلاد الشام ، أن يعود إلى حمص ، ويمر بحماة ، ويهدم أسوار قلعتها ومدينتها ، فهدم الأشرف أسوار القلعة ، وأحرق ذخائرها وبعثر كتبها ، ولما حاول هدم أسوار المدينة توسل أهلها بنائب هولاكو فمنعه من ذلك . وكان هولاكو يتقصد تخريب جميع قلاع بلاد الشام ، لم يعف عن واحدة منها ، إلا قلعة دركوش فإنه لم يصلها ، كما قدمناه في بحثها . وبعد معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ ، التي انكسر التتر فيها ، قرر المظفرُ قطز المنصور صاحب حماة في بلده وتوابعها ، وهي بعرين والمعرة . وفي سنة ٦٥٩ هـ ، اشترك المنصور في المعركة الهائلة التي جرت شمالي حمص بين المسلمين والتتر ، وانكسر فيها التتر ، وفي سنة ٦٦٤ هـ ، سار على رأس الجيش الذي جهزه الملك الظاهر بيبرس لغزو الأرمن في جبل اللكام وكيليكية ، ورجع ظافراً كما قدمناه في أبحاث هذه الأماكن ، ولما توفي المنصور سنة ٦٨٣ هـ ملك حماة وتوابعها بعده ، ابنه (المظفر شادي) من قبل (المنصور قلاوون) سلطان مصر والشام ، وحضر بجنده مع السلطان المذكور فتح المرقب وطرابلس وعكا ، ولما توفي المظفر في سنة ٦٩٨ هـ ، في أيام السلطان الناصر (محمد بن قلاوون) ولي مكانه (قرا سنقر الجوكندار) أحد الأمراء المماليك ، نائباً على حماة . وبذلك خرجت حماة من يد التقويين الأيوبيين . وكان العادل زين الدين كتبغا ، بعد خلعه من السلطنة في مصر ، قد استقر نائباً في صرخد ، فنقله السلطان الناصر (محمد بن قلاوون) إلى حماة بعد هزيمة (غازان) ملك التتر ، وجعله نائباً بها إلى سنة ٧٠٢ هـ التي مات فيها . فولى الناصر مكانه ، من أمرائه (سيف الدين قبجق) ثم صرفه عنها ، وولى مكانه سيف الدين (أسندمر) ، ثم صرفه عنها بعد عوده من الكرك ، وولى فيها الملك المؤيد عماد الدين

(إسماعيل بن الأفضل) على عادة من تقدمه فيها ، من الملوك التقويين الأيوبيين ، فبقي فيها إلى أن توفي في سنة ٧٣٢ هـ ، فولى السلطان الناصر مكانه ابنه الأفضل محمد ، فبقي فيها حتى عزل عنها ، في سلطنة المنصور (أبي بكر بن محمد بن قلاوون) في سنة ٧٤١ هـ لسوء سيرته ، واستقرت حماة بعده نيابة ، يتولى عليها نواب السلاطين المماليك في مصر ، نائباً بعد نائب ، كغيرها من الممالك الشامية .

فيظهر مما ذكرناه ، أن حماة ظلت في يد البيت التقوي الأيوبي ، مدة ١٦٨ سنة ، تخللتها فترات ، إلى أن انتهى ملكهم بخلع الملك الأفضل محمد بن أبي الفداء ، على أنه لم يكن لأبناء هذا البيت من الملكية إلا الاسم والأبهة فقط ، وكانوا فعلاً تحت إمرة أبناء أعمامهم آل البيت الصلاحي الأيوبي ، وإمرة السلاطين المماليك ، الذين خلفوا الأيوبيين في مصر والشام . على أن حماة نالت في عهدهم ، حظاً موفوراً من العمران ، قضى على بعضه (هولاكو) في القرن السابع ، وعلى جله (تيمورلنك) في أوائل القرن التاسع ، ذكر حيدر الشهابي في تاريخه في حوادث سنة ٨١٣ هـ أن أهل حماة ، بعد أن استأمنوا لولدي (تيمورلنك) وأضافوهما ، قتلوا النائب التتري الذي أبقياه ، فارتد أحد الولدين ، لاستيفاء ثأر النائب فأحرق غالب حماة وقتل أكثر سكانها ، ولما عجز عن القلعة التي اعتصم فيها كثير من الحمويين ، أنجده أبوه بجيش ، فأخذها أيضاً ودكها ، وأحرق وقتل ونهب .

فبعد أن جرى بحماة ماذكرناه ، وأعقب ذلك انتشار فوضى الأحكام في آخر عهد المماليك ، واقتتال الأمراء آل الفضل أبناء عيسى بن مهنا (أجداد أمراء الموالي الحاليين) وعيثهم في براري حماة وسلمية والمعرة ، وتخريبهم قراها ، انحط شأنها وتضاءل عمرانها ، وظلت في عهد المماليك يديرها نوابهم ، فتسعد وتشقى ، تبعاً لصلاح هؤلاء أو فسادهم . وفي القرن العاشر دخلت في ملك العثمانيين ، وصار يتولاها المتسلمون والباشات ، الذين يوظفهم ولاة طرابلس أو دمشق ، حسبما تكون حماة مرتبطة بهذه أو بتلك ، فنالها في العهد العثماني ما نال القطر الشامي كله من الإهمال وسوء التدبير ، إلى أن حسنت الحالة في الجملة ، في أواخر القرن الماضي ، فجعلت حماة متصرفية ، ألحقت بها إذ ذاك أقضية حمص وجبل الكلبية ، ثم تبعتها سلمية في مطلع القرن الحالي .

ومما يستحق الذكر ، أن الصليبيين حاولوا الاستيلاء على حماة مراراً ، ففشلوا لاسيا

في مرتين كاد يتم الأمر لهم . الأولى في سنة ٥١١ هـ في عهد واليها (شهاب الدين محمود) فإنهم انتهزوا فرصة خسوف القمر ، فوصلوا إلى أرباض حماة وحاصروها ، والثانية في سنة ٥٧٢ هـ انتهزوا فرصة غياب صلاح الدين في مصر ، ومرض عاملها خاله (شهاب الدين الحارمي) فحاصروها ، لكنهم في المرتين أجبروا على الرجوع . على أنهم عند ضعف المسلمين وتنازع ملوكهم ، كانوا - ونحن نخص بالذكر الفرسان الاسبتاريين المرابطين في حصن الأكراد - لا يتوانون عن الإغارة على حماة ، فينالون من ضواحيها ، ويغرمون أحياناً ملوكها وعمالها ، بمبالغ طائلة ، وأحياناً كانوا ينكسرون ، ويعودون خائبين .

هذا وقد حاولت أن أجد وصف حماة في القرون الغابرة ، لأنظر كيف كان عمرانها في أدوار متعاقبة ، فلم أعثر على أقدم من وصف القرن الثالث أنقله عن ياقوت ، قال : « وذكر أحمد بن الطيب فيما ذكره من البقاع التي شاهدها في مسيره مع المعتضد من بغداد إلى الرملة . فقال بعد ذكره حمص : وحماة قرية عليها سور حجارة ، وفيها بناء بالحجارة واسع ، والعاصي يجري أمامها ، ويسقي بساتينها ، ويدير نواعيرها » وكان قوله هذا في سنة ٢٧١ هـ فسماها قرية اهـ . قال أحمد الصابوني الحموي في كتابه (تاريخ حماة) المطبوع في سنة ١٣٣٢ هـ ماخلاصته : « أن أحمد بن الطيب ، سمى حماة قرية ، وليست هي قرية كما قال ، ولكن من يشاهد بغداد في زمن المعتضد ، لا يستغرب منه تسميته حماة قرية ، لأن العباسيين لما أخذوا الخلافة ، لم يكن لهم عناية إلا بإعمار بغداد والعراق ، فأهملوا شأن البلاد الشامية ومنها حماة ، ولتوالي هذا الإهمال والفتن ، خربت الكور والقرى ، التي كانت حماة تستقي منها موارد ثروتها ، مثل كورة البلعاس ، والأندرين ولطمين وصوران وبعرين وغيرها حتى صارت حماة ، تسمى قرية في نظر أحمد بن الطيب » اهـ . وقال الأصطخري في أواسط القرن الرابع مايدل على صغر حماة إذ ذاك ، ومضارعتها شيزر : « وأما شيزر وحماة فإنهما مدينتان صغيرتان نزهتان ، كثيرتا الماء والشجر والزرع » .

ومر ابن جبير في القرن السادس سنة ٥٧٩ هـ ، بعد أن مضى على زلزلة سنة ٥٥٢ هـ ، التي خربت حماة بالمرة نحو ربع قرن ، وكانت نشطت من عثرتها ، بفضل الدولتين النورية والصلاحية ، لكنها لم ترق كثيراً عيني ذلك الأندلسي المبتهجة ، بمرأى غرناطة وقرطبة والحمراء ، فلم تعجبه أفنيتها الضيقة ، ومبانيها المزدحمة ، ولم ينشرح إلا

لحسن العاصي وجمال البساتين ، وهاك ماقاله : « حماة مدينة شهيرة في البلدان ، قديمة الصحبة للزمان ، غير فسيحة الفناء ، ولا رائقة البناء ، أقطارها مضمومة ، وديارها مركومة ، لا يهش البصر إليها عند الإطلال عليها ، كأنها تكن بهجتها وتخفيها ، فتجد حسنها كامناً فيها ، حتى إذا جست خلالها ، ونقرت ظلالها ، أبصرت بشرقيها نهراً كبيراً ، تتسع في تدفقه أساليبه ، وتتناظر بشطيه دواليه ، قد انتظمت طرفيه بساتين ، تتهدل أغصانها عليه ، وتلوح خضرتها عذاراً بضفتيه ، ينسرب في ظلالها ، وينساب على سمت اعتدالها ، وبأحد شطيه المتصل بربضها ، مطاهر منتظمة ، بيوتاً عدة ، يخرق الماء من أحد دواليبه ، جميع نواحيها ، فلا يجد المغتسل أثر أذى فيها ، وعلى شطه الثاني ، المتصل بالمدينة السفلى ، جامع صغير ، قد فتح جداره الشرقي عليه طيقاناً ، تجتلي منها منظراً ، ترتاح النفس إليه ، وتتقيد الأبصار لديه ، وبإزاء ممر النهر بجوفي المدينة قلعة حلبية الوضع ، وإن كانت دونها في الحصانة والمنع ، سرب لها من هذا النهر ماء ينبع فيها ، فلا تخاف الصدى ، ولا تتهيب مرام العدى . وموضع هذه المدينة في وهدة[1] من الأرض ، عريضة مستطيلة ، كأنها خندق عميق ، يرتفع لها جانبان ، أحدهما كالجبل المطل[2] ، والمدينة العليا متصلة بسفح ذلك الجانب الجبلي ، والقلعة في الجانب الآخر ، في ربوة منقطعة ، كبيرة مستديرة ، قد تولى نحتها الزمان ، وحصل لها بحصانتها من كل عدو الأمان ، والمدينة السفلى[3] تحت القلعة ، متصلة بالجانب الذي يصب النهر عليه ، وكلتا المدينتين صغيرتان ، وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها العالي الجبلي ، ويطيف بها وبالمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب ، لأن جانبها المتصل بالنهر لا يحتاج إلى سور ، وعلى النهر جسر كبير[4] ، معقود بصم الحجارة ، يتصل من المدينة السفلى إلى ربضها[5] ، وربضها كبير فيه خانات وديار ، وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجته ، إلى أن يفرغ لدخول المدينة ، وأسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسواق المدينة السفلى ، وهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات » اهـ .

ولم ينبه ذكر حماة بعد خموله ، وتسعد إلا في عهد أبناء تقي الدين (عمر بن أيوب) فإنهم لما آل إليهم ملك حماة وضواحيها ، عمروها بالأبنية الضخمة ، والقصور

(١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥) : سيأتي التعليق عليها في متن الصفحة المقابلة .

الفخمة ، والأسواق الحافلة ، والأسوار المحكمة ، يدلنا على ذلك ماذكره ياقوت في أوائل القرن السابع قال : « حماة مدينة كبيرة ، كثيرة الخيرات ، رخيصة الأسعار ، واسعة الرقعة ، حفلة الأسواق ، يحيط بها سور محكم ، وبظاهر السور حاضر كبير جداً ، فيه أسواق كثيرة ، وجامع مفرد ، مشرف على نهرها المعروف بالعاصي ، عليه عدة نواعير ، تستقي الماء من العاصي ، فتسقي بساتينها ، وتصب إلى بركة جامعها ، ويقال لهذا الحاضر السوق الأسفل ، لأنه منحط عن المدينة ، ويسمون السور السوق الأعلى . وفي طرف المدينة قلعة عظيمة ، عجيبة في حصنها ، وإتقان عمارتها ، وحفر خنادقها نحو مئة ذراع وأكثر ، وهي مدينة قديمة جاهلية ، ذكرها امرؤ القيس في شعره (أوردناه في بحث شيزر) إلا أنها لم تكن قديماً ، مثل ماهي اليوم بسلطان مفرد ، بل كانت من عمل حمص » اهـ . ويدلنا على تلك العناية أيضاً ، ماذكره ابن بطوطة في القرن الثامن « حماة إحدى أمهات الشام الرفيعة ، ومدائنها البديعة ، ذات الحسن الرائق ، والجمال الفائق ، تحفها البساتين والجنات ، ويشقها العاصي ، ولها ربض يسمى بالمنصورية ، أعظم من المدينة ، فيه الأسواق الحافلة ، والحمامات الحسان ، وبحماة الفواكه الكثيرة ، منها المشمش اللوزي الشهير » اهـ .

وقد حاول الصابوني في تاريخ حماة أن يفسر ماذكره ابن جبير وياقوت فقال : « كانت حماة قسمين ، قسم في محلة باب الجسر ، وقسم في المدينة ، وبالنظر لارتفاع المدينة عن باب الجسر ، كانت تسمى القسم الأعلى ، وسوقها السوق الأعلى ، وكذا جامعها كان يسمى الجامع الأعلى ، وكانت مسورة بسور من الحجر الأبيض عظيم ، يمتد إلى تل العريصة ، وله أبواب عديدة منها : باب النصر وباب المغار ، وباب النهر وباب العميان ، وباب الغربي وباب القبلي ، وكان لمحلة باب الجسر سور يحيط بها من جهة ، والعاصي يحيط بها من الجهة الأخرى ، وعلى العاصي الجسر الكبير ، له باب من جهة الشمال الغربي ، وباب آخر في مبدئه من جهة القبلة ، ولسورها أبواب منها : باب تدمر وباب النقفي وباب حمص » . وقال شرحاً لما ذكره ابن جبير وأشرنا إليه « برقم (١) ، الوهدة : المكان المنخفض ، فإن حماة في واد عميق ، كانت أرضه مساوية لأرض النهر ، ولكثرة الزلازل ، وتراكم التراب ، ارتفعت الأرض عن النهر . وعن الرقم (٢) أنه تل العريصة ، و (٣) محلة باب الجسر ، و (٤) جسر محلة باب الجسر ، و (٥) كان في محلة الدهشة ، في

بستان يسمى الآتون حوانيت وخانـات ، ينزل فيهـا المسـافر إذا جـاء ليلاً ، وأبواب السور مغلقة ، ويسمى مثل هذا ربضاً، وكان بنيان محلة المدينة أوسع ، وأسواقها أحفل من أسواق محلة باب الجسر ، وكان بين القسمين طريق ، مما وراء القلعـة من البستـان ، الـذي يسمى الآن بستـان الخضر ، ثم امتـد العمران لجهـة الحـاضر ، فحـدثت محلات عـديـدة ، كما امتـد البنيان في زمن نور الدين الشهيد ، حتى بـاب حمص ، جـانب رحى المسرودة ، أمـا مكان السوق فقد كان مرتفعاً من الشمال ، ومنخفضاً في الجنوب ، وكان فيـه مقـابر ، وإذا طغى العاصي ، فاض على هذا القسم المنخفض وملأه . فلما ضاقت البلـد بـالسكان ، مشى النـاس بالبنيان ، إلى موضع السوق ، فبنوا البيوت والحوانيت ، ولما ولي الملك المنصور حمـاة ، بنى هـذا السـوق ، وكان يعرف بسـوق المنصـوريـة » ا هـ . قلت : وشكل حمـاة الـذي ذكر الصابوني قد تغير بالكليـة ، وانـدرست حـدوده ومعـالمـه ، فلم يعـد يعرف أين كانت تبـدأ البـاشورة ، وخنـدق القلعـة وينتهيـا ، وليس في حمـاة اليوم من يستطيع أن يعين مـواقـع الأبواب التي ذكر الصـابـوني وجـودهـا ، في كل من محلـة بـاب الجسر والمـدينـة ، ولا آثـار سوريها ، التي لم يبق منها إلا بعض الأجزاء في أحد أحياء حماة الغربية ، المتطرفة القريبـة من محطة السكة الحديـديـة ، وهي تظهر تـارة وتختفي أخرى . وفي أقصى هـذا الحي برج كبير من بقايا أبراج السور ، مابرح ماثلاً بجدرانه وأحجاره الضخمة ومراميه الرفيعة ، وفي داخله ضريح رجل تزوره العامة .

وكان ينتظر من الملك المؤيد (أبي الفداء) أن يصف لنا عاصمة ملكه حماة في كتابـه (تقويم البلدان) ، وصفاً كافياً ، يطلعنا به على الرقي والعمران ، اللذين نالتها في عهـده ، وعهد أجداده التقويين الأيوبيين ، في القرنين السابع والثامن ، ولكنه رحمه الله لم يشـذ عن الإيجاز ، الذي سار عليه في وصف بقية البلـدان ، فـاكتفى بقولـه : « حمـاة من الشـام بين حمص وقنسرين ، وحمـاة مـدينـة أزليـة ، ولهـا ذكر في كتب الإسرائيليين ، وهي من أنـزه البلاد الشامية ، والعاصي يستدير على غـالبهـا ، من شرقيهـا وشماليهـا ، ولهـا قلعـة حسنـة البنـاء مرتفعـة ، وفي داخلهـا الأرحيـة على المـاء ، وبهـا نـواعير على العـاصي ، تسقي أكثر بسـاتينهـا ، ويـدخـل منهـا المـاء إلى كثير من دورهـا » قـال الهروي في كتـابـه المعروف بـالـزيـارات : « وحمـاة بلـد قـديمـة ، مـذكـورة في التـوراة، وهي وشيزر مختصتـان بكثرة النواعير ، دون غيرهما من بلاد الشام » ا هـ ..

وبعد أن نقلت ونقدت ماسبق ، رأيت القلقشندي ينقل في كتابه (صبح الأعشى (٤ / ١٤٠) عبارة تقويم البلدان على شكل آخر ، ولم أدر أي العبارتين أصح صدوراً من أبي الفداء ، قال : قال في (تقويم البلدان) : « ولها ذكر في التوراة ، وهي على ضفة العاصي ، مكينة البناء ، ولها سور جليل ، وبيوت ملوكها وشرفاتها مطلة على النهر العاصي ، وبها القصور الملوكية ، والدور الأنيقة ، والجوامع والمساجد ، والمدارس والربط ، والزوايا والأسواق التي لاتعدم نوعاً من الأنواع ، وبها قلعة منيعة بالحجارة الملونة ، وغالب مبانيها العلية ، وآثار الخير والبر الباقية فيها ، من فواضل نعم الدولة الأيوبية ، وبها نواعير مركبة على العاصي ، تدور بجريان الماء ، وترفع الماء إلى الدور السلطانية ، ودور الأمراء والأكابر والبساتين ، وفي بساتينها الغراس الفائق ، والثمار الغريبة ، ولم يكن لها في القديم نباهة ذكر ، وكان الصيت لحمص دونها ، ثم تنبه ذكرها في الدولة الأتابكية زنكي ، فلما آلت إلى ملوك بني أيوب مصروها ، بالأبنية العظيمة والقصور الفائقة ، والمساكن الفاخرة وتأمير الأمراء ، وتجنيد الأجناد فيها ، وعظموا أسواقها وزادوا في غراسها ، وجلبوا إليا من أرباب الصنائع كل من فاق في فنه ، إلى أن كملت محاسنها ، وصارت معدودة من أمهات البلاد ، وأحاسن الممالك ، وهي في غاية رفاهية العيش ، إلا أنها شديدة الحر ، محجوبة الهواء ، ويعرض لها في الخريف تغير تنسب به إلى الوخامة ، ولا يبقى بها الثلج إلى الصيف كما يبقى في بقية الشام ، وإنما يجلب إليها مما يجاورها ، وحولها مروج فيح ممتدة ، يكثر فيها مصايد الطير والوحش ، وليس بالممالك الشامية بعد دمشق لها نظير ، ولا يدانيها في لطف ذاتها من مجاورتها قريب ولا بعيد » ا هـ . وقال في صبح الأعشى أيضاً : قال في التعريف : « وحدها من القبلة مدينة الرستن وما سامتها ، آخذاً بين سلمية وقبة ملاعب ، إلى حيث مجر النهر والآثار القديمة[1] ، وحدها من الشرق البر ، آخذاً على سلمية إلى مااستفل عن قبة ملاعب ، وحدها من الشمال ، آخر حد المعرة من الغرب ، وحدها من الغرب مضافات مصياف وقلاع الدعوة ، ولها ثلاثة أعمال : عمل برها وهو ظاهرها وما حولها ، وعمل بارين ، وعمل المعرة

---

(١) لم أتمكن من معرفة مكان قبة ملاعب هذه ، ويظهر من كلامه أنها كانت شمالي سلمية وشرقي الحمراء التي سيأتي ذكرها ، وقد دثرت هذه القبة ، وضاع رسمها واسمها في تلك الربوع ، كما أنني لم أفهم أي نهر ومجر قصد ، ولا أي آثار قديمة عنى ! .

وقال شيخ الربوة في القرن الثامن أيضاً : « حماة حماها الله ، بها سلطان ملك ـ لعله يعني الملك المؤيد أبا الفداء ـ ونائب مستقل ، وهي مدينة حسنة خصبة ، كثيرة الخير والأرزاق ، يحوطها النهر العاصي ، ويأتيها جارياً من بين جانبيها ، ويجمع بين الجانبين قنطرة ، وعلى العاصي نواعير كبيرة ، التي لم ير في الآفاق مثلهن ، يحملن من العاصي أنهاراً من الماء ، يسقون به البساتين والأماكن ، وهي كثيرة الثار ، وبها المشمش الكافوري اللوزي ، الذي لم ير في سائر الآفاق مثله ، ومن أعمالها الكبار بعرين ، وتسمى بارين وهي قلعة منيعة ، وسلمية وهي على سيف البرية ـ بناها عبد الله بن صالح وعلي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم ـ ولها قناة كبيرة تحمل من سلمية إلى حماة ، تسقي بساتينها وأراضيها ، وهو نهر مليح » . وقال أيضاً عن حماة ، في فصل أعياد النصارى ومواسمهم : « وفي عيد الفصح تبطل أهل حماة مدة ستة أيام ، أولها يوم الخميس الكبير ، وهو خميس العهد ، وآخرها يوم الثلاث ثالث الفسح ، وتنتقش فيه النساء ، وتلبس فيه الكساوي الفاخرة ، ويصبغون فيه البيض ، ويعملون الأقراص والكعك ، المسلمون أكثر من النصارى . ويرد إلى حماة أهل سائر البلاد المجاورة لها ، مثل حمص وشيزر ، وسلمية وكفر طاب ، وأبي قبيس ومصياف ، والمعرة وتيزين ، والباب وبزاعة ، والفوعة وحلب ، ويطلعون جميعاً إلى العاصي ، ويضرب لهم أهل حماة على شطوطه خياماً ، ويركبون في المراكب بالمغاني ، ويرقصون في المراكب النساء ، والرجال على الشطوط ، حتى تتهتك الخلائق ، ويمضي لهم ستة أيام لا يرى في الوجود مثلها ، وكذلك يبطلون أول يوم صوم النصارى ، ويقولون قد طلعوا يلتقون الراهب ، ويبطلون أيضاً يوم نزول الشمس برج الحمل ، ولم أر هذا في مدينة غيرها . وفي ليلة عيد الميلاد ، يوقد أهل حماة ، كبيرهم وصغيرهم ، وجليلهم وحقيرهم ، وجندهم وأميرهم ، من القناديل فوق الأسطحة ، ومن القنب والشيح شيئاً عظيماً ، ويوقدون من البارود والنفط أنواعاً شتى ، وكذلك في عيد الختان ، ويسمونه الميلادة الصغيرة ، وربما يوقدون فيها أكثر من الكبيرة » اهـ .

قلت : نبهت هذه الجملة التي نقلتها عن كتاب شيخ الربوة أفكار منوري حماة الذين قرؤوها ، حينما نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (ج ١٠ / مجلد ١٢) وعرفوا منها أن بلدتهم كانت فيما مضى سباقة في مضمار هذه الحفلات السنوية ، فقاموا وعملوا في ربيع سنة ١٣٥٣ هـ في يوم خميس المشايخ عيداً قومياً ، كان على بدائته ذا روعة وإتقان ، وقد

عولوا على زيادة تنظيمه في السنين المقبلة ، وقد حمدني بعض هؤلاء على تنبيهي ، وإفادتي حماة بذلك .

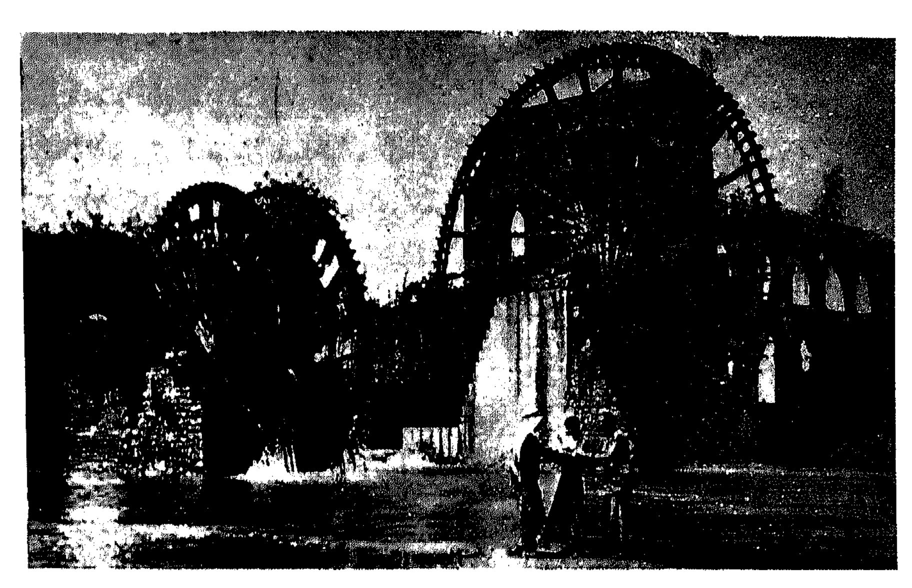
وفي كتاب (الدر المنتخب في تاريخ حلب) لابن الشحنة ، بعد أن كرر وصف حماة على نسق من تقدمه ، قال : « ولها قلعة معظمة في المدينة ، لكنها خربت منذ زمان . وكانت حماة قديماً مضافة إلى حمص ، ثم أضيفت إلى حلب ، كما تقدمت الإشارة إليه ، ثم عظم شأنها بالملوك الأيوبية الذين كانوا سلاطينها ، وإن كانوا تحت يد ملوك مصر ، ومن ثم عظم قدر نوابها ، وصار بها قضاة أربعة وحجاب وأمراء ، وأرباب وظائف من كاتب سر وناظر جيش بدار النيابة » . قال ابن فضل الله : « حماة مدينة قديمة ، وهي في وحدة من الأرض حمراء ممتدة » . قلت : ليست ممتدة بل هي إلى الاستدارة أقرب . ثم قال : « وعليها نشزان عاليان يسميان قرون حماة » . قلت : وليس هن عليها ، بل بعيد عنها ، وإنما سميا بذلك ؛ لأن قاصدها من جهة الشمال يراهن من بعيد ، فيستدل بذلك على القرب منها . ثم قال ـ بعد أن أثنى عليها وعلى كثرة خيراتها ، ونواحيها ورخاء أسعارها ـ « خلا أنها ذات وعر (وغر) في الصيف ، لحجب الهواء عن اختراقها ، ويعرض بها في الخريف تغير ، فتنسب إلى الوخم ، ولا يبقى بها الثلج في الصيف ، كما يبقى في بقية بلاد الشام مدخراً إلى الصيف ، ولكنه يجلب إليها من غيرها ، وحول حماة مروج ممتدة وبر فسيح ، يكثر به مصائد الطير والوحش ، وليس لها سوى عملين : عمل بارين ، وعمل المعرة » .

أما قناة سلمية التي ذكرها شيخ الربوة ، فقد كانت تصل إلى حماة ، وتسقي الأرض الفسيحة العذية ، الممتدة في شماليها ، وقد درست وتنوسي خبرها . أما الزوارق فقد أدركنا منها أثراً ضئيلاً ، كان قاصدو النزهة من الحمويين ، يركبونها من جسر المراكب ، الذي صار يدعى جسر السرايا ، حيث العاصي زائد العمق في الجملة ، يذهبون إلى مكان في شرقي البلدة يدعى البشريات ، نسبة إلى دفين بجانبها ، يسمى الشيخ بشر ، فيه ناعورتان كبيرتان تسقيان البساتين . ولم يبق في حماة من الفواكه التي ذكرها ابن بطوطة وشيخ الربوة إلا النادر ، وفقد منها المشمس اللوزي ، الذي مازال موجوداً في دمشق والقطر المصري ، ومعروفاً بالحموي ، وناب عنه صنف من المشمش الطيب ، يسمونه

المشبه ، إنما لقلته يكاد لا يكفي حاجة حماة نفسها ، وليس في بساتين حماة وأزوارها إلا الزروع المسقوية ، من الحبوب والبقول الواسعة الغلال ، وقليل من الأشجار غير المطعمة ، وما ذلك إلا من إهمال ملاكي هذه البساتين ، وانصرافهم لزيادة عدد مايقتنونه من القرى العذية ، دون العناية بإتقان العمل .

وفي القرن التاسع في دولة المماليك ، وفي القرن العاشر في زمن العثمانيين ، كسدت بضاعة العلوم الدنيوية ، فلم يشأ أحد من الرحالين أو الجغرافيين ، ينبئنا عما كان عليه إذ ذاك عمران حماة وغيرها من مدن الشام ، مما تقدم معنا ذكره أو تأخر ، أو أنه نشأ ولم نعثر على ماكتبوه ، وكذلك لم ينشأ في القرن الحادي عشر سوى سائحنا (أوليا جلبي) ، الذي وصف حماة على قدر ماوعاه فهمه . على أن المعروف من التواريخ ، أن حماة بعد زوال دولة الأيوبيين التقويين ، والخراب الذي أصابها من (هولاكو وتيمورلنك) ، واستمرار فوضى الأحكام في عهد المماليك ، ودثور سلمية وغيرها من القرى الشرقية ، التي لاحياة لحماة إلا بها ، وفصل المعرة عنها أفل نجم حظها ، وفي عهد العثمانيين دام هذا الأفول ، لتوالي جور المتسلمين ، الذين كان يرسلهم الولاة من طرابلس أو دمشق ، وفتن الأجناد وعسفهم ، حتى هاجر كثير من الحمويين على مارواه المحبي ، إلى بقية مدن الشام الأكثر اطمئناناً ، فخلت حماة من رجالها ، وانحط شأنها كثيراً . وفي القرن الماضي ، ولا سيا في عقده الأخير دأبت الأسر الكبيرة التي أوجدتها أحداث ذلك العهد ، على استصفاء العقارات في المدينة ، والمزدرعات في القرى بشتى الوسائل ، حتى لم يبق منها لاسيا في البرية من الأرضين المملوكة لأهلها إلا ماندر ، وأصبح الحمويون من جراء ذلك فريقين متباينين ، العظامي الذي يسير فخوراً لسعة أملاكه ووفرة أرزاقه ، تدر عليه وهو مستريح ريعاً ، ينفقه في نعمه ورفهه ، والعصامي وهم السوقة والفلاحون ، الذين يكدون مدى العمر ، للحصول على كفاف العيش ، والأجور التي حقت عليهم لأولئك العظاميين . والشحناء من جراء هذه التباين ، مستحكمة الحلقات بين الفريقين.

ومنذ قرن ونصف ، توافد رحالة الإفرنج على حماة ، فأعجبهم جمالها الطبيعي ، ومنظرها الأثري ، واستغربوا انسياب عاصيها ، وشدو نواعيرها وأزياء أهلها وأطوارهم ، فكتب بعضهم ، ومنهم (فولناي) في سنة ١٧٨٣ م ، و (بركهارت) سنة ١٨١٢ م ،



نواعير حماة

و (إيزامبر وشوفة) سنة ١٨٨٢ م ، و (فان برشم) سنة ١٨٩٨ م ، و (موريس باريس) في سنة ١٩١٤ م ، و (مونمارشة) سنة ١٩٣٢ م ، ماأوحته إليه قريحته الغربية . وخلاصة ماكتبوه ، بما يكادون يتفقون في مآله ، أن حماة اختبأت في منخفض العاصي ومنعرجاته ، لا يتميزها القادم من بعيد ، إلا من قرونها ، وأنها احتضنت العاصي بجسورها ، وأغمست فيه دورها وقصورها ، وأطنبوا بنضرة رياضها ، وزهو أشجارها وأزهارها وروعة عاصيها وانسيابه الهادئ ، ووصفوا نواعيرها ، معجبين بشكلها وعظمتها ، ودورانها وشدوها المطرب ، وصعوبة اعتياد الغريب عليه في لياليه الأولى ، وانتثار الماء منها ، وانصبابه في القناطر الممتدة إلى الأحياء والبساتين ، وتمثلوا العصور الوسطى عند رؤيتهم مباني حماة الأثرية المركومة ، التي لم يخالطها حتى الآن بناء حديث ، وأسواقها المعقودة ، ودكاكينها المزدحمة بالقرويين والبدو ، وتمثلوها أيضاً عند نظرهم إلى أطوار سكان حماة ، وأزيائهم العربية المتنوعة الألوان والأشكال ، وشكوا فقدان الفنادق والمطاعم ، وحرمان أسباب الرفه الجالبة للسياح ، وأن حماة بلدة منكمشة ، بعيدة عن الاتصال بحضارة الغرب ، قليلة الترحاب بالأجانب ، وأهلها متعصبون ، والحياة الاجتماعية فيها ـ لاسيما عند أسرها الكبيرة التي بيدها الملك كله ـ تذكر عهد الإقطاع ، وأن من المباني الأثرية التي تستحق الزيارة في حماة ، قصور بني العظم وبني الكيلاني ، والجامع النوري وجامع الحيات ، والقلعة . إلخ ...

ومما قاله أحدهم وهو (مونمارشة) صاحب (الدليل الأزرق) : « وحماة مثل أكثر مدن الشام ، لايحتاج المتجول فيها ركوب المركبة ، فضياع الوقت يكاد لايذكر ، ناهيك أن الماشي يتملى أكثر بمشاهدة الطرق . فالأحياء المبنية في ضفة العاصي اليسرى ، أكثر امتداداً واستمتاعاً منها في ضفته اليمنى . وإذا غادر السائح جسر السراي يسير شمالاً في شارع عريض ، يوازي العاصي[١] ، فيمر من تحت قناة ناعورة كبيرة[٢] ، ثم يصل إلى قصر بيت العظم ، وكان مسكناً لأسعد باشا العظم ، الذي حكم حماة إلى سنة ١٧٤٢ م[٣] ، وقد اتخذ

---

(١) يعني شارع أبي الفداء .

(٢) هي ناعورة المأمورية .

(٣) تاريخ بناء القصر سنة ١١٥٣ هـ .

الآن مدرسة أهلية ، دعيت دار التعليم والتربية . وهذا القصر أصغر وأقل بهاءً ، من قصر بيت العظم في دمشق ، له فناآن أحدهما علوي ، والثاني سفلي ، وفي العلوي قاعة ذات قباب ، أمامها صف من الأعمدة ، ونجارة الخشب فيها ودهانه ووشيه من طراز القرن الثامن عشر ، وفي جنب القاعة غرفة فيها رسوم جميلة ، أحدها يمثل مدينة حلب بمنظرها العام[1] . وأجمل ما في القصر موقعه ، فإن الواقف في فنائه العلوي ، يشرف على مشاهد جميلة ، في ضفتي العاصي ، وعلى أحياء حماة التي في ضفته اليمنى[2] . وبعد الخروج من القصر ، يسير السائح شمالاً ، فيمر من قرب ناعورتين عظيمتين جداً[3] ، ثم من تحت ساباط ، إلى أن يصل إلى جسر على العاصي في قربه ثلاث نواعير ، ويشاهد على ضفة العاصي اليمنى قصراً ذا قبة ، لآل الكيلاني ذوي الوجاهة في حماة[4] ، والواقف على هذا الجسر ، تقر عينه بمناظر الحدائق الجميلة ، وصوت النواعير المطرب ، وثمة في الضفة اليسرى حمام عربي قديم[5] . وإذا رجع السائح في الطريق الصاعدة من الجسر ، يزور الجامع النوري » . ـ وبعد أن وصف هذا الجامع ـ قال : « ثم يصل إلى التل الذي كانت تعلوه القلعة المندرسة ، والواقف في ذروة هذا التل ، يتمتع بمشاهدة حماة كلها ، وفي جنوبي هذا التل جامع صغير له قبة مضلعة ، تدعى قبة الحسنين ، وفي الجامع كتابة تذكر تجديده ، عقيب الزلزلة الهائلة ، التي حدثت في سنة ١١٥٧ م . ثم يصل إلى الجامع الكبير » ـ وبعد أن وصف هذا الجامع وضريح الملك المظفر ـ قال : « وإذا استأنف السائح السير في ذلك الطريق ، وعرج نحو اليمين يواجه العاصي ، ويرى الناعورة المحمدية الكبرى[6] ، المبنية في القرن الرابع عشر ، وهى تسقى الجامع الكبير . فإذا اجتاز الجسر[7] ، وعليه طاحونة

(١) في هذه القاعة ثلاثة أبهاء تحت ثلاث قبب ، وفي البهو المتوسط بركة صغيرة جميلة ذات فسقيات من المرمر ، والنقش والدهان الدمشقيين جميلين جداً ، لا يزالان على غالب جدتها ، وقد جدد البهو الغربي سنة ١٢٩٤ هـ ، في عهد نصوح باشا بن أسعد باشا ، وللبهو المتوسط ثريا جميلة ، وفيه وشي مذهب ، غاية في الإتقان .

(٢) يعني الحاضر .

(٣) هما الجعبرية والمأمورية .

(٤) بحثنا عن هذا القصر في هامش الصحيفة ٢١ .

(٥) حمام صغير بسيط يدعى حمام السلطان ، بناه فيا قيل الملك المنصور بن الملك الظاهر (تقي الدين عمر) ، وكان حمامه الخاص به .

(٦) في باب النهر .

(٧) يعني جسر باب الجسر .

قديمة ، يلاقي وسط الحدائق جامع الحيات » ، ـ وبعد أن وصف هذا الجامع ، وضريح أبي الفداء ـ قال : « وبناء هذا الجامع خال من الإتقان الصناعي ، لكن منظره من الجسر المجاور له ، وخياله المنعكس على مياه العاصي ، الذي تحيط به الحدائق ، يجعل له منظراً من أروع مناظر حماة . ويعود السائح من جامع الحيات إلى المدينة ، بعد أن يمر من سفح تل القلعة ، ويجتاز ساحة خالية وسيعة ، تمتد أمامه[1] ، ثم ينفذ إلى أسواق حماة ، التي لا تختلف كثيراً بحركتها وجلبتها ، عن أسواق دمشق وحمص ، وتفوق تلك بأنها لا تزال محتفظة بوضعها وبنائها الأثريين[2] ا هـ . ووصف الصابوني قلعة حماة فقال : « بنيت قلعة حماة على صورة قلعة حلب ، فوق تل صناعي عال ، فقد كانت على هيئة من الإتقان غريبة ، ينظر الداخل إلى باب لها مشمخر بحجارة عظيمة ، على خمسة جسور مرتفعة فوق الخندق ، ثم يدخل إلى منعطفات الأبراج ، فيرى البلد من النوافذ المفتوحة للحراسة ، الواسعة من الداخل والضيقة من الخارج ، ومن فوقها النوافذ الواسعة ، التي سدت بشبك من الحديد عظيم ، وبعد اجتياز المدخل ، بنايات عظيمة من دار الحكومة ومحل الذخائر وبيوت السكن ، يحيط بها سور عظيم مرتفع ، وفي مقابلته جامع أبي الفداء ، وجامع للقلعة ذي منارة شامخة ، ومنه إلى الجهة القبلية بمسافة واسعة ، حمام كبير جداً ، وفي طرفها الشرقي المطل على طريق باب الجسر بئر واسعة فيه ماء عذب جداً ، يأتي من مكان خفي من نهر العاصي ، ولها طريق تحت الأرض ، يصل إلى العاصي من جهة الشمال ، ماراً من تحت بستان الدوالك ، متصلاً ببعض البيوت ، وكانت القلعة مرصوفة بالحجر الأملس ، من أسفل الخندق إلى حيطان السور لئلا يصعد إليها العدو ، وللقلعة خندق دائر حولها عميق جداً ، وكان العاصي مرتفعاً عنه ، ولهذا الخندق طريق إلى الماء ، من المكان المسمى الآن جسر الهوا في مدخل محلة باب الجسر ، كانوا إذا أرادوا الحصار ، يفتحون منه ماء العاصي فيمتلئ الخندق ، وقد أشار إلى ذلك ابن جبير وياقوت » ا هـ . قلت : وقد ظلت هذه القلعة على هذا المنوال إلى أن جاء (هولاكو) طاغية التتر في سنة

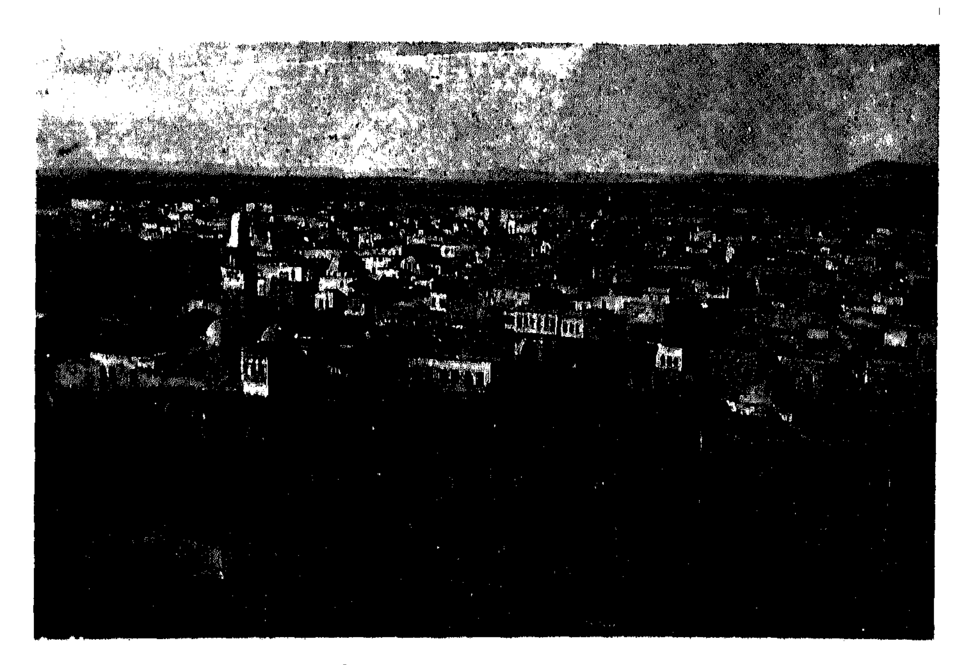
---

(١) يقام في هذه الساحة سوق عامة كل يوم خميس ، تجمع كل ضروب السلع والأقوات والبقول ، وقد شادوا حديثاً في وسطها ، بناء جميل لمدرسة التجهيز الأميرية .

(٢) أزالت بلدية حماة منذ عهد قريب سقف سوق حماة المعقود ، ثم استبدله تجار هذا السوق ، بسقف من معدن التوتياء ، جعلوه أعلى من القديم ، وذا نوافذ لجريان الهواء ودخول النور ، فضاع بذلك الموضع والبناء الأثريان اللذان يتطلبها السياح .

٦٥٨ هـ ، وهو كما ذكرنا مراراً لم يدع قلعة إسلامية إلا وكان يتقصدها بالدك والنقض ، فخرب قلعة حماة ، وأحرق مافيها من الذخائر والعتاد ، ثم أعاد ملوك حماة الأيوبيون ترميمها ، إلى أن قضى عليها ابن تيمورلنك في سنة ٨٠٣ هـ القضاء الأخير كما قدمنا ، وأمست من ذلك الحين ليس فيها إلا بعض بيوت وجدران قائمة ، وسجن للحكومة وأنقاض ، إلى بعد مرور (أوليا جلبي) في القرن الحادي عشر . وفي القرنين الماضيين جردت الأطلال ونقضت الأحجار ، واستعملت في بناء قصور الكيلانيين والعظميين وغيرها ، فأضحى سطح التل قاعاً صفصفاً ، ليس فيه من تراث الأقدمين ، إلا بعض كسور الأحجار وأسس جدران من الآجر ، إلى أن جاءت في سنة ١٣٥٠ هـ بعثة أثرية دانياركية ، برئاسة العالم الأثري (أنكولد) الذي تقدم ذكره ، وأن ضالته العثور على الأبجدية الحثية ، وشرعت تحفر في تل القلعة ، فكشفت بادئ بدء في الطبقة العليا من آثار العرب عدداً غير يسير ، من الأواني الخزفية وقطع الفسيفساء ، والقنابل اليدوية الخزفية ، التي كان يستعملها العرب في حروبهم ، وكشفت عدداً يسيراً من الأنصاب والعاديات الرومانية والبيزنطية ، وإلهين مصريين ، ودأبت في ربيع كل عام على الحفر ، أملاً بأن تصل إلى الضالة المنشودة ، ولما تصل بعد .

وفي حماة جوامع ومساجد كثيرة ، نخص بالذكر منها (الجامع الكبير) ، ليس في حماة جامع مثله في اتساعه وعظمته ، وهو في محلة المدينة ، وُجدَ من عهد أبي عبيدة ، وكان يسمى الجامع الأعلى ، قيل أنه جدد في خلافة المهدي ، من خراج حمص ، على مانقش على رخامة فيه ، ثم جاء المظفر عمر ، فزاد فيه ، وبنى مدرسة بجواره ، ثم جاء إبراهيم الهاشمي ، فأنشأ منارته الشمالية سنة ٨٢٥ هـ ، كما زبر ذلك على رخامة فوق بابها ، وبنى أيضاً الحرم الصغير في جانب المسجد من جهة الشرق ، ورواق الجامع أيضاً بناه سنة ٨٣٢ هـ ، وفي غربي صحن هذا الجامع قبة صغيرة ، تدعى بيت المال أو الخزنة ، تشبه قبة جامع بني أمية في دمشق ، بنيت على ثمانية أعمدة ذات تيجان يونانية ، وتحتها بحرة مثمنة الأضلاع ، وعلى الأعمدة كتابة عربية قديمة لم يتسن لي استنساخها ، وللجامع حرم واسع جداً ، فيه منبر خشبي من عهد (زين الدين كتبغا) ، الذي بعد أن كان ملكاً ، صار نائباً في حماة سنة ٧٠٢ هـ كما قدمنا ، وهذا المنبر آية في جمال الحفر وبراعة النقش ، المشكلين على خطوط ودوائر هندسية ، تعد من أبدع نماذج فن النجارة الجميلة العربية . ومن آثار



حي الحاضر في حماة

لنصرانية أو الوثنية في هذا الجامع ، جدار حرمه الغربي ، كان فيه باب عريض مسدود ، فوقه عتبة منقوشة نقشاً بديعاً ، وعلى العتبة قوس ، وعلى طرفي الباب في أصل الجدار ، محاريب صغيرة ، ذات زوافر وأعمدة منقوشة أيضاً . وسدة الحرم مزينة بالوشي والدهان الدمشقيين الجميلين ، ويرجع عهد هذه السدة إلى قرنين ، وهي راكبة على أربعة أعمدة من الرخام الأبيض ، يظهر أنها منقولة من مكان آخر . وفي غربي صحن هذا الجامع ، باب ينفذ منه إلى حديقة ، فيها ضريح المظفر وابنه ، عليهما تابوتان ، عملا من الخشب المنقوش والمرصع نقشاً وترصيعاً بديعين ، وللجامع في جهة القبلة ، منارة مقطوعة الرأس ، بابها من الحجر الحري الأسود ، وكان لهذا الجامع أوقاف كثيرة اندرست ، ولم يبق إلا القليل .

وصف الأثري (هرزفيلد) هذا الجامع فقال : « أن أصل حرمه كان كاتدرائية للنصارى ، غريبة الشكل ، وله ثلاثة أفنية مختلفة السعة ، وثماني دعائم ، وخمس قباب ، ومن كل ناحية خمسة عقود أو أقبية ، ويظهر أن الجدار الغربي كان حائط رواق الكنيسة ، والجدار الجنوبي من العهد السابق للنصرانية ، كما هو الحال في جامع دمشق ، كان معبداً ثم بيعة ثم جامعاً . وإلى جهة الشرق ، قامت منارة قديمة منفردة ، وهي مربعة الزوايا ، زبرت عليها كتابة كوفية ، ذات ثلاثة أسطر ، ربما كانت من القرن الخامس . وتحيط بصحن الجامع الجميل أروقة معقودة ، وهناك مصلى بمحرابين أمام الحرم ، ومصلى آخر له حوض ماء ومحراب منفرد في الرواق الشمالي ، وخزنة قائمة على ثمانية أعمدة قديمة ، وفي الرواق الغربي حرم صغير له نوافذ كبيرة ، فيها قضبان صلبة معمولة من النحاس من عهد المماليك ، ومن الرواق الشرقي يصل الإنسان إلى قبة الملك المظفر محمود ، وله تابوت معمول بالخشب الجميل المنقوش ، وهناك منارة ثانية قامت وسط الرواق الشمالي ، ويستدل من كتابتها وشكلها أنها من عهد المماليك ، وفي جامع حماة تجلت خاصية من هندسة منارته القديمة ، وذلك أن ظاهر الحيطان مزين بنقوش ، رسمت بألوان تشبه الفسيفساء ، لمراوحتهم في صفها بين الحجر الحري الأسود والحجر الكلسي الأبيض » اهـ . ومن جوامع حماة (جامع الحيات) في باب الجسر ، كان متسعاً وقد هدم من جهة الغرب ، فذهب نصفه وعدا عليه الجوار ، فأخذوا من أرضه الشرقية ربعه . بناه أبو الفداء ، وعمل لحرمه من جهة الشرق شباكان كبيران ، بينهما عمود كبير من الرخام ، على شكل أفاع ملتفة ،



الجامع الكبير في حماة

ولهذا سمي جامع الحيات ، وعمل فيه خزانة كتب كبيرة ، كان فيها سبعة آلاف مجلد فذهبت فيما ذهب منه ، ونقش حرمه بالذهب والفسيفساء والرخام الملون في جدرانه وأرضه ، وعمل له من الغرب شباكان ، كما في جهة الشرق ، غير أنهما هدما وأدخلا في البستان المجاور له . وعلى يمين مدخل الجامع الذي ينزل إليه بدرج ، غرفة فيها ضريح الملك المؤيد (أبي الفداء) المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ، أصلحها بعد دثورها منذ سنتين ، العالم المصري المرحوم أحمد زكي باشا . وبنى أيضاً رجل حموي متوسط الحال ، يدعي الانتساب إلى السلطان بدر الدين حسن أخي أبي الفداء ، منارة جميلة في جانب الضريح ، مكان المنارة القديمة المندثرة . و (جامع السلطان) في محلة الدباغة ، بناه السلطان حسن شقيق أبي الفداء ، على هيئة جامع الحيات ومشتملاته ، و (الجامع النوري) في محلة باب الناعورة ، بناه نور الدين محمود في سنة ٥٥٨ هـ ، بعد الزلزال الكبير الذي هدمت فيه حماة ، وأوقف له أوقافاً كثيرة ، لم يبق منها أثر ، وكان له باب شاهق من الغرب درس ، وباب آخر من الشرق باق حتى اليوم ، وبين هذين البابين تاريخ بناء الجامع ، محفور بخط جميل وحروف ضخمة . وصفه (هرزفيلد) فقال : « هذا الجامع على الشاطئ الأيسر من العاصي ، في أرض منحدرة وفوق ساباط معقود . بني هذا الجامع على عهد نور الدين ، وعلى ما دخله من الترميات الكثيرة ، تشاهد فيه إلى اليوم أجزاء مهمة من البناء القديم ، ولا سيما الحرم الطويل الذي عقوده حديثة العهد بالنسبة لمجموع الجامع ، وكذلك القباب الثلاث من الرواق الشمالي المختلفة الأشكال ، والأبنية التحتانية من الجهتين الشرقية والشمالية ، والحائط الخارجي الشمالي من الجامع » وربما كان الجزء الأسفل من المنارة بما فيه الحجارة المنحوتة البيضاء والسوداء قديم العهد أيضاً ، وفي هذا الجامع بقايا منبر جميل ، عمل من الخشب ، يرد إلى زمن نور الدين ، ثم محراب زين أجمل زينة ، فيه أعمدة من الرخام المجزع ، من عهد الملك المظفر محمود (٦٢٦ ـ ٦٤٢ هـ) ، وفي مكان آخر من الشرق محراب ذو أعمدة من المرمر ، زبر في تيجانها اسم أبي الفداء .

هذا ويبلغ عدد سكان حماة الآن أربعين ألفاً ، تسعة أعشارهم من المسلمين ، وأكثر البقية من الروم الأرثوذكس ، وأقلها من السريان القدماء ، والسريان الكاثوليك والبرتستانت . وحماة مابرحت قاعدة لمتصرفية ، كان يتبعها أقضية حماة وحمص وسلمية ومصياف ، ثم فصلت عنها حمص وجعلت متصرفية ، وألحقت مصياف بحكومة اللاذقية ،

ولم يبق لحماة سوى قضاءها المركزي وقضاء سلمية ، يتبع الأول نواحي : حماة وطار العلا ، والحميري والحمراء ، ويتبع الثاني نواحي : علي كاسون ومعر شحور ، وعقيربات وسلمية ، وحماة بلدة زراعية أكثر منها صناعية ، وجل علائق سكانها مع الفلاحين والبدو ، فإذا جادت السماء بالأمطار ، وأقبلت المواسم حسنت حالتهم ، وإن شحت حصل الجدب وعم الضيق . أما صناعاتها فهي البياض ومنسوجات الحرير ، وقد كان لها في الماضي القريب مكانة كبرى ، وكان المرتزقون منها في حماة ـ ومثلها في حمص ودمشق ، وحلب وطرابلس ـ يعدون بالألوف . ذكر في (التقويم السنوي لولاية الشام) لعام ١٣٠٥ هـ : « أنه كان في حماة ٥٠٠ نول ، يشتغل بها ٨٠٠ عامل ، يصنعون في كل عام ٣٠٠٠٠ من عدة الحمامات ، كالمناشف والفوط ، و ٣٦٠٠٠ ثوب من البياض و ١٠٠٠٠ شرشف فراش ، مما كان يبلغ ثمنه ٧٠٠٠٠ ذهب عثماني » ا هـ . بدأ هذا الوارد يتضاءل منذ اليوم ، الذي كثر فيه إقبال الشرقيين على استعمال الثياب والفرش الإفرنجية ، وزادت ضآلته بعد الحرب العامة ، على أثر فصل بلاد الشام عن الأقطار المجاورة ، التي تروج فيها هذه المصنوعات ، وأخصها بر الأناضول والقطر المصري ، وزيادة رسوم المكس عليها ، إلى أن بطل استعمالها في الأناضول ، وتعذر تصديرها إلى مصر ، فماتت هذه الصناعة أو كادت ، وساء حال مرتزقيها .

وتصدر حماة للخارج أعتاق الخيول العربية ، وأنواع الحبوب والسمن الحديدي الفاخر المشهور ، والصوف والجلد ، وفيها كثير من الجوامع والكنائس والمدارس الأميرية ، إحداها مدرسة تجهيز بني لها أخيراً دار فخمة في سوق الخميس ، والمدارس الخاصة كدار العلم والتربية ، التي تقيم في قصر بني العظم الأثري ، وفيها الصيارف والأطباء ، والصيدليون والمحامون ، وتجار السلع المختلفة ، ومن هذه السلع ماهو خاص بالبدو . ويكثر في أهل حماة القرع وأمراض العيون ، لكثرة العجاج وشدة الحرارة والرطوبة في الصيف ، وقلة العناية بالصحة . وأبهج الفصول في حماة الربيع ، تزدان فيه حقولها وحدائقها وأزوارها بحللها السندسية ، ويقصد الحمويون آنئذ المنتزهات ، ويضربون الخيام في الأماكن العليا ، المشرفة على تلك المرتبعات ، ويقضون فيها أياماً وأسابيع ، ويجلب الأعراب الذين يكثر وجودهم في براري حماة اللبن الخاثر الجيد ، ومشتقات الحليب كاللباء والزبد والكشأة ، وجميعه مما تباهي حماة بوفرته وجودته . وأردأ الفصول فيها الصيف والخريف ، فإنها

شديدة وطاتها . وقد أنجبت حماة في العصور الغابرة علماء وأدباء كثيرين ، ذكروا في كتب التراجم ، وما برح أهلها في الجملة ذوي شغف بالدراسة ، وبينهم الآن ـ لاسيا في الطبقة الوسطى ـ عدد غير يسير من حملة الشهادات المتوسطة والعالية في مختلف المسالك . هذا وينقص حماة لتحسين جمالها الطبيعي ، تغيير شكلها الموروث منذ قرون ، وذلك بتنظيم شوارعها وتنظيفها ، وتشييد المباني على الطراز الحديث ، وإيجاد الفنادق والمطاعم ، والمسارح التي تجذب إليها الغرباء والسائحين ، وجلب الماء القراح ونور الكهرباء ، وإصلاح بساتينها وإعادة الفواكه التي ذكرها ابن بطوطة وشيخ الربوة ، إلى آخر ماهنالك من وسائل العمران ، التي قصرت فيه عن بقية مدن الشام .

طريق حماة ــ سلمية
(٣٢ كيلو متراً)

الطريق من حماة إلى سلمية لحب ، لم يتم تعبيده بعد . وقاصد سلمية بعد أن يخرج من حي الحاضر في حماة ، تارة يعلو تلعات متموجة ، وتارة يهبط أودية ، أحدها يدعى العميق ، تنحدر مياهها في الشتاء نحو العاصي ، ليس بينها ذو ينابيع ، وأشجار قليلة سوى وادي عين القصارين . والسائر في هذه الطريق يلمح بادئ بدء في الشمال قرية جبرين وقرية عين البارد ، التي وجد فيها أخيراً أرض كنيسة بيزنطية مبلطة بالفسيفساء ، فيها أغصان واقفة عليها طواويس ، ويرى السائر أعضاد جبل العلا ، الممتدة من الغرب إلى الشرق ، منها جبل الفانات (٥٦٤ متراً) ، في جنوبه قرية معرشحور ، وجبل القرم (٥٧٩ متراً) ، وجبل كاسون (٥٨٦ متراً) ، في سفحه الجنوبي قرية كاسون الجبل ، وفي جنوبي هذه آثار قناة آتية من أنحاء سلمية ، تدعى قناة العاشق ، تتجه نحو الشمال ، يزعمون أنها ذاهبة إلى أفامية . وثمة من الضياع الصغيرة التي يملكها سراة حماة ، على يسار الطريق ، مباركات وأم جرن ، وصماخ وشحلة وغيرها . ويرى السائر على يمينه في غربي العاصي جبل الأربعين (٦٩٤ متراً) ، وجبل تقسيس (٦٨٥ متراً) ، وفي سفحه في منخفض العاصي ، تختفي قرى الجاجية وسريحين ، وجنان والجرنية وتقسيس ، وبينها أزوار تروى بالنواعير . وتربة الأرضين في طريق حماة وسلمية ، تميل إلى الاصفرار والبياض ، كلما ذهبت مشرقاً . ومن غريب أمر آكام جبل العلا المؤلفة من الحجر الحري الأسود ، الموحشة لتجردها عن الأشجار والأنجم ، بل كل اخضرار ـ أن امتدت في بعض منحدراتها وسفوحها الوعرة ، سلاسل من الأحجار من صنع الأقدمين ، مما يحمل على الظن بأنهم كانوا يملؤون أجوافها بالغراس والكروم . ترى هل ضاقت هذه السهول الشاسعة وقتئذ بسكانها ، حتى اضطروا للتعلق بأذيال الجبال ، وكيف كان يتم لهم ذلك ، وهذه البقاع الفقيرة بالأمطار لا سبيل لنمو الغراس والكروم الأعذاء فيها ؟ هذا وبعد أن يجتاز السائر قرية الكافات ، يشاهد عن بعد قلعة شميميس ، تطل من وراء الآكام المحيطة بها ، ثم بقرية تل الدرة ، وأهل هاتين القريتين إسماعيلية ، وببضعة طواحين في جنوبها مرج القريم ،

وبعين ماء كبيرة تـدعى عين الزرقـاء ، إلى ان يـدخل في سهل أفيح ، مترامي الأطراف ، جثمت فيه سلمية .

سلمية : سلمية بليدة قـديمـة ، كان لهـا شـأن وذكر قبل الإسلام ، ولا سيا بعـده في عصوره الأولى والمتوسطـة . ففيهـا جرت المعركـة الحـاسمـة التي قضت على دولـة الأمـويين وآمال أتباعهم ، ومنها نشأت الدعوة الإسماعيلية في الشام وانتشرت ، وفيها ولد أول خليفـة فـاطمي ، وفيهـا كان مقر أعـاظم أمراء أعراب البـاديـة ، الـذين أثروا كثيراً في العصـور المتـأخرة ، في زوال عمران شمالي الشـام . وهي الآن قريـة كبيرة ، في شرقي حمـاة إلى الجنوب ، وشرقي حمص إلى الشمال تبعد عن الأولى ٣٢ كيلو متراً وعن الثانية ٤٠ كيلو متراً . تقـع في سهـل أفيـح ، مترامي الأطراف ، مطرد المنـاظر ، تنتهي في الشرق البعيـد ، عنـد سفح جبل البلعاس ، حيث آخر العمران ، وفي الشمال يتصل بالبراري الممتـدة نحو خرائب قصر ابن وردان والأنـدرين ، وفي الجنـوب بـالتلعـات والمنبسطـات الـذاهبـة نحـو حمص . وتشرف على سلمية من الغرب وعن كثب ، سلسلة آكام من أعضـاء جبل العلا ، وهضبـات متموجة ، تضمحل عند سقي العاصي الأيمن . وهي في يومنا قاعـدة قضـاء ، من أعمـال لواء حماة ، يقطنها زهاء سبعـة آلاف من الإسماعيليـة ، أهل الحرث والزرع ، يضـاف إليهم نحو ألفين من الغرباء ، هم موظفون أو باعة ، أو صناع أو بستانيون . وفي قضائها قرى وضيـاع عديدة ، يقطن أكثرهـا الإسماعيليـة والنصيريـة ، وأقلهـا الأعراب المتحضرون والشركس . ويشتد فعل الريـاح الغربيـة في سلميـة ، لوقوعهـا في ذلـك السهل الأفيح ، فتثير العجـاج وتحول دون نمو الأشجار . وقـد يصل البرد في الشتـاء إلى درجـة الصفر ، كما أن حر الصيف قد يبلغ الأربعين ، على أن جفاف الهواء ، يخفف وطـأتها ، فلا يشعر بها كما في حمـاة ذات الوادي المنخفض . وكمية الأمطار السنوية لاتنيف عن الأربعمئة ميليمتر في معظم السنين . ولـذا لاتخصب تربتهـا الرمليـة الكلسيـة الصفراء ، إلا إذا جـادهـا الغيث بكثرة ، ولا تنمـو الزروع الصيفية والأعناب في مستهل نموها ، والأشجار في كل حياتهـا إلا إذا رويت . وقـد اشتهرت سلمية بسعة كرومها وبساتينها ، وأراضيها الأعذاء ، وأجل غلالها التي تصدرهـا إلى بندر حمص ثم حماة ، الحنطة والشعير ، والقرنج والبصل ، والكمون وصنف من العنب يدعى البيـاضي ، يتـأخر نضجـه حتى أواخر الخريف . ويستخرج مـاء سلميـة من الآبـار ، وهـو قريب المنال ، ووسط في عذوبته . ويرجع الفضل في عمران سلمية إلى القني القديمة الممتـدة

فيها وفي أعمالها ، كخيوط الشباك ، مما لانظير له في بلاد الشام ، إلا في أقضية منبج ودوما والقطيفة . وهذه القني من العجائب الشاهدة بقدرة الأقدمين في نقر الصخر الصلد ، ورسوخهم في علم استنباط المياه وجرها[1] ، يكري أهل سلمية الحاليون هذه القني ، وقد برعوا في تتبع آثارها ، وتنظيف أسرابها وآبارها ويسيلونها ، ويوشك إذا دامت هذه العناية ، أن تصبح كورة سلمية غوطة مصغرة ، ويعود إليها مجدها الغابر الذي ذكره جغرافيو العرب ، ونعتوه بكثرة المياه والشجر ، ووفرة الخصب والرخاء .

ومن البواعث التي وجهت أنظار الغابرين والحاضرين نحو سلمية ، هذه المروج الممتدة في شماليها وغربيها ، وأجلها شأناً المسماة بالخصيبة وبالقريم ، وهي واسعة مستوية ، يزكو فيها الكلأ ويبسق في سني الخصب ، ومياهها وفيرة وفي متناول اليد إذا حفرت لها حفائر . وقد كانت هذه المروج في العصور الماضية ، ممر الجيوش الزاحفة من حلب نحو دمشق ومصر ، أو بالعكس ، أو محط القاصدة حصار حماة أو حمص ، فتربع خيلها وتريح جندها ، لاسيا والطريق من حلب إلى سلمية المار من سيف البادية (الخرايج ، تل حلاوة ، الحمراء) تكثر فيه البطاح والغدران ، وتقل فيه دواعي الاصطدام مع حماة المعمور ، وهما أمران غير متوفران في طريق المعرة وحماة . ثم إن قبائل الأعراب كانت وما برحت تقيظ في هذه المروج ، وترتع فتزيد خصبها ، بتراكم روث أنعامها .

وأكثر دور سلمية ، قباب مخروطية الشكل من اللبن والتراب ، كما هو الحال في القرى الممتدة شرقي حمص وحماة وحلب ، على أنها صارت تبدل منذ ربع قرن بدور حجرية ، جلها من الطراز القروي البسيط ، وفي منتصف هذه البليدة ساحة وسيعة ، تلتقي فيها طرق الأحياء الضيقة المعوجة غير المرصوفة ، وتحيط بها حوانيت الباعة ومرائب السيارات ، وقد قامت وسطها دار الحكومة ، وفندق حوله حديقة ، وبجانبها جامع للسنية حديث البناء ، وكذا الدار والفندق المذكوران ، وثمة في جنوبي سلمية مدرسة

---

(١) الغالب أن الحثيين والآراميين هم أول من خطط وفجر قني سلمية كما فجروا أيضاً قني منبج وأنشؤوا بمياهها بحيرتها المقدسة (راجع الصفحة ٢٢٣) ولا ريب في أن الأمم التي خلفتهم سارت على غرارهم فزادت كمية هذه القني وأتقنت كيفيتها . وإذاً لايصح أن تنسب هذه القني إلى الرومانيين دون غيرهم . لأن للأمم التي سبقتهم آثار بارزة في بلاد الشام في القني والسدود والقلاع والحصون ينبغي أن لاتبخس حقوقها فيها .

ابتدائية رسمية ، ذات بناء جميل ، وأخرى في غربيها زراعية عملية ، أنشئت سنة ١٣٢٨ هـ ، وقامت أبنيتها العديدة وسط أرض فسيحة خاصة بها ، والمدرستان أنشئتا بإيعاز الحكومة العثمانية ، تبرع الأهلون بأرضيهما ، وأنفقوا قسماً من الأموال التي يرسلونها عادة إلى الهند في تشييد مبانيها . وقد سبق لكاتب هذه السطور ، جهود جمة في فتح المدرسة الزراعية وإعمارها وإدارتها قبل الحرب العامة ، ولا سيا بعدها لما أحرقت وأغلقت ، عقيب انسحاب الترك ، فتمكنت رغم المنغصات والمثبطات التي كانت تعترضني ، من تعليم التلامذة الذين كانوا يتقاطرون من مختلف أنحاء الشام ، وتدريبهم على الأساليب الزراعية الحديثة ، ووضعت المناهج والمصطلحات ، وألفت بعض الكتب في الفنون التي لم يسبق تدريسها في العربية ، وأنشأت الكروم والبساتين ، والمشاتل الزاهية حتى الآن ، وخرجت خلال السنوات السبع التي مكثت فيها ، عدداً غير يسير من الأخصائيين ، استلمت طائفة منهم زمام العمل فيها ، وغيرها من المعاهد والدوائر الزراعية في مختلف الأقطار العربية ، فكان منهم بعض النفع في خدمة هذه الحرفة . وبعد أن غادرت هذه المدرسة وسدت أمورها إلى غير أهلها ، فأمعنوا فيها خبطاً وحطاً حتى اضطروا الحكومة في سنة ١٣٥١ هـ إلى إلغائها ، وإبقائها كمركز للاختبار الزراعي فحسب ، وبذلك خسروا سلمية معهداً علمياً كان على علاته سبب اشتهارها ، ومصدر رقيها الثقافي والزراعي ، ناهيك عن نفعه بقية البلاد الشامية ، التي كانت ترسل أبناءها للاغتراف من ينبوعه .

وسلمية بليدة عريقة في القدم منذ العصور الأولى ، بدليل العثور على كثير من عاديات الأمم الغابرة فيها وضواحيها ، ينبشها الأهلون ، من الأطلال والمدافن القديمة ، ويبيعونها من غواتها بأثمان جيدة ، فهي إذاً لابد أن تكون كحماة ، وقطنا (المشرفة) ، وآرتوزيا (الرستن) ، تبعت حمص عاصمة هذه الديار في تلك العصور ، وشاطرتها على نسبة مصغرة أدوار الإقبال والإدبار ، في عهد اللوذيين والحثيين ، والآراميين والسلوقيين ، ولا يبعد أن تكون تبعت إمارة (آل شميسغرام) العربية ، التي سادت تحت إشراف السلوقيين في حمص والرستن ، خلال العصر الميلادي الأول . ثم رأت سلمية عهد الرومانيين ، الذين مدوا عمران ضاحيتها إلى جبال البلعاس وفيافي الأندرين ، وكان اسمها في عهدهم Salamias . ورأت سلمية التدمريين مدة ، ثم عادت إلى الرومانيين ، تزهو في ظلهم إلى أن خلفهم البيزنطيون ثم المسلمون . ومما يدل على عمران سلمية إذ ذاك ، أنه لا

تخلو باحة أو دار فيها من أسس الجدران أو ناووس ، أو جرن أو عتبة ، أو تاج عمود أو قاعدته ، أو سارية بعضها مستعمل في تضاعيف الأبنية الحاضرة ، وبعضها مبعثر ، ومنها ماعليه كتابات ونقوش يونانية ، تنتظر من يعنى بها .

ومما أدى إلى عمران سلمية آنئذ ، أن مركزها الجغرافي جعلها تمر بها في زمن ازدهار تدمر وبعده ، ممن لم يرغب العروج بحمص من القوافل الغادية والصادية من تدمر والعراق ؛ إلى شمالي الشام وما وراءه من بلاد الروم . ولكنها لم تكن ذات مكانة حربية ، توجب إشادة الأسوار والثكنات ، التي كانت تزدهي بها تدمر والأندرين . على أننا لفقد المراجع ، مازلنا نجهل تاريخ سلمية في تلك العصور وحالتها ، لاسيا كيف كانت إبان الفتح الإسلامي أعامرة وخربت بعده ، أم أنها خربت قبله في أواخر عهد البيزنطيين ، حينما سادت الفوضى إدارتهم ، وأرهقوا الشعب بكثرة الضرائب وطرق جبايتها ، وشغلوا بالحروب المستمرة مع الفرس ، فانحطت بسبب ذلك بلاد الشام عامة ، ونقص قطانها ، وخربت منها على الأخص أفامية وأسريا ، والأندرين وخناصرة ، وغيرها من المدن والقرى التي كانت منتشرة على سيف البادية ، ولا تزال أطلالها تدل على ازدهارها السابق ، ومنها كانت سلمية .

ويظهر من كلام جغرافيي العرب ، أن سلمية ظلت خراباً ، أو شبه خراب خلال القرن الأول الهجري ؛ إلى أن جاءها في القرن الثاني عبد الله بن صالح العباسي الهاشمي وعمرها . فقد قال اليعقوبي من رجال القرن الثالث في كتاب (البلدان) : « وسلمية وهي مدينة في البرية ، وكان عبد الله بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابتناها ، وأجرى إليها أنهراً ، واستنبط أرضها حتى زرع فيها الزعفران ، وأهلها من ولد عبد الله بن صالح الهاشمي ، ومواليهم وأخلاط من الناس تجار وزراعيين » . وقال ياقوت في (معجم البلدان) : « سلمية بليدة في ناحية البرية ، من أعمال حماة بينهما مسيرةً يومين (كذا) ، وكانت تعد من أعمال حمص ، اتخذها صالح بن علي بن عبد الله بن عباس منزلاً ، وبنى هو وولده فيها أبنية ، ونزلوها وبها المحاريب السبعة (؟) يقال تحتها قبور التابعين ، وفي طريقها إلى حمص قبر النعمان بن بشير ، وينسب إليها بعض أهل العلم كأبي ثور هاشم بن ناجية السلمي ، وعبد الوهاب السلمي ، وأيوب بن سلمان السلمي القرشي ،

كان إمام مسجد سلمية ، ومحمد بن تمام السلماني من أهل سلمية توفي سنة ٣١٣ هـ ، وعبد الله بن عبيد السلماني من أهل سلمية » وذكر ياقوت سبباً سخيفاً لتسمية سلمية وعمرانها ، أن أصل اسمها مشتق من كلمة سلم مئة نسبة للمئة نفس الذين نجوا من خراب مدينة المؤتفكة ، ونزحوا إلى سلمية فعمروها وسكنوها . وكان يرجى من الملك المؤيد أبي الفداء صاحب حماة ـ وسلمية على مقربة منه ـ أن يصفها بتفصيل ، ولكنه رحمه الله اكتفى في (تقويم البلدان) بقوله : « سلمية من أعمال حمص ، بلدة نزهة ومياهها قني ، ولها بساتين كثيرة » ، قال ابن حوقل : « وسلمية الغالب على سكانها بنو هاشم ، وهي على طرف البادية خصبة » ، قال في العزيزي : « ومدينة سلمية على ضفة البرية ، كثيرة المياه والشجر ، رخية خصبة » . ا هـ .

أما المؤرخون فلا يذكرون سلمية إلا الفينة بعد الفينة وعرضاً . وأول ما ورد اسمها في التاريخ ، كان في حديث المعركة التي نشبت في مرج الأخرم (الطبري وابن الأثير) الذي نظنه أنه المرج المسمى في يومنا مرج القريم ، في غربي سلمية ، وإن لم يصرح بذلك المؤرخون ، إذ ليس في شمال الشام قاطبة مرج ، يقرب اسمه من الأخرم سوى الذي في سلمية. وهذه المعركة جرت سنة ١٢٢ هـ بين عبد الله بن علي العباسي ، أول قائد وعامل عباسي في الشام ، وأبي الورد ابن الكوثر الكلابي من قواد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين . وكانت الدائرة على أبي الورد ، فرسخت بهذه المعركة الحاسمة أقدام العباسيين ، وقضي على آمال الأمويين في الشام ، ولما استتب الأمر للعباسيين ، جاء عبد الله بن صالح بن علي في أيام ولاية أبيه صالح بن علي العباسي على قنسرين وحمص ودمشق ، وكان عبد الله مغرماً كأهله بالبناء والعمران ، فكما أن أباه صالح بنى قصر بطياس ، شرقي باب النيرب في مدينة حلب ، وأخاه عبد الملك نزل منبج ، وبنى قصراً فيها كما قدمناه في بحثها ، بنى عبد الله بن صالح وأولاده في سلمية الأبنية ، ونزلوها وأجروا إليها أنهراً (أي كسروا فيها القني ، وأسالوا مياهها) على ما جاء في أقوال الجغرافيين . وكان لعبد الله هذا ، لدى أبناء عمه الخلفاء العباسيين مكانة كبرى ، جاء المهدي سنة ١٦٣ هـ ، وأعجب بما رأى من منزله ، لما نزل عليه في سلمية ، في مسيره إلى بيت المقدس ، (الطبري ١٠ / ٥٠٠ طبعة ليدن) ثم جعله عاملاً في العراق وزوجه أخته .

ويظهر أن كثيراً من العباسيين ، أقارب عبد الله بن صالح وغيرهم من بني هاشم ، استطابوا سلمية فسكنوها في القرن الثاني والثالث ، فعمرت بهم وبمواليهم ، والتف حولهم أخلاط من الناس ، تجار وزراعيين ، وفتحوا قنيها التي نعجب الآن بحسن هندستها ، وأنشؤوا فيها البساتين ، حتى صارت كثيرة المياه والشجر ، رخية خصبة ، كما قال اليعقوبي وابن حوقل ، ونشأ فيها بعض العلماء الذين ذكرهم ياقوت . ولم يبق الآن في سلمية ، أقل أثر من ذلك العهد الهاشمي ، الذي سعدت به سلمية ، ولم تر بعد مثله إلا في العهد الأيوبي ، وقد وجد الأثريون الأوروبيون الذين زاروها في غرة هذا القرن ، في مدخل الحصن الذي هدم ، حجراً فيه كتابة ، خمنوا أن تاريخها سنة ١٥٠ هـ ، وأنها لجامع بني في عهد بني هاشم ، ثم هدمه القرامطة سنة ٢٩٠ هـ . ووجدوا أيضاً في داخل الحصن كتابة ، دلتهم ظواهرها أنها لأحد الهاشميين ، تعود هي ومثلها كتابتان أخرييان إلى زمن ، ربما كان تاريخه سنة ٢٨٠ هـ .

ويظهر أيضاً أن بعض بني هاشم الحسينيين ، الذين أخفقوا مراراً في الوصول إلى كرسي الخلافة ، في عهد الأمويين ثم العباسيين قطنوا في سلمية ، ورأوا في بعدها على سيف البادية ، مجالاً لحركاتهم السياسية ، فظلوا يحاولون ويبثون دعايتهم . وقد انتصر مرة أحدهم لأحد أبناء الخلفاء العباسيين ضد أبيه ، قال ابن الأثير في أحداث سنة ٢٦٨ هـ : « خرج في أيام المعتمد رجل من ولد عبد الملك الهاشمي ، في الشام بين سلمية وحلب وحمص ، ودعا لابنه الموفق ، فحاربه ابن العباس الكلابي ، فانهزم الكلابي فوجه إليه لؤلؤ صاحب ابن طولون ، قائداً مع جيش لحربه » اهـ . ولم يزد ابن الأثير على عبارته هذه ، فلم نعرف كيف كان اتصال هذا الثائر الهاشمي بالموفق ، وهو في الشام وذاك في العراق ، ولا مصيره بعد حربه مع لؤلؤ المذكور . وكان من أخص الهاشميين في المحاولة وبث الدعوة لاسمه ، رجل اسمه محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن إسماعيل . وإسماعيل هذا هو الذي تعتقد الإسماعيلية أن الإمامة انتقلت إليه من أبيه جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي . وكان محمد الحبيب طموحاً فعالاً ، يرسل من سلمية المبشرين بإمامته ، ويظهر أنه كان ممن يرون أن الغاية تبرر الواسطة ، فاستعان إذ ذاك بعبد الله بن ميمون القداح ، وكان هذا في الظاهر من غلاة الشيعة ، الداعين لآل البيت ، وفي الحقيقة من بقايا مجوس الفرس ، الساعين لهدم كيان العرب والمسلمين ، وحشو

الإسلام بتعاليم مجوسية ، يشتغل بذلك في أصفهان والأهواز والبصرة ، فوافى سلمية - وقيل بل الذي وافاها ابنه حسين - ملبياً طلب محمد الحبيب ، وأقام فيها إلى مماته ، ساعياً لبث مذهبه ، تحت ستار الدعوة لآل البيت ، ويظهر أن القداح جر وراءه جمعاً من مريديه ، المنتشرين في بلاد فارس والعراق ، فصارت سلمية من ذلك الحين ، مراكزاً لهم ولشيعتهم ، التي سميت بالباطنية والإسماعيلية . ولما توفي محمد الحبيب أوصى إلى ابنه عبيد الله ، المولود في سلمية سنة ٢٥٩ هـ ، وأطلعه على حال الدعاة ، وشاع ذلك في أيام المكتفي ، فطلب ، فهرب عبيدالله إلى المغرب الأقصى ، لاحقاً بأبي عبد الله الشيعي ، الذي كان أرسله أبوه ليمهد له الدعوة في أفريقية ، وتلقب عبيد الله بالمهدي ، وادعى أنه من نسل فاطمة ، وتوصل إلى تأسيس الدولة الفاطمية أو العبيدية ، التي انتقلت بعد حين إلى مصر ، ونازعت العباسيين الخلافة ، ودامت من سنة ١٩٧ هـ إلى سنة ٥٦٧ هـ . وقد اختلف المؤرخون في صحة نسب عبيد الله المذكور ، فمنهم من عده مدخولاً ، وبالغ طائفة منهم ، إلى أن جعلوا نسبه في اليهود ، فقالوا إن أباه هو الحسين بن عبد الله بن القداح بن ميمون بن ديصان ، وأن الحسين المذكور ، لما قدم إلى سلمية ، تزوج امرأة حسناء لرجل يهودي حداد في سلمية ، مات عنها زوجها ، وكان لها ولد من اليهودي ، فأحبه الحسين وأدبه إذ لم يكن له ولد ، وعرفه أسرار الدعوة ، وأعطاه الأموال والعلامات ، فدعا له الدعاة ، وسموه عبيد الله المهدي .

وفي سنة ٢٩٠ هـ جاء القرامطة ، ففتكوا بأهل سلمية ، كما فتكوا في حماة والمعرة ، دون حمص التي استسلمت لهم . قال الطبري (١١ / ٢٨١ ، طبعة مصر) « ثم سار (الحسين بن ذكرويه) القرمطي ، المعروف بأبي شامة إلى سلمية ، فحاربه أهلها ، ومنعوه الدخول ، ثم وادعهم وأعطاهم الأمان ، ففتحوا له باباً فدخلها ، فبدأ بمن فيها من بني هاشم ، وكان بها منهم جماعة فقتلهم ، ثم ثنى بأهل سلمية فقتلهم أجمعين ، ثم قتل البهائم ثم صبيان الكتاتيب ، ثم خرج منها ، وليس بها عين تطرف فيما قيل ، وسار فيما حوالي ذلك من القرى ، يقتل ويسلب ويخيف السبيل » اهـ . ظل على هذا المنوال إلى أن أدركته في السنة التالية ، جيوش الخليفة المكتفي ، في قرية تمنع (التانعة) شرقي المعرة ، وشتتت شمله كما قدمناه في حديث المعرة . وفي الطبري حكاية عن سيدة هاشمية سباها هؤلاء

القرامطة في سلمية إذ ذاك ، وبعد أن كادوا يقتلونها استطابها أربعة منهم ، وواقعوها معاً مدة مديدة ، إلى أن وضعت غلاماً لم تدر من أي الأربعة هو .

ولم يـذكر الطبري ولا غيره من مؤرخي العرب ـ الـذين دأبهم ويـا للأسف سرد الحوادث دون تعليلها ـ أسباب فتك القرامطة ببني هاشم ، هذا الفتك المريع ، وفي ظني أن ذلك لكونهم من أقارب مناوئيهم الخلفاء العباسيين ، ولم يـذكر الطبري أيضاً ما إذا كان القرامطة خربوا سلمية وقتئذ ، وقضوا على مباني الهاشميين وقنيهم وبساتينهم الجميلة ، أم اكتفوا بتقتيل سكانها وإخلائها ، فلم نعلم متى عاد السكان والعمران إليها بعد خرابها الثاني ، وقد تقدم أن الأول كان في القرن الأول الهجري ، بدأ من أواخر عهد البيزنطيين ، وهل كانت في القرن الرابع آهلة أم خالية ، لاسيا حينما جاءها سيف الدولة بن حمدان سنة ٣٤٤ هـ ، وهو يطارد أعراب البادية ، الذين شقوا عصا الطاعة عليه ، وكانوا جعلوا مقرهم في سلمية ففتك بهم في معركة جرت في المروج الممتدة حولها ، فامتدحه المتنبي بقصيدة جاء فيها :

فأقبلها المروج مسومات ضوامر لا هزال ولا شيار
تثير على سلمية مسبطرا تناكر تحته دون الشعار

وسكتت التواريخ عن سرد أحداث سلمية ، في أوائل القرن الخامس وأواسطه ، إلى أن قالت : أن سلمية كانت في أواخر القرن المذكور ، من أعمال الأمير البدوي (خلف من ملاعب الكلابي) صاحب حمص ، استحوذ عليها سنة ٤٧٦ هـ ، إلى أن جاء (تتش أخو السلطان ملكشاه السلجوقي) واستخلصها هي وحمص من يده ، لكثرة عيثه وإفساد السابلة . وفي سلمية من عهد الأمير خلف المذكور ، مسجد خراب سنأتي على وصفه . وظلت سلمية تعد من أعمال حمص كالسابق ، ويذكرها المؤرخون الفينة بعد الفينةُ ، في سياق أحداث حمص . ففي سنة ٤٩٦ هـ دخلت في حوزة (رضوان بن تتش السلجوقي) صاحب حلب . وفي القرن السادس في سنة ٥٠٧ هـ جاءها (الأتابك طغتكين) صاحب دمشق للقاء (مودود) صاحب الموصل ، الذي كان استدعاه لنجدته في حرب الصليبيين ، فاجتمعا ببرج سلمية ، واتفقا وسارا للحرب الذي جرى غربي طبريا وظفرا . وفي سنة ٥٣٢ هـ جاءها عماد الدين زنكي ، وقد كان يحاصر حمص ، وتركها لما بلغه قدوم جيوش

الروم إلى حلب ، ثم خرج من سلمية لمقاتلتهم ، حينما وصلوا إلى شيزر (ابن الأثير ٩ / ٣٦) . وفي سنة ٥٧٠ هـ استخلص (صلاح الدين الأيوبي) سلمية من يد (فخر الدين ابن الزعفراني) أحد أمراء (نور الدين محمود) ، كما استخلص منه حمص وحماة وغيرها ، ثم أقطع في سنة ٥٧٤ هـ حماة وسلمية إلى ابن أخيه (الملك المظفر تقي الدين عمر) فصارت من أملاك هذا الفرع الأيوبي ، المعروف بالتقوي ملوك حماة .

ولما توفي الملك المظفر تقي الدين عمر سنة ٥٨٧ هـ ، خلفه ابنه المنصور (ناصر الدين محمد) في ملك حماة وسلمية والمعرة وغيرها . وفي آخر عمره ، عهد بالملك لولده (المظفر محمد) وحلف الناس على ذلك ، لكنه لما توفي سنة ٦١٧ هـ خالفه وزراؤه ، وولوا ابنه الثاني (الناصر قليج أرسلان) فذهب المظفر إلى مصر ، واستجار بالسلطان الملك الكامل ، أعظم ملوك الأيوبيين في مصر والشام في تلك الحقبة ، وأقام في خدمته . وفي سنة ٦١٩ هـ جاء الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، وحاصر ابن أخته الناصر صاحب حماة ، لإخلاف الناصر بوعده في دفع مال مشروط ، ولما لم ينل مأربه ، ارتحل إلى سلمية ، واستولى على حواصلها العائدة للناصر ، وأقام مدة مخيماً في مروجها ، يتأهب لحصار حماة ، إلى أن جاءه أمر الملك الكامل بالارتحال عنها ، فارتحل وأمر الملك الكامل بإبقاء حماة بيد الناصر ، وتسليم سلمية إلى أخيه المظفر ، فتسلمها وأرسل إليها وهو بمصر نائباً عنه . ثم في سنة ٦٢٦ هـ جاء الملك الكامل إلى سلمية ، وبعث منها إلى حماة بجيش ، سلم قيادته إلى (أسد الدين شيركوه) صاحب حمص ، وهو حفيد (شيركوه الأول) عم صلاح الدين الأيوبي ، وأمره بحصار حماة ، فاستسلم الناصر وسلم حماة ، فأمر الملك الكامل بإعادة المظفر إليها ، على أن تنزع سلمية منه ، وتسلم إلى شيركوه . فصارت سلمية من ذلك الحين علة الشحناء بين أبناء الأعمام ، ملوك حمص الأسديين وملوك حماة التقويين ، وزادت الشحناء بعد أن عمّر شيركوه سنة ٦٢٧ هـ قلعة شميميس . ويظهر أن سلمية ومروجها التي وصفنا ذكاء كلائها ، وغزارة مياهها ، وصلاحها لمرور الجيوش ورتعها ، كانت تعجب الملك الكامل ، فقد جاءها للمرة الثانية سنة ٦٢٩ هـ ، ونزل فيها في طريقة إلى آمد (ديار بكر) ، واجتمع فيها ملوك أهل بيته في جمع عظيم ، وجاءها للمرة الثالثة أيضاً سنة ٦٣٠ هـ ، لما ذهب لقتال الملك (كيقباذ السلجوقي) .

إن الآثار العربية الباقية حتى الآن في سلمية ، وسنأتي على وصفها ، وكذا كلمة الحواصل ، التي ذكرت بأن الملك المعظم عيسى استولى عليها ، وقول أبي الفداء في تقويمه ، بأنها كانت في زمنه ذات نزهة ، ومياهها قنيّ وبساتينها كثيرة ، تدل على أن سلمية سعدت في عهد الأيوبيين ، في بعض القرن السادس وأكثر السابع ، كما كانت سعدت في عهد الهاشميين ، وازدانت بالمياه والأشجار ، وحفلت بالمباني ومستودعات الحبوب ، التي لم تتجاوز على ظننا بكبرها وحسن بنائها ، درجة بليدة زراعية .

ولما جاء التتار في عهد هولاكو وغازان ، كانوا كثيراً ما يجعلون سلمية ومروجها ، ممر جيوشهم الزاحفة من حلب إلى حمص ودمشق ، وما بعدهما . ولما كسرهم الملك المظفر قطز سنة ٦٥٨ هـ في معركة عين جالوت (بيسان) ، كان اشترك بهذه المعركة ، الأمير مهنا آل الفضل من ربيعة من طي من كهلان ، فأجازه الملك المذكور ، بأن نزع سلمية من يد الملك المنصور صاحب حماة ، وأقطعها لمهنا الذي كان أمير عرب الشام (أبو الفداء ٣ / ٢١٤) ، وبقيت سلمية من ذلك الحين في يد هذا الأمير ، ويد ابنه عيسى وحفيده مهنا ، وأعقابه من بعده ، ولما كسر ملكا حمص وحماة الأيوبيان التتار ثانية سنة ٦٥٩ هـ ، في ظاهر حمص ، انضم « من سلم من الكسرة إلى باقي جماعتهم ، وكانوا نازلين قرب سلمية ، واجتمعوا ونزلوا على حماة ، وحاصروها يوماً ثم لما دوفعوا رحلوا عنها » (أبو الفداء ٣ /٢١٩) . وقد نال التتار من سلمية ، ومن قلعة شميميس إذ ذاك ، كما نالوا من بقية بلاد الشام وقلاعها ، فانحط شأنها .

وقد سكتت التواريخ عن بيان شيعة السكان ، الذين كانوا في سلمية على عهد (خلف بن ملاعب الكلابي) ، والملوك الأيوبيين ، والسلاطين المماليك . وقد ثبت لي بالاستقصاء ، أن سلمية لم يقطنها الإسماعيلية قط في تلك العهود ولا في قبلها ، خلا مدة لاتزيد عن ربع القرن ، قبل حادثة القرامطة ، ريثما بثوا دعوتهم ، ثم اضطروا لمغادرتها هرباً من الخليفة المكتفي ، فذهبوا مع عبيد الله المهدي إلى المغرب ، كما قدمنا . أما في العهود التي ذكرناها ، فلم تكن سلمية صالحة لسكناهم في حال ؛ لأنهم بعد أن نفروا في أواخر القرن الخامس من بلاد فارس ، على أثر تضعضع أحوالهم فيها ، نزلوا حلب في عهد صاحبها الملك (رضوان بن تتش) السلجوقي ، الذي أغضى عنهم ، وأراد اتخاذهم حزباً له

ضد مناوئيه ، فقبل دعوتهم على ماقيل ، واستمالوا إليهم خلقاً كثيراً في حلب وجبالها الغربية ، وكذلك عمل بعد حين في دمشق (المزدقاني) وزير تاج الملوك (بوري بن طغتكين) صاحب دمشق ، فأفسح لهم المجال في دمشق ، وملكهم قلعة بانياس . ولما كثر عددهم ، واستفحل أمرهم ، صاروا يناوئون المسلمين المنهمكين في مدافعة الصليبيين ، ويغتالون خيار ملوكهم وأمرائهم ، كما كانوا يعملون في بلاد فارس والعراق ، يدفعهم إلى ذلك ذوو المآرب السياسية والغايات الحزبية ، حتى ضاقت بهم الصدور ، ووضع السيف فيهم مراراً ، كما جرى في حلب سنة ٥٠٧ هـ ، وفي دمشق سنة ٥٢٢ ، فاضطروا لهجر المدن الداخلية ، والاعتصام بجبال اللاذقية وقلاعها ، فتملكوا سنة ٥٢٧ هـ بزعامة مقدمهم (راشد الدين سنان) قلاع هذه الجبال ، التي دعيت بقلاع الدعوة ، وأخصها القدموس ومصياف ، والخوابي والعليقة ، والمنيقة والكهف ، والرصافة وأبو قيس ، وغيرها ، وصاروا يهبطون منها ، ويحاربون من يجاورهم من المسلمين والصليبيين ، وجاءهم سنة ٥٧٢ هـ السلطان (صلاح الدين الأيوبي) يثأر منهم محاولة اغتياله ، فضربهم وحاصر قلعة مصياف ثم تركهم بشفاعة خاله (شهاب الدين الحارمي) صاحب حماة . وما زال هذا ديدنهم ، يَقْتلون ويُقْتلون ، حتى دهمتهم جيوش الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧ و ٦٦٨ هـ ، فخضدت شوكتهم بالكلية ، وتسلمت قلاعهم وبلادهم ، فلم تقم لهم بعد ذلك الحين قائمة ، (أبو الفداء ج ٣) ، فقوم هذا ديدنهم ، يحتاجون لقلاع حصينة ، صعبة المرتقى ، بعيدة عن متناول الملوك الأيوبيين ، والسلاطين المماليك ، الذين كانوا لا يفتؤون عن حسم بائقتهم ورد عاديتهم ، وسلمية الجاثمة وسط سهل أفيح ، ليست بمعتصم يمكن أن يلوذ به أمثال هؤلاء .

وبعد أن كان جل الملوك الأيوبيين يزور سلمية ، ويمر بها في طريقه إلى الشمال لم يذكر المؤرخون أحداً زارها من السلاطين المماليك ، إلا الأشرف خليل ، وذلك لما قدم من مصر إلى دمشق ، فحمص سنة ٦٩٢ هـ ، ولبى دعوة الأمير مهنا بن عيسى ، وبقي في ضيافته ثلاثة أيام بلياليها ، ثم بدا له أن يقبض على هذا الأمير ، وعلى أخويه محمد وفضل ، فقبض عليهم ، وأرسلهم معتقلين إلى مصر ، فظلوا فيها سنتين ، إلى أن أطلقهم الملك العادل (كتبغا) حين جلس فعادوا . ولم يذكروا ماإذا كان الظاهر بيبرس زارها ،

لما أمر بترميم قلعة شميميس ، أسوة بغيرها من قلاع الشام ، التي خربها التتار ، وقد يكون زارها .

وزاد انحطاط سلمية بعد استقرار آل عيسى بن مهنا فيها ، لأنهم بادية ، والبادية من طبعها الحط والغض ، لكن سلمية لم تخرب على ما يظهر ، ويهجرها أهلها للمرة الثالثة إلا في منتصف القرن الثامن ، حينما اختلت إدارة السلاطين المماليك في مصر والشام ، وازدادت فتن آل عيسى المذكورين ووثب بعضهم على بعض . قال ابن الوردي في تاريخه في أحداث سنة ٧٤٨ هـ : « وفي هذه السنة ، اقتتل سيف بن فضل أمير العرب وأبناء عمه أحمد وفياض ، في جمع عظيم قرب سلمية ، فانكسر سيف ، ونهبت جماله وماله ، ونجا بعد (اللتيا والتي) في عشرين فارساً ، وجرى على بلد المعرة وحماة وغيرها ، في هذه السنة ، من العرب أصحاب سيف وأحمد وفياض من النهب وقطع الطريق ، ورعي الكروم والزرع ، والقطن والمقاتي ، ما لا يوصف » ا هـ . ولا يبعد أن يكون الطاعون الهائل ، الذي اجتاح سنة ٧٤٩ هـ بلاد الشرق الأدنى ، ومنها مصر والشام ، نال من سلمية والقرى التي حولها ، وأقفرها من سكانها الباقين ، وكذلك ربما كان لجيش التيمورلنك أثر في الإجهاز عليها ، حينما مر بها سنة ٨٠٣ هـ ، في طريقه من حلب إلى دمشق ، فأصبحت بعد هذه الأوبئة والفتن خراباً يباباً .

وظل هذا الخراب في سلمية مستمراً خمسة قرون ونيف ، وهي في حوزة آل عيسى بن مهنا ، الذين تغير اسمهم في القرن التاسع ، وصاروا يدعون بآل جبار ، وهم بطن من أولئك ، كما هي العادة عند البدو ، تتغير أسماؤهم في كل مدة تبعاً للمتأمر عليهم ، ثم صاروا يدعون في القرن العاشر بآل أبي ريشة ، وهم فخذ من آل جبار ، أعقاب عيسى بن مهنا ، وصارت الأعراب الملتفون حولهم يدعون بالموالي ، وظل هؤلاء يضربون في أرجاء سلمية ، ويرعون أنعامهم بين أطلالها ، لأنها صارت في عهد العثمانيين إقطاعاً ومنزلاً لهم ، كما كانت في عهد المماليك ، وذلك لقاء أتاوات كانوا يؤدونها للحكومة العثمانية ، التي عدت براري سلمية وخربها الداثرة لواء أتبعته كحماة وحمص بأيالة طرابلس الشام . قال (كاتب جلبي) صاحب (كشف الظنون) المتوفى سنة ١٠٦٨ هـ في جغرافيته (جهان نما) : وما برح هذا اللواء - يعني سلمية - في حوزة أمراء الموالي ، وهؤلاء الأمراء ينتسبون لآل الحيار

ـ وصحيحه أن يقول آل الجبار ـ من قبائل العرب ، وهم ينقسمون إلى فرقتين آل حمد وآل محمد ، وتصل مناطق نفوذهم إلى ضواحي حلب والرقة . إلى آخر العبارة التي أوردناها في مقالنا ، الباحث عن هؤلاء الأمراء وأحداثهم ، المندرج في مجلة الثقافة (ج ١ عدد ٧ وما بعده) تحت عنوان (صفحة من تاريخ أعراب شمالي الشام) .

وفي القرن الحادي عشر ، سيطر الأمير فخر الدين المعني سيد جبل لبنان في تلك الحقبة ، على بلاد حمص وحماة ومنها سلمية ، وحالفه أمراء الموالي آل أبي ريشة ، وصادقوه وهادوه ، واستنجد به مرة كبيرهم الأمير (مدلج) لما نازعه ابن عمه (حسين) على الإمارة وحاربه ، فجاء المعني بعسكر وفير سنة ١٠٣٣ هـ لنجدة (مدلج) ، فأضافه مدلج ضيافة عظيمة في سلمية ، وأهدى إليه الفرس سعدة المشهورة (تاريخ حيدر الشهابي) ، وبعد سنتين انتقض مدلج ، وقومه على الأمير فخر الدين ، وتمنعوا عن تقديم الذخيرة التي طلبها منهم ، فلحقهم حتى عبرهم النهرين ، ثم رجعوا إلى ديارهم ، بعد أن قضت عليه الدولة .

وبينما كان أعراب الموالي يرتعون في سلمية وبراريها ، ويصل نفوذهم من أبواب حمص وحماة ، إلى ضواحي حلب والرقة ، كما قال (كاتب جلبي) في جغرافيته ، وأطراف نجد والعراق ، كما يرويه شيوخ الأعراب الحاضرين ، وإذا في أواخر القرن الحادي عشر ، تفد نحوهم قبائل شمر ، النازحة من نجد ، طلباً لبقاع أمرع من التي كانوا فيها ، وتحاول النفوذ إلى أرياف حمص وسلمية والاستقرار ، فصدتها قبيلة الموالي ، وردتها على أعقابها بعد حروب دامت عشرات من السنين . وما أن استراحت منها ، حتى فوجئت في أواخر القرن الثاني عشر ، بقبائل عنزة النازحة من نجد ، هرباً من الوهابيين ، الذين ظهروا قبيل ذلك ، واشتدت وطأتهم ، فصمدت الموالي لعنزة أيضاً ، ولكنها أمام تدفق جموعها ، وبعد حروب طويلة ، اضطرت لمصانعتها ، وإخلاء قسم من ديار حمص ، لبطن منها يدعى الحسنة ، ثم توالت غارات عنزة ، ومن ورائها الوهابيون ، الذين كانوا يلحقونها أحياناً إلى هذه الربوع ، حتى اضطرت قبيلة الموالي في أواخر القرن الثالث عشر ، إلى أن تخلي سلمية ، وتنسحب نحو الشمال ، إلى بقاع أكثر وعورة ومنعة ، في كورة العلا التي تقدم بحثها في (الصفحة ١٩٩) .

وكان إسماعيلية جبال اللاذقية ، عقيب الضربات التي أنزلها الملك الظاهر بيبرس

بهم ، واستمرار سيف الرقابة مسلطاً عليهم في عهد السلاطين المماليك ، خفت صوتهم ، وزالت روعتهم ، وكانت العداوة والبغضاء متأصلة بينهم وبين النصيرية ، بحكم المجاورة والمنازعة على سكنى جبال اللاذقية الضيقة ، غير الكافية لتبسط الفريقين ، ولطالما نشبت الفتن والحروب في عهد الأيوبيين والمماليك ، واشتد أوارها خاصة في عهد العثمانيين ، واستولى النصيرية مراراً على القدموس ومصياف ، وبقية بلاد الإسماعيلية ، وهؤلاء يستردونها بمعونة الدولة العثمانية التي كانوا يلتجؤون إليها ، وتمدهم بقواها ، وأجل الوقائع الجديرة بالذكر ، على ما جاء في كتاب (تاريخ العلويين) ، لمحمد أمين الطويل ، ما جرى في القدموس سنة ١١٠٠ هـ ، وكانت إذ ذاك بيد النصيرية ، فهاجمها الإسماعيلية لما كان أولئك منصرفين إلى صلاتهم في يوم الغدير ، وذبحوا عدداً وفيراً من مشايخهم وعامتهم ، ونهبوا أموالهم وسبوا نساءهم ، واستولوا على سيف قديم ، لأحد أئمتهم ، وعلى كتبهم الدينية ، وعلى القدموس وما جاورها ، وبعد مرور أكثر من قرن ، عامل النصيرية الإسماعيلية بالمثل ، فدخل فريق منهم سنة ١١٢٥ هـ إلى قلعة مصياف ، متظاهرين بالالتجاء ، وعلى حين غرة فتكوا بسكانها الإسماعيلية ، فاضطرت الدولة العثمانية بعد بضع سنوات ، لأن تسوق جنداً كثيراً لاسترداد مصياف ، وإعادتها إلى أصحابها القدماء (كتاب تحقيق في بلاد الشرق لموريس باريس الإفرنسي ص ١٢٤) .

وقد زادت هذه الوقائع المتوالية ، في خفض شأن الإسماعيلية واستكانتهم ، وجعلتهم يرنون نحو سهول شرقي العاصي في لهفة ، ويترقبون الفرصة ليعمروا سلمية ، إحياء لبليدة كانت منشأ شيعتهم ، وتوسعاً في الأرضين ، وتخلصاً من مجاورة أخصامهم النصيرية ، لا سيا وهم أقل عدداً ، وأضعف حولاً منهم .

ولما رأوا أن سلمية خلت من أعراب الموالي ، واستتب الأمن والنظام في الجملة في عهد السلطان عبد المجيد ، طلبوا من الدولة بلسان أحد أمرائهم ، وكان من إحدى ضواحي قلعة الخوابي واسمه إسماعيل ، أن يعمروا سلمية الخربة ، فسمحت الدولة لهم بذلك ، وأيدتهم على أن يسموها (مجيد آباد) ، تنويهاً بعمرانها في عهد السلطان عبد المجيد ، فجاء هذا الأمير ونفر من عشيرته الأقربين إلى سلمية ، بين سني ١٢٦٠ و ١٢٧٠ هـ ، واعتصموا بادئ بدء في الحصن الذي هدم ، وبني مكانه دار للحكومة ، وشرعوا يزرعون حوله ، ويدرؤون

عن أنفسهم عيث البادية ، وصار هذا الأمير يلتقط أبناء جلدته من جبال اللاذقية ، ويكرههم على المجيء إلى سلمية وامتلاك الأرضين فيها ، وهم يأبون لبعدها ووحشتها في تلك الحقبة ، إلى أن استمرؤوا طعم المواسم الخصبة ، في تلك الأرضين ، المستريحة منذ قرون ، فصاروا ينسلون ويزدادون ، ولما ضاقت بهم سلمية ، صاروا يمتدون نحو الشرق ، يعمرون القرى الخربة ، ويفجرون القني الداثرة ، حتى كثر سوادهم . ولما استقر أمرهم ، جعلت الحكومة سلمية في غرة قرننا الحالي قضاء ، لكنها أهملت اسم مجيد آباد ، ودعته باسم سلمية الأصلي ، وأتبعته بلواء حماة . وسعد حال الإسماعيلية في هذا القضاء في الجملة ، في العقد الأول من هذا القرن ، لاسيا وقد كانوا مستثنين من الجندية ، وآمنين من عيث البادية ، بفضل القرى الشرقية ، التي عمرها السلطان عبد الحميد ، وضمها لأملاكه الخاصة ، وحماها بجند خاص ، كان يركب البغال وله ثكنات ومخافر على سيف البادية . ولم ينغص عيشهم شيء سوى ماحدث سنة ١٣١٦ هـ ، فقد كان رجع قبلها بعض مشايخهم من الهند ، يدعون لبدع جديدة في مذهبهم ، أساسها الغلو في تعظيم إمامهم ، القاطن في الهند وجمع الزكاة له ، فرأت الحكومة العثمانية في هذه الدعوة ، والجمع مارابها ، ودفعها لاضطهادهم ، فسجنت أولئك المشايخ ، وبعض خاصتهم في دمشق ، وطارد جندها الذين شردوا منهم إلى جبل البلعاس والفيافي الشرقية ، ومات بعض المسجونين ، وقتل بعض الشاردين ، وظل الباقون بضع سنوات ، إلى أن أعلن الدستور سنة ١٣٢٥ هـ ، فعادوا لاستقرارهم ودعوتهم ، وعكف المشايخ المذكورون على جمع أموال الزكاة ، ولما حاولوا سنة ١٣٢٦ هـ إرسالها إلى الهند ، صادر متصرف حماة ناظم بك هذه الأموال التي قدرت بما يقرب من عشرة آلاف ليرة ذهبية ، وسعى لإنفاقها في إنشاء المدرسة الزراعية التي بحثنا عنها ، وتوفق قائم مقام سلمية وقتئذ الأمير إسماعيل الشهابي ، لأخذ قطعة أرض لها ، تبلغ نحو ألف دونم ، تبرع بها الأهلون في سلمية ، وخصصت لها الحكومة العثمانية النفقات السنوية اللازمة ، فتم بهمة المتصرف والقائم مقام المذكورين ، إنشاء هذه المدرسة ، التي بعد أن ازدهرت وأفادت سلمية وغيرها نحو ربع قرن ، أغلقت للأسباب التي ذكرناها في فاتحة كلامنا .

وعقيب احتلال الإفرنسيين لبلاد اللاذقية سنة ١٣٣٧ هـ ، عادت الفتن ، وتيقظت بين الإسماعيلية والنصيرية في تلك البلاد ، فتداخلت السلطة الإفرنسية لإخمادها وساقت

الجنود ، وكان الإسماعيلية يتطوعون في صفوفها ، والنصيرية ثائرين عليها . وحاصر النصيرية القدموس سنة ١٣٣٨ هـ ونهبوها ، وألجؤوا سكانها الإسماعيلية للهجرة ، إلى بقية بلاد أبناء شيعتهم ، لاسيا إلى أنحاء سلمية . ولما رأى هؤلاء المهاجرون الرخاء والخصب في سهول هذه الأنحاء الواسعة ، والعزة التي نالها السلميون من السلطة الإفرنسية لقاء خدمتها ، وتفانيهم في إخماد ماقام في وجهها من الثورات العديدة ، وأجلها تلك التي نشبت في أكثر بلاد الشام ، ودامت في سنتي ١٣٤٣ و ١٣٤٤ هـ ، هي أكثر منها في قراهم الغربية الجبلية الضيقة ، كثر توافدهم وتوالت هجرتهم ، حتى تضاعفت جسامة سلمية بهم ، عما كانت عليه إلى حدود سنة ١٣٤٢ هـ ، وامتدوا إلى القرى الشرقية والخرب الداثرة يعمرونها ، حتى صار قضاء سلمية في يومنا ، موطناً كبيراً للإسماعيلية[1] ، أكثر وأمنع مما هو في جبال اللاذقية .

ويفترق الإسماعيلية من حيث المذهب ، إلى حجاوية وسويدانية ، فالحجاوية أتباع الحاج (خضر) المتوفى منذ قرنين ، والذي من أعقابه ، المشايخ الحاليين للنحلة الحجاوية . والسويدانية أتباع الشيخ (سويدان) القدموسي ، ولا يزال فيها من أعقابه جماعة ، ويعتقد الأولون بألوهية إمامهم آغاخان ، الزعيم الهندي المعروف ، في أفخم النوادي وميادين سباق الخيل ، في إنكلترا وفرنسا ببذخه وترفه ، ويؤدون له الزكاة ، ولهم معتقدات وصلوات خاصة ، يقيمونها في بيوت لا يعرفها ولا يدخلها إلا هم ، يدعونها (معبداً أو جَمعة) بفتح الجيم ، يرتادونها مرتين في اليوم ، قبيل الفجر وعقيب الغروب ،

---

(١) يقطن الإسماعيلية في جبال اللاذقية ، في ناحيتي القدموس والخوابي ، وفي قلعة مصياف . ولهم في الأولى اثنتا عشر ضيعة منها : القدموس وكاف الحمام ، وزريقة وقلعة العليقة وغيرها ، وفي الثانية سبع عشرة ضيعة منها : عقر زيتي وخربة الفرس ، وبريكية وجماشية ، ومازوغا وغيرها ، ماخلا قلعة الخوابي التي أهلها سنية . ويقدر مجموع الإسماعيلية في هاتين الناحيتين بأربعة آلاف . وليس في قضاء مصياف ، سوى قلعة مصياف وحدها ، آهلة بهم ، وهم لا يتجاوزون فيها الألفين . أما في قضاء سلمية ، فلهم من القرى الخاصة بهم : سلمية وتل الدرة والكافات ، وبرى الغربي وبرى الشرقي ، وتل التوت والصفاوي ، ومفقر الشرقي ، ومفقر الغربي ، وأبو حبيلات وعقارب الصافية ، وجينه العلباوي وسعن الشجرة والعميا ، وما عدا ذلك فلهم ثمة ضويعات ومزارع صغيرة خاصة ، كما أنهم في بعض القرى ، كتل الجديد وجدوعة ، وقبيبات والمبعوجة ، وأم خريزة يؤلفون ربع أو نصف أو ثلثي سكانها ، وما عداهم إما سنية ، أو نصيرية . ويقدر مجموع الإسماعيلية في قضاء سلمية بأربعة عشر ألفاً ، فيكون مجموعهم في جبال اللاذقية وسهول سلمية كلها عشرين ألفاً .

فيلتف الرجال ووراءهم النساء ، حول مائدة عليها صور شمسية لإمامهم آغا خان ، وبعد أن يقرؤوا أدعية باللغة الأوردية ، يؤدي كل منهم الزكاة ، وهو خمس ماجناه في ذلك اليوم ، مهما تفه ، ويرسل مجموعه في آخر العام إلى الهند ، والثانون يكادون لا يتميزون في مظهرهم عن أهل السنة ، بإقامة الشعائر الإسلامية في الجوامع إلا بكونهم إمامية ، لكنهم لم يجدوا في زعمهم حتى الآن من هو أهل للإمامة ، لذلك فهم لا يذعنون لآغا خان ولا يشاطرون الحجاوية آراءهم قط ، والنفور من جراء هذا التباين ، سائد بين النحلتين . وكل سكان سلمية وقراها القدماء ، وسكان ناحية الخوابي من الفريق الأول ، بينما القدموسيون والمصيافيون من الفريق الثاني . ويفترق الإسماعيلية أيضاً بحسب الطبقات ، إلى عامة وخاصة ، فمن خاصتهم المشايخ ذوو الزعامة الروحية ، بينهم من هو مخصص بجباية أموال الزكاة لآغا خان وإيصاله إلى الهند ، والأمراء ذوو الزعامة الزمنية ، وهذه الإمارة مختصة بأفراد قلائل ، يتوارثونها منذ قرون ، على أنها مابرحت غامضة الأرومة والسلسلة .

ويغلب على الإسماعيلية طول القامة وعرض الهامة وصحة الجسم ، ويمتاز نبلاؤهم بزرقة العيون وشقرة الشعور ، وهم في الجملة ذوو شمم وجفاء ، وعندهم شجاعة وعصبية ، ينقادون إلى مشايخهم وأمرائهم ، ويتضامنون في الدفاع عند الطوارئ ، لذا ترى قراهم ومزارعهم في أمن من عيث البادية ، وجشع سراة الحضر . وعدد متعلميهم قليل جداً ، بدأ بالظهور منذ أن أسست المدرسة الزراعية ، وقد نشأت في السنين الأخيرة بمساعي بعض هؤلاء المتعلمين ، حركة إصلاح غايتها الرجوع إلى المبادئ الإسلامية ، بلغني أنها نمت وربت ، وزاد عدد منتسبيها وشأنهم ، وصار يرجى لها نمواً واتساعاً ، يعيدان هذه الطائفة الباسلة إلى الحظيرة القومية .

أما الآثار القديمة في سلمية ، فأجلها القني التي قدمنا ذكرها ؛ وقد كري الآن فيما قيل نحو خمسين منها ، وبقي مثل ذلك أو أكثر . وكان أعظمها وأطولها ، القناة التي كانت تمتد من سلمية إلى حماة ، وتسقي ماكان في شمال حاضرها ، من البساتين والأرضين ، التي استبعلت بعد دثورها . ولم يبق من آثار هذه القناة ، إلا قليل من الآبار الجسيمة ، ترى في طريق حماة بين سلمية وقرية تل الدرة ، ويظن أنها تخص القناة المذكورة ، ويزعم آخرون أنها تخص قناة العاشق ، على أن الظن والزعم المذكورين ، يحتاجان إلى تحقيق ، وكانت هذه القناة من أكبر دواعي عمران حماة ، في عهد ملوكها التقويين الأيوبيين ، خربها الملك

المجاهد (شيركوه) صاحب حمص ، الذي كان عسوفاً لرعيته ، مخاصماً لأبناء عمه التقويين ، لأجل سلمية كما قدمنا ، بلغ بـه الحنق من الملـك المظفر صـاحب حمـاة ، الـذي كان قـادمـاً لمحاصرته بأمر الملك الكامل سنة ٦٣٥ هـ على ماذكره أبو الفداء في تاريخـه (٣ / ١٦٩) أنـه قطع هذه القناة ، ثم عزم على قطع نهر العاصي عن حمـاة ، فسـد مخرجـه من بحيرة قـدس ، التي بظاهر حمص ، فبطلت نواعير حماة والطواحين ، وذهب ماء العاصي في أوديـة بجوانب البحيرة ، ثم لما لم يجد الماء مسلكاً ، عاد فهدم ماعمله صـاحب حمص ، وجرى كما كان أولاً . وقـال أبو الفـداء في حوادث سنـة ٧٢٦ هـ ، ـ يـذكر تنظيفـه لهـذه القنـاة ـ : « وفيهـا في منتصف ربيع الآخر الموافق للحادي والعشرين من آذار ، خرجت بعسكر حمـاة ، ووصلت إلى القناة الواصلة من سلمية إلى حماة ، وقسمتهـا على الأمراء والعسكر ، لينظفوهـا ، فإنها كانت قد آلت إلى الفساد ، بسبب مـااجتمع فيهـا من الطين ، فحرروهـا في نحو أسبوع ، ثم عادوا إلى حماة » ا هـ ..

وفي سلمية عدة أبنية أثرية عربية ، متوسطة الحال ، ليس فيها من الإتقان والجمـال ، الموجودين في الحـواضر مـا يلفت النظر . منهـا الحصن القـديم ، الـذي بقيت أسسـه وبعض أبراجه تختفي وراء الحوانيت ، بني بأنقاض المباني البيزنطيـة والهـاشميـة ، وقـد هـدم خلال الحرب العامة ، واستعملت أنقـاضـه في إشـادة دار الحكومـة الحـديثـة ، وغيرهـا من الـدور الخاصة . أدركنا فيه ثمانية أبراج ، مربعة الشكل ، أربعـة في الزوايـا ، وأربعـة في منتصف الجدران العريضة ، التي كان طول كل منهـا نحو مئـة وخمسين متراً ، وعلوه ٨ ـ ١٠ أمتـار . وكانت الأبراج والجدران المذكورة ، ذات أحجار متوسطة في الضخـامـة ، تحتوي سطوحهـا الظاهرة على عدد من أعمـدة الروابـط ، وكثير من الأنقـاض المزينـة بنقوش سـابقـة للعهـد الإسلامي ، أو بكتابات يونانيـة . وكان المـدخل إلى الحصن في البرج المتوسـط ، من الجهـة الجنوبيـة ، وهو ذو تعـاريـج ، تشبـه مـافي مـداخـل المبـاني العربيـة العسكريـة . لم يعثر الأثريون الـذين زاروا هـذا الحصن ـ ومنهم (هـارتمـان) في غرة قرننـا الحـالي ، و (فـان برشم) في سنة ١٣١٣ هـ ـ على أي كتابة عربية ، تدل على تاريخ بنـائـه ، ولم يجـدوا سوى بعض القطع الكوفية ، التي استعملت في الجـدران ، وهي من العهـد الهـاشمي كما قـدمنـاه وعندي أن هذا الحصن بني في القرن الرابع أو الخامس ، عقيب حادثة القرامطة وقبل مجيء الصليبيين ، إذ لم يكن لسلميـة بعـد أن جـاء الصليبيـون مكانـة حربيـة ، تضطر أصحـابهـا

لإشادة هذا الحصن ، لاسيا ولم يكن فيه شيء من مزايا الهندسة العسكرية ، التي كانت سائدة في عهد الأيوبيين والماليك ، ومن نماذجها قلعة شميميس المشرفة على سلمية . وكان في جنوبي هذا الحصن ، قبو كبير اتخذه السنية ، بعد تأسيس القضاء مسجداً ، واتخذت الحكومة سطحه داراً لموظفيها . وفي وسط سلمية حمام عربي قديم ، وجدوه في بدء عمران سلمية الأخير على حالته الحاضرة ، فنظفوه وما برحوا يستعملونه ، وهو يماثل على صغره حمامات المدن الكبيرة بأقسامه ، وإتقان بنائه ، ويشهد بما كان لسلمية وأهلها في عهد الأيوبيين من الحضارة والرفه ، وعلى يسار بابه حجر ، منقوش عليه كتابات كوفية ، لاتحوي تاريخاً ، مما يدل على أن الحجر من عهد الهاشميين ، ومستعار من مكان آخر . وثمة جامع خراب يظهر من هيئة قسمه الشرقي ، أنه كان كنيسة في ضمنها أعمدة ممدودة ، ومنتصبة من أحجار البازلت الأسود والغرانيت الأحمر ، وفي قسمه الغربي قبة عالية من الآجر ، نصفها مهدوم ، تحتها أضرحة إسلامية لأناس مجهولين ، زعموا أن صاحب الضريح الأكبر الذي يخطئ سكان سلمية بنسبته إلى الإمام إسماعيل ، هو أحد بني هاشم الذين كانوا في سلمية في القرن الثالث ، واسمه رضي الدين عبد الله بن أحمد الوفي بن محمد التقي بن محمد المكتوم بن إسماعيل وقد توفي قبيل حادثة القرامطة أو أثناءها ، وعلى عتبة باب القبة ، زبرت كتابة كوفية تاريخها سنة ٤٨١ هـ ، قرأنا منها بعد الجهد الكلمات الآتية : « (السطر الأول) بسم الله الرحمن الرحيم عمل هذا المشهد ... المباركة ... العابد الأجل أبو الحسن علي بن حرمل ... (السطر الثاني) ... صانعه الأمير الأجل ... الملك سيف الدولة خلف بن ملاعب ، أدام الله علوه في سنة إحدى وثمانين وأربعمئة » ا هـ . دلت كلمة المشهد الواردة في هذه الكتابة ، على أن أصحاب الأضرحة الراقدين تحت القبة شهداء ، ولكنها لم تذكر أسماءهم لنعرف من هم ، ومن هو أبو الحسن علي بن حرمل ، ولعلهم من سادات بني هاشم الذين قتلهم القرامطة سنة ٢٩٠ هـ ، ودفنهم من نجا من القتل ، أو من تدير سلمية بعدهم ، في هذا المكان ، أو لعلهم التابعون الذين ذكرهم ياقوت في معجمه . ودلت هذه الكتابة ، على أن سلمية كانت كحماة تتبع حمصاً في عهد صاحبها (خلف بن ملاعب) الكلابي الذي قدمنا ذكره . وقيل أن في الزاوية الغربية القبلية ، من خارج حرم هذا الجامع الخرب حجر أسود ، زبر عليه باليونانية ماتعريبه : هذا باب الله ، من تكلم الصدق ، وسار على الحق دخل منه . وفي إحدى دور سلمية ينزل من فوهة بئر إلى

مسجد صغير تحت الأرض ، يدعى الباسطية ، معقود ومبلط فيه حوض ماء ومحراب ، وفي ضواحيها إلى الغرب من عين الزرقاء طاحونة قديمة ، تعرف بطاحونة المعبد ، وجد فيها الأثري (هارتمان) في غرة هذا القرن ، أحجاراً عليها كتابات تشبه الطلاسم ، وعمودين من البازلت ، مؤلفين من عدة قطع ، ولهما تيجان كورنتية ، وعلى عامودين أخرين ، كتابات يونانية وكوفية غير واضحة .

وإلى الشمال الغربي من سلمية ، على بعد ثلاثة كيلومتر أكمة عالية جرداء ، من أعضاد جبل العلا ، في ذروتها جامع خرب ، ينسب إلى الخضر ، لا يسع الزائر إلا استغراب الحكمة في بنائه في هذا العلو المقفر ، حجره من البازلت ، وفيه كسور أعمدة حلزونية . وفي غربي جامع الخضر ، تل عال أبيض ، منتصب وسط واد عريض ، أحاطت به أعضاد جبل العلا ، وربضت فوقه (قلعة شميميس) ، ذكرها أبو الفداء في تاريخه في حوادث سنة ٦٢٧ هـ قال : « في هذه السنة شرع صاحب حمص شيركوه ، في عمارة قلعة شميميس ، وكان لما سلم إليه الكامل سلمية ، قد استأذنه في عمارة تل شميميس قلعة ، فأذن له بذلك ، ولما أراد شيركوه عمارته ، أراد الملك المظفر صاحب حماة منعه ، ثم لم يمكنه ذلك ، لكونه بأمر الملك الكامل » ا هـ . وهذا التل ذو شكل مخروطي ، وتأليف جيولوجي غريب ، نادر المثال ، فأسفله من الصخور الجيرية البيضاء ، وقمته من البازلت الأسود ، تظهر الثانية فوق الأولى كطاقية صغيرة سوداء ، فوق هامة كبيرة كللها المشيب ، مما يدل على أن التل كان بركاناً قذف بحممه ، وكان قليلاً فجمد عند الفوهة . وقد نقر مشيدو القلعة في بلعوم هذه الفوهة ، بئراً عظيمة الدائرة ، لا يعرف غورها ، عششت فيها أسراب الحمام البري ، ومهدوا سطح الطاقية ، وبنوا على دائرتها أسوار القلعة وأبراجها وأقبيتها ، وحفروا حول التل خندقاً عظيماً وعميقاً ، يحيط بالقلعة . وإذ لم يبق للجسر والباب ، اللذين كانا في قبليها أثر ، أصبح القاصد لا يبلغها إلا زحفاً لشدة الانحدار . وقد هدم كل الأبراج وأعلى الأسوار ، فصار الزائر لا يرى في داخل القلعة إلا البئر التي ذكرناها ، وأطلالاً وركاماً لجدران متساقطة ، ودعائم متهدمة ، ما خلا قسماً من السور ونوافذ ، فإنه كان ماثلاً ، حينما غادرت سلمية سنة ١٣٤٢ هـ . وموقع قلعة شميميس ذو مكانة حربية ، لا يستهان بها ، تدل على جودة نظر بناتها ، فهي وإن اختفت وراء الآكام المحيطة بها ، تشرف على أبعاد شاسعة ، يصل مداها إلى ضاحية حمص في الجنوب ، وطريق حماة ووادي العاصي في

الغرب ، والسهول الممتدة إلى جبل البلعاس في الشرق ، والطرق الآخذة إلى الأندرين وحلب في الشمال . ولم يذكر أبو الفداء ، ولا غيره من مؤرخي العرب ، من هو (شميميس) الذي نسبت هذه القلعة وتلها إليه ، وربما كان أحد ملوك حمص من آل (شميسغرام العرب) أو غيره ، لأن بناءها وإن كان إسلامياً بحتاً من طراز الهندسة العسكرية ، السائدة في عهد الأيوبيين ، لكن اسم شميميس ، وحصره بتل هذه القلعة دون غيره ، من التلال والآكام المجاورة ، المحرومة من الأسماء ، يذهبان بالظن إلى أنه كان هناك حصن قديم من قبل الإسلام ، خربته عوادي الزمان . فجاء شيركوه في سنة ٦٢٧ هـ ونقضه ، وعمر القلعة الحالية ، لتكون مقابل قلعة حمص التي عمرها هو أيضاً بعد دثورها ، وليبقى مستولياً على سلمية ، فيما إذا أراد المظفر منازعته عليها . وبقيت شميميس في يده ، ويد ابنه المنصور إبراهيم ، إلى أن سلمها حفيده الأشرف موسى في سنة ٦٤٥ هـ إلى الصالح أيوب ملك مصر والشام ، ودخلت سنة ٦٤٨ هـ في حوزة الملك (الناصر يوسف) صاحب حلب ، حفيد الظاهر غازي ، بعد أن عصيت عليه . وفي سنة ٦٥٨ هـ جاء التتر بقيادة (هولاكو) ، فنالوا منها كما نالوا من بقية قلاع الشام ، ثم رممها بعد ذهابهم الملك الظاهر بيبرس ، في جملة مارمم ، وظلت تعد من ممتلكات دولة المماليك المصرية ، بدليل ذكرها في المعاهدة ، التي عقدها الملك المنصور قلاوون مع الصليبيين في سنة ٦٨٢ هـ ، ثم أهمل أمرها ، لما عمت الفوضى بعده ، إلى أن قضت عليها الزلازل وفتن الأعراب . على أن القضاء الأخير لم يتم ، إلا بعد مجيء سكان سلمية الحاليين ، فهم تهافتوا ويا للأسف على تهديمها ، ونقل أحجارها حتى أن بابها الكبير الذي كان ماثلاً في قبليها ، في سنة ١٣١٣ هـ حينما زارها الأثري (فان برشم) قد نقض هو والبرجان اللذان كانا يحرسانه ، وهكذا تندثر الآثار القديمة في بلاد الشام ، بيد جهلاء أبنائه ، وتضيع مفاخر الأسلاف ، دون أن تجد لها شفيعاً أو نصيراً .

وفي شمالي سلمية ، على بعد خمسة كيلو متر ربوة فيها جامع خرب ، ينسب إلى الشيخ فرج (؟) له قبة من الآجر ، أكثرها متهدم ، وله جدران متداعية ، وفي شرقيه ضريح محاط بجدران غير مسقوفة ، صاحبه الشيخ المذكور ، تزوره الأعراب لاسيما الجملان ، إحدى بطون قبيلة الحديديين ، التي تدعي الانتساب إليه ، وأهل القرى لاعتقادهم ببركته ، وفي جنوبي هذا الضريح ، جبانة فيها قبور قديمة وحديثة ، كنت

عثرت بينها سنة ١٣٣٧ هـ على قبر زبر على شاهدته اسم (محمد بن عيسى بن مهنا) المتوفى في رجب سنة ٧٢٤ هـ . واطلعت بعد في كتاب (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) (٦ / ٢٣) على ذكر هذا الأمير ، وأنه دفن في سلمية عند أبيه ، على أنني لم أعثر على قبر الأب ، ولعله درس . وهذا الأب أي عيسى بن مهنا ، هو الذي قدمنا ذكر أبيه مهنا ، وكيفية حصوله على سلمية ، ونزوله هو وعشيرته ، واستيطان أعقابه آل عيسى فيها من بعده ، وتخريبهم إياها ، إلى أن تغير اسمهم كما هي عادة أهل البادية ، وصاروا يدعون بآل أبي ريشة أمراء قبيلة الموالي ، التي قدمنا ذكر أفنادها ومنازلها ، وحديث اقتتالها مع الحديديين ، في بحث كورة العلا (الصفحة ١٩٩) .

الأعراب : لما كنت مدير المدرسة الزراعية في سلمية ، في سني ١٣٣٧ ـ ١٣٤٢ هـ كنت أعجب بحالة الأعراب[1] ، الذين يكثر ترددهم على هذه البلدة النائية ، وتجوالهم في أعمالها ، وتقيظهم في مروجها ، واجتماع رؤسائهم في مؤتمراتها ، وكنت أرغب الاطلاع على أنسابهم وأحسابهم وطبائعهم ، فأتسقط آثارهم ، وأستطلع أخبارهم ، وأكتب ما أراه جديراً بالحفظ ، حتى اجتمع لي طائفة من ذلك ، ربما جعلتها موضوعاً لرسالة خاصة ، أعود لتأليفها وطبعها بعد . وقد وجدتهم ينقسمون إلى ثلاث طبقات :

١ ـ **الأولى** : أعراب البادية أو (البدو) ، ويوصفون بالرحل ، أو الجمالة ـ باصطلاح الإفرنج ـ وهم أهل الخيام أو بيوت الشعر لسكناهم ، والخيل لركوبهم ، والإبل لكسبهم ، يقتاتون من ألبانها ، ويتخذون الدفء والأثاث من أوبارها ، ويحملون أثقالهم على ظهورها ، ويبيعون ذكورها ، لا يدرون أهي خلقت لهم وقبلهم ، أم هم خلقوا لها وقبلها ، ولا يدفعون للدولة سوى ضريبة الودي ، يتقلبون دوماً بين قفار البادية (الحماد) ومشارف الحاضرة (المعمورة) فراراً من حمارة القيظ تارة ، وصبارة البرد أخرى ، وانتجاعاً للمراعي الصالحة للإبل ، كالروثة والنيتون وغيرهما ، مما فيه ملوحة وحموضة . وهواهم في

---

(١) الأعراب بالفتح ، أهل البدو من العرب ، الواحد أعرابي بالفتح أيضاً ، وهو الذي يكون صاحب نجعة وارتياد للكلأ ، سواء أكان من العرب أم من مواليهم ، وقيل من نزل البادية ، وجاور البادين ، وظعن بظعنهم ، فهم أعراب ، ومن نزل بلاد الريف ، واستوطن المدن والقرى العربية ، وغيرها ممن ينتمي إلى العرب ، فهم عرب ، وإن لم يكونوا فصحاء (عن المصباح المنير للمقري الفيومي) .

البادية وآفاقها الشاسعة وحريتها المطلقة ، يحتقرون أهل الطبقة الثانية ، ويدعونهم رعية وشوايا ، لاقتنائهم الشياه والمعز ، يعدون ذلك من أكبر العار ، إذ تمنعهم عن التوغل في البيداء ومدافعة الأعداء ، ويمتهنون أهل الحضر والقرى ، لسكناهم في بيوت الحجر واعتيادهم على الرفه وحماية الدولة[1] ، وهم لا يغشون هذه الحواضر إلا للضرورة في سني المحل والظمأ ، أو لابتياع حاجاتهم ، وبيع جمالهم وأصوافهم . وكثيراً ما يلحق أهل الضياع والمزارع حين مرورهم بها مضرات ، من إفسادهم السابلة ، ورعيهم الزرع مخضراً ، وانتهابه قائماً وحصيداً ، ويتفاقم ضررهم حينما يرون من فوضى الأحكام ، ومسامحة ذوي السلطان فرصة . وهؤلاء في بلادنا ، قبائل عنزة ، أعقاب عنز بن وائل ، النجديو الأصل ، الذين وفدوا تباعاً إلى بلاد الشام الشمالية ، في غرة القرن الثالث عشر الهجري . قيل إن وائل أعقب ولدين عنز ومعاذ ، فعنز أبو عنزة الذين نحن في ذكرهم ، ومعاذ أبو قبائل حرب ، التي منازل بعضها في الحجاز ، وبعضها لا يزال في مواطنه في نجد . وقيل إن عنز أعقب ولدين بشر ومسلم ، فمسلم أبو ضنى مسلم ، وهم فريقان الجلاس والمحلف ، فالجلاس قبيلة الرولة ، والمحلف قبائل الأشاجعة ، والعبدلة والسوالمة ، والولد علي والحسنة ، وبشر أعقب ولدين عمار وعبيد ، فعمار أبو قبيلة العمارات ، وعبيد أعقب ولدين سبيع وفدعان ، ومنهما قبيلتي السبعة والفدعان ، وتسميان ضنى عبيد ، وتدعى هذه القبائل الثلاث أيضاً ضنى بشر .

فمن قبائل عنزة في فيافي حلب من ضنى عبيد ، الفدعان ، وهم فريقان الولد والخرصة ، والمشيخة في الولد ، في عهدنا بيد (مجحم بن مهيد) الذي تقدم ذكر ضياعه (في الصفحة ٢٠٨) ، والمشيخة في الخرصة ، ويسمون ضنى ماجد بيد (مزود بن كعيشيش) ، ومنازل الفدعان جنوبي الجزيرة الفراتية ، وشرقي حلب ، بين الرقة وباليس (مسكنة) ، ويذكر من أفناد الولد : المهيد والروس ، والساري والعجاجرة ، والشميلات ، وينضم إليهم فند يدعى العمور الجراح ، ويدخل في كنفهم حين التشريق

---

(١) انصرف منذ ربع قرن أو أقل بعض هذه القبائل إلى اقتناء الشياه وبعضهم إلى مشاركة أهل الحواضر بتربيتها ، كما أن بعض رؤسائهم تذوق طعم الحرث والزرع وصار من ملاكي الضياع والأرضين ، فخفت بذلك وطأة الحقارة والامتهان اللتين ذكرناهما .

أفناد صغيرة ، ذكرنا أسماء بعضها ، كالأبو خميس والكيار ، واللهيب وغيرها . ويذكر من أفناد الخرصة الغبين والعواد ، والجدع والمجاسرا ، وغيرهم ، ويبلغ مجموع بيوت الفدعان ٣٣٠٠ .

ومن عنزة (ضنى عبيد) في فيافي حماة وسلمية الشرقية (السبَعَة) بكسر السين وفتح الباء والعين ، وهم فريقان ؛ العبدة والبطينات ، والمشيخة في العبدة بيد (برجس بن هديب) ، ومن أفنادهم الرماح والموايجة ، والدوام والوترة ، والمسكة والسبايعة ، والعرفة والعبادات ، منازلهم شرقي الحمراء ، وسعن الشجرة والخرايج . والمشيخة في البطينات بيد (راكان المرشد) ، ومن أفنادهم الكمصة والرسالين ، والمواهيب والمساربة ، يقيظون شمالي سلمية بين قصر ابن وردان والأندرين ، وشرقي حمص بين عقيربات وجب الجراح ، ويبلغ مجموع بيوت السبَعَة ٤٠٠٠ .

ومن عنزة (ضنى مسلم) في فيافي حمص الحسنة ، ٤٠٠ بيت ، خاصة (ابن الملحم) ، وفي فيافي دمشق الرولة خاصة (النوري بن الشعلان) ٢٦٠٠ بيت ، والأشاجعة خاصة (ابن معجل) ٣٠٠ بيت ، والسوالمة خاصة (ابن جندل) ٢٠٠ بيت ، والعبدلة خاصة (ابن مجيد) ١٥٠ بيت ، والولد علي وهم فريقان فريق في مشيخة (ابن سمير) ١٥٠٠ بيت ، وفريق في مشيخة (ابن الطيار) ٤٠٠ بيت ، وينضم إلى الولد علي فند يدعى المساليخ ، في مشيخة (ابن عائش) ٦٠ بيت ، ولكل من هذه القبائل والأفناد أقسام وأبحاث عديدة ، أرجأت ذكرها ، إلى المؤلف الخاص بالأعراب ، الذي ربما أقدمت على نشره بعد .

٢ ـ الطبقة الثانية : أعراب الحاضرة أو (عربان الديرة أو الرعية) النصف رحل ، أو (الغنامة) باصطلاح الإفرنج ، وهم أهل الغنم والمعز ، ومستثمرو الأرضين بالحرث والزرع ، يرحلون في الشتاء إلى البادية ، انتجاعاً لمرعى غنمهم ودفئهم ، ويعودون في الصيف إلى قراهم وضياعهم ، ويأوون إلى الخيام (بيوت الشعر) أو إلى القباب وبيوت الحجر ، حسب اللزوم والفصول ، منهم من يتخذ الحمير في تشريقه وتغريبه أو تنقله ، من مكان إلى مكان آخر ، كأكثر بطون قبيلة الحديديين ، ومنهم من يتخذ الإبل والحمير معاً كبني خالد والنعيم ، والفواعرة وغيرهم . وهم يشبهون في الجملة ، الطبقة الأولى في طباع

البداوة والجلفة ، وانتهاك حمى الطبقة الثالثة ، وأهل الحاضرة عند سنوح الغفلة ، إلا أنهم يختلفون بأنهم لا يعاملون في عرف البادية معاملة أولئك ، فلا يردون النقا ، أي لا يشهر عليهم الحرب ولا يحفظ لهم صحب ، أي لايجار الملتجئ إليهم ، بل لما كانوا (رعية) يؤكلون ولا يأكلون . ويختلفون أيضاً ، بأن لهم استعداداً بارزاً للتحضر ، وعلائق جمة مع أهل مدن حلب وحماة ، وحمص ودير الزور ودمشق ، يشاركونهم في تربية الغنم ، وتجارة السمن والصوف ، التي تدر عليهم وعلى شركائهم في سني الخصب ثروة غير يسيرة ، وبأن لهم قرى وضياعاً ، يقطنون فيها ويستثمرون أرضها ، وإذا شرقوا لا يبعدون كالطبقة الأولى فلا يتعدون جبل البلعاس وجبال تدمر وفيافيها ، وهم يدفعون للدولة عدا ضريبة الأغنام العشر عن الزروع و (الويركو) عن الأرضين فقط .

وهؤلاء في بلادنا الموالي والحديديون ، اللذين تقدم ذكرهم وخبر اقتتالهم (في الصفحة ٢٠٣) ، بيد أن الموالي تشبه الطبقة الأولى والثانية معاً في بعض الأمور ، وتختلف في أخرى . فهم أهل إبل وغنم وقرى ، لكن إبلهم ليست من الوفرة بدرجة البدو ، وتربيتهم للغنم واشتراكهم مع الحضر واستثمارهم للقرى أقل إتقاناً من الرعية ، ومشابهتهم للطبقة الأولى في أنهم يردون النقا ، ويعطون الصحب ، لأنهم أهل حرب وضرب وأقوال وأفعال . ومن هذه الطبقة بنو خالد ، وهم قدماء في شمالي الشام كالموالي ، ذكرهم القلقشندي في كتابه (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب) قال : بنو خالد عرب حمص ، بطن من بني مخزوم ، من قريش من العدنانية ، وهم رهط خالد بن الوليد ، قال الحمداني ؛ وهم يدعون النسب إلى خالد ، وقد أجمع أهل العلم بالنسب على انقراض عقبه ، ولعلهم من ذوي قرابته من بني مخزوم ، قال وكفاهم بذلك فخاراً أن يكونوا من قريش . ومن أفناد بني خالد في ديار حماة وسلمية ـ غير التي عددناها في بحث جبل شحشبو (الصفحة ٢٠٣) ـ الناصر والعليان ، والعكارشة والشقرة ، والغنايم والبياطرة ، والبريكات والطعمة ، والرطوب والبوادي ، والرزيق وغيرها ، وأكبر مشايخهم (محمد بن الباشا عبد الكريم) ، ويبلغ مجموع بيوتهم ٩٠٠ . ومن هذه الطبقة العقيدات قبيلة كبيرة ، منازلها الأصلية في سقي الفرات ، في أنحاء دير الزور ، ومنهم في ديار حماة وسلمية : الدغامشة والأبو سرايا ، والأبو سيف والأبو سلامة ، ومجموع بيوتهم ٣٥٠ ، ويعد من هذه الطبقة النصف متحضرة ، الغنامة القبائل ، التي ذكرناها في أقضية حلب ، كالأبو خميس

والوهب ، والولد علي والكيار واللهيب .

٣ ـ الطبقة الثالثة : الأعراب الفلاحون ، الذين تركوا الحل والترحال وشن الغارات ، وأيقنوا أن العيش الثابت خير من المتقلقل ، وأن يلجأ لحمى الدولة أهنأ بالاً ، ممن يتكل في حمايته على نفسه وعصبيته ، فعمروا الخرب الداثرة ، وهجروا بيوت الشعر إلا قليلاً ، وقطنوا بيوت الحجر أو القباب ، وتوفروا على الحرث والزرع ، أكثر من تربية الماشية . منهم في شمالي الشام : القاطنون في قرى أملاك الدولة ، في أنحاء منبج والباب ، وجبل الأحص ومطخ قنسرين ، والقاطنون في سهل العمق وسهل الروج وسهل الغاب ، وفي أنحاء إدلب وسرمين ، والطار والعلا . وقد قدمنا ذكر أسمائهم ، كل في مكانه ، ومن هؤلاء في أطراف حماة ، قبيلة تدعى التركي ، قلما يشرقون ، بل يمكثون في الغالب غربي العاصي بين حماة وشيزر ، ومثلهم السماطية بين شيزر وأفامية ، وبنو عز الرعية والمشارفة الرعية ، والجملان والخراشين وغيرهم .

وهؤلاء الأعراب على اختلاف طبقاتهم ، وتباين ضعفهم وقوتهم ، ما برحوا على الوتيرة التي عرفوا بها منذ قرون عديدة ، في حب الغارات واستباحة حمى المعمور من البلاد ، والاشتراك بكل انتقاض ، واغتنام فرصة كل فوضى ، والنوال من القريب والغريب على السواء ، واستدرار المغانم والعطايا من أي نبع كان ، والخنوع أمام القوي ، والتنمر في وجه الضعيف . وجلهم في غفلة عن أمور دينه ودنياه ، حتى عن ماضيه ومعرفة نسبه وحفظ حسبه . فقد فقد منهم كثير من الفضائل والمحامد ، التي كانت لأسلافهم في الجاهلية وصدر الإسلام ، وملأت كتب التاريخ والأدب القديمة ، وضعفت وشيجة القرابة اللغوية والجنسية والدينية ، بينهم وبين العرب أهل الحواضر ، بعد أن حالت الدولة المنتدبة في هذه الديار بين البادية والحاضرة ، وقطعت كل صلاتهم مع حكومات الشام ، فربطتها بإدارة خاصة لديها دعتها (إدارة القبائل) ، تشرف على الأعراب كافة ، ولو كانوا من أهل الطبقة الثالثة ، الذين آووا إلى عيش الاستقرار والاستيطان ، فتفصل قضاياهم ، وتتداخل في الكبيرة والصغيرة من كوائنهم ومسائلهم ، وتقف في جانبهم إذا حدث خلاف بينهم وبين أهل الحواضر . بيد أن هؤلاء الأعراب ، بعد أن كانوا على جانب غير يسير من رغد العيش والزهو ، أخنت عليهم سنو الجدب التي توالت ، ثم اشتدت منذ سنة

١٣٥٠ هـ ، وأهلكت من ماشيتهم زهاء تسعة أعشارها ، وقبل ذلك ، كان معين ارتزاقهم الثاني ، وهو الغزو والسلب ، قضت عليه طيارات الدولة المنتدبة ، وراكبو الهجن من جنودها ، فأصبحوا في غاية من البؤس والفاقة وضعة الشأن ، لافرق في ذلك بين جليلهم وحقيرهم ، وقاصيهم ودانيهم . ونعوذ بالله من الخيبة والخسران .

جبل البلعاس : في شرقي سلمية على بعد ٤٧ كيلو متراً منها جبل ، يدعى البلعاس ، يذهب القاصد إليه ، ماراً بقرى بري الغربي ومفقر الغربي ومفقر الشرقي ، ويترك على يمينه قرى بري الشرقي والعوينة ، وأبو دالي وحمادة عمر وغيرها ، ويترك على يساره أرض قرية عقارب الواسعة ، ثم أبي حبيلات وأبي رمال ، إلى أن يوافي عقيربات ، وقد ذكر ياقوت في معجمه عقيربات بدون تاء ، وقال إنها ناحية بحمص ، وهي ضيعة في أقصى العمران ، فيها الآن مخفر للدرك ومدير ناحية ، تتبعه الضياع والمزارع النائية مثلها : كفريتان وعرشونة ، وعكش وأبو حنايا ، وقليب الثور وصلبا ، ومسعدة ومسعود ، ماعدا التي مر ذكرها في الطريق ، وأهل عقيربات جالية من قرية السخنة ، على طريق تدمر ودير الزور ، وقد عرفت بحدوث المعارك الأولى بين قبيلتي الموالي والحديديين ، حينما نشبت الفتنة بينهما في سنة ١٣٣٩ هـ ، وانتقلت إلى أماكن أخرى ، وعمت البلوى منهما ، ودامت إذ ذاك سبع سنوات ، وبعد أن أطفئت عادت تخبو نارها تارة ، وتشب أخرى ، لاسيما كلما وجدت من يوقد شرارها .

والبلعاس يبتدئ من قرب عقيربات ، ويقف حاجزاً بين فيافي البادية وأرياف الحاضرة . وهو مؤلف من آكام وهضاب متسلسلة ، يتخللها أودية تختلف بعرضها وعمقها ، وطوله من الشمال من مكان يدعى حسو الرمل ، إلى آخر في الجنوب يدعى الفايا ، شرقي كورة حمص ، نحو خمسين كيلو متراً . وعرضه من جوار عقيربات السويد ، إلى صرة أبي الظهور أربعون كيلو متراً . ويتصل البلعاس في شرقيه بسلاسل من الجبال المماثلة له ، تمتد من الغرب إلى الشرق ، إلى قرب قرية السخنة ، وتدعى بأسماء مختلفة كأبي الظهور ، وفيه موقع يدعى الشفا وشاعر ، وشطب والمرأة ، وأبو رجمين وأبو حية ، والأبيض ، وهذا يشرف على طريق حمص وتدمر . ويختلف علو هذه الجبال بين ١٠٠٠ ـ ١٤٠٠ متر ، بينما السهول الناشزة قرب سفوحها لاتتجاوز خمسمئة متر . وفي هذه الجبال أشجار قديمة عظيمة

من البطم ، الـذي ينفع بحطبـه ، وعصير ثمره ، المشـابـه لـزيت الـزيتـون ، وبـاستعـداده للتطعيم بالفستق ، وفيها لاسيا قرب عقيربات ، قليل من شجر السويد الذي نسبت إليه ، وهـذا ليس منـه سـوى الحطب . وتـدل ظـواهر هـذه الأشجـار على أنهـا كانت في المـاضي كثيفة ، وكان البلعاس وما زال أغناها بذلك . إلا أن يد القطع والاستئصال ، نـالت منهـا ويا للأسف وبعدت المسافة بين الشجرة والثانية مئـات من الأمتـار ، ومـا برح أهل سلميـة وعقيربات وضواحيها ، يقطعون أحطاب هذه الأشجار ، وينقلونها على عجلاتهم وجمـالهم ، ويبيعونها في حمص وحمـاة وسلميـة ، نـاهيـك عمـا تحرقـه الأعراب ، الـذين ينزلون فيـه في فصل الشتاء ، أو يمرون به أثناء التشريق والتغريب ، مما يقدر مجموعه في كل عام بـأربعين ألف قنطار ونيف ، وقد خلا معظم الهضاب الغربية في البلعاس من أشجاره ، بسبب هـذا القطـع المستمر ، ولا رادع ولا وازع ، وسـوف لا يمضي على مـارأيت عشرون سنـة ، حتى يتجرد هـذا الجبل الجميل من أشجـاره بـالكليـة ، كما تجرد جبل الشومريـة وجبـل قلمـون ، وغيرهـا من جبـال الشـام ، فـاختـل نظـام الأمطـار وتـوالت أعـوام المحـل من جراء هـذا التجريد والتخريب .

ذكر ياقوتُ البلعاسَ ، فقـال « أنـه كورة من كور حمص » ، وكان عرف الكورة في مقدمته ، بأنها كل صقع ، يشتمل على عـدة قرى ، ولا بـد لتلـك القرى من قصبـة ، أو نهر يجمع اسمهـا . فهل كان هـذا الجبل عـامراً في عهـد يـاقوت ومـا قبلـه ، حتى سماه كـورة ؟ لاجرم أن المتجول في هضاب البلعاس وشعابه ، وفي الجبال المجاورة له التي عددناهـا ، يجـد خرباً ورسوماً كثيرة ، تعد بالمئات ، لاتزال أطلالها ماثلة ، بعضها يشبـه المخـافر ، لوقوعـه في ذروات مشرفة على المنافذ والمسالك ، وبعضهـا يشبـه الـدسـاكر والضيـاع ، أشهرهـا أم قبيبة ورسم التنباك ، والتركانية وحميـات ،ودبيس وجب العمارة ، وحويسيس والقسطل ، وبستان صبيح والمسكرة . وغالبا يحتوي على صهاريج مندثرة ، شيدت وطليت بما يضبـط المـاء ، وسلطت عليهـا المجـاري الآتيـة بميـاه الشتـاء ، ممـا يثبت أن هـذه الجبـال المقفرة في يومنا ، كان بعضها إن لم يكن جلها ، آهلـة في العصور الغـابرة ، وذلـك على الرغم من أنهـا محرومة بالكلية ، من الينابيع المتفجرة ، في حين أن صخورها رسوبية جيرية بيضاء ، وهذا مادعا سكانها القـدمـاء ، لحفر تلـك الصهـاريج وتشييـدهـا . بيـد أن (يـاقوت) لم يزدنـا إيضاحاً كما أن غيره من جغرافيي العرب ، ونخص بالإشـارة أبي الفـداء لم يـذكروا عن كورة

البلعاس شيئاً ، لذا غمض علينا مبلغ العمران الذي وصلت إليه ، وعدد السكان ، وحسبهم ونسبهم ، ومعاشهم أكان من الاحتطاب وعصر ثمر البطم ؛ أم من غيرهما أيضاً ، وما سبب خراب هذه الكورة ، وزمنه أكان قبل الفتح الإسلامي أم بعده ، في بدء عهد العباسيين ، كما نقله الصابوني في (تاريخ حماة) دون أن يذكر المصدر ، أم بعد عهد ياقوت في القرن الثامن ، حينما خربت سلمية وضواحيها ، بيد الأعراب أبناء وأحفاد عيسى بن مهنا .

هذا وقد اعتادت أعراب ديار سلمية وحماة والمعرة ، الذين تقدم ذكرهم ، وأخصهم الموالي ، أن تنزل في فصل الشتاء في البلعاس والجبال المجاورة له ، وذلك في الخرب الداثرة التي ذكرناها ، وبعض القبائل تمر بها في طريقها إلى البادية (الحماد) ، أو الحاضرة (المعمورة) ، خلال التشريق والتغريب ، وهم يرغبون في الإرعاء في هذه الجبال ، لصلاحها للغنم والمعز التي تتسلق الأشجار، وتتغذى بأوراقها قبل هطول الأمطار ، واخضرار الأرض بنبات الربيع . ولهذا دعيت مثل هذه القبائل في كتب الأقدمين بأهل الشجر ، لمكوثها أو مرورها بالجبال الشجراء ، على حين أن أهل الوبر أي أصحاب الإبل ، العريقين بالبداوة ، كقبائل عنزة ، تبتعد عن البلعاس ، لضرر أشجاره بالإبل التي تحتك بها وتصاب بالجرب ، وتبتعد خاصة عن جبل شاعر الذي زعموا أن في سفحه (أو شليله كما يقولون) عشب صغير ، ينمو بين غيره من النبات في الربيع ، إذا أكله البعير يصيبه وهن ، أشبه بالهيضة ، وقد يبقى فيه كامناً إلى أواخر فصل الصيف ، ولا يؤمن من ظهوره في البعير حتى يشرب ماء السماء (أي أن تمطر) .

وفصل الربيع في هذا الجبل جميل ، يستهوي غواة المعتزلات القفراء ، والأودية الشجراء ، والهضاب الغضراء ، لاسيا بعد أن يورق البطم وتنمو الأنجم والأعشاب ، وهي هنا تقترب بوفرتها وتنوعها ، لما في الجبال الغربية ، وبعد ان تمتلئ صهاريجه وحواياه ، بمياه السيول والأمطار ، وتزدهي سفوحه وأوديته ، بمضارب العربان ، ويرن فيها ثغاء الغنم والحملان ، وتكثر الزبد والألبان . وبعض أوديته واسعة الرقعة ، خصبة التربة ، حمراء اللون ، صالحة للاستغلال ، لا ينقصها إلا الأمن واليد العاملة . ويذكر أن في جبل شاعر ، أرضاً تدعى مسعدة شاعر ، تشبه كورة العلا ، بالنشوز واحمرار التربة ، وسعتها وخصبها ، وأن في الجبل الأبيض على مقربة من تدمر ، مقطع للرخام الأبيض ، وفي غربي المنهل

المعروف بـالجحـار ، صخر أحمر يعرف بمقطع المرو ، وأن في جبـل المراة أيضـاً مقطـع آخر يمـاثلـه . وإذا لم تكف ميـاه الصهـاريج والحوايـا في هـذه الجبـال ، يرد الأعراب الآبـار ، الموجودة في السهول الممتدة في شماليها أو شرقيها ، أو جنوبيهـا كآبـار أسريـة والقصير ، وأبو الفياض وأبو النيتل ، والتوينات والكديم، والهباة وقواعد ، وجب الرمـان وجحـار ، وعين البيضاء وأبو الرغيوة ، ومخلف وحفار الجواد ، ومياه الآبار الثلاثة الأخيرة مرة .

قصر ابن وردان : من يقصد قصر ابن وردان عن طريق الحمراء ، يغادر سلمية نحو الشمال ، فيرى على يساره ضريح الشيخ فرج ، الـذي تقـدم ذكره ، ومرجـاً أفيح ، يـدعى مرج الخصيبيـة ، كان ولا يـزال منزل أعراب هـذه الـديـار ، كما أن بعض الملـوك والأمراء ، الـذين كانوا يـأتون للاستيلاء على سلميـة أو حمـاة ، ينزلـون بجيـوشهم فيـه . منهم (سيف الـدولـة بن حمـدان) في سنـة ٣٤٤ هـ ، لما جـاء وحـارب الأعراب الـذين ثـاروا عليـه كما قدمنا ، والملك المعظم (عيسى بن العادل بن أيوب) ملك دمشق لما جـاء في سنـة ٦٢١ هـ لمحاصرة ابن أخته الملك الناصر ملك حماة ، ثم أخوه الملـك الكامل ملـك مصر ، لمـا جـاء في سنـة ٦٢٦ هـ ، لمحـاصرة الملـك النـاصرالمـذكور أيضـاً ، ثم تيمورلنـك طـاغيـة التتر في سنـة ٨٠٣ هـ ، جـاء إلى هنـا ، بعـد أن خرب حلب ، وبعث بفرقـة من جيشـه لتخريـب حمـاة وقلعتهـا ، ثم قصـد دمشق . ويرى السـائر قريـة تـل أعـدا ، وكانت مقر الأمير (مهنـا بن عيسى) الذي تقدم ذكره ، وفي شرقيهـا ذيل العجل ، وفي شماليهـا تل سنـان ، وأهل هـذه القرى الثلاث في يومنا شركس .

وفي غربي تل أعدا بطيحة صغيرة ، يحصل فيها ملح نـاصع البيـاض ، لولا أنـه قليل المرارة ، ينشـأ من تـوافـد ميـاه القني وسيـول القرى المجـاورة في الشرق والشمال ، في فصـل الشتاء واجتماعها في هذه البطيحة ، التي في قعرها معدن الملح . ويقدرون كمية مـا يمكن أن يجنى منها في السنة بخمسة آلاف قنطار ، لولا أن الحكومة مانعة ذلك منعـاً بـاتـاً ، وقـايـة لملح الجبول . فيقوم بهـذا المنع حراس مـدة فصل الصيف ، إلى أن تفـد السيول المـذكورة ، وتذيبـه وتحملـه ، إذا فـاضت إلى مرج الخصيبيـة ، فعين الزرقـاء ، فـالأوديـة الـذاهبـة إلى العاصي .

هذا والسائر نحو الشمال ، يلمح على يساره هضاب كورة العلا ، التي تقـدم ذكرهـا ،

ويمر بإزاء ضياع منها على يمينه : حصين والبويض ، واللالا والربيعة ، وعلى يساره : الدوسة وخنيفس ، والشهيب والشهبا والرحية . وفي شمالي الرحية هضبة عالية ، فوقها قلعة قديمة خراب ، تدعى (قلعة الرحية) ، لعلها من الحصون التي شيدها الرومان ، على طرف البرية ، لمنع البادية من العيث . يصل إليها الصاعد من طريق في غربيها ، فيرى بابها الذي لم يبق منه سوى عضادتيه وعتبته . وفناء هذه القلعة رحب ، لا يقل عن نصف هكتار ، كان حوله سور ضخم ، بقيت منه أسسه ، وفي وسطه أطلال دارسة ، وأحجار وأعمدة مبعثرة ، وكلها من الحجارة الحرية السوداء ، وبئر ذات فوهة واسعة ، مردومة ، على أن العمق الظاهر منها لا يقل عن الخمسين متراً .

وبعد خمسة كيلو متر من قلعة الرحية ، يصل السائر إلى ثكنة الحمراء الخراب ، وهي من عهد السلطان عبد الحميد ، أقام فيها جنوداً ، يربون المهار المعدة لفرسان الجيش في المرج الأفيح الذي في غربي الثكنة ، ويحفظون هذه البراري والضياع القائمة فيها ، وكلها كانت من أملاك هذا السلطان الخاصة ، ثم انتقلت بعد خلعه في سنة ١٣٢٧ هـ إلى بيت مال الدولة العثمانية ، وبعد أن زالت هذه الدولة عقيب الحرب العامة في سنة ١٣٣٧ هـ ، صارت من (أملاك دولة الشام) . وهذه الأملاك كثيرة ومنتشرة في شرقي حلب وجنوبيها ، في أقضية جرابلس ومنبج ، والباب وجبل الأحص ، ومطخ قنسرين وقد تقدم ذكرها في أبحاث هذه البقاع ، وفي شرقي الحمراء وسلمية وحمص ، وهي تعد نحو ثمانمئة قرية وضيعة ، يقطن ما كان منها في الشمال ، حول حلب والحمراء ، أعراب من قبائل وبطون شتى ، ويقطن ما كان منها في الجنوب ، شرقي سلمية وحمص ، قليل من الإسماعيلية وكثير من النصيرية . وقد كانت هذه القرى والضياع في زمن هذا السلطان ، عزيزة الجانب ، ينعم فلاحوها بأحسن أمن وأجمل رعاية ، لأنه منع عنها عيث البادية ، بفضل الثكنات والمخافر التي وضعها على حدود الحاضرة ـ كثكنة الحمراء وثكنة جب الجراح في سفح جبل الشومرية شرقي حمص ، ومخافر سعن الشجرة وتل الأغر ، وعقيربات السويد والفرقلس والمخرم ـ وأعفى فلاحيه من الجندية ، والتكاليف الأميرية وغيرها ، فعمرت إذ ذاك هذه القرى والضياع ، بعد أن ظلت خراباً بضعة قرون . وما أن خلع هذا السلطان ، حتى تضاءلت تلك الرعاية ، وما زالت تتضاءل ، حتى فقدت بالكلية ، بعد أن ألغيت إدارة هذه الأملاك في سنة ١٣٥٢ هـ ، وأفل نجمها وساء حال فلاحيها . ولما تقلص ظل الدولة

العثمانية من ربوع الشام ، ونشبت فتن قبيلتي الموالي والحديديين ، خربت ضياع الحمراء ، وجلها مما يقطنه أفناد هاتين القبيلتين ، وما أن يصطلحا ويرجع الجفّال إلى مواطنهم ومزارعهم ويعمروها ، حتى تنشب الفتنة ثانية ، فتعود للخراب وهكذا دواليك .

وفي القسم السالم من ثكنة الحمراء ، أقاموا في يومنا مخفراً فيه بضعة جنود من الدرك ، يعززونهم بقوة كافية عند اللزوم ، وثمة حوش شبه الحظيرة لرجل حموي ، يستغل قسماً من مرج الحمراء بالحرث والزرع ، ويعمل مثله فلاحو قريتي الحمراء ورأس عين الحمراء المجاورتين .

وبعد مغادرة ثكنة الحمراء ، يتجه السائر نحو الشمال الشرقي ، فيرى على يمينه من الضياع ، اللالا وجناة الصوارنة ـ وأصل أهلها من صوران التي تقدم ذكرها في بحث كورة العلا ـ والشيحا ، وعلى يساره : تل محصر ومويلح الصوارنة ، وأبو عجوة فقصر ابن وردان ، الواقف وسط هذه البراري الشاسعة ، كأنه رمز العظمة والخلود .

لما تسنى لي زيارة هذا القصر ، وخربة الأندرين في خريف سنة ١٣٤٥ هـ ، ورجعت إلى دمشق أنقب في كتبنا العربية ، لعلي أجد ذكراً لهما ، لم أعثر إلا على بضعة أسطر عن الأندرين ، قالها ياقوت في معجمه ، سأنقلها في موضعها ، أما قصر ابن وردان فلم يذكره ياقوت ولا غيره . فاضطررت إذ ذاك ، لسؤال المرحوم الأب (لويس شيخو) اليسوعي ، فأجابني في مجلة المشرق (عدد نيسان سنة ١٩٢٧ م) « أن أول من وصف قصر ابن وردان الأستاذ (موردتمان) في (المجلة الأثرية الكتابية الألمانية) المطبوعة في النمسا سنة ١٨٨٤ م ، ثم عاد بعده غيره من السياح كـ (اوستروب وهرتمان ، وفون اوبنهايم وستريغوفسكي) ، فوصفوه ونشروا صوره . على أن هذا الوصف قد جاء واسعاً مستوفٍ ، مع نقوش وتصاوير بديعة ، في منشورات البعثة الأميركانية في جامعة (برنستون) بالإنكليزية ، في القسم الثاني المطبوع في ليدن في هولاندة سنة ١٩٢٠ ص ٢٥ ـ ٤٥ ، ووصفت خربة الأندرين في الكتاب المذكور ص ٤٧ ـ ٦٣ » اهـ . قلت : لم أتمكن من الاطلاع على المجلة والمنشورات التي ذكرها الأب شيخو ، ولعل الخلاصة الموجودة في الدليل الأزرق لـ (مورتمارشة) مأخوذة عنها ، فجعلتها عمدتي في بيان مايلي :

يتألف هذا القصر من ثلاثة أبنية ، لاتماثل قط بقية المباني التاريخية ، في بلاد

الشام ، وتعزى مكانتها على ماقاله الأثريون ، إلى أن بناءها ، وخاصة امتزاج الأحجار وألواح الآجر ، يختلف عن الطراز المعروف في فن البناء الشامي ، ويقترب من طراز المباني الملوكية في القسطنطينية في عهد (يوستنيانوس)[1] ، ويرجحون أن بانيها المهندس (إيزيدور) ، وشبه دوسسو هذه الأبنية من حيث التركيب ، ومزج المواد ، لما في قصر المشتى في شرقي الأردن .

والأبنية الثلاثة ، تشمل كنيسة كبيرة ، ثم قصراً عظيماً ، وكان كلاهما حينما زرتها سالماً بعض السلامة ، وثمة بناء عسكري واسع ، خراب بالمرة ، ولعله كان ثكنة . وأجل هذه الأبنية القصر ، وهو واسع الأركان ، ذو طابقين عاليين ، في الأول منها أروقة طويلة ، كل منها مؤلف من صفين من الغرف ، يتصل بعضها ببعض . وقد شيد هذا القصر ومثله بقية المباني بالأحجار الحرية السود ، وبألواح من الآجر كبيرة صفراء ، غاية في الصلابة والجودة ، ودعمت بملاط قوي . وثمة أحجار جيرية بيضاء ، وأعمدة من الرخام ، بنيت بها الأقسام الداخلية ، وعلى عتبة أحد أبواب القصر ، كتابة يونانية تاريخها ٥٦١ ميلادية ، وأخرى في موضع ثان ، تاريخها ٥٦٤ م في عهد الأمبراطور (يوستنيانوس) . وقد تداعى معظم جدران الطابقين والأقسام الداخلية ، ونقضت الأحجار والأعمدة ، ولم يبق في الطابقين سالماً إلا الواجهة الجنوبية ، وبعض الأبهاء ذات القباب وبعض النوافذ ، وبقي في الواجهة الغربية قسم من القباب ، وعضادتان ضخمتان ، إحداهما مزدوجة ، فالقصر في الجملة (أخنى عليه الذي أخنى على لبد) . أما الكنيسة فقد كانت ذات بناء عظيم ، له رواق فوقاني ، ذو ثلاث قناطر يشرف على داخلها . وكان على الكنيسة قبة

---

(١) دام حكم هذا الأمبراطور من سنة ٥٢٧ إلى ٥٦٥ م ، وكان كثير السهر ، شديد الريبة من حاشيته ، فتح فتوحات عظيمة ، وأخضع ممالك الشرق والغرب ، التي كانت على وشك الانفصال عن بلاده ، وأعاد مجد الرومان ، وكان يقدر العدل والنظام ، أمر بجمع زبدة الشرائع الرومانية السابقة ، وحشرها في قانون واحد دعاه باسمه ، وكان عمرانياً ، شيد كثيراً من الحصون ، وقناطر الماء والحمامات ، والمستشفيات والديارات ، والكنائس والقصور الفخمة ، أجلها وأعظمها كنيسة (أياصوفيا) في القسطنطينية ، بناها له المهندسان الآسياويان (إيزيدور وأنتيوس) ، ـ وفي الشام ينسب إليه أسوار منبج ، وقصر ابن وردان ، ودير سيدة صيدنايا ، ولعله بنى غيرها أيضاً ـ إلا أن تلك الحروب العظيمة والمباني الجسيمة ، أثقلت كاهل الشعب الروماني وأضنته ، ولما مات (يوستنيانوس) لم يؤسف عليه ، وسع بلاده وعمرها ، لكنه ابتز ضرعها ، وغادرها فقيرة بالأنفس والأموال . (عن تاريخ العصور الوسطى لماله وإيساق الإفرنسيين) .

عالية ، ركبت على قناطر ، تستند على دعائم ضخمة ، ولا تزال بعض جدران طابقها التحتاني ، والرواق الفوقاني ، وقسم من نصف القبة ، وقنطرتها الكبرى ماثلة ، وصحن الكنيسة متطاول ، ينتهي بحنية مدورة ، وثمة صحون تالية ، تمتد في كل جانب . والثكنة التي خرب معظمها ذات شكل مستطيل ، وكان لها سوران ، بينهما غرف ذات قبب ، وفي داخلها فناء رحب ، في وسطه بناء عال ذو طابقين ، وقبب عديدة . ولا يمكن للزائر أن يميز في هذه الثكنة ، إلا باب مدخلها الكبير ، وهو في شماليها ، وعلى أعتبته كتابة كبيرة ، والزاوية الشمالية الشرقية للسور الخارجي ، وبضعة أقسام من البناء المتوسط .

ومن الغريب أن هذا القصر الفخم المبني قبل الإسلام لم يذكره أحد من جغرافيي العرب ، ولا ياقوت الذي ذكر قصوراً عديدة أقل منه شأناً ، لذا فقد غمض علينا معرفة ابن وردان ، الذي نسب إليه هذا القصر ، وفي أي عهد كان ، ومن رفه فيه وبذخ ، ثم متى وكيف بدأ خرابه ، وقد قيل إن معظم ذلك حدث في عهد السلطان عبد الحميد ، حينما أمر بإنشاء ثكنة الحمراء ، فنقلت الجنود أحجاره إليها ، ثم أجهز الجوار على مابقي ، حتى أصبح على ماوصفناه ، وهم مازالوا على هذا الإجهاز دائبين ويا للأسف . ومن الغريب أيضاً أن عمال (يوستنيانوس) الذين بنوا هذا القصر وتوابعه ، كيف انتقوا هذه الأماكن النائية عن حماة نحو ٦٠ كيلومتراً ، وعن سلمية ٤٦ كيلومتراً ، وعنوا بحسن هندستها وزخرفها ، أكان ذلك لجمال هذه البراري ، وهي في يومنا أشبه بالفلوات ، لخلوها من الخضار والأشجار ، قل أن استتب فيها الأمن في العصور الغابرة ، إن غلّت سنتين أو ثلاث بارت سنين ، وما زال هذا شأنها حتى يومنا إلاقليلاً ، أم لعمران القرى التي حولها ، وكلها الآن ضييعات حقيرة ، لاتدل رسومها وآثارها على أنها كانت من الكبر بحيث تستحق وجود مثل هذا القصر ومشتملاته ؟ ذلك أمر جدير بالبحث ، ليس لدينا مجال لبسط القول فيه . هذا وعلى مقربة من القصر ، ضويعة ذات قباب ، يعمل أصحابها على إخراج قناة قديمة في أراضيها ، وثمة في الأطراف من الضييعات رسم الورد ورسم عيزى ، وأبو خنادق وأبو عجوة ، والشيحا والعطشانة ، والمنطار وخربتي المصيطبة والثروت .

الأندرين : السائر من قصر ابن وردان إلى الأندرين ، يجتاز نحو الشمال الشرقي ٢٥ كيلومتراً ، جلها منبسطات محصاة ، وتلعات يكثر فيها الشيح والقيصوم والروثة ، وغيرها

من نباتات البادية ، ويتخللها أودية فيها زروع ضئيلة ، قليلة المساحة لبعد هذا الربوع وضعف زراعيها ، وهم من الصعاليك الأعراب ، ويرى السائر في طريقه خرائب ورسوماً لايحوي جلها إلا قليلاً من الخيم أو القباب ، منها على اليمين : رسم الورد ، وعلى الشمال : رسم عيزى والخطابية ، والجنينة والحنية ، وتفاحة وحومي ، إلى أن يوافي الأندرين . تقع هذه البلدة الخراب وسط برية منبسطة شاسعة ، يحدها شمالاً جبل الأحص الذي تقدم وصفه (في الصفحة ٢٠٩) ، وغرباً ممالح وبطائح ، تمتد إلى قرية خرايج الشحم ، والسلايل المتاخمة لكورة العلا الشمالية ، وشرقاً البادية المترامية الأطراف نحو دير الزور وما وراءه ، وجنوباً السباسب التي تنتهي عند أرياف قصر ابن وردان وسعن وسعين ، أوسعن الشجرة وبغيديد ، وهذه ورد اسمها في (صبح الأعشى) للقلقشندي في ذكر طريق جعبر ، وفي (معجم ياقوت) وقد عدها من قرى حلب .

وإليك ماقاله ياقوت عن الأندرين : « أندرين اسم قرية في جنوبي حلب ، بينهما مسيرة يوم ، للراكب في طرف البرية ، ليس بعدها عمارة ، وهي الآن خراب ، ليس بها إلا بقية الجدران وإياها عني عمرو بن كلثوم بقوله :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

وهذا مما لاشك فيه . وقد سألت عنه أهل المعرفة من أهل حلب ، فكل وافق عليه ، وقد تكلف جماعة اللغويين لما لم يعرفوا حقيقة اسم هذه القرية ، وألجأتهم الحيرة ، إلى أن شرحوا هذه اللفظة من هذا البيت بضروب من الشرح . إلخ .. » اهـ . قلت : وقد أتيح لي في خريف سنة ١٣٤٥ هـ ، زيارة هذه البلدة البيزنطية ، التي مابرحت خراباً يباباً منذ الفتح الإسلامي على مايظن ، وتجولت بين كنائسها السبع ، وأطلالها ورسومها التي مابرح بعضها ماثلاً ، وبعضها هدم وأصبح ركاماً أو طمر تحت الرمال السافيات . ولما لم أجد في كتبنا العربية بحثاً عن الأندرين ، سوى مانقلته آنفاً عن ياقوت ، وهو لا ينقع غلة من الناحية الأثرية ، رجعت إلى كتب مستشرقي الإفرنج ، فوجدت (مونمارشة) في دليله الأزرق يقول :

« الأندرين وكان اسمها قديماً Androna بليدة ، تمتد أحياؤها ومبانيها في ساحة

كبيرة ، لم يبق منها الآن سوى الأنقاض المركومة ، والأطلال المهدومة ، وجلها من الحجر الحري ، وبعضها من الآجر المشوي . وهذه الأنقاض والأطلال تدل على أن الأندرين كانت بليدة بيزنطية مسورة ، لاتزال خططها ماثلة ، كما كانت حينما هجرها قطانها ، في عهد نظنه عهد الفتح العربي[1] . وحينما يقترب السائح من هذه البليدة ، يرى أبنية تشبه الأبراج ، شيدت بالحجارة الحرية السود ، تظهر منفردة أو مجتمعة في أحياء مختلفة ، وكانت هذه الأبراج في زوايا جدران المباني العظيمة ، التي أضحت أنقاضاً مركومة . أما المباني التي لاتزال أنقاضها كثيرة فهي الثكنات ، وهذه جدران طوابقها السفلى ، مابرحت قائمة ، على أنها مدفونة تحت أنقاض الطوابق العليا ، ثم كنيسة عظيمة ولعلها الكاتدرائية ، ثم كنيسة في جنوبي البلدة يحيط بها جدار ثخين ، ثم خزان ماء جسيم . ولا يزال ثمة كميات عظيمة من أنقاض المباني ، التي شيدت بالآجر المشوي ، يصعب البحث عنها ، وهناك كنيستان متجاورتان ، مخصصتان إلى الملائكة العلويين ، وأخرى قرب الجدار الشرقي ، وواحدة أصغر في الجنوب الشرقي من الثكنات ، ومذبحان أحدهما مربع الشكل ، كان له قبة والثاني كان مستطيلاً ، وتجاه الثكنات بناءان لم يشيدا على مخططات منتظمة ، أحدهما تظهر فيه غرفة مدورة ، وأخرى متطاولة ، منتهاها على شكل نصف دائرة ، مما يدل على أنه كان حماماً . وثمة كثير من الخرائب ، وأنقاض الدور الخاصة ، كان معظمها على مايظهر مبنياً حول فناء رحب ، وفي بعض هذه الأفنية أحواض محفورة . وثمة أيضاً طريقان ، أحدهما من الشمال إلى الجنوب ، والثاني من الشرق إلى الغرب ، كانا يتقاطعان في منتصف هذه البلدة . وسور الأندرين لا يزال سالماً في كثير من الأماكن ، وتظهر منه أبراج مربعة عادية وأبراج مزواة . والسور مبني بأحجار ضخمة ، مستطيلة الشكل ، وقد دعموه بعضائد في كل ٣ ـ ٤ أمتار .

والثكنات تؤلف في وسط المدينة بناء مربع الشكل ، يبلغ طول إحدى واجهاته ثمانين متراً ، تنم هيئته على أنه مكان عسكري . ولهذا البناء مدخل واحد في الجهة الغربية ، وأبراج مزواة سداسية الأضلاع ، وأخرى مربعة في وسط الجهات الشمالية

---

(١) هذا الظن خطأ . وصحيحه أن الهجر والخراب حصلا قبل ذلك في أواخر العهد البيزنطي ، كما قدمناه في بحث سلمية (ص ٢٧١) .

والغربية . وفي وسط الفناء الواسع في هذه الثكنة ، شيدت كنيسة أبعادها ٢٠ × ١٥ مترا . والكاتدرائية وهي كنيسة الأندرين العظمى ، موجودة في الجهة الجنوبية الغربية من الثكنة ، قرب المصلبة التي يلتقي فيها الشارعان الكبيران ، وأنقاضها الباقية تجعلنا نضعها في مصاف النماذج المدرسية للكنائس العظمى ، لها صحن متوسط عظيم ، منفصل عن الأجنحة الجانبية بثلاثة أقواس محمولة على عضادات متطاولة . والحنية ذات خمس نوافذ ، وقد هدم معظمها ، ولم يبق منها إلا جدار الشمامسة ، وجداران آخران مع قسم من الصحن المنحني الذي كان بينهما . وأكثر مباني الأندرين سلامة ، هي الكنيسة الجنوبية ، كان كلها مبنياً بالحجارة إلا سقفها فمن الخشب ، وما خلا ذلك كان حول الكنيسة سور خاص ، مبني بالحجر ، مع دعائم وأبراج ، مما يدل على أنها كانت كنيسة محصنة ، مشيدة وسط البلدة ومرتسم هذه الكنيسة يشبه الكاتدرائية ، لولا أن انحناء الحنية لا يمكن أن يرى من الخارج ، وليس فيه سوى ثلاث نوافذ . ولا تزال الحنية قائمة مع الغرف الجانبية حتى الطابق الأول ، وكذلك دعائمها ، ولكن نصف القبة قد زال بالكلية ، أما القسم الأعظم من الجدار الشمالي فلا يزال سالماً ، وكذلك قسم من الجنوبي والزوايا الغربية للصحن . والدعائم المتصالبة في المنتهى الغربي لهذه الكنيسة محفوظة ، لكن الجدار والأبراج الغربية خربت بالكلية ، وقد بنوا تجاه الغرفة الجانبية الشمالية بناء لا يزال سالماً ، يظهر أنه كان ضريحاً وخارج الكنيسة مستطيل ، أما داخلها فعلى شكل الصليب .

وفي جنوبي الأندرين وخارج أسوارها خزان ماء مربع الشكل ، طول كل ضلع فيه ٦١ متراً ، مبني بأحجار الجير ، بعضها ذو نقوش ورسوم رومانية ، وعمق الخزان لا يربو على الخمسة أمتار ، ولعله كان يبلغ السبعة إبّان مجده ، والقسم الأعلى من الكورنيش ، يؤلف ممشى عريضاً ، يدور حول الخزان كله ، وفي خارجه صف من الأحجار الضخمة ، مربعة الشكل ، جعلت لمنع مياه السيول من النفوذ إلى الخزان » اهـ . قلت : ويصل الماء إلى هذا الخزان من قناة غطي قسمها القريب من الخزان ، بأحجار منحوتة ضخمة ، وهي تأتي من الجنوب الشرقي من أراضي رسم يدعى أم أميال الشرقي ، عمرته من عهد قريب جالية من إسماعيلية القدموس ، وتتصل هذه القنوات بأخرى ترد من أرض رسم آخر يدعى أبو الغر ، يقع في شمالي سعن وسعين ، وربما بلغ طول القناة الأولى عشرة كيلومتر ، وفي شمال الأندرين إلى الغرب خزان ثان لم يذكره (موثمارشه) تصل إليه الماء من قناة آتية من رسم

المقطع الواقع في جنوبي الأندرين للغرب ، وتتصل هذه أيضاً بأخرى ترد من الغرب ، إلى ضيعة تدعى التفاحة ، وربما زاد طول القناتين على السبعة كيلومتر .

والأندرين تتبع قضاء معرة النعمان ، المرتبط بولاية حلب . وقد كان أحد الحلبيين أحيا قبل الحرب العامة قسماً من أرضها الموات ، وبنى في شمالي الخربة حوشاً فيه قباب عديدة ، وشرع بالاستثمار ، إلا أن شدائد تلك الحرب الطاحنة ، وكثرة مرور غزاة البادية من هذه الربوع النائية ، اضطرته إلى ترك العمل . وفي سنة ١٣٤٦ هـ جاء أناس من نصيرية جبال اللاذقية ، وشرعوا باستثمار أرض الأندرين ، وفتح قنواتها ، وتنظيف دورها الخربة ، وتكبدوا أتعاباً ونفقات جمة ، إلا أن جشع ورثة ذلك الحلبي ، وتوالي سني المحل ، وفقدان المعونة من أولياء الأمور ، فتّ في عضدهم ، فعادوا أدراجهم ، وهكذا ضاع الأمل برجوع العمران إلى هذه البلدة ، التي مابرحت منذ أربعة عشر قرناً خاوية على عروشها ، ولا يعلم إلا الله ماإذا كان يرجع إليها في المستقبل .

ويظهر أنه كان في الأندرين كروم واسعة جيدة ، تنتج خموراً طيبة ، مشعشعة تحمل إلى الأقطار البعيدة ، ومنها الحجاز فيتغنى بها شعراؤه ، أمثال عمرو بن كلثوم في معلقته . ولا غرو فأرض الأندرين المستوية الرملية ، الكلسية الصفراء ، صالحة لإنبات الكروم وغيرها ، إذا توفرت لها مياه الري في مستهل حياتها ، أو جاءها في كل عام مطر يزيد مجموعه على ما يهطل في عهدنا ، في هذه البراري النائية . فهل كانت هذه الشروط متوفرة حينما دعا العمران ورغد العيش ، لإشادة تلك الكنائس والثكنات ، والحمامات والأبراج ، والقصور والدور ، والخزانات والقني ؟ . وأين غاضت تلك المياه ، وكيف قل تهطال الأمطار ، أيكفي استئصال الحراج ، وتجريد الجبال من نضرتها ، لحدوث هذا الشح في سماء الشام ، وتوالي أعوام المحل ، التي صرنا نشهدها في عهدنا ؟ .. تلك أسئلة تحتاج إلى كثير من التفكير ، لا يتسع المجال لخوضها .

ومن الغريب أن يخلط (البستاني) صاحب دائرة المعارف ، بين هذه الأندرين التي حقق ياقوت موقعها بجلاء ، وبين أندرين أخرى ، خارج حدود الشام الشمالية ، كان في عهد الترك مركز قضاء يتبع ولاية حلب ، وبقيت الآن في حوزتهم ، وأن ينسب بيت عمرو بن كلثوم إليها .

ومما يجدر ذكره حول الأندرين إسرية - بكسر الألف والسين - وهي تبعد عن الأندرين إلى الشرق نحو ٣٥ كيلومتراً . وهي أيضاً قرية خراب ، ذكرها ياقوت أنها « موضع بين خناصرة وسلمية ، وتسميه العامة سورية » . وصوابه أن يقول إسرية ، وقد أخطأ أيضاً بظنه ، أن اسم سورية الذي كان يطلقه الروم على بلاد الشام خاص بهذه الخربة . وفي إسرية آبار ، يرتادها الأعراب في تشريقهم وتغريبهم ، وأطلال لا يستهان بها ، وصفها (مونمارشة) في الدليل الأزرق قائلاً : « إسرية واسمها القديم Seriane ، تشرف على الطريق الآخذة من الرصافة (رصافة هشام) إلى سلمية . وليس أدل على مقدرة البشر ، على عمران بادية الشام ، من وجود المعبد الروماني الجميل ، الموجود بين خرائب إسرية . فقد قام هذا المعبد فوق نشز ، طمرت تحته الأنقاض المركومة لهذه البلدة ، ففي جداره الشرقي باب عريض عال ، غاية في الزخرفة له أفريز ذو زهور ، وزوافر على طرفي العتبة ، وفوق الباب قوس واسعة وهي مزخرفة أيضاً . وفي كل من أطراف المدخل بناء مربع يشبه البرج ، فالذي على اليمين يحوي درجاً حلزونياً يصل إلى سقف المعبد ، والجدران الجانبية القوية في المعبد ، دعمت في الخارج بعضائد ، وطراز هذه المباني وزخارفها ، تدل على أنها بنيت في القرن الثالث أيام كانت بعلبك في سؤددها » اهـ .

وثمة في شمالي إسرية بينها وبين جبل الشبيث المناوح لجبل الأحص - وقد تقدم ذكرهما في الصفحة ٢١١ - عين تدعى عين الزرقاء ، وبالقرب منها الحمام ، وقد ذكرهما ياقوت قائلاً : « الزرقاء بين خناصرة وسورية - وصوابه أن يقول إسرية ، ولعل ذلك من خطأ النساخ - من أعمال حلب وسلمية ، وهي ركية عظيمة ، إذا وردها جميع العرب كفتهم ، وبالقرب منها موضع يقال له الحمام ، وهي حمة حارة الماء » اهـ .

طريق حماة ـ الرستن

(٢٤ كيلومتراً)

بعد أن يصعد السائح من وادي حماة ، يسير قبلة في سهول شاسعة ، ذات تربة حمراء ، تمتد غربي العاصي ، فيرى على يساره قبة فيها ضريح الشيخ مهران ، (؟) كانت حولها قرية تدعى (النقارين) ، دثرت في القرن الحادي عشر ، وجلا أهلها إلى حماة ، ذكرت في (صبح الأعشى) . ويرى في غربي حماة قرية (الرقيطة) ، ويلمح في الأفق الغربي جبال الكلبية ، ويرى على يمينه سكة الحديد ، وبينها وبين طريقه ـ التي أصبحت الآن معبدة أحسن تعبيد ـ عدة قرى ، كالخالدية وكفر بهم ، وأبيو وبسيرين ، ويرى على يساره : جبالاً صغيرة جرداء قاتمة ، منها أكمة قرنة الحجل (٤٤٠ متراً) ، وجبل كبير يدعى جبل الأربعين (٦٩٤ متراً) ، في سفحه الغربي قرية معرين في الكيلومتر ١٠) ، وفي سفحه الشرقي براق وتل قرطل المخروطي الشكل (٥٤١ متراً) ، ثم جبل أبو درداء (٦٨٢ متراً) ، فجبل تقسيس (٦٨٥ متراً) المشرفين على العاصي ، وفي سفح كل من هذه الجبال أو الآكام ، قرى تدعى باسمها ، كما أنه تختفي في منخفض العاصي قرى : الجاجية وسريحين ، وجنان والجرنية ، وتقسيس وقد مر ذكرها في بحث طريق سلمية ، ومريج الدر وزور العاشق ، وغور العاصي وغيرها من المزارع والأزوار ، وأهل هذه القرى التي عددناها سنية ماخلا : كفر بهم فأهلها روم أرثوذكس . وإذا تقدم السائح شوطاً آخر ، يرى في الأفق الجنوبي ، جبل لبنان الغربي في أعلاه ظهر القضيب المكلل بالثلوج (أعلى قممه بل أعلى قمم جبال الشام طراً قرنة السوداء ٣٠٨٨ متراً) ويرى جبل لبنان الشرقي الأجرد ، تظهر فيه قمة شاهقة تدعى حليمة قارة (علوها ٢٤٥٥ متراً) وبين هاتين السلسلتين مضيق متسع ينتهي بسهول بعلبك والبقاع . ويرى السائح في شرقيه عن بعد ، قرية الزعفرانة ، وفي غربيه قرى : السويدة والبية ، ثم تومين وجرجيسة ، على العاصي إلى أن يهبط منخفض هذا النهر ، عند جسر الرستن ، حيث ينتهي لواء حماة ، ويبدأ لواء حمص .

ومما يلاحظه السائر في هـذه الطريق ، أنـه كان يرى فيهـا وغيرهـا من طرق الشـام لبضع سنين خلت ، قوافل الجمال المثقلة ، بمحاصيل هذه الديار ، كالحبوب وغيرهـا ، ورتل العجلات المجرورة بزوج أو زوجين من البغال ، الحـاملـة للبضـائع الأوروبيـة والشـاميـة ، والمركبات الحافلة بالمسافرين ، تسير الهوينـا فينتفع بهـا الجمـالون والحوذيون ، ومن ورائهم النجارون والحدادون ، والسروجيون والقتـابيون ، والحبـالون ثم الزراعون وبـائعو العلف ، وتجار الدواب وسماسرتها ، والبياطرة والسواس ، وأرباب الخانـات والفنـادق ، وغيرهم ، دع الخيول والبراذين التي كان يمتطيها فرسانها للنزهة أو الرحلة . وإذا بكل هذه المنافع تتلاشى منذ سنة ١٣٤٠ هـ ، حينما انتشرت سيارات الركوب ، وأعقبتها بعد خمس سنوات سيـارات النقـل ، وعمت البلـوى بـازديـادهـا في الحـاضرة والبـاديـة ، إلى أن تـوارت المركبـات والعجـلات ، وانـدثرت ولحقتهـا الجمـال والخيـل إلا قليـلاً ، وأوشكت الفروسيـة التي كانت إحدى مفاخر الشاميين أن تزول ، وأقفرت اصطبلات البيوتات القديمة المعتادة على اقتنـاء الصافنات الجياد ، وأضحت هذه الاصطبلات والخانات ، مستودعات ومرائب للسيـارات ، ونضب معين الارتزاق أمام أرباب الحرف الأهلية التي عددناها ، وطفقت ثروة هـذه البلاد الفقيرة ، التي ليس لـدى معظم سكانهـا من بـدو وحضر قيمـة للوقت ، وحـاجـة للإسراع ، تذوب في ابتياع السيارات ، وآلاتها ومطاطها ، وبنزينها وزيتها المعدني ، وما برح الخطب بازدياد .

الرستن : قال يـاقوت : الرستن بليـدة قـديمـة بين حمـاة وحمص ، في نصف الطريق منها آثار باقية إلى الآن ، تدل على جلالتها ، وهي خراب ليس بها ذو مري ، وهي في علو تشرف على العاصي . وقال أبو الفداء : « الرستن كانت عامرة في قديم الزمـان ، وهي اليوم خراب ، وبها بيوت كالقريـة ، وآثـار العمارة والجـدران وبعض البيوت بها ظـاهر ، وكـذا بعض أبواب المـدينـة ، وأسوارهـا وقنيهـا ، وهي في جنوبي نهر العـاصي ، على جبـل أكثره تراب ، سطحها في المنبسط الآخذ إلى حمص ، وهي بين حمص وحمـاة ، ويقـال أنهـا خراب من زمن فتح الشام » ا هـ . قلت : الرستن بليدة قديمـة ، كانت تـدعى في عهـد السلوقيين والرومانيين Arétuzia ، يحكمها بعض أمراء من العرب من آل (شميسغرام) ملوك حمص . ومما يؤيد أقوال يـاقوت وأبو الفـداء ، أنني شـاهـدت في حيهـا القبلي ، وعلى يمين الطريق القادم من حمص ، آثار شارع مستقيم عريض مبلط ، يشبـه الشوارع المستقيمـة ، التي كانت

في دمشق وتدمر وأفامية ، لاتزال قواعد أعمدته الضخمة ماثلة للعيان ، تمتد على مسافة نحو ثلاثمئة متر ، إلى أن تختفي بين الدور الحالية ، وبلاط هذا الشارع القديم مستور بالبلاط الحديث ، وشتان بين الاثنين في الضخامة والإتقان . وثمة في بعض هذه الدور أنقاض حمام ، وفي غيرها جدار ضخم ثخين ، كأنه من جدران الحصون أو البيع ، وكيفما التفت تجد كثيراً من كسور الأعمدة ، ومنها واحد من الحجر المحبب (الغرانيت) ، وأسس الجدران والعتبات ، والأحجار المنحوتة المهشمة ، والأسطوانات الخزفية ، التي كانت تأتي بالماء من أماكن مجهولة وغيرها ، مما يدل على ماكان لهذه البليدة من العمران . ويظهر مما ذكره ياقوت وأبو الفداء ، أن الرستن كانت في أيامهما : أي في القرن السابع والثامن ، خراباً كغيرها من قرى حمص وحماة . على أننا لم نعثر على كيفية حدوث هذا الخراب ، وسبب دوامه من عهد فتوح الشام ، إلى أيام أبي الفداء إذا صحت روايته . وهو مما يستغرب وقوعه ودوامه ، على بليدة غير صغيرة ، ذات مياه وأرضين جيدة ، واقعة في منتصف العمران ، والطريق بين حمص وحماة . كما أننا نعثر على العهد الذي رجع إليها عمرانها الأخير ، أكان قبل مرور (أوليا جلبي) أم بعده . ومهما يكن ، فالرستن في يومنا قرية جسيمة ، عدد نفوسها لا يقل عن خمسة آلاف ، اتخذت قاعدة لناحية تتبع لواء حمص ، وقد بلطت جميع أزقتها ، وأسس منذ عهد قريب في غربيها مخفراً للدرك . وأراضي الرستن واسعة خصبة ، ذات تربة طينية رملية حمراء ، تنبت أحسن الحبوب ، وأجود البطيخ والزروع الصيفية ، ولا تزال دورها فوق الجبل الذي ذكره أبو الفداء ، تشرف من علٍ على العاصي ، وهي جميلة البناء في الجملة ، شيد أكثرها بالحجر الحري الأسود ، بعضها يعلو فوق بعض ، وترى نساء الرستن بفساتينهن الزرقاء ، وسراويلهن الحمراء ، ينزلن أطراف النهر كله في الشعاب الملتوية إلى العيون التي في أسفل الوادي ، أو إلى العاصي ، يحملن صفائح الماء على رؤوسهن ، فيملأنها ويصعدن بها . وثمة في منخفض العاصي ، خان قديم بني من الحجر الحري ، وطوله فيما قيل ٩٨ متراً وعرضه ٤٦ متراً ، وكان من أملاك الحكومة ، وتأوي إليه القوافل عند الحاجة . ولكن في سنة ١٣٤٩ لما أرادوا بناء مخفر لجنود الدرك ، واحتاجوا للأحجار ، شرعوا يخربون الخان ، ويستعملون أحجاره ، ولما انتهوا من جداره ورواقه الشرقيين ، مر بعض محبي الآثار ، واعترض فوقفوا دون الإجهاز على بقيته . وليس على باب هذا الخان المتجه للشمال كتابة تاريخية ، وقيل إنها رفعت خلال الحرب العامة ،

وأن باني هذا الخان هو (سنان باشا) الوزير العثماني الشهير[1] ، كما أنه هو باني جسر الرستن ، الممتد أمام الخان .

وهذا الجسر عظيم ، يمتد من الغرب إلى الشرق ، سطحه مستو ، وطوله ١٤٠ متراً وعرضه خمسة أمتار ونصف ، وعدد قناطره اثنتا عشرة ، وفي جانبه سكور تتدفق مياه العاصي من فوقها ، جعلت لحصر جانب من تلك المياه ، وإسالتها إلى الطاحونة القريبة من جنوبي الجسر ، وليس على جانبيه كتابة تاريخية ، وهو دون ريب عريق في القدم ، فمن الأحداث التي أصابته قديماً أن (جان برد) الغزالي نائب الشام عقيب الفتح العثماني ، لما عصى وخرج على الدولة سنة ٩٢٧ هـ ، ورد على عقبيه في حلب ، وهوجم في حماة ، رجع منهزماً إلى دمشق ، فخرب في طريقه هذا الجسر . ولعل الذي رممه وشاده على حالته الحاضرة (سنان باشا) سنة ٩٩٩ هـ ، ثم احتاج على ما يظهر لترميم آخر في أوائل القرن الغابر ، فقام به عبد الله باشا العظم والي الشام ، كما زبر على عتبة باب جامع الرستن . وفي قرب الجسر ناعورة كبيرة ، تروي أرض زور يدعى زور العاشق ، هذا ولا يزال ضريح أبا يزيد البسطامي الذي ذكره (أوليا جلبي) موجوداً في جامع الرستن ومقصوداً . وهذا الجامع صغير ، زبر على عتبة بابه أن عبد الله باشا العظم والي الشام ، رمم طريق الرستن والجسر ، وهذا الجامع في سنة ١٢١١ هـ . وأبا يزيد هذا هو طيفور بن عيسى ، من كبار الأولياء الصوفيين ، فارسي الأصل ولد في مدينة بسطام ، من أعمال خراسان سنة ١٦٠ هـ ، وعمر مئة سنة ، واشتهر بكراماته وعلمه وشعره الفارسي . على أن صحة دفنه في الرستن تحتاج للتحقيق ، لأن له أيضاً ضريح في جنوبي قرية شبعا من أعمال مرج دمشق ، وثالث في قرية ألاي بكلي ، من أعمال بيلان التي تقدم ذكرها في الصفحة ٦٧ ، وربما في أماكن أخرى أيضاً . أما التكية التي ذكرها (أوليا جلبي) فقد دثرت ، شأن كل التكايا والربط التي أوقفها السلف الصالح . هذا ومن المعارك التي حدثت قديماً في الرستن ، ما جرى بين الأخشيد (محمد بن طغج) صاحب دمشق و (سيف الدولة بن حمدان) صاحب حلب في سنة ٣٣٣ هـ ، وكانت الدائرة على ابن طغج ، وأدى الأمر لدخول سيف الدولة إلى دمشق ظافراً ، على أنه بعد سنتين عاد ابن طغج ، وكسر سيف الدولة في ثنية العقاب ، وأرجع إلى حلب . وقد أنشؤوا في ١٣٤٩ هـ على العاصي في زور

---

(١) تقدمت ترجمته في الصفحة ١٥١ في بحث قلعة المضيق .

المعنكيّة ، عند منتهى الحد الغربي لآراضي الرستن ، معملاً لتوليد الكهرباء ، وتنوير مدينتي حمص وحماة ، وجروا له قناة من العاصي طولها نحو ستة كيلو متر ، تبدأ عند جسر سكة الحديد في قرية غجر الأمير ، ومدوا من المعمل أسلاكاً وأعمدة خشبية ضخمة ، تفترق عند الرستن ، فيتوجه قسم منها شمالاً نحو حماة ، وآخر جنوباً نحو حمص . وقد عثروا أخيراً في الرستن ، على قناة ماء قديمة ، يحاولون الآن كريها ، وري أرضيهم بها .

الوعر : في هذه الأنحاء بين نهر العاصي وسفوح جبال النصيرية ، الواقفة كالجدار في الأفق الغربي ، تمتد كورة بركانية واسعة ، مستطيلة الشكل كثيرة الصخور والحجارة الحرية السود ، تدعى (الوعر) ، تصل إلى مابعد الطريق الآخذة من حماة إلى مصياف ، وربما إلى جبل الصليب الذي يرى في جنوبي تل سحلب ، وتشمل القرى التي في شمالي تلك الطريق ، كالتويم وكفر عجم ، وتل سكين وكفر توم ، والتي في جنوبيها كأم الطيور وربيعة ومتنين ، وهذه القرى تتبع في يومنا مركز اللواء في حماة ، ثم يشمل الوعر في جنوبي تلك القرى قريتي تل كفراع والحويرة ، التابعتين لقضاء مصياف ، وما حولها وكل قرى ناحية الحميري التابعة إلى لواء حماة ، منها الحميري وبللين ، والموعا وقصير ، ودير حويت وبيصين ، والجافعة وأكراد إبراهيم ، وكفر قعادة وموسى الحولة وجدرين ، وفي شرقي هذه الناحية على السكة الحديدية ، بيرين ودير الفرديس وحرب نفسا ، وفي غربيها طلف، وعقرب وثمة بعرين التابعة لمصياف . وكل سكان هذه القرى نصيرية ، ماخلا عقرب وطلف ، وهما أكبر قرى الناحية مساحة وسكاناً وأهلها تركان ، وأكراد إبراهيم وأهلها أكراد ، وحرب نفسا وأكثر أهلها عرب سنية . ثم ينفذ الوعر جنوباً إلى لواء حمص ، فيشمل القرى الغربية من ناحية الرستن وكل قرى ناحية تارين ، فمن قرى ناحية الرستن : تل ذهب وكفرلاها ، وتل دو ، وهذه القرى الثلاث تقع في بقعة منخفضة مستوية تدعى الحولة ، ذكرها ياقوت ، وعدها من أعمال بارين ، اشتهرت هذه البقعة بزكاء تربتها ، وجودة بطيخها الأصفر ، وزروعها الصيفية ، وطيبة وتسنين وكفرنان وسكان هذه القرى عرب سنية ، وبرج قعيا وسكانها تركان ، وجميع قرى ناحية تارين نصيرية ، أشهر قراهم التنونة وتارين ، وخربة التين نور وخربة غازي ، وخربة الحمام وأم العنز ، وأم العظام والسمعليل ، وهرقل وبلقسة ، وبتيسة وكنيسة ، وثمة شركس في قرية تليل ، وتركان في قرى : قزحل وأم القصب ، ومرج القطا والزيبق ، وخربة التين محمود ، وخرخر والدار

الكبيرة ، وشيعة في الدالابوز والغور ، وروم أرثوذكس في أم شرشوح والدوير ، وهما على ضفة العاصي اليمنى ، يتخطاهما الوعر بحجارته السود . ويمتد الوعر جنوباً حتى يتخطى السكة الحديدية والطريق المعبدة ، الذاهبتين من حمص إلى طرابلس ، وينتهي عند الشاطئ الشمالي والغربي لبحيرة قدس القريبة من حمص ، وربما بلغ طوله على هذا القياس ٥٠ ـ ٥٥ كيلو متراً ، وعرضه ١٥ ـ ٢٠ كيلو متراً . ويتصل الوعر في الغرب بجبل الحلو ، أحد أعضاء جبال النصيرية الجنوبية ، وقد سمي هذا الجبل بالحلو ، لوفرة ما كان في قراه من التين والعنب ، على اختلاف أصنافهما ، وقد بقي أثر ضئيل منها ، ومن بعض الأشجار المثمرة البرية ، كالزيتون والزعرور ، والكمثرى وأشجار الحراج المختلفة ، كالبلوط والسنديان ، واللبنة وغيرها ، مما لو عني بحفظه وتنميته لنفع كثيراً . وليس في الوعر كله أودية جارية وعيون سارية ، فمسائله المنحدرة من هضاب جبال النصيرية نحو العاصي ، تجف في أوائل فصل الربيع أو أواسطه ، ولذا كان محروماً من الأرضين المسقوية ، وشرب أهله من الآبار .

ومن غريب ما يلحظ في هذا الوعر ، أنه يختلف كل الاختلاف عن السهول الممتدة في شرقي العاصي ، من ناحية التركيب الجيولوجي والطبيعي في الأرض ، ووفرة الأمطار وغزارة الندى في الهواء . فتربته بركانية طينيية سوداء ، شديدة الاندماج رطبة ، يخصب فيها الكلأ ويطيب المرعى في الربيع ، وتجود الزروع الأعذاء في بطاحها في الصيف . لكنها لوفرة أعشابها وأحجارها ، لاتصح فيها الحبوب الشتوية ، وتظل أقل طيبة ونقاء وقيمة منها في سهول شرقي العاصي . وعندي أن هذا مما يوجب الإعراض عن زراعة الحبوب المتبعة حتى الآن ، ويدعو إلى خص هذه الأوعار بالأشجار المثمرة والكروم ، التي تجد فيها أحسن موطن لها . ولعل القدماء لحظوا هذه الحالة ، فأكثروا من الأثمار والأعناب بين الرجوم والسلاسل التي سيأتي ذكرها ، إكمالاً لعملهم في جبل الحلو .

وضياع الوعر وقراه في زماننا شبه الخرائب ، لاسوداد أحجارها الحرية ، وحقارة مبانيها المركومة ، وضيق أراضيها وصعوبة العمل والاستغلال فيها ، مما جعل معظم سكانها في فقر مدقع ، زاده خمول ملاكيها سراة حماة ، وخاصة سراة حمص ، وتقاعسهم عن تعهدها ، بإتقان الحرث وإكثار الغرس ، واكتفائهم بأخذ النزر القليل مما يصيبهم من غلتها

مرة في كل عام ، دع العناية ولو قليلاً ، بإرشاد فلاحيهم إلى ما يصلح دينهم ودنياهم .

والمسافر في كورة الوعر ، لابد أن تنقبض نفسه من جهومة مناظرها ، وكؤودة مسالكها ، واسوداد أحجارها وتربتها ، ووفرة هذه الأحجار ، وصعوبة التنقل بينها ، وفيها رجوم عظيمة مجموعة ، وسلاسل مصفوفة بأيدي سكانها القدماء ، وكانوا على ما يظهر أرباب جد وعمل ، ضاقت بهم السهول ، حينما اكتظت الشام بأهلها ، فاستطالوا إلى هذه الأوعار ، يلمون أحجارها ، ويمهدون سبيل استغلالها ، ويشيدون هذه القرى ، التي كانت أحسن وأعمر مما هي عليه الآن ، يدل على ذلك ما عثر عليه بحاثة الإفرنج - ومنهم (دوسسو) والأب (رونزفال) اليسوعي - ، في قراها من الأحجار الحرية الأثرية ، وجلها نواويس وشواهد قبور ، زبرت فيها كتابات يونانية ولاتينية ، بأسماء أصحابها من ضباط وجنود اليونان والرومان ، الذين كانوا يقضون خدمتهم العسكرية هنا ، ويدل على ذلك أيضاً الرصيف الروماني القديم ، الذي يمتد من المياس في حمص إلى مصياف ، ولا تزال آثار هذا الرصيف ظاهرة في خربة الجاموس وخربة السودا ، وأم محناية ، وفي شرقي تليل وغربي كفر لاها وتل ذهب ، ثم تضيع آثاره في عقرب وبعرين ، ثم تعود للظهور في البياضة والسويدا ومصياف ، ومن هذه يتجه إلى الشرق الشمالي ، ماراً بكنفو والعارمية ، والعالية وتل سلحب ، ويجتاز جسر العشارنة ، إلى قلعة المضيق فسهل الغاب ، وقد تقدم ذكره في بحث هذا السهل . وقد قضت عوادي الزمان على الأبنية الأثرية التي كانت في الوعر ، ولم يبق منها إلا بناء في قرية أكراد إبراهيم ، يدعوه أهلها بالقصر ، ولا يعرفون ما هو ، كان ذا طبقتين ، لم يبق منها سوى غرفة معقودة بحجارة محكمة التركيب ، وكان له بابان أحدهما غربي والثاني شمالي .

وقد اشتهرت في هذه الكورة (بعرين) ، وذكرت في الحروب الصليبية مراراً ، قال عنها أبو الفداء : « بعرين بلدة صغيرة ذات قلعة قد دثرت ، ولها أعين وبساتين ، وهي على مرحلة من حماة - وصوابه ٣٨ كيلومتراً - وهي غربي حماة بميلة يسيرة إلى الجنوب ، وبها آثار عمارة قديمة تسمى الرفنية ، لها ذكر شهير في كتب التاريخ » . وجاء في الروضتين : « أن بعرين كانت من أضر بلاد الإفرنج على المسلمين ، فاستولى عليها عماد الدين زنكي في سنة ٥٣١ هـ ، ثم عاد إليها الإفرنج ، إلى أن هاجمها صاحب حماة الملك

المظفر محمود في سنة ٦٣٦ هـ ، فهدم قلعتها ودك معالمها » . وذكر ياقوت من قرى الوعر ، بيرين وحرب نفسا والتنونية قال : « بيرين من قرى حمص » . قال القاضي عبد الصمد بن سعيد الحمصي في (تاريخ حمص) « كان النعمان بن بشير الأنصاري زبيرياً ، فحدث عن سليمان بن عبد الحميد البهراني ، قال لما صاح الناس في زمن مروان بن الحكم بالنعمان بن بشير ، خرج هارباً على وجهه من حمص ، فلحقه خالد بن خلي في شبيبة من الكلاعيين ، حتى أتى حرب نفسا ، فقال أي قرية هذه ، فقالوا حرب نفسا ، فقال حرب أنفسنا ثم مضى حتى بيرين ، فقال أي قرية هذه ، فقالوا بيرين ، فقال فيها برنا ، فقتله خالد بن خلي فيها في سنة ٦٥ هـ . وقال عن التنونية : « من قرى حمص مات فيها عبد الله بن بشير المازني ، صحابي في سنة ست وتسعين ، وقبره بها ، وكان منزله في دار قنافة بحمص » اهـ . قلت : وهي الآن ضيعة صغيرة . تبعد عن حمص للغرب نحو ثمانية كيلومتر . ومن القرى التاريخية أيضاً مريمين ، قال الأثري (دوسسو) في كتابه الطبغرافية التاريخية ، « نظنها Mariamon القديمة ، التي يرجع عهدها إلى قبل ألفي سنة من الميلاد ، المذكورة في أسفار المصريين ، الباحثة عن قادش . وقد كانت مريمين في عهد الفينيقيين ، على تخم أهل أرواد ، وكانت من أحكم المشارف ، على وادي العاصي بين حمص وحماة ، صارت في عهد النصرانية مقر مطران ، وفيها دفن القديس جلاس ، الذي مات شهيداً في سنة ٢٩٨ م في بعلبك ، ونقل جثمانه إلى مريمين » اهـ .

ومما يجدر ذكره في بحثنا هذا ، أن التركمان الذين تقدم ذكر قراهم ، جاؤوا عقب الفتح العثماني من بر الأناضول إلى وعر حماة وحمص ، خلال فترات متقطعة ، آخرها كان في مطلع القرن الثالث عشر ، ولا يعرف السبب في مجيئهم ، أكان لغاية سياسية قصدها العثمانيون لتكثير سواد أبناء جلدتهم بين العرب الشاميين ، أم لضيق أرضهم في بلادهم ، ورحبها في ديار الشام ، مهوى أفئدة الشعوب الإسلامية ، يرون فيها حسن المآب في الآخرة ، ولما جاء هؤلاء ، ذهب فريق منهم إلى لواء طرابلس ، ولهم في قضاء الحصن : زارا وحكية وحصرجية ، وفي قضاء عكار قرى : دوسة وكواشرة وعيد مون ، وفي ناحية حذور : بساتين وبيت رسلان ، ومتراس وعين دابش ، وتركمان ، هذه القرى اشتهروا بصناعة السجاد . وذهب فريق ثالث إلى قضاء القنيطرة في الجنوب الغربي من دمشق ، واستقروا في قرى عديدة منبثة بين الأوعار المنحدرة نحو نهر الشريعة ، كعين عائشة

والرزانية ، وضابية وأحمدية ، وحسينية وحفر ، وعين سمسم وكفر نفاخ ، وقادرية وعليقة ، وسنديانة ومغير ، ومنهم من استقر في قرية قلدون في جبل قلمون ، وقرية براق في شمالي اللجا حوران ، وأم الرمان في البلقاء بين جرش وعمان . وهؤلاء التركمان قد استعربوا في اللغة والأزياء والعادات ، لا يتميزهم الغريب عن أبناء البلاد الأصلية ، إلا إذا حدّج في هيئاتهم ، وأصغى إلى أحاديثهم فيما بينهم ، يجدهم محتفظين بقاماتهم وسحنهم التورانية ، ويتكلمون بتركية قديمة سقيمة ، يخالطها كثير من الألفاظ العربية . ولما كانوا في الأصل قبائل رحل ، لا يزال منهم بادية تقطن الخيام ، وتعيش برعي الأنعام ، يدعونهم تركمان سوادية ، منازلهم في فيافي قضائي حمص والنبك والبقاع البعلبكي ، ومنهم أناس في مرج ابن عامر في فلسطين . وما برح الذين في قضاء القنيطرة يقضون الربيع والصيف في الخيام التي يضربونها حول قراهم ، ولا يعودون لبيوت الحجر إلا في الشتاء . وتركمان الشام بعد أن كانوا لمضي قرن أو أقل ذوي بأس وسطوة ، أضناهم الفقر ، وأخنى عليهم الجهل ، لم نسمع لهم ركزاً ، ولم نر بينهم ذوي دراية أو مكانة ، سوى بضع عائلات ، سكنت منذ عهد بعيد حي التركمان في حمص ، واستعربت وامتزجت ، ومنها واحدة حازت ثروة ووجاهة طائلتين .

والأكراد يكثر وجودهم في شمالي بلاد الشام ، على مقربة من الحدود التركية الحالية ، كالذين في شمالي نهر عفرين ، في الجبل المسمى جبل الكرد ، والذين في حوة اللجة شمالي العمق ، وفي أقضية أعزاز والباب وجرابلس ، والأقضية التي في الشمال الشرقي من لواء الجزيرة الفراتية . وكل هؤلاء أكراد أقحاح لم تتصل إليهم العربية بشيء . أما في بلاد الشام المتوسطة ، فعدد الأكراد قليل ، وليس لهم بقعة يؤلفون فيها كتلة مجتمعة إلا في جبل الأكراد ، بين جسر الشغر واللاذقية ، وفي حي الأكراد من أرباض دمشق ، وفي قرى الوعر التي ذكرناها ، في حين أن مجيء الأكراد إلى بلاد الشام المتوسطة قديم . وربما كان أول من أتى بهم ، هو عامل حمص شبل الدولة (نصر بن مرداس) سنة ٤٢٤ هـ ، وأسكنهم في حصن الصفح ليحفظوه ، ويصونوا الطريق بين حمص وطرابلس ، فسمي الحصن منذ ذلك الحين حصن الأكراد ، وقد بقوا فيه نحو قرن ونيف ، إلى أن جاء (طانكرد) برنس أنطاكية واستخلصه منهم ، سنة ٥٣٠ هـ فتشتتوا . ثم كثر توافد الأكراد في عهد الدولتين النورية والصلاحية ، لخوض غمار الحروب الصليبية ، ولعل كل من أدى واجبه من هؤلاء

كان يعود أدراجه ، والذين بقوا منهم استعربوا ، وذابوا في البيئة الشامية ، ولم يحتفظ بصلته بماضيه الكردي إلا الذين وفدوا في العصور الأخيرة . منهم سكان جبل الأكراد ، بين جسر الشغر واللاذقية ، وهؤلاء على ماقيل قد استعربوا وذابوا ، مما يدل على أنه قد مضى على قدومهم عدة قرون ، ومنهم بعض بيوتات متفرقة في أماكن مختلفة ، ذات مكانة غير يسيرة ، أكثرها عدداً وأكبرها ملكاً وجاهاً آل مرعب في قضاء عكار ، جاؤوا من أنحاء حكاري منذ قرنين ونصف ، واندمجوا تماماً ، ويليهم آل البرازي في مدينة حماة ، جاؤوا منذ قرن ونصف من أنحاء الرها ، واندمجوا إلا قليلاً ، ومنهم سكان حي الأكراد أحد أرباض دمشق ، الذين يمتون إلى أصول ومنابت مختلفة ، وهؤلاء على الرغم من اختلاطهم بالدمشقيين من عهد الدولة الصلاحية ، واقتباسهم اللغة والأزياء العربية ، لا يزالون محتفظين بلغتهم وأكثر أطباعهم الأصلية ، لاستمرار مجيء الوفاد من حكاري ووان ، وغيرها من بلاد الأكراد الشمالية ، إلى هذا الحي الذي يعدونه ملاذ كل خاطئ أو خائف منهم ، ولدوام اتصال سكانه بأهل تلك البلاد النائية ، بسبب تجارة الغنم التي يجلبونها من ثم ، ويميرون معظم بلاد الشام بلحومها ، وهم أبناء بجدة هذه التجارة المحتاجة لكثير من الجلد والمضاء ، حاز بعضهم من وراءها ثروة غير يسيرة ، وزادها آل اليوسف منهم ملكاً وجاهاً عظيمين . وقلة اكتراث أهل هذا الحي بالدراسة والثقافة قبلاً ، ساقت كثيراً منهم في عهد العثمانيين نحو الارتزاق من التجند في سلك الدرك ، أو جباية الأموال الأميرية ، أو التزام الأعشار ، أو وكالة الضياع وغيرها مما يحتاج للقسوة والشدة ، ولما نضب معين النفع من هذه المواد بانقضاء ذلك العهد تغير حالهم في الجملة ، وانصرف بعضهم إلى الصناعات اليدوية وخلافها .

أما الأكراد القاطنون في قرية أكراد إبراهيم التي مر ذكرها ، فأصلهم من الأكراد اليزيدية ، جلوا عن بلادهم في أنحاء سروج منذ قرن أو أقل ، وكان رئيسهم يدعى إبراهيم ، وسميت القرية باسمه ، على أن هؤلاء بعد أن كانت لاتؤكل ذبيحتهم ولا يلعن الشيطان أمامهم ، مالبثوا أن امتزجوا بالبيئة ، فأسلموا واستعربوا ، ولم يبق للغة الكردية إلا الأثر القليل بين شيوخهم . وهم الآن قلما يختلفون بالأزياء والعادات عن الفلاحين العرب ، ويفوقونهم بإتقان تربية الماشية . وهناك قبيل من الأكراد الرحل أهل الوبر ، يدعون أكراد عثانو ، لا يمتون للإبراهيمو بصلة ، منازلهم في أرجاء العشارنة وتل سلحب ، وما

حولها من البقاع الممتدة غربي العاصي في شمالي لواء حماة . أما من كان في قرية أكراد الدياسنة ، فهم يدعون الانتساب إلى عشيرة الملية ، وبعد أن بقوا في هذه القرية مدة مديدة ، جلوا في مطلع القرن الحالي إلى قرية مخرم التحتاني ، من أملاك الدولة في شرقي حمص ، وناب عنهم النصيرية ، ولم يبق على قرية الدياسنة من أثر الكردية إلا الاسم فحسب . وسكان قرية مخرم التحتاني قد نسوا لغتهم بالكلية ، واستعربوا في الأزياء والعادات ، لكن لهم مزايا خاصة ، يختلفون بها عن مجاوريهم ، يسرفون في إقراء الضيف ، ويتجملون مما فوق الطاقة ، وينتصر بعضهم إلى بعض حقاً كان أو باطلاً ، ويتقاعسون عن إتقان الفلاحة والزراعة ، حتى وقعوا في الفاقة وسوء السمعة .

أما الشيعة القاطنون في قريتي الدالابوز والغور ، غربي العاصي وبعض قرى أملاك الدولة في شرقي العاصي ، فأصلهم من الفوعة ، إحدى القرى الأمهات في قضاء إدلب ، وقد تقدم ذكرها في بحث القضاء المذكور في (الصفحة ١٣٣) .

طريق الرستن ـ حمص

(٢٣ كيلو متراً)

يسير السائح بعد الرستن في شرقي العاصي ، فيغادر على يمينه الطريق الآخذة إلى معمل النور الكهربائي ، ويجتاز سهول الرستن التي وصفناها ، ويرى في الأفق الغربي جبال النصيرية ، تميل للانخفاض كلما سارت نحو الجنوب ، إلى أن تضمحل قبلي سكة حديد حمص ، طرابلس ، وتبدأ بعدها جبال لبنان . وبين العاصي وجبال النصيرية ، تمتد كورة الوعر ، المضافة إلى حمص ، وقد مر وصفها . أما الأفق الشرقي ففيه منبسطات شاسعة ، تتخللها تلعات ورواب طبيعية ، وتلال اصطناعية أثرية ، تتوالى حتى سفوح جبال البلعاس والشومرية ، بينها قرى وضياع كثيرة ، من أمهاتها الزعفرانة وأهلها سنية ، والمشرفة وأهلها نصارى ، والمخرم التحتاني وأهلها أكراد ، وعين ظاط وتل عمري ودير فور وأهلها شراكسة ، وأم العمد وتل الأغر وأهلها شيعة ، وعين ظاط وتل عمري واقعتان على ضفة نهر من روافد العاصي ، تأتي مياهه من واد يدعى الميدان ، ثم يتجه شمالاً بميلة إلى الغرب ، وبعد أن يأخذ من يساره مياه دير فور ، يصب في العاصي قرب قرية أبو إمامة وعسيلة ، اللتين أهلها شركس . ولعل تل عمري كانت مبنية في موضع دير إسحاق ، الذي وصفه ياقوت « بأنه بين حمص وسلمية ، على نهر جار في أحسن موضع وأنزهه ، وبقربه ضيعة صغيرة يقال لها جدر ، التي ذكرها الأخطل في قوله :

كأنني شارب يوم استبد بهم   من قرقف ضمنتها حمص أو جدر

ولأهل القصف والشعراء في هذا الدير أشعار كثيرة » اهـ . وقد دثر دير إسحاق وضيعة جدر وتنوسي خبرهما . هذا وبقية سكان هذه الرباع الشرقية نصيرية ؛ من قراهم التي تستحق الذكر ، عين حسين ونوى ، والمخرم الفوقاني والسنكري القبلية والشمالية ، وأبو حقفة القبلية والشمالية ، والمسعودية وجب الجراح ، وكلها من الأملاك الخاصة بدولة الشام ، كالتي تقدم ذكرها في أبحاث الحمراء وجبل الأحص ومطخ قنسرين ، جلا النصيرية

إليها من جبالهم الغربية ، في مطلع القرن الحالي ، حينما اهتم السلطان عبد الحميد العثماني بعمرانها ، بعد أن كانت يباباً ، تجوبها غزاة البادية وجمالهم ، وهذه حسنة تذكر للسلطان المشار إليه ، ولو أنه كان يتوخى فيها نفعه الخاص . والسائح قبل وصوله إلى قرية تلبيسة يرى في يمينه على جانب الطريق آثار خربة تدعى خربة السبيل ، في وسطها حجر رحى كبير ، هو أحد أمثاله الكثر المنتشرة في رسوم وخرائب هذه الرباع ، ولعلها كانت لعصر الزيتون أو طحن البرغل . أما تلبيسة فقرية كبيرة (بينها وبين حمص ١٢ كيلومتراً) ، بيوتها قبب بيضاء ، يخالها الغريب لاسيا الأوروبيون القادمون إلى الشام حديثاً معسكر جند . وفي غربي هذه القرية مستنقع يحتاج للتجفيف . وبعض بيوت تلبيسة بني في ظهر وسفح التل المعروف باسمها على ماقيل ، ينسب إلى خربة قديمة تقع شرقي بيادر القرية ، تدعى بيصة صارت بالتحريف بيسة . وقد ظن الأثري دوسسو هذه القرية هي Abzu التي وردت في رقم تل العمارنة ، ذلك لأن تلبيسة ظهر فيها كثير من العاديات . وكان فوق تل هذه القرية بناء عسكري ، ذكره المرادي في (سلك الدرر) في ترجمة عبد الرزاق الجندي وسماه قلعة قال : « كان متولياً حكومة قلعة تلبيسة الكائنة بين حمص وحماة ، وهذه القلعة أصل بنائها في زمن الوزير سليمان باشا العظم ، وعينت الدولة فيها ينكجرية ، بعلايف وتعايين سلطانية ، لأجل حفظ الطرقات للحج وغيره » اهـ . قلت : ولعل بناء هذه القلعة لم يكن محكماً ، كقلاع العصور الإسلامية المتوسطة ، إذ أنه دثر ولم يبق منه في زماننا سوى أطلال السور وبعض الجدران ، تختفي تحت دور الأهلين التي بنيت فوقها . وإذا جاز السائح قرية تلبيسة ، وسار في سهولها ، يلمح أمامه جامع خالد بن الوليد ذي القباب والمآذن الجميلة البيضاء ، وتظهر حمص بأحيائها القديمة والحديثة . ويرى على العاصي في غربي تلبيسة إلى الشمال قرية أم شرشوح ، وأهلها روم أرثوذكس ، وإلى الجنوب منها قرية الغنطو وأهلها سنية ، ويناوحها في غربي العاصي قرى الداسنية وتسنين ، والكنية وحلاموز ، ثم يمر السائح بأراضي قرية دير معلة ، وهي على يمين الطريق ، ويناوحها في غربي العاصي قريتا هبوب الريح والدار الكبيرة ، ثم يمر بأراضي قرية دير بعلبة ، وهي على يسار الطريق ، وفي غربيها في شرقي العاصي الدوير وأهلها روم ، وهي متنزه نصارى حمص ، ويناوحها في غربي العاصي خرخر ، وما ورائها من قرى الوعر إلى أن يدخل حمص . وطالما كانت هذه الأرضين أو السهول الممتدة بعد

تلبيسة في العصور الغابرة ساحة لمعارك طاحنة ، بين الجيوش الزاحفة من الشمال للاستيلاء على حمص وما يليها ، والجيوش الخارجة للدفاع عنها ، مما سوف نذكره في تاريخ هذه البلدة .

تاريخ حمص : حمص من أمهات مدن الداخل في الشام ، تعلو عن سطح البحر ٤٩٥ متراً، ولها مركز جغرافي هام ، لقربها من نهر العاصي ، ولوقوعها في منبسط مترامي الأطراف ، وفي مركز دائرة كثيرة الحركة ، حافلة بسكان الحضر والمدر ، تمر بها المسالك التجارية الذاهبة من دمشق إلى حلب ، ومن البادية إلى البحر المتوسط ، وهي تتصل بهذا البحر بواد عريض سهل الاجتياز، تمر فيه السكة الحديدية والطريق المعبدة ، الآخذتان إلى طرابلس ، وطول الأولى ١٠٢ كيلو متراً وطول الثانية ٩٨ كيلو متراً . وتربط السكك الحديدية حمص بدمشق ، عن طريق رياق وبينهما ٢٠٨ كيلو متراً ، وبحلب وبينهما ٢٠١ كيلو متراً وبحماة وبينهما ٥٨ كيلو متراً ، وتربطها الطرق المعبدة بحماة ، وبينهما ٤٧ كيلو متراً ، وبدمشق وبينهما ١٦٠ كيلو متراً ، وبتدمر طريق غير معبدة ، تمر بالفرقلس طولها ١٦٥ كيلو متراً .

فيظهر من ذلك ، أن القطارات والسيارات الذاهبة والآيبة إلى تلك المدن ، جعلت حمص ذات مكانة تجارية هامة ، وقد نمت هذه المكانة منذ اتخذتها شركة النفط العراقية في سنة ١٣٥٠ هـ مركزاً لمنشآتها العامة ، ويؤمل أن يتضاعف هذا النمو في المستقبل ، ويزداد عمران حمص .

لاجرم أن القدماء عرفوا قدر هذا الموقع الجغرافي ، فأنشؤوا فيه مدينة حمص ، ودعوها بادئ بدء حامات صوبا أو حميصوبا ، ثم دعاها اليونانيون إمسا Emessa ، وقيل إن هذه الكلمة آرامية ، بمعنى الأرض المنبسطة ، لوقوع حمص في مستوٍ من الأرض .

وقال ياقوت « إن حمص بلد بناه رجل يقال له حمص بن المهر ، وقيل حمص بن مكنف العمليقي » ، وعرف عمليق في مادة حلب بأنه « عمليق بن لوذ بن سام » ، وفي هذا القول على علاّته ، إشارة إلى أن أول من سكن حمص هم العمالقة ، أو الروتانيون أو اللوذيون ، أعقاب لوذ بن سام ، الذين دلت آثار هيكل الكرنك في مصر ، على أنه كانت لهم دولة وحضارة ، اختطوا مدنا عظيمة كحماة وحمص ودمشق وغيرها ، وكان لهم معقلان

حصينـان كركميش (جرابلس على الفرات) ، وقـادس (تـل النبي منـد جنـوبي حمص) .
وقد ظل الروتانيون سائدين ، إلى أن جاء (تحوتمس) الثالث أحـد فراعنـة مصر ، فـانتصر على الكنعـانيين والروتـانيين المتحـالفين ، وفتـح مجـدو (اللجـون في مرج ابن عـامر) وقادش ، وكثيراً من المدن في جنوبي الشام وشماليه . وظل يشن الغـارة عليهم ، كلمـا وثبوا حتى أذلهم . ولمـا ظهر الحثيون شرعوا ينـاوشون الروتـانيين أيضـاً ، إلى أن أزالـوا دولتهم ، واستولوا على معاقلهم ومدنهم . ولما تم اندحـارهم عم اسم آرام بن سـام جميع فلولهم وتنوسي اسمهم الأصلي ، لا سيا بعـد انقراض ملـك الحثيين في القرن الثـامن قبل الميلاد ، لاقتصاص الآراميين منهم واستئثارهم لأبناء عمهم لوذ .

ولما امتـد سلطـان الحثيين في شمالي الشـام ، وتطـاولوا للاستيلاء على مصر ، استفزوا غضب الفراعنــة في القرن الرابع عشر قبـل المسيـح ، فجـاؤوهم بجيـوش جرارة وكسروهم مراراً ، وذلــك في عهــد (سيتي) الأول ، ولا سيما (رعمسيس) الثـاني المعروف بـاسم (سيزوستريس) الـذي خضـد شوكتهم في واقعـة قـادس ، واستولى على بـلادهم ، ثم سالمهم وصاهر ملكهم . وقد وجد الأثريون المنقبون في تل النبي منـد ، آثـاراً مصريـة عـديـدة ، ووجدوا قبلاً في حمص وضواحيها أواني خزفية وحلياً ، وأسلحة ودمى وتماثيل من الصناعـة المصرية ، مـا يـدل على تملـك السلالات ١٨ و ١٩ و ٢٠ على جنوبي مملكـة الحثيين . كما أنـه وجد من آثار الصناعة الحثية ما يدل على عبادة الكواكب والبعل ، وعشتروت وآلهـة مصر ، وهذه العبادة اقتبسها الحثيون من مجاوريهم الفينيقيين والمصريين وغيرهم .

ولمـا انقرض الحثيـون خلفهم الآراميـون ، فجعلـوا حمص عـاصمتهم ، وكان لهم دولــة وصولـة ، ردوا غـارات العبرانيين في عهـد داود وسليمـان ، واستولوا على دمشـق ، فصـارت حمص ودمشق مملكة واحدة ، حكمها ثمانيـة ملوك منهم ، ومـا زالوا حتى جـاء الآشوريـون يغيرون على الشـام ، فقتلوا آخر ملـك آرامي ، واستولـوا على حمص وضـواحيهـا ، ثم جـاء بعدهم الكلدانيون ثم الفرس . ولما انتصر اسكنـدر المكـدوني على الفرس في معركـة إيسوس ، استولى على حمص فيما استولى عليـه من بلاد الشـام ، وأورثهـا لخلفـائـه السلـوقيين ، الـذين سـادوا في شمالي الشـام . ولمـا ضعفت دولـة هـؤلاء ، قـامت في حمص تحت إشرافهم إمـارة عربيـة ، سـادهـا ثمـانيـة أمراء من سنـة ٨١ قبـل الميـلاد إلى سنـة ٩٦ بعــده . وكان أولهم

(شميسغرام) بنى هيكلاً للشمس معبودة الحمصيين ، فاشتهرت حمص به ، وخامسهم (شميسغرام) الثاني ، الذي عاش مئة سنة ، وبنى الصومعة التي هدمت قبل الحرب العامة . ويظهر من كلمة (شميسغرام) أو (سميسغراموس) أنها مؤلفة من سمس أو شمس ، ولا يخفى أن بعلبك القريبة من حمص ، كانت مركزاً لعبادة الشمس ، كما يدل على ذلك اسمها اليوناني (هليوبوليس) ، فلا يبعد أن تكون عبادة الشمس ، انتقلت منها إلى حمص ، وغيرها من البلاد المجاورة .

وقد ازدهرت حمص والرستن في عهد هذه الإمارة العربية ، ونالتا من المجد والعمران حظاً موفوراً ، بقيت آثاره على الأكثر في الرستن كما قدمناه في وصفها ، على أن آثار اليونان في حمص عديدة ، أخصها الكتابات التي وجدت على الأبنية والأضرحة وأسماء الأعلام ، وكلها يدل على أن اللغة اليونانية زاحمت اللغة الآرامية ، وانتشرت في عهد الدولة السلوقية وإمارة آل شميسغرام منها ، الكتابة التي قيل أنها وجدت على الصومعة المذكورة ، وكتابات أخرى وجدت في أحد أسراب حمص ، تحتوي على أسماء بعض الأعيان من (آل شميسغرام) كصهيم وثملات، ما يدل على أن ذلك السرب ، كان مدفناً لهذه الأسرة الملوكية .

ولما انقرضت هذه الإمارة باستيلاء الرومانيين ، ظلت حمص محتفظة بمكانتها ، لاسيا وقد كان فيها هيكل الشمس والحجر الأسود المقدسين . وكان هذا الهيكل ، محجة الزائرين وملاذ اللاجئين من كل الأقطار ، وكانت سدانته بيد كاهن وثني كبير ، من أعقاب آل شميسغرام اسمه (باسيانوس) ، ثم انتقلت هذه السدانة من بعده إلى ذريته . وشيد الرومان في حمص وضواحيها أبنية فخمة ، وأنشؤوا الأرصفة ، التي لاتزال آثار بعضها بادية للعيان كما قدمنا ذكره ، وعززوا الزراعة والتجارة . وفي التلمود : أن أحد قياصرتهم (ديوكلسيان)حفر بحيرة قطينة ، أو بحيرة قادس ، وبنى السد العظيم أمامها لخزن مياه العاصي ، والمرجح أن البحيرة والسد أقدم عهداً منه ، ولعلها من عمل الروتانيين أو الحثيين . وقد نسب ياقوت بناء السد إلى الإسكندر المكدوني .

وأنجبت حمص في تلك الحقبة رجالاً ونساء تسنموا ذرى المجد ، منهم (جوليا دومنا) من أسرة الكاهن باسيانوس ، وقد كانت جميلة فطينة ، تزوجها القائد الروماني (سبتيموس

سفيروس) الذي صار قيصراً (١٩٣ ـ ٢١١ م) ، وكانت أكبر عون له في أجل أعماله . وبعد موت سبتيموس خلفه ابنه (كراكلا) (٢١١ ـ ٢١٥ م) ، وكان مولده في حمص ، رسم على نقوده صورة هيكل الشمس المذكور ، وأنعم على مسقط رأسه حمص ، بامتيازات المدن الرومانية . وكان لجوليا دومنا أخت تدعى جوليا ميزا ، نشأت مثلها في حمص ، لها ابنتان سهيمة ومميا ، ولكل منهما ولد صار قيصراً ، فابن سهيمة (افيتوس باسيانوس) اشتهر بلقب اليوكابال وابن مميا (إسكندر ساويروس) . وكانت أسرتها الحمصية خصصتا هذين الولدين لإجلال الشمس ، معبودة الحمصيين ، وتولى أحدهما اليوكابال سدانة الهيكل وهو في حداثته . ولما قتل (كراكلا) غيلة بيد قائد الجند (مكرينوس) الطامع بالعرش ، ثار اليوكابال منه وصار قيصراً (٢١٨ ـ ٢٢٢ م) ، ونقل الحجر الأسود من حمص ، وشاد له في رومية هيكلاً فخماً ، لكنه أتى بعد من القبائح ، ماأثار الجند عليه فقتلوه ، وأقاموا مكانه ابن خالته (إسكندر ساويروس) (٢٢٢ ـ ٢٣٦ م) ، وقد عده المؤرخون أفضل قياصرة الرومان ، لصلاحه وحسن إدارته ، وبعد موته كانت نشأت دولة (أذينة) التدمري ، وفتحت حمص ، وامتد سلطانها على الشام ومصر وما حولها ، وتطاولت زنوبيا (زينب) لمنازعة الرومان في أملاكهم ، فاضطر القيصر (اورلئانوس) لمحاربتها ، فكسر جيشها مرتين ، أولاهما في سهل العمق قرب بلدة عم (قرية يني شهر) ، والثانية في السهل الممتد بين تلبيسة وحمص سنة ٢٧٢ م ، وقضى عليها . ولم تدخل النصرانية إلى حمص ، وتتغلب على الوثنية التي كانت عريقة في أهلها ، إلا في القرن الثالث الميلادي وما بعده ، على يد القديس (سيلوانس) الذي عُد أول أساقفها ، وقد نبغ بين أهلها كثير من القديسين والمطارنة ، صار أحدهم بابا في رومية ، واستشهد بعضهم في سبيل الدعوة . ولما انتشرت النصرانية في عهد قسطنطين الكبير في القرن الرابع (٣٢٣ ـ ٣٣٦ م) ، بنى فيها كنيسة كبيرة ، كانت تعد من أعظم كنائس الشام .

ولما جاء المسلمون وكسروا الروم في وقعة اليرموك ، كان الأمبراطور (هرقل) في حمص ، فغادرها وجعلها بينه وبين المسلمين . أما فتحها فإليك ماقاله ياقوت في معجمه : « بينا المسلمون على أبواب دمشق ، إذ أقبلت خيل للعدو كثيفة ، فخرج إليهم جماعة من المسلمين ، فلقوهم بين بيت لهيا والثنية ، فولوا منهزمين نحو حمص ، على طريق قارا ، حتى وافوا حمص ، وكانوا متخوفين لهرب هرقل عنهم ، فأعطوا مابأيديهم ، وطلبوا الأمان ،

فأمنهم المسلمون ، فأخرجوا لهم النزل ، فأقاموا على الأرنط ، وهو النهر المسمى بالعاصي ، وكان على المسلمين (السمط بن الأسود) الكندي ، فلما فرغ أبو عبيدة من أمر دمشق ، استخلف عليها يزيد بن أبي سفيان ، ثم قدم حمص على طريق بعلبك ، فنزل بباب الرستن ، فصالحه أهل حمص ، على أن أمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وسور مدينتهم وكنائسهم وأرحائهم ، واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد ، واشترط الخراج على من أقام منهم ، وقيل بل السمط صالحهم ، فلما قدم أبو عبيدة أمضى الصلح ، وأن السمط قسم حمص خططاً بين المسلمين ، وسكنوها في كل موضع ، جلا أهله أو ساحة متروكة » ا هـ . ولما قسم المسلمون الشام إلى مناطق عسكرية ، دعوها أجناداً ، جعلوا حمص مقراً لأحدها لعظم شأنها . وقد بلغ خراج جند حمص بما فيه قنسرين والعواصم إلى بيت المال ٨٠٠ ٠٠٠ دينار ، وفي عهد الرشيد بلغ خراجها وحدها ٣٢٠٠٠٠ دينار ، وألف حمل من الزبيب .

وأما باقي أحداثها بعد الفتح ، فلا تختلف عن التي ذكرناها في حماة ، إلا ببعض زيادات لعلو شأن حمص وتقدمها على حماة . فمن ذلك موقف أهل حمص تجاه الإمام علي ، فقد ذكر ياقوت « أنهم كانوا أشد الناس عليه في وقعة صفين ، وأكثرهم تحريضاً ، ومنها تردد يزيد بن معاوية على حمص ، حينما كان يكثر الإقامة في حوارين إحدى قرى سنير الشرقي ، ومنها استقرار ابنه خالد وبنائه فيها قصراً ، قيل إنه كان في غربي الطريق (؟) ، وقد كان خالد هذا فاضلاً شغوفاً بالفلسفة والكيمياء ، وأكد ياقوت أنه هو المدفون في جامع سيدنا خالد ، وليس خالد بن الوليد الذي مات في المدينة » . ومن أحداث حمص ، وثوب أهلها على عاملهم النعمان بن بشير الأنصاري ، لأنه كان من حزب عبد الله بن الزبير ، لحقوه بعد نصرة مروان بن الحكم ، وقتلوه في بيرين قرب حماة كما قدمنا ، ومنها قيامهم على يزيد الثالث بن الوليد ، حين بويع بعد قتل الوليد الثاني بن يزيد ، وقتلهم عامله في حمص ، ومسيرهم إلى دمشق لحربه ، ورجوعهم منهزمين في ثنية العقاب سنة ١٢٦ هـ ، ومنها قيامهم على إبراهيم بن وليد الأول ، حين بويع بعد موت يزيد الثالث في تلك السنة أيضاً ، ومنها انحيازهم إلى جانب مروان بن محمد ، وسيرهم تحت لوائه ، وفتحهم دمشق سنة ١٢٧ هـ ، ثم انتقاضهم عليه لما أنكر ولاءهم ، فحاصرهم حتى طلبوا الأمان فأمنهم ، وهدم من سور حمص نحواً من غلوة ، وكان هذا النفور سبباً لخذلانه في محاولته رد العباسيين الذين قاموا لنيل الخلافة ، وقد أظهر الحمصيون لمروان آثار

ضغينتهم ، حينما مر بهم سنة ١٣٢ هـ فاراً من وجه عبد الله بن علي العباسي ، فثأر مروان منهم .

ويظهر أن الخلفاء العباسيين الذين ابتعدوا واتخذوا بغداد عاصمتهم ، لم يعنوا بشأن الشام ، ولم يرسلوا إليها عمالاً ذوي كفاءة وحسن إدارة ، فكان ذلك مدرجة لحدوث الفتن والحروب الأهلية ، خاصة في حمص وجندها . وهذه الفتن كانت تارة من القيام لإعادة الملك إلى الأمويين ، وتارة من تأجج نار العصبيات بين القيسيين واليمانيين - وأهل حمص يمانيون نزاعون إلى الثورة - وتارة من الوثوب بأولئك العمال ، ومجيء جيوش الخلفاء لتأديب المتوثبين ، كما جرى في عهد الرشيد سنة ١٩٠ هـ ، والأمين سنة ١٩٤ هـ ، والمتوكل سنة ٢٤٠ و ٢٤١ هـ ، وفي عهد المستعين مرة في سنة ٢٤٨ هـ ، وثلاث مرات في سنة ٢٥٠ هـ ، وفي كل فتنة أو وثبة كان ينال حمص وأهلها من الحرق والخراب والتنكيل شيء غير يسير .

ولما ضعف شأن الخلفاء العباسيين ، ظهرت ملوك الطوائف في الأقطار البعيدة عنهم ، وكان أولهم أحمد بن طولون ، دامت دولته وأعقابه في مصر والشام ، من سنة ٢٦٤ هـ إلى سنة ٢٩٢ هـ ، وفي عهدهم جاء القرامطة وعاثوا في الشام ، ولما وصل زعيمهم أبو شامة سنة ٢٩٠ هـ من دمشق إلى حمص ، أطاعه أهلها ، وفتحوا له بابها ، خوفاً منه وخطبوا له على منابرها ، وبذلك نجت حمص من شر القرامطة ، على خلاف ما جرى بحماة وسلمية والمعرة وغيرها . وبعد أن عاد عمال العباسيين وأداروا الشام مدة ، ظهرت الدولة الإخشيدية في مصر والشام (٣٢٣ - ٣٥٧ هـ) ، وكان أولهم (محمد بن طغج) أراد خلع طاعة العباسيين ، فأرسلوا إليه قائدهم (محمد بن رائق) ، فجاء سنة ٣٢٨ هـ ، واستولى على حمص ودمشق وغيرها ، وجرت بينه وبين الإخشيد حروب ، انتهت باستقرار البلاد للإخشيد وأعقابه . وفي عهدهم قام (لؤلؤ) عاملهم في حمص ، على أبي الطيب المتنبي لما ادعى النبوة في البادية ، فقاتله وأسره مع أشياعه من بني كلب وكلاب وغيرهم من قبائل الأعراب ، وسجنه مدة مديدة حتى تاب .

ولما ظهرت دولة بني حمدان في حلب ، جرى حرب بين أولهم سيف الدولة وجيش الإخشيديين في الرستن سنة ٣٣٣ هـ ، انكسر فيه الإخشيديون على ما قدمنا في بحث

الرستن ، وبقيت دمشق وما يليها بيدهم ، واستقرت حمص مع حلب وأعمالها ، لسيف الدولة وأعقابه من بعده (٣٣٣ ـ ٤٠٦ هـ) . وكان من الأمراء الحمدانيين في حمص في عهد سيف الدولة أبو وائل (تغلب بن داود بن حمدان) ، أسرته القبائل العربية الثائرة على سيف الدولة ، فأوقع بهم سيف الدولة في سلمية كما قدمنا في بحثها ، وأوقع بهم أيضاً في الفرقلس والغنثر ، وجباة وبدمر ، وردم الآبار التي كانت تستقي منها تلك القبائل ، واستخلص أبا وائل ، وكان منهم أيضاً الشاعر الشهير (أبو فراس ابن سعيد بن حمدان) الذي جاء إلى حمص بعد موت سيف الدولة ، وأراد الاستئثار بها ، فنازعه ابن أخته سعد الدولة بن سيف الدولة ، وبعث إليه بجيش وضيق عليه ولحقه ، حتى قتله في قرية صدد سنة ٣٥٨ هـ . وكان الروم البيزنطيون يرون الخلل والضعف السائدين في تلك الحقبة في مصر والشام ، وينتهزون فرصة تطاحن المسلمين بعضهم مع بعض ، فيغيرون من حين إلى آخر على شمالي الشام . وصل ملك الروم (نقفور الفقاش) الذي تقدم ذكره مراراً سنة ٣٥٨ هـ إلى حمص ، وقد أخلاها أهلها ، فأحرقها ورجع إلى بلدان الساحل ، فأتى عليها نهباً وتخريباً ، وعاد ومعه من السبي مئة ألف صبي وصبية كما قدمناه في بحث قلعة بغراس . ذكر ابن حوقل هذه الواقعة في كتابه (المسالك والممالك) قال في بحث حمص : « ودخلها الروم في وقتنا هذا ، وأتوا على سوادها ، وأخربوها ، ثم أن قوماً ممن سلم من الروم ، استوطنوا فيها ، فأتت البادية عليهم ، تأكل زروعهم وتسلبهم مرة بعد أخرى » ا هـ . ـ فتأمل بأعمال أهل البادية التي هي هي في كل عصر ومصر ـ .

وجاء الفاطميون في تلك الحقبة ينتهزون هذه الفرصة أيضاً ، وينازعون العباسيين الخلافة ، فاستولوا على مصر والشام ، في سني ٣٥٨ ـ ٣٦٠ هـ ، لكن الشام لم تصف لهم كما ينبغي ، وظلت الحروب ناشبة بين جيوشهم والمتوثبين من العمال والأهلين في بلاد الشام . على أن الحمدانيين خطبوا للفاطميين أبناء مذهبهم الشيعي ، فظلت السلطة في شمالي الشام ومنها حمص بيدهم . وكان منهم بعد سيف الدولة ابنه سعد الدولة ، ولى أحد قواده (بكجور) سنة ٣٦٥ هـ على حمص ، فعمرها هذا ، بأمر مولاه بعد الخراب الذي فعله الروم فيها ، نكاية بسعد الدولة ، الذي لم يعترف بالمعاهدة التي عقدوها مع مولى أبيه قرعويه ، في سنة ٣٥٩ هـ ، وقد قدمنا ذكر ذلك في بحث شيزر والمعرة . وكان في حمص من آثار (بكجور) مأذنة دثرت هي وجامعها من عهد قريب ، كانت عليها كتابة كوفية

تعد من النفائس ، إلا أن بكجور خانَ بعد حين مولاه ، وحاربه فانكسر وقتل . وعاد الروم سنة ٣٨١ هـ بقيادة (باسيل) إلى حمص ، فنهبوا وسلبوا ، وأحرقوا الجامع ومواضع في البلد ، وتحصن قوم بالمغائر ، فأوقدوا عليهم فأهلكهم الدخان . وعادوا إليها ثالثة سنة ٣٨٨ هـ بقيادة (دوقس) أنطاكية ، فنازلوها ولجأ بعض أهلها إلى كنيسة (مار قسطنطين) تحرماً بها ، فأحرقوها بمن فيها ، وكانت ـ كما قال المسعودي ـ إحدى عجائب العالم ، وحملوا نحاسها ورصاصها . فهذا الخرب والحرق اللذين كررهما الروم ثلاث مرات مترادفات ، أجهزا على عمران حمص القديم بالكلية ، وحرماها المعابد العظيمة ، والقصور الفخمة ، والآثار القيمة التي كانت تزدان بها في عهد الرومانيين والأمويين ، ولم يسعدها الحظ في العصور التالية ، بمن يعمر خرابها ويزيل شقاءها كما ينبغي .

وبعد أن زالت دولة بني حمدان سنة ٤٠٦ هـ ، وزاد ضعف الفاطميين ، تقاسمت أمراء القبائل العربية البلاد الشامية ، وكانت حمص من حصة (صالح بن مرداس) أمير بني كلاب ، صاحب حلب وأعمالها ، ثم أعقابه من بعده ، وكان منهم في حمص شبل الدولة (نصر بن مرداس) ، أسكن سنة ٤٢٤ هـ في حصن الصفح قوماً من الأكراد ، ليحرسوا الطريق بين طرابلس وحمص ، فنسب الحصن من ذلك الحين إليهم كما قدمنا . ثم كان منهم في حمص وسلمية سنة ٤٧٥ هـ وما بعدها ، سيف الدولة (خلف بن ملاعب) الذي مر ذكره في بحث سلمية ، وكان عسوفاً شريراً .

ولما جاء السلجوقيون ، وفتحوا حلب سنة ٤٦٣ هـ ، ودمشق سنة ٤٦٨ هـ ، خطبوا للعباسيين ، وأزالوا حكم الفاطميين عن داخل الشام خلا ساحله ، ولما بلغت أخبار (خلف بن ملاعب) ومساويه ، وانحيازه للفاطميين مسامع السلطان (ملكشاه) السلجوقي ، أمر ابن أخيه تاج الدولة (تتش) ملك الشام ، أن يستخلص حمص منه ، فحاصره تاج الدولة سنة ٤٨٣ هـ وأسره ، وقيل استلم حمص منه بالأمان ، فتوجه خلف إلى حصن أفامية وملكه ، إلى أن استخلصوه منه أيضاً كما قدمنا ، وظلت حمص تابعة لتاج الدولة (تتش) إلى أن قتل سنة ٤٨٧ هـ ، فخلفه ابنه الأول تاج الملوك (رضوان) في حلب ، وابنه الثاني شمس الملوك (دقاق) في دمشق . وفي سنة ٤٩٠ هـ عهد تاج الملوك بعمالة حمص لأتابكه جناح الدولة (حسين) ، فجاء وحصنها وأحكم قلعتها . وفي زمنه جاء الصليبيون ، بعد أن استولوا على أنطاكية والمعرة ، فصالحهم جناح الدولة على غرامة أداها

ودفع شرهم ، ولكنه بعد رسوخهم في الساحل ظل يناوئهم ، وبينما كان على أهبة السفر إلى حصن الأكراد ، لدفع الصليبيين الذين أقدموا على حصره ، اغتاله سنة ٤٩٦ هـ ثلاثة من الإسماعيلية في الجامع ، وهو داخل لأداء صلاة الجمعة ، فأراد الصليبيون انتهاز هذه الفرصة ، للاستيلاء على حمص ، ووصلوا إلى الرستن ، فاستنجد أهل حمص بملك دمشق شمس الدين دقاق وأتابكه طغتكين ، فجاءا ، ولما عرف الإفرنج بهما أحجموا ورحلوا . وفي ٥٠٦ هـ تولى حمص (قراجة) أحد مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي ، ولما مات خلفه ابنه (خير خان) ، وفي سنة ٥١٧ هـ هاجم طغتكين صاحب دمشق حمص[1] وأحرق ربضها ، ولكنه لم يستطع استخلاصها من خير خان ، وفي سنة ٥٣٠ هـ سلم أبناء خير خان حمص إلى صاحب دمشق (شهاب الدين محمود بن طغتكين) لاستمرار عماد الدين زنكي صاحب حلب في مضايقتها ، ولعجزهم عن دفعه ، وذلك لقاء إقطاعه لهم تدمر والرحبة . لكن نواب عماد الدين زنكي في حماة ، لم ينفكوا عن الغارة على حمص ، ورعي زروعها إلى أن أسفرت المراسلات ، عن تسليم حمص لعماد الدين ، فأورثها هذا لابنه نور الدين محمود . وفي عهد نور الدين خربت حمص ، بالزلزلة الهائلة التي حدثت سنة ٥٥٢ هـ ، فرممها نور الدين كغيرها .

وأقطع نور الدين حمص والرحبة وتدمر إلى (أسد الدين شيركوه) ابن عم صلاح الدين الأيوبي ، ثم أرسل نور الدين شيركوه مع صلاح الدين إلى مصر لدفع الإفرنج عنها ، فوفق إلى ذلك ، ثم توفي فيها سنة ٥٦٤ هـ ، ولما مات أخذ نور الدين حمص من ولده ناصر الدين محمد ، وأقطعها إلى غيره ، ولما ملك صلاح الدين بلاد الشام أخذ حمص من عمال الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين سنة ٥٧٠ هـ ، وذلك بعد حصار وقتال ، لكنه لم يفتح قلعتها إلا عقيب رجوعه من حلب ، وكان الإفرنج قد نازلوا حمص في غيابه ، فلما أتى رحلوا عنها ، فحصر القلعة إلى أن ملكها في تلك السنة . وفي سنة ٥٧٤ هـ أقطع صلاح الدين حمص ومضافاتها إلى ناصر الدين محمد المذكور ، كما أقطع حماة إلى ابن أخيه تقي الدين عمر ، فبقي محمد في حمص حتى سنة ٥٨١ هـ ، قيل أن

---

(١) من الغريب أن لا يعرف الآن أحد في دمشق قبر هذا الرجل ، الذي يعد من عظماء ملوك المسلمين ، في الصلاح والعدل ، والعمران والجهاد .

صلاح الدين دس عليه من سقاه سماً ، لدسيسة بلغته عنه ، ونقلته زوجته بنت عمه ست الشام بنت أيوب ، إلى تربتها بمدرستها في دمشق . وملك حمص بعده ولده أسد الدين شيركوه الثاني ، وعمره اثنتا عشرة سنة ، وكانت له أيضاً الرحبة وتدمر وماكسين (؟) من بلد الخابور . وقد ظل شيركوه هذا ملكاً ستاً وخمسين سنة ، وكان يلقب بالملك المجاهد ، حصره الصليبيون سنة ٦٠٤ هـ ، فلم يكن له بهم قوة ، فاستنجد بالملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب فأنجده ، وقد قدمنا في بحث سلمية أنه كان عسوفاً برعيته ، عدواً لدوداً لأبناء عمه التقويين أصحاب حماة ، ينازعهم الملكية على سلمية ، عمر سنة ٦٢٧ هـ قلعة شميميس وقطع ماء القناة التي كانت تجري من سلمية إلى حماة ، فيبست بساتينها ، ثم عزم على قطع نهر العاصي عن حماة ، فسد مخرجه من بحيرة قدس ، فبطلت نواعير حماة والطواحين ، لكن العاصي عاد ، فهدم السدود ورجع إلى مجراه . وقد آذى شيركوه التقويين ومدينة حماة كثيراً ، وأضعف شأنهم وشأنها ، إلى أن مات سنة ٦٣٧ هـ في حمص ودفن في تربته داخل البلد[1] ، فخلفه ابنه المنصور إبراهيم ، وقد اشترك هذا في المعارك التي نشبت بين جيوش الملك الصالح إسماعيل والخوارزمية ، فانتصر في بعضها وفشل في البعض ، إلى أن مات سنة ٦٤٤ هـ في دمشق بالسل ، فنقل إلى حمص ، ودفن قبلي البلد في مسجد الخضر ، وخلفه ابنه الأشرف موسى ، فسلم سنة ٦٤٥ هـ قلعة شميميس ، إلى الملك الصالح أيوب ملك مصر والشام . وفي سنة ٦٤٦ هـ أرسل الملك الناصر صاحب حلب ، وحاصر حمص وأخذها من الأشرف موسى ، وعوضه عنها تل باشر ، مضافاً لما بيده من الرحبة وتدمر . ولما جاء هولاكو طاغية التتر وقاتل الناصر ، واستولى على حلب سنة ٦٥٧ هـ التجأ إليه الأشرف موسى ، فأكرمه وأعاد إليه حمص . وكان هولاكو أمره أن يخرب

---

(١) هذه التربة في حي آل السباعي في حمص ، تحت قبة يظهر أنها كان حولها فيا مضى بناء فخم دثر ، وأضحت التربة في عهدنا ، ضمن دار حقيرة ، يقطنها أناس فقراء ، لا يعرفها إلا بعض النساء ، اللواتي يزرنها للاستشفاع بصاحب التربة ، لا يدرين من هو إلا أنه من الأولياء . ولما زرتها في ربيع سنة ١٣٥١ هـ ، وجدت القبر منبوشاً نبشاً فظيعاً ، من عهد وجيز ، بيد أناس مجهولين ، يظهر أنهم من لصوص العاديات . وقد أسفت وتألمت لهذه المهانة ، وانتهاك الحرمة اللتين أنزلتا بالملك المجاهد ، وقد كان على علاّته عظيماً مهاباً ، خدم هو وأعقابه حمص ، واستحق حفظ الكرامة وعدم الإزعاج في مرقده على الأقل . وقد أخبرت إذ ذاك أولياء الأمور في حمص وبعض متعلميها ، ونشدتهم العناية بما جرى ، اتقاء لما قد يجري في مراقد أسلافنا وآثارهم ، فكأنني كنت أنفخ في رماد .

قلعة حمص فلم يخرب منها إلا قليلاً لأنها بلده . ولما أوقع الملك المظفر قطز صاحب مصر بالتتر ، في عين جالوت (غور بيسان) سنة ٦٥٨ هـ ، كان الأشرف موسى معهم ، ففارقهم وطلب الأمان من المظفر قطز ، فأمنه وأقره على حمص ومضافاتها . وفي سنة ٦٥٩ هـ عاد التتر إلى الشام ، ووصلوا إلى حمص ، فلاقتهم جموع المسلمين في ظاهر حمص ، في السهل الممتد بينها وبين تلبيسة ، وكانوا بقيادة الأشرف موسى صاحب حمص ، والمنصور صاحب حماة فانكسر التتر . وفي سنة ٦٦٢ هـ مات الأشرف موسى دون عقب ، ودفن عند جده ، فانقرض بموته ملك آل شيركوه والبيت الأسدي .

وتدل عبارة التواريخ ، على أن هؤلاء آل شيركوه الأسديين الأيوبيين الذين تملكوا حمص زهاء مئة سنة ـ خلا بعض فترات كانت تنزع فيها من أيديهم ـ كانوا خمسة ملوك ذوي سطوة تخاف ، وبأس يخشى ، كما جاء في التعريف ، وقد خدموا حمص ، وعمروا قلعتها وأسوارها ، ودافعوا عنها ، لكن لم تحمد سيرتهم ، ولم تظهر منهم أفعال مشكورة نحو خدمة العمران والعلم ، ومناوأة الصليبيين والتتر ، بقدر مافعله أبناء أعمامهم التقويين الأيوبيين في حماة . ولعله كان لهم في قصر مدتهم ، وفقدان الأسباب التي قد تكون تيسرت للتقويين وتعسرت عليهم ، ما يبرر هذا التقصير .

ومما يستحق الذكر ، أن الصليبيين حاولوا الاستيلاء على حمص مراراً ففشلوا ، كما فشلوا في حلب وحماة ودمشق ، وذلك بهمة عمال حمص السلجوقيين وملوكها آل شيركوه ، على مانوه به وامتدحه الرحالة ابن جبير ، لكن الصليبيين ونخص بالذكر الفرسان الاسبتارية ، المرابطين في حصن الأكراد ، كانوا لا ينفكون عن الإغارة عليها ، وفرض الأتاوات على أهلها ، كما كانوا يعملون في حماة ، حتى أن ضمان صيد السمك في بحيرة حمص كان لهم .

ولم تعد تذكر التواريخ أسماء من تولوا نيابة حمص في دولة المماليك ، ولا أحداث حمص ، إلى أن وقع سنة ٦٨٠ هـ مصاف عظيم ثان في مكان المصاف الأول ، وذلك في عهد الملك المنصور قلاوون ، فانكسر التتر أيضاً ، وكانوا بقيادة (منكوتمر بن هولاكو) . ثم وقع مصاف ثالث سنة ٦٩٩ هـ في مكان أسماه المؤرخون مجمع المروج ، وزعموا أنه في شرقي حمص ، على نحو نصف مرحلة منها ، وليس الآن لهذا الاسم أثر ، فهو على ماأظن وادي

الميـدان ، عنـد قريـة وريـدة ، التي تبعـد ٢٢ كيلو متراً عن حمص إلى الشرق ، أي مقـدار نصف المرحلـة التي ذكرت ، وليس ثمة أصلح من هـذا المكان لمثـل ذلـك المصـاف العظيم .
وكان هذا المصاف في عهد الملك الناصر (محمد بن قلاوون) دارت الدائرة فيه على المسلمين ، وأدى الأمر لـوصـول التتر الـذين كانـوا بقيـادة (غـازان بن آرغـون) إلى دمشـق وغـزة والكرك ، وإفحاشهم في الشام كله ، ظلوا على ذلك ، حتى عاد وانتصر عليهم الملك النـاصر المذكور في معركـة مرج الصفر ، قرب شقحب جنوبي دمشق سنـة ٧٠٢ هـ . وكانوا إذ ذاك بقيادة (قطلو شاه) نائب غازان . ولما جاء تيمور لنك سنة ٣٠٨ هـ وخرب حلب وحمـاة ، قيل إنه لم تطل يده إلى حمص ، بل وهبها إلى خالد بن الوليـد ، ويظهر أن هـذه المعـارك الثلاث ، والخراب الذي أورثه تيمورلنك في عـامـة مـدن الشـام ، والطـاعون الهـائل الـذي حصد سكان حمص فيا حصده من بقية مدن الشام سنة ٧٤٣ هـ ، وفتن الأعراب التي بـدأت في تلك الحقبة ، كما قدمنا في بحث سلمية ، وأخربت أرباض حمص وقراها الشرقية ، التي لا حيـاة لحمص بـدونهـا ، كل ذلـك حـط شـأن حمص فوق مـا كان منحطـاً من قبـل ، بفعـل الثورات والروم والزلازل والصليبيين ، فقل سكانها وخمل ذكرها كثيراً .

ولما فتح العثمانيون الشام سنة ٩٢٢ هـ ، جعلوا حمص أحد الألويـة الخمسـة ، التـابعـة لإيـالـة طرابلس ، وهي : طرابلس وحمص وحماة وسلميـة وجبلـة . ونـال حمص في العهـد الثاني ، مـا نـال القطر الشـامي كلـه من الإهمـال وسوء التـدبير ، يحكمهـا تـارة أمراء ألويـة أتراك ، وتارة متسلمون يدعون بالأغوات ، يتبعون حينـاً طرابلس ، وحينـاً دمشق . ومن هؤلاء الأغوات أربعة من آل سويدان ، رفعتهم أحداث تلـك الحقبـة ، فتعـاوروا الحكم على حمص ، من غرة القرن الثاني عشر إلى آخره . ولا تزال أعقاب هـذه الأسرة ، سـائـدين في قريـة حسيـة ، جنـوبي حمص كما سيـأتي ذكره . وظلت حمص مهجـورة الـذكر ، ضئيلـة الشـأن ، لخراب أربـاضهـا وقراهـا الشرقيـة ، من دوام فتن الأعراب ، وغـاراتهم التي كانت تصل إلى أبواب حمص ، وذلك في عهد العثمانيين كلـه ، كما أيـده سـائحنـا (أوليـا جلبي) ، تغلق أبواب السور بعد الغروب ، وينزوي كل امرئ إلى داره ، لا يجرؤ على الخروج منـه ، إلى أن جـاء إبراهيم بـاشـا المصري سنـة ١٢٤٨ هـ ، واستـولى عليهـا ، بعـد أن كسر الجيش العثمـاني مرتين ، الأولى في المعركـة التي جرت في سهل قريـة الـزراعـة ، جنـوبي القصير في ٥ ذي القعدة سنة ١٢٤٧ هـ الموافق ٤ نيسان ١٨٣٢ م ، وكان قائـد الجيش عثمان بـاشـا والي

طرابلس ، والثانية في المصاف العظيم الذي جرى في ٩ صفر ١٢٤٨ هـ الموافق لـ ٨ تموز ١٨٣٢ م ، في السهل الممتد جنوبي كروم حمص الحالية ، في أرض السوامات على طرفي طريق دمشق ، وكانت جبهة الجيشين تمتد من شرقي تل بابا عمرو ، إلى غربي فيروزة ، وقد اشتركت إذ ذاك مدافع قلعة حمص ، بإطلاق قنابلها على المصريين فلم تفد ، وانكسر الجيش العثماني ، وكان قائده محمد باشا والي حلب ، الذي أوفده السردار حسين باشا المرابط وقتئذ في بيلان . وبقيت حمص في حوزة إبراهيم باشا ثماني سنوات ، نشر فيها كما نشر في غيرها من مدن الشام ، العدل والنظام ، ووطد الأمن في ضواحيها . وأكد لي بعض المعمرين ، أنه عمرت في تلك المدة الوجيزة ، بعض قراها الشرقية ، كالمشرفة وشمسين ، وشنشار والزعفرانة . ولم يتبرم أهل حمص من دولة الباشا المذكور ، إلا من قيامه لتجنيد الشبان ، وإثقال كاهلهم بالضرائب ، وتسخيرهم بإشادة المسلحة والمستودع العسكري ، على أنهم لم يثوروا عليه كما ثارت بعض البلاد الشامية ، ضد هذه المحدثات ، خلافاً لما قاله (سوبر نهايم) في المعلمة الإسلامية في مادة (حمص) ، أن الحمصيين ثاروا على إبراهيم باشا ، لما استبد عماله فيهم ، ولم يثوبوا إلا بعد لأي . ولم أدر من أين استقى هذا الخبر ، وقد تأكدت من المعمرين عدم وقوعه ، ناهيك عن عدم ذكره في التواريخ الباحثة عن أعمال الباشا المذكور . ولما عاد الحكم للعثمانيين سنة ١٢٥٦ هـ ، عادت الفوضى ، واستأنف أعراب البادية غاراتهم ، فرجع الخراب إلى القرى التي ذكرنا عمرانها في عهد إبراهيم باشا ، وظلت حمص على هذه الحالة القلقة نحو ربع قرن ، وهي مركز قضاء يتبع لواء حماة ، إلى أن حسنت الحالة في الجملة بعد سنة ١٢٨٠ هـ ، وكان عدد سكانها لا يتجاوز إذ ذاك عشرة آلاف فنشطت من كبوتها ، ونمت زراعتها بنسبة ازدياد الأمن والعمران في براريها الشرقية ، سيما بعد أن أعاد (مدحت باشا) إليها القرى القريبة منها ، وقد كان معظمها تابعاً لحماة ، أو لحصن الأكراد ، وبعد أن عني السلطان (عبد الحميد) باقتناء الضياع والمزارع ، كما قدمنا ذكره في بحث الحمراء ، وكان له منها في شرقي حمص حصة موفورة . واتسعت صناعتها وتجارتها ، بعد أن مدت الطريق المعبدة بينها وبين طرابلس وحماة ، ومشت حافلة (الدليجانس) في سنة ١٣٠٢ هـ ، ثم ازداد هذا الاتساع بعد مد السكة الحديدية الذاهبة إلى رياق وحلب سنة ١٣٢٠ هـ ، مما جعل حمص ممر تجارة الشام الشمالية على ما أسلفنا ، وبعد الحرب العامة جعلت مركز لواء ، يتبعه قضاءا المركز والقريتين فحسب .

غابر حمص وحاضرها : وإليك ماقاله جغرافيو العرب في وصف حمص : قال اليعقوبي من رجال القرن الثالث في كتابه (البلدان) « ومدينة حمص من أوسع مدن الشام ، وأهلها جميعاً من يمن ، من طيء وكندة ، وحجر وكلب ، وهمدان وغيرهم » ا هـ . وفي قوله هذا إشارة إلى ماكانت عليه حمص حتى القرن الثالث ، من الوسعة والعمران ، إلى ان القبائل العربية اليمانية التي توافدت بعد الفتح الإسلامي ، استقرت في حمص . وقيل أن سكنى العرب في حمص ، ومعرفتهم بها قديمة ، ذكرها امرؤ القيس في قوله :

لقد أنكرتني بعلبك وأهلها ولابن جريج كان في حمص أنكرا

وذكرها الأعشى الكبير ميمون بن قيس في قوله :

ولقد طفت للمال آفاقه عمان فحمص فأوريشليم
فنجران فالرد من حمير فإني مرام له لم أرم

وقال ابن الفقيه الهمذاني من رجال القرن الثالث أيضاً ، في كتابه (البلدان) « وقالوا حمص من بناء اليونانيين ، وزيتون فلسطين من غرسهم ، وكانت مفروشة بالصخر ، وهي اليوم كذلك ، ومن عجائب حمص صورة على باب المسجد الجامع ، بجنب البيعة على حجر أبيض ، أعلى الصورة صورة إنسان ، وأسفلها صورة عقرب ، فإذا لدغ العقرب إنساناً ، فأخذ طيناً ووضعه على تلك الصورة ، ثم أراقه بالماء وشربه ، سكن وجعه وبرئ من ساعته ، ويقال أن تلك الصورة طلسم للعقرب خاصة ، وخراج حمص ٣٤٠٠٠٠ دينار ، وأقاليمها كثيرة ، منها إقليما سلمية وتدمر » . وقال ابن حوقل في القرن الرابع في كتابه (المسالك والممالك) : « حمص مدينة في مستواة خصبة ، صحيحة الهواء ، من أصح بلدان الشام هواء وتربة ، في أهلها خبال مفرط - وفي بعض النسخ جمال مفرط - وليس بها عقارب أو حيات ، وإذا دخلت الحية أو العقرب إليها ماتت ، ولها مياه وأشجار وزروع كثيرة ، وأكثر زروع رساتيقها أعذاء ، وبها بيعة بعضها المسجد الجامع ، وشطرها للنصارى ، فيه هيكلهم ومذبحهم ، وبيعتهم من أعظم بيع الشام ، ودخلها الروم في وقتنا هذا (يشير إلى مجيئهم سنة ٣٥٨ هـ) ، وأتوا على سوادها وأخربوها ، وجميع طرق حمص من أسواقها وسككها مفروشة بالحجارة والبلاط ، وزاد اختلالها بعد دخول الروم إليها . الخ .. » ا هـ . وكرر الأصطخري من رجال القرن الرابع في كتابه (مسالك الممالك)

عبارة ابن حوقل ، ولم أدر أيها نقل عن الآخر . وزاد أبو عبد الله المقدسي ، من رجال ذلك القرن أيضاً في كتابه ، (أحسن التقاسيم) خبر تمثال النحاس ، الذي كان فوق قبة الجامع ، واقفا على سمكة ، تديرها الأرياح الأربع ، ثم قال : وفي حمص أقاويل لاتصح ، والبلد شديد الاختلال ، متداع إلى الخراب ، والقوم حمقى (كذا) ، والأسعار بها رخيصة ، والقصبة قريبة من البادية رحبة طيبة » اهـ .

قلت : يظهر مما ذكره هؤلاء الجغرافيون ، أن أسواق حمص كانت ـ كما هي في يومنا ـ مبلطة في عهدهم ، وربما من قبلهم أيضاً ، وأن مسجدها الجامع كان لا يزال نصفه للنصارى ، ومما يستغرب منهم ، اهتمامهم بذكر العقارب والحيات ، واستحالة دخولها لحمص ، واعتقادهم بتأثير الطين الذي يوضع على الصورة التي كانت فيما قالوا على باب المسجد الجامع ، وقد نقل سائحنا (أوليا جلبي) هذه الخرافة ، وأيدها بدليل ، زعم أنه وقع مع مملوك له ، ولعله نقل هذا الخبر عن أولئك الجغرافيين وعن غيرهم ، من مؤلفي العرب كالقزويني في كتابه (عجائب المخلوقات) وابن الأثير في كتابه (تحفة العجائب) وابن الشحنة في كتابه (الدر المنتخب في تاريخ حلب) ومما قاله الأول ، « لا يكاد يلدغ بها عقرب أو تنهش حية ، ولو غسل ثوب بماء حمص لا يقرب عقرب لابسه » ، ومما قاله الثاني : « ويحمل من ترابها إلى البلاد لمداواة لدغ العقرب » . ومما قاله الثالث : « وإن العقرب لاتقرب ثياب الحمصي وأمتعته ، مادام عليها من غبار ترابها » اهـ .

أما الإدريسي وهو من رجال القرن السادس ، فقد أجاد وصف حمص قبل خرابها بزلزلة ٥٥٢ هـ ، وذلك في كتابه (نزهة المشتاق) قال : « أما أرض حمص ، فإن مدينتها حمص وهي حسنة ، في مستو من الأرض ، وهي عامرة بالناس ، والمسافرون يقصدونها بالأمتعة والبضائع في كل فن ، وأسواقها قائمة ، ومسرات أهلها دائمة ، وخصبهم رغد ، ومعايشهم رخيصة ، وفي نسائها جمال وحسن بشرة ، وشرب أهلها من ماء يأتيهم في قناة من قرب قرية جوسية[1] ، والمدينة منها على مرحلة مما يلي دمشق ، ونهر الأرنط المسمى

(١) كانت تأتي قناة جوسيه ، وتصب في خزان يقع في شرقي المدرسة الإنكليزية ، في حي باب السباع ، ومنه كانت تتوزع إلى جميع أحياء البلدة . ولا تزال القساطل الفخارية الحمراء ظاهرة في أماكن عديدة في أكثر أنحاء حمص . وقد حاول الحمصيون سنة ١٣٢٣ هـ جر ماء هذه القناة كما كانت في الماضي ، وجمعوا له مبالغ ، لكنهم أحجموا لما رأوا عظم المشروع وعجزهم عنه .

المقلوب ، يجري على بابها بمقدار رمية سهم ، ولهم عليه قرى متصلة ، وبساتين وأشجار ، وأنهر كثيرة ومنها تجلب الفواكه إلى المدينة ، وكانت في مدة الإسلام من أكثر البلاد كروماً ، فتلف أكثرها ، وثراها طيب للزروعات واقتناء الغلات ، وهواؤها أعدل هواء يكون بالشام . ومدينة حمص مطلسمة ، لا يدخلها حية ولا عقرب ، ومتى أدخلت على باب المدينة هلكت في الحال ، ويحمل من ترابها إلى سائر البلاد ، فتوضع على لسعة العقرب فتبرأ ، وبها على القبة العالية التي في وسطها ، صنم من نحاس على صورة الإنسان الراكب ، يدور مع الريح حيثما دارت . وفي حائط القبة حجر عليه صورة عقرب ، فإذا جاء إنسان ملدوغ ، يضع الطين على اللسعة ، فتبرأ للحين ، وجميع أزقتها وطرقها مفروشة بالحجر ، وزراعتها مباركة كثيرة ، وزروعها تكتفي باليسير من المطر والسقي ، وبها مسجد وجامع كبير من أكبر جوامع مدن الشام » ا هـ .

ومر الرحالة ابن جبير في القرن السادس بحمص سنة ٥٨٠ هـ ، ولم تكن قد نهضت من عثرتها بعد زلزلة سنة ٥٥٢ هـ ، والصليبيون لا ينفكون عن الغارة عليها ، فقال : « حمص فسيحة الساحة ، مستطيلة المساحة ، نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة ، موضوعة في بسيط من الأرض ، عريض مداه ، لا يخترقه النسيم بمسراه ، يكاد البصر يقف دون منتهاه ، أفيح أغبر ، لا ماء ولا شجر ولا ظل ولا ثمر ، فهي تشتكي ظمأها ، وتستقي على البعد ماءها ، فيجلب لها من نهرها العاصي ، وهو منها بنحو مسافة الميل ، فعليه طرة بساتين ، تجتلي العين خضرتها ، وتستغرب نضرتها ، ومنبعه في مغارة بسفح جبل فوقها برحلة ، بموضع يقابل بعلبك أعادها الله[1] ، وهي عن يمين الطريق إلى دمشق . وأهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتمرس بالعدو ، لمجاورتهم إياه[2] ، وبعدهم في ذلك عن أهل حلب . فأحمد خلال هذه البلدة هواءها الرطب ، ونسيمها الميمون تخفيفه وتجسيمه ، فكأن الهواء النجدي في الصحة شقيقه وقسيمه ، وبقبلي هذه المدينة قلعة حصينة منيعة ، عاصية غير مطيعة ، قد تميزت وانحازت بموضوعها عنها ، وبشرقيها جبانة فيها قبر خالد بن

---

(١) كانت بعلبك سنة مرور ابن جبير في حوزة بهرام شاه حفيد صلاح الدين الأيوبي ، ولم تذكر التواريخ قط دخول الصليبيين إليها ، وخروجها من يد الأيوبيين ، حتى يصح دعاء ابن جبير بإعادتها . فكيف جاز عليه هذا الخطأ ؟

(٢) عنى بالعدو صليبيي طرابلس وحصن الأكراد .

الوليد رضي الله عنه ، سيف الله المسلول ، ومعـه قبر ابنـه عبـد الرحمن ، وقبر عبـد الله بن عمر رضي الله عنهم . وأسوار هذه المدينـة في غـايـة العتـاقـة والوثـاقـة ، مرصوص بنـاؤهـا بالحجارة الصم السود ، وأبوابهـا أبواب حـديـد ، سـاميـة الإشراف ، هـائلـة المنظر ، رائعـة الإطلال والأناقة ، تكتنفهـا الأبراج المشيـدة الحصينـة ، وأمـا داخلهـا مـاشئت من باديـة شعثاء ، خلقة الأرجاء ، ملفقة البناء لا إشراق لآفاقها ، ولا رونق لأسواقها ، كاسدة لا عهـد لها بنفاقها ، وما ظنك ببلد حصن الأكراد منه على أميـال يسيرة ، وهو معقل العـدو ، فهو منه تتراءى ناره ، ويحرق إذا يطير شراره ، ويتعهد إذا شاء كل يوم مغاره ، وسـألنـا أحـد الأشياخ بهذه البلدة هل فيها مارستان ، على رسم مـدن هـذه الجهـات ، فقـال : وقـد أنكر ذلك ، حمص كلها مارستان ، وكفاك تبييناً شهادة أهلها فيها وبها مدرسـة واحـدة ، وتجـد في هذه البلدة عند إطلالك عليها من بعد ، في بسيطها ومنظرها وهيئـة موضوعهـا ، بعض شبه بمدينة إشبيلية من بلاد الأندلس ، يقع للحين في نفسك خياله ، وبهـذا الاسم سميت في القـديم ، وهي العلـة التي أوجبت نزول الأعراب أهل حمص فيهـا ، حسبـا يـذكر ، وهـذا التشبيه وإن لم يكن بذاته ، فله لمحة من إحدى جهاته » اهـ .

وممـا يستغرب أن خبر الخبـال والحمق ، اللـذين وصف ابن حوقل والمقـدسي بها أهـل حمص ، في القرن السـادس ، كرره يـاقوت في القرن السـابع ، وزاد عليـه وصمات أخرى ، حملته على ذكرهما بواعث نفسانية على مـانظن ، قـال : « ومن عجيب مـاتـأملتـه من أمر حمص ، فساد هوائها وتربتها (كذا) اللذين يفسـدان العقل ، حتى يضرب بحماقتهم المثل ، أن أشد الناس على علي رضي الله عنه بصفين مع معاوية كان أهل حمص ، وأكثرهم تحريضـاً عليه ، وجداً في حربه . فلما انقضت تلك الحروب ، ومضى ذلك الزمن ، صـاروا من غلاة الشيعة ، حتى أن في أهلهـا كثيراً ممن رأى مـذهب النصيريـة ، وأصلهم الإمـاميـة ، الـذين يسبـون السلف ، فقـد التزمـوا الضـلال أولاً وآخراً ، فليس لهم زمـان كانـوا فيـه على الصواب » . وذكر ياقوت أيضاً في حـديث الـدير الـذي كان في الميـاس ، أجمل متنزهـات حمص على العاصي ، أبياتاً من الشعر ، وصف بها أهل حمص بقلة العقل ، وذلك في حكايـة موت الشاعر البطين ، الذي كان نائماً في ذلك الدير للاستشفـاء من مرضـه ، واعتقـاد أهل حمص ، أن الذي أماته هو الشـاهـد المـدفون في الـدير ، وقيـامهم لهـدمـه ، وكرر يـاقوت أيضـاً ، حـديث صورة الإنسـان وصورة العقرب نقـل ذلـك عمن تقـدمـه . وقـال أيضـاً :

وبحمص من المزارات والمشاهد مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وبها دار خـالـد بن الوليد وقبره فيما يقال ، وبعضهم يقول أنه مات بالمدينة ودفن بها ، وهو الأصح ، وعند قبر خالـد عيـاض بن غنم القرشي رضي الله عنـه ، الـذي فتح بلاد الجزيرة ، وفيـه قبر زوجـة خالد بن الوليد وقبر ابنه عبد الرحمن ، ويقال أن خالد بن الوليد مات بقريةعلى نحو ميل من حمص ، وأن هذا الذي يزار بحمص إنما هو قبر خالد بن يزيد بن معاوية ، وهو الـذي بنى القصر في حمص ، وآثار هـذا القصر في غربي الطريق بـاقيـة . وبحمص قبر سفينـة مولى رسـول الله ، وقبر قنبر مـولى علي بن أبي طـالـب ، وقبـور لأولاد جعفر بن أبي طـالـب ، ومقام كعب الأحبـار ، ومشهـد لأبي الـدرداء وأبي ذر وغيرهم . وينسب إليهـا جمـاعـة من العلماء ، من أعيانهم محمد بن عوف بن سفيان أبو جعفر الطائي الحـافـظ ، ومحمـد بن عبيـد الله بن الفضل أبو الحصن الكلاعي . إلخ ..

وفي دولة المماليك الأتراك ، زاد انحطاط شـأن حمص ، من وفرة مـا نـالهـا في الحروب الثلاثة ، التي جرت حولها مع التتر ، نـاهيـك عمـا كان أصـابهـا من الروم ومن الصليبيين . وبعد أن كانت نيابتها جليلـة ، يليهـا ـ حتى أيـام الملـك النـاصر محمـد بن قلاوون ـ مقـدم ألف ، صارت بعده طبلخاناة . وقـد نقل القلقشنـدي في (صبح الأعشى) مـا كتبـه الملـك المشار إليه في مرسومه ، لأحد أولئك النواب ، ما يشير إلى ذلك الانحطاط ، جاء فيه بعـد مقدمة طويلة : « وكانت حمص المحروسة من أكبر الممالك القديمة ، والمـدن العظيمـة ، تغرق الأقاليم في مدها ، وتمتد عساكرها ، فتعـد حمـاة من جنـدهـا ، وهي من الشـام المحروس في ملتقى مواكبـه ، ومجر عواليـه ، ومجرى سوابقـه ، ومجمـع كتـائبـه ، طـالمـا كان بهـا الحرب سجالاً ، وطالما سابقت بها الرجال آجالاً ، وكان لنا بها في الحرب يوماً ، عوضنا الله أدناهما بما حفظت المعارك ـ يشير إلى كسرته في حمص سنة ٦٩٩ هـ ، ونصرته في مرج الصفر سنـة ٧٠٢ هـ ، وقد تقدم ذكرهما ـ وضـاقت الأرض بـدمـاء القتلى ، ففـاض إلى السماء مـا التقى بالشفق من تلك المسالك ، واتصلت بالبر والبحر من جانبيها ، واتصفت بأنها مهب الريـاح ـ يشير إلى وفرة الرياح في حمص ـ ومركز الرمـاح لما يهب لنـا من بشرى النصر ، ويخفق من عصائبنا المنصورة عليها . إلخ » ...

وجـاء بعـده شيـخ الربـوة شمس الـدين الـدمشقي في القرن الثـامن ، يـؤيـد ذلـك

الانحطاط ، ويكرر حديث الحمق ، قال : « ومن جنود الشام حمص ، وهي مملكة حسنة ، وبها كرسي الملك ودار الإمارة ونيابة السلطنة ، وهي أصغر ممالك الشام الثانية التركية ، وآخرها رتبة . وحمص مدينة قديمة تسمى سوريا (كذا) ، ماؤها وهواؤها صحيح . ومن حسن بناء حمص أنه لا يوجد بها داراً إلا وتحتها في الأرض مغارة أو مغارتان ، وماء ينبع للشرب ، وهي مدينة فوق مدينة[1] ، وأهل مدينة حمص يوصف عامتهم بقلة العقل ، ويحكى عن سوقتهم حكايات شبيه الخرافات ، ومن أعمالها شمسين وشميميس ، ومدينة سلمية وأربعة أعمال (؟) » اهـ . وكرر أبو الفداء في القرن الثامن في كتابه (تقويم البلدان) ما كتبه غيره ، إلا أنه اتسع في وصف بحيرة قدس ، الذي سننقله في بحثها . ومر ابن بطوطة بحمص في القرن الثامن أيضاً فوصفها بقوله : « سافرت إلى مدينة حمص ، وهي مدينة مليحة ، أرجاؤها مونقة ، وأشجارها مورقة ، وأنهارها متدفقة ، وأسواقها فسيحة الشوارع ، وجامعها متميز بالحسن الجامع ، وفي وسطه بركة ماء . وأهل حمص عرب ، لهم فضل وكرم ، وبخارج هذه المدينة ، قبر خالد بن الوليد سيف الله ورسوله ، وعليه زاوية ومسجد ، وعلى القبر كسوة سوداء » اهـ .

ونقل القلقشندي من رجال القرن التاسع في (صبح الأعشى) عن (التعريف) قال : « وكانت في دار ملك للبيت الأسدي » (يعني أسد الدين شيركوه ، ابن عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب) ، قال : « ولم يزل لملكها في الدولة الأيوبية سطوة تخاف ، وبأس يخشى ، وهي في وطأة من الأرض ، ممتدة على القرب من نهر العاصي ، ومنه شرب أهلها ، ولها منه ماء مرفوع ، يجري إلى دار النيابة بها ، وبعض مواضع بها »

---

(١) في قوله هذا إشارة إلى تكرر عمران حمص ، بعد كل خراب ، كان يعتريها ، وهو قد حدث مراراً كما قدمناه ، فالجفال الراجعون بعد الحروب والزلازل كانوا لضعفهم ولإسراعهم بتدبير المأوى لأنفسهم ، لا يستطيعون رفع الأنقاض فيبنون فوقها . وهكذا كانت تتوالى أسس الجدران وأصول الحيطان بعضها فوق بعض كما هو الحال في معظم المدن التاريخية القديمة . وقوله تحت دورها مغائر ومياه صحيح ، ولا تزال هذه المغائر ذات الآبار موجودة ، يصل إليها قاصدوها ، لاسيما الجناة الفارون من ملاحقة رجال الحكومة ، والمنقبون عن العاديات ، وجل هذه المغائر كان خاصاً بحفظ موتى الأمراء والنبلاء في عهد اليونان والرومان . وقد وجد الأب (لامنس) اليسوعي كثيراً من أحجار الشواهد المكتوبة باللغة اليونانية ، المستخرجة من تلك المغائر وغيرها ، ذكرها في رسالته المسماة Notes epigraphiques et topographique sur l'Emesene المطبوعة سنة ١٩٠٢ م .

قال في (مسالك الأبصار) « وبها القلعة المصفحة ، وليست بالمنيعة ، ويحيط بها وبالبلد سور حصين هو أمنع من القلعة » . قال في (العزيزي) : « ولها من بر بعلبك أنواع الفواكه وغيرها ، وقماشها يقارب قماش الإسكندرية في الجودة والحسن ، وإن لم يبلغ شأوه في ذلك » اهـ . وجاء في كتاب (الدر المنتخب في تاريخ حلب) المنسوب لابن الشحنة نقلاً عن ابن فضل الله ما يأتي : « وظاهرها أعني حمص أحسن من باطنها ، لاسيا في زمن الربيع ، وما يلبس به ظواهرها من حلل الربيع الموسقة بالأزهار مامد النظر ، ترنو بأحداق النرجس ، وثغور الأقاح ، ويتوسط بها البحيرة الصافية الماء ، والصافية السماء ، ذات السمك المنقول من الفرات إليها (كذا) ، حتى تولد فيها ، والطير المبثوث في نواحيها . قال ابن الشحنة : وفي بحيرتها يقول الشيخ بدر الدين بن حبيب .

جـزيرة حمص كعبة اللهو أصبحت	يطوف بها دان ويسعى لها قاص
ولكنها للهو والقصف حانة	ألم تنظروها كيف جاورها العاصي

وفسر جزيرة حمص بقوله : « وهي مكان نزهة ، يدور به الماء من سائر جوانبه ، وبه أشجار ، وتدخل إليه في زورق ، وهو عن المدينة نحو ميل أو أقل » اهـ . قلت : ولعله على موضع الميماس المتنزه الوحيده في حمص . هذا ومما شغل بالي عند مراجعة هذه الكتب الجغرافية القديمة ، ماذكره جميع مؤلفيها ، ونخص بالذكر ياقوت المتحامل كثيراً ، عن الخبال والحماقة (وجعلها الحريري في مقاماته ، وابن الوردي في خريدته رقاعة) المستولية كما زعموا على أهل حمص ، وهم كما تعرفهم ، لا يختلفون في الفطانة والنباهة عن بقية الشاميين ، وحمص كانت وما برحت تنجب من الشعراء والفضلاء عدداً غير يسير ، وإذا كان فيها من ظاهره يُرى ماذكروه ، فذلك مما لا تخلو أي مدينة في الشام وغيرها منه . ووددت أن أصل إلى السبب الذي حدا بهؤلاء الجغرافيين وغيرهم ، لترديد هذه الوصمة التي وصلت ذيولها إلى عهدنا ، ومما شغل بالي أيضاً خرافة أن حمص مطلسمة ، وأن العقارب والحيات لاتلسع أحداً فيها ، وأن لتربتها خاصة تشفي لسع العقرب وتمنع دخوله ، وشغل بالي بالصورتين اللتين كانتا على باب المسجد الجامع وما فعل الزمان بها ، وقبة العقارب التي كانت إلى جانب هذا المسجد وما جرى بها ، وثم بهيكل الشمس والحجر الأسود ، وما آلا إليه ، والبيعة التي اتخذ نصفها المسلمون جامعاً ومتى رفعوها . وقد سألت

بعض فضلاء الحمصيين عن هذه وغيرها ، من المسائل التاريخية والأثرية العائدة لبلدتهم ، فلم أجد من ينقع غلة . إلا أن أحدهم أجابني عن وصمة الحماقة وحدها ، بما يلخص في : « أن الحمصيين كانوا في العصور الإسلامية الأولى ذوي أنفة وعصبية ، جعلتها يثبون مراراً ضد عمال الأمويين والعباسيين ، فتأتيهم الجيوش للتأديب والتنكيل ، فمن كثرة الضربات التي أنزلت بهم وشدتها ، صار من يريد التخلص من تبعة هذه الفتن الموقدة ، يتظاهر بالبله والخبال مدة مديدة ، وتعدى هذا التظاهر بعد حين إلى الخلاف على البيوع والعقود وغيرها ، يتوسل به من يريد الإيهام ، ولما كثر عدد هؤلاء المتظاهرين ، صار الغرباء يظنون شيوع ذلك في كافة أهل حمص ، وتناقلت الألسن هذه الشائعة ، ولم يعد في الإمكان التقاطها » اهـ .

وأجابني البعض من شيوخ هذه البلدة أن حمص لا تخلو من الحيات ، لكنها قلما تؤذي ، أما العقارب فلم يروها ، أو أنهم لم يسمعوا أنها لسعت أحداً ، إلا أنهم لا يعلمون بخبر القبة والصورتين اللتين كانتا على باب الجامع رصداً للعقارب ، وجل ما يعلمونه ، أنه كان أمام هذا الباب ، حجر كبير فيه صورة عقرب ، يظنون أنه هو الرصد . ولما طلبت أن يروني هذا الحجر الذي نقل ، وألقي أمام باب السوق ، ويكاد يندثر إذ به ناووس كبير ، على أحد جدرانه رسم إكليل من الزهر Guirlande لا يشبه العقرب بحال . ويظهر أن أحداً من هؤلاء الظانين ، لم يكلف نفسه مؤنة الإمعان ، والتمييز بين رسم الإكليل والعقرب ، ولم يتحقق من أن بعض هذه النواويس ، التي يكثر وجودها في الخرب القديمة ، يحوي أمثال هذه الأكاليل الخاصة بتبجيل الموتى ، وأن من الخطأ الاعتقاد بكونها رصداً للعقارب . على أن أحسن من أجاب عن أسئلتي بين الحمصيين كان الخوري البحاثة (عيسى أسعد) فقد قال ما خلاصته : « نتج خبر الحماقة والبلاهة على ما أظن ، عن اشتهار الحمصيين بإخلاصهم في معتقداتهم ومبادئهم ، ويغلب على المخلص تطرفه في تأييد ما يرتئيه ، لا تأخذه فيه هوادة ، ولا يتبصر بالعاقبة ، التي يحرص عليها السياسيون ، فمن أمثلة إخلاص الحمصيين موقفهم مع الأمويين ، تجاه الإمام علي رضي الله عنه ، والإخلاص الشديد الناتج عن طيب السريرة ، يجعل المرء عرضة للانخداع ، لذلك نسبت إليهم الغفلة عما لا يهمهم ، فأرسل بعضهم كلمة في هذا المعنى ، تلقفها عنه سواه ، فذهبت مثلاً » . وقال عن خرافة العقارب والحيات : « منشأ هذا الاعتقاد فيما أرى ، أن تربة حمص غير صالحة

لبيوض العقارب ، وهذا سر فقدان العقارب فيها ، وإذا صدف انتقال عقرب إليها فإنها لاتعمر طويلاً ، ولا تنقف بيوضها فيها . ولعل أحد الجغرافيين سمع أن العقارب لاتعيش في حمص طويلاً ، فاستغرب ذلك ، ورأى أن يزيل استغراب قارئيه ، فأضاف إلى العقرب الحية ، فقال ماقاله ، وليس ذلك بثبت . لأن الحيات كانت ولا تزال موجودة في حمص ، غير أن قرب المدينة من العاصي ، خفف من سمها ، لما هو معروف من قلة أذى الحيات التي تعيش قرب الماء » . وقال عن الصورة التي نصفها إنسان ونصفها عقرب ، وعن تمثال النحاس الراكب فوق السمكة : « ليست هذه الرواية بعيدة عن التصديق ، فإن هيكل الشمس الذي وضعت أسسه في موضع الجامع النوري الكبير قبل النصرانية ، في زمن رقي فني البناء والنحت الإغريقيين ، لا يبعد أن يصور نحاتو اليونان على قبته وبابه الصورتين الآنفتي الذكر ، ولعلهم اختاروا شكلي السمكة والعقرب ، وفضلوهما على سواهما ، لأحد سببين أو كليهما معاً . الأول : أن هذين الحيوانين محور عبادة فريق من الناس في هذه الأصقاع ، الأول : لما يتوقعونه من منافعه (ومنه الإله فرجون عند الفلسطينيين) والثاني : لما يخافونه من أذاه . والسبب الثاني : لإمكان اتخاذ هذين الحيوانين رمزاً لتكاثر الذرية ، فيرمزون بها إلى أن من يرضي الإله بعبادته ، تكثر ذريته كذرية السمك في البحر ، والعقرب في البر » . وأجاب عن مصير الحجر الأسود الذي كان في هيكل الشمس : « وأما الحجر الأسود فقد أخذه (اليوكابال) معه إلى رومية ، لما نودي به قيصراً ، وذلك ليعزز به موقفه السياسي في تلك الآونة المقلقة ، فلما دالت دولة الحمصيين من رومية ، لم نعد نسمع عن ذلك الحجر شيئاً ، ولعل خصومهم أخفوه ، خشية أن يتخذه الحمصيون المذكورون ذريعة للعودة إلى العرش » . وأجاب عن البيعة التي اتخذ المسلمون نصفها جامعاً ومتى رفعت : « لما تنصر قياصرة بيزنطية ، حولوا هيكل الشمس إلى كنيسة ، ولما جاء المسلمون اقتدوا بهم ، لكنهم لم يحولوا الكنيسة كلها إلى جامع ، بل اكتفوا بمعظمها من جهة الغرب ، وتركوا القسم الشرقي الأصغر كنيسة . ولما غزا يوحنا ذي مسكي الشام في القرن العاشر الميلادي ، أخذ معه كثيراً من الذخائر اليونانية ، المحفوظة في الشام وفلسطين ، فتنبهت خواطر المسلمين ، إلى الآثار اليونانية ، ولا سيما الدينية منها ، التي جعلت البلاد مبأة لأطماع قياصرة بيزنطية وسواهم ، فأخذوا يطمسون تلك الآثار ، ومنذئذ لم نجد للصورتين المشار إليها ذكراً ، في مؤلفات جغرافيي العرب الأحدث عهداً من ابن الفقيه

والمقدسي وابن حوقل ، إذا استثنينا ياقوتاً ، وهذا في رأيي ناقل لاشاهد ، وفي هذا العهد أو بعده قليلاً ، ضمت البيعة الصغيرة إلى الجامع وانقضى أمرها » ا هـ .

هذا وأكرر هنا ماذكرته في بحث حماة ، أنه لم يظهر في القرون الأخيرة التي تلت القرن الثامن ، أحد مِن الرحالين أو الجغرافيين ، ينبئنا عما كان عليه إذ ذاك عمران حمص وغيرها من مدن الشام ، سوى سائحنا (أوليا جلبي) الذي وصف حالة حمص في القرن الحادي عشر بإيجاز . ومن الغريب أن ينشأ في عهدنا وقبله ، في جل مدن الشام أناس يدونون تاريخ بلدتهم ووقائعها ، ويصفون عمرانها الغابر والحاضر ، بينما حمص وهي البلدة التاريخية القديمة ، لا يتاح لها أحد يقوم بهذا العمل ، الذي هو في نظري من أجل الخدم الوطنية ، أو أنه أتيح لها ، ولكن لم يتسن لنا العثور عليه ، وقد كان لحمص تاريخان : أحدهما لابن عيسى ، والثاني للقاضي عبد الصمد بن سعيد ، ذكرهما (كاتب جلبي) صاحب (كشف الظنون) ، وذكر ياقوت في معجمه ، تاريخ عبد الصمد بن سعيد مراراً ، ولا نعلم إن كانا مفقودين أو موجودين حتى الآن ، في إحدى دور الكتب العربية في الغرب ، فيأتي من ينشر كليهما أو أحدهما . ولما كنت في حمص في ربيع سنة ١٣٥١ هـ أبحث عن هذا الموضوع ، أروني كتاباً مخطوطاً سقيم الإنشاء والخط ، لكاتب مجهول ، جمع فيه الحوادث اليومية التي حصلت في النصف الأول من القرن الثاني عشر ، لكنه ملآن بالتوافه والشوائب ، لا يجدي فتيلاً[1] . ثم أروني رسالة موقوتة أدبية ، ظهرت في سنة ١٣٥١ هـ اسمها (البحث) ، في كل عدد منها مقال موجز عن تاريخ حمص ، للخوري عيسى أسعد المذكور آنفاً ، فأعجبني ورجوت له التوفيق لإنجازه . هذه ملحوظة تساق لكل بلاد الشام ، التي يرجى من فضلائها ، أن يتوفروا على تدوين تاريخ أوطانهم . ومن حُبِّ الوطن البحث عن ماضيه ، وعما حواه من المآثر ، وما سبق للأجداد فيه من المفاخر ، وطبع ذلك ونشره ، ليتعظ به الخلف ، فيحتذي أو يجيد ماعمله السلف .

ومنذ نصف قرن ، زار حمص بعض الأثريين من الإفرنج كـ (واد ينكتون وسوبر نهايم وهرزفيلد وفان برشم ودوسسو ورونزفال ولامنس وغيرهم) فكتبوا عنها ، واهتم

(١) رأيت بعد حين في مكتبة الجامعة الأميركية ، في قسم المخطوطات العربية ، نسخة كاملة من هذا المخطوط ، أكبر حجماً وأصح خطأ من نسخة حمص .

(هرزفيلد) بوصف الجوامع والمباني الأثرية ، و (سوبرنهايم) باستنساخ الكتابات العربية القديمة في تلك الأماكن ، وعنى (دوسسو) بالآثار والرقم اليونانية والبيزنطية ، وذكرها (إيزامبر وشوفه ومونمارشه) في أدلتهم . وأكثر هؤلاء زار حمص قبل نهوضها ونموها الحديثين ، فلم تنشرح إذ ذاك صدورهم لأحيائها الملتفة ، وأزقتها الملتوية ، ودورها المتراصة ، وبريتها العارية ، فلم يحمدوا مناظرها ، ولم يجدوا فيها من المباني الأثرية ، والمشاهد الصناعية والطبيعية ، مايحبب إليهم إطالة الوقوف فيها . وقد استغربوا احتفاظ عامة أهلها ، بأزيائهم وعاداتهم القديمة ، وعدوا ذلك من قبيل التعصب ، الذي لم تخل منه على زعمهم ، حتى نساء النصارى المتحجبات[1] .

وإليك ماكتبه أحدهم (فان برشم) : « تقوم مدينة حمص على الضفة اليمنى من العاصي ، وسط سهل خصب مطرد ، ومنظرها دميم ، ويعزى ذلك دون ريب ، لقلة بساتينها ، ولدورها المبنية من التراب والأحجار الحرية السود ، التي حبيباتها الضخمة تجعل لها مرأى صقيلاً . والأبنية الخاصة بالعهد العربي ، قليلة الوجود في حمص ، وكانت حمص محاطة بسور زال تقريباً كله ، إنما بقيت منه أسماء الأبواب ، الدالة على المواقع التي كانت لها[2] .

---

(١) كان نساء النصارى في جل مدن الشام ، حتى غرة القرن الحالي وبعده ، يحتجبن كالمسلمات ، إلى أن رفعنه ونبذنه ، ولم يبق منهن سوى من كان في إدلب وحمص وحماة ، فهؤلاء مابرحن حتى يومنا ، يجتنبن مجالس الرجال إلا قليلاً ، ويحتجبن ولكن بمعطف شف ، ونقاب نهنه ، يشبهن بها المسلمات المتأنقات في دمشق وحلب . على أن هذا الحجاب قد قل في حمص عما قبل ، وهو مائل دون ريب للزوال ، كلما تقدمت السنون وسمت المدارك .

(٢) لا يزال بعض أقسام هذا السور وأبراجه بادياً للعيان ، في عدة أماكن ، لاسيا في شرقي حمص بين باب الدريب وباب تدمر ، وفي شماليها عند باب السوق ، وأسماء الأبواب التي ذكرها (فان برشم) هي : باب هود وباب المسدود ، وباب التركمان وباب السباع ، وباب الدريب وباب السوق ، ظلت هذه الأبواب تغلق من قبل عمال المكس والحراس إلى سنة ١٢٨٧ هـ ، التي ألغت الدولة فيها جباية المكس في المدن الداخلية ، ومن ذلك الحين فتحت الأبواب المذكورة ، وصارت تمتد إليها أيدي التخريب ، حتى لم يبق من جلها إلا الاسم ، وقيل إنه كان حول حمص في عهد عمرانها الغابر ، سور أعظم وأوسع دائرة من سورها الحالي ، لاتزال آثاره ظاهرة ، حول بناء شركة الكهرباء شمالي المحطة ، وبين الكروم الجنوبية التي شرعت السلطة العسكرية الافرنسية تبني فيها في سنة ١٣٥٢ هـ .

وقد رأينا أمام أطلال الباب المسدود ، المبني في جنوبي البلدة ، والذي حوله برج مربع حجراً ممداً على الأرض ، فيه كتابة عربية ، باسم الملك المنصور إبراهيم ، تاريخها سنة ٦٤١ هـ[١] .

وفي الجنوب الغربي من البلدة ، قرب الباب المسدود ، قام تل صناعي على مايظهر ، كا هو الحال في بقية مدن الشام فوقه القلعة ، وقد كان جل هذه القلعة في غرة القرن التاسع عشر عامراً ، - وقد رآها السائح بيليون سنة ١٥٤٧ م ، كا رأى السور أيضاً - ، وفي سنة ١٨٩٥ م حينما زرناها لم يكن باقياً فيها سوى أقسام من الجدران ، وبرج خراب في شماليها ، عليه كتابة عربية باسم الملك المجاهد (شيركوه) سنة ٥٩٤ هـ . والجامع الكبير قام وسط المدينة ، مكان بيعة القديس يوحنا ، ومكان معبد وثني على مايظن ، لأنه يحتوي على أعمدة وقطع قديمة مختلفة ، ويظن (وادينكتون) أن هذا الجامع ، مكان هيكل الشمس القديم ، وهو مصيب في ظنه ، على مانرى نحن أيضاً ، بدليل تحول أكثر المعابد القديمة في الشام والأناضول والجزيرة إلى بيع ، فجوامع . والجامع بناء متسع ، مستطيل الشكل ، يحتوي على صحن وسط في السعة ، تحيط به أروقة راكبة على عضادات ، ومحوره الأعظم يمتد من الغرب إلى الشرق ، وللحرم الذي في جنوبه صفان من العقود ، وصحن الجامع يحتوي على حوض ماء للوضوء ، وقبيبة راكبة على أعمدة ، تشبه قبة الخزنة التي في جامع حماة وتحتها بئر . ومدينة حمص تحتوي على جوامع عديدة ، ليس في معظمها مايستحق الذكر . وقد رأينا مأذنة مربعة من الطراز القديم ، فيها كتابة كوفية ، وهي منارة مقطوعة الرأس (المأذنة المقطومة) ، يرجع تاريخها إلى سنة ٩٨٠ ميلادية . ورأينا ضريحاً ذا قبة في حديقة التكية المولوية . أما قبر خالد بن الوليد ففائدة البحث عنه ، تنحصر في الكتابات الكوفية التي ذكرها سوبر نهايم بالتفصيل » ا هـ .

قلت : وقلعة حمص التي وصفها سائحنا (أوليا جلبي) أيضاً في الصفحة ٢٤ ، كانت تشبه بتلها وبطراز بنائها قلعتي حلب وحماة ، شيدت فوق تل علوه عن سطح البحر ٥٣٣

---

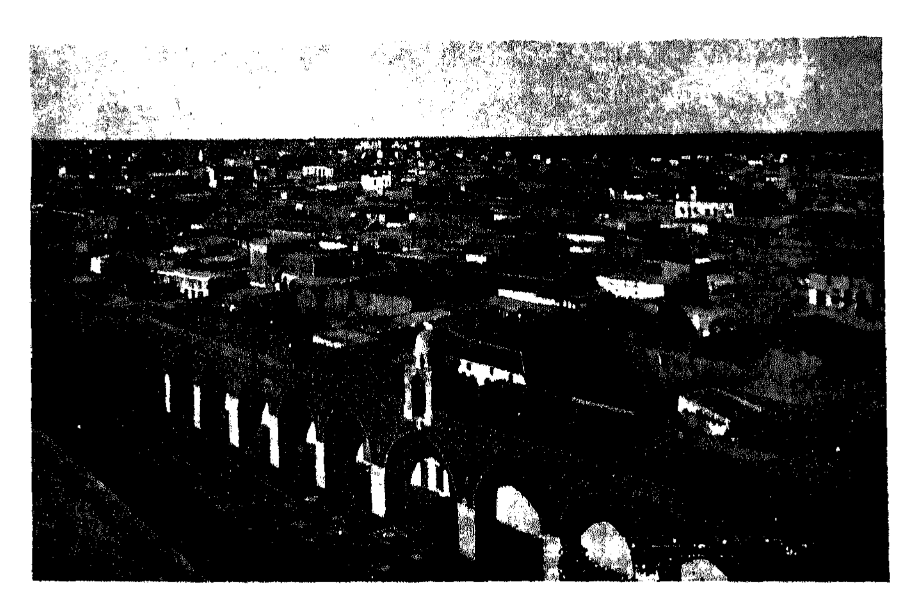
(١) نقل هذا الحجر من عهد وجيز ، إلى دار الآثار الوطنية في دمشق ، رقم عليه بخط نسخي : أمر بعمل هذا الباب المبارك ، مولانا السلطان الملك المنصور .... ناصر أمير المؤمنين أبي ظاهر إبراهيم بن شيركوه بن محمد ، بنظر العبد الفقير إلى عفو ربه الغفور ، زين الدين يعقوب بن يزبك سنقر ، المجاهدي المنصوري ، بشهر ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وستمئة .

متراً ، يرجح أن أسفله طبيعي صخري ، وأعلاه صناعي ، وهو على شكل مخروط ناقص ، دوره نحو تسعمئة متر ، وعلوه فوق المدينة نحو ثلاثين متراً ، وجانبه المواجه للمدينة ذو عطفة سريعة المهبط . وكانت جوانب هذا التل ، مبلطة بصفائح الحجارة الحرية . ومن استقرى الجهة الشرقية ، وجد عمداً وبقايا أبنية ، نقلت كما يظن من هيكل الشمس القديم . وهذه القلعة قديمة يعود أول بنائها إلى الحثيين أو الآراميين ، وأكثر من عني بتحصينها وإشادة أبراجها الملك المجاهد (شيركوه) الذي تقدم ذكره . ولا يزال من آثاره في شمالي القلعة ، باب وجدار برج ، عليه كتابة فيها اسمه ، وتاريخها سنة ٥٩٤ هـ ، وإليه ينسب أيضاً جامع السلطان الذي كان فيها . وقد ظلت هذه القلعة مقر حكام حمص ومعتصم حاميتها ، على النحو الذي نوه به (أوليا جلبي) ، إلى أن خرب إبراهيم باشا المصري أكثر أقسامها ، وبنى بأحجارها مسلحة ومستودعاً مازالتا باقيتين ، شأنه في إشادة المباني العسكرية في دمشق وحماة وأنطاكية وغيرها . ولما عاد الحكم العثماني ، هجرت هذه القلعة ، وصارت تفتك فيها وفي جامعها ، وبلاط تلها معاول النقض وتسرق أحجارها ، ولما كاد أن لا يبقى فيها إلا القليل ، احتلها الجند الإفرنسي منذ بضع سنوات ، وشاد فيها بعض الأبنية ، وحصن أطرافها بالأسلاك الشائكة . والمصحف الذي ذكره (أوليا جلبي) .

وذكر أيضاً في (الدر المنتخب) لابن الشحنة ، كان على ما قيل من المصاحف التي أرسلها الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى مراكز الأجناد ومنها حمص ، وكان مكتوباً بالخط الكوفي على رق غزال في مجلدين ضخمين . ولما بدأ الخراب في القلعة وجامعها ، على أثر هجرها ، خيف عليه ، فنقل إلى الجامع المنسوب إلى خالد بن الوليد ، وبعد أن بقي فيه إلى سني الحرب العامة ١٣٣٢ ـ ١٣٣٦ هـ أخذه القائد العثماني أحمد جمال باشا إلى القسطنطينية ، فيما أخذ من أعلاق الحجاز والشام .

هذا وقول (فان برشم) أن جوامع حمص عديدة ، ليس في معظمها ما يستحق الذكر صحيح . ففيها على ما بلغني ثلاثة وثلاثون مسجداً منتشرة في أحياء البلدة ، منها الكبير والصغير ، معظمها صغير الفناء ، بسيط البناء ، عار عن البهاء ، ولكن أقدمها عهداً ، وأجلها شأناً واتساعاً الجامع الكبير ، وأحدثها وأروعها جامع خالد بن الوليد . ويعد جامع التركمان في حي باب السباع قديماً ، ويعرف بالعمري .

أما الجامع الكبير فإليك وصفه كما شاهدته في ربيع سنة ١٣٥٢ هـ : الحرم ذو شكل مستطيل ، أبعاده ٩٩ × ١٧ متراً ، وهو ذو سقف مزدوج معقود ، يرتكز على أربع عشرة عضادة مربعة الشكل ، تمتد من الشرق إلى الغرب في مسافات متساوية ، والعقد بسيط الشكل ، كما أن جدران الحرم الضخمة خالية من الكتابات والزخرف . ولهذا الحرم ثلاثة محاريب ، لكل منها عمودان من الرخام الأبيض ، إلا أن عمودي المحراب الأوسط محززان بشكل لولبي ، ولهما تاجان مخرمان ، وأسفل صدر المحراب مؤلف من مستطيلات متوازية ، من الرخام الأبيض والأسود ، وأعلاه مؤلف من محاريب صغيرة ، فوقها فسيفساء مشوهة ناقصة رقعت بالكلس . وثمة فوق المحاريب الصغيرة زبرت بالأحرف النافرة آية ﴿ إنما يعمر مساجد الله ... الآية ﴾ [التوبة : ١٨] والمنبر من الرخام الأبيض خالٍ من الإتقان ، على بابه عمودان رفيعان من الرخام الأبيض أيضاً ، يعلوهما تاجان بديعا الصنع . وسدة المؤذنين ترتكز على ثلاثة أعمدة من المرمر . وإلى يمين المحراب غرفة ، قيل إنها مخصصة لأهل الطريقة النقشبندية . وللحرم باب قبلي ، متصل بدهليز معقود ، يصعد نحو سوق التجار ، وآخر غربي متصل بدهليز طويل ، له منفذان ، أحدهما يصعد نحو السوق ، والثاني يهبط نحو صحن الجامع . وفي الجهة الشمالية الشرقية باب ، ينفذ نحو غرفة واسعة فيها ميضأة كبيرة . أما أبواب الحرم النافذة نحو الصحن فعددها أحد عشر ، وفي هذا الصحن مصطبة مرتفعة واسعة ، اتخذت مصلىً ، في شرقيها غرفة لطلبة العلم الشرعي ، وفي شماليها ست غرف للغرباء ، أمامها رواق معقود ، يستند على عضائد كالتي في الحرم ، وفي جنوبيها محراب من حجر واحد ، منقوب من وسطه ، في ظهره وبطنه كتابة عربية فيها اسم (بهادر البكتمري الأشرفي) بتأييد (ما كان على وقف الجامع النوري لفقهاء النواب ، وما كان يوجد من المشاعلية ليتمكنوا من منع المنكرات) . إلخ .. وإلى جنوبي المصطبة أيضاً حوض كبير تأتيه الماء من ناعورة خاصة ، ومحراب آخر أصغر من الأول ، وفي غربيها بئر تعلوها قبة أصغر وأدنى من قبة الخزنة التي في جامع حماة الكبير ، تستند على ستة أعمدة أحدها ذو كتابة عربية ، بإبطال المظالم عن أهل حمص ، تاريخها ٨٧٠ هـ ، وعلى الرواق المعقود الممتد شمالي المصلى ، قبة صغيرة قليلة العلو والعرض ، بسيطة البناء لا يعرف سبب بنائها . وفي الباب الغربي كتابتان إحداهما فوق القوس ، تحوي آية ﴿ إنما يعمر مساجد الله ... الآية ﴾ والتاريخ ١١٩٧ هـ ، والثانية على عضادتي



منظر قسم من مدينة حمص من مأذنة الجامع النوري الكبير

هذا الباب ، تحوي بيتين ، يفهم منهما أن رجلا اسمه (نجيب السباعي) جدد بعض أقسام هذا الجامع ، وليس لهذين البيتين تاريخ ، وفوق مصنع الماء المبني في آخر دهليز الباب الغربي ، كتابة قديمة ذات عدة أسطر مطموسة ، لم أتبينها . ومثلها كتابة على جدار الحرم المشرف على الصحن ، بإبطال المظالم عن أهل حمص أيضاً تاريخها ٨١٧ هـ ، في عهد الملك المؤيد شيخ .

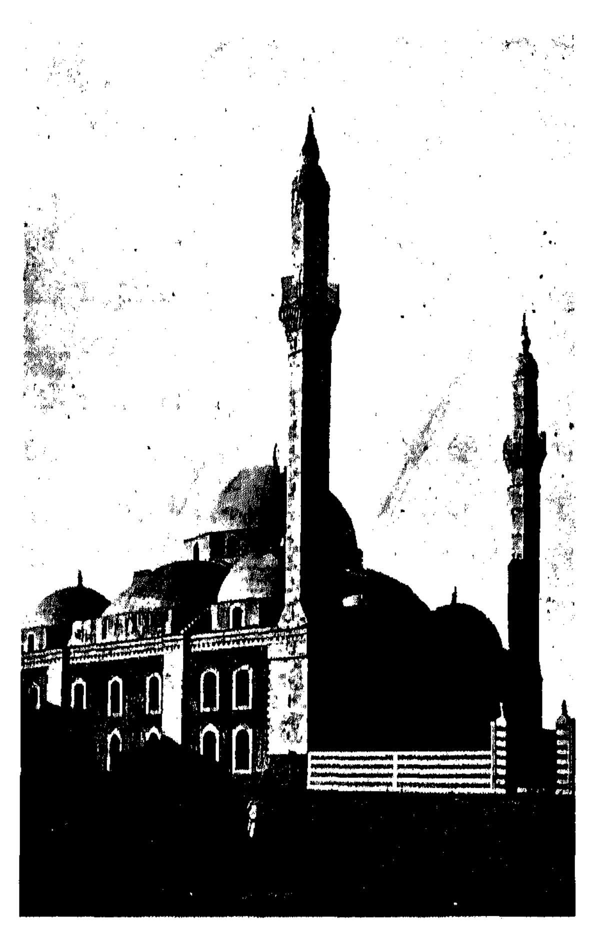
والمدقق في الجدار المشرف على الصحن ، يلاحظ أن فيه أربعة أقواس ، بين كل منها خمس نوافذ صغيرة وخمس قناطر ، لخمسة أبواب بعضها مسدود ، ويستدل من ذلك ، على أن هذا الجامع رمم مراراً في أدوار مختلفة ، من عهد نور الدين محمود وما بعده . وقد حدثني بعض شيوخ حمص ، أنه كان في القرن الماضي ذا سقف خشبي ، وكان هذا السقف يرتكز على أعمدة ضخمة من الحجر المحبب (الغرانيت) الباقية من عهد هيكل الشمس ، ولما رأى أهل حمص أن هذا السقف القديم البالي يكاد يخر ، تعاونوا في سنة ١٢٧٨ هـ على هدمه وتجديده ، فبنوا السقف الحالي المعقود على العضادات المربعة التي ذكرناها . وكان القسم الشرقي باقياً على خرابه القديم ، فرمموه أيضا في سنة ١٢٩٥ هـ على نسق القسم الغربي ، فتم بذلك البناء على النحو الذي وصفناه . وللجامع من غربيه مأذنة عالية مربعة الشكل ، من الحجر الحري الأسود ، المطلي بعضه بالكلس الأبيض ، كأنها جلد أرقم .

وهذا الجامع هو الذي كان هيكلاً للشمس في عهد (آل شميسغرام) وبيعة في عهد البيزنطيين ، ثم اتخذ المسلمون حين الفتح نصفها جامعاً ، وتركوا نصفها الشرقي بيعة . ولما وثب أهل حمص في سنة ٢٤١ هـ في عهد الخليفة العباسي المتوكل ، وأعانهم على ذلك قوم من نصارى حمص ، أمر بتأديبهم وضرب وصلب رؤوسائهم « وأن يخرب ما بها من الكنائس والبيع ، وأن يدخل البيعة التي إلى جانب مسجدها في المسجد » (الطبري ١١ / ٥٠) ويظهر أن هذا الأمر لم ينفذ بحذافيره ، فقد بقي القسم الذي كان بيعة على خرابه ، إلى سنة ١٢٩٥ هـ كما قدمنا . ولم يبق من آثار هيكل الشمس والبيعة البيزنطية ، إلا جدران الحرم الضخمة ، وفي الشمالي منها الأقواس والنوافذ القديمة التي ذكرناها ، كما لم يبق شيء من بدائع البناء والنحت الإغريقيين ، اللذين جعلا هذه البيعة فيما قيل من عجائب العالم . ويظهر أن المسلمين لما جددوا هذا الجامع بعد خرابه ، في عهد نور الدين وما

بعده ، لم يهتموا بإتقان بنائه وزخرفه على نحو ما كانوا يعملونه في جوامع بقية المدن ، فظل كما هو عليه الآن مثال البساطة . أما أعمدة الغرانيت التي رفعت من الحرم سنة ١٢٨٧ هـ ، فقد بقيت ردحاً من الزمن ملقاة في صحن الجامع ، ثم صارت الأيدي تتخطفها ، ومن بضع سنوات ألقي منها قسم في الساحة العامة أمام باب السوق ، ليبنى بها برج ساعة ، ولما يبن بعد ، ثم أبعدت إلى المقبرة المجاورة لجامع خالد بن الوليد ، ولم يبق من تلك الأعمدة في صحن الجامع ، إلا اثنان ممددان في الناحية الشرقية منه . أما الصورتان اللتان كانتا على باب هذا الجامع ، وقبة العقارب التي كانت إلى جانبه . إلى آخر ما ذكره جغرافيو العرب فليس لها أثر ولا خبر .

أما جامع خالد بن الوليد فمبني إلى الشمال من ظاهر حمص ، في الحي الخالدي الذي كان منفصلاً عن حمص لمضي نصف قرن . وهذا الجامع ، بعد أن كان بناؤه القديم قوياً ذا ركائز ضخمة ، وسقف عقد متين من آثار الملك الظاهر (بيبرس) فيما قيل ، رأى ناظم باشا ، أحد ولاة الشام في عهد السلطان (عبد الحميد) ، أن يجدده بما يليق بقدر الصحابي الجليل خالد بن الوليد ، فاستحصل من السلطان المذكور على ستة آلاف دينار عثماني ، أكملها بثمن الحلي التي كانت على الضريح ، وهدم البناء القديم كله ، وشرع بالجديد على نسق جوامع القسطنطينية ، فجاء عند ختامه في سنة ١٣٣١ هـ آية في الجدة والروعة ، بمأذنتيه الرشيقتين ، وقببه البيضاء العالية الجميلة ، مما يعد بعد زينة ومفخرة في غرة حمص .

لهذا الجامع حرم مربع الشكل ، أبعاده ٣٠,٥ متراً × ٣٢,٥ متراً ، تعلوه تسع قبب ، أعلاها القبة الوسطى ، قطرها نحو ١٢ متراً ، وارتفاعها نحو ٣٠ متراً ، تستند على أربع عضائد مربعة ضخمة ، والقبب الباقية تستند من جانب على هذه العضائد ومن جانب آخر على جدران الحرم . وفي صدر الحرم ثلاثة محاريب ، لكل منها عمودان من الرخام الأبيض . إلا أن المحراب الأوسط قد زخرف بالرخام المجزع ، على أشكال هندسية جميلة ، ملونة بالأسود والأحمر والأبيض ، والمنبر من الرخام الأبيض أيضاً ، على جدرانه نقوش وتخاريم آية في الإتقان والبهاء . وفي الزاوية الشمالية الغربية من الحرم ، ضريح الصحابي خالد بن الوليد رضي الله عنه ، طوله خمسة أمتار ونصف ، بمثلها ، بني من الرخام الأبيض ، تعلوه قبة من الخشب ، وفي جدرانه نوافذ من الخشب المتين ، يفصل بينها أعمدة



جامع خالد بن الوليد في حمص

من الرخام ، وفي زاوية هذا الضريح ضريح صغير لابن خالد عبد الرحمن ، وفي الزاوية الشمالية الغربية للجامع ضريح ثالث ، لعبد الله بن عمر بن الخطاب ، جعل بدون قبة ، وأحيط بشبكة حديدية بسيطة ، وصحن الجامع واسع ، أبعاده ٣٦ متراً × ٤٧ متراً ، لايزال بدون تبليط ، وفي جانبه الشرقي أربع غرف إحداها ميضأة ، والبقية خصت بطلبة العلم الشرعي . وإلى الشرق من هذا الصحن ، قسم ينتهي في باب الجامع الجنوبي ، فيه عشر غرف لسكنى الغرباء . وفي جدار الحرم الغربي غرفة ، أو دعوا فيها لوازم الجامع ، قيل أن منها المنبر القديم ، والأحجار التي كانت عليها الكتابات الكوفية الخاصة بالجامع المهدوم ، لم أتمكن من الاطلاع عليها حين زيارتي الأخيرة ، ولعلها هي التي استنسخها (سوبر نهايم) ولم يتيسر لي الحصول على الكتاب الذي درجها فيه .

ويجدر هنا ، أن نقتبس ماذكره الشيخ محمد سليمان المصري في كتابه (رسائل سائر) المطبوع سنة ١٣٥٢ هـ عن زيارته جامع خالد بن الوليد وضريحه ، فهو بعد أن نقل كلمة خالد المشهورة وهو يحتضر « لقد شهدت مئة زحف أو زهاءها ، مابقي في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف ، أو طعنة رمح ، ثم أموت على فراشي هكذا ، كما يموت العير ؟ لانامت أعين الجبناء » قال : « هنالك ، ومن أرباض حمص ، يشهد القادم أطراف المآذن البيض ، تلمع في وهج الشمس ، مؤذنة بالمسجد الفخم القائم ، على جدث القائد الدائم ، وفي ركنه الشمالي المغرب يسقط طرف كل ماثل أمام ذلك الجسد الثاوي بالمجد ، ويتمثل الزائر في هذا الضريح أي شديد بالصراع ، وأي شديد في ملك (ضبط) النفس ، وأي نفس كانت مهوى الأفئدة ومناط القلوب ، وأي شجاع هذا الذي هدم دولتي الدنيا في أيام الدنيا ، وشاد دولة الإسلام للدنيا والآخرة . بل أي قائد أوتي النصر ولم يعرف إلا النصر ، وأي طبع حربي ، وضع الخطط وابتكر الأساليب ، ونظم الحرب على غير مثال ، وعبأ الجيوش بالابتكار ، وجعل حياته كلها شعلة من سراج وهاج ، من المهد إلى اللحد ، حلقات من سلسلة على مد العمر ، ماسقطت حلقة فيها ولا انطفأت فتيلة منها ، بل مضت إلى ربها تحمل عجيبة في خليقته ، أن كان له عبد من عباده آتاه الله الشجاعة ، وقذف به في المعامع ، فلم تطوله راية ولا خبا له نور ، حتى أتاه اليقين ، فهدم منه ذلك الصرح المرد ، وهد منه تلك القوة المتوثبة المتوهجة ، المنتشرة في آفاق بلاد العرب ، وعلى مشارف الفرس والروم . هنا الراقد « خالد» الخالد ، هنا مثوى الخلود وقدوة العلا ،

ومطمح الشعوب إذ ينهض بها قوادها ، وهيهات هيهات ، أن تلد الحوامل مثل خالد حتى ينفخ في الصور » ا هـ.

وفي حمص نحو عشر كنائس ، منها القديم ككنيسة ماراليان ، للروم الأرثوذكس في حي باب الدريب ، وكنيسة الأربعين شاهد لهم أيضاً ، وكنيسة السريان القدماء ، وكنيسة الكاثوليك ، والثلاث في حي جمال الدين ، وعدوا كنيسة البروتستانت في هذا الحي أيضاً قديمة . أما الكنائس الحديثة ففي التل المنسوب للصحابي السمط بن الأسود في حي الحميدية واحدة ، باسم (مار جاورجيوس) للروم الأرثوذكس ، وأخرى للسريان الكاثوليك ، ولليسوعيين في حي جمال الدين دير ومدرسة ، وللأرمن كنيسة حديثة في حي الفاخورة ، وللروم الأرثوذكس في حي باب السباع كنيسة باسم (مار أنطونيوس) .
أما الحمامات فعددها أحد عشر حماماً كبيراً ، وسبعة صغار . منها حمام الباشا الذي يأتي ماؤه من الناعورة ، كما نوه بذلك سائحنا (أوليا جلبي) ، ولا يعرف من هو هذا الباشا .

أما المأذنة المقطومة التي ذكرها (فان برشم) ، فقد كانت هي وجامعها في حي آل السباعي ، في شارع أبي الهول ، وهما من آثار (بكجور) الذي حكم حمص سنة ٣٦٥ هـ ، كما قدمنا ، وقد عفيت آثارهما ، فالجامع هدم قبل المأذنة بزمن طويل ، والمأذنة التي قيل - في خطط الشام ج ٦ - أنها لاتزال باقية ، وأن عليها كتابة مفيدة في باب الهندسة العربية ، هدمتها ويا للأسف البلدية سنة ١٣٢٩ هـ ، بحجة توسيع الطريق ، واتخذت أنقاضها في تعبيد الجادة المتدة أمام دار الحكومة . أما التكية التي ذكرها (فان برشم) فهي قرب دار الحكومة ، بنيت سنة ٨٤١ هـ ، والضريح ذو القبة الذي ذكره أيضاً ، هو ضريح الصحابي عبد الرحمن بن عوف ، وفي قربه ضريحان لرجلين من المولوية ، مشايخ هذه التكية . على أن قبة الصحابي المذكور ، قد هدمت وملئ داخلها بالأنقاض والأقذار ، لتدل على مبلغ عناية الخلف في عهدنا ، بقبور السلف لاسيا بقبور أجلاء الصحابة . ونذكر بهذه المناسبة تأييداً لما ذكره ياقوت أيضاً ، أن في حمص كثير من المزارات والأضرحة المنسوبة لبعض الصحابة والسلف الصالح ، يعدون منهم الآن أبا ذر الغفاري أو عبد العزيز الغفاري ، وعكاشة ، وأبي موسى الأشعري ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الرحمن بن جعفر الطيار ، ودامس أبو الهول ، والسمط بن الأسود الكندي ، وذو

الكلاع الحميري ، وعبد الرحمن بن عوف ، ورابعة العدوية ، ولكل من هؤلاء الصحابة مساجد أو زوايا خاصة فيها أضرحتهم ، ويعدون عمر بن عبد العزيز وله ضريح شرقي تربة باب الدريب ، وسط الكروم ، فوق مصطبة مرتفعة ، فوقها قبة بسيطة لاتتناسب قط مع قدر هذا الخليفة الجليل ، فيا إذا صح دفنه هنا وليس في شرقي المعرة ، والملك المجاهد ، في ضريحه الذي تقدم ذكر نبشه . وثمة عدد ممن يعدونهم من الصلحاء ، مدفونون في مساجد أو مزارات باسم كل منهم ، جلها على وشك الاندثار ، قل من يعنى بأمرها ، منها مسجد الخضر في ظاهر البلدة جنوبي القلعة ، وفيه قبر المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد شيركوه الأيوبي ، كما قدمنا في حديثه .

وقد كانت حمص وما برحت ، مركزاً لصناعة النسيج ، جاء في (الدر المنتخب) المنسوب لابن الشحنة عن ابن فضل الله : « وحمص تتلو اسكندرية مصر ، فيا يعمل فيها من القماش الفائق ، على اختلاف الأنواع ، وحسن الأوضاع ، لولا قلة مائه (كذا) وفحولة جسمه ، مع أنه يبلغ الغاية في الثمن ، وإن لم يلحق إسكندرية فإنها تفوق صنعاء اليمن » ا هـ . وجاء في (دائرة المعارف) للبستاني في مادة حمص : « أنه كان فيها في غرة القرن الهجري الحاضر ٤٣٣٠ نولاً ، منها الفانول للملس ، والفانول للديما ، و ١٥٠ نولاً للزنار ، و ١٨٠ نولاً للشراشف والأعبية وغيرها ، وبها أيضاً مئة دوارة للتسدية ، وسبعون دولاباً للفتل ، وستون ملقياً ، وكانوا يحسبون لكل نول صانعاً ومعاوناً ، ولكل من دواليب الفتل ثلاثة صناع ومعاون ، ولآلات الإلقاء صانعان ومعاونان ، والأجرة اليومية على الأنوال من خمسة إلى عشرة قروش ، وعلى باقي الآلات من عشرة إلى ثلاثين غرشاً . وكانت حمص تصدر كميات كثيرة من الملس إلى مصر ، والآلاجه والزنانير الحريرية ، والديما الغزل إلى الأناضول ومصر ، وشراشف الحرير والقصب والغزل إلى أمهات مدن الشام ، والعبي الصوف والحرير والقصب إلى الأناضول ومصر وحلب . إلخ ... ا هـ . قلت : أما الآن فقد انحطت صناعة النسيج الوطني ، وقل عدد أنوالها ، للأسباب التي ذكرناها في بحث حماة ، ولم يبق من ذلك سوغ ١٦٠٥ أنوال ، منها تسعمئة اشتغل بالصايات المصرية الشاهية ، المصنوعة من الحرير النباتي والغزل القطني ، ترسل إلى الأناضول ومصر والحجاز وفلسطين ، وستمئة تشتغل بالملس المصنوع من الحرير الطبيعي ، الذي يرسل إلى مصر . لكن هذه الأنوال كلها ، قد توقفت عن العمل أخيراً ، بسبب غلاء رسوم الملس ، وساء

حال مرتزقيها ، ومئة تشتغل بالحطايط والكوفيات المصنوعة بالحرير الطبيعي ، مع القصب الفضي والذهبي ، وترسل إلى مدن الشام وفلسطين ، وشرقي الأردن والعراق ، وستمئة تشتغل في نسج الشاهية الغزلية القطنية ، والشراشف، والسجوف ، والمناشف وغيرها ، وترسل إلى مدن الشام ، وخمسة تشتغل بفوط الحمامات من الحرير الطبيعي والقصب الفضي ، وترسل إلى مدن الشام أيضاً . وقد أسسوا في حمص أخيراً ثلاثة معامل أفرنجية ، تشتغل بنسج الأقمشة الحريرية الشبيهة بما يرد من بلاد الغرب ، وذلك من الحرير الطبيعي والنباتي ، تصدر منتوجها إلى مدن الشام ، يديرها رجال حمصيون ، تعلموا هذه الصناعة في تلك البلاد ، ولعلهم يزيدونها إتقاناً ، وينالون بها نجاحاً ، يعوض مافقدته حمص من انحطاط الأنوال الوطنية .

وكما أن مدار أشغال حمص على الصناعة ، فمدارها أيضاً على الزراعة ، لاسيا على ماتنتجه ضواحيها وقراها ، من القمح والشعير ، والفوال والحمص ، والذرة والعدس ، وكانت تبلغ سنوياً على ماجاء في (دائرة المعارف) للبستاني المذكورة آنفاً ١٣٥٠٠٠ شنبل[1] ، تعادل نحو ثلاثة آلاف طن ، جلها كان يرسل إلى ميناء طرابلس ، ليصدر إلى الخارج . أما الآن فقد تضآلت هذه الكمية كثيراً منذ عشر سنوات ، بسبب توالي سني المحل والأزمات ، التي نكبت الزراعة والزراعين ، وقصمت ظهورهم . وليس في بساتين حمص التي تروى من العاصي سوى البقول ، لأن الرياح الغربية التي تهب بشدة في أكثر أيام السنة ، تحول دون نمو الأشجار المثمرة ، لذلك ظلت حمص عالة في أمر الفاكهة على جاراتها كطرابلس وبعلبك ودمشق ، ولم يبق في ضاحيتها من الكروم التي ذكرها الإدريسي إلا النزر اليسير ، يكاد منتوجها لا يكفيها ، فتستجلب عوزها من سلمية .

ومنظر حمص الدميم ، الذي وصفه ابن جبير ، ونوه به رحالة الإفرنج ، قد تبدل وتحسن منذ سنة ١٣٠٥ هـ ، وازدادت الدور والفنادق ، والمقاهي الحديثة الطراز في ضاحيتها الغربية ، وما برحت في ازدياد ، وعنيت بلديتها بتنظيم شوارعها ، وتوسيعها وإنشاء الحدائق العامة ، وبعد أن هدمت الثكنة العسكرية القديمة سنة ١٣٥٠ هـ ، زاد

---

(١) الشنبل الحمصي يزن ٢٢٠ كيلوغراماً ، والحلبي ١١٢ كيلوغراماً والطرابلسي ١٥٠ كيلوغراماً من القمح .

عدد المباني الأنيقة في مكانها ، وشرعت البلدية في جلب ماء العاصي نقياً ، كما نورت حمص بالكهرباء ، الآتية من المعمل الذي ذكرناه في بحث الرستن ، حتى أصبحت حمص في يومنا ، في مقدمة مدن الشام الداخلية حسناً ورواءً ، وهي الآن قاعدة متصرفية ، ألحق بها قضاء المركز ، وقضاء القريتين ، ويتبع الأول نواحي حمص وتارين الوعر ، وجب الجراح ، وحسية والقصير ، والرستن وعين ظاظ ، ويتبع الثاني : ناحيتا القريتين وتدمر .

وعدد سكان حمص يقدر باثنين وستين ألف ، ثلثاهم من المسلمين ، وجل الثلث الباقي من الروم الأرثوذكس ، ويليهم السريان والكاثوليك والأرمن والبروتستانت . وقد كانت حمص قبل نصف قرن في مؤخر بقية أنحاء الشام بالعلم ، لقلة عدد نبغائها في الشعر والفقه ، وإن عدوا في عهدهم مبرزين . أما الآن ففيها ثلاث مدارس تجهيزية ، الأولى أميرية والثانية للأرثوذكس والثالثة للبروتستانت ، وعدة مدارس ابتدائية للبنين والبنات ، منها الأميري ومنها الخاص ، وصار لأهل حمص شغف بالدراسة ، وبينهم الآن عدد غير يسير ، من حملة الشهادات المتوسطة والعالية في مختلف المسالك . وفيها كثير من الأطباء والصيادلة والمحامين ، والمطابع التي تصدر كتباً مختلفة وجرائد ومجلات ، تظهر وتختفي حسب الأوقات ، وصرافون وخياطون ، ونحاسون وصاغة ، وتجار السلع المختلفة ، ولأهلها براعة خاصة في صناعة النسيج كما قدمنا ، يرتزق منها جل الطبقة المتوسطة والدنيا ، كما أن جل الطبقة العليا ، أعني الأسر الكبيرة ترتزق من الزراعة ، ويقال عن هؤلاء في هذا الأمر ، ماقيل عن أمثالهم الحمويين في الجملة ، فهم أنداد في التهافت على توسيع الملك في القرى ، دون العناية بإتقان العمل وإغاثة الفلاح ، ولحمص في بلاد الشيلي من أمريكا الجنوبية ، وفي غيرها مما يهاجر إليها الشاميون جاليات ، وفيرة العدد جلهم من نصاراها .

وهواء حمص جيد في الجملة ، ولقربها من البحر وبحيرة قدس ، وقمم لبنان الشمالي المكللة بالثلج ، ووقوعها في باب الوادي العريض ، الآتي من الساحل ، والفاصل بين جبال لبنان وجبال النصيرية ، تهب فيها الرياح الغربية الرطبة ، في أكثر أيام السنة ، فتجعل شتاءها قارساً ، أما صيفها فلطيف ، ويمتاز الحمصيون بجودة الصحة ونقاء البشرة ، ويعرفون بدماثتهم وحسن معشرهم ، وائتلاف نحلهم ، وفقدان فروق العظامية

والعصامية ، السائدة في حماة بين خاصتهم وعامتهم ، ولهم لهجة خاصة يغلب عليها جودة اللفظ .

وليس في حمص مبانٍ قديمة متقنةٍ من قبل الإسلام وبعده ، تستهوي أفئدة السياح وأرباب الولع بالآثار وتغويهم بزيارتها ، أو أنه كان فعفته طوارئ الحدثان ، وجاءت بلدية حمص ، تجهز على مابقي منها ، كالصومعة التي ذكرنا أن بانيها (شميسغرام) الثاني ، هدمتها قبل الحرب العامة ، وبنت مكانها مستودعاً للبترول ، على يمين الطريق الذاهبة إلى المحطة غربي البلدة ، وقد كانت تسمى قبر قيصر ، لأنها تشبه الأضرحة وفيها لمحة من هندسة الحصون ، فقد كانت كالبرج العالي المربع ، علوها خمسة عشر متراً ، مبنية بالآجر المرصوص ، المطلي بالملاط ، وكان فيها نقوش هندسية ، وحجارة ملونة ، وكتابة يونانية ، يؤخذ منها أن هذا البناء ضريح (شميسغرام) الثاني ، الذي تقدم ذكره ، وكانوا اكتشفوا سنة ١٣١٥ هـ كهفاً في حي باب السباع ، في ملك رجل اسمه (سليم زكور) ، وهذا الكهف مدفن واسع ينزل إليه بدرج ، يفضي بالزائر إلى سطح مربع ، على جانبيه يميناً وشمالاً أربع غرف ، وكل غرفة مهيأة لعدة جثث ، وهذا المدفن محكم الصنع ، كله مبني بالآجر المضموم إلى بعضه بملاط من الكلس ، ونفاية الآجر والحصى ، والحنايا مقوسة تتساند إلى بعضها ، وفي الجدار الداخلي مشاك أعدت لوضع ألواح ، غايتها دعم الآجر لئلا يهبط ، وكان يعلو السطح المربع قبلاً قبة ، وبقربه بئر ، وبقايا مساكن قديمة . ووجدوا في حي باب السباع أيضاً سنة ١٣٤٠ هـ في بيت النداف ، مكان كهذا ، تمكنت من النزول إليه بسلم خشبي ، كما ينزل إلى البئر ، فوجدت كهفاً صغير المساحة مسقوفاً بالآجر ومطلياً بالكلس ، وفي جدرانه منافذ لوضع الجثث ، فوقها رسوم صلبان وكتابات يونانية ، باسم المدفونين . وقيل أن في حمص كثير من هذه الكهوف ، أو الأسراب المجهولة أو المعلومة ، وفي بعضها آبار ومياه ، ذكرها شيخ الربوة فيما نقلناه عنه وشرحناه . ويرى السائر في شوارع حمص ومنعطفاتها ، والنافذ إلى أفنية دورها ، بقايا أعمدة وأساطين ، وتيجان أعمدة وعتبات ، كسرت واتخذت أقسامها في الأبنية الحاضرة . والكتابات اليونانية في حمص كثيرة ، منها وثنية ومنها نصرانية ، نشر بعضها الأثري (وادينكتون) والأب (لامنس) اليسوعي و (رونه موتارد) وغيرهم . وأروني في سنة ١٣٥١ هـ في ظاهر حمص وغربيها ، في حي حديث يدعى القرابيص ، زقاقاً رصفت أرضه بفسيفساء ، ذات تخطيط جميل ،

تمتد في مسافات غير يسيرة ، وتكاد تندثر من الدوس وعيث المارة . ووجد أحد أهالي هذا الحي ، منذ بضع سنوات تحت أرض إحدى غرف داره كهفاً يشبه ماذكرناه ، استخرج منه على ماحدثني ، قطعاً ذهبية رقيقة انتفع بأثمانها . وكان حي القرابيص هذا ، لمضي ربع قرن ملآناً بالكروم ، ويذكر البعض أنهم أدركوا فيه أسس جدران وأحواض ، إذا صح حديثهم تدل هي والفسيفساء التي رأيتها ، على أنه كان في هذا الحي في العصور السابقة لعهد الإسلام ، ديراً أو قصراً فخماً . فرشت أرضه بالفسيفساء ، واتخذت كهوف مدافن لعلية القوم ، الذين كانوا يصحبونهم بالحلي الذهبية . ولا يبعد أن يوجد تحت أرض حمص التي مرت عليها حضارات زاهرة ، وأدوار سعد باهرة ، آثار كهذه أو أجل ، تنتظر من يكتشف مخابئها .

أما آثار العهد الإسلامي فقليلة وعادية ، ليس منها مايستحق الذكر سوى مابقي في القلعة وأبواب السور وأبراجه ، فضلا عما هدمته البلدية ، كمنارة (بكجور) حينما وسعت شارع أبي الهول ، وأجهزت عليه طوارئ الحدثان ، كزوايا وأضرحة الصحابة ، والملوك الأسديين الأيوبيين التي ذكرناها ، دون أن تجد من يكترث بأمرها . وقيل أن خالد بن يزيد بن معاوية الأموي الذي يظن أنه هو المدفون مكان خالد بن الوليد ، كان بنى في حمص قصراً فخماً ، جدده في عهد العباسيين أحد عمالهم في حمص (الفضل بن قارن) الطبري ، وتحصن به لما وثب به أهلها ، ذكر ياقوت هذا القصر في معجمه وقال : « آثار هذا القصر في غربي الطريق باقية » ، ولم يعين هذه الطريق ، لنستدل به على مكان القصر ، وذكر أيضاً أسماء عدد من الأديرة والقرى حول حمص ، بعضها لا يعرف له الآن أثر ، كدير المغان الذي كان في خربة بني السمط ، تحت تلهم ، وهو دير عظيم الشأن ، كبير القدر ، فيه رهبان كثيرة ، وترابه يختم عليه للعقارب ، ويهدى إلى البلاد قاطبة (!) وتتنفس النصارى في موضع مقبرته ، ودير ميماس في موضع نزه ، لا يزال مقصوداً ، كان فيه شاهد على زعمهم ، من حواريي السيد المسيح يشفي المرضى ، نقلوا إليه البطين الشاعر الحمصي في القرن الثالث ، للاستشفاء فمات فيه فجأة ، فشاع بين أهل حمص أن الشاهد قتله ، وقصدوا الدير ليهدموه ، إلى أن ردعهم الحاكم ، فهجاهم أحد الشعراء . وذكر ياقوت من القرى التي ضاع اسمها ورسمها الآن ، العرناس موضع بحمص ، ذكره ابن أبي حصينة فقال :

من لي برد شبيبـــة قضيتهـــا فيهـا وفي حمص وفي عرنـاسهـا

وكفر تكيس وكفر نغد يقـال : أن فيهـا قبر أبي أمـامـة البـاهلي ، وأعرف قريـة في شمالي حمص ، باسم هذا الصحابي ، لا باسم كفر نغد يقطنها شراكسة ، وبقطـاطس قـال : لها ذكر في التاريخ ، ولم يعين موقعها ، وترمسان وجدر ، وهذه مر بنـا ذكرهـا بين حمص وسلميـة ، ودنوة ودومين ، وذكر شيخ الربوة اسم سماك ، قرب قريـة النـاعم ، جنوبي بحيرة قدس .

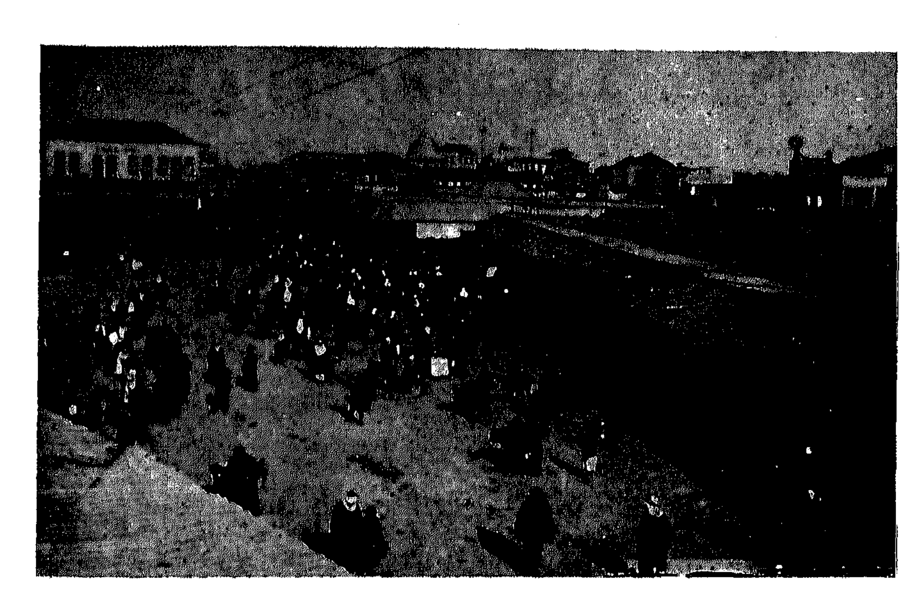
وذكر ياقوت فيما ذكره أيضاً غـاميـة ، قـال عنهـا : من قرى حمص ، قـال القـاضي عبـد الصمـد بن سعيـد في تـاريخ حمص « دخل أبـو هريرة حمص مجتـازاً ، حتى صـار إلى غامية ، ونزل بها فلم يضيفوه ، فـارتحل عنهم ، فقـالوا يـاأبـا هريرة لم ارتحلت عنـا ، قـال لأنكم لم تضيفوني ، فقالوا ماعرفناك ، فقـال إنمـا تضيفون من تعرفونـه ، قـالوا نعم فـارتحل عنهم » ا هـ .

وأبهج الفصول في حمص الربيع ، ففيه يحتفل مشـايخ الطرق الصوفيـة في يوم خميس منـه ، يسبق عيـد الفصح عنـد الروم ، يـدعونـه (خميس المشـايخ) فيركبون الأكاديش ، ويتظـاهرون وهم عليهـا ، بـالبلـه والاسترخـاء ، وإسـالـة اللعـاب في الأفـواه ، ويتبعهم مريـدوهم بـالصنـاجق والمزاهر والصنـوج ، يـدقـون ويرددون بعض الأنـاشيـد والأذكار ، ويلحق بهم الألوف من المتفرجين ، الذين يفـد معظمهم من المـدن والقرى المجـاورة . وكان هؤلاء المشايخ قبلاً ، يأتون باسم الدين فيما يأتونه من حركات الخبال والسخف ، أكل النـار والزجاج ، وضرب السفود والاتكاء على السيوف ، والـدوس بـأكاديشهم على ظهور الرجـال الممددين ، وغير ذلك مما ينكره الدين ويمجـه العقل السليم ، إلى أن منعتهم الحكومـة منـذ بضع سنوات ، واقتصر الأمر على العرض والمرور ، وزيـارة ضريح أحـد الصلحـاء في اليوم الأول ، واسمه بابا عمرو في قرية في غربي حمص تـدعى بـاسمـه ، وزيـارة ضريح الصحـابي خالد بن الوليد في اليوم الثاني والثالث ، على أنه يحصل في هـذه الأيـام من اجتماع الألوف من الناس ، من مختلف الأنحاء الشامية ، سوق عام وحركة بيع وشراء ، تنتفع بها حمص أي انتفاع ، وهي بيت القصيد من هذا الخميس ، قيل إن هذا الاحتفال أحدثه السلطان صلاح الدين الأيوبي لغاية سياسية ، تجاه احتفـال الصليبيين في عهـده بعيـد الفصح ، الـذي يقع

بعد خميس المشايخ ، وأحدث مثله في القدس ، ويدعى هناك يوم النبي موسى ، واستمر العمل بها إلى يومنا هذا ، بعد أن تنوسيت الغاية وبدل المنهاج .

وقد أدركنا في خميس المشايخ هذا قبل ربع قرن أو أقل ، من المشاهد الجالبة للنظر ، التي صارت تستحق التذكر والترحم ، ملابس تلك الألوف المتجمعة من مختلف أنحاء الشام ، فقد كان لأهل كل صقع وبلد ، بل لكل أهل طبقة ونحلة وحرفة زي خاص ، لا يتعدونه في أشكال وألوان القنابيز والزنانير ، والسراويل والمعاطف ، والكوفيات والعقل ، والعمائم والأحذية ، منها الضيق أو الفضفاض ، ومنها الرفيع أو الضخم ، ومنها القصير أو الطويل ، ومنها الأحمر أو الأبيض ، أو الأسود أو الأخضر . الخ .. وكان جل أقمشة هذه الأزياء من صنع معامل البلاد اليدوية ، وموادها البدائية من نتاج أرضها . وقد كنت يومئذ ، تستطيع أن تميز الحلبي عن الحموي ، وهذا عن الحمصي ، وذاك عن الدمشقي ، وأن تعرف الساحلي عن الداخلي ، حتى البيروتي عن الطرابلسي ، وهذا عن اللبناني ، وهلم جرا . لاسيما إذا نطقوا وطرقت الآذان لهجاتهم الخاصة . وكان التفرد في الأزياء يظهر حتى بين سكان القريتين المتجاورتين ، بل بين المنتسبين لنحلتين متباينتين في القرية الواحدة ، والاختلاف في اللهجات يظهر بين سكان أحياء المدن المتباعدة أيضاً . أما الآن فقد زال هذا التفرد والاختلاف أو كاد ، وتوحدت الأزياء في المدن الشامية بعد انتشار اللباس الإفرنجي ، ولم يعد بالإمكان تمييز الحلبي عن الحموي مثلاً إلا إذا تكلما ، ورنت لهجاتها في الآذان ، ولا تمييز سائق السيارة عن الموظف في الحكومة ، ولا الوضيع عن الرفيع ، حتى أن اختلاف اللهجات بين المدن ، قد خف عما قبل بين الخاصة ، بعد أن هان السفر بالسيارات ، وزاد الاختلاط ، وارتقت المعارف ، وتهذبت اللغة العامة في الجملة . وفي القرى قل اختلاف الأزياء أيضاً . وربما إذا دام الحال على هذا المنوال ، زال فيها كما زال في المدن ، ولو أن في ذلك ما يثير شجى محبي الآثار القديمة ، وراغبي الاحتفاظ بالمشخصات ، والمصنوعات القومية .

وفي ضواحي حمص وأعمالها أعراب ينتسبون لقبائل شتى ، أجلها قدراً قبيلة من بطون عنزة ، التي تقدم ذكرها تدعى (الحسنة) ، في مشيخة (طراد الملحم) ، تعد نحو ٤٠٠ بيت من أهل الإبل والغنم ، أفنادها : الفقرا والجهيم ، والحجاج والأبو عيد ، وثمة



شارع باب السوق في حمص

قبائل منفردة تنضم إلى الحسنة : كالعمور والحروك ، والمساليخ والعليوي والعدوان وأعراب الحسنة اشتهروا ببسالتهم ، وأنهم أقدم قبائل عنزة التي وفدت من نجد إلى شمالي الشام ، وأول من اصطدم منها في أنحاء حمص بالموالي ، وكان بينهما ماذكرناه في بحث سلمية . ومنازل الحسنة في قرى لهم ، قرية من حمص ، في شرقيها ، كالشيخ حميد والبوير وبرزة ، وبعضهم يقيظ في سهول بعلبك . وفي أعمال حمص من بطون عنزة أيضاً ، فخذ من السبعة ، يدعى المساربة في مشيخة (صالح المسرب) ، لهم ضيعة تلول القطا ، في ناحية جب الجراح ، وفيها أيضاً من أحلاف الموالي ، قسم من المشارفة الرعية ، في ضيعة أم التين شرقي حمص . وثمة قبيلة منفردة ، تدعى الفواعرة في مشيخة محمد الشبلي ، تعد ٤٠٠ بيت من أهل الإبل والغنم ، من أفنادها البهادلة والعلقاوين ، والحتاحتة والهنادرة ، والتويمان والهويدين والزيادنة ، منازلهم في السعن الأسود شمالي حمص ، وفي الوعر غربي حمص ، وثمة من قبيلة العقيدات ، التي تقدم ذكرها في بحث سلمية ، أفناد : الأبو شعبان والأبو سلامة ، والأبو هرموش والأبو عساف والأبو بكر ، منازلهم حول الغنطو وغربي العاصي ، وهم في مشيخة أسعد الغاطي ، ومن قبيلة النعيم أيضاً أفناد الطويلع والمعاجير ، والشكيف والعتيق ، والحزوميين الذين يؤلفون فنداً مستقلاً في النعيم ، منازلهم أنحاء القصير وغربي العاصي ، ومن بني خالد أيضاً أفناد الرطوب والنجاجير والزريق ، منازلهم في أم حارتين وغيرها ، من ضياع أملاك الدولة ، وثمة أفاريق سكان الخيام في لواء حمص ، التركمان السوادية في أنحاء حسية ، والمشاهدة والصلبيين في زيتا البحرة .

طريق حمص ـ النبك

(٨١ كيلو متراً)

يغادر حمص السائحُ الذاهبَ إلى النبك من باب هود ، في طريق عبدت أحسن تعبيد ، لاتنفك يد العناية عنها ، فيجتاز كروم حمص وأراضيها الجنوبية المعدة للزراعة ، وتدعى السوامات ، وقد كان فيها قلبا الجيشين المصري والعثماني ، حينما اقتتلا ، لما جاء إبراهيم باشا ، لفتح حمص سنة ١٢٤٨ هـ . وفي هذه الكروم والأرضين شيدت حديثاً بعض مبانٍ عسكرية ، ومباني شركة النفط العراقية ، ومدت فيها أنابيب البترول ، المتجهة إلى الشرق نحو تدمر والموصل . ثم يجتاز السائح سهولاً شاسعة ، حمراء خصبة ، فيها عدة قرى ، كبابا عمرو وكفر عايا ، والنقيرة ومباركية وإبل ودمينة الغربية على يمينه ، وفيروزة ومسكنة ، وتل الشيح ووهيب على يساره ، وقد ذكرت ياقوت إبل فيما ذكره من أعمال حمص ، هذا وفيروزة ومثلها في شماليها زيدل ، قريتان كبيرتان أهلها سريان قدماء ، منشؤهم من صدد ، يتقنون العمل في الفلاحة ، نساؤهم على جانب من الجمال ، ثم يجتاز قرية مسكنة ، ويلمح في الغرب السكة الحديدية الذاهبة نحو رياق ، مارة بمحطات قطينة والقصير وما بعدهما . ثم يمر من وسط أراضي قرى شنشار في (الكيلو متر ١٥) وحسينية في (الكيلو متر ١٨) وشمسين في (الكيلو متر ٢٢) ، وعند مروره بشنشار ، يرى على يمينه طريقاً حديثة ، تذهب نحو القصير في الجنوب الغربي (طولها ١٦ كيلو متراً) لتتصل بطريق حمص ـ بعلبك . وفي شمسين خان من بقايا عهد القوافل ، ذكره القلقشندي في صبح الأعشى (١٤ / ٣٨١) في جملة مراكز طريق دمشق وحلب .

وتنتهي السهول التي ذكرناها في الغرب عند بحيرة حمص ، أو بحيرة قدس أو قادش كما كانت تدعى . وقد نوه بها جغرافيو العرب ، قال أبو الفداء في تقويم البلدان : « بحيرة قدس ، وهي بحيرة حمص ، طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ثلث مرحلة ـ تعادل ١٥ كيلومتراً وصحيحه ١٢ كيلومتراً كما قدمنا ـ ، وسعتها طول السد ، وهي مصنوعة على نهر الأرنط ، فإنه قد صنع في طرف البحيرة الشمالي ، سد بالحجر من حجارة الأوائل ،

وينسب إلى الاسكندر ، وعلى وسط السد شرقاً وطولاً ألف ومئتين وسبعة وثمانون ذراعاً ، وعرضاً ثمانية عشر ذراعاً ، وهو حابس الماء العظيم ، بحيث لو خرب السد سال الماء ، وعدمت البحيرة ، وصارت نهراً ، وهي في أرض مستوية ، وهي عن حمص بعض يوم في غربيها ، ويصاد بها السمك » ا هـ . وكرر القلقشندي في (صبح الأعشى) هذه العبارة وزاد عليها : « وعلى وسط السد برجان من حجر أسود » ا هـ . قلت : وهذا السد العظيم مجهول اسم بانيه وتاريخ بنائه ، نسبه التلمود إلى (ديوكلتيانوس) ونسبه (استرابون) إلى فراعنة مصر ، ونسبه أبو الفداء إلى الإسكندر . وكل هذه النسب مشكوك فيها ، وقال البعض أنه من القرن الثاني للميلاد ، وهو مبني بالحجر الحري الأسود ، يبلغ طوله ٥٠٠ متر ، وارتفاعه ٥ ـ ٦ أمتار على التقريب . وفيه البرجان المسميان باسم بلقيس . وهذا السد مابرح على كر الدهور ، واقفاً وحابساً ماء هذه البحيرة الجسيمة ، رمم في العصور الغابرة مراراً كما يظهر من أحجاره . وفي السنين الأخيرة اعتراه الوهن في بعض جهاته ، وصار محتاجاً للترميم والرقع ، قبل اتساع الخرق ، وقيل إن عزيمة المفوضية الإفرنسية العليا في الشام ، قد صحت على القيام بذلك ، وعلى تعلية السد قبل انتهاء سنتنا الحاضرة ، ولعلها منجزة ماوعدت . ويظهر أن القصد من هذا السد أمران ، الأول حبس ماء العاصي من الشتاء ، لينتظم مسيله في الصيف ، ويستطيع إسقاء بساتين حمص وحماة ، والثاني ليرتفع مستوى ماء البحيرة إلى حد يستطيع به الاندفاع والسيلان ، في الساقية الذاهبة من النهر إلى حمص ، لشرب أهلها ، وهذه الساقية محفورة في الأرض حفراً بسيطاً ، ولم يبن لها بناء أو جدار ماء ، وأكبر ظني أنها حديثة العهد ، من عمل أحد الملوك أو الأمراء المسلمين .

وطول البحيرة المنحرفة من الشرق الشمالي إلى الغرب الجنوبي نحو ١٢ كيلومتراً ، وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٣ ـ ٤ كيلومتر وعمقها ٣ ـ ٨ أمتار ، وعلو مستوى مائها عن البحر المتوسط ٥٠٠ متر ، ولقلة عمقها فإن حرارة مائها تتأثر بحرارة الجو ، وفي شاطئها الجنوبي صخور كلسية واقفة كالجدران ، تعلو ٤ ـ ٥ أمتار أو أكثر تتخللها خلجان صغيرة منحطة ، وشاطئها الشمالي أوطأ في الجملة ، تمتد فيه صخور كورة الوعر ، الحرية السوداء التي ترتفع تدريجاً نحو جبل الحلو ، أحد أعضاد جبال النصيرية كما قدمنا . وبينما يغلب اللون الأحمر على الأرضين المحيطة بشاطئها الشرقي والجنوبي ، تجد ماء هذه البحيرة ،

مشرب بقليل من البياض اللبني ، الناشئ من تحات الصخور الكلسية في شاطئها الجنوبي . وتهب الرياح الغربية ، الآتية من المنفذ المنبسط بين حمص وطرابلس بشدة زائدة ، كانت تضطرني وأنا واقف أمعن النظر في البحيرة إلى الاستمساك بالصخور ، خشية الاندفاع إلى الوراء .

ولا بد في غالب الأيام عقيب الظهيرة من هبوب هذه الرياح أو العواصف الشديدة ، فتثور الأمواج المتعالية الصاخبة ، حيث يتعذر بل ويستحيل آنئذ ركوب الزوارق والاصطياد . ويكثر في هذه البحيرة السمك على اختلاف صنوفه وحجومه ، يرتزق منه أهل القرى المجاورة ، وأخصها قطينة التي اشتهرت باصطياده وبيعه من أسواق حمص ودمشق وما إليها . كما فيها أيضاً السراطين والضفادع ، وغيرها من الحيوانات الصدفية والقشرية . وإلى جانب شاطئ بحيرة قدس الجنوبي ، جزيرة صغيرة تعلو سطح البحيرة تدعى تل التين ، خيل لأحد المستشرقين الإفرنسيين في سنة ١٣٢١ هـ ، أنها مكان مدينة قادش الحثية - قبل أن يعرف تل النبي مند ، وتكتشف آثاره - فأنفق مبالغ طائلة ، وحفر فيها كثيراً ، فلم يظفر إلا باثار قليلة ، أيقن بعدها بخطئه فعاد أدراجه ، وكانت هذه البحيرة في عهد الصليبيين من ممتلكاتهم ، وهب (ريموند) الثاني كونت طرابلس حق الصيد فيها إلى الفرسان الاسبتاريين ، لما سلمهم حصن الأكراد في سنة ١١٤٢ م .

ومن الضياع التي حول هذه البحيرة في الشرق ، تل الشور وقطينة ، وأهلها نصارى وكام وكفر عبدة ، وفي الشمال من قرى الوعر : زور بقرايا وزيتا البحرة ، وفي الغرب من قرى الوعر : عامرية ووجه الحجر وجوبانية ، وفي غربي عامرية : لفتايا فيها آثار بيزنطية لم تكتشف بعد ، وفي الجنوب دبين والناعم ومودان ، وبعض هذه الضياع قرب الشاطئ ، وبعضه يبعد عنه قليلاً . وثمة على يسار العاصي قرية فوق تل يدعى (تل النبي مند) ، قامت مكان بلدة قادش ، التي كانت من أجل معاقل الحثيين ، المخصصة لحراسة تخومهم الجنوبية ، حدثت فيها بينهم وبين فراعنة مصر ، معارك كثيرة ، أهمها ماأتاه رعمسيس الثاني المعروف باسم (سيزوستريس) ، فقد كسرهم وأخضعهم ، ثم سالمهم وصاهر ملكهم على ماقدمناه . نقب الأثري الإفرنسي (موريس بيزار) هذا التل في سنتي ١٣٤٠ - ١٣٤١ هـ ، فوجد فيها آثاراً مصرية عديدة ، من عهد هؤلاء الفراعنة وغيرهم ، منها أوان

وأدوات من العظم والعاج والزجاج الملون البديع النقوش من الفن المصري الفينيقي ، وقطع الشبه (البرنز) مثل أسلحة وأسنة رماح ، وإبر ودبابيس ، وحلقات وأساور ، ومفاتيح وسرج ، وكؤوس وأجران ، وأشباهها فضلاً عن الأدوات الحديدية الكثيرة ، وأجل تلك الآثار نصب من الحجر الحري الأسود ، نقل إلى دار الآثار الوطنية بدمشق ، نقش عليه صور خمسة أشخاص ، ففي الجهة اليمنى رسم الفرعون (سيتي) الأول ، يتناول صولجان النصر من رب مصر آمون ، وخلف آمون المعبود ست ، ويليه المعبود مانتو ثم خونسو ، ونقش عليه أيضاً طابع الفرعون سيتي الأول ، الذي أقام هذا النصب في قادش ، تخليداً لذكرى انتصاره ، وانهزام موسيل ملك الحث ، واستيلائه على قادش سنة ١٣١٥ قبل المسيح . وفي قرية تل النبي مند جامع قديم ، فيه ضريح هذا النبي المجهول ، وينسب بناء الجامع إلى الملك الظاهر .

وبين طريق السيارات الذي نذكره ، ونهر العاصي المتجه شمالاً ، نحو البحيرة التي وصفناها ، قرية كبيرة تدعى (القصير) لها محطة على خط حديد حمص ورياق ، تبعد عن حمص ٢٨ كيلومتراً ، أهلها مسلمون ونصارى روم ، عددهم ثلاثة آلاف . ذكرها ياقوت في معجمه فقال : « ضيعة أول منزل لمن يريد دمشق من حمص » ا هـ . فيظهر أنها كانت في عهد ياقوت صغيرة ، غير كافية لتكون قصبة هذه الكورة التي كانت في جوسية كما سيأتي . والقصير في عهدنا ، ذات أزقة مستقيمة ، ودور وأفنية فسيحة ، متباعد بعضها عن بعض ، استولى عليها الثوار الشاميين في ثورة سنة ١٣٤٤ هـ ، وقتلوا فيها مهندسين إفرنسيين من عمال إدارة المساحة ، فنصبت هذه الإدارة عند قبريها في المحطة حجراً تذكارياً ، وفي القصير نهير من روافد العاصي يدعى الحاروث ، يروي أراضيها المنبسطة ، وقد جعلت قاعدة لناحية تحوي قرى وضياع كثيرة ، تمتد إلى سفوح جبلي أكروم والهرمل ، من أعضاد لبنان الشمالي . نذكر من هذه القرى الزراعة ، تبعد عن القصير للجنوب نحو ٦ كيلومتر ، يراها المار في القطار ، وقد اشتهرت بالمعركة التي حدثت بين الجيش العثماني والمصري في ذي القعدة سنة ١٢٤٧ هـ ، والتي حدثت بين الجيش الإفرنسي والثوار الشاميين في سنة ١٣٤٤ هـ ، وفي الزراعة ينابيع ومياه جارية تسقي أراضيها ، قيل أن بين هذه الينابيع كانت Triparadisos (ثلاث جنان) القديمة ، التي اجتمع فيها كبار قواد الإسكندر بعد موته وائتمروا على تقسيم مملكته ، المترامية الأطراف بينهم ، وأن بينها

وبين القصير أيضاً هيأ إبراهيم باشا المصري جيوشه ، واستعد للزحف على حمص ، وفتحها في سنة ١٢٤٨ هـ . وفي غربي الزراعة من الأماكن الأثرية قرية ربلة ، كانت على مايظهر ، ذات مكانة تاريخية ، وقصبة كورة لائوديسيا التي حولها ، ويقال أنها هي المشار إليها في سفر الملوك (٢٢ - ٢٥) وأهلها الآن روم كاثوليك .

وفي جنوبي الزراعة إلى الشرق من الخط الحديدي أطلال بليدة قديمة تدعى جوسية الخراب ، تبعد عن الزراعة نحو ٧ كيلومتر ، قال ياقوت عنها : « قرية من قرى حمص ، على ستة فراسخ منها ، من جهة دمشق ، بين جبل لبنان وسنير ، فيها عيون تسقي أكثر ضياعها سيحاً ، وهي كورة من كور حمص » ا هـ . وتؤيد عبارة ياقوت البرج وجدران القصور ، والدور المبنية من الأحجار الضخمة المنحوتة ، التي تشبه أحجار الأبنية الأثرية النصرانية ، المنتشرة في بلاد حلب الغربية ، وقد تقدم ذكرها - كالتي في جبل سمعان وجبل الأعلى ، وجبل باريشا وجبل الزاوية - من القرن الخامس والسادس الميلاديين ، وليس ثمة من الأحجار المنقوشة ، سوى عتبة فوق باب أحد الأسوار المهدومة ، لاتزال في مكانها . وفي ضاحية جوسية دير ذكره ياقوت في معجمه وأسماه دير باعنتل ليس له الآن أثر . قال عنه : « هو من جوسية على أقل من ميل - أي نحو كيلومتر ونصف - وفيه عجائب ، منها آزج أبواب ، فيها صور الأنبياء محفورة منقوشة فيها ، وهيكل مفروش بالمرمر ، لاتستقر عليه القدم ، وصورة مريم في حائط منتصبة ، كلما ملت إلى ناحية كانت عينها إليك » ا هـ . وذكر (مونمارشه) في الدليل الأزرق « أن المسلمين قلبوا هذا الهيكل إلى جامع خرب بعد حين ، في خراب جوسية كلها وعفيت آثاره » ، وفي تاريخ أبي الفداء في حوادث سنة ٦٩٥ هـ : « جاء الملك العادل كتبغا من دمشق إلى جهة حمص ، وقدم جوسية وهي قرية على درب بعلبك من حمص ، وكانت خراباً ، فاشتراها وعمرها ، فوصل إليها ، ورآها ثم عاد إلى دمشق » ا هـ . فيظهر من هذا أن جوسية كانت خراباً في القرن السابع ، لكن أبو الفداء لم يذكر مبدأ هذا الخراب وفاعله ، كما أنه لم يذكر ممن اشتراها الملك العادل كتبغا ، ولا كيف عمرها ، ولم نعثر في تواريخ أخرى على ذكرها ، لنعرف إلى متى دام هذا العمران ، ومتى حدث خرابها الأخير ، الذي من أجل دواعيه على مارأيت ، غور العيون ونضوب المياه ، التي ذكرها ياقوت ، ومن هذه المياه ، القسم الذي كان يذهب إلى حمص بقناة خاصة ، طولها يزيد على الأربعين كيلومتراً ، لشرب أهل حمص كما قدمناه

في بحثها ، وقد أسكنت فيها الحكومة العثمانية في غرة القرن الهجري الحالي ، قسماً من مهاجري الشركس ، حاولوا أن يعمروها ، لكنهم نكبوا بجدب أرضها وقلة أمطارها ، وعجزهم عن إسالة عيونها القديمة فهجروها . وبعد أن كانت أطلال جوسية ، وأحجار جدرانها الضخمة ماثلة لمضي بضع سنوات ، تطاولت إليها أيدي أهل ربلة ، فنقضوها وبنوا بها كنيستهم الحديثة ، وما برحوا يجهزون عليها ، وقد تصبح بعد حين أثراً بعد عين ، وثمة في شمالي جوسية الخراب ، ضيعة تدعى جوسية العمار ، كان فيها جامع قديم ، له مأذنة أثرية ، خربت من عهد قريب ، وبني بأحجارها جسر على نهر الحاروث .

وعند جوسية الخراب الحد الفاصل في يومنا بين البلاد الشامية والبلاد اللبنانية ، وثمة في جنوبي هذا الحد ، كورة واسعة في منبسط منحصر بين سلسلتي لبنان الشرقي والغربي ، أهلها مسلمون شيعة ، قصبتها تدعى (الهرمل) قرية كبيرة تبعد عن حمص ٥٣ كيلومتراً ، عدد سكانها ٤٥٠٠ ، كثيرة المياه والبساتين ، وأشجار الجوز وغيرها ، وفيها أطلال أثرية ، تدل على مكانتها السالفة ، منها مذبح كان مخصصاً لجوبيتر البعلبكي ، نقل إلى دار الآثار في بيروت . وفي شرقيها تل عليه بناء عال قديم يدعى قاموع الهرمل ، أو قائم الهرمل ، يظهر أن تحته قبر ، وعلى حجارته صور منقوشة تمثل الصيد . وعلى بعد عشرة كيلومتر عن الهرمل ، عين الزرقاء المنبع الأصلي لنهر العاصي ، وهي عين كبيرة ، تظللها أشجار دلب عظيمة ، تنبجس مياهها بشدة وتندفع ، لتأخذ في طريقها روافد كثيرة ، ترد من منحدرات لبنان الغربي والشرقي ، أخصها ما يرد من نبع اللبوة شمالي بعلبك . وعلى بعد نصف كيلومتر من عين الزرقاء المذكورة ، وعلى يمين المسيل المنحدر مغارة اصطناعية ، حفرت وسط صخرة عمودية واقفة كالجدار ، علوها نحو تسعين متراً ، ولها ثلاث طبقات ، وتعرف باسم مغارة الراهب ، أو دير (مار مارون) نقر فيها في الصخر الأصم ، مذبح ودرج وحجر صغيرة ، ويزعمون أن مار مارون أبا الطائفة المارونية ، اعتزل وأقام في هذا الدير ، وصحيحه أن المار المذكور أقام في ديره الذي مر ذكره في شمالي حماة . وفي جدران هذا الدير مرامي ، تدل على أن الدير اتخذ في بعض العصور الإسلامية ملجأ أو حصناً . قال القلقشندي في (صبح الأعشى) عن نهر العاصي : « نهر حماة ويسمى العاصي ، لأن غالب الأنهر تسقي الأرض بغير دواليب ولا نواعير بل تركب البلاد بأنفسها ، ونهر حماة لا يسقي إلا بنواعير تنزع الماء منه ، ويسمى النهر المقلوب لجريه من الجنوب إلى الشمال ،

وغالب الأنهر إنما تجري من الشمال إلى الجنوب ، واسمه القديم نهر الأرنط ، وأوله نهر صغير من ضيعة قريبة من بعلبك في الشمال عنها ، على نحو مرحلة ، وتسمى الرأس ، ويمتد من الرأس شمالاً حتى يصل إلى مكان يسمى قائم الهرمل ، بين قرية جوسية والرأس ، ويمر في واد هناك ، وينبع من هناك أكثر ماء النهر من موضع يسمى مغارة الراهب ، ويمتد شمالاً حتى يتجاوز (جوسية) ، ويمتد حتى يصب في بحيرة قدس غربي حمص ، ويخرج من البحيرة ، ويتجاوز حمص إلى الرستن ، ويمتد إلى حماة ثم شيزر ، ثم إلى بحيرة أفامية ، ثم يخرج منها ، ويمر على دركوش ، ويمتد إلى جسر الحديد ، وذلك جميعه شرقي جبل اللكام كذا ، وصحيحه جبل لبنان وجبل النصيرية وجبل القصير - فإذا وصل إلى جسر الحديد ، انقطع الجبل المذكور هناك ، ويستدير النهر المذكور ويرجع ، ويسير جنوباً بغرب ، ويمر على سور أنطاكية ، ويسير كذلك مغرباً بجنوب ، حتى يصب في بحر الروم عند السويدية » اهـ . وقد قدمنا ذكر هذه الأماكن في أبحاثها ، فأنت ترى أن نبع العاصي الأصلي هو من اللبوة ، وأن عين الزرقاء ترفده رفداً ، كما ترفد عين الفيجة نهر بردى ، وطول العاصي عند منبعه إلى مصبه ٤٥٠ كيلومتراً .

هذا والسائر بين شنشار وشمسين ، يلمح على يمينه في الأفق الغربي على بعد ٤٥ كيلومتراً ، فوق أعضاد جبال النصيرية قلعة الحصن أو حصن الأكراد ، وهي مابرحت تثير الإعجاب برفعتها ومنعتها ، وضخامة أبراجها وأسوارها ، التي لاتزال على جدتها إلا قليلاً ، كما تركها الفرسان الاسبتاريون ، لما استخلصها منهم الملك الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٩ هـ ، ولا يتسع برنامج كتابنا هذا ، لوصفها فنكتفي بذكرها .

عود إلى طريق النبك : وفي شرقي طريق شنشار وشمسين ، سهول مترامية الأطراف جرداء ، تدعى (النقعات) مرتفعة في الجملة عما حولها ، فيها عدة ضياع ، كالعاليات ودردغان ، والحربية والحمرات ، وشعيرات والوازعية ، وغيرها ، أهلها نصيرية وأعراب ، وهي جيدة الهواء والتربة ، لولا أنها قليلة المياه ، ضئيلة الأمطار ، كثيرة سني المحل . ويمتد في الشرق الجنوبي من بقعة النقعات سلسلة تلعات ورواب قفراء ، تدعى (حزم صدد) ، لأنها آتية من أنحاء قرية صدد . والحزم في اللغة الغليظ المرتفع من الأرض . وكلما ابتعد السائح في طريقه عن شمسين ، يتضاءل احمرار لون الأرض ، وعمق ترابها وخصبه ، فيتبدل اللون إلى البياض والاصفرار ، والعمق إلى الرقة ، والخصب إلى

الجدب ، والبهجة إلى الوحشة . وتشاهد في غربي شمسين آكام سلسلة لبنان الشرقي ، واسمها عند العرب جبل سنير ، تتدرج من الشمال إلى الجنوب ، لتحول بين سهل البقاع ـ الذي تمر فيه سكة حديد حمص ورياق ـ وبين سهول حسية .

وحسية ضيعة صغيرة على يسار الطريق الآخذة إلى دمشق ، تبعد عن حمص نحو ٣٥ كيلومتراً ، شيدت وسط سهول ، قلما يجود فيها الزرع ، لقلة أمطارها ورقة ترابها واصفراره ، ولذا انصرفت عناية ملاكيها آل سويدان ، وأخصهم عبد المجيد آغا نحو تربية الماشية حولها ، وفي الآكام التي في غربيها . وأول العهد بتاريخ حسية هو في سنة ١١٠٠ هـ ، حينما امتلكها إبراهيم آغا سويدان جد بني سويدان الحاليين ، الذين تضاربت الأقوال في منشئهم . كان هذا الآغا وبعده ابنه سليمان ، ثم ابنه الثاني حسين ، ثم حفيد سليمان مسعود متسلمين في حمص ، حكموها على طراز ذلك العهد الإقطاعي خلال القرن المذكور كله ، كما قدمناه في تاريخ حمص . وبعد مسعود تولى بنو سويدان محافظة البادية ، وطريق حمص وتدمر ، وجبل قلمون حتى أبواب دمشق ، وظلوا في هذه الوظيفة حتى سنة ١٣١١ هـ في أيام عبدو آغا سويدان ، ثم اقتصر أمرهم على تولي مديرية الناحية فحسب ، إلى أن بدلوا بغيرهم منذ عهد قريب . وناحية حسية تشمل عدداً من القرى والضياع ، الممتدة إلى الشرق والجنوب ، ومنها ضياع النقعات التي عددناها ، ثم الرقامة والمنزول ، والعزيزية والعباسية ، ومضابع والبلها . ولا يزال في حسية مخفر لجنود الدرك ، يؤمنون السابلة . وظل اسم الناحية لمضي ربع قرن (إيكي قبولي) لوجود بابين لخانها العظيم المندثر ، كانت تدخل القوافل من الشمالي منها ، وتخرج من الجنوبي ، ثم هجر هذا الاسم . وفي هذه القرية نبع ماء جار ، أنشؤوا بها في السنين الأخيرة بساتين ذات أشجار ، إذا دامت يرجى أن يروق بها منظر هذه القفار . وفي غربي حسية خربة تدعى الرميدة ، فيها ضريح ذو قبة ، لرجل مجهول يسمونه الشيخ عبد الله ، ولم يذكر جغرافيو العرب وسياحهم حسية ، في حين أنها كانت وما برحت أول منزل من حمص أو ثانيه بعد شمسين ، وليس في غيرها ماء كاف ، ذكر ياقوت في معجمه اسم الغسولة ، وقال إنها منزل للقوافل فيه خان على يوم من حمص وقارا ، ومثله قال القلقشندي (في صبح الأعشى) عندما عد المنازل بين دمشق وحلب . وقد كانت الغسولة في جنوبي حسية ، على بعد كيلومتر منها ، ولا تزال أطلالها ماثلة ، نقلت لقلة مائها أو لسبب آخر إلى مكان حسية الحالية . وذكر

ابن جبير في رحلته أنه بعد مغادرة حمص ، نزل في قرية خربة تدعى المشعر ، ولا يعرف الآن لهذه الخربة أثر ولا خبر . وأول من ذكر حسية شمس الدين محمد الحلبي المعروف (بابن أجا) المتوفى سنة ٨٨١ هـ مؤلف رحلة الأمير (يشبك الداوادار) في سنة ٨٧٥ هـ ، في عهد الملك الأشرف (قايتباي) ، فقد ذكرها باسم منزلة حصيا (بالصاد) ، أما الخان والحصن اللذين تكلم عنهما سائحنا (أوليا جلبي) فهما من آثار سنان باشا على ما يظن ، ولعلهما خربا في زلزلة سنة ١١٧٣ هـ ، وقد تبدلت الآن معالمهما ، وأنشئت بأنقاضهما دور للقرية ، لاسيما ولم يعد بهما حاجة ، بعد أفول نجم حسية وملاكيها ، منذ ماأنشئت سكة حديد رياق ـ حمص سنة ١٣٢٤ هـ ، وتم تعبيد طريق السيارات سنة ١٣٤٧ هـ ، واستتب الأمن في الجملة .

ومن الأماكن التي تختفي في الفيافي والتلعات الممتدة من حسية إلى تدمر وتستحق الذكر ، قرى صدد وحوارين ، ومهين وعين جباة ، وحمة أبو رباح ، وكلها من أعمال قضاء القريتين . فصدد قرية كبيرة تبعد عن حمص نحو ٥٤ كيلومتراً ، وعن حسية ١٨ كيلومتراً ، إلى الجنوب الشرقي ، ذات عيون وبساتين ، أحيط كل منها بجدار عال من اللبن ، مخافة عيث البادية . وكانت قديماً إحدى المدن التي تنتهي عندها تخوم مملكة إسرائيل ، كما ورد في التوراة في سفر العدد وفي نبوة حزقيال ، وكان فيها برج بيزنطي ، قديم عظيم ، كنا نراه من بعيد ، لكنه سقط منذ بضع سنوات ، وقتل نفراً من أهلها كانوا حوله في غفلة . وأكثر أهل صدد من السريان القدماء ، لهم فيها بضع كنائس ، وأقلهم من السريان الكاثوليك ، لهم كنيسة واحدة ، وجميعهم يرتزقون فوق عملهم الزراعي بنسج العبي ، وفي صدد قتل الأمير الشاعر الشاب (أبو فراس الحمداني) سنة ٣٥٧ هـ لما لحقه (قرعويه) نائب ابن أخته (سعد الدولة بن سيف الدولة) كما قدمنا في بحث حمص . جاء في تاريخ أبي الفداء (٢ / ١١٤) أنه قيل في مقتله :

وعلمني الصد من بعده	عن النوم مصرعه في (صدد)
فسقياً لها إذ حوت شخصه	وبعداً لها حيث فيها ابتعد

والطريق من حمص إلى صدد ، يمر بقرى فيروزة والجديدة ، والرقامة والمنزول ، وكانت السيارات التي تسير من حمص إلى النبك فدمشق ، في سني ١٣٤١ و ١٣٤٢ هـ وما

بعدها ، تمر بهذه الطريق على بعدها ووحشتها ، إلى أن تم تعبيد طريق حسية والبريج إلى النبك ، فهجرت طريق صدد . وكانت هذه الطريق خططت وفرشت بالحصى ، وبنيت جسورها في سنة ١٢٩٦ هـ وما بعدها ، ثم أهمل دحيها وتعبيدها ، ما يقرب من نصف قرن ، إلى أن تم ذلك أخيراً .

وحوارين ، قرية قديمة أهلها مسلمون ، تبعد ١٥ كيلومتراً عن صدد إلى الشرق ، قال عنها ياقوت : حوارين حصن من ناحية حمص ، قال بعضهم :

يا ليلة لي بحوارين ساهرة حتى تكلم في الصبح العصافير

مر خالد بن الوليد في مسيره من العراق إلى الشام بتدمر والقريتين ، ثم أتى حوارين من سنير ، فأغار على مواشي أهلها فقاتلوه ، وقد جاءهم المدد من أهل بعلبك ، ثم أتى مرج راهط . وقال بعضهم :

أنحن بحوارين في مشمخرة ببيت ضباب فوقها وثلوج

وكانت حوارين بليدة حصينة ، وآثارها عديدة حتى اليوم . منها قصرها العظيم الذي شيده الرومان ، ثم اتخذه يزيد بن معاوية ، يقضي فيه أكثر أيامه ويذهب منه إلى الصيد ، في جبة عسال في أعالي جبل سنير ، حتى أنه لما مات أبوه معاوية ، كان غائباً في حوارين ، فكتبوا إليه فحضر بعد دفن أبيه ، ثم مات هو فيها سنة ٦٤ هـ ، وفي حوارين آثار سبع كنائس قديمة ، لاتزال واحدة منها ماثلة بجدرانها وحنيتها ، وبعض عمدها مع نقوش لطيفة ، وثمة كنيسة أخرى يسميها أهل القرية كنيسة جعارا ، ربما كانت هيكلاً وثنياً في عهد الرومان ، ثم حولوها إلى كنيسة لما تنصروا ، فيها حجارة وأعمدة ضخمة ، تشبه ما في بعلبك . وفي حوارين عين جارية وبساتين مسورة كما في صدد .

ومهين قرية في جنوبي حوارين ، وقريبة منها بنحو ثلاثة كيلومتر ، أهلها مسلمون وهي قديمة أيضاً ، في أعلاها بناء أثري كبير ، مبني على الصخر يدعونه سجن حوارين ، تدل هندسته على أنه لم يكن سجناً ، بل معبداً وثنياً اتخذ كنيسة في عهد البيزنطيين ، ولا يزال فيه عدد من الأعمدة والأفاريز المنقوشة ، وحجارته ضخمة عادية ، وطول جداره ١٢ متراً ، وعرضه عشرة أمتار ، وقد ألحق به بناء لتحصينه ، ذو أبراج مربعة لكنه أحدث من

المعبد صنعاً ، وفي مهين أيضاً عين وبساتين قليلة .

والغنتر ضيعة في شرقي حسية ، تبعد عنها نحو ٣٨ كيلومتراً ، يؤتى إليها من حمص عن طريق تدمر ، التي فيها قرى : زيدل وسكرة ، وأبو دالي وعيفير ، والجربوعية والبسة ، والفرقلس حيث ينتهي العمران . والذاهب إلى الغنتر ينحرف إلى الجنوب في بيداء شاسعة ، فيجتاز ٢٩ كيلومتراً . والغنتر ضيعة من أملاك أسرة آل سويدان ، تعلو عن البحر ٧٦٦ متراً ، فيها عين وزروع قليلة ، بينها وبين حسية تمتد آثار قناة تدمر العظيمة ، الآتية من الغرب ، وعلى ما يظهر من أنحاء القصير أو جوسية ، وقد جرت في القرن الرابع حول الغنتر معارك بين سيف الدولة بن حمدان وقبائل البادية ، الذين تقدم ذكر أسمائهم في بحث سلميه ، بعد أن أوقع بهم سيف الدولة في سلمية والفرقلس ، ثم لحق بهم إلى الغنتر والجباة ، وبدد شملهم وردم آبارهم ، ثم اتجه نحو تدمر وأرك ، والسخنة والطيبة ، والكوم والرصافة ، ومنها عاد إلى حلب . وقد ذكر ياقوت في معجمه الغنتر ، وأورد بيتاً للمتنبي من قصيدة يهنئ فيها سيف الدولة على انتصاره على القبائل :

غطا بالغنتر البيداء حتى تحيرت المتالي والعشار

وذكرها الأمير أبو فراس في قصيدة ، يفخر بأفعاله في تلك المعارك ، التي خاض يومئذ غمارها :

سقينا بالرماح بني قشير ببطن الغنتر السمَّ المذابا

وفي شرقي الغنتر مزرعة فيها عين ماء تدعى الجباة ، ذكرها المتنبي أيضاً :

ومروا بالجباة يضم فيها كلا الجيشين من نقع إزار

وفي شمالي الغنتر على نحو ثلاثة كيلومتر سلسلة آكام ، في الأخيرة القبلية منها حمة ، هي فوهة صغيرة يخرج منها بخار مائي حار ، كالذي يخرج من البراكين التي على وشك الانطفاء ، تدعى حمة أبو رباح أو حمام أبو رباح ، يقصدها أصحاب الأمراض العصبية ، والمصابون بتيبس الأعضاء والتشنج . وقد عرف الأقدمون منافع هذه الحمة ، فبنوا فوق الفوهة غرفة مسقوفة ، يدخل إليها المستحمون . وبنوا أيضاً إلى جانب تلك الغرفة ، بناء

كبيراً معقود السقف ، جعلوه خزاناً لماء المطر الذي يأتي من المجاري المحفورة والمبلطة ، في الآكام المجاورة . يدخل المستحمون إلى غرفة الحمة ، فلا يكادون يلبثون بضع دقائق حتى يتصببون بالعرق ، فيخرجون ويغتسلون بالماء الذي كانوا يتناولونه من ذلك الخزان ، أما الآن فقد هدم هذا الخزان أو كاد ، ونضب ماؤه ، وصار المستحمون المقتدرون يحملون الماء من الغنثر ، ويغلب على الظن أن بناة هذا الحمام هم التدمريون دون غيرهم ، لقرب هذا المكان منهم في الجملة (١٠٠ كيلومتر) ، ولبلوغهم الغاية من الحضارة والعمران في تلك العصور . وثمة غير الفوهة التي بني عليها الحمام ـ فوهتان بعيدتان قليلاً ، إحداهما يتداوى بها الصم إذ يضعون آذانهم عليها ، والثانية يؤمها العقيمات من النساء ، لدفع الأسباب المانعة من حبلهن ، يقعدن القرفصاء عليها . ولعل النفع الذي قد يحصل من هاتين الفوهتين ناشئ عن أن البخار إذا مادخل الأذن أو الرحم ، يطهر مافيه من الأوساخ ، إذا كان ثمة شيء من ذلك . هذا ولم يذكر حمة أبي رباح من جغرافيي العرب إلا شيخ الربوة ، لكنه غلا وبدل في الوصف إذ قال : « وبين حمص وسلمية ـ كذا وهو خطأ ـ كهف ـ وهذا خطأ أيضاً إذ ليس هناك كهف بل غرفة مبنية ـ ، في جبل يخرج منه بخار أشد من الضباب المتراكم ، فإذا دخل الإنسان ذلك الكهف ، خيل إليه أنه في الحمام لشدة الوهج ، وكثرة قطر الماء من البخار الصاعد من البئر ـ وصحيحه من الفوهة ـ الذي في وسط الكهف ، ويسمع غليان الماء بقعر الماء ، ولا يمكن النظر فيه ، لشدة البخار الصاعد من البئر ، الذي في وسط الكهف ، ومن نظر فيه تشيط من الحرارة (كذا) » ا هـ .

أما القريتان ، فهي في وسط سهول فسيحة قفراء ، في غربها الجبل الآتي من النبك إلى مهين ، وشرقها سلسلة الجبال الممتدة من جنوبي الناصرية إلى غربي تدمر . يؤتى إليها من دمشق عن طريق القطيفة وجيرود (١٣٠ كيلومتراً) ، ومن حمص عن طريق صدد ومهين (٦٩ كيلومتراً) ، ومن تدمر عن طريق عين البيضاء وقصر الحير (١٠٧ كيلومتر) ، وفي طريقها من مهين أو من جيرود برار وتلعات بيضاء صلعاء ، لاترى فيها إلا جمال البدو ومضاربهم ، وأسراب الغزلان ومصائدهم ، والشمس المتوهجة والسراب المتلألئ . أما هي فقرية كبيرة طيبة المياه ، كثيرة القنوات والبساتين والكروم ، فيها التفاح الجيد والعنب الفاخر ، لاتختلف بطراز بنائها وسحن أهلها ، وأزيائهم وأطوارهم ، عما في بقية قرى جبل قلمون ، وقد جعلت منذ بضع سنوات مركز قضاء تتبع لواء حمص ، من أعمالها

قرى حوارين وحفر ، وصدد والرحيبة ، والغنثر ومهين ، وحدث وأبو فرج ، وناحية تدمر التي فيها : تدمر وأرك ، والسخنة والطيبة والكوم ، ثم ألغي هذا القضاء في سنة ١٣٥٢ هـ . وبقيت القريتان ، مركز ناحية ، وعلى بعض مسافة منها حمامات معدنية طبيعية ، تصلح للنقرس وأوجاع المفاصل ، منها عين كبريتية غزيرة ، يستحم بها المصابون بأمراض جلدية . والقريتان بليدة قديمة ، يظن أنها المذكورة في التوراة باسم حصر عينان ، والمعينة كأحد تخوم بني إسرائيل الشمالية ، وكانت تدعى في عهد الرومان باسم (نزالة) ، وقد حصنوها لوقوعها في طريق تدمر ، ثم عرفت باسم (قرادي) ، وكانت منقسمة إلى قسمين ، لذلك دعاها العرب بالقريتين ، واليوم لم يبق من القسم الجنوبي إلا بعض الآثار . قال ياقوت : « والقريتان قرية كبيرة من أعمال حمص ، في طريق البرية ، بينها وبين سخنة وأرك ، وأهلها كلهم نصارى » ا هـ . وعدد سكانها في يومنا ٢٥٠٠ ثلثاهم من المسلمين ، والبقية سريان قدماء وكاثوليك . وإلى الشمالي الغربي منها دير قديم ، باسم (مااليان) يزوره المرضى والمجانين للاستشفاء ، فيه ناووس رخام ، عليه نقوش وكتابات سريانية ، وعلى باب كنيسته كتابة عربية تاريخها ٨٧٨ هـ ، فيها أمر بمنع البدو من التطاول على أهل الدير .

عود إلى طريق النبك : وبعد حسية بثمانية كيلومتر ، على يمين الطريق برج قديم صغير ، مربع الشكل له باب واطئ ، يدعى برج الأحمر ، قيل أنه من آثار الملك الظاهر بيبرس ، اتخذه مخفراً لتأمين السابلة في هذه الروابي والبقاع القفراء ، التي كانت وما برحت ، مكمن اللصوص ومربط قطاع الطرق ، فإذا اجتزت الروابي التي بعده ، تجد سهلاً أفيح ، فيه ضيعة تبعد عن حسية ١٦ كيلومتراً ، تدعى (البريج) هي ملك عبد المجيد آغا سويدان ، عدد أهلها ٣٠٠ ، فيها جامع وخان خراب ، يظن أنهما من آثار نور الدين الشهيد ، خربا في زلزال سنة ١١٧٣ هـ أمامها سبيل ماء جار ، عليه كتابة قديمة تاريخها ٧٠٠ هـ ، وأخرى حديثة باسم مجدد السبيل حسن أفندي الدفتري سنة ١٣١٦ هـ . قال ابن فضل الله العمري في (التعريف) ـ عند ذكره المراكز الموصلة من دمشق ، إلى حمص وحماة وحلب ـ : « ثم من قارا إلى بريج العطش ، ويقال فيه البريج أيضاً ، وقد كان مقطع طريق وموضع خوف ، فبنى فيه قاضي القضاة نجم الدين أبو العباس أحمد بن صصرى رحمه الله مسجداً وبركة ، وأجرى الماء إلى البركة من ملك كان له هناك ، وقفه على هذا

السبيل ، فبدل الخوف أمناً والوحشة أنساً ، أثابه الله على ذلك[1] » (صبح الأعشى ١٤ / ٣٨٤) . قلت : لعل الكتابة القديمة التي تعذر علينا قراءتها ، والمؤرخة بسنة ٧٠٠ هـ تحوي اسم هذا القاضي المحسن . والسهول والتلاع الممتدة بين حسية والبريج ، وما حولها في الشرق والجنوب ، لا تختلف عن المهامه القفراء ، حيث لا ظل ولا شجر ، ولا عشب ولا ثمر ، ينقبض الصدر من جفاف مشاهدها ، وبياض تربتها ووهج شمسها ، وخداع سرابها في الصيف ، وشدة بردها في الشتاء ، والخوف من قطاع طريقها في كل الفصول .

والأكام الغربية من جبل سنير ، التي تبتدئ كما قلنا من قرب شمسين ، وتتدرج بالعلو كلما سارت نحو الجنوب ، هي جرداء إلا قليلاً من أشجار البطم وغيره ، يستفيد مما حول حسية والبريج منها ، صاحبها عبد المجيد آغا سويدان ، من أجور مراعي قطعان الماعز ، التي تغشاها في الشتاء والربيع بكثرة ، ومن المحاصيل التي يزرعها له في أوديتها بالقسم ، بعض فلاحي جبل قلمون . ولا يزال علو هذه الأكام يزداد ، إلى أن يبلغ معظمه في قمة تدعى حليمة قارة (٢٤٥٥ متراً) ، التي يشاهدها القادمون من حماة إلى حمص ، كما قدمناه في حينه ، ولا يزالون يشاهدونها ، حتى يجتازوا قارة التي سيأتي ذكرها . وفي البريج تنتهي حدود لواء حمص وسباسبه الجنوبية ، ويبدأ قضاء النبك الذي تحده من الغرب جبال شامخة هي الأصل في جبل سنير ، ومن الشرق جبل أجرد وسط في علوه يدعى (الجبل الشرقي) ، يمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ، ويضمحل قرب مهين وحوارين .

جبل سنير (قلمون) : سنير هي الكلمة التي وردت في التوراة ، استعملها شعراء العرب وجغرافيوهم ، قال عبد الله الخفاجي :

---

(١) عن كتاب شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٥٩/٦) ؛ وفي سنة ٧٢٣ هـ توفي قاضي القضاة نجم الدين أبو العباس أحمد بن عماد الدين محمد .... بن صصرى التغلبي الدمشقي ... استمر على القضاء إلى أن مات ، وكان حسن الأخلاق مليح المحاضرة ، متواضعاً له مشاركة في فنون شتى ، وعنده حظ من الأدب والنظم ، ومن نظمه :

ومهفهف بالوصل جاد تكرما ... فأعاد ليل الهجر صبحاً أبلجا
ما زلت ألثم ما حواه ثغره ... حتى أعدت الورد فيه بنفسجا

أسيم ركابي في بـــلاد غريبــــة من العيس لم يبرح بهن بعير
فقـــد جهلت حتى أراد خبيرهـــا بـوادي القطين (؟) أن يلـوح (سنير)
وكم طلبت مـــاء الأحص بـآمـــد وذلـــك ظلم للرجـــال كبير

قلت الأحص جبل ذو نجد ، متسع عامر في جنوبي حلب ، قدمنا ذكره في الصفحة ٢٠٩ ، وآمد مدينة ديار بكر الحالية . وقال البحتري :

وتعمــــدت أن تظـــل ركابي بين لبنـــان طلعــــاً والسنير
مشرفـــات على دمشـق وقـــد أعـ ـرض منهـا بيـاض تلـك القصـور

وكان هـذا الجبل قبـل الفتـح الإسـلامي مـأهـولاً بـأحفـاد الآراميين ، سكان الشـام الأقدمين ، بينهم فئة من الروم ، الذين تركوا في بعض قراه آثاراً جمـة ، كما سنـذكره . ولما استقرت أقدام المسلمين في الشام ، سكن فيه من قبـائل العرب بنو ضبـة وبعض بني كلب ، الذين منهم ميسون بنت بحدل أم يزيـد بن معـاويـة ، وهـذا هو السبب في تفضيل يزيـد الإقامـة واللهو في حوارين ، والصيـد في أعـالي سنير ، ليكون بين أخوالـه . وكانوا يعـدون سنير كورة من كور دمشق ، على أنه في سنة ٣٧٠ هـ امتدت إليـه أيـدي (بكجور) حـاكم حمص ، الذي مر ذكره في تاريخها . قال ابن القلانسي في ذيل (تـاريخ دمشق) ص ٢٤ : « كانت العرب قد طمعت في عمل دمشق ، وأفسدت الغوطة ، وكان بها القائد (أبو محمود) واليهـا في ضعف ، وكان بكجـور حـاكم حمص ، قـد ضمن أعمـال المغـاربـة : قـارا ويبرود ، والتينة وصيدنـايـا ، والمعرة وتلفيتـا ، وغيرهـا من ضيـاع جبل سنير ، فحماهـا من العرب والحرامية ، وحسنت حال دمشق بذلك » ا هـ . وقسم جبل سنير الذي يمتد غربي قضـائي النبك والقطيفة ، الآتي ذكرهـا ، يسمى في عرف هـذه الـديـار قلمون ، ويعتبرون حـدود جبل قلمون من الشمال إلى الجنوب ، من البريج إلى الدريج ، فالبريج تقدم ذكرها ، وأمـا الـدريـج فهي قريـة في الشمال الغربي من دمشـق ، تقـع شرقي عين الفيجـة ووادي بردى ، وحدوده من الغرب إلى الشرق ، من المرتفعات المطلة على بعلبك إلى بادية الشـام . والقسم الممتد بعد الدريج أو بالحري ، بعد وادي بردى وفيـه قضـائي الزبـداني وقطنـا ، يعـد من جبل الشيخ أو جبل الثلج ، في اصطلاح جغرافيي العرب .

وليس في العربيـة اسم جـامـع لأفراد هـذه السلسلـة ، كما في اصطـلاح الإفرنـج التي

يسمونها Anti-Liban ، ومعناه لبنان المناوح ، ويسميه البعض سلسلة لبنان الشرقي ، تمييزاً عن سلسلة لبنان الغربي ، التي تناوحها وتجاورها ، ولا يفصل بينهما سوى سهل البقاع ، وفي شماليه وادي العاصي ، وجنوبيه وادي الليطاني . وبين هاتين السلسلتين مشابهة ومباينة واضحتين ، فهما يتشابهان بالعمر الجيولوجي والشكل ، وتأليف الطبقات وطبيعة الأرض والصخور ، واتجاه مركزيهما ، ويتباينان بالعلو الذي هو أكثر في الغربي منه في الشرقي ، وبأن أعالي لبنان الشرقي منفسحة أكثر منها في الغربي ، إلا أن أرض الغربي ولا سيما من جهة البحر ، أكثر خصباً وأبهج منظراً ، وأوفر عمراناً وسكاناً ، وحراج الأرز والشوح ، والشربين والصنوبر المثمر ، وكروم التوت والزيتون والعنب ، تزين قممه ومنحدراته وسفوحه . أما لبنان الشرقي ، فضئيل العمران والسكان ، إلا في القرى القليلة التي سوف نعدها ، ويغلب عليه الجدب والتجرد في معظم قممه ومنحدراته ، فتراها عارية من النباتات ، وأشجار الحراج وأنجمها ، ماخلا أثر ضئيل من بقايا حراج البلوط والملول ، واللزاب وبعض الأشجار المثمرة البرية ، كاللوز والأجاص ، والزعرور وغيرها . وليس فيه ما يبهج النظر على قلة إلا (وادي الحرير) ، الذي في طرفيه حراج قليلة ، و (وادي نهر بردى) ذي الغياض والرياض ، و (سهل الزبداني) الذي تكثر فيه بساتين التفاح والسفرجل . وهو قليل المياه في منحدريه الشمالي والغربي ، كثيرها في منحدريه الشرقي والجنوبي ، اللذين ينبع فيهما نهر بردى وعين الفيجة ، والعيون التي سنذكرها في بحث قرى قلمون ، والعيون والمسايل العديدة ، التي تؤلف نهري الأعوج والأردن . وتختلف السلسلتان أيضاً في اتجاهها وانبساطها ، فإن لبنان الغربي منخفض في الجنوب ، انخفاضاً ينتهي عند جبل عامل وسواحل البحر المتوسط ، ولا يبلغ معظم علوه إلا في الشمال ، عند قرنة السوداء (٣٠٨٨ متراً) ، وأما الجبل الشرقي فإنه لا يبلغ معظم علوه ، إلا في الطرف الجنوبي عند جبل الشيخ (٢٨٧٦ متراً) ، ثم يأخذ بالانحناء نحو الغرب والجنوب ، حتى يضمحل شمالي سهل الجولان ، وشرقي جبل قلمون .

وقد جعلت الطبيعة جبل قلمون قسمين : الأعلى والأسفل ، ونحت الحكومات هذا المنحى ، فجعلت في الأعلى قضاء النبك ، وفي الأسفل قضاء القطيفة . وفي الأول من القرى ١٦ قرية ، وفي الثاني ١٧ قرية ، عدا عن ١٣ قرية تابعة قضاء دوما ، واثنتين تابعتين قضاء بعلبك وهما : عرسال والطفيل ، وواحدة تابعة حمص وهي : البريج ،

فيكون مجموع قرى هذا الجبل ٤٩ قرية ، ومجموع سكانه سبعون ألف نسمة ، منهم سبعة آلاف نصارى على اختلاف نحلهم ، والبقية مسلمون سنية . والصخور في قلمون الأعلى والأسفل كلسية التركيب ، وتربته بيضاء قليلة الخصب ، إلا فيما يروى منها من العيون والقنوات ، وهي أقل من الحاجة بكثير . وقد تجرد هذا الجبل عن حراجه القديمة ، التي فتكت بها فؤوس الحطابين ، وقطعان الماعز في السنين الخوالي ، حتى لم يبق منها إلا أثر ضئيل ورسم محيل ، في القمم الشامخة والمنحدرات الصعبة ، لذلك صار خالياً من النضرة والبهجة ، فقيراً بأمطاره ـ تتراوح كميتها في السنة بين ٨٠ و ١٣٠ ميليمتراً ـ ضعيفاً بريه ، شديداً ببرده ـ قد تهبط الحرارة في الشتاء إلى – ١٦ تحت الصفر ـ . على أن أوديته أخصب من آكامه وتلعاته ، وهواء قلمون الأعلى أبرد وأجود ، ومياهه أعذب من مياه الأسفل وأنقى ، والصحة ومتانة العضلات وعرض الهامات في رجاله ، يضاف إلى ذلك تورد الوجنتين واسوداد الحدقتين مع سمرة مستملحة في نسائه ، أمور قد اشتهر بها ، وبرزت بعض قراه كقارة ويبرود بوفرتها . وأجل غلات الأعلى في الأرض المسقوية : البطاطا والثوم ، ثم الحبوب والفول الخريفي والعنب ، وفي الأرض العذية الحبوب التي قلما تجود ، لتوالي سني المحل فيه ، وورق السماق المستعمل في دبغ الجلود ، والشنان الذي كان يستعمل كثيراً في استخراج القلي ، المرغوب في صناعة الصابون ، وقد انحطت مكانته الآن . وغلات الأسفل العنب والتين والحبوب ، وهذه أيضاً قلما تجود ، إلا إذا زرعت سقياً . وكل هذه الغلال ليست بذات بركة ، تجعل أهل قلمون في رغد ، يغنيهم عن الهبوط إلى دمشق وغيرها من المدن ، للعمل في البناء ، أو الهجرة إلى أميركا وغيرها . وقد كانت كثرتهم لمضي بضع سنوات ، ترتزق مما يرد من أنسبائهم الراحلين إلى بلاد المهجر ، أو من تربية المواشي التي تصيف في صروده ، وتشتي في سهوله الشرقية ، وكان أصحابها فيما مضى ، قلما يأمنون عليها من غارات أشقياء الصفا وجبل الدروز المجاورين لهم ، من جهة الجنوب على مسيرة يومين ، ثم انقطع مورد المهجر ، بعد أن منعت حكوماته خروج النقد من بلادها ، وقل مورد المواشي لوفرة ما انتابها من الأمراض والبرد وقلة المرعى ، لاسيما النهب الذي اعتراها ، خلال ثورة الشام الكبرى في سني ١٣٤٤ ـ ١٣٤٥ هـ ، فساء حال أهل هذا الجبل كثيراً .

وعمران قلمون متشابة في الجملة ، لكن هيئات أهله ولهجاتهم مختلفة ، يكاد يكون

لكل قرية لهجة وسحنة تتميز بها ، مما يدل على اختلاف أصولهم ، رغم أن أسماء بعض قراهم متشابهة في اللفظ ، كيبرود وجيرود ، ومعرة ومعرونة ، وعسال وعرسال ، وجبة وجب عدين ، وفليطا وتلفيتا . وكل مسلميه عرب ، إلا قليل من التركمان في قلدون ، وجل نصاراه روم كاثوليك ، ويليهم الروم الأرثوذكس ، والسريان الكاثوليك والسريان القدماء . وليس في قلمون كله آثار تاريخية جليلة ، سوىبعض الكنائس والأديرة ، التي منها ماهو خراب ومنها ماهو عامر ، وقد مر الكلام عن بعضها في بحث مهين وحوارين ، وسيأتي عن غيرهافي بحث القرى القادمة ، وثمة خانات قديمة من العهد الإسلامي ، سنأتي على ذكرها أيضاً .

هذا وطريق القوافل القديمة ، بعد أن كانت تمر من عين العلق فقارة فالنبك ، حرفوه في السنين الأخيرة لما عبدوه ، وأخذوه نحو الشرق إلى قرية دير عطية فالنبك . وعين العلق بركة ماء كبيرة ، عليها غيضة من أشجار الحور ، تظهر عن بعد كالواحة في الصحراء . أما قارة ؛ فقرية كبيرة تعلو عن سطح البحر ١٣٦٠ متراً . ذكر في رسالة (اللمعات البرقية في النكت التاريخية) لشمس الدين محمد بن طولون ، المتوفى عام ٩٥٣ هـ ص ٤٣ « قارا إنما أهلها فريقان ، مسلمون ونصارى ، وبها جامع للمسلمين ولها قاض ، وفيها خان مسبل وحمام عتيق ، وآخر جديد بناه نائب السلطنة (تنكيز) ، أنفق في عمارته ثلاثين ألف درهم ، ومن المنسوبين إليها الشرف (سالم الرقي ثم القاري) و (إسماعيل بن أبي القاسم القاري » ا هـ . وقال ياقوت : « قارة قرية كبيرة على قارعة الطريق ، وهي المنزل الأول من حمص ، للقاصد إلى دمشق وله ، كانت آخر حدود حمص ، وما عداها من أعمال دمشق ، وأهلها كلهم نصارى ، وبها عيون جارية يزرعون عليها » . وقال ابن جبير الأندلسي ، الذي مر بقارة في سنة ٥٨٠ هـ : « ونزلنا بقرية كبيرة للنصارى المعاهدين ، تعرف بالقارة ، ليس فيها من المسلمين أحد ، وبها خان كبير كأنه الحصن المشيد ، في وسطه صهريج كبير ، مملوء ماء يتسرب له تحت الأرض ، من عين على البعد ، فهو لا يزال ملآن » ا هـ . وذكر أبو الفضل في تاريخ المماليك الذي دعاه (النهج السديد) حكاية عن قارة خلاصتها : « أن أهل قارة كانوا نصارى ، يسرقون المارين والعابرين من المسلمين ، ويبيعونهم كالأسارى من الفرنج ، في حصن الأكراد وغيره ، ولما مر الملك الظاهر بيبرس بقارة سنة ٦٦٤ هـ ، وهو ذاهب من دمشق إلى

حمص ، لملاقاة جيوشه الراجعة من غزو بلاد الأرمن ، سمع بأعمال أهلها ، فأمر بنهبها وقتل كبارها ، فنهبوا وقتلوا ، وأسكن في أماكنهم جماعة من التركمان وغيرهم ، وجعل كنيستها جامعاً ، وأخذت صبيان المقتولين مماليك، فتربوا بين الترك في الديار المصرية ، فصار منهم أجناد وأمراء » ا هـ . قلت : قارة قديمة العهد ، كان الروم يدعونها كوارا وكارا ، وكان لها على ماقيل كرسي أسقفي منذ القرن الرابع ، وبقيت دهراً طويلاً أحد المراكز لطائفة الروم الملكيين ، وأكثر نصاراها منهم ، ويليهم الروم الأرثوذكس . وعدد أهل قارة الآن ٢٨٠٠ ، أكثرهم من المسلمين ، بينهم نفر من أسرة سويدان الذين تقدم ذكرهم في بحث حسية ، والبقية من النصارى الذين ذكرناهم . وفي قارة بعض الآثار ، في ظاهرها للغرب دير قديم للروم الملكيين ، يعرف بدير (مار يعقوب) ، وفي داخلها جامع قديم ، يظن أنه الكنيسة التي جعلها الملك الظاهر جامعاً ، وفي كنيسة القديس (نيقولاوس) كتابات عربية من القرن التاسع الهجري ، وثمة خانان قديمان ، أحدهما من آثار نور الدين محمود لا يزال عامراً ، وهو الذي نوه به ابن جبير ، والثاني من آثار سنان باشا نصفه خراب .

ودير عطية ؛ قرية كبيرة تبعد عن قارة إلى الشرق الجنوبي نحو عشرة كيلو متر ، يبلغ سكانها (٥٠٠٠) ، أكثرهم مسلمون ، وأقلهم روم أرثوذكس وروم كاثوليك . وهذه القرية أحدثت بعد الحروب الصليبية ، بنتها (صالحة خاتون) ابنة أحد أمراء الأكراد . قال في خطط الشام (٥ / ١١٧) « ومن الوقفيات الغريبة التي اطلعنا عليها ، حجة نقلت حوالي المئة العاشرة ، عن حجة كتبت سنة ثمان وسبعمئة للهجرة ، جاء فيها أن « الست الجليلة صالحة خاتون ، ابنة الأمير الكبير ، صلاح الدين بن بهلوان بن الأمير الكبير شمس الدين الأكري الآمدي ، وقفت وحبست ، وأبدت في صحة منها ، وسلامة وجواز أمرها ، جميع الضياع الخمس المتلاصقات ، المعروفات بوادي الذخائر ، عمل دمشق المحروسة ، وتعرف إحداهن بالبويضا ، والثانية بالبريصا ، والثالثة بالحميرا ، والرابعة بدير عطية ، والخامسة بالحمرا » ، وقد تغيرت معالم هذا الوقف ، ولا يعرف بهذه الأسماء غير دير عطية والحميراء في تلك الجهة ، وانتقلت القريتان إلى أيد أخرى » ا هـ . ولأحد أحفاد هذه الخاتون الصالحة ، ذكر في كتابة نقشت على سقف غرفة قديمة بالية من اللبن ، تاريخها سنة ٨٦٢ هـ ، وليس في دير عطية بناء أثري غير هذه الغرفة فيما علمت . وقال بعض

أهلها ، أنه كان في قربها دير على اسم القديس (ثاودروس) ومعناه عطاء الله ، فعرب اسمه بدير عطية ، وأنه لما أوقفتها صالحة خاتون المشار إليها ، لم تزل تعنى بفلاحتها وتزكية مزارعها ، حتى صارت من أمهات قرى جبل قلمون ، وفيها المياه الطيبة والبساتين الغناء . وفيها الآن ثلاثة مساجد وكنيستان من البناء الحديث ، ومدرسة للعلم الديني الإسلامي ، ودور جميلة في الجملة .

ويسير السائح بعد قارة ، وهو لا يزال يرى على يمينه صرود قلمون ، تشمخ حتى يصل علو بعض قممها ، كحلية قارة إلى ٢٤٥٥ متراً ، وطلعة موسى إلى ٢٦٣٠ متراً ، والنبي باروح إلى ٢٢٠٠ متر ، وهي جرداء في الغالب ، ليس فيها إلا قليل من بقايا أشجار الحراج ، تظهر عن بعد كالنقط المبعثرة ، وفي الشتاء تهب من هذه الصرود ، التي يكسوها الثلج بضعة أشهر في السنة رياح باردة ، تلفح وجوه السائرين في هذه البراري ، والتلاع البيضاء الصلعاء ، والتي ليس في أعذائها سوى الشنان والشوك ، وبعض الأعشاب الغثة . وفعل هذه الرياح القارسة ، أشد ما يكون بين قارة والنبك ، وبها تضرب العامة المثل فتقول « بين قارة والنبكِ ، بنات الملوك تبكي » وقال فيها الشعراء :

إذا هاجت الرمضاء ذكراك بردت حشاي كأني بين قارة والنبك

وطول الطريق بين قارة والنبك ١٥ كيلو متراً ، في غربيه من الضياع : جريجير وفليطا والسحل ، مبعثرة في سفوح الجبال ، ولجريجير فج يؤدي إليها ، وحولها أودية كثيرة : وادي البرد وفي الشمال وادي العوينات ، ومتى دخل السائر أول وادٍ منها ، تتشعب أمامه الجبال ، وتكون بين أضلاعها أودية ، معظمها متوازي ، وأحياناً تكون متعامدة . وبينما يكون السائر في قمة جبل ، إذ يهوي بانحدار ساحق إلى واد ضيق ، فيجابهه جبل مواز للآخر ، وهكذا دواليك ، وأهل هذه القرى ترتزق من تربية الماعز ، ويشرب رعاة الماعز من الثلوج التي يجمعونها ، ويذيبونها بإحراق أصول الأنجم والنباتات الخاصة بتلك الصرود ، كالشيح والتبان وغيرهما ، ويقضي سكان هذه القرى أيام الصيف في هذه الصرود ، وفي الشتاء ينتقلون إلى جبال حسية . وقبل الوصول إلى النبك ، يرى السائر على يمينه لحباً ، يذهب نحو الغرب ، ويخترق الجبال التي ذكرناها طوله ٥٠ كيلو متراً ، يمر بقرى السحل وفليطا ، ومضيق قرنة مريق وخربة يونين ، وقرية عرسال ، إلى أن

يشرف على البقاع البعلبكي ، ويلاقي طريق حمص وبعلبك ، عند قرية الشيخ عثمان .

قال ياقوت عن النبك : « قرية مليحة بذات الذخائر ، بين حمص ودمشق ، فيها عين عجيبة ، باردة في الصيف ، صافية طيبة عذبة ، يقولون مخرجها من يبرود » ا هـ . قلت : والنبك في أول ذات الذخائر ، أو وادي الذخائر الذي ذكره ياقوت ، وذكرته وقفية صالحة خاتون ، قامت هذه البليدة على نشز ، متجه إلى الشمال ، يشرف على بساتينها وكرومها ، التي ذكرها سائحنا (أوليا جلبي) ، وبيوتها المبنية من اللبن ، راكب بعضها على بعض ، ولوقوعها على الطريق المعبدة ، الممتدة من دمشق إلى حمص ، فحماة فحلب ، اتخذت منذ سنة ١٣٠٠ هـ مركزاً لقضاء . يشمل قسماً كبيراً من قرى قلمون الأعلى وضياعه ، وكانت قبلاً من أعمال قضاء دوما . والنبك أحدث عهداً بالعمران من جارتها يبرود ، بنيت على ماقيل بعد خراب قرية الصالحية ، الواقعة بينها وبين يبرود ، وبسبب سيل عظيم ردم قناتها ، فالتجأ أهلها إلى الخان القديم ، الذي كان في موضع النبك ، وعلوها ١٤٣٠ متراً ، وسكانها الآن ٦٠٠٠ ، أكثرهم مسلمون ، وأقلهم من الكاثوليك الروم والسريان . وفيها قناة قديمة آرامية ، تأتي بالمياه العذبة التي ذكرها ياقوت ، وتمر من مقام صحابي أو ولي (؟) يدعى الغفري ، وتسقي بساتينها ، والنبك قليلة الآثار لاتجد لها ذكراً في التاريخ ، وأخص مافيها ثكنة عسكرية ، كانت قبلاً خاناً حسن البناء واسع الفناء ، وبجانبها مسجد يتبعها ، ينسب كالخان إلى سنان باشا ، ويظهر من كلام (أوليا جلبي) أن هذا الخان بني بعد مروره ، وليس في أيام سنان باشا كما يظهر . ولعله من آثار محمد باشا الكوبرلي ، الذي تقدم ذكره في بحث جسر الشغر وإدلب (ص ١١٨ و ١٣٢) ، وفي أعلى تلها دير السيدة للسريان الكاثوليك ، فيه كنيسة واسعة قديمة ، يقصدها زوارهم ومرضاهم . وفي جبلها الشرقي على بعد ثمانية كيلو متر دير قديم ، مبني في الصخور صعب المرتقى ، يعرف بدير (مار موسى) الحبشي ، فيه قلالي وكنيسة قديمة ، فيها على ماقيل صور ونقوش وكتابات . وفي غربي النبك سهل فسيح ، جاء مبشرون دانياركيون حول سنة ١٣٢٥ هـ ، وبنوا فيه مستشفى كامل الأوصاف ، تؤمه المرضى من سائر الجهات . ولهؤلاء المبشرين أيضاً عدة مدارس للبنين والبنات ، في النبك ويبرود ودير عطية والحفر وصدد ، اتخذوا التطبيب والتعليم ذريعة لغايتهم . وفي جنوبي النبك عند مدخلها ، للقادم

إليهـا من دمشق ، أكمـة عـاليـة بنى فـوقهـا الإفرنسيـون عقيب ثـورة الشـام سنـة ١٣٤٥ هـ حصناً ، أحاطوه بالأسلاك الشائكة ، يشرف على سهول النبك ومسالكها .

ومن الأمهات التابعة للنبك، مما يطلق على أمثـالـه في ديـار الغرب بلـدان يبرود ، بينها وبين النبك ثمانية كيلو متر ، إلى الغرب الجنوبي ، يقطعها السائر وسط حقول كثيرة الغلات ، تسقيها المياه الجاريـة ، وكروم طيبـة العنب . ويبرود أكبر وأغنى وأقـدم بلـدان هذا القضاء ، وسكانها ٨٠٠٠ ، ثلثاهم من المسلمين ، وأكثر البقية روم كاثوليـك ، لهم أبرشيـة ومطران ، وعلوها ١٤٢٥ متراً ، واقعة بين جبال متقاطعة ، في بطحاء واسعة ، غزيرة المياة كثيرة المرافق ، ذات منظر جميل ، وبساتين أريضة . وكلمة يبرود آرامية تـدل على البرد ، قال يـاقوت : « يبرود بليـدة بين حمص وبعلبـك ، (كـذا) ، فيهـا عين جـاريـة عجيبـة باردة ، وبها فيا قيل سميت ، وتجري تحت الأرض إلى الموضع المعروف بالنبك » ا هـ .

وقال الشيخ عبد الغني النابلسي في رحلته الشامية في سنة ١١٠٥ هـ .

جئنـــا إلى قريـــة يقـــال لهـــا يبرود ذات الـــزهـــور والـــورد
وبردهـــا زائـــد ولا عجب يبرود مشتقـــــة من البرد

ويبرود من المدن القديمة ، ذكرها الجغرافي (بطليموس) الكلوزي بـاسم Iebrouda ، وعدها من أعمال مقاطعة لائوديسيا التي كانت قصبتها ربلة ، قرب القصير وقد ذكرناهـا . وقـد كانت يبرود في عهـد الرومـانيين مركزاً عسكريـاً ، لصيـانـة الأمن في هـذه الأنحـاء ، ويستدل على ذلك ، بوجود آثار الحصن التي لاتزال ظـاهرة ، في إحـدى الأحيـاء المعروفـة بحـارة القـاعـة . وهواء يبرود نقي ، وتعـد كالنبـك من مراكـز الاصطيـاف والاستشفـاء ، وبيوتها أيضاً مبنية من اللبن ، ولخـاصتهـا عنـايـة بـالعلم والرفـه ، ولعـامتهـا انكبـاب على التجارة والزراعة ، والجمال في نسائها غير يسير . وقد اشتهرت بمحصول البطـاطـا والحنطـة السلمونية البيضاء ، والفول المئخار وبصناعة خيام البـدو . وقـد جلبت إليهـا أخيراً ، ميـاه عين كوشل العذبة ، أخف مياه هذه الكورة ، فزادت الصحة فيها جودة . وفي يبرود عـدة مدارس ابتدائية ، إحداها للروم الكاثوليك ، شادها في سنـة ١٢٦٢ هـ أحـد مطـارنتهم ، ثم استلمها اليسوعيون ، وثمة مدرسة دينيـة إسلاميـة ، أسسهـا كبير أسرة عقيل ، المتقـدمـة في هذه البلـدة في حـدود السنـة المـذكورة ، فكان منهـا لمسلمي قلمون نفع جزيل ، ومـدرسـة

للبنين وأخرى للبنـات للمبشرين الـدانياركيين ، وليس للحكـومـة سـوى مـدرسـة واحـدة ابتدائية ، هي أقل من حاجة يبرود . وفي يبرود عدد من الآثار ، بعضها في داخل البلدة ، وبعضها في خارجها ، فمن ذلـك هيكلـاهـا الرومـاني العظيم ، كان مشيـداً لإكرام الشمس ، ترى فيه الحجارة والأنقاض الضخمة ، التي تشهد بفخامته . لكن هذا الهيكل ، انتقض قسم منه على كر الدهور ، فرمم بالحجارة الساقطة منـه ، ترمياً خـالياً عن الإتقـان . ولا يزال فيه نقوش وكتـابـات لاتينيـة ، تـدل على حـالتـه في عهـد القيـاصرة ، وكان في جوار هـذا الهيكل ، كنيسـة على اسم القـديس (جـاورجيوس) هـدمت ، وألحـق قسم منهـا بـالهيكل القديم بعد ترميه ، واتخذهـا الروم الكاثوليـك لعبـادتهم ، منـذ سنـة ١٢٥٢ هـ ، وهي اليوم أعظم كنـائسهم . وفي يبرود آثـار كنـائس داثرة ، منهـا واحـدة في شرقي البلـدة ، لاتـزال جدرانها وأطلالها ماثلة، وفيها بين تضاعيف مبانيها وجـدران دورهـا ، أسـاطين وتيجـان ، وأعمدة وأفاريز منقوشة ، حطمت واستعمل بعضها في البنـاء ، وفي خـارج يبرود مغـاور ، تحيطها في كل جهاتها . نقرها الأقدمون في الصخور ، وجعلوها مدافن لموتاهم ، منها الصغير ومنها الكبير الواسع ، كان في بعضها آثار وكتابات طمسها الجهال ، منها مغارة تعرف بمـار سابا في غربي البلدة ، واسعة الأطراف ، لها باب كبير بعده حجرة فـارغـة ، ثم بـاب ثـان أكبر من الأول ، وراءه محـل فسيح ، ذو ثـلاثـة أقسـام ، فيـه قـوسي قنطرة وأضرحـة متجاورة ، فوق أحدها صورة الإلهة ، ترتفع إلى الجو ، وهي تشير إلى شاب أمامها

ومن القرى المرتفعـة في نجود قلمـون الأعلى ، التـابعـة لنـاحيـة يبرود ، وإلى الغرب الجنوبي عنها الكبرى على بعد ١٦ كيلو متراً ، والجبة على بعد ١٨ كيلو متراً ، وعسـال الورد على بعد ٢٦ كيلو متراً ، كانت قصبة جبة عسـال التي ذكرهـا يـاقوت ، ومشتهرة بورودهـا التي اندثرت ، وكان يزيد بن معاوية يقصدهـا للصيـد ، علوهـا ١٧٧٠ متراً ، وعـدد أهلهـا ألف مسلمون ، لا يزالون على الفطرة ، وماؤهـا من أخف الميـاه ، وفي جنوبي عسـال الورد على بعد ١٢ كيلو متراً ، قريـة رنكوس ، عـدد سكانهـا ٢٠٠٠ ، وهم على جـانب من الجلفـة الجبلية ، ومن الضياع تلفطايـا وحوش عريب ، والمعمورة والطفيل ، وفي المعمورة ضريح ينسب لأحـد الصحـابـة ، واسمـه سعـد الـدين الأنصـاري ، وفي ضواحي رنكـوس وحـوش عريب ، بنـاء أثري يسمى قصر بلقيس ، في جـانبـه قنـاة مـاء قـديمـة ، لاتزال قسـاطلهـا الفخارية ظاهرة ، كانت تأتي بـالمـاء إليـه ، وفي جنوبي الطفيل قرب عين الجوزة ، خربـة

رومانية مجهولة . ومن يبرود طريق نحو المشارف التي فيها معلولا ، طولها ١٩ كيلو متراً ، لم يتم تعبيدها للسيارات بعد ، على يمينها آكام مرتفعة ، حاملة القطع الكبيرة من الصخور ، وفي معاطف تلك الآكام ، مغاور وكهوف منقورة لتجعل مدافن للموتى ، أو صوامع للنساك . والتربة هنا صالحة لنمو الكروم ، التي في إبانها تزين هذه الصرود الصلعاء ، بنضرتها وجودة أعنابها ، وهي صالحة أيضاً لنمو السماق ، الذي يكثرون من غرسه ، فيتخذونه لدبغ الجلود ، ويأكلون ثمره ، وفي هذه الطريق مما يتبع يبرود (بخعة) ، ضيعة مسلمة ، يتكلم أهلها بالسريانية القديمة ، كأهل جبعدين المسلمين ، ومعلولا النصارى .

طريق النبك ـ قطيفة

(٤٠ كيلو متراً)

بعد أن يغادر السائح النبك ، ويترك على يمينه الطريق المعبدة إلى يبرود وما بعدها ، يسير قبلة في الطريق المعبدة ، المحاذية لسفح جبل معلولا ، وفي شرقيها سهل فسيح ، تربته بيضاء أو صفراء ، وهو والجبل كالسهول والجبال التي تقدمتها ، أجردان لاخضرة فيها ولا نضرة ، وبعد عشرة كيلو متر يترك السائح على يساره ضيعة فوق تل ، تدعى (القسطل) ، وأخرى تختفي وراءها تدعى قلدون ، أهلها تركمان ، محتفظون بلغتهم التركية المحرفة . وخلف الجبل المشرف عليها من الشرق ، سباسب تبدأ من قرية الناصرية ، آخذة نحو القريتين وتدمر ، وما وراءهما من المهامه الفيح . وبعد القسطل يدخل الطريق بطن وادٍ ويجتاز معابر ووهاد ، ويتلفت بين منعطفات ، وهو دائب على الانحدار ، إلى أن يرى على العدوة اليمنى ، الطريق المعبدة ، الصاعدة نحو عين التينة ومعلولا وجبعدين ، ويرى على العدوة اليسرى خانين قديمين مهجورين ، أولها خان العروس ، وثانيهما خان المعزى ، كانا والخانات التي ذكرناها قبلاً وبعداً ، يتخذان في العصور الإسلامية الغابرة ، منازل لخيل البريد ورجاله .

وبعد سير أربعين كليو متراً يهبط (القطيفة) وهي قصبة القضاء الذي يشمل قلمون الأسفل وبعض الأعلى ، علوها ١٠٥٣ متراً ، قال عنها ياقوت : « قرية دون ثنية العقاب ، للقاصد إلى دمشق ، من طرف البرية من ناحية حمص » ا هـ قلت : والقطيفة واقعة في واد منبسط ، بين جبلين متسامتين ، يدعى الشمالي منها أبو دية ، والجنوبي قلع الطاقة ، والشرقي الذاهب في الأفق الغارب نحو البادية أبو قوس ، والقمة الغربية التي تعلو رنكوس العرعورة ، وتربة هذا الوادي كما في قلمون الأعلى صفراء صلعاء ، لكن مياهه موفورة ، وأراضيه المسقوية خصبة ، والعذية وسط أو أقل . وعدد سكان القطيفة ٢٤٠٠ مسلمون ، وماؤها شروب . ولوقوع هذه القرية الكبيرة على طريق قوافل الحجاج والغزاة ، والمسافرين من دمشق شرقاً إلى تدمر ، وشمالاً إلى حلب وما ورائها ، لفتت مكانتها أنظار

الملوك والأمراء المسلمين ، منهم هشام بن عبد الملك بن مروان ، جعل فيها منازل له ، قاله اليعقوبي في (كتاب البلدان) ومنهم السلطان صلاح الدين الأيوبي ، فقد ذكر ابن جبير الأندلسي في رحلته ، حينما مر بالقطيفة التي دعا خانها خان السلطان ، قال : « هو خان بناه صلاح الدين ، صاحب الشام وهو في نهاية الوثاقة والحسن بباب حديد ، على سبيلهم في بناء خانات هذه الطرق كلها ، واحتفالهم في تشييدها ، وفي هذا الخان ماء جار ، يتسرب إلى سقاية في وسط الخان ، كأنها صهريج ، ولها منافس ينصب منها الماء في سقاية صغيرة مستديرة حول الصهريج ، ثم يغوص في سرب في الأرض . والطريق من حمص إلى دمشق قليل العمارة ، إلا في ثلاثة مواضع أو أربعة ، منها هذه الخانات المذكورة » ا هـ . قلت : عنى ابن جبير بالمواضع الأربعة القطيفة والنبك ، وقارة والمشعر ، التي تكلمنا عنها في بحث حسية ، وهذا الخان الذي نسبه للسلطان ، يعرف الآن بالخان العتيق ، وهو في الجنوب الشرقي من القرية ، وعلى وشك الدثور . وفي القرن العاشر ، جاء سنان باشا الوزير العثماني الشهير ، الذي تقدم ذكره وترجمته ، في بحث خانات قلعة المضيق والرستن ، وقارة والنبك ، فوجد القطيفة على وشك الخراب ، لانهدام خاناتها ودثور قناتها التي تشرب منها ، وتروي أرضها ، فرمم هذه القناة ، وبنى الخان المعروف باسمه ، وكان ذلك سبباً لتجدد عمران القطيفة ، وتزايد سكانها . حدثني أحد شيوخ هذه القرية ، أن سنان باشا لما جاء إلى القطيفة ، لم يجد فيها سوى اثني عشر شخصاً ، فرمم القناة ، وسلمهم أرض القطيفة فقسموها بينهم ، حسب مصاريع ماء القناة الاثني عشر ، ثم قسم أعقاب هؤلاء كل مصراع إلى ٤٨ قيراط ، ولا تزال قسمة أراضيهم جارية على هذا المنوال .

والخان الذي ذكره الجلبي ، وبالغ في تعظيمه ، لا يزال عامراً إلا قليلاً ، فجداره الغربي ، وفيه الباب وبقية جدرانه سالمة في الجملة ، وفي زواياها الخارجية ، أبراج مستديرة ، تدعمها في الوسط عضائد . وفي داخل الخان باحة رحبة مبلطة ، في وسطها حوض كبير ، يتدفق ماؤه حتى الآن ، وفي جهاته الأربع اصطبلات واسعة ، أمامها أروقة ، ويحوي أيضاً أماكن لإيواء المسافرين ، ودور ومطابخ قد خربت . وللخان من الخارج باحة ، أحيطت بسور دثر ، قد كانت تحتوي على فرن وحوانيت عديدة ، وجامع وحمام ، فالفرن والحوانيت دثرت منذ ربع قرن . أما الجامع والحمام فما برحا عامرين ، ولا يزال الجامع محتفظاً بقبته الكبيرة ومأذنته الجميلة ، كما احتفظ الحمام بأبوابه السبعة ، وهو في

الجملة جميل ، يستحم فيه الأهلون حتى الآن . أما الحساء والخبز والعلف ، وغيرها من المبرات التي ذكرها الجلبي ، فقد صارت في خبر كان ، منذ أكثر من قرن ، ومنذ عشرون سنة لما كانت القطيفة قصبة الناحية ، شيد أحد المدراء غرفاً أقامها على ظهر الخان ، كما بنت دائرة الأوقاف أخيراً إلى جانبها ، مهجعاً واسعاً لجنود الدرك ، فأصبح الخان الآن ثكنة لهؤلاء الجنود ، لقاء أجرة تتقاضاها الأوقاف .

وفي قضاء القطيفة من قرى قلمون الأعلى (معلولا) ، وهي من أغرب القرى موقعاً تراها بين فجوات ضيقة ، وصخور جعلتها جد حصينة ، فإن كل دار من دورها تلوذ بقطعة من الجبل ، وربما كان البيت كهفاً من الصخر ، بني له واجهة وشيد له درج ، وكذلك طرق القرية ، أسراب ضيقة ومسالك حرجة ، وفي أعطاف الجبل ، مغاور واسعة يلتجئ إليها الأهلون في رد الغارات ، كما فعلوا في ثورة الشام سنة ١٣٤٤ هـ ، وثمة مياه تترقرق ، جارية في المنافذ المنحدرة بين البيوت ، فتسقي البساتين والحواكير ، وعلو معلولا ١٣٠٠ متر ، وهواؤها وماؤها جيدان ، يجعلانها صالحة للاصطياف . أهلها نحو ١٨٠٠ نسمة كاثوليك وروم ، بينهم عدد ضئيل من المسلمين ، ولا يزال أهلها مع أهل بخعة وجبعدين ، الجارتين الإسلاميتين يحتفظون بلغة سريانية محرفة ، لم تنقرض لديهم طول الأعصر الماضية ، لرفعة هذه القرى ومنعتها .

ومعلولا قرية قديمة ، قد ذكرها الجعرافي (بتولماوس الكلوذي) باسم Maglula ؛ وفيها آثار جمة ، أخصها مغاورها المنقورة في الصخر ، بعضها متقن الصنع ، واسع الباحة ، فيه سوار ومراق وكوى وحفائر شبه النواويس ، مما يدل على أنها كانت مدافن للأقدمين ، ولا يخلو البعض من هذه المغاور ، من كتابات يونانية ترجع للقرن الأول أو الثاني للميلاد . وفي أسفل معلولا هيكل روماني قديم ، يدعونه حمام الملكة ، ويزعم السكان أن الوثنيين كانوا يرتكبون فيه الفاحشة ، ولما أنذرهم أحد الصلحاء ولم يرعووا ، دعا فهبط الحمام عليهم ، ولما تنصر أهل معلولا اتخذوه كنيسة . وفوق هذه المعالم ، نصب نقش في الصخر ، أعلاه شبه القوس ، تلوح فيه صورة رجل وامرأة من فوقهما اسماهما باليونانية . وفيها دير عظيم باسم القديسة (تقلا) للروم الأرثوذكس ، أبنيته راكبة بعضها فوق بعض ، يقصده الزوار والنساء العقيمات للحبل ، والمفلوجون وأصحاب أمراض المفاصل

للاستشفاء . وثمة مقام على اسم هذه القديسة ، ومغارة في نصف الجبل ، فيها قبر القديسة المذكورة ، يقطر الماء من أعلاها ، فيستجم فيه الزوار تبركاً . وفي أعلى معلولا دير عظيم آخر للروم الكاثوليك ، باسم القديسين سرجيوس وباخوس ، علوه ١٧٩٢ متراً ، منظره بهيج ، يطل على القرية ، وتكتنفه الصخور والآثار القديمة من مدافن وكهوف وغيرها ، لا يوصل إليه إلا بالجهد .

وإلى الغرب الجنوبي من معلولا ، على مسافة أربعة كليو متر ، تقع قرية جبعدين المسلمة ، التي يتكلم أهلها بالسريانية كما أسلفنا . وهي أيضاً كمعلولا ، ذات فجوات ضيقة ، زادت في منعتها وحصانتها . وإلى الجنوب من معلولا ، على بعد أربعة كيلو متر أيضاً ، قرية عين التينة المسلمة التي تناسى أهلها السريانية ، واقتصروا على العربية ، وفيها قليل من شجر الفستق الجيد ، الذي ينجح في هذه البقعة ، لو توفروا على العناية به .

وفي قضاء القطيفة مما يعد من قلمون الأسفل الشرقي ، قرى عظيمة أهلها مسلمون منها (المعضمية) ، تبعد عن القطيفة أربعة كيلو متر ، عدد أهلها ٢٠٠٠ ، لا يزالون على الفطرة ، اختص بعضهم بخدمة مواقد الحمامات في دمشق ، التي يتوارثونها عن بعضهم ، فيها قني وزروع مسقوية . وفي شرقي هذه على بعد خمسة كيلو متر ، تقع (الرحيبة) وعدد أهلها ٤٠٠٠ ، يشبهون أهل المعضمية ، وفي سفح جبلها قناة قديمة ، يظن أنها تنتهي في تدمر ، لها كواكب في كل خمسة عشر متراً ، وفيها ثلاثة مساجد ، ظهر منها رجل ، عرف بولايته وكراماته ، كان يدعى الشيخ (بكار العريان بن عمران الرحيبي ، ذكره المحبي في (سلك الدرر) توفي سنة ١٠٦٧ هـ . وفي شرقي الرحيبة هذه ، أكمة عالية من أذيال جبل قلع الطاقة ، عليها قبة تحتها ضريح باسم الشيخ أبو سعيد (؟) ، وفي شماليها إلى الشرق على بعد سبعة كيلو متر ، (جيرود) ، عدد أهلها ٢٤٠٠ ، عمرانها جميل ودورها نظيفة ، ومياهها غزيرة ، اشتهرت بعنبها الدربلي ، وهي في أول السهل ، الذي يمتد إلى الشرق الشمالي نحو طريق القريتين وتدمر ، وفي هذا السهل ضياع العطنة والناصرية حيث منتهى العمران . وفي شرقي جيرود على مقربة منها ، بحيرة مالحة يبلغ محيطها اثني عشر كيلو متراً ، تجف في الصيف ، فتنتج ملحاً نقياً فيه قليل من المرار . ومن الأمهات في السفح الجنوبي من قلمون الأسفل قرية كبيرة تدعى (الضمير) ، عدد أهلها ٣٠٠٠ ، تقع في منتهى العمران ، في شمالي طريق السيارات ، الممتدة من دمشق إلى بغداد ، في وسطها

حصن صغير عربي ، ذكر ياقوت (الضمير) ونقل فيها قول عبيد الله بن قيس الرقيات :

أقفرت منهم الفراديس فـــالغـــو طـــة ذات القرى وذات الظـــلال
فضمير فـــالمـــاطرون فحـــورا ن قفـــار بســـابس الأطـــلال

وقال المتنبي :

لئن تركنـــا ضميراً عن ميـــامننـــا ليحـــدثن لمن ودعتهم نـــدم

وعلى مقربة منهـا إلى الشرق ، أطلال قريـة (المـاطرون) التي عـدهـا ابن المنير من متنزهات الغوطة فقال :

فـالمـاطرون فـداريـا فجـارتهـا فـآبـل فمغـاني دير قـانـون

وفي جنوبي الماطرون برج روماني ، مستدير الشكل ، بني بحجارة منحوتـة ضخمـة ، وفي جنوبه على بعد أحد عشر كيلو متراً عن الضمير ، سد روماني عظيم مندثر ، يدعى سد أرنبـة ، كان اتخـذ لحجز ميـاه السيول ، الآتيـة من بحيرة الصيقل وخـان الشامـات ، ومـا حولها من القيعان الشاسعة ، وذلك لإرواء الفضاء الممتد شرقي بحيرة العتيبة .

ومن قرى قلمون الأعلى التابعة لقضاء دوما (صيدنايا) ، بينها وبين معلولا ٢٤ كيلو متراً ، والقطيفة ٢٢ كيلو متراً ، يمر القادم إليها من الأولى ، بقرى صغيرة من قلمون الأسفل كالتواني وعكوبر . ومن الثانية : بجلة وحفير الفوقي وبـدا . وكلهـا وسـط أوديـة واسعـة ، تتحدر تحدراً خفيفاً نحو الجنوب ، تكثر فيها كروم العنب والتين . وصيدنايا قريـة قـديمـة علوهـا ١٣٥٠ متراً ، وأهلهـا ١٥٠٠ أكثرهم من الروم ، والبـاقي من الكاثـوليـك ، وثمـة عـدد ضئيـل من المسلمين ، تمتـد وهي في سفـح الجبـل على نصف دائرة ، وبيـوتهـا يعلـو بعضهـا بعضاً ، وهي كثيرة البيع والأديار ، بعضها لا يزال عامراً ، أشهرهـا دير السيـدة ، وهو دير عظيم لراهبات الروم الأرثوذكس ، وعددهن ٢٥ ـ ٣٠ ، والدير بني على قمـة عـاليـة ، كأنـه الحصن المنيع ، يشرف على سهل متسع ، ذكره ابن فضل الله العمري في جملة ديارات الشام قال : « هو في القرية ، من بناء الروم بالحجر الأبيض أيضاً ، ويعرف بدير السيـدة ، ولـه بستان وبه ماء جار في بركة عملت له ، وعليه أوقاف كثيرة ، وله مغلات واسعة ، وتـأتيـه نـذور وافرة » ا هـ . وهـذا الـدير قـديم من القرن الثـاني الميلادي ، قبل (يوستنيـانوس)

الذي يزعمون أنه بانيه ، ولـه في كل سنـة في يوم عيـد انتقـال السيـدة المصـادف لـ ١٨ آب غربي ، موسم خاص يقصده جماهير الناس ، من كافة أقطار الشام ، للزيارة والنزهة وإيفاء النذور ، وفي صيدنايـا أيضـاً ديران رومـانيـان للروم الكاثوليـك ، ينسب أحـدهمـا (لمـار توما) والثاني (لمار بطرس وبولس) وهمـا من الاثـار الضخمـة . فـالأول في رأس الجبل ، المطل على صيدنايا ، طريقه صعبة المرتقى ، فيهـا كهوف وصهـاريج ، ومـدافن قـديـة ، منها مغارة واسعة شبه بهو عظيم ، ذات أعمدة ومصـاطب ، وكوى منقور كلهـا في الصخر ، والدير ذو حجـارة ضخمـة ، وأعمـدة ورواق ونقوش ، وكان لـه سور خـارجي دثر . ودير (مـار بطرس وبولس) في وسـط القريـة ، بنـاء عظيم مربـع ، يصعـد لسطحـه على درج لولبي داخلـه متسع ، ومحكم الصنع لكنـه يحتـاج للترميم . وفي أعلى صيـدنـايـا دمنـة (مـار شربين) يتناول النظر منها سواد غوطة دمشق ومرجها ، وللمسلمين في صيدنايا جامع بنتـه إدارة الأوقـاف من عهـد قريب، بـأموالهم التي جمعوهـا ، ولكن الجـامع قـد جـاء غير متين الأركان . ومن القرى الكبيرة الإسلامية المجـاورة لصيـدنـايـا حلبون ، علوهـا ١٢٢٠ متراً ، والمعرة وهذه أهلها كاثوليك ، ومنين ١١٥٠ متراً ، والتل ومعربا ، وأهل هذه القرى الثلاث مسلمون ، وجل هـذه القرى ممـا يقصـده المصطـافون من دمشـق ، لقربهـا وجـودة هـوائهـا ومائها . وقد كانت قرى جبل سنير : كمعربا والمعرة ، وتلفيتـا ويبرود ، ومعلولا والتينـة ، وغيرها على ماجاء في تاريخ صيـدنـايـا لحبيب الزيـات « مـألف رواد القصف والطرب ، ومنتجع عشـاق الصهبـاء ، وأكثرهـا كان معروفـاً بطيب الشراب ، وإليهـا كانوا يلجؤون ، كلما أقفلت في وجوههم أبواب حانات الفيحاء» .

وفي هـذه الضيـاع كان لابن عنين[1] مقـامـات ، تقلب فيهـا بين طيـب العيش ولـذة

---

(١) شرف الدين محمد بن نصر بن عنين الزرعي ، الشـاعر المشهور ، وكان شـاعراً مفلقـاً ، وكان يكثر هجو النـاس، عمل قصيدة فيها ٥٠٠ بيت ، سماها (مقراض الأعراض) لم يسلم منهـا أحـد من أهل دمشق ، ونفـاه السلطـان صلاح الدين إلى اليمن ، فمدح صاحبهـا طغتكين بن أيوب ، وحصل لـه منـه أموال كثيرة ، عمل بهـا ابن عنين متجراً ، وقدم به إلى مصر ، وصاحبها حينئـذ العزيز عثان بن السلطـان صلاح الـدين ، فلمـا أخـذت من ابن عنين زكاة مامعه على عادة التجار ، قال في العزيز :

مـــاكل من يتسمى بـــالعـــزيـــز لهـــا ... أهـــل ولا كل برق سحبـــه غـــدقـــه

بين العـــزيـــزين بـــون في فعـــالهما ... هـذاك يعطي وهـذا يـأخـذ الصـدقـة =

الطيش ، ولذلك لم يبرح ذكرجبل سنير من باله ، حيثما اتجه من غربته ، وقد تشوق إليه مراراً في قصائده ، منها قوله من أبيات يمدح بها الملك المعظم :

إذا الجبل الريان لاحت قبابه لعيني ولاحت من سنير هضابه
لثمت الثرى مستشفياً بترابه وهيهات أن يشفي غليلي ترابه

وله من قصيدة أخرى ، يمدح بها الملك العزيز صاحب اليمن سنة ٥٨٧ هـ .

إذا لاح برق من سنير تدفقت سحاب جفوني في الخدود سيول

وقد اشتهرت قرية تلفيتا ، بأنها موطن (قسام الحارثي) من بني الحارث بن كعب ، المتغلب على دمشق في القرن الرابع ، في عهد الفاطميين ، ومن الغريب أنه كان رجلاً قروياً ، يتعاطى مهنة نقل التراب على الحمير ، وظل حاكماً في دمشق ، مستبداً بأمورها سنين عديدة ، إلى أن أرسل الفاطميون إليه الأمير الأفضل ، فغلب قسام ودخل دمشق سنة ٣٧٦ هـ ، وعفى عن قسام وعوضه موضعاً عاش به (خطط الشام ١ / ٢٣٣) .

= ثم سار ابن عنين إلى دمشق ، ولازم الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، وبقي عنده ، وتوفي فيها سنة ٦٣٣ هـ ، وديوانه مشهور .
(أبو الفداء ٤ / ١٩٥) .

طريق القطيفة ـ دمشق

(٤٠ كيلو متراً)

عند خروج السائح من القطيفة ، متجهاً إلى الغرب ، يغادر على يساره طريق السيارات الذاهبة إلى تدمر ، المارة بالمعضمية والرحيبة ، وجيرود والعطنة ، والناصرية وخان الجلاجل ، وخان الأبيض والقريتين ، وقصر الحير وعين البيضاء ، وبعد أن ينتهي من وادي القطيفة المنبسط ، ينحني نحو الجنوب ، ويشرع بالانحدار من (ثنية العقاب) ، المحصورة بين جبلين من فروع قلمون ، يسمى الغربي جبل أبو العتا (١٥١٥ متراً) والشرقي جبل قلع الطاقة ، وطل الثنية نحو ثمانية كيلو متر. ويرى السائر في مبدئها على يمينه قرب الطريق ، أطلال دارسة لخان أو دير قديم ، يسمى (خان فم الثنية) فيه حجر ضخم ، عليه أربع سمات نصفية رومانية ، ومصنعان كبيران احتفرهما أهل الخير لشرب أبناء السبيل في هذه المعابر المعطشة . قال ياقوت : « الثنية في الأصل كل عقبة مسلوكة في الجبل ، سميت بالعقاب ، لأن خالد بن الوليد لما وصل إليها قادماً من العراق إلى دمشق ، وقف عليها ساعة ناشراً رايته ، وهي كانت لرسول الله ﷺ ، كانت تسمى العقاب علماً لها » . وقال شيخ الربوة في كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) في فصل الأعين والمنابع : وثنية العقاب من أرض دمشق ، بأعلى الثنية كهف معبد ، فيه نقرة منقورة بقدر الطاسة الكبرى ، لاتزال ملآنة ماء ، لو أخذ منها ألف رجل درت بما يكفيهم ، وإذا تركت كان ماؤها واقفاً لا يزيد ولا ينقص ، ولا عمق ولا خرق فيها ، سوى أن النقرة مملوءة ماء » اهـ . قلت : وقد سألت شيوخ القطيفة عن هذه النقرة ، فلم يعرفوها ولا سمعوا بها ، إلا أنهم حدثوني عن كهف طبيعي في الجبل ، شرقي خان فم الثنية ، زعموا أنه عظيم واسع الباحة ، يمكن أن يختبئ فيه مئات من الناس ، فيه أعمدة متدلية من سقفه كالشمع ، فقلت لعلها هي مايدعونها في (الجيولوجيا) الستلاكتيت ، والستلاكميت التي تنشأ من رسوب المواد الكلسية ، المترشحة مع قطرات الماء من سقف الكهف . وإذا انتهى السائح من منعطفات الثنية ، يشرف وهو منحدر ، على غوطة دمشق ومرج عذراء ،

وجبل المانع والجبل الأسود ، وبحيرة العتيبة وما في جنوبها ، من البراري الممتدة حتى جبل حوران وأوعار اللجا والصفا . وتعد ثنية العقاب باباً لدمشق ، لأن منها كانت تمر الجيوش الزاحفة من الشمال والخارجة منها ، وقد حدث في العصور الغابرة فيها وفي مرج عذراء عند سفحها ، بين قاصدي الاستيلاء على دمشق والمدافعين عنها وقائع هامة ، يذكر المسلمون منها تلك الوقفة التاريخية لخالد بن الوليد ، التي نوه بها ياقوت ، والوقعة بين أبي الجيش (خمارويه بن أحمد بن طولون) و (محمد بن أبي الساج) في سنة ٢٧٢ هـ ، وكانت الدائرة فيها على ابن أبي الساج ، وفي ذلك يقول البحتري :

أما كان يوم الثنية منظر ومستمع ينبي عن البطشة الكبرى
وعطف أبي الجيش الجواد بكرة مدافعة عن دير مران أو مقرى

ومنها الوقعة التي بين (الأخشيد محمد بن طغج) وبين (سيف الدولة بن حمدان) في سنة ٣٣٥ هـ ، وكان الدائرة فيها على سيف الدولة ، فانهزم وتقطع أصحابه ، وعاف دمشق إلى الأبد . هذا وفي غربي الثنية وراء مرتفعات جبل أبي العتا ، اختبأت بدا وحفير الفوقى ، وحفير التحتى ومعرونة ، وهي قرى قلمون الأسفل ، اشتهرت بتينها الجاف الجيد . وفي سفح الثنية قبة صغيرة ، تدعى قبة العصافير ، وخان كبير على وشك الاندراس ، يدعى خان عياش ، أمامه بئر بني عليه قبة عظيمة ، لوقاية الدواب والرجال المكلفين بإخراج الماء ، وبعدهما يسير السائح نحو الغرب في منبسط ، فيترك على يساره، قرب قرية عذراء ، مفرق طريق السيارات الذاهب إلى بغداد وطوله ٨٥٠ كيلو متراً ، من دمشق . وعذراء أول قرية في مرج راهط ، وقد يسمى باسمها فيقال مرج عذراء ، وهي قديمة فيها أطلال أبنية وأحجار أثرية ، تبعد عن دمشق ٢٣ كيلو متراً ، قال ياقوت : « عذراء قرية بغوطة دمشق ، من إقليم خولان ، معروفة وإليها ينسب مرج عذراء ، وإذا انحدرت من ثنية العقاب ، وأشرفت على الغوطة ، فتأملت على يسارك ، رأيتها أول قرية تلي الجبل ، وبها منارة وبها قتل حجر بن عدي الكندي وبها قبره ، وقيل أنه هو الذي فتحها ، وبالقرب منها راهط ، الذي كانت فيه الوقعة بين الزبيرية والمروانية ، قال الراعي :

وكم من قتيل يوم عذراء لم يكن لصاحبه في أول الدهر قاليا »

وذكر ياقوت قرية ميدعا المجاورة لها . وقال عن مرج راهط : « موضع في الغوطة من دمشق ، في شرقيه بعد مرج عذراء ، إذا كنت في القصير طالباً لثنية العقاب تلقاء حمص ، فهو عن يمينك » . وذكرها كثير قال :

أبوكم تلاقي يوم نقعاء راهط   بني عبد شمس وهي تنفي وتقتل

وقال راع يصف إبلاً له ، تاهت في أوحال سكا ، إحدى قرى المرج :

فلا ردها ربي إلى مرج راهط   ولا برحت تمشي بسكاء في وحل

قلت : وهذا المرج في يومنا ، لا يزال على ما كان عليه منذ قرون ، مهملاً من العناية ، تكثر فيه المرازغ والمناقع ، وتفتك في أهله حمى البرداء ، وأدواء الجهالة ، وهم لا يزالون على الفطرة ، سقام الأجسام غبر الوجوه ، وأكثر ضياع المرج ودساكره ملك لسراة دمشق ، الذين لا يمتازون كثيراً عن سراة مدن الشام الشمالية ، من حيث الاكتراث بفلاحتهم وفلاحيهم .

وبعد عذراء يودع السائح جبال قلمون الجرداء العارية ، عن كل مشهد نضر ، ويشرع بتكحيل ناظريه ، بمرأى الحقول الخضراء ، والجداول والقنوات السارية . فيترك على يمينه في سفح جبل قلمون ، عيون فاسريا التي كانت مورد الجيوش القادمة من دمشق وإليها ، وممن نزل بها نور الدين محمود ، في سنتي ٥٤٦ و ٥٤٨ هـ حينما حاصر دمشق ، واستخلصها من يد مجير الدين (أرتق بن محمد بن بوري بن الأتابك طغتكين) .

ويترك على يمينه أيضاً كواكب عظيمة ، لقناة كبيرة مندثرة ، تذهب إلى الشرق ، لتروي أراضي خربة أثرية بين عذراء والضمير ، تدعى المعيصرة ، لم أعثر على ذكرها في التواريخ التي راجعتها ، على أن قسماً من أطلالها وأحجارها الضخمة لا يزال ماثلاً ، ثم يمر السائح من موضع ذي ماء وأشجار يدعى القصير ، فيه خان كبير قديم ، ذكره ابن جبير في رحلته ، وياقوت في معجمه ، رمم منذ سنتين ، واتخذ مستشفى للمجانين ، وبني في قربه مستشفى آخر للجذامى ، لكن هذا ما برح دون استعمال . وبعد القصير ، يتمتع السائح بمرأى كروم العنب ، ثم غابات الزيتون النامية ، وكلما اقترب نحو الغوطة ، يبتهج بمنظر غياضها ورياضها ، إلى أن يغادر على يمينه قرية دوما ، وهي أكبر وأول قرى

الغوطـة ، عـدد أهلهـا تسعـة آلاف كلهم مسلمون ، اشتهروا بـإتقـان الحرث والغرس ، وقـد اتخذت دوما مركزاً لقضاء ، تتبعه كل قرى المرج ، وبعض قرى قلمون التي تقـدم وصفهـا ، وهكذا إلى أن يصل إلى قرية حرستا التي ذكرهـا الجلبي (ص ٢٥) وقـال عنهـا يـاقوت : « حرستا قريـة كبيرة عـامرة ، في وسـط بسـاتين دمشق ، على طريق حمص ، بينهـا وبين دمشـق أكثر من فرسـخ ، ينسب إليهـا كثير من الفضـلاء » ا هـ . قلت : أخصهم الإمـام محمد بن الحسن صـاحب أبي حنيفـة . وفي قربهـا قريـة مثلهـا تـدعى القـابون ، وأخرى في شماليها تدعى برزة ، ذكرهما ياقوت ، قـال عن القـابون : « موضع بينـه وبين دمشق ميل واحد ، في طريق القاصد إلى العراق في وسـط البسـاتين » . وقـال عن برزة : « قريـة من غوطة دمشق ، ينسب إليها جماعة من الفضلاء ، وإياها عنى ابن منير بقوله :

سقـاهـا وروى من النيربين ... إلى الغيضتين وحمـوريـة

إلى بيت لهيـا إلى برزة ... دلاح مكفكـة الأوعيـة

وحمورية قرية في الغوطة ، تقع بين سقبا وبيت ساوا . أمـا بيت لهيـا فقريـة زالت معالمها ، كانت شمالي حرستـا . هـذا وكانت الملوك والقواد القـادمون بجيوشهم أو ركائبهم ، يتخـذون هـذه القرى القريبـة منزلاً أو مخيماً قبل دخـولهم دمشـق ، ومنهم السلطـان سليم العثماني ، الذي نزل في المصطبـة السلطـانيـة بين برزة والقـابون ، في مستهل رمضـان سنـة ٩٢٢ هـ . والوزير مرتضى بـاشـا ، الـذي وصف (أوليـا جلبي) كيفيـة دخولـه واستقبـال أعيان دمشق له ، (في الصفحة ٢٥ وما بعدها) .

« هنا رأيت أن يقف القلم عن جريـه في هـذا المضمار ، وأن يلقي عنـد أبواب دمشق عصا التسيار ، حتى إذا لقت أبحاثي هذه ، من أبناء بلادنا ارتيـاحـاً وتنشيطـاً ، عززتها في جزء ثان وثالث بما فاتني ذكره ووصفه ، في شمالي الشام وجنوبيه ، وساحله وداخلـه ، من المسالك والممالك ، والآثار على المنهاج نفسـه ، وقـد رأيت أيضـاً من وفـاء الـذمم ، أن أختم مقالي بـالثنـاء على ذوي الفضل والعرفـان ، الـذين آزروني في طبع هـذا الكتـاب ، أخص بالـذكر منهم معـالي لطفي بـك الحفـار ، الـذي بعث همتي على العمل ، وأخـذ بيـدي حتى تحقق الأمل ، فـاستحق مني الحمـد الجـزيـل ، ودعـاء أن يعـز بـه الـوطنيـة الحقـة والمروءة الخالصة » .

المســـــارد

١ ـ الآيات القرآنية

الصفحة

٢ ـ مسرد الشعر

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

٣ ـ مسرد الأعلام

« ب »

« ش »

« ص »

« غ »

« ف »

« ق »

٤ ـ مسرد الأماكن

« ث »

« ج »

« ح »

« ص »

« غ »

« ف »

٥ ـ مسرد الصور

الصفحة

٦ ـ مسرد المراجع

ـ أحسن التقاسيم للمقدسي
ـ أخبار البلدان لأسامة بن منقذ
ـ الاعتبار لأسامة بن منقذ
ـ الأنساب لأبي الفداء
ـ أنطاكية للكولونيل جاكو
ـ الباشات والقضاة محمد بن جمعة المقار
ـ البديع في علوم الشعر
ـ البلدان لليعقوبي
ـ تاريخ ابن الوردي
ـ تاريخ أبي الفداء لابن الوردي
ـ التاريخ البدري لأسامة بن منقذ
ـ تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان
ـ تاريخ حلب لكامل الغزي
ـ تاريخ حماة للصابوني الحموي ط ١٣٣٢ هـ
ـ تاريخ حمص لابن عيسى
ـ تاريخ حمص للقاضي عبد الصمد
ـ تاريخ حمص مقال للخوري عيسى أسعد
ـ تاريخ حيدر الشهابي
ـ تاريخ دمشق لابن القلانسي
ـ تاريخ سورية لجرجي يني
ـ تاريخ صيدنايا لحبيب الزيات
ـ التاريخ العثماني المصور لأحمد راسم
ـ تاريخ العصور الوسطى لماله وإيساق الفرنسيين
ـ تاريخ العلويين لمحمد أمين الطويل
ـ تتمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي
ـ تحفة العجائب لابن الأثير
ـ تحقيق في بلاد الشرق لموريس باريس
ـ التذكرة لداود الأنطاكي
ـ التعريف لابن فضل الله العمري
ـ تقويم البلدان لأبي الفداء
ـ التقويم السنوي لولاية الشام ١٣٠٥ هـ
ـ جريدة اقدام ١٣١٤ هـ
ـ جهان نما لكاتب جلبي
ـ خطط الشام للكرد علي
ـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي
ـ دائرة المعارف للبستاني
ـ الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب لابن الشحنة
ـ الدليل الأزرق لمورنمارشة
ـ ذيل على خريدة القصر للباخرزي ـ أسامة بن منقذ
ـ رحلة أوليا جلبي

- رحلة في الشام للأثري فان برشم
- رسائل سائر لسليمان المصري
- الروضتين لطاش كبري زادة
- الزيارات للهروي
- سلك الدرر للمرادي
- الشام في عهد المماليك لكودفروا دوبومبين
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب
- شرح ألفية ابن مالك لابن الوردي
- الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية لطاش كبري زادة
- صبح الأعشى للقلقشندي
- عجائب المخلوقات للقزويني
- العصار وأزهار الأنهار لأسامة بن منقذ
- فتوح البلدان للبلاذري
- قاموس الأعلام لشمس الدين سامي
- القلاع والحصون لأسامة بن منقذ
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لكاتب جلبي
- اللمعات البرقية في النكت التاريخية لمحمد بن طولون
- مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق
- مختصر سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي تأليف أسامة بن منقذ
- مسالك الأبصار
- المسالك والممالك لابن حوقل
- المشترك لياقوت الحموي
- مصحف سيدنا عثمان بن عفان
- معجم البلدان لياقوت
- المعلمة الإسلامية لسوبرنهايم
- المقبول لعمر العتكي
- موضوعات العلوم تأليف طاش كبري زادة
- نتائج الوقوعات
- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشيخ الربوة
- نزهة المشتاق للإدريسي
- نقش خيال - ديوان شعر تركي لشمس الدين سامي
- نهاية الأرب في أخبار العرب للقلقشندي
- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي
- النهج السديد في تاريخ المماليك لأبي الفضل
- نهر الذهب في تاريخ حلب لكامل الغزي

٧ ـ مســـرد الموضوعات

الصفحة

الصفحة

في الكتاب وصف طبغرافي تاريخي أثري عمراني للبقاع والبلدان الممتدة من شمالي اسكندرونة إلى أبواب دمشق .

ولهذا فهو يتناول بالوصف المدن والقرى والجبال والسهول والأنهار والبحيرات والعيون والمالح . مثلما يتناول الحصون والقلاع والثكنات والخانات القديمة والآثار الحثّية والرومانية والإسلامية وغيرها . وكلما دعت الحاجة إلى لمحة تاريخية قدمها .

وكذلك يُعنى الكتاب بالحديث عن الجوامع والأديرة والقصور والأضرحة والطرق والجسور ، مع نُبَذٍ من تقاليد السكان من عرب وأعراب وكرد وشركس وتركمان وغير ذلك .

وما نظن مثقفاً يستغني عن معرفة وطنه وبيئته ماضياً وحاضراً ، وذلك هو الفراغ الذى يسدّه هذا الكتاب في ثقافتنا .